

تأليف

محمد طاهر الكردي المكي

الجزء الثالث

طبع على نفقة

معالي الدكتور عبد الملك بن دهيش

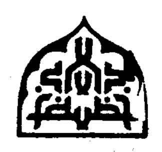


الطبعة الأولى

١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م

ويطلب من مكتبة النهضة الحديثة
مكة المكرمة هاتف ٥٧٤٤٥٩٥





للطباعة والنشر والتوزيع
ص ب. : ١٣/٦١٤١
بيروت ، لبنان


التاريخ القويم
لمكة وبيت الله الكريم

عمارات حجر إسماعيل

كان حجر إسماعيل عليه الصلاة والسلام مفروشاً بالرمل والبطحاء كأرض المطاف، ثم فرش بحجارة بادية، فلما حج أمير المؤمنين أبو جعفر المنصور سنة (١٤٠) أربعين ومائة دعا زياد بن عبيد الله الحارثي، وكان يومئذ أمير مكة فقال له: إني رأيت الحجر حجارته بادية فلا أصبحن حتى يستر جدار الحجر بالرخام، فدعا زياد بالعمال فعملوه على السرج قبل أن يصبح، ثم جدد رخامه المهدي. وإليك جدولاً بالعمارات التي وقعت في الحجر، عملناه بغاية الاختصار نقلاً عن تاريخ الغازي وغيره خوفاً من التطويل:

عدد	اسم المعمر	السنة الهجرية	الملاحظات
١	أبو جعفر المنصور	١٤٠	قالوا وهو أول من رخم الحجر
٢	المهدي العباسي	١٦١	ولم يزل الرخام الذي عمله المهدي باقياً إلى أيام المتوكل
٣	المتوكل العباسي	٢٤١	قلع رخام المهدي لتلفه وأبدله رخاماً حسناً
٤	المعتضد العباسي	٢٨٣	ألبس الحجر كله بالرخام
٥	الوزير جمال الدين الجواد	٥٥٠	تقريباً عمره مرتين
٦	الناصر العباسي	٥٧٦	فرشه بالرخام
٧	المستنصر العباسي	٦٢٩	وقد أجرى أيضاً إصلاحاً في الكعبة المشرفة
٨	الملك المظفر صاحب اليمن	٦٥٥	لما حج في هذه السنة عمل أيضاً للكعبة باباً وقفلاً
٩	الملك الناصر ابن قلاوون	٧٢٠	وهو محمد بن قلاوون
١٠	الملك الأشرف علي بن شعبان	٧٨١	وذلك بأمر الأميرين بركة وبرقوق مدبري دولته

عدد	اسم المعمر	السنة الهجرية	الملاحظات
١١	الملك الظاهر برقوق	٨٠١	قال ابن فهد : وفي السنة المذكورة عمر الأمير بيق رخام الحجر والله أعلم
١٢	القائد علاء الدين	٨٢٢	عمر كثيراً من رخام الحجر بالجس
١٣	الأمير زين الدين	٨٢٦	الشهير بمقبل القديدي فإنه أصلح كثيراً من رخام أرض الحجر وجداره
١٤	سودون المحمدي	٨٣٨	رمم الحجر وقلع جميع رخام الشاذروان وأبدله بغيره
١٥	السلطان جقمق	٨٤٣	وقد أرسل لجدار الحجر كسوتين إحداهما لداخله والثانية لخارجه فوضعتا عليه
١٦	الأمير تنم	٨٤٨	قلع جميع رخام الحجر خلا الرخامة الخضراء، ثم فرشه وأصلحه في شهرين
١٧	السلطان قايتباي	٨٨١	غيروا رخام الحجر داخلاً وخارجاً وعملوا الرصاص بالمطاف حول الكعبة
١٨	السلطان قانصوه الغوري	٩١٦	عمره عمارة حسنة محكمة وكتب على علو الحجر أسماء من عمره
١٩	السلطان سليمان خان	٩٤٠	
٢٠	السلطان مراد الرابع	١٠٤٠	وهو الذي بنى الكعبة المشرفة حينما هدمها السيل
٢١	السلطان محمد الرابع	١٠٧٣	
٢٢	السلطان عبدالمجيد خان	١٢٦٠	
٢٣	السلطان عبدالعزيز خان	١٢٨٣	وهو صاحب الكسوة الداخلية التي أرسلها للكعبة الموجودة بداخلها إلى اليوم
٢٤	الشريف الحسين بن	١٣٣١	عمره وأحكم بنيانه بعد أن كاد أن

عدد	اسم المعمر	السنة الهجرية	الملاحظات
	علي		ينهدم ، والشريف الحسين بن علي هو ملك الحجاز الأسبق

وهنا يستحسن أن نأتي بشيء من بيان العمارة الواقعة في حجر إسماعيل في زمن السلطان عبد المجيد خان وما بعده ، لأن ذلك قريب عهد بعصرنا .

فقد قال الغازي في تاريخه : وفي تحصيل المرام : وممن عمره السلطان عبد المجيد خان سنة (١٢٦٠) ألف ومائتين وستين أو التي بعدها أو التي قبلها ، وحضر عند بنائه أمير مكة مولانا الشريف محمد بن عبد المعين بن عون وباشر بعض عمل من البناء الشريف ، وكذلك عثمان باشا والي جدة والمفتيون والعلماء ، ورده على ما كان إلى أن أتموه .

قال : وأخبرنا شيخنا العلامة « حسين » أنه رأى في أرض الحجر عند هذه العمارة أحجاراً كباراً بعضها مشتبك ببعض ، بينها وبين جدار البيت نحواً من ستة أذرع ، وفي هذه العمارة وجد جدراً قصيراً ردم من حجارة البادية داخل البناء الذي هو الرخام دائر ما يدور الحجر ، يدل على إنه هذا التحويط من زمن قريش . ثم جاءت الملوك وحوطت عليه بهذا الرخام الموجود ، وطول الأحجار الدائرة التي هي من أحجار البادية ، قدر نصف ذراع ردم على بعضه. كذا أخبرني السيد عمر بن عقيل وأنه شاهد ذلك ، أخبرني بحضرة شيخنا الشيخ حسين ، بعد صلاة الظهر ، بمدرسته التي بجانب باب القطبي في آخر شعبان سنة ثلاثة وثمانين بعد المائتين والألف . وفي هذا التاريخ حصل تجديد نصف أرض الحجر من جهة مقام الحنفي وكان ابتداء العمل يوم الأحد لتسعة وعشرين خلت من شعبان وذلك في دولة مولانا الشريف عبدا لله بن محمد بن عون وسلطنة السلطان عبدالعزيز خان . انتهى .

وفي سنة ألف وثلاثمائة وواحد وثلاثين تحكمت جدار إسماعيل عليه السلام ، بعد ما كان آوياً إلى الانهدام وزمزم رخام أرضه وطرز ما هو منقوش على قبة بئر زمزم من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية والطرة وما على باب المنبر من الآيات الفرقانية والتاريخ بماء النهب وجدد صباغ المقام المالكي والحنبلي بألوان لطيفة

وجرى تعمير الطباطب في الحرم الشريف من جميع المهمات ذكره في جريدة الحجاز . انتهى من تاريخ الغازي .

الرخامة الخضراء التي بالحجر

اعلم أن الرخامة الخضراء التي تحت ميزاب الكعبة بحجر إسماعيل لا يوجد مثلها لا في المسجدين الحرامين ولا في قطر من الأقطار ، ولا مبالغة في قولنا هذا ، ولونها لا يضرب إلى الخضرة الخالصة وإنما هو أخضر داكن أي خضرة مائلة إلى السواد قليلاً ، منقوشة بنقط خضراء خالصة اكسبتها منظراً جميلاً ، كل ذلك من أصل الخلقة ، لا دخل للصناعة فيها بشيء .

وتوجد بجانبي الرخامة الخضراء المذكورة الشرقي والغربي قطعتان من جنس هذه الرخامة ولونها ، كل منهما على هيئة الدائرة ، قطر كل منهما ٢٥ سنتيمتراً ، وكل واحدة منهما تبعد عن الرخامة التي تحت الميزاب مقدار مترين تماماً ، والدائرة الغربية متصدعة إلى ثلاث قطع والدائرة الشرقية متصدعة إلى قطعتين .

يقول ابن جبير الأندلسي في رحلته التي كانت سنة (٥٧٨) هجرية عن هذه الرخامة ما يأتي : وتحت الميزاب في صحن الحجر بمقربة من جدار البيت الكريم قبر إسماعيل عليه السلام ، وعلامته رخامة خضراء مستطيلة قليلاً شكل محراب تتصل بها رخامة خضراء مستديرة وكلتاهما غريبة المنظر فيهما نكت تنفتح عن لونها إلى الصفرة قليلاً كأنها تجزيع وهي أشبه الأشياء بالنكت في البيدق من حل الذهب .. إلى آخر كلامه . اهـ منها .

ولقد يظن كثير من الناس أن الرخامة الخضراء التي هي تحت ميزاب الكعبة بالحجر ما وضعت هناك إلا لتكون علامة على قبر إسماعيل عليه السلام ، فهذا الظن ليس في محله فالرخامة لم توضع لهذا القصد ، وإن كان قبر إسماعيل في الحجر ، وإنما وضعت لسبب ستعرفه مما يأتي :

وهذا الحجر ليس بحجر واحد وإنما هو رخامتان من جنس واحد ملتصقان ببعضهما (فالقطعة الأولى) بيضاوية الشكل رأسها الأولى مما يلي الكعبة ، ورأسها الأخرى مقطوعة ، قطرها الصغير ٤٥ سنتيمتراً ، وقطرها الكبير ٦٤ سنتيمتراً ، وهي منفلقة إلى فلقتين ، (والقطعة الثانية) على شكل نصف دائرة قطرها ٧٩

سنتيمتراً منفلقة إلى أربع قطع، وفيها بعض انخفاض، ويحق لها أن تنخفض وتتصدع فلقد مضى عليها أكثر من ألف ومائة سنة والناس يصلون فوقها.

(وحقيقة أمر الرخامتين) أن عبدا لله بن عبيد ا لله بن عباس بن محمد الهاشمي أمر أن يقلع له لوح من رخام الحجر يسجد عليه «أي يصلي فوقه» فقلع له في الموسم، فأرسل أحمد بن طريف مولى العباس بن محمد الهاشمي مكان ذلك اللوح برخامتين خضراوين من مصر هدية لحجر إسماعيل، وذلك سنة إحدى وأربعين ومائتين، فجعلت الرخامة البيضاوية الشكل على سطح جدار الحجر مقابل الميزاب أي في وسط جدار الحجر، وجعلت الثانية تحت الميزاب تلي جدار الكعبة ثم في سنة ثلاث وثمانين ومائتين نقلت الرخامة البيضاوية من جدار الحجر وجعلت مع الرخامة الثانية تحت الميزاب كما ذكره الأزرقي في تاريخه.

والسبب الفني في اختيار هذه الرخامة بالذات لوضعها في الحجر هو أن الإنسان ميال بطبيعته الغريزية إلى اقتناء الأحجار الكريمة والجواهر الثمينة: كالألماس واللؤلؤ والمرجان والعقيق والياقوت والزبرجد وغيرها وعلى الأخص الملوك والأمراء.

وكان من عادة هؤلاء في الزمن السابق أن من يمتلك منهم شيئاً نفيساً نادر الوجود والمثال بعثه هدية إلى أشرف بقعة ومكان كالكعبة المعظمة، وحجر إسماعيل والمسجد الحرام والمسجد النبوي والمسجد الأقصى، فكان من جملة الهدايا هاتان الرخامتان النادرتان الجميلتان بعثهما أحمد بن طريف من مصر لتوضع إحداهما تحت ميزاب الكعبة داخل حجر إسماعيل، وتوضع الثانية فوق جداره، ثم نقلت هذه فوضعت مع الأولى تحت الميزاب، وهما كذلك إلى الآن بحيث يظن الرائي أنهما قطعة واحدة.

وعلة وضعهما تحت الميزاب علاوة على قلع اللوح الذي كان تحتهما والذي كان حاملاً على بعثهما: هي أن ذلك الموضع أفضل مكان في الحجر، فإنه يروى عن أبي هريرة وسعيد بن جبير وزين العابدين أنهم كانوا يلتزمون ما تحت الميزاب من الكعبة.

وروى الأزرقي عن عطاء بن أبي رباح قال: «من قام تحت مشعب الكعبة فدعا، استجيب له وخرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه» والمشعب مجرى الماء ومسيله، أي تحت ميزاب الكعبة.

وعن ابن عباس قال : « صلوا في مصلى الأخيار ، واشربوا من شراب الأبرار ، قيل له : ما مصلى الأخيار؟ قال : تحت الميزاب ، قيل : وما شراب الأبرار؟ قال : ماء زمزم » .

ويروى عن النبي ﷺ أنه قال : « ما من أحد يدعو تحت الميزاب إلا استجيب له » .

وروى الأزرقي أن النبي ﷺ كان إذا حاذى ميزاب الكعبة وهو في الطواف يقول : « اللهم إني أسألك الراحة عند الموت والعفو عند الحساب » .

فهذه الرخامة الخضراء التي تحت الميزاب تكون من أفخم الآثار العربية وأغلاها وأندرها وأبركها ، فلولا أنها من القدر والقيمة بمكان ما وضعها ولاة الأمر الأقدمون الذين هم في القرون الثلاثة الأولى في أشرف بقعة عند الكعبة المعظمة ، فكانوا أعرف منا بنفائس الأشياء وجواهرها واختيار الأمكنة لحفظها وصيانتها ، وكانت أعمالهم الجليلة في غاية الجودة والإتقان تمر عليها مئات السنين والأعوام ، وهي على حالها ما أصابها تلف ولا خراب ولا تتزحزح عن مكانها فيكون قد مرّ على الرخامة الخضراء إلى عامنا هذا عام ١٣٧٦ للهجرة (١١٣٥) سنة والله تعالى أعلم .

ونحن لم نقم بالكشف عما يوجد بالحجر والمطاف من الرخام النادر الوجود ، فلو قمنا وبحثنا لعثرنا على أشياء ثمينة جداً مما يدلنا على عناية الملوك والسلاطين الأقدمين بهذا المكان المقدس ، والبقعة الطاهرة المباركة ، وما ذكرنا تلك الرخامات الخضر إلا للمناسبة .

وقبل أن نختم هذا الفصل نشير إلى قيمة الرخامات الخضر عند ذوي الخبرة من رجال الآثار القديمة ، فإننا لا نبالغ إن قلنا أن قيمة بعضها قد تبلغ نحواً من ألف جنيه مصري بل أكثر .

ولا نعتقد أن أحداً ممن كان قبلنا ولا ممن هو في عصرنا التفت إلى هذه الرخامة الخضراء ولا توصل إلى ملاحظاتنا فيها ، هذه الملاحظات الدقيقة الفنية فالحمد لله على التوفيق .

هذا ولم نر بمصر رخامة تشبه الرخامة الخضراء التي بحجر إسماعيل بمكة ، مع أن مصر غنية بالزخارف والفنون الجميلة ، إلا على رخامة صغيرة على شكل دائرة

قطرها نحو خمس وعشرين سنتيمتراً وذلك في دار الآثار المصرية « الانتيكخانة » بقصر النيل بميدان إسماعيل باشا ، وكانت هذه الرخامة موضوعة في إطار خشبي معلقة بجدار الرواق (٣٩) الخاص بالعصر اليوناني الروماني ، على رخامة الحجر بمكة أجمل بكثير من هذه الرخامة الصغيرة ، مع العلم بأن هذه محفوظة في غرفة خاصة بالدار ، وتلك التي عندنا معرضة للشمس والهواء والسيول والأمطار وصلاة الناس فوقها منذ أكثر من ألف عام .

وبالسؤال من مدير الانتيكخانة عن أصل هذه الرخامة التي يحتفظونها بالدار ، قال لنا « إنها نوع من الرخام الأخضر الثمين وهو من إيطاليا من العصر الروماني ولا يوجد بالدار غيرها ولولا قيمتها التاريخية لم تبقه الدار من ضمن محتوياتها القيمة » .

وكان ذلك حينما كنا بمصر سنة (١٣٦٩) هجرية .

نقش أرضية حجر إسماعيل

اعلم أن أرضية حجر إسماعيل عليه السلام مفروشة بالرخام المرمر الأصلي الجميل ، ومنقوشة بألوان الحجارة الظريفة المرمرية نقشاً فنياً بديعاً بصورة هندسية دقيقة وقياسات محررة ، على طراز المساجد العظيمة بمصر وغيرها ، فإن من عادة المصريين أنهم يزخرفون مساجدهم الشهيرة بالرخام الملون لعدم تغير لونه مهما تقادم عهده ، وهذا الرخام الملون النقي كالأسود والأحمر والوردي والأخضر والأزرق والأصفر ، قليل الوجود وغالب ما يوجد منه يكون صغير الحجم ، أما الرخام الأبيض فيوجد منه شيء كثير بمختلف القياسات .

ولقد كان حجر إسماعيل عليه السلام ، منقوشاً بالرخام الجميل من قديم الزمان ، فلقد وصف العلامة ابن جبير رحمه الله تعالى نقش حجر إسماعيل في رحلته التي كانت سنة (٥٧٨) هجرية سنة ثمان وسبعين وخمسمائة كما يأتي : ودائر جدار الحجر رخام كله مجزع بديع الألصاق ، فيه قضبان صفر مذهبة وصنع منها في صفحه أشكال شطرنجية متداخلة بعضها على بعض وصفات محاريب ، فإذا ضربت الشمس فيها لاح لها بصيص ولألاء يخيل للناظر إليها أنها ذهب يرتمي

بالأبصار في شعاعه، وارتفاع جدار هذا الحجر الرخام خمسة أشبار ونصف وسعته أربعة أشبار ونصف.

قال: وداخل الحجر بلاط واسع ينعطف عليه الحجر كأنه ثلثا دائرة، وهو مفروش بالرخام المجزع المقطع في دور الكعب إلى دور الدينار إلى ما فوق ذلك، ثم ألصق بانتظام بديع وتأليف معجز الصنعة، غريب الإتقان، رائق الترصيع والتجزيع، رائع التركيب والوصف، يبصر الناظر فيه من التعاريج والتقاطيع، والخواتم والأشكال الشطرنجية وسواها على اختلاف أنواعها وصفاتها ما يقيد بصره حسناً، فكأنه تجلية في أزهار مفروشة مختلفات الألوان، إلى محاريب قد انعطفت عليها الرخام انعطاف القسي، وداخلها هذه الأشكال الموصوفة والصنائع المذكورة.

قال: وبإزائها رخامتان متصلتان بجدار الحجر المقابل للميزاب، أحدث الصانع فيهما من التوريق الرقيق والتشجير والتقضيب ما لا يحدثه الصنع باليدين في الكاغد قطعاً بالجلمين «وهو شيء يشبه المقص» فمرآهما عجيب، أمر بصنعته على هذه الصفة أمام المشرق أبو العباس أحمد الناصر بن المستضيء بالله أبي محمد الحسن بن المستنجد بالله أبي المظفر يوسف العباسي، رحمه الله تعالى، ويقابل الميزاب في وسط الحجر وفي نصف جداره الرخامي رخامة قد نقشت أبدع نقش وحفت بها طرة منقوشة نقشاً مكحلاً عجيباً، فيه مكتوب مما أمر بعمله عبد الله وخليفته أبو العباس أحمد الناصر لدين الله أمير المؤمنين وذلك في سنة (٥٧٦) ست وسبعين وخمسمائة.

قال: والميزاب في أعلا الصفح الذي على الحجر المذكور وهو من صفر مذهب قد خرج إلى الحجر بمقدار أربعة أذرع وسعته مقدار شبر، وهذا الموضوع تحت الميزاب هو أيضاً مظنة استجابة الدعوة بفضل الله تعالى، وكذلك الركن اليماني ويسمى المستجار ما يليه، وهذا الصفح المتصل به من جهة الركن الشامي، وتحت الميزاب في صحن الحجر بمقربة من جدار البيت الكريم قبر إسماعيل عليه السلام، وعلامته رخامة خضراء مستطيلة قليلاً شكل محراب تتصل بها رخامة خضراء مستديرة وكلتاهما غريبة المنظر فيهما نكت تنفتح عن لونها إلى الصفرة قليلاً كأنها تجزيع، وهي أشبه الأشياء بالنكت تبقى في البيدق من حل الذهب فيه، وإلى جانبه مما يلي الركن العراقي قبر أمه هاجر، رضي الله عنهما،

وعلامته رخامة خضراء سعتها مقدار شبر ونصف يتبرك النـاس بـالصلاة في هذيـن الموضعين من الحجر ، وحق لهم ذلـك لأنهمـا مـن البيـت العتيـق ، انتهـى مـن ابـن جبير .

هذا ما وصف به ابن جبير أرضية حجر إسماعيل ونقشها ، وأمـا كلامـه عـن قبر إسماعيل عليـه الصـلاة والسـلام ، وأمـه هـاجر فقـد حققنـا عـن مكـان دفنهمـا بالحجر في الصحائف المتقدمة .

أما نفس الجدار الدائر بالحجر ، فإن في وسط الجدار مـن الداخـل ممـا يواجـه الكعبة صورة قبة بيت المقدس منقوشـة على رخامـة ، وذلـك إشـارة إلى أن بيـت المقدس واقع في هذه الجهة ، وبقية الرخامات التي بالجدار فمنقوشة نقشاً خفيفاً .

الكتابة التي في أعلى جدار الحجر

ننقل ما كتب على رخام جدار حجـر إسمـاعيل عليـه الصـلاة والسـلام ، مـن الأعلى من تاريخ الغازي ، رحمه الله تعالى ، فقد قال : وكتب في علـوه في الرخـام الأبيض اسـم مـن عمـل مـن الملـوك وتـاريخ عمـارتهم وعمارتـه الأخـيرة وصـورة العمارة الأخيرة كما يأتي :

« بعد البسملة ﴿وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل﴾ (الآيـة) هـذا الحجر الشريف والحرم المنيف لما ظهر به الخلل واحتاج إلى الإصـلاح والعمـل أمـر بإنشائه وتجديده وإحكامه وتشييده المفتقـر إلى رحمـة ربـه المتضـرع إليـه في توفيقـه ومغفرته ذنبه من يـرى في الله بحسـن الاعتقـاد فملـك الممـاليك وأنفـذ حكمـه في قاصي البلاد من ذلك إليـه وعليـه وتعطـف وعـاد بإحسـانه لديـه وتلطـف وألهمـه لعمارة هذا الحجر المشرف فهو السلطان الملك الأشرف أبو النصر قانصوه الغـوري رزقه الله في الدارين السعد الـدوري ونصـره وأيـده وأسـعده قـاصداً بـه وجـه الله تعالى ونوى به خيراً وله سمواً برحمته يوم إحسانه بحق محمد وآله وأصحابـه وذلـك بتاريخ شوال أحد شهور سنة سبعة عشر وتسعمائة من الهجرة النبويـة وذلـك بعـد ترخيمه برسم المنصور في سنة أربعين ومائـة وجـدده بعـده الملـك المظفـر صـاحب اليمن وجدده الملك الناصر بن قلاوون في سنة عشرين وسـبعمائة والملـك المنصـور علي بن شعبان في سنة إحـدى وثمـانين وسبعمائة والملـك الظـاهر برقـوق في سـنة إحـدى وثمانمائـة والملـك الظـاهر جقمـق في سـنة ثـلاث وأربعـين وثمانمائـة والملـك

الأشرف قايتبائي في سنة ثمانية وثمانين وثمانمائة سقى الله عهدهم صوب الرحمة والرضوان وأسكنهم فسيح الجنان وأدام أيام منشىء ذا الحجر العظيم ومحا معالم هذا الحطيم صاحب القبلة خادم الحرمين الشريفين الفاتك في أعداء الله سيفه المرهف السلطان الملك الأشرف أبو النصر قانصوه الغوري أدامه الله لإقامة كل مقام محمود وأضحى به مهابط العامرين الركع والسجود وبمباشرة العبد الفقير الراجي عفو ربه القدير المقر بالمعاصي السيفي خير بك العلائي أحد أمراء الطبلخانات بالديار المصرية وباش المماليك السلطانية وناظر الحسبة المشرفة وشاد العمائر السلطانية أعز الله أنصاره وغفر الله لهم ولنفسه ولسائر معلميه ومن أعانهم فيه وللوافدين والطائفين والمشاهدين ولجميع المسلمين وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين . انتهى .

وفي مرآة الحرمين مكتوب على الحجر قبالة الميزاب من الأعلى :

نعم المطاف ترابه ... في عين أرمد أثمد
ويطوفه بالليل والأسحار ... قوم هجد
الله بارك فرشه ... مع من بناه يخلد
زان المطاف بمرمر ... ملك الأنام محمد

تم في تاريخ للسلطان سليمان سنة ٩٤٠

وبعده:

لا سيما من نسلهم ... سلطاننا المستمجد
بزلال صارم سيفه ... للظى الضلال محمد
الله خلد ملكه ... والعدل فيه مؤيد
كالبدر يشرق نوره ... إذ جن ليل أسود

وتاريخ للسلطان محمد خان سنة (١٠٧٣) وفي أول حائط الحجر في الأعلى من الجهة الشرقية :

الحمد لله الذي ... جعل المطاف منورا
بضيا جبينه زين ... كالشمس أضحى

انتهى من تاريخ الغازي .

الحطيم وحجر إسماعيل وما كتب عليه

قال في كتاب مرآة الحرمين لإبراهيم رفعت باشا رحمه الله تعالى ما نصه:

الحطيم يطلق الآن على الجدار المطيف بالحجر وبذلك قال ابن عباس، وقيل: إن الحطيم ما بين الحجر الأسود ومقام إبراهيم وزمزم وحجر إسماعيل أي البقعة المحصورة بين الكعبة والحجر غرباً والمقام وزمزم شرقاً. وهذا ما حكاه الأزرقي عن ابن جريج، وفي كتب الحنفية أن الحطيم المكان الذي فيه الميزاب وذلك أليق بالاستناق لأن ذلك المكان حطم من الكعبة وفصل منها والأكثرون على القول الثاني.

والحجر ما أطاف به الحطيم -الجدار- وقد ذكر الأزرقي: أن إبراهيم عليه السلام جعل الحجر إلى جنب البيت عريشاً من أراك يقتحمه العنز وكان زرباً لغنم إسماعيل وقد تقدم أن قريشاً أدخلت في الحجر أذرعاً من الكعبة حين بنتها لما قصرت عليهم النفقة الحلال التي أعدوها لعمارة الكعبة عن إدخال ذلك فيها، وأن الزبير أدخل ذلك في الكعبة حين عمرها، وأن الحجاج أخرجه منها واستمر ذلك ليومنا، وعلى ذلك فبعض الحجر من الكعبة وبعضه ليس منها، ويدل لذلك ما في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: يا عائشة! لولا أن قومك حديثو عهد بشرك لهدمت الكعبة فألزقتها بالأرض ولجعلت لها باباً شرقياً وباباً غربياً وزدت فيها ستة أذرع من الحجر فإن قريشاً استقصرتها حيث بنت الكعبة، وفي رواية فإن بدا لقومك من بعدي أن يبنوه فهلمي لأريك ما تركوا منه فأراها قريباً من سبعة أذرع، وفي مسلم عن عطاء أن رسول الله ﷺ قال: لولا أن الناس حديث عهدهم بكفر وليس عندي من النفقة ما يقوى على بنائه لكنت أدخلت من الحجر خمسة أذرع، وذكر عطاء أن ابن الزبير زاد في البيت خمسة أذرع من الحجر، وأنه بداء له أساس نظر إليه الناس فبنى عليه، وأما ما رواه الشيخان من حديث عائشة قالت: سألت النبي ﷺ عن الحجر أمن البيت؟ قال: نعم: قالت: فما لهم لم يدخلوه في البيت؟ قال: إن قومك قصرت بهم النفقة الخ، فلا يعارض ما ذكرنا من أن بعضه من البيت الآن حديث عائشة هذا مطلق وأحاديثها السابقة مقيدة، والمطلق يحمل على المقيد، وقد اختلف الفقهاء هل يصح الطواف من الحجر بعد السبعة الأذرع من البيت أم لا يصح

الطواف إلا من وراء الحطيم كما فعل النبي ﷺ ؟ قال كثيرون بالأول وقال آخرون بالثاني .

ونذكر لك طرفاً من عمارة الحجر فنقول : لما حج المنصور العباسي سنة ١٤٠هـ . دعا زياد بن عبيد الله الحارثي أمير مكة وقال له : إني رأيت الحجر بادية حجارته فلا أصبحن حتى يستر جداره بالرخام فدعا زياد بالعمال فرخموه ايلاً على ضوء المصابيح ، ثم جدد المهدي رخامه سنة ١٦١هـ . ولم يزل به حتى رث فقلع وألبس رخاماً جميلاً في عهد المتوكل العباسي سنة ٢٤١هـ . وعمّر الحجر المعتضد العباسي سنة ٢٨٣هـ والوزير جمال الدين المعروف بالجواد في العقد الخامس بعد سنة ٥٠٠هـ وعمّر قبله أيضاً وفي زمن الناصر العباسي سنة ٥٧٦هـ . وعمّره المستنصر العباسي والملك المظفر صاحب اليمن ، والملك الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧٢٠هـ والأشرف شعبان سنة ٧٨١هـ وذلك بأمر الأميرين بركة وبرقوق مدبري دولته ، وعمّره أيضاً الظاهر برقوق سنة ٨٠١هـ والمكتوب على الحجر من الجهة الغربية تاريخ ٧٨٠ وثبت كثير من رخام الحجر بالجبس في سنة ٨٢٢هـ . وأصلح قسم كبير من رخام الجدار وأرض الحجر سنة ٨٢٦هـ . وذلك بأمر الأمير زين مقبل القديري ، وعمّره السلطان جقمق سنة ٨٤٣هـ . وقايتباي سنة ٨٨٠هـ . والسلطان سليمان سنة ٩٤٠هـ والسلطان محمد خان سنة ١٠٧٣هـ . وقد تقدم لك وصف الحجر الآن ومقاسه في صحيفة ٢٦٦ . ونزيد على ذلك أن فيه رخامة خضراء تحت الميزاب يقال أنها موضع قبر إسماعيل عليه السلام والناس ينحرون هذه الرخامة للصلاة عندها ، مع أن الصلاة إلى القبور أو عليها منهي عنها ، وفي الحديث الصحيح : (لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد) وأكثر المؤرخين على أنه مدفون بالحجر ويؤيد ذلك قول ضرار بن الخطاب :

لم يحظ بالحجر فيما مضى ... من البرية لا عرب ولا عجم
بعد ابن هاجر أن الله فضله ... إلا الزهير له التفضيل والكرم

بيان جبهة بيت المقدس

ومن لطيف الإشارات من الدولة العثمانية التركية ، أنهم لما عمروا حجر إسماعيل عليه الصلاة والسلام جعلوا في وسط جدار الحجر من الداخل رخامة

ورسموا عليها قبة جميلة وهي قبة بيت المقدس وذلك إشارة إلى أن بيت المقدس يقع في هذه الجهة أي يقع في الجهة المقابلة لجدار حجر إسماعيل الذي هو على شكل نصف دائرة . وهذا صحيح لأن رسول الله ﷺ لما كان يصلي إلى بيت المقدس قبل أن يؤمر بالصلاة إلى الكعبة ، كان يصلي فيما بين الركن الأسود والركن اليماني جاعلاً الكعبة المشرفة أمامه بينه وبين بيت المقدس فكان وجهه الشريف يقابل حجر إسماعيل عليه الصلاة والسلام . فما أبعد نظر الدولة التركية العثمانية وما أحكم صنعتهم وأعمالهم .

الرخامات الصفر التي على الشاذروان

أما الرخامات الصفر الموضوعة بأعلى شاذروان الكعبة المشرفة عند بابها ، فهي رخامات نفيسة جداً ، نادرة الشكل والمثال كالرخامة الخضراء التي تحت ميزاب الكعبة المعظمة ولونها يضرب إلى الصفرة الخالصة ، بل هي صفراء مائلة إلى الحمرة قليلاً ، يتخللها نقوش بديعة جداً ، لونها أصفر فاقع أكسبت الرخامات حسناً وجمالاً ، كل ذلك من أصل الخلقة أيضاً .

وهذه الرخامات ثمانية أحجار ، متقاربة الأحجام ، متلاصقة ببعضها ، كل حجر منها مستطيل الشكل أكبرها طوله ٣٣ سنتيمتراً ، وعرضه ٢١ سنتيمتراً ، وكلها مرصوصة وموضوعة بأعلى الشاذروان في محل على هيئة المربع ، طوله ٧٤ سنتيمتراً ، وعرضه كذلك والظاهر أنها وضعت في محلها فوق الشاذروان حين عمارة المطاف ، التي كانت سنة إحدى وثلاثين وستمائة حسبما هو مكتوب بالنقر على الحجر الأزرق الذي تحت الرخامات الصفر ، وهو حجر ثمين من الرخام الأزرق الصافي ، طوله ٦٩ سنتيمتراً ، وعرضه ٣٢ سنتيمتراً ، فيكون قد مضى على هذه الرخامات الصفر والرخامة الزرقاء إلى عامنا هذا ٧٣٦ سنة ، ومضى على الرخامة الخضراء التي تحت الميزاب إلى عامنا هذا أيضاً ١١٢٦ سنة .

فالرخامة الخضراء التي تحت الميزاب والرخامات الصفر التي على الشاذروان تكون من أفخم الآثار العربية وأغلاها وأندرها وأبركها ، فلولا أنها من القدر والقيمة بمكان ما وضعها ولاة الأمر الأقدمون في أشرف بقعة عند الكعبة فكانوا أعرف منا بنفائس الأشياء وجواهرها واختيار الأمكنة لحفظها وصيانتها .

انظر: صورة رقم ٧٥ ، للثمانية الأحجار الصفر الظاهرة

وكانت أعمالهم الجليلة في غاية الجودة والإتقان تمر عليها مئات الأعوام، وهي على حالها ما أصابها تلف ولا خراب، ونحن لم نقم بالكشف عما يوجد بالحجر والمطاف من الرخام النادر الوجود، فلو قمنا وبحثنا لعثرنا على أشياء ثمينة جداً مما يدلنا على عناية الملوك والسلاطين الأقدمين بهذا المكان المقدس، والبقعة الطاهرة المباركة، وما ذكرنا تلك الرخامات الخضر والصفر إلا للمناسبة. وقبل أن نختتم هذا الفصل نشير إلى قيمة الرخامات الخضر والصفر عند ذوي الخبرة من رجال الآثار القديمة، فإننا لا نبالغ إن قلنا أن قيمة بعضها قد تبلغ نحواً من عشرة آلاف جنيه مصري. ولا نعتقد أن أحداً ممن كان قبلنا ولا ممن هو في عصرنا التفت إلى هاتين الرخامتين ولا توصل إلى ملاحظاتنا فيهما، هذه الملاحظات الدقيقة الفنية، فالحمد لله على التوفيق. انتهى كل ذلك من كتابنا .. مقام إبراهيم عليه الصلاة والسلام.

واليوم لا يوجد قط في جميع البلدان مثل هذه الرخامات الصفر، فرحم الله الملوك والسلاطين الأقدمين حيث يهدون الأشياء النفيسة إلى الحرمين الشريفين.

البناية الخامسة والسادسة: بناء جرهم والعمالقة الكعبة

جاء في تاريخ الغازي عن ذلك ما نصه: وأما بناء العمالقة وجرهم، فقد قال في الإعلام، ذكر الأزرقي بسنده إلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب أنه قال في خبر بناء إبراهيم الكعبة: ثم انهدم فبنتها العمالقة ثم انهدم فبنته قبيلة من جرهم، وذكر الفاكهي بسنده إلى علي بن أبي طالب أنه قال: أول من بنى البيت إبراهيم ثم تهدم فبنتها جرهم ثم انهزم فبنتها العمالقة. قال السيد التقي: قلت: بهذا يقتضي أن جرهماً بنت البيت الشريف قبل العمالقة والخبر الأول يقتضي أن العمالقة بنتها قبل جرهم وبها جزم المحب الطبري في القرى وذكر المسعودي في مروج الذهب أن الذي بنى الكعبة من جرهم هو الحارث بن مضاض الأصغر وأنه زاد في بناء البيت ورفعه كما كان عليها بناء إبراهيم عليهما السلام والله أعلم بحقيقة ذلك وقد تقدم من رواية الأزرقي خبر العمالقة ما يقتضي سبقهم على جرهم. انتهى من تاريخ الغازي.

نقول: إن بناء الكعبة المشرفة من عهد إبراهيم عليه الصلاة والسلام إلى قبل بناء قريش كان بالرضم فقط بدون طين ولا نورة، ولذلك كانت معرضة لسرعة

الهضم والخراب ، ثم من بناء قريش إلى اليوم ما زال فن البناء في تقدم حتى أصبح اليوم على ما نراه وبذلك يمكث البناء زمناً طويلاً .

واختلاف المؤرخين في قبيلتي « جرهم والعمالقة » أيتهما كانت أسبق في بناء الكعبة ، كان سببه القبيلتين كانتا بمكة في عصر واحد وجرت بينهما حروب . والله أعلم بحقيقة الحال .

أما نحن فرأينا الخاص : هو أن قبيلة جرهم قد تكون أسبق إلى بناء الكعبة من العمالقة ، كما سبقوهم إلى الإقامة والسكن بمكة منذ وصول هاجر بابنها إسماعيل إليها ، حتى إن إسماعيل عليه السلام لما كبر تزوج امرأة من جرهم فهم أصهاره وسكان الحرم يومئذ . ومع هذا فاختلافهم في أسبقية العمالقة أو جرهم للبناء لا يتوقف عليه شيء .

الكعبة في عهد خزاعة

كانت ولاية مكة بعد أبناء إسماعيل عليه الصلاة والسلام بيد جرهم ، فلما استخفوا بحرمة البيت الحرام وطغوا وبغوا ، سلط الله تعالى عليهم خزاعة فأجلوهم عن مكة فصارت ولاية مكة وأمر البيت الحرام بيد خزاعة ، فبنت حول الكعبة المشرفة وحجر إسماعيل بناء يحفظها من السيول ، فقد ذكر الإمام الأزرقي في تاريخه عن محمد بن عبدالعزيز ما نصه : إن وادي مكة سال في الجاهلية سيلاً عظيماً وخزاعة تلي الكعبة وإن ذلك السيل هجم على أهل مكة فدخل المسجد الحرام وأحاط بالكعبة ورمى بالشجر بأسفل مكة وجاء برجل وامرأة ميتين فعرفت المرأة وكانت تكون بأعلا مكة يقال لها « فارة » ولم يعرف الرجل ، فبنت خزاعة حول البيت بناء أداروه عليه وأدخلوا الحجر فيه ليحصنوا البيت من السيل ، فلم يزل ذلك البناء على حاله حتى بنت قريش الكعبة ، فسمي ذلك السيل « سيل فارة » وسمعت أنها امرأة من بني بكر . انتهى من تاريخ الأزرقي .

نقول : إن أمر مكة كان بيد خزاعة ، ثم صار بيد قصي بن كلاب الجد الرابع للنبي ﷺ كما بينا ذلك في محله ، لكن خزاعة لم تبن الكعبة ، وإنما أدارت حولها هذا البناء الذي ذكره الأزرقي ليحصنوها من السيل ، وقصي بنى الكعبة ولم يتعرض للبناء الذي حولها الذي عملته خزاعة حتى إذا بنت قريش الكعبة لم يبق لبناء خزاعة من أثر كما هو صريح عبارة الأزرقي .

ونرى أن ارتفاع بناء خزاعة حول الكعبة وحجر إسماعيل كان نحو قامة واحدة ، أي بقدر ما يرتفع السيل في ذلك الزمن فإنه لم يكن ليرتفع أكثر من ذلك لأن حول الكعبة كان منخفضاً وواد ، بخلاف زماننا كما هو مشاهد ، أما ارتفاع الكعبة فعلى ما جعله إبراهيم عليه الصلاة والسلام أي تسعة أذرع ، وكان لبناء خزاعة باب لاصق بالأرض كباب الكعبة وبابه مقابل لبابها فهذا هو المعقول لدى التأمل .

ونرى أيضاً : أن بين بناء خزاعة والكعبة نحو نصف مقدار المطاف الآن ، أي كانت خزاعة تطوف داخل البناء المحيط بالكعبة التي عملته لتحصينها من السيل ، إذ لا يعقل أن تلصقه بالكعبة كما لا يعقل أن تبعد به عنها كثيراً ، فتأمل جيداً يظهر لك صواب ما قلناه إن شاء الله تعالى فإنك لا تجد هذا المبحث في كتاب . والله أعلم بالغيب .

البناية السابعة: بناء قصي بن كلاب الكعبة

جاء في تاريخ الغازي ما نصه : وأما بناء قصي فقال في الإعلام : ذكر الزبير بن بكار قاضي مكة في كتاب النسب أن قصي بن كلاب لما ولي أمر البيت جمع نفقته ثم هدم الكعبة فبناها بنياناً لم يبنها أحد ممن بناها قبله مثلها وذكر أبو عبدالله محمد بن عايد الدمشقي في مغاذيه أن قصي بن كلاب بنى البيت الشريف وجزم بها الإمام الماوردي في الأحكام السلطانية فإنه قال فيها : أول من جدد بناء الكعبة من قريش لبعد إبراهيم قصي بن كلاب وسقفها بخشب الدوم وجريد النخل . انتهى من تاريخ الغازي .

وجاء في تاريخ الكعبة المعظمة عند الكلام على بناء قصي : أنه بناها على خمسة وعشرين ذراعاً ، وسقفها بخشب الدوم الجيد وبجريد النخل . اهـ .

يقول الفاسي رحمه الله تعالى : قوله أنه بناها على خمسة وعشرين ذراعاً ، فيه نظر ، ونحن نقول : يمكننا أن نفسر هذا المقدار من الأذرع في الارتفاع فقط ، لأن الزيادة في ارتفاع الكعبة لا بأس فيه ، لكن الزيادة في الطول والعرض أي في قواعد إبراهيم عليه السلام التي هي الأساس ممنوعة منعاً باتاً ، ولم تقع الزيادة في القواعد مطلقاً قط ، في جميع البنايات التي وقعت في الكعبة زادها الله شرفاً وتعظيماً ومهابة وتكريماً .

وقصي هو الجد الرابع للنبي ﷺ كان قبل الهجرة بنحو مائة وثلاثين سنة ، تولى أمر مكة فأطاعه قومه وكان بيده أمور مكة الستة التي هي : الحجابة والرفادة والسقاية والندوة واللواء والقيادة ، وهو الذي جمع قومه بطون قريش وأمرهم أن يبنوا بيوتهم حول الكعبة وقسم جهاتها بينهم . وستأتي ترجمته مفصلة إن شاء الله تعالى .

ترجمة قصي بن كلاب

لما كان قصي بن كلاب الجد الرابع للنبي ﷺ ، وهو قد بنى الكعبة المشرفة بعد جرهم ، صار من الواجب علينا ذكر شيء من ترجمته ملخصاً من كتاب "حياة سيد العرب" للشيخ حسين عبدالله باسلامة ومن تاريخ الأزرقي رحمهما الله تعالى وإليك شيء من ذلك :

قصي اسمه زيد ويقال له مجمع لأنه جمع قبائل قريش بعد تفرقها ، وهو ابن كلاب واسمه حكيم ولقب بكلاب لأنه كان يصطاد بها ، واسم أمه فاطمة بنت سعد بن سيل (وفي الأزرقي : فاطمة بنت عمرو بن سعد بن سيل) ونظن أن عمرو سقط سهواً من كتاب حياة سيد العرب .

فلما هلك كلاب ترك قصياً وأخاه زهرة مع أمهما فاطمة بنت عمرو بن سعد بن سيل ، ثم تزوجت أمهما فاطمة على ربيعة بن حرام القضاعي وقصي فطيم أو على سن الفطام وأما أخوه زهرة فرجل بالغ ، فاحتمل ربيعة زوجته فاطمة مع ولدها قصي إلى بلاده من أرض بني عذرة من أشراف الشام ، وتخلف زهرة في قومه ، وشب قصي في حجر ربيعة لا يعلم لنفسه أباً غير ربيعة ولا ينتمي إلا إليه ، فلما صار غلاماً يفعة سابّه رجل من قضاعة فعيره بالدعوة وقال له : لست منا وإنما أنت فينا ملصق ، فدخل على أمه وقد وجد في نفسه مما قال له القضاعي فقالت له : يا بني صدق إنك لست منهم ولكن رهطك خير من رهطه وآباؤك أشرف من آبائه وإنما أنت قرشي وأخوك وبنو عمك بمكة وهم جيران بيت الله الحرام ، فأجمع قصي على الخروج إلى قومه واللحاق بهم وكره الغربة في أرض قضاعة ، فقالت له أمه : يا بني لا تعجل بالخروج حتى يدخل عليك الشهر الحرام فتخرج في حاج العرب فإني أخشى عليك أن يصيبك بعض البأس . فبقي حتى خرج حاج قضاعة ، فخرج معهم حتى قدم مكة فلما فرغ من الحج أقام

بها ، وكان رجلاً جليلاً نسيباً فعرفت قريش قدره وفضله وعظمته وأقرت له بالرئاسة والسؤدد ، وكان أبعدها رأياً وأصدقها لهجة وأوسعها بذلاً وأبينها عفافاً .

فخطب قصي إلى حليل بن حبشية بن سلول الخزاعي ابنته حبى فعرف حليل نسبه ورغب في الرجل فزوجه ، وحليل يومئذ يلي الكعبة وأمر مكة ، فأقام قصي معه حتى ولدت حبى لقصي عبد الدار وهو أكبر ولده ، وعبد مناف ، وعبد العزى ، وعبدا بني قصي .

فكان حليل يفتح البيت فإذا اعتل أعطى ابنته حبى المفتاح فإذا اعتلت أعطت المفتاح زوجها قصياً أو بعض ولدها فيفتحه ، فلما حضرت حليلاً الوفاة نظر إلى قصي وإلى ما انتشر له من الولد من ابنته فرأى أن يجعلها في ولد ابنته فدعا قصياً فجعل له ولاية البيت وأسلم إليه المفتاح وكان يكون عند حبّى ، فلما هلك حليل أبت خزاعة أن تدعه وذاك أخذوا المفتاح من حبى فمشى قصي إلى رجال من قومه من قريش وبني كنانة ودعاهم إلى أن يقوموا معه في ذلك وأن ينصروه ويعضدوه فأجابوه إلى نصره ، وأرسل قصي إلى أخيه لأمه رزاح بن ربيعة وهو ببلاد قومه من قضاعة يدعوه إلى نصره ويعلمه ما حالت خزاعة بينه وبين ولاية البيت ويسأله الخروج إليه بمن أجابه من قومه ، فقام رزاح في قومه وأجابوه إلى ذلك ، فخرج رزاح بن ربيعة ومعه إخوته من أبيه حن ومحمود وجلهمة بنو ربيعة بن حرام فيمن تبعهم من قضاعة في حاج العرب مجتمعين لنصر قصي والقيام معه .

فلما اجتمع الناس بمكة خرجوا إلى الحج فوقفوا بعرفة وبجمع ونزلوا منى ، وقصي مجمع على ما أجمع عليه من قتالهم بمن معه من قريش وبني كنانة ومن قدم عليه مع أخيه رزاح من قضاعة ، فلما كان آخر أيام منى أرسلت قضاعة إلى خزاعة يسألونهم أن يسلموا إلى قصي ما جعل له حليل وعظموا عليهم القتال في الحرم وحذروهم من الظلم والبغي بمكة وذكروهم ما كانت فيه جرهم وما صارت إليه حين ألحدوا فيه بالظلم والبغي ، فأبت خزاعة أن تسلم ذلك فاقتتلوا بمفضى مأزمي منى ، قال : فسمي ذلك المكان المفجر لما فجر فيه وسفك فيه الدماء « والمفجر معروف إلى اليوم بمنى » فاقتتلوا قتالاً شديداً حتى كثرت القتلى في الفريقين جميعاً ، وحاج العرب من مصر واليمن مستكفون ينظرون إلى قتالهم .

ثم تداعوا إلى الصلح ودخلت قبائل العرب بينهم وعظموا علي الفريقين سفك الدماء والفجور في الحرم ، فاصطلحوا على أن يحكموا بينهم رجلاً من العرب فيما

اختلفوا فيه ، فحكموا يعمر بن عوف بن كعب بن عامر ، وكان رجلاً شريفاً فقال لهم موعدكم فناء الكعبة غدا ، فلما اجتمع إليه الناس بفناء الكعبة قام يعمر بن عوف فقال : ألا إني شدخت ما كان بينكم من دم تحت قدمي هاتين فلا تباعة لأحد على أحد في دم ، وإني قد حكمت لقصي بحجابة الكعبة وولاية أمر مكة دون خزاعة لما جعل له حليل وأن يخلي بينه وبين ذلك ، وأن لا تخرج خزاعة عن مساكنها من مكة .

فسلمت ذلك خزاعة لقصي وعظموا سفك الدماء في الحرم ، وافترق الناس ، فولي قصي بن كلاب حجابة الكعبة وأمر مكة وجمع قومه من قريش من منازلهم إلى مكة يستعز بهم وتملك على قومه فملكوه وخزاعة مقيمة بمكة على رباعهم وسكناتهم لم يحركوا و لم يخرجوا منها فلم يزالوا على ذلك حتى الآن .

فكان قصي أول رجل من بني كنانة أصاب ملكاً وأطاع له به قومه ، فكانت إليه الحجابة والرفادة والسقاية والندوة واللواء والقيادة ، فحاز قصي شرف مكة وأنشأ دار الندوة ، وفيها كانت قريش تقضي و لم يكن يدخلها من قريش من غير ولد قصي إلا ابن أربعين سنة للمشورة ، وكان يدخلها ولد قصي أجمعون .

وقبل قصي كانت القبائل من عمالقة وجرهم وخزاعة وقريش وغيرهم ، يسكنون في شعاب مكة ويتركون حول الكعبة احتراماً لها وتعظيماً لشأنها فلا يجترئ أن يبني أحد بجوارها داراً ولا جداراً .

فلما آل الأمر إلى قصي بن كلاب واستولى على مكة وعلى مفتاح الكعبة من خزاعة ، جمع قومه بطون قريش وأمرهم أن يبنوا حول الكعبة بيوتاً من جهاتها الأربعة حيث كانوا يقطنون بظاهر مكة ولا يقيمون بها إلا نهاراً ولا يدخلونها على جنابة ، فإذا أمسوا خرجوا إلى الحل ، فقال لهم قصي : إن سكنتم حول البيت هابتكم الناس و لم تستحل قتالكم والهجوم عليكم ، فبدأ قصي أولاً فبنى دار الندوة ، ثم قسم باقي الجهات بين القبائل من قريش فبنت دورها حول الكعبة المعظمة وقد تركوا للطائفين مقدار المطاف الآن وجعلوا ارتفاع بيوتهم أقل من ارتفاع الكعبة احتراماً وتعظيماً لها .

وفي قصي حين جمع قومه يقول القائل :

أبوكم قصي كان يدعى مجمعاً ... به جمع الله القبائل من فهر

وأنتم بنو زيد وزيد أبوكم ... به زيدت البطحاء فخراً على فخر

وقصي هو أول من حفر بئراً يقال له العجول كان موضوعها في دار أم هانئ بنت أبي طالب بالحزورة « بباب الوداع » وقد دخلت هذه البئر مع دار أم هانئ في المسجد الحرام في زيادة المهدي ، على أن قصياً حفر آباراً عديدة بمكة وكان الماء بها غزيراً والناس يشربون من آبار خارجة عن الحرم ، والبئر المنسوبة إلى جبير بن مطعم التي عند مسجد الراية بالجودية أول من حفرها قصي ثم دثرت.

انتهى كل ذلك ملخصاً من تاريخ الأزرقي ومن حياة سيد العرب .

قال إبراهيم رفعت باشا في الجزء الأول من كتابه « مرآة الحرمين » بصحيفة ١٥٢ : كان ظهور قصي بن كلاب حوالي منتصف القرن الخامس الميلادي . فعلى هذا القول وإذا قدرنا أيضاً أن قصياً ظهر سنة (٤٥٠) ميلادية يكون ظهوره قبل الهجرة بمائة وثلاثين سنة وهذا هو المعقول ، ولكن التقدير المضبوط الله أعلم به .

البناية الثامنة : بناء قريش الكعبة

نذكر أولاً سبب بناء قريش الكعبة نقلاً عن تاريخ الغازي ، رحمه الله تعالى فقد قال فيه ما نصه : وأما بناء قريش الكعبة ، فقال في الإعلام : قال خاتمة الحفاظ والمحدثين الشيخ محمد الصالحي ، رحمه الله تعالى ، في كتاب « سبيل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد » وهو أحسن كتاب للمتأخرين وأبسطه في السيرة النبوية : أن امرأة جمرت الكعبة بالبخور فطارت شرارة من مجمرتها في ثياب الكعبة فاحترق أكثر أخشابها ودخلها سيل عظيم فتصدعت جدرانها بعد توهينها فأرادوا أن يشدوا بنيانها ويرفعوا بابها حتى لا يدخلها إلا من شاؤا ، وكان البحر قد رمى بسفينة إلى ساحل جدة لتاجر رومي اسمه باقوم وكان بناءاً نجاراً فخرج الوليد بن المغيرة في نفر قريش إلى جدة فابتاعوا خشب السفينة وكلموا باقوم الرومي أن يقدم معهم إلى مكة فقدم إليها وأخذوا أخشاب السفينة أعدوها لسقف الكعبة الشريفة . قال الأموي : كانت هذه السفينة لقيصر ملك الروم ويحمل فيها الرخام والخشب والحديد مع باقوم إلى الكنيسة التي أحرقها الفرس بالحبشة فلما بلغت قريب مرسى جدة بعث الله عليها ريحاً فحطمتها . انتهى .

قال ابن إسحاق : وكان بمكة قبطي يعرف بنجر الخشب وتسويته فوافقهم أن يعمل لهم سقف الكعبة ويساعده باقوم . انتهى ما في الإعلام .

وإن شاء ا لله تعالى سنذكر ترجمة باقوم الرومي بعد ترجمة الوليد بن المغيرة في آخر هذا المبحث .

ثم قال الغازي أيضاً : وفي الجامع اللطيف روي أن امرأة ذهبت تجمر الكعبة فطارت شرارة من مجمرتها فاحترقت كسوتها وكانت ركاماً بعضها فوق بعض فحصل في الأحجار تصدع ووهن ثم تواترت السيول بعد ذلك فجاء سيل عظيم فدخل البيت فازداد تصدع الجدران ففزعت قريش لذلك فزعاً شديداً وهابوا هدمها وخافوا إن مسوها أن ينزل عليهم العذاب فبينما هم على تلك الحال يتشاورون إذ أقبلت سفينة من الروم حتى إذا كانت بمحل يقال له الشعيبة بضم الشين المعجمة وهي يومئذ ساحل مكة قبل جدة انكسرت فلما انكسرت السفينة بالشعيبة وبلغ ذلك قريشاً فقصدوها واشتروا أخشابها وأذنوا لأهلها أن يدخلوا مكة فيبيعون ما معهم من المتاع على أن لا يعشروهم ، قال : وكانوا قبل ذلك يعشرون من دخلها من تجار الروم وكانت الروم تعشر قريشاً إذا دخلوا بلادهم ويروى أن قريشاً لما هابوا هدمها قال الوليد : إن ا لله لا يهلك من يريد الصلاح فارتقى على ظهرها ومعه الناس ثم هدم فلما رأوه سالماً تابعوه . وفي بعض الروايات أن قريشاً كلما أرادوا هدم البيت بدت لهم حية فاتحة فاها فبعث ا لله طيراً أعظم من النسر فغرز مخاليبه فيها وألقاها نحو أجياد فهدمتها قريش وبنوها بحجارة الوادي . انتهى .

ثم قال الغازي : وفي الإعلام : وكانت حية عظيمة تخرج من بئر الكعبة التي يطرح فيها ما يهدى إلى الكعبة تشرف على جدار الكعبة لا يدنو منها أحد إلا نشت وفتحت فاها وكانوا يهابونها ويزعمون أنها تحفظ الكعبة وهداياها وأن رأسها كرأس الجدي وظهرها وبطنها أسود وأنها قامت فيها خمسمائة سنة .

قال ابن عيينة : فبعث ا لله طائراً فاختطفها وذهب بها فقالت قريش نرجو أن يكون ا لله تعالى رضي لنا بما أردنا فعله فأجمع رأيهم على هدمها وبنائها . قال ابن هشام : فتقدم عائذ بن عمران بن مخزوم وهو خال النبي ﷺ ، فتناول حجراً من الكعبة فوثب من يده حتى رجع إلى مكانه فقال : يا معشر قريش لا تدخلوا في بنيانها من مالكم إلا حلالاً طيباً ليس فيه مهر بغي ولا رباً ولا مظلمة .

ثم إن قريشاً اقتسمت جوانب البيت فكان شق الباب لبني زهرة وبني عبد مناف وما بين الركن الأسود والركن اليماني لبني مخزوم ومن انضم إليهم من

قريش وكان ظهر الكعبة لبني جمح وبني سليم وكان شق الحجر لبني عبد الدار وبني أسد بن عبد العربي وبني عدي بن كعب وجمعوا الحجارة وكان رسول الله ﷺ ينقل معهم حتى انتهى الهدم إلى الأساس فأفضوا إلى حجارة خضر كالأسنمة فضربوا عليها بالمعول فخرج برق يكاد أن يخطف البصر فانتهوا عند ذلك الأساس . انتهى .

ثم قال الغازي : وفي تحصيل المرام حتى انتهى بهم الهدم إلى أساس إبراهيم عليه السلام ، فأفضوا إلى حجارة كالأسنمة إلى أسنمة الإبل فأدخل رجل بمن كان يهدم عتلة بين حجرين ليقلع بها بعضها فلما تحرك الحجر انتفضت مكة أي تحركت بأسرها وأبصر القوم برقة خرجت من تحت الحجر كادت تخطف بصر الرجل فانتهوا عن ذلك الأساس . انتهى من تاريخ الغازي .

جاء في تاريخ الكعبة المعظمة : قال الزبير بن عبد المطلب فيما كان من أمر الحية التي كانت قريش تهاب بنيان الكعبة لها ما يأتي :

عجبت بأن تسلطت العقاب	على الثعبان وهي لها اضطراب
وقد كانت يكون لها كشيش	وأحياناً يكون لها وثاب
إذا قمنا إلى التأسيس شدت	تهيبنا البناء وقد تهاب
فلما أن خشينا الرجز جاءت	عقاب تتلئب لها انصباب
فضمتها إليها ثم خلت	لنا البنيان ليس لها حجاب
فقمنا حاشدين إلى بناء	لنا منه القواعد والتراب
غداة نرفع التأسيس فيه	وليس على مساوينا ثياب
أعز به المليك بني لؤي	فليس لأصله منهم ذهاب
وقد حشدت هناك بنو عدي	ومرة قد تقدمها كلاب
فبوأنا المليك بذاك عزاً	وعند الله يلتمس الثواب

وجاء في تاريخ الأزرقي عند ذكر بناء قريش الكعبة ما نصه : حدثني جدي قال : حدثنا مسلم بن خالد الزنجي عن ابن أبي نجيح عن أبيه قال : جلس رجال من قريش في المسجد الحرام فيهم حويطب بن عبد العزى ومخرمة بن نوفل فتذاكروا بنيان قريش الكعبة وما هاجهم على ذلك وذكروا كيف كان بناؤها قبل ذلك قالوا : كانت الكعبة مبنية برضم يابس ليس بمدر وكان بابها بالأرض ولم

يكن لها سقف وإنما تدلى الكسوة على الجدر من خارج وتربط من أعلى الجدر من بطنها وكان في بطن الكعبة عن يمين من دخلها جب يكون فيه ما يهدى إلى الكعبة من مال وحلية كهيئة الخزانة وكان يكون على ذلك الجب حية تحرسه بعثها الله منذ زمن جرهم وذلك أنه عدا على ذلك الجب قوم من جرهم فسرقوا مالها وحليتها مرة بعد مرة فبعث الله تلك الحية فحرست الكعبة وما فيها خمسمائة سنة فلم تزل كذلك حتى بنت قريش الكعبة وكان قرنا الكبش الذي ذبحه إبراهيم خليل الرحمن معلقين في بطنها بالجدر تلقاء من دخلها ، يخلقان ويطيبان إذا طيب البيت فكان فيها معاليق من حلية كانت تهدى إلى الكعبة فكانت على ذلك من أمرها ، ثم إن امرأة ذهبت تجمر الكعبة فطارت من مجمرتها شرارة فاحترقت كسوتها وكانت الكسوة عليها ركاماً بعضها فوق بعض فلما احترقت الكعبة توهنت جدرانها من كل جانب وتصدعت وكانت الخرف الأربعة عليهم مظللة والسيول متواترة ، ولمكة سيول عوارم فجاء سيل عظيم على تلك الحال فدخل الكعبة وصدع جدرانها وأخافهم ففزعت قريش فزعاً شديداً وهابوا هدمها وخشوا إن مسوها أن ينزل عليهم العذاب .

قال : فبينا هم على ذلك يتناظرون ويتشاورون إذ أقبلت سفينة للروم حتى إذا كانت بالشعيبة وهي يومئذ ساحل مكة قبل جدة انكسرت فسمعت قريش فركبوا إليها فاشتروا خشبها وأذنوا لأهلها أن يدخلوا مكة فيبيعون ما معهم من متاعهم على أن لا يعشروهم ، قال : وكانوا يعشرون من دخلها من تجار الروم كما كانت الروم تعشر من دخل منهم بلادها ، فكان في السفينة رومي نجار بناء يسمى « باقوم » فلما قدموا بالخشب مكة قالوا : لو بنينا بيت ربنا فأجمعوا لذلك وتعاونوا عليه وترافدوا في النفقة وربعوا قبائل قريش أرباعاً ثم اقترعوا عند هبل في بطن الكعبة على جوانبها ، فطار قدح بني عبد مناف وبني زهرة على الوجه الذي فيه الباب وهو الشرقي ، وقدح بني عبد الدار وبني أسد بن عبد العزى وبني عدي بن كعب على الشق الذي يلي الحجر وهو الشق الشامي ، وطار قدح بني سهم وبني جمح وبني عامر بن لؤي على ظهر الكعبة وهو الشق الغربي ، وطار قدح بني تيم وبني مخزوم وقبائل من قريش ضموا معهم على الشق اليماني الذي يلي الصفا وأجياد . نقول : باقوم المذكور هو بالقاف ، وبعضهم ينطقها بالخاء ، واليونانيون يقولون « باكاموس » وسيأتي إن شاء الله تعالى الكلام على ذلك عند ترجمة باقوم المذكور .

ثم قال الأزرقي : فنقلوا الحجارة ورسول الله ﷺ يومئذ غلام لم ينزل عليه الوحي ينقل معهم الحجارة على رقبته فبينا هو ينقلها إذ انكشفت نمرة كانت عليه فنودي : يا محمد عورتك ، وذلك أول ما نودي والله أعلم ، فما رؤيت لرسول الله ﷺ عورة بعد ذلك ولبج رسول الله من الفزع حين نودي ، فأخذه العباس بن عبد المطلب فضمه إليه وقال : لو جعلت بعض نمرتك على عاتقك تقيك الحجارة ، قال : ما أصابني هذا إلا من التعري ، فشد رسول الله ﷺ إزاره وجعل ينقل معهم وكانوا ينقلون بأنفسهم تبرراً وتبركاً بالكعبة . فلما اجتمع لهم ما يريدون من الحجارة والخشب وما يحتاجون إليه عدوا على هدمها ، فخرجت الحية التي كانت في بطنها تحرسها سوداء الظهر ، بيضاء البطن ، رأسها مثل رأس الجدي ، تمنعهم كلما أرادوا هدمها . فلما رأوا ذلك اعتزلوا عند مقام إبراهيم وهو يومئذ بمكانه الذي هو فيه اليوم فقال لهم الوليد بن المغيرة : يا قوم ألستم تريدون بهدمها الإصلاح ؟ قالوا : بلى ، قال: فإن الله لا يهلك المصلحين ولكن لا تدخلوا في عمارة بيت ربكم إلا من طيب أموالكم ولا تدخلوا فيه مالاً من ربا ، ولا مالاً من ميسر ، ولا مهر بغي ، وجنبوه الخبيث من أموالكم فإن الله لا يقبل إلا طيباً ففعلوا ثم وقفوا عند المقام فقاموا يدعون ربهم ويقولون : اللهم إن كان لك في هدمها رضاً فأتمه وأشغل عنا هذا الثعبان . فأقبل طائر من جو السماء كهيئة العقاب ظهره أسود وبطنه أبيض ، ورجلاه صفروان والحية على جدر البيت فاغرة فاها، فأخذ برأسها ثم طار بها حتى أدخلها أجياد الصغير . فقالت قريش : إنا لنرجو أن يكون الله سبحانه وتعالى قد رضي عملكم وقبل نفقتكم فاهدموه . فهابت قريش هدمه وقالوا : من يبدأ فيهدمه؟ فقال الوليد بن المغيرة ـ سنذكر ترجمة الوليد ابن المغيرة في آخر هذا المبحث- أنا أبدؤكم في هدمه ، أنا شيخ كبير فإن أصابني أمر كان قد دنا أجلي وإن كان غير ذلك لم يرزأني ، فعلا البيت وفي يده عتلة يهدم بها ، فتزعزع من تحت رجله حجر فقال : اللهم لم ترع؟ إنما أردنا الإصلاح وجعل يهدمه حجر حجراً بالعتلة فهدم يومه ذلك فقالت قريش : إنا نخاف أن ينزل به العذاب إذا أمسى . فلما أمسى لم تر بأساً ، فأصبح الوليد بن المغيرة غادياً على عمله ، فهدمت قريش معه حتى بلغوا الأساس الأول الذي رفع عليه إبراهيم وإسماعيل القواعد من البيت ، فأبصروا حجارة كأنها الإبل الخلف لا يطيق الحجر منها ثلاثون رجلاً ، يحرك الحجر منها فترتج جوانبها ، قد تشبك بعضها ببعض ، فأدخل الوليد بن المغيرة عتلته بين الحجرين فانفلقت منه فلقة

عظيمة فأخذها أبو وهب بن عمرو بن عائذ بن عمران بن مخزوم فنزت من يده حتى عادت في مكانها وطارت من تحتها برقة كادت أن تخطف أبصارهم ورجفت مكة بأسرها ، فلما رأوا ذلك أمسكوا عن أن ينظروا ما تحت ذلك فلما جمعوا ما أخرجوا من النفقة قلت النفقة عن أن تبلغ لهم عمارة البيت كله ، فتشاوروا في ذلك فأجمع رأيهم على أن يقصروا عن القواعد ويحجروا ما يقدرون عليه من بناء البيت ويتركوا بقيته في الحجر عليه جدار مدار يطوف الناس من ورائه . ففعلوا ذلك وبنوا في بطن الكعبة أساساً يبنون عليه من شق الحجر وتركوا من ورائه من فناء البيت في الحجر ستة أذرع وشبراً ، فبنوا على ذلك ، فلما وضعوا أيديهم في بنائها قالوا : ارفعوا بابها من الأرض واكبسوها حتى لا تدخلها السيول ولا ترقى إلاّ بسلم ولا يدخلها إلا من أردتم ، إن كرهتم أحداً دفعتموه ، ففعلوا ذلك وبنوها بساف من حجارة ، وساف من خشب بين الحجارة حتى انتهوا إلى موضع الركن ، فاختلفوا في وضعه وكثر الكلام فيه ، وتنافسوا في ذلك. فقالت بنو عبد المناف وزهرة : هو في الشق الذي وقع لنا . وقالت تيم ومخزوم : هو في الشق الذي وقع لنا . وقالت سائر القبائل : لم يكن الركن مما استهمنا عليه .

فقال أبو أمية بن المغيرة : يا قوم إنما أردنا البر ، ولم نرد الشر فلا تحاسدوا ، ولا تنافسوا فإنكم إذا اختلفتم تشتت أموركم ، وطمع فيكم غيركم ولكن حكموا بينكم أول من يطلع عليكم من هذا الفج . قالوا : رضينا وسلمنا ، فطلع رسول الله ﷺ فقالوا : هذا الأمين قد رضينا به ، فحكموه ، فبسط رداءه ثم وضع فيه الركن فدعا من كل ربع رجلاً فأخذوا بأطراف الثوب فكان من بني عبد مناف عتبة بن ربيعة وكان في الربع الثاني أبو زمعة بن الأسود ، وكان أسن القوم ، وفي الربع الثالث العاصي بن وائل ، وفي الربع الرابع أبو حذيفة بن المغيرة فرفع القوم الركن وقام النبي ﷺ على الجدر ثم وضعه بيده فذهب رجل من أهل نجد ليناول النبي ﷺ حجراً ليشد به الركن ، فقال العباس بن عبد المطلب : لا ! فناول العباس النبي ﷺ حجراً فشد به الركن فغضب النجدي حيث نحى ، فقال النجدي : واعجباه لقوم أهل شرف وعقول وسن وأموال عمدوا إلى أصغرهم سناً ، وأقلهم مالاً فرأسوه عليهم في مكرمتهم وحوزهم كأنهم خدم له . أما والله ليفوتنهم سبقاً وليقسمن عليهم حظوظاً وجدوداً ويقال : إنه إبليس .

فبنوا حتى رفعوا أربعة أذرع وشبراً، ثم كبسوها ووضعوا بابها على هذا الذرع ورفعوها بمدماك خشب ومدماك حجارة حتى بلغوا السقف . فقال لهم باقوم الرومي : أتحبون أن تجعلوا سقفها مكبساً أو مسطحاً؟ فقالوا : بل ابن بيت ربنا مسطحاً . قال: فبنوه مسطحاً وجعلوا فيه ست دعائم في صفين في كل صف ثلاث دعائم من الشق الشامي الذي يلي الحجر إلى الشق اليماني وجعلوا ارتفاعها من خارجها من الأرض إلى أعلاها ثمانية عشر ذرعاً وكانت قبل ذلك تسعة أذرع فزادت قريش في ارتفاعها في السماء تسعة أذرع أخر ، وبنوها من أعلاها إلى أسفلها بمدماك من حجارة ومدماك من خشب ، وكان الخشب خمسة عشر مدماكاً والحجارة ستة عشر مدماكاً وجعلوا ميزابها يسكب في الحجر وجعلوا درجة من خشب في بطنها في الركن الشامي يصعد منها إلى ظهرها ، وزوقوا سقفها وجدرانها من بطنها ودعائمها وجعلوا في دعائمها صور الأنبياء ، وصور الشجر ، وصور الملائكة ، فكان فيها صورة إبراهيم خليل الرحمن ، شيخ يستقسم بالأزلام ، وصورة عيسى بن مريم وأمه ، وصورة الملائكة عليهم السلام أجمعين ..

فلما كان يوم فتح مكة دخل رسول الله ﷺ البيت ، فأرسل الفضل بن العباس بن عبد المطلب فجاء بماء زمزم ثم أمر بثوب وأمر بطمس تلك الصور ، فطمست . قال : ووضع كفيه على صورة عيسى بن مريم وأمه عليهما السلام وقال : امحوا جميع الصور إلا ما تحت يدي فرفع يديه عن عيسى بن مريم وأمه ونظر إلى صورة إبراهيم فقال : قاتلهم الله جعلوه يستقسم بالأزلام ، ما لإبراهيم وللأزلام ، وجعلوا لها باباً واحداً فكان يغلق ويفتح ، وكانوا قد أخرجوا ما كان في البيت من حلية ومال وقرني الكبش وجعلوه عند أبي طلحة عبدالله بن عبد العزى بن عثمان بن عبد الدار بن قصي وأخرجوا هبل وكان على الجب الذي فيه نصبه عمرو بن لحي هنالك ونصب عند المقام حتى فرغوا من بناء البيت فردوا ذلك المال في الجب وعلقوا فيه الحلية وقرني الكبش وردوا الجب في مكانه فيما يلي الشق الشامي ونصبوا هبل على الجب كما كان قبل ذلك وجعلوا له سلماً يصعد عليه إلى بطنها وكسوها حين فرغوا من بنائها حبرات يمانية . انتهى .

ولقد ورد في صحيح البخاري ، نقل رسول الله ﷺ الحجارة للكعبة في بناء قريش ، في باب مناقب الأنصار في باب بنيان الكعبة بما نصه : عن جابر بن عبدالله ، رضي الله عنهما ، قال : لما بنيت الكعبة ذهب النبي ﷺ وعباس ينقلان

الحجارة ، فقال عباس للنبي ﷺ: اجعل إزارك على رقبتك يقيك من الحجارة فخر إلى الأرض ، وطمحت عيناه إلى السماء ، ثم أفاق فقال : إزاري إزاري فشد عليه إزاره .

حدثنا أبو النعمان حدثنا حماد بن زيد عن عمرو بن دينار وعبيد الله بن أبي يزيد قالا: لم يكن على عهد النبي ﷺ حول البيت حائط كانوا يصلون حول البيت حتى كان عمر ، فبنى حوله حائطاً قال عبيد الله : جدره قصير فبناه ابن الزبير . انتهى .

ومسألة سقوط النبي ﷺ مغشياً عليه لانكشاف عورته ، قد وردت في الصحيحين فعن جابر بن عبدالله ، رضي الله تعالى عنهما ، قال : كان رسول الله ﷺ ينقل معهم الحجارة للكعبة وعليه إزاره ، فقال له العباس عمه : يا ابن أخي لو حللت إزارك فجعلته على منكبيك دون الحجارة ، قال : فحله فجعله على منكبيه ، فسقط مغشياً عليه ، فما رؤي بعد ذلك عرياناً ﷺ . رواه البخاري ومسلم .

قال شيخنا المحدث الشهير الشيخ محمد حبيب الله الشنقيطي رحمه الله تعالى في شرحه على كتابه «زاد المسلم فيما اتفق عليه البخاري ومسلم» عند هذا الحديث في الجزء السادس من الكتاب المذكور ما يأتي :

(فإن قيل) : كيف الجمع بين حديث المتن وما ذكره ابن إسحاق في السيرة من أنه عليه الصلاة والسلام تعرى وهو صغير عند حليمة ، فلكمه لاكم فلم يعد يتعرى بعد ذلك .

(أجيب) بأنه إن ثبت ما ذكره ابن إسحاق ، حمل على نفي التعري لغير ضرورة عادية ، وحمل الذي في حديث المتن على الضرورة العادية والنفي فيها على الإطلاق ، أو يتقيد بالضرورة الشرعية كحالة النوم مع الزوجة أحياناً .

وفي هذا الحديث منع التعري بحضرة الناس إلا ما رخص فيه شرعاً من رؤية الزوجات لأزواجهن عراة ، وفيه أيضاً أنه عليه الصلاة والسلام صانه الله على كل ما يستقبح قبل البعثة كما صانه عن ذلك بعدها .

ثم قال رحمه الله تعالى : وكان عمره ﷺ في ذلك الوقت خمساً وثلاثين سنة ، وقيل كان ذلك قبل المبعث بخمس عشرة سنة ، وقيل : كان عمره عليه

الصلاة والسلام إذ ذاك خمس عشرة سنة . انتهى باختصار من الجزء السادس من كتاب زاد المسلم المذكور .

قال الأزرقي : حدثني جدي قال : حدثنا داود بن عبدالرحمن عن ابن أبي نجيح عن أبيه عن حويطب بن عبد العزى قال : كانت في الكعبة حلق أمثال لجم البهم يدخل الخائف فيها يده فلا يريبه أحد ، فجاء خائف ليدخل يده فاجتذبه رجل فشلت يده فلقد رأيته في الإسلام وإنه لأشل .

حدثني جدي قال : حدثنا داود بن عبدالرحمن عن ابن جريج قال : سأل سليمان بن موسى الشامي عطاء بن أبي رباح وأنا أسمع أدركت في البيت تمثال مريم وعيسى قال : نعم أدركت فيها تمثال مريم مزوقاً في حجرها عيسى ابنها قاعداً مزوقاً . قال : وكانت في البيت أعمدة ست سواري وصفها كما نقطت في هذا التربيع :

*	*	*
*	*	*

قال : وكان تمثال عيسى بن مريم ومريم عليهما السلام ، في العمود الذي يلي الباب . قال ابن جريج : فقلت لعطاء : متى هلك؟ قال : في الحريق في عصر ابن الزبير وقلت : أعلى عهد النبي ﷺ كان ؟ قال : لا أدري وإني لأظنه قد كان على عهد النبي ﷺ . قال له سليمان : أفرأيت تماثيل صور كانت في البيت ، من طمسها؟ قال : لا أدري غير أني أدركت من تلك الصور اثنين درسهما واراهما والطمس عليهما. قال ابن جريج : ثم عاودت عطاء بعد حين فخط لي ست سواري كما خططت ثم قال : تمثال عيسى وأمه عليهما السلام في الوسطى من اللاتي تلين الباب الذي يلينا إذا دخلنا . قال ابن جريج : الذي خط هذا التربيع ونقط هذا النقط .

حدثني جدي قال : حدثنا داود بن عبدالرحمن عن عمرو بن دينار قال : قال : أدركت في بطن الكعبة قبل أن تهدم تمثال عيسى بن مريم وأمه . انتهى كل ما تقدم من تاريخ الأزرقي .

وضع رسول الله ﷺ الحجر الأسود بيده في محلة الكعبة

جاء في تاريخ الأزرقي عند آخر الكلام على بناء قريش الكعبة في مسألة اختصامهم ، أي القبائل ترفع الحجر الأسود لوضعه في محله في الكعبة ثم رضوا بحكم رسول الله ﷺ ما خلاصته :

قال أبو أمية بن المغيرة : يا قوم إنما أردنا البر ، ولم نرد الشر فلا تحاسدوا ، ولا تنافسوا . فإنكم إذا اختلفتم تشتت أموركم ، وطمع فيكم غيركم ، ولكن حكموا بينكم أول من يطلع عليكم من هذا الفج . قالوا : رضينا وسلمنا ، فطلع رسول الله ﷺ فقالوا : هذا الأمين قد رضينا به ، فحكموه ، فبسط رداءه ثم وضع فيه الركن فدعا من كل ربع رجلاً فأخذوا بأطراف الثوب (وذكر الأزرقي أسماءهم) فرفع القوم الركن وقام النبي ﷺ على الجدر ثم وضعه بيده ، فبنوا حتى رفعوا أربعة أذرع وشبراً ثم كبسوها ووضعوا بابها مرتفعاً على هذا الذرع .. إلى آخر الكلام. وأبو أمية بن المغيرة المذكور هو الذي اقترح على قريش حين اختلفت على بنيان البيت وقال : يا معشر قريش لا تنافسوا ولا تباغضوا ولكن جزؤوا البيت أربعة أجزاء ثم ربعوا القبائل فلتكن أرباعاً ثم اقترعوا عند هبل في بطن الكعبة على جوانبها فاختص كل قوم بجانب منها (وقد ذكر الأزرقي أسماءهم) .

وفي ذلك قال رسول الله ﷺ: أنا وضعت الركن بيدي يوم اختلفت قريش في وضعه . وعن ابن أبي تجراة عن أمه قالت : أنا أنظر إلى رسول الله ﷺ يضع الركن بيده ، فقلت : لمن الثوب الذي وضع فيه الحجر؟ قالت : للوليد بن المغيرة ، ويقال : حمل الحجر في كساء طاروني كان للنبي ﷺ. والوليد بن المغيرة هو الذي أول من ارتقى على جدر البيت عند هدمه ومعه الفأس فقال : اللهم إنا لا نريد إلا الإصلاح ثم هدم فهمدت قريش معه بعد ذلك ، والوليد بن المغيرة أيضاً هو الذي أدخل عتلته بين حجرين من الأساس الأول للبيت الذي رفع عليه إبراهيم وإسماعيل القواعد من البيت فانفلقت منه فلقة عظيمة فأخذها أبو وهب بن عمرو فنزت من يده حتى عادت في مكانها ، والوليد بن المغيرة أيضاً هو الذي قال لقريش : لا تدخلوا في عمارة بيت ربكم إلا من طيب أموالكم فلا تدخلوا فيه مالاً من ربا ولا ميسر ولا مهر بغي ففعلوا حسب كلامه ، وقيل قائله أبو أحيحة سعيد بن العاصي والله تعالى أعلم .

والوليد بن المغيرة هو أيضاً كان أول من خلع الخف والنعل فلم يدخل البيت بهما إعظاماً له وذلك حينما فرغت قريش من بنائه فجرى ذلك سنة .

وقيل اسم القائل : حكموا بينكم من يطلع من هذا الباب حين اختلفت قريش في وضع الركن ، هو أبو حذيفة بن المغيرة ، وهو أيضاً من النفر الذين رفعوا الثوب الذي وضع رسول الله ﷺ فيه الحجر الأسود وأبو حذيفة بن المغيرة هو الذي قال لقريش حين بناء الكعبة ارفعوا بابها من الأرض حتى لا يدخل عليكم إلا بسلم فإنه لا يدخل عليكم إلا من أردتم . انتهى مختصراً من الأزرقي .

قال الأزرقي : حدثني محمد بن يحيى عن الواقدي عن الوليد بن كثير عن يعقوب بن عتيبة قال : اجتمع عند معاوية بن أبي سفيان ، وهو خليفة نفر من قريش منهم جعدة بن هبير ، وعبدالرحمن بن الحارث بن هشام ، والحارث بن عبدالله بن أبي ربيعة ، وعبدالله بن زمعة بن الأسود ، فتذاكروا أحاديث العرب فقال معاوية : من الرجل الذي نزا الحجر من يده حين حفر أساس البيت حتى عاد مكانه؟ قالوا : من أعلم من أمير المؤمنين بهذا . قال : علي ذلك ، ليس كل العلم وعيناه ولا حفظناه . لقد علمنا أموراً فنسيناها ، قالوا جميعاً : هو أبو وهب بن عمرو بن عائذ بن عمران بن مخزوم ، قال معاوية : كذلك كنت أسمع من أبي وكان حاضراً في ذلك اليوم : قال : فمن قال حين اختلفت قريش في بنيان مقدم البيت : يا معشر قريش لا تنافسوا ولا تباغضوا فيطمع فيكم غيركم ولكن جزءوا البيت أربعة أجزاء ثم ربعوا القبائل فلتكن أرباعاً؟ قالوا : إنه أبو أمية بن المغيرة ، قال : هكذا كنت أسمع أبي يقول . قال : فمن القائل حين اختلفت قريش في وضع الركن حكموا بينكم أول من يطلع من هذا الباب؟ قال : أبو حذيفة بن المغيرة . قال : نعم ! قال : فمن النفر الذين رفعوا الثوب حين وضعه رسول الله ﷺ قال : جدك عتبة بن ربيعة أحدهم ، قال : كذلك كنت أسمع أبي يقول . قال : فمن كان من الربع الثاني؟ قالوا : أبو زمعة بن الأسود بن المطلب قال : كذلك كنت أسمع أبي يقول . قال : فمن كان في الربع الثالث؟ قالوا: أبو حذيفة بن المغيرة . قال : كذلك كنت أسمع أبي يقول . قال : فمن كان في الربع الرابع؟ قالوا : أبو قيس بن عدي السهمي ، قال : هذه واحدة قد أخذتها عليكم العاصي بن وائل ، قال : فمن قال يا معشر قريش لا تدخلوا في عمارة بيت ربكم إلا طيباً من كسبكم؟

قالوا : أبو حذيفة بن المغيرة ، قال : هذه أخرى قد أخذتها عليكم القائل هذا والمتكلم به أبو أحيحة سعيد بن العاصي ، قال : فأسكت القوم .

جاء في مرآة الحرمين لإبراهيم رفعت باشا ما يأتي :

لما اختلفت قريش فيمن يضع الحجر الأسود في محله حين بنائهم الكعبة ورضوا أن يحكموا بينهم أول رجل من باب المسجد ، فكان رسول الله ﷺ ، فرضوا به ، فوضعه في ثوب وأخذ كل قبيلة بناحية حتى إذا بلغوا به موضعه أخذه هو بيده الشريفة ووضعه فيه ثم بنى عليه . وفي ذلك يقول هبيرة بن وهب :

تشاجرت الأحياء في عضل حطه	جرت طيرهم بالخس من بعد أسعد
تلاقوا بها البغضاء بعد مودة	وأوقد ناراً بينهم شر موقد
فلما رأينا الأمر قد جد جده	ولم يبق شيء غير سل المهند
رضينا وقلنا العدل أول طالع	يجيء من البطحاء من غير موعد
ففاجأنا هذا الأمين محمد	فقلنا رضينا بالأمين محمد
بخير قريش كلها أمس شيمة	وفي اليوم مهما يحدث الله في غد
فجاء بأمر لم ير الناس مثله	أعم وأرضى في العواقب واليد
أخذنا بأطراف الرداء وكلنا	له حقه من رفعه قبضة اليد
وقال ارفعوا حتى إذا ما علت به	أكفهم وافى به خير مسند
وكل رضينا فعله وصنيعه	فأعظم به من رأي هاد ومهتد
وتلك يد منه علينا عظيمة	يروح بها هذا الزمان ويفتدي

قال ابن كثير في تفسيره رحمه الله تعالى عند قوله تعالى: ﴿وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم﴾ ما نصه :

ذكر بناء قريش الكعبة بعد إبراهيم الخليل عليه السلام بمدد طويلة ، وقبل مبعث رسول الله ﷺ بخمس سنين ، وقد نقل معهم في الحجارة وله من العمر خمس وثلاثون سنة ، صلوات الله وسلامه عليه دائما إلى يوم الدين.

قال محمد بن إسحاق بن يسار في السيرة : ولما بلغ رسول الله ﷺ خمساً وثلاثين سنة اجتمعت قريش لبنيان الكعبة وكانوا يهمون بذلك ، ليسقفوها ويهابون هدمها ، وإنما كانت رضماً فوق القامة فأرادوا رفعها وتسقيفها ، وذلك أن نفراً سرقوا كنز الكعبة وإنما كان يكون في بئر جوف الكعبة ، وكان الذي

وجد عنده الكنز دويك مولى بني مليح بن عمرو من خزاعة فقطعت قريش يده ، ويزعم الناس أن الذين سرقوه وضعوه عند دويك ، وكان البحر قد رمى بسفينة إلى جدة لرجل من تجار الروم فتحطمت ، فأخذوا خشبها فأعدوه لتسقيفها ، وكان بمكة رجل قبطي نجار فهيأ لهم في أنفسهم بعض ما يصلحها ، وكانت حية تخرج من بئر الكعبة التي كانت تطرح فيها ما يهدى لها كل يوم فتشرف على جدار الكعبة وكانت مما يهابون ، وذلك أنه كان لا يدنوا منها أحد إلا احزألت وكشت وفتحت فاها فكانوا يهابونها ، فبينا هي يوماً تشرف على جدار الكعبة كما كانت تصنع ، بعث الله تعالى إليها طائراً فاختطفها فذهب بها ، فقالت قريش : إنا لنرجوا أن يكون الله قد رضي ما أردنا ، عندنا عامل رفيق وعندنا خشب وقد كفانا الله الحية ، فلما أجمعوا أمرهم في هدمها وبنيانها ، قام أبو وهب بن عمرو بن عائذ بن عبد بن عمران ابن مخزوم فتناول من الكعبة حجراً فوثب من يده حتى رجع إلى موضعه ، فقال : يا معشر قريش لا تدخلوا في بنيانها من كسبكم إلا طيباً ، لا يدخل فيها مهر بغي ولا بيع ربا ولا مظلمة أحد من الناس ، قال ابن إسحاق : والناس ينتحلون هذا الكلام للوليد بن المغيرة بن عبدالله بن عمرو ابن مخزوم .

قال : ثم إن قريشاً تجزأت الكعبة فكان شق الباب لبني عبد مناف وزهرة ، وكان ما بين الركن الأسود والركن اليماني لبني مخزوم وقبائل من قريش انضموا إليهم ، وكان ظهر الكعبة لبني جمح وسهم ، وكان شق الحجر لبني عبد الدار بن قصي ولبني أسد ابن عبد العزى بن قصي ولبني عدي بن كعب ابن لؤي وهو الحطيم ، ثم إن الناس هابوا هدمها وفرقوا منه ، فقال الوليد بن المغيرة : أنا أبدؤكم في هدمها ، فأخذ المعول ثم قام عليها وهو يقول : اللهم لم ترع ، اللهم إنا لا نريد إلا الخير ، ثم هدم من ناحية الركنين ، فتربص الناس تلك الليلة وقالوا ننظر ، فإن أصيب لم نهدم منها شيئاً ورددناها كما كانت ، وإن لم يصبه شيء فقد رضي الله ما صنعنا ، فأصبح الوليد من ليلته غادياً على عمله فهدم وهدم الناس معه ، حتى إذا انتهى الهدم بهم إلى الأساس أساس إبراهيم ، عليه الصلاة والسلام ، أفضوا إلى حجارة خضر كالأسنة آخذ بعضها بعضاً ، قال : فحدثني بعض من يروي الحديث أن رجلاً من قريش ممن كان يهدمها ، ادخل عتلة بين حجرين منها ليقلع بها أحدهما ، فلما تحرك الحجر انتفضت مكة بأسرها فانتهوا عن ذلك الأساس .

قال ابن إسحاق : ثم إن القبائل من قريش جمعت الحجارة لبنائها كل قبيلة تجمع على حدة ، ثم بنوها حتى بلغ البنيان موضع الركن يعني الحجر الأسود فاختصموا فيه ، كل قبيلة تريد أن ترفعه إلى موضعه دون الأخرى ، حتى تحاوروا وتحالفوا وأعدوا للقتال ، فقربت بنو عبد الدار جفنة مملوءة دماً ثم تعاقدوا هم وبنو عدي ابن كعب بن لؤي على الموت ، وأدخلوا أيديهم في ذلك الدم في تلك الجفنة فسموا « لعقة الدم » ، فمكثت قريش على ذلك أربع ليالي أو خمساً ، ثم إنهم اجتمعوا في المسجد فتشاوروا وتناصفوا ، فزعم أهل الرواية أن أبا أمية بن المغيرة بن عبدالله بن عمرو بن مخزوم وكان عامئذ أسن قريش كلهم قال : يا معشر قريش اجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه أول من يدخل من باب هذا المسجد يقضي بينكم فيه ، ففعلوا فكان أول داخل رسول الله ﷺ فلما رأوه قالوا : هذا الأمين رضينا هذا محمد ، فلما انتهى إليهم وأخبروه الخبر قال ﷺ : هلم إلي ثوباً ، فأتي به فأخذ الركن يعني الحجر الأسود فوضعه فيه بيده ، ثم قال : لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب ثم ارفعوه جميعاً ، ففعلوا حتى إذا بلغوا به موضعه وضعه هو بيده ﷺ ثم بنى عليه ، وكانت قريش تسمي رسول الله ﷺ قبل أن ينزل عليه الوحي الأمين ، فلما فرغوا من البنيان وبنوها على ما أرادوا ، قال الزبير بن عبد المطلب فيما كان من أمر الحية التي كانت قريش تهاب بنيان الكعبة لها :

عجبت لما تصوبت العقاب	إلى الثعبان وهي لها اضطراب
وقد كانت يكون لها كشيش	وأحياناً يكون لها وثاب
إذا قمنا إلى التأسيس شدت	تهيبنا البناء وقد تهاب
فلما أن خشينا الرجز جاءت	عقاب تتلئب لها انصباب
فضمتها إليها ثم خلت	لنا البنيان ليس لها حجاب
فقمنا حاشدين إلى بناء	لنا منه القواعد والتراب
غداة نرفع التأسيس منه	وليس على مساوينا ثياب
أعز به المليك بني لؤي	فليس لأصله منهم ذهاب
وقد حشدت هناك بنو عدي	ومرة قد تقدمها كلاب
فبوأنا المليك بذاك عزاً	وعند الله يلتمس الثواب

قال ابن إسحاق : وكانت الكعبة على عهد النبي ﷺ ثماني عشر ذراعاً ، وكانت تكسى القباطي ثم كسيت بعد البرود ، وأول من كساها الديباج الحجاج بن يوسف . انتهى كل ذلك من تفسير ابن كثير ، رحمه الله تعالى .

نقول : والسبب الذي دفع بني عبد الدار إلى إحضار جفنة مملوءة بالدم وإدخال أيديهم فيها وتعاقدهم مع بني عدي بن كعب بن لؤي على الموت ، هو أن بني عبدالدار هم من أشراف قريش ، فإنهم من ذرية قصي بن كلاب الجد الرابع للنبي ﷺ وقصي كان ملكاً على مكة المشرفة وبيده أمر البيت الحرام ، وقد خلف من الأولاد أربعة وهم : (١) عبد مناف ، وهو الجد الثالث لرسول الله ﷺ (٢) وعبد الدار ، وهو سادن البيت الحرام وبيده مفتاح الكعبة ، ومن ولده عثمان بن طلحة ، وهو الذي أعطاه رسول الله ﷺ مفتاح الكعبة ولابن أخيه شيبة بن عثمان بن أبي طلحة رأس الشيبيين ، وقال: « خذوها يا بني أبي طلحة خالدة تالدة لا ينزعها منكم إلا ظالم » (٣) وعبد العزى ، وهو جدّ الأسديين ومنهم أم المؤمنين خديجة ، رضي الله تعالى عنها (٤) وعدي ، ومنه قريش الظواهر .

وحيث إن بني عبد الدار هم سدنة الكعبة وبيدهم مفتاحها ، فقد رأوا أنهم أولى الناس برفع الحجر الأسود ووضعه في محله من البيت ، وأخذتهم الحمية والحماسة لذلك واستعدوا لقتال من يمنعهم عن رفع الركن الأسود ، وتعاقدوا مع بني عدي بن كعب على الموت على جفنة الدم ، واختيارهم لبني عدي بن كعب في المعاقدة ، لأنهم شركاؤهم في شق الحجر وهو الحطيم ، عندما جزأت قريش الكعبة كما تقدم بيانه ، لكن هذه الغمة قد انجلت وانكشفت بفضل رسول الله ﷺ وعظيم حكمته ، حيث رضي الجميع به حكماً وقاموا باتباع رأيه السديد ، وكفى الله عباده القتال .

الخلاصة في كيفية بناء قريش

فخلاصة الكلام المتقدم كما ذكرناها في كتابنا « مقام إبراهيم عليه السلام » المطبوع بمصر : هي أن قريشاً بنت الكعبة قبل بعثة رسول الله ﷺ ، بخمس سنين على الأشهر ، أي سنة خمس وثلاثين من ولادته عليه الصلاة والسلام ، ولقد اشترك رسول الله ﷺ مع قريش في بناء بيت الله المعظم فكان يحمل الحجارة على

كتفه ولما وصل البناء إلى محل الحجر الأسود اختلفوا فيما بينهم على من يضعه في مكانه ثم اتفقوا على أن يضعه النبي الأمي الأمين فوضعه ﷺ بيده الشريفة وأحكم محله كما هو مفصل في كتب السير ، ثم إن قريشاً نقصوا من عرض الكعبة من جهة الحجر ستة أذرع وشبراً لقلة النفقة الحلال التي جمعوها لعمارتها وأداروا على الحجر جداراً قصيراً يطوف الناس من ورائه ، وجعلوا بابها مرتفعاً عن الأرض وكبسوه بالحجارة حتى لا تدخل السيول فيها وحتى يدخلوا فيها من شاؤوا ويمنعوا من أرادوا وجعلوا الباب مصراعاً واحداً وأبقوا فيها جب الكعبة ، أي خزانتها التي يلقى فيها ما يهدى إليها ، وجعلوا في داخلها ست دعائم في صفين في كل صف ثلاث دعائم ، وجعلوا لها سقفاً وميزاباً من الجهة الشمالية مصبة على حجر إسماعيل عليه السلام ، وكانت قبل ذلك بلا سقف ، وجعلوا ارتفاعها من الأرض إلى السماء ثمانية عشر ذراعاً ، وجعلوا لها ركنين ، ولم يجعلوا لها أركاناً من جهة الحجر بل جعلوها مدورة علي صفة بناء إبراهيم عليه السلام ، وكان الناس كذلك يبنون بيوتهم مدورة تعظيماً للكعبة . فأول من بنى بيتاً مربعاً حميد بن زهير فقالت قريش : ربع حميد بيتاً إما حياة وإما موتاً . وبعد أن تم بناؤها كسوها كسوة معتبرة .

وسبب بناء قريش للكعبة : أن امرأة منهم أجمرت الكعبة فطارت شرارة بجمرتها في كسوتها فاحترقت وتصدعت وتوهنت جدارنها من كل جانب ، وكانت الكعبة قبل بناء قريش مبنية برضم يابس ليس بمدر ، تدلى الكسوة على الجدر من خارج وتربط من أعلى الجدر من باطنها . فبنتها قريش بالطين والذي بناها لهم اسمه « باقوم الرومي » وقد بنت قريش الكعبة من جبل حراء ومن جبل ثبير ومن المقطع ، ومن قافية الخندمة ، ومن جبل عند الثنية البيضاء في طريق جدة ، ومن جبل بأسفل مكة يقال له مقلع الكعبة ، ومن مزدلفة من حجر بها يقال له المفجر كما في تاريخ الأزرقي ، وفيه قال مسلم بن خالد : ولم يثبت أنها بنيت من غير هذه الأجبل .

مميزات بناء قريش

١- بنت قريش الكعبة المعظمة قبل بعثة رسول الله ﷺ بخمس سنين على الأشهر .

٢- كان عليه الصلاة والسلام ، يبني معهم ويحمل الحجارة على عاتقه .
٣- وبنت قريش الكعبة المعظمة على أساس بناء إبراهيم عليه الصلاة والسلام .
٤- ونقصوا من عرض الكعبة من جهة حجر إسماعيل ستة أذرع وشبراً ، كما هي عليه اليوم .
٥- وزادوا في ارتفاعها من الأرض إلى السماء فصار ثمانية عشر ذراعاً.
٦- وجعلوها مدورة من جهة حجر إسماعيل فقط كما كانت في بناء إبراهيم عليه السلام .
٧- وأبقوا فيها جب وخزانتها كما كانت .
٨- وأداروا على حجر إسماعيل جداراً قصيراً ، وكان في بناء إبراهيم من شجر الأراك .
٩- ورفعوا باب الكعبة عن الأرض وكبسوه بالحجارة ، حتى لا تدخلها السيول ولا يدخلها كل إنسان .
١٠- وجعلوا بابها مصراعاً واحداً يقفل ويفتح .
١١- وجعلوا لها سقفاً وميزاباً لتصريف مياه الأمطار من سطحها يكون مصبها في الحجر .
١٢- وجعلوا في داخل الكعبة ست دعائم في صفين في كل صف ثلاث دعائم من الشق الشامي الذي فيه حجر إسماعيل إلى الشق اليماني .
١٣- وجعلوا في داخلها من الركن الشامي درجة من خشب من الركن الشامي يصعد فيها إلى ظهرها .
١٤- وبنوها بالطين وكانت من قبل مبنية بالرضم ، بناها لهم باقوم الرومي ، وكسوها كسوةً جميلة ، وكانت الكسوة على الكعبة من قبل هذه البناية ومن بعدها .
١٥- وزوقوا سقفها وجدرانها من بطنها ودعائمها ، ورسموا في دعائمها صور الأنبياء والملائكة والشجر ، فلما كان يوم الفتح أمر رسول الله ﷺ بطمس تلك الصور فطمست .

ترجمة الوليد بن المغيرة المخزومي

الوليد بن المغيرة هو عم أبي جهل، كان من عظماء قريش وكان ميسور الحال في سعة من العيش مات كافراً، ولما بنت قريش الكعبة وهابوا من هدمها، كان هو أول من بدأ في هدمها، فأخذ المعول ثم قام على الكعبة وهو يقول: اللهم لم ترع اللهم إنا لا نريد إلا الخير، ثم هدم من ناحية الركنين، فتربص الناس في تلك الليلة وقالوا: ننظر إن أصيب لم نهدم منها شيئاً ورددناها كما كانت، وإن لم يصبه شيء فقد رضي ا لله ما صنعنا فأصبح الوليد من ليلته غادياً على عمله فهدم وهدم الناس معه، وهو الذي قال: يا معشر قريش لا تدخلوا في بنيان الكعبة من كسبكم إلا طيباً، لايدخل فيها مهر بغي ولا بيع ربا ولا مظلمة أحد من الناس. وقيل: قائل ذلك هو أبو وهب بن عمرو ابن عائذ وهو خال عبدا لله والد النبي ﷺ وا لله تعالى أعلم.

ولما بعث ا لله عز وجل نبينا محمداً ﷺ إلى الناس كافة ليخرجهم من الظلمات إلى النور، وجهر بالدعوة الى عبادة ا لله تعالى وترك الأصنام، ناصبته قريش العداء واستهزؤا به وآذوه، فكان منهم الوليد بن المغيرة المذكور، ومن العجيب أنه كان عاقلاً فطناً ذكياً لبيباً، ومع ذلك لم يرشده عقله إلى الخير والمبادرة إلى الإيمان با لله ورسوله. لقد سمع مرة القرآن من رسول ا لله ﷺ فقال لقومه بني مخزوم: وا لله لقد سمعت من محمد آنفاً كلاماً ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن، وإن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر وإن أسفله لمغدق، وإنه يعلو ولا يعلى.

فقالت قريش: صبأ وا لله الوليد، لتصبأن قريش كلها، فقال أبو جهل أنا أكفيكموه، فتوجه وقعد حزيناً وكلمه بما أحماه، فقام الوليد فأتاهم فقال: تزعمون أن محمداً مجنون فهل رأيتموه يهوس، وتقولون أنه كاهن فهل رأيتموه يتكهن، وتزعمون أنه شاعر فهل رأيتموه يتعاطى الشعر قط، وتزعمون أنه كذاب فهل جربتم عليه شيئاً من الكذب؟ فقالوا في كل ذلك: اللهم لا، ثم قالوا فما هو؟ ففكر قليلاً ثم قال: ما هو إلا ساحر، أما رأيتموه يفرق بين الرجل وأهله وولده ومواليه، فارتجّ النادي فرحاً.

إنَ الوليد لو مضى على تأمله وتفكره لهداه عقله إلى الإيمان برسول ا لله ﷺ ، ولكن استحوذ عليه الشيطان فنكص على عقبيه واستمسك بدين قومه ، واشتدت عداوته لرسول ا لله ﷺ ، وكثر فساده وصد عن سبيل ا لله فضل وأضل ولذلك اشتد غضب ا لله عليه فأنزل في شأنه بعض آيات في سورة المدثر ، فقال عز شأنه وجل جلاله : ﴿ذرني ومن خلقت وحيداً ۞ وجعلت له مالاً ممدودا ۞ وبنين شهودا ۞ ومهدت له تمهيدا ۞ ثم يطمع أن أزيد ۞ كلا إنه كان لآياتنا عنيدا ۞ سأرهقه صعودا﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ثم أدبر واستكبر ۞ فقال إن هذا إلا سحر يؤثر ۞ إن هذا إلا قول البشر ۞ سأصليه سقر﴾ وأنزل أيضاً في حقه بضع آيات في سورة القلم ، فقال تبارك وتعالى : ﴿ولا تطع كل حلاف مهين ۞ هماز مشاء بنميم ۞ مناع للخير معتد أثيم﴾ إلى قوله عز شأنه : ﴿إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين ۞ سنسمه على الخرطوم﴾.

لم يزل الوليد بن المغيرة على كفره وطغيانه ، لا يرتدع ولا يعتبر ولا ينزجر ولا يفتكر ، حتى وافاه الأجل المحتوم وأنه لما حضرته الوفاة جزع جزعاً شديداً ، وكان عنده أبو جهل ، فقال له ما جزعك يا عم؟ فقال الوليد : وا لله ما بي من جزع من الموت ولكن أخاف أن يظهر دين ابن أبي كبشة ، فقال له أبو سفيان : لا تخف ، إني ضامن أن لا يظهر . ثم مات الوليد وكان موته بمكة في السنة الأولى من الهجرة.

فانظر عافانا ا لله وإياك من الأمراض الظاهرة والباطنة والحسية والمعنوية ، إلى هذا الضلال المبين الذي ذهب اليه الوليد بن المغيرة ، وإلى عظيم كفره وشدة كراهيته لدين الإسلام ، ولرسول السلام إلى جميع الأنام ، عليه أفضل الصلاة وأتم السلام أنه في حال احتضاره لا يجزع لموته ومفارقة أهله وأولاده ، ولكنه يجزع ويخاف من ظهور الإسلام ، إنه يصرح بذلك في لحظة مفارقته للدنيا ، بدلاً من أن يندم ويتوب ويستغفر ، فالحمد لله الذي شرح صدورنا للإسلام وزين في قلوبنا الإيمان والخير والتقوى ، وكره إلينا الكفر والفسوق والعصيان ، اللهم صل وسلم وبارك على عبدك ونبيك سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

ترجمة قريش

العرب صفوة البشر وقريش قلب العرب وصفوتها ، ولا يمكننا الإسهاب في بيان فضلها وأنسابها وقبائلها ، لأن ذلك يحتاج إلى مؤلف خاص ، وإنما نذكر عن قريش نبذة يسيرة لمناسبة بنائها الكعبة المشرفة ملخصاً من كتاب العقد الفريد وغيره فنقول :

كانت قريش تدعى النضر بن كنانة ، وكانوا متفرقين في بني كنانة ، فجمعهم قصي بن كلاب الجد الرابع للنبي ﷺ من كل أوب إلى البيت فسموا قريشاً ، والتقريش : التجميع ، ويسمى لذلك قصي بن كلاب مجمعاً ، قال فيه الشاعر :

قصي أبوكم من يسمى مجمعاً　　　به جمع الله القبائل من فهم

وكانت قريش تسمى آل الله وجيران الله وسكان الله ، وفي ذلك يقول عبدالمطلب بن هاشم :

نحن آل الله في ذمته　　　لم نزل فيها على عهد قدم

إن للبيت لرباً مانعاً　　　من يرد فيه بإثم يخترم

لم تزل لله فينا حرمة　　　يدفع الله بها عنا النقم

ولقد ورد في فضل قريش جملة أحاديث منها : قوله ﷺ: « الأئمة من قريش أبرارها أمراء أبرارها ، وفجارها أمراء فجارها ، وإن أمرت عليكم قريش عبداً حبشياً مجدعاً فاسمعوا له وأطيعوا ما لم يخير أحدكم بين إسلامه وضرب عنقه ، فإن خير بين إسلامه وضرب عنقه فليقدم عنقه » . رواه الحاكم في المستدرك والبيهقي في سننه .

وقوله عليه الصلاة والسلام : « قدموا قريشاً ولا تقدموها » وقوله صلوات الله وسلامه عليه : « إن الله تعالى اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل ، واصطفى من ولد إسماعيل كنانة ، واصطفى من كنانة قريشاً ، واصطفى من قريش بني هاشم ، واصطفاني من بني هاشم » وقوله عليه الصلاة والسلام : « إن الله تعالى خلق الخلق فجعلني في خير فرقهم وخير الفريقين ثم تخير القبائل فجعلني في خير قبيلة ثم تخير البيوت فجعلني في خير بيوتهم فأنا خيرهم نفساً وخيرهم بيتاً » .

هذا ولقد حضر رسول الله ﷺ بناء قريش الكعبة ، فكان ينقل الحجارة مع قريش ، كما حضر بناءها نخبة من رؤساء قريش ووجهائها منهم الوليد بن المغيرة ، وهو أول من علا الكعبة وهدمها وقال : اللهم إنا لا نريد إلا الإصلاح ، ثم تبعته قريش فهدموا معه بعد أن هابوا هدمها أولاً ، وأبو جهل وقد حضر بناء ابن الزبير أيضاً وستأتي ترجمته ، والعباس ابن عبد المطلب ، وأبو أمية بن المغيرة ، وعتبة بن ربيعة ، وأبو زمعة بن الأسود ابن المطلب ، والعاص بن وائل ، وأبو حذيفة بن المغيرة ، وأبو وهب بن عمرو ابن عائذ بن عمران بن مخزوم ، وأبو سفيان ، وأبو أحيحة سعيد بن العاص .

وغيرهم ممن لم نبحث عن أسمائهم حيث لم نقصد حصرهم ، وإنما ذكرنا هؤلاء للعلم بهم في الجملة ، ولم نتعرض لتراجمهم حتى لا يطول بنا الكلام .

وفي الأزرقي كان رسول الله ﷺ قال لعثمان بن طلحة يوماً وهو بمكة يدعوه إلى الإسلام ومع عثمان مفتاح الكعبة فقال ﷺ : « لعلك سترى هذا المفتاح يوماً بيدي أصنعه حيث شئت » فقال عثمان : لقد هلكت قريش يومئذ وذلت . فقال رسول الله ﷺ : « بل عزت وعمرت يومئذ يا عثمان » اهـ .

ثم لما كان يوم الفتح أخذ ﷺ المفتاح من عثمان بن طلحة ففتح الكعبة ودخلها ثم لما خرج والمفتاح في يده دعا عثمان ودفعه إليه وقال : خذوها يا بني طلحة تالدة خالدة لا ينزعها منكم إلا ظالم .

ولما غزا رسول الله ﷺ الطائف وحاصرها ثم رجع قبل فتحها طلب منه بعض الصحابة أن يدعو على ثقيف فقال : (اللهم اهد ثقيفاً وائت بهم مسلمين) . ومثل ذلك في قريش اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون . ومثله حين فتح مكة بل عزت قريش .

ترجمة باقوم الرومي

كان باقوم الرومي تجاراً بانياً يتجر جهة ساحل عدن ، فحمل في سفينة خشباً فلما وصل إلى الشعيبة قبل جدة تبعد عنها مرحلتين ،وهي معروفة إلى اليوم ، انكسرت السفينة فسمعت بها قريش فاشتروا خشبها لسقف الكعبة ، وأذنوا لأهلها أن يدخلوا مكة ليبيعوا ما معهم من المتاع على أن لا يعشروهم ، واتفقوا مع باقوم أن يقدم معهم مكة ويبني لهم الكعبة بنيان الشام ، فلما بنوا الكعبة وبلغوا

السقف قال لهم باقوم : أتحبوا أن تجعلوا سقفها مكبساً أو مسطحاً فقالوا : بل ابن بيت ربنا مسطحاً فبنوا مسطحاً ، ومعنى مكبساً : محدباً كالقبة .

هذا جزء من ترجمة باقوم الرومي ، ثم رأينا أن الأستاذ الكبير وزير المعارف المصرية الأسبق ، قد كتب عن « باقوم الرومي » قصة طريفة حلوة بقلمه البليغ وبلون من الأدب الرفيع ، في الجزء الثاني من كتابه «على هامش السيرة» بعنوان « حديث باخوم » بالخاء المعجمة .

قال حفظه الله تعالى بعد أن ذكر في الحكاية ما دار من الحديث بين القوم والقسيس عند اجتماعهم للسمر جزءاً يسيراً ما يأتي :

وهنا تكلم « باخوم » فخفتت الأصوات وأنصت الناس ، وكان « باخوم » شيخاً من شيوخ القرية ، قد عرف بطول الصمت خارج الكنيسة وكثرة الصلاة إذا كان فيها ، كما عرف بالوقار والأناة إذا تحرك أو تكلم ، وكما عرف بهذه الهيبة التي كانت تفيض على وجهه ، وهذه المحبة التي كانت تجذب إليه الناس .

وكان « باخوم » رجلاً قد طوف في الأرض أول شبابه فأكثر التطويف ولم يكن يلم بقريته إلا ليمكث فيها العام أو بعض العام ، ثم يرتحل عنها فيغيب عنها الأشهر حيناً ، والعام حيناً آخر ، وربما امتدت غيبته فبلغت العامين ، ولكنه كان ينتهي دائماً بالعودة إلى قريته والإقامة فيها حيناً . وكان لا يعود إلا ومعه فضل من مال يبر به خاصته وذوي قرباه ، ويحسن به إلى الفقراء والبائسين ، وشيء من الطرف النادرة يتحف به الأغنياء وأصحاب اليسار .

وكان قد نشأ عاملاً يرافق البنائين حتى تعلم صناعتهم ، وأحسن من فنونهم ما يحسن أهل القرى ، وكان ذلك لم يكفه ولم يغنه ، فارتحل إلى المدن فجود فنه شيئاً ، ثم أخذ يتنقل بفنه من مدينة إلى مدينة ، ومن إقليم إلى إقليم حتى جاب أرض مصر كلها . وكان كلما أحسن من فنه شيئاً طمع في أن يضيف إحساناً إلى إحسان ، ويرقى بفنه من طور إلى طور ، حتى تسامع الناس به ، ودعاه الأغنياء وأصحاب الثراء ، في إقليمه وفي غير إقليمه ليشرف على ما كانوا يريدون أن يشيدوا من الدور والقصور وكأنه قد عرف ما كان عند المصريين من فن البناء ، وحذق من ذلك ما كانوا يحذقون . ثم لم يكفه ما عرف ، ولم يرضه ما أتقن فأبعد في الرحلة وتجاوز مصر إلى غيرها من البلاد المجاورة ، ولكنه استبقى عادته وحفظ لقريته عهدها ، فكان يبعد في الرحلة ويطيل الغيبة حتى يستيئس أهل القرية من

عودته ، ويظنوا أنه قد هلك في بعض الطريق ، أو عدت إليه عاديات الدهر في بعض أقطار الأرض ، ولكنهم يرونه ذات يوم وقد أقبل عليهم مع الصباح أو مع المساء ، هادئ النفس دائماً وقوراً في حركاته وكلامه دائماً ، طويل الصمت خارج الكنيسة كثير الصلاة إذا كان فيها ، يحمل فضلاً من مال يبر به الفقراء والبائسين ، وشيئاً من الطرف يتحف به الأغنياء والموسرين ، وقد كان أول أمره يحب الفن ويكلف بالعمارة والبناء ولكن إلحاحه في السفر وتجويبه للآفاق قد أضافا إلى هذا الحب الفني شيئاً آخر ، هو حب الرحلة في نفسها والكلف بزيارة البلاد المختلفة والإلمام بالأجيال المتباينة من الناس .

فكان يرتحل للبناء أول الأمر ، ثم أصبح يرتحل لا لشيء إلا لأن نفسه لا تستطيع أن تسلو عن الرحيل ، وكان في أول أمره ينتهز الفرص ويتلمس العلل والمعاذير لما كان يزمع من رحلة أو يعتزم من سفر ، فكان يصحب القوافل إلى هذا الوجه أو ذاك من وجوه الأرض . ولكنه انتهى آخر الأمر إلى أن يستقل بتدبير أمره ويهيء أسفاره لا يلتمس لذلك علة ولا ينتحل له معذرة ، ولا يصحب هذه القافلة أو تلك ، وإنما يعود من رحلة إلى بلده فلا يكاد يستقر في قريته حتى ينبئ الناس بأنه مرتحل إلى بلد آخر ، يسميه لهم تسمية العالم به الملم من أمره بما لا يعرفون .

وقد عاد إليهم ذات مرة من بعض أسفاره في بلاد الروم ، فلما أقام فيهم شهراً أو بعض شهر أنبأهم بأنه يريد أن يركب هذا البحر الذي لا يركبه الناس إلا قليلاً ، وأن يرى ما ينبث على سواحله من المدن ، ومن يعيش حوله من أجيال الناس ، وقد سمع من أمر هذه الأجيال وتلك المدن أعاجيب ، منها ما يقبله العقل ومنها ما لا يستطيع الإنسان له تصديقاً . وهو يعلم على كل حال أن شرقي هذا البحر وغير بعيد من ساحله تقوم مدينة قديمة ، يسكنها قوم صالحون يعرفون المسيح ويؤمنون به ويخلصون لدينه ، وقد امتحنوا في دينهم بأعظم الشر وأشنع النكر فصبروا على المحنة وثبتوا للخطب واصطلوا النار التي حرقهم بها اليهود تحريقاً . وهو يعلم أن قيصر قد رق لهؤلاء الناس وغضب لما أصابهم من الشر ، فأنجدهم وأغاثهم وثأر لهم من اليهود . وهو يريد أن يزور هذه المدينة ، ويرى هؤلاء الناس الصالحين الذين عذبوا في الدين ، ويود لو استطاع أن يقيم لهم كنيسة ويترك في مدينتهم تلك أثراً يتقرب به إلى الله .

وكان أهل القرية يسمعون حديثه، فمنهم من يزين له المضي فيما عزم عليه، ومنهم من يصده عن ذلك ويرغبه في لين العيش واستقرار الحياة، ولكنه كان يسمع لأولئك ولهؤلاء، ولا يرد على أولئك ولا على هؤلاء رجع الحديث، وإنما كان يمضي في تدبير أمره كما قدر هو أو كما قدر الله له، لا كما أراده الناس عليه.

وأصبح القوم ذات يوم فإذا «باخوم» قد تهيأ للرحلة كما تعود أن يفعل وإذا هو يفارقهم، فتتصل غيبته وتتصل، وتمضي الأعوام دون أن يسمعوا من أمره شيئاً، حتى يستيئسوا من عودته ثم تمضي الأعوام وقد تسلوا عنه وكادوا ينسونه، وجعلوا لا يتحدثون عنه إلا قليلاً، وجعلوا إذا ذكروه رقت أحاديثهم عنه، وحسن ذكرهم له، وكثر إشفاقهم عليه كدأب الناس حين يذكرون فقيداً كريماً كانوا يحبونه ويؤثرونه، ثم حالت بينهم وبينه الخطوب، فأخذوا يتعزون عنه ويذكرونه ذكراً جميلاً.

ثم يتسامع أهل القرية ذات يوم بأن «باخوم» قد عاد إليهم بعد أن غاب عنهم عشر سنين، فينكرون أول الأمر ثم يعرفون بعد أن يروا صاحبهم كعهدهم به إلا أن السن قد تقدمت به، وظهر أثر ذلك في هذا الشيب الذي جلل رأسه، وفي هذا الهدوء الذي عظم حظه منه، وفي هذا الصمت الذي اشتد إمعانه فيه، وفي شيء آخر جديد لم يكونوا ينتظرونه منه، وهو إعلانه إليهم أنه لن يرحل عن قريته بعد هذه المرة، بل سيظل بينهم يشاركهم في الحياة حتى يقضي الله فيه بما يشاء.

وكان أهل القرية يكلفون بحديث «باخوم» ويشغفون بالاستماع له، وليس من شك في أن أولى الجد منهم كانوا ينتظرون أن تنقضي هذه الدعابة بين الفتيان وأبيهم القسيس الشيخ ليطلبوا إلى «باخوم» أن يطرفهم بشيء من أنباء رحلته الطويلة الأخيرة فإنه لم يقص عليهم منها شيئاً.

ولم يطمئن أهل القرية قط إلى محدث أو قاص كما اطمأنوا إلى هذه الرحالة من أبناء قريتهم، فقد كانوا يعرفون فيه الصدق والأمانة والتواضع والاعتدال ولم يعرفوا قط أنه تزيد أو تكثر أو اعتز بما رأى أو شهد وما كان أكثر ما رأى وما شاهد فلما سمع أهل القرية صوته تدانوا منه، وأصغوا إليه، وكف الفتيان عن دعابتهم ورددوا ضحكهم إلى صدورهم ولم يتموه.

وكان « باخوم » يتكلم بصوت هادئ غليظ بعض الشيء ، عميق أشد العمق كأنه يأتي من أقصى ضميره ، فكانت الكلمات التي يحملها هذا الصوت الرزين العميق إلى آذانهم لا تكاد تبلغ آذان القوم حتى تنفذ منها مسرعة إلى قلوبهم ، وتستقر فيها وتملؤها عجباً وإعجاباً ، قال باخوم : « أما أنا فقد رأيت الشيطان ، ما أشك في ذلك ولا أرتاب ورأيته في قصة غريبة وقعت لي في رحلتي هذه الأخيرة منذ عامين » وسكت قليلاً ، ثم استأنف حديثه قائلاً : « نعم منذ عامين ، وقد امتلأت بها نفسي حتى كأنها لم تقع إلا أمس وقد اتصل بها قلبي فطمع في تجددها أشد الطمع ، ورجا تكررها أشد الرجاء ، حتى كأنها ستكون غداً ، وهي آخر ما رأيت من أسفارها من عجيب الأمر ، وما أرى إلا أنها آخر ما سأرى في حياتي من عجيب الأمر ، إلا أن تمتد بي الأيام إلى أكثر مما أقدر وما يقدر أمثالي لأنفسهم من السن .

« وما أشد ما أتمنى ذلك ، وما أشد ما أحرص عليه ، لا لأني أحب الحياة أكثر مما يحبها الناس ، أو أرغب في البقاء أكثر مما يرغب فيه الناس ، بل لأني موقن بأن لهذه القصة شأناً ، وبأنها قد أنبأت عن شيء سيكون ، وما أشد شوقي إلى أن أشهد تحقيق هذا النبأ ، وظهور هذا الحدث العظيم » .

وتصور أيها القارئ أثر هذه الجمل التي كانت تصدر عن « باخوم » ملتهبة ، فتحرق قلوب المستمعين له تحريقاً ، تصور أثر هذه الجمل في تشويق أهل القرية إلى هذه القصة التي سيطرفهم بها هذا الشيخ . وإنهم ليريدون أن يتعجلوه ، ولكنه مطرق مغرق في الصمت ، وقد اتصلت أبصارهم به ، وتعلقت قلوبهم بشفتيه ، ولبث هو على صمته حيناً ، وقد سكن الليل وسكت النسيم ، كأنما تريد الأرض والسماء وهذه النجوم المتألقة ، وهذا النيل الذي يسعى هادئاً من بعيد ، أن تستمع له وتستمتع بحديثه ، كما يستمع له هؤلاء الفلاحون في قرية من قرى الصعيد . قال باخوم بعد ساعة : « كان ذلك منذ عامين حين انتهت بي الأسفار إلى مكة ، تلك القرية التي تسمعون ذكرها أحياناً حين تفد علينا قوافل قريش تحمل إلى مصر تجارة اليمن والهند . فقد ألممت بها ، وإن لي من أهلها لبعض الصديق وكنت أريد أن أقضي فيها أشهراً ثم أرحل مع قافلتهم إلى اليمن لأبلغ تلك المدينة الصالحة التي يسكنها قوم صالحون قد فتنوا في المسيح ، فصبروا على الفتنة ، وكنت أريد أن أقيم لهم كنيسة وأترك فيها أثراً باقياً .

« فما أقضي في مكة شهراً وبعض الشهر حتى يتوسل إلي بعض الصديق من قريش في أن أبني له داراً ، فلا أمتنع عليه ، وإنما أجيبه إلى ما أراد وفاء ببعض ما بيننا من المودة ، وأداء لبعض ما لهؤلاء الناس علي من حق . وقد صحبتهم في سفر شاق بعيد فحموني وحاطوني ورفقوا بي ووفوا لي بذمتهم ، وأكدوا لي صادقين أنهم سيبلغونني نجران إذا ارتحلوا إلى اليمن ، وسيردونني إلى مأمني إذا عادوا إلى بلاد الروم ، فلم يكن بد إذاً من أن أستجيب لصديقي فأقيم له داره التي أراد أن يبنيها . وما هو إلا أن يكون التنافس بين القوم فهؤلاء نفر من سراتهم وعظمائهم يتوسلون إلي في مثل ما توسل إلي ذلك الصديق فيه وكلهم يعظم لي الأجر ، ويهدي إلي ما استطاع من الخير . وإني لفي ذلك أجيب منهم من أستطيع إجابته راضياً مسروراً بإرضاء هؤلاء القوم الكرام ، وبمعاودة المهنة بعد أن طال إهمالي لها واعراضي عنها ، وإذا خاطر يخطر للملأ من قريش ذات ليلة وهم يسمرون فيفكرون فيه ثم يفكرون ثم يستأنفون به ، ثم يعودون إليه ، ثم يؤخرونه ثم يستأنفون النظر فيه ، ثم يفضون إلي به على أنه شيء يريدونه وتتمناه قلوبهم ولكنهم لا يجرؤون عليه . يشفقون أن يكون في الإقدام عليه ما يغضب آلهتهم ، ويجر عليهم ما يكرهون . رأوا بيتهم ذاك الذي يقدسونه ويعبدون ربهم فيه قد طال عليه العهد وبعدت به الأيام ، وظهر عليه الوهن ، وتعرض لأخطار السيل ، واجترأ عليه اللصوص فسرقوا بعض ما فيه من متاع فتساءلوا ألا يكون من الخير أن يهدموا بناءه هذا القديم ويقيموا لربهم بيتاً جديداً فخماً متيناً ، يلائم مكانته في قلوبهم ، ويلائم ثروتهم هذه التي تزداد من يوم إلى يوم ، ويلائم هذه الدور التي أخذوا يقيمونها لأنفسهم فخمة متينة ، قد يسرت لهم فيها أسباب الترف والنعيم ، ولكنهم يفكرون ولا يعزمون يخشون ألا يرضى ربهم عما لا بد لهم منه من هدم البيت إن أرادوا له تجديداً وكان يزيد خوفهم وإشفاقهم ويملأ قلوبهم فزعاً وهلعاً كلما هموا بالإقدام أن حية كانت تظهر كل يوم فتسعى على جدران البيت صاعدة هابطة دائرة من حوله . وكان منظرها بشعاً مخيفاً ، وكانت إذا دنا منها وإن اتخذت شكلاً رهيباً ، لا يراه من يدنو منها حتى يرتد عنها مذعوراً . فكانوا يخشون أن تكون هذه الحية حارساً لهذا البناء وكانوا يقدرون أنهم إن أتموا رأيهم وأنفذوه لم يدنوا من البيت ليأخذوا في الهدم حتى تردهم عنه مدحورين وإنهم لفي أنديتهم حول البيت ذات يوم وإذا الحية قد خرجت من مخبئها وجعلت تزحف كدأبها ، وجعلوا هم ينظرون إليها مروعين ، وإذا عقاب تهوي من السماء فتأخذ

الحية من ذنبها ، ثم ترتفع بها في السماء وهم ينظرون ويعجبون ، وقد غابت عنهم العقاب . فما يشكون في أن ربهم قد أذن لهم في أن ينفذوا ما عزموا عليه وقد أحسوا بعد هذا الحادث شجاعة وإقداماً ، وجعلوا يدبرون أمرهم بينهم ، ويدبرون ما لا بد من تدبيره لبناء هذا البيت .

« وإنهم لفي ذلك وإذا الأنباء تصل إليهم ذات صباح بأن سفينة من سفن الروم قد طغى عليها البحر ، وعبث بها الموج ، وقصفت بها الريح ثم دفعتها إلى الساحل القريب ، فيسرعون إلى البحر ، وأسرع معهم ، ويرون السفينة وقد عطبت ، واضطر أهلها من الروم والمصريين إلى أشد الخوف وأعظم الهلع ، لأنهم دفعوا إلى غير مأمن ووقعوا إلى أرض ليس لهم فيها جار . ولكن قريشاً يلقون أصحاب السفينة أحسن لقاء ويؤمنونهم على أنفسهم وأموالهم ، ولا يرضون حتى يشتروا منهم هذه السفينة التي أدركها القطب ، ويقولون لي : « فإنا نستطيع أن نتخذ من خشب هذه السفينة لبيت ربنا سقفاً » ولم يرتابوا بعد ذلك في أن ربهم قد أذن لهم بهدم البيت وتجديده ، ألم يرسل العقاب إلى تلك الحية فتخطفها ، ألم يرسل إليهم هذه السفينة منها للبيت سقفاً ، ألم يرسلني إليهم لأبني لهم هذا البيت كما نقيم البناء في مدن الروم ، وكذلك تمت كلمتهم على إنفاذ ما دبروا . ولم أتردد أنا في أن أكون من بناء البيت عندما يحبون . وكنت أنظر إليهم وإلى ما كانوا يرون ويقدرون في شيء من العطف عليهم والابتسام لهم ، فهم أصحاب سذاجة لم يألفوا من الحضارة ما ألفنا ، ولم يبلوا من خطوب الأمام ما بلونا . فأيسر شيء يدفعهم إلى التفاؤل ، وأيسر شيء يردهم إلى التشاؤم ، وأيسر شيء يدعوهم إلى الإقدام ، وأيسر شيء يضطرهم إلى الإحجام . ولكني لم ألبث أن أحسبت ما يحسون من روع ، وشاركتهم فيما كان يملك قلوبهم من تردد واضطراب . حضرتهم ذات يوم وقد أطافوا ببيتهم وجعل بعضهم يؤكد لبعض تقادم العهد به ، وإلحاح الزمان عليه ، وحاجته إلى التجديد . ويسعى شيخ من شيوخهم حتى يمس حجراً من أحجار البيت ناتئاً بعض الشيء فيجذبه بيديه فينجذب ، وقد بعد الشيخ بهذا الحجر عن البيت شيئاً وهو يحمله في يده . ولكن ماذا نرى؟ نرى هذا الحجر يفصل عن يد الشيخ ، ويمضي وحده في الهواء حتى يرتد إلى مكانه من البيت كأحسن ما يمكن أن يستقر في موضعه . ولست أخفي عليكم أني لم أكن أقل القوم ارتياعاً واضطراباً حين رأيت هذا المنظر البديع ، بل ما أشك في أني كنت أشدهم ارتياعاً واضطراباً ، وأعظمهم حيرة وأعجزهم عن

الفهم والتأويل . ذلك أن هذا الحديث قد روعهم شيئاً ولكنه لم يذهب بصوابهم ولم يخرجهم عن أطوارهم وما أسرع ما فهموا وما أحسن ما أولوا فقد قال قائلهم : « يا معشر قريش أقدموا على أمركم ، ولكن احذروا أن تنفقوا في هذا البناء مالا جراماً ، لا تدخلوا فيه من كسبكم إلا طيباً . لا تدخلوا فيه مهر بغي ، ولا بيع ربا ، ولا مظلمة أحد من الناس » .

« ثم غدوا إلى البيت يريدون هدمه ، وقد صمموا على ذلك ، ولكنهم على تصميمهم لا يجرؤون ، فيندبون شيخاً منهم فيرقى إلى البيت ، ويبدأ في الهدم وهو يقول في لهجة ساذجة كان لها في نفسي أبلغ الأثر وأبعده : « اللهم لا ترع ، إنما نريد الخير » . وكان القوم ينظرون إليه معجبين به ، مشفقين عليه من إقدامه دون أن يشاركوه فيما أخذ فيه ، وإنما أجمعوا أمرهم بينهم أن ينتظروا ليلتهم ، حتى إذا أصبحوا رأوا ، فإن كان قد نزل بالشيخ مكروه أو ألم به خطب ، علموا أن ربهم غاضب ، فأصلحوا ما هدم الشيخ وتركوا البيت على حاله . وإن غدا عليهم سالماً موفوراً علموا أن ربهم راض ، فمضوا في الهدم وأقاموا البناء .

وأصبح الشيخ سليماً معافى ، فقد أعلى عمله وغدوا معه حتى هدموا البيت . ثم جعلوا يجمعون الأحجار يسعون في جمعها بأنفسهم لا يستأجرون لذلك أحداً ، ولا يكلون ذلك إلى رقيق يرون النهوض بذلك حقاً عليهم وشرفاً يبقى لهم في أعقابهم . وأخذت أنا أبني لهم البيت أقيمه على أسسه القديمة التي لم يمسوها .

ولهم في هذا البيت حجر يعظمونه ويكرمونه ، ويرونه هبة لهم من ربهم فلما بلغ البناء إلى حيث يجب أن يوضع هذا الحجر اختلف القوم بينهم . أيهم يضعه موضعه ، فكلهم ابتغى لنفسه هذه المأثرة ، وكلهم حرص عليه أشد الحرص ، وإذا اختلافهم يستحيل إلى خصومة ، وإذا خصومتهم تبلغ من الشر أقصاه ، وإذا هم يتلاصون ويتناذرون ويؤذن بعضهم بعضاً بالحرب ، وقد وقف البناء ، وفسد الأمر بين القوم فساداً عظيماً ، وأقاموا على ذلك أياماً وليالي ، وتحالف بعضهم على الشر ، فجاؤا بجفنة قد ملؤوها بالدم وغمسوا فيها أيديهم وهم يقسمون ليستأثرن بهذا الشرف أو ليموتن من دونه . ثم يجتمع الملأ منهم صباح يوم فيتناهون ويتناصحون ، ثم يشير عليهم شيخ منهم بأن يحكموا في هذه الخصومة أول داخل عليهم من باب من أبواب المسجد يسمونه باب بني شيبة . فلا يلبثون أن يدخل عليهم من الباب رجل شاب لم يروا أجمل منه طلعة ، ولا أعظم منه هيبة ، ولا

أحسن منه سيرة في قومه. سمعت من أنبائه الشيء الكثير، ولكني استيقنت أنه رجل عظيم الخطر حين رأيتهم ينظرون إلى مقدمه مبتهجين ويصيحون: «هذا الأمين، قد رضينا، هذا محمد قد سلمنا» ثم يعرضون عليه الخصومة، فما رأيت وقاراً كوقاره، وما رأيت أناة كأناته، وما رأيت هدوءاً كهدوء نفسه وما رأيت رجلاً أرفق منه بقومه، وأعطف منه عليهم، وآثر منه لهم بالخير. وانظروا إلى قضائه فيهم، فسترون كما أرى أنه لم ينتج عن تفكير إنسان، وإنما كان إلهاماً من الله.

«نزع الأمين رداءه فألقاه على الأرض، ثم وضع الحجر في وسطه ثم قال لقومه: «لينتدب من كل ربع من أرباع قريش رجل» فلما اجتمع أربعة نفر يمثلون قومه كلهم، قال: «ليأخذ كل واحد منكم بزاوية من زوايا الرداء»، ففعلوا واشتركت قريش كلها في رفع الحجر، وتقسمت قريش كلها هذا الشرف العظيم قسمة سواء عدلاً، حتى إذا انتهوا إلى البناء آثره ربه بخلاصة هذا الشرف وخير ما في هذه المكرمة، فيأخذ الحجر بيده ويضعه في موضعه والقوم راضون فرحون قد اطمأنت قلوبهم إلى هذا العدل، واستبشروا بما كف عنهم من الشر، وبما عصم لهم من الأنفس وحقن لهم من الدماء وهنا استيقنت أني رأيت رجلاً هو أحب خلق الله إلى الله وأكرمهم عليه. ولكني لم ألبث أن رأيت شخصاً يجب أن يكون أبغض خلق الله إلى الله، وشرهم عنده مكانة كان رجلاً شيخاً حسن الطلعة جميل المنظر، عليه وقار وله سمة، ولم أكن قد رأيته في القوم قط وما كان شكله ملائماً لأشكالهم ولا زيه مشاكلاً لأزيائهم ولكني رأيته فجأة لا أدري من أين جاء أنجم من الأرض أم هبط من السماء؟

أقبل هذا الشيخ النجدي يناول الأمين حجراً يثبت به الركن الأسود في موضعه فيقبل رجل من عمومة الأمين فيأبى على هذا النجدي وينحيه ويدفع إلى الأمين الحجر الذي يشد به البناء، هنالك غضب الشيخ النجدي فقال له الأمين: «إنه ليس يبنى معنا في هذا البيت إلا من كان منا» فجعل النجدي يقول: «يا عجباً لقوم أهل شرف وعقول وسن وأموال عمدوا إلى أصغرهم سناً وأقلهم مالاً، فرأسوه عليهم في مكرمتهم وحرزهم كأنهم خدم له أما والله ليفوتنهم سبقاً، وليقسمن بينهم حظوظاً وجدوداً».

« وتسمع قريش حديث النجدي فتسخط عليه وتثور به ، وتريد أن تلحق به الأذى ، ولكنا ننظر فلا نجد أحداً ونبحث فما نعرف إلى أين ذهب ، كما لم نعرف من أين جاء » .

ويقول قائلنا حين استيأسنا منه : « هذا والله إبليس أراد أن تكون له في بيت ربنا يد ، فرد عن ذلك مدحوراً » . ثم سكت « باخوم » وأطرق فأطال الإطراق ، كأنه يستعيد في نفسه هذه القصة التي سحر بها قلوب سامعيه وألبابهم . ولكن القسيس الشيخ يسأل « باخوم » في صوته الهادئ المحطم : « ونجران يا بني أذهبت إليها ، أأقمت فيها الكنيسة التي كنت تريد أن تقيمها ؟ قال باخوم : « لا يا أبانا ، قنعت ببناء هذا البيت لهذا الحي من قريش وما أدري لماذا استيقنت نفسي منذ ذلك اليوم بأن سيكون لهذا البيت ولهذا الأمين شأن » ، قال القسيس : « فإنك تسمي هذا الأمين محمداً » قال باخوم : « نعم ! يسميه قومه محمداً ، ويسمونه أحمد ويكنونه أبا القاسم ، ويتحدثون عنه بالأعاجيب » قال القسيس في شيء من الحيرة والذهول : « أحمد ، أحمد » أليس يمكن أن يكون هذا النبي الذي بشر به المسيح؟ -

وتفرق القوم من ليلتهم ، وإن في قلب كل واحد منهم لأثراً قوياً باقياً لهذا الحديث . قال محدثي : والعجب أن أكثر المصريين يجهلون أن لهم في بناء الكعبة يداً وأنهم قد اشتركوا فيه ، مع الأمين الذي أصبح بعد سراجاً منيراً أخرج الله به الناس من الظلمة إلى النور . انتهى .

انتهت هذه القصة اللطيفة التي صاغها في قالب من « الأدب الرفيع » أديب الشرق ووزير المعارف المصرية سابقاً الدكتور « طه حسين » ولقد رأيت أنه حفظه الله تعالى قد كتب في هذه القصة اسم « باقوم » الذي بنى الكعبة الغراء لقريش بالخاء هكذا « باخوم » .

فرأينا أن نتصل بحضرته لسؤاله عن هذا الاسم هل هو « باقوم » (بالقاف) أم « باخوم » (بالخاء) ، فكتبنا إلى حضرته بمصر خطاباً بذلك ، فأجابنا بما يفيد أنه يجوز كتابة هذا الاسم بالخاء والقاف والكاف ، وإليك نص خطابه نثبته هنا لما في ذلك من الفائدة الجليلة في هذا المعنى ، وهو هذا :

سيدي الأستاذ الكريم

تلقيت كتابك الذي تسألني فيه عن ذلك الذي بنى الكعبة لقريش والذي سميته أنا (باخوم) وسماه مؤرخوا العرب (باقوم) .

ولك الحق كل الحق فيما رويت عن مؤرخي العرب ، ولكن هذا الاسم مصري قديم عرفه التاريخ لأول مرة في القرن الرابع للمسيح فهو أول من أنشأ نظام الاعتزال في صحراء مصر والانقطاع للعبادة المسيحية .

واسمه في لغة اليونانين والرومانيين « باكوموسى » بالكاف وعربه المؤرخون العرب بالقاف . ولكن الاسم شاع بعده في مصر ولم يزل شائعاً بين إخواننا المسيحيين الى الآن والمصريين يجعلونه « باخوم » يضعون الخاء موضع الكاف ، وقد آثرت هذا الاسم لأنه عندي أقرب إلى النطق القبطي القديم وملائم للنطق القبطي الشائع إلى الآن .

فاختر بين الكاف والخاء والقاف إن شئت . فستكون إن شاء الله موفقاً مقارباً . وأنا أرجو أن تتفضل فتقبل أصدق تحياتي .

في ١٧ اكتوبر سنة ١٩٥٧ طه حسين

البناية التاسعة: بناء عبد الله بن الزبير الكعبة

لا بد أن نأتي بمقدمة صغيرة عن خلافة ومحاربة عبد الله بن الزبير ، رضي الله عنه وعن أبيه أحد المبشرين بالجنة ، ثم نأتي بتفصيل للكعبة المعظمة شرفها الله تعالى فنقول :

حرب ابن الزبير رضي الله عنه

جاء في كتاب « الإمامة والسياسة » ما يأتي :

قال : ذكروا أن مسلم بن عقبة لما فرغ من قتال أهل المدينة يوم الحرة مضى إلى مكة المشرفة يريد ابن الزبير حتى إذا كان بقديد حضرته الوفاة فدعا الحصين بن نمير فقال له : إن أمير المؤمنين عصاني فيك فأبى إلا استخلافك بعدي فلا ترسلن بينك وبين قريش رسولاً تمكنه من أذنيك إنما هو الوقاف ثم الثقاف ثم الانصراف . وهلك مسلم بن عقبة فدفن بالثنية قال : وسمع بهم عبدالله بن الزبير فأحكم مراصد مكة فجعل عليها المقاتلة وجاءه جند أهل المدينة وأقبل ابن نمير حتى نزل على مكة وأرسل خيلاً فأخذت أسفلها ونصب عليها العرادات والمجانيق وفرض على أصحابه عشرة آلاف صخرة في كل يوم يرمونها بها فقال الناس :

انظروه لئلا يصيبه ما أصاب الفيل . قال عبدا لله بن عمرو بن العاص : وكان بمكة معتمراً قدم من الطائف لا تظن ذلك لو كان كافراً بها لعوقب دونها فأما إذا كان مؤمناً بها فسيبتلي فيها فكان كما قال وحاصروهم لعشر ليال بقين من المحرم سنة أربع وستين فحاصروهم بقية المحرم وصفر وشهري ربيع يغدون على القتال ويروحون حتى جاءهم موت يزيد بن معاوية فأرسل الحصين بن نمير إلى ابن الزبير أن ائذن لنا نطوف بالبيت وننصرف عنكم فقد مات صاحبنا فقال ابن الزبير : هل تركتم من البيت إلا مدرة وكانت المجانيق قد أصابت ناحية من البيت الشريف فهدمته مع الحريق الذي أصابه قال : فمنعهم أن يطوفوا بالبيت فارتحل الحصين حتى إذا كان بعسفان تفرقوا وتبعهم الناس يأخذونهم حتى كانت الراعية من غنمها لتأتي بالرجل منهم مربوطاً فيبعث بهم إلى المدينة وأصاب منهم أهل المدينة حين مروا بهم ناساً كثيراً فحبسوا بالمدينة حتى قدم مصعب بن الزبير عليهم من عند عبدا لله بن الزبير فأخرجهم إلى الحرة فضرب أعناقهم وكانوا أربعمائة وأكثر قال : وانصرف ذلك الجيش إلى الشام مغلولاً وبايع أهل المدينة لابن الزبير بالخلافة وكان ابن عباس بمكة يومئذ فخرج إلى الطائف فهلك بها سنة سبعين وهو يومئذ ابن أربعة وسبعين سنة رضي ا لله عنه . انتهى من كتاب الإمامة والسياسة .

حرب ابن الزبير وقتله

وجاء في « كتاب الإمامة والسياسة » أيضاً ما يأتي :

قال : وذكروا أنه لما تمت البيعة لعبدالملك بن مروان من أهل العراق وأتاه الحجاج بن يوسف فقال : يا أمير المؤمنين إني رأيت في المنام كأني أسلخ عبدا لله بن الزبير فقال له عبدالملك : أنت له فاخرج إليه فخرج إليه الحجاج في ألف وخمسمائة رجل من رجال أهل الشام حتى نزل الطائف وجعل عبدالملك يرسل إليه الجيوش رسلاً حتى توافى الناس عنده قدر ما يظن أنه يقدر على قتال عبدا لله بن الزبير وكان ذلك في ذي القعدة سنة اثنتين وسبعين فسار الحجاج من الطائف حتى نزل منى فحج بالناس وعبدا لله بن الزبير محصور بمكة ثم نصب الحجاج المنجنيق على أبي قبيس ونواحي مكة كلها فرمى أهل مكة بالحجارة . فلما كانت الليلة التي قتل في صبيحتها جمع عبدا لله بن الزبير القرشيين فقال لهم : ما ترون؟ فقال رجل منهم من بني مخزوم : وا لله لقد قاتلنا معك حتى ما نجد مقاتلاً لئن

صبرنا معك ما نريد على أن نموت معك وإنما هي إحدى خصلتين إما أن تأذن لنا فنأخذ الأمان لأنفسنا ولك وإما أن تأذن لنا فنخرج فقال عبدا لله : قد كنت عاهدت ا لله أن لا يبايعني أحد فأقبله بيعته إلا ابن صفوان . قال ابن صفوان : وا لله إنا لنقاتل معك وما وفيت لنا بما قلت ولكن خذني لحفيظة أن لا أدعك عند مثل هذه حتى أموت معك فقال رجل آخر : اكتب إلى عبدالملك . فقال له عبدا لله: وكيف ؟ أأكتب إليه من عبدا لله أبي بكر أمير المؤمنين فوا لله لا يقبل هذا مني أبداً أم أكتب إليه لعبدالملك أمير المؤمنين من عبدا لله بن الزبير ، فوا لله لأن تقع الخضراء على الغبراء أحب إلي من ذلك . قال عروة أخوه وهو جالس معه على السرير : يا أمير المؤمنين قد جعل ا لله لك أسوة فقال له عبدا لله : من هو أسوتي . قال : الحسن بن علي بن أبي طالب ، خلع نفسه وبايع معاوية فرفع عبدا لله رجله وضرب عروة حتى ألقاه ثم قال : يا عروة قلبي إذاً مثل قلبك وا لله لو قبلت ما تقولون ما عشت إلا قليلاً وقد أخذت الدنية وما ضربة بسيف إلا مثل ضربة بسوط لا أقبل شيئاً مما تقولون . قال: فلما أصبح دخل على بعض نسائه فقال : اصنعي لي طعاماً فصنعت له كبداً وسناماً قال : فأخذ منها لقمة فلاكها ساعة فلم يسغها فرماها وقال : اسقوني لبناً فأتى بلبن فشرب ثم قال : هيئوا لي غسلاً قال : فاغتسل ثم تحفظ وتطيب ثم تقلد سيفه وخرج وهو يقول :

ولا ألين لغير الحق أسأله ... حتى يلين لضرس الماضغ الحجر

ثم دخل على أمه أسماء بنت أبي بكر الصديق وهي عمياء من الكبر قد بلغت من السن مائة سنة فقال لها : يا أماه ما ترين قد خذلني الناس وخذلني أهل بيتي؟ فقالت : يا بني لا يلعبن بك صبيان بني أمية ، عش كريماً ومت كريماً . فخرج فأسند ظهره إلى الكعبة ومعه نفر يسير فجعل يقاتل بهم أهل الشام فيهزمهم وهو يقول : ويلمه فتحاً لو كان له رجال . قال : فجعل الحجاج يناديه قد كان لك رجال ولكنك ضيعتهم . قال : فجاءه حجر من حجارة المنجنيق وهو يمشي فأصاب قفاه فسقط فما درى أهل الشام أنه هو حتى سمعوا جارية تبكي وتقول : وا أمير المؤمنين فاحتزوا رأسه فجاؤا به إلى الحجاج وقتل معه عبدا لله بن صفوان بن أمية وعمارة بن عمرو بن حزم ثم بعث برؤوسهم إلى عبدالملك وقتل لسبع عشرة ليلة مضين من جمادى الأولى سنة ثلاث وسبعين . قال أبو معتز : ثم أقام الحجاج بالمدينة عاملاً عليها وعلى مكة والطائف ثلاث سنين يسير بسيرته فيما يقولون قال : فلما مات بشر بن مروان وكان على الكوفة والبصرة كتب إليه

عبدالملك أن سر إلى العراقيين واحتل لقتلهم فإنه قد بلغني عنهم ما أكره واستعمل عبدالملك على المدينة يحيى بن حكيم بن أبي العاص . انتهى من الكتاب المذكور .

جاء في كتاب الأدب الجديد بصحيفة ١٦٤ ما نصه :

بويع عبدالله بن الزبير بالخلافة بعد موت يزيد وأنشأ حزباً سياسياً له مكانته أرهب الأمويين وخضع له الحجاز واليمن ومصر والعراق وكاد يتم له في الشام ، وبقي عبدالله خليفة تسع سنين يولي الولاة ، ويجبي الخراج ، وكان أخوه مصعب سنده الأول ، وآثر بقاء الحكومة في الحجاز مسايرة للخلفاء الراشدين وظل كذلك حتى تولى الخلافة عبدالملك بن مروان فذهب بنفسه إلى العراق وقتل مصعب ابن الزبير ، وسير الحجاج بن يوسف إلى الحجاز فحاصر عبدالله حتى قتل سنة ٧٣ هجرية . انتهى من الكتاب المذكور.

الحرب بالمنجنيق

جاء في كتاب التراتيب الإدارية في الجزء الأول ما نصه : قال الخفاجي في نسيم الرياض : المنجنيق (بفتح الميم) آلة لرمي العدو بحجارة كبيرة بأن يشد سوار مرتفعة جداً من الخشب يوضع عليها ما يراد رميه ثم تضرب سارية توصله لمكان بعيد جداً وكانت هذه الآلة قديماً قبل اختراع المدافع والبارود . اهـ وفي السير أنه ﷺ حاصر أهل الطائف ورماهم بالمنجنيق . قال ابن هشام : وحدثني من أثق به أن رسول الله ﷺ أول من رمى في الإسلام بالمنجنيق أهل الطائف وبذلك جزم أيضاً السيوطي في أوائله فقال : أول من رمى بالمنجنيق في الإسلام في غزوة الطائف ، وفي الكامل لابن الأثير أشار به سلمان الفارسي ، وفي نور النبراس حديث نصب المنجنيق على أهل الطائف هو مرسل وهو في الترمذي كذلك وقال ضعيف ولكن هو في البيهقي من رواية أبي عبيد . وفي الميزان في ترجمة عبدالله بن حراس أن له عن العوام عن إبراهيم التيمي عن أبيه أن النبي ﷺ نصب المنجنيق على أهل الطائف .

(أقول) : صنع المنجنيق وحفر الخندق وإيجاد الدبابات من علم الآلات الحربية التي عرفها العرب ودونوا فيها . وقال ابن الأكفاني في إرشاد القاصد : علم الآلات الحربية علم يتبين منه كيفية إيجاد الآلات الحربية كالمجانيق وغيرها ومنفعته شديدة الغناء في حماية المدن ودفع الأعداء ولموسى بن شاكر فيه كتاب مفيد . اهـ . وذكر

الجاحظ في البيان والتبيين أن جذيمة الأبرش التنوخي آخر ملوك قضاعة بالحيرة هو أول من اتخذ المنجنيق ووضعه على الحصون . انتهى من الكتاب المذكور .

الحرب بالدبابات

جاء في كتاب التراتيب الإدارية في الجزء الأول ما نصه : الدبابة (بفتح الدال المهملة مخففة عن تاء التأنيث) آلة من آلات الحرب يدخل فيها الرجال فيدبون إلى الأسوار ينقبون . قال في القاموس : الدبابة تتخذ للحروب فيدفع في أصل الحصن فيشنون وهم في جوفها . اهـ . وهي بيت صغير تعمل للحصون يدخلها الرجال فينقبون من داخلها ويكون سقفها حرزاً لهم من الرمي . اهـ . وفي كتاب نفحة الحدائق والخمائل في الابتداع والاختراع للأوائل أول دبابة صنعت في الإسلام دبابة صنعت على الطائف حين حاصرها رسول الله ﷺ .

(وقلت) في طبقات ابن سعد لدى الكلام على وفد ثقيف ولم يحضر عروة ابن مسعود ولا غيلان بن سلمة حصار الطائف كانا بجرش يتعلمان صنعة العرادات والمنجنيق والدبابات فقدما وقد انصرف رسول الله ﷺ عن الطائف فنصبا المنجنيق والعرادات والدبابات الخ . (قلت) الجرش كما في القاموس بلد بالأردن وكزمر مخلاف باليمن منه الأديم والعرادات . قال فيه أيضاً : شيء أصغر من المنجنيق وفي كتاب أقضية رسول الله ﷺ لابن الطلاع في السير أول من رمى بالمنجنيق رسول الله ﷺ أهل الطائف دخل نفر من أصحاب رسول الله ﷺ تحت دبابة ثم رجعوا بها إلى جدار الطائف ليحرقوه . انتهى من الكتاب المذكور .

بناء ابن الزبير الكعبة

قيل : كان سبب بناء عبدالله بن الزبير ، رضي الله تعالى عنهما ، هو أن رجلاً في أيام الحصار بمكة أوقد ناراً في بعض الخيام المضروبة في المسجد الحرام ، فطارت شرارة في الخيمة فمشى الحريق حتى أخذ في كسوة الكعبة المشرفة ، فاحترقت واحترق الركن الأسود أيضاً وذلك سنة (٦٤) أربع وستين هجرية .

وقيل : إن الحصين بن نمير لما حاصر ابن الزبير في مكة بعد وقعة الحرة بالمدينة الكائنة في آخر سنة (٦٣) ثلاث وستين هجرية بأمر يزيد بن معاوية ، رموا البيت

الحرام بالمنجنيق ورموا مع الأحجار بالنار والنفط ومشاقات الكتان وغير ذلك من المحروقات، فاحترقت ثياب الكعبة وأخشاب البيت، وأخذوا يرتجزون ويقولون:

خطارة مثل الفنيق المزبد ترمى بها أعواد هذا المسجد

والخطارة بتشديد الطاء المنجنيق.

وقيل في الحصين بن نمير:

ابن المنير بئس ما تولى قد أحرق المقام والمصلى

ولنذكر ما جاء عن بناء ابن الزبير في صحيح مسلم، فقد جاء في كتاب الحج في باب نقض الكعبة وبنائها ما نصه: حدثنا هناد بن السري، حدثنا ابن أبي زائدة، أخبرني ابن أبي سليمان عن عطاء قال: لما احترق البيت زمن يزيد بن معاوية حين غزاها أهل الشام فكان من أمره ما كان، تركه ابن الزبير حتى قدم الناس الموسم يريد أن يجرئهم أو يحربهم على أهل الشام، فلما صدر الناس قال: يا أيها الناس أشيروا عليّ في الكعبة أنقضها ثم أبني بنائها أو أصلح ما وهي منها، قال ابن عباس: فإني قد فرق لي رأي فيها، أرى أن تصلح ما وهي منها وتدع بيتاً أسلم الناس عليه وأحجاراً أسلم الناس عليها وبعث عليها النبي ﷺ.

فقال ابن الزبير: لو كان أحدكم احترق بيته ما رضي حتى يجده فكيف بيت ربكم، إني مستخير ربي ثلاثاً ثم عازم على أمري، فلما مضى الثلاث أجمع رأيه على أن ينقضها، فتحاماه الناس أن ينزل بأول الناس يصعد فيه أمر من السماء، حتى صعد رجل فألقى منه حجارة فلما لم يره الناس أصابه شيء تتابعوا فنقضوه حتى بلغوا به الأرض، فجعل ابن الزبير أعمدة فستر عليها الستور حتى ارتفع بناؤه، وقال ابن الزبير: إني سمعت عائشة تقول: إن النبي ﷺ، قال: «لولا أن الناس حديث عهدهم بكفر وليس عندي من النفقة ما يقوي على بنائه لكنت أدخلت فيه من الحجر خمس أذرع ولجعلت لها باباً يدخل الناس منه وباباً يخرجون منه» قال: فأنا اليوم أجد ما أنفق ولست أخاف الناس، قال: فزاد فيه خمس أذرع من الحجر حتى أبدى أساً نظر الناس إليه فبنى عليه البناء، وكان طول الكعبة ثماني عشرة ذراعاً، فلما زاد فيه استقصره فزاد في طوله عشرة أذرع، وجعل له بابين أحدهما يدخل منه والآخر يخرج منه، فلما قتل ابن الزبير كتب الحجاج إلى عبدالملك بن مروان أن يخبره بذلك، ويخبره أن ابن الزبير قد وضع البناء على أس نظر إليه العدول من أهل مكة فكتب إليه عبدالملك: إنا لسنا من

تلطيخ ابن الزبير في شيء ، أما ما زاد في طوله فأقره ، وأما ما زاد من الحجر فرده إلى بنائه ، وسد الباب الذي فتحه . فنقضه وأعاده إلى بنائه .

حدثني محمد بن حاتم حدثنا محمد بن بكر أخبرنا ابن جريج قال : سمعت عبدا لله بن عبيد بن عمير والوليد بن عطاء يحدثان عن الحارث بن عبدا لله بن أبي ربيعة قال عبدا لله بن عبيد : وفد الحارث بن عبد ا لله على عبدالملك بن مروان في خلافته ، فقال عبدالملك : ما أظن أبا خبيب « يعني ابن الزبير » سمع من عائشة ما كان يزعم أنه سمعه منها ، قال الحارث : بلى أنا سمعته منها ، قال : سمعتها تقول ماذا ؟ قال : قالت: قال رسول ا لله ﷺ: « إن قومك استقصروا من بنيان البيت ، ولولا حداثة عهدهم بالشرك أعدت ما تركوا منه ، فإن بدا لقومك من بعدي أن يبنوه فهلمي لأريك ما تركوا منه ، فأراها قريباً من سبعة أذرع » هذا حديث عبدا لله ابن عبيد وزاد عليه الوليد بن عطاء ، قال النبي ﷺ : ولجعلت لها بابين موضوعين في الأرض شرقياً وغربياً ، وهل تدرين لم كان قومك رفعوا بابها؟ قالت : قلت : لا ، قال : تعززاً أن لا يدخلها إلا من أرادوا ، فكان الرجل إذا هو أراد أن يدخلها ، يدعونه يرتقي حتى إذا كاد أن يدخل دفعوه فسقط ، قال عبدالملك للحارث : أنت سمعتها تقول هذا؟ قال : نعم ، قال : فنكت ساعة بعصاه ، ثم قال : وددت أني تركته وما تحمل . انتهى من صحيح مسلم .

نقول : فمن تأمل هذا الحديث المذكور ظهر منه معجزة لرسول ا لله ﷺ بوضوح لا خفاء فيه ، فقوله لعائشة رضي ا لله تعالى عنها : « فإن بدا لقومك من بعدي أن يبنوه فهلمي لأريك ما تركوا منه ، فأراها قريباً من سبعة أذرع » دليل على أن ا لله تعالى قد أطلعه بأن بيته الحرام سيبنى بعده ، وأن الذي يبنيه هو عبدا لله بن الزبير بن العوام وهو ابن أسماء أخت عائشة بنت أبي بكر الصديق رضي ا لله تعالى عنهم أجمعين ، فلقد بناه ابن الزبير سنة (٦٤) أربع وستين هجرية ، أي بعد وفاة خالته عائشة رضي ا لله تعالى عنها بست سنين ، لأنها ماتت في رمضان سنة (٥٨) ثمان وخمسين هجرية .

فمن معجزاته ﷺ أنه أخبر زوجته عائشة أم المؤمنين رضي ا لله عنها بأن البيت الحرام سيبنى بعد موته ، وأراها ما تركته قريش من عرض الكعبة من جهة حجر إسماعيل ومقداره أكثر من ستة أذرع ، وأخبرها بأنه لو بنى البيت بنفسه لجعل له بابين موضوعين في الأرض باباً شرقياً وباباً غربياً .

لقد أخبر ﷺ عائشة رضي الله عنها بكل ذلك، لتخبر هي قومها بعد موته برغبته عن كيفية بناء البيت الحرام، وبالفعل فقد أخبرت رضي الله عنها بذلك بعضهم ولحكمة يريدها الله تعالى سمع منها هذا الوصف ابن أختها عبدالله بن الزبير رضي الله تعالى عن الجميع، فلما ولي أمر مكة واحترق البيت الشريف أيام حصاره بها، قام ببنائه على الصفة التي سمعها من خالته أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، فما أعظمها من معجزة باهرة وقعت بعد موته ﷺ بثلاث وخمسين سنة، وعبد الله بن الزبير هو أول مولود في الاسلام بالمدينة بعد الهجرة فكبّر الصحابة حين ولد، وحنكه رسول الله ﷺ بتمرة مضغها ثم تفل في فيه فكان أول شيء دخل في جوفه ريق النبي ﷺ.

أما قوله عليه الصلاة والسلام لعائشة أم المؤمنين رضي الله تعالى عنها «إن قومك استقصروا من بنيان البيت» فقد عرف ذلك بالمشاهدة، فإنه ﷺ حينما بنت قريش الكعبة كان يبني معهم، وذلك قبل البعثة بخمس سنين.

وإليك تفصيل بناء ابن الزبير للكعبة المشرفة :

(التاسع) ممن بنى الكعبة المشرفة عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما وسببه كما جاء في تاريخ الأزرقي : أخبرني محمد بن يحيى عن الواقدي عن عبدالله بن جعفر الزهري قال : سألت أبا عون متى كان احتراق الكعبة ؟ قال : يوم السبت لليالٍ خلون في شهر ربيع الأول قبل أن يأتينا نعي يزيد بن معاوية بتسعة وعشرين يوماً، وجاء نعيه في هلال شهر ربيع الآخر ليلة الثلاثاء سنة أربع وستين، قلت : وما كان سبب احتراقها ؟ قال : جاءنا موت يزيد، توفي لأربع عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول سنة أربع وستين، وكانت خلافته ثلاث سنين وتسعة أشهر، والحصين بن نمير يومئذ عندنا، وكان احتراقها بعد الصاعقة التي أصابت أهل الشام بعشرين ليلة، قال أبو عون : ما كان احتراقها إلا منا، وذلك أن رجلاً منا وهو مسلم ابن أبي خليفة المذحجي كان هو وأصحابه يوقدون في خصاص لهم حول البيت فأخذ ناراً في زج رمحه في النفط، وكان يوم ريح فطارت منها شرارة فاحترقت الكعبة حتى صارت إلى الخشب، فقلنا لهم : هذا عملكم رميتم بيت الله عز وجل بالنفط والنار، فأنكروا ذلك.

حدثني محمد بن يحيى قال : قال الواقدي : حدثني رباح بن مسلم عن أبيه قال : كانوا يوقدون في الخصاص ، فأقبلت شرارة هبت بها الريح ، فاحترقت ثياب الكعبة واحترق الخشب .

حدثني محمد بن يحيى قال : قال الواقدي : حدثني عبد الله بن يزيد عن عروة ابن أذينة قال : قدمت مكة مع أبي ، يوم احترقت الكعبة ، فرأيت الخشب قد خلصت إليه النار ، ورأيتها مجردة من الحريق ورأيت الركن قد اسود فقلت : ما أصاب الكعبة؟ فأشاروا إلى رجل من أصحاب الزبير فقالوا : هذا احترقت الكعبة في سببه ، أخذ ناراً في رأس رمح له فطارت به الريح فضربت أستار الكعبة فيما بين الركن اليماني إلى الركن الأسود .

حدثني محمد بن يحيى عن الواقدي عن سعيد بن عبدالعزيز عن رجل من قومه قال: نصبنا المنجنيق على أبي قبيس واعتنقته الرجال ، وقد ألجأنا القوم إلى المسجد فبنوا خصاصاً حول البيت في المسجد ورفافاً من خشب تكنهم من حجارة المنجنيق ، فكنت أراهم إذا أمطرنا عليهم الحجارة يكنون تحت تلك الرفاف ، قال : فوهن الرمي بحجارة المنجنيق فهي تنقض .

حدثنا محمد بن يحيى عن الواقدي عن رباح بن مسلم عن أبيه قال : رأيت الحجارة تصك وجه الكعبة من أبي قبيس حتى تخرقها ، فلقد رأيتها كأنها جيوب النساء ، وترتج من أعلاها إلى أسفلها ، ولقد رأيت الحجر يمر فيهوي الآخر على إثره فيسلك طريقه حتى بعث الله عليهم صاعقة بعد العصر فاحترق المنجنيق واحترق تحته ثمانية عشر رجلاً من أهل الشام ، فجعلنا نقول : قد أظلهم العذاب ، فكنا أياماً في راحة حتى عملوا منجنيقاً آخر فنصبوه على أبي قبيس .

حدثني محمد بن إسماعيل بن أبي عصيدة قال : حدثني أبو النضر هاشم بن القاسم الليثي عن مولى لابن المرتفع عن ابن المرتفع قال : كنا مع ابن الزبير في الحجر فأول حجر من المنجنيق وقع في الكعبة فسمعنا لها أنيناً كأنين المريض آه آه .

حدثني جدي حدثنا سعيد بن سالم عن عثمان بن ساج قال : أخبرتني عجوز من أهل مكة كانت مع عبدا لله ابن الزبير بمكة فقلت لها : أخبريني عن احتراق الكعبة كيف كان؟ قالت : كان المسجد فيه خيام كثيرة فطارت النار من خيمة منها فاحترقت الخيام والتهب المسجد حتى تعلقت النار بالبيت فاحترق ، قال عثمان : وبلغني أنه لما قام جيش الحصين بن نمير أحرق بعض أهل الشام على باب

بني جمح والمسجد يومئذ خيام وفساطيط ، فمشى الحريق حتى أخذ البيت ، فظن الفريقان كلاهما أنهم هالكون فضعف بناء الكعبة حتى أن الطير ليقع عليه فتتناثر حجارته . انتهى من الأزرقي .

بكاء عبدالله بن عمرو بن العاص على احتراق الكعبة

قال الأزرقي في تاريخه : حدثنا أبو الوليد قال : حدثني جدي أحمد بن محمد وإبراهيم بن محمد الشافعي عن مسلم بن خالد عن ابن خيثم عن عبيد الله بن سعد أنه دخل مع عبد الله بن عمرو بن العاص المسجد الحرام والكعبة محرقة ، حين أدبر جيش الحصين بن نمير ، والكعبة تتناثر حجارتها فوقف ومعه ناس غير قليل فبكى حتى إني لأنظر إلى دموعه تحدر كحلاً في عينيه من إثمد كأنه رؤوس الذباب على وجنتيه فقال : يا أيها الناس والله لو أن أبا هريرة أخبركم أنكم قاتلوا ابن نبيكم بعد نبيكم ومحرقو بيت ربكم لقلتم ما من أحد أكذب من أبي هريرة ، أنحن نقتل نبينا ونحرق بيت ربنا؟ فقد والله فعلتم لقد قتلتم ابن نبيكم وحرقتم بيت الله فانتظروا النقمة فوالذي نفس عبدالله بن عمرو بيده ليلبسنكم الله شيعاً وليذيقن بعضكم بأس بعض يقولها ثلاثاً ، ثم رفع صوته في المسجد فما في المسجد من أحد إلا وهو يفهم ما يقول ، فإن لم يكن يفهم فإنه يسمع رجع صوته فقال : أين الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر؟ فوالذي نفس عبدالله بن عمرو بيده لو قد ألبسكم الله شيعاً وأذاق بعضكم بأس بعض ، لبطن الأرض خير لمن عليها ألم يأمر بالمعروف ولم ينه عن المنكر .

وقال الأزرقي في تاريخه : حدثنا أبو الوليد قال : حدثني جدي أحمد بن محمد عن سعيد بن سالم عن ابن جريج قال : سمعت غير واحد من أهل العلم ممن حضر ابن الزبير حين هدم الكعبة وبناها ، قالوا : لما أبطأ عبدالله ابن الزبير عن بيعة يزيد بن معاوية وتخلف خشي منهم ، لحق بمكة ليمتنع بالحرم وجمع مواليه وجعل يظهر عيب يزيد بن معاوية ويشتمه ويذكر شربه الخمر وغير ذلك وينشط الناس عنه ، ويجتمع الناس إليه فيقوم فيهم بين الأيام فيذكر مساوئ بني أمية فيطنب في ذلك فبلغ ذلك يزيد بن معاوية فأقسم أن لا يؤتى به إلا مغلولاً فأرسل إليه رجلاً من أهل الشام في خيل من خيل الشام ، فعظم على ابن الزبير الفتنة وقال: لأن يستحل الحرم بسببك ، فإنه غير تاركك ولا تقوى عليه ، وقد لج في أمرك وأقسم أن لا

يؤتى به إلا مغلولاً ، وقد عملت لك غلاً من فضة ، وتلبس فوقه الثياب ، وتبر قسم أمير المؤمنين ، فالصلح خير عاقبة وأجمل بك وبه ، فقال : دعوني أياماً حتى أنظر في أمري . فشاور أمه أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، فأبت عليه أن يذهب مغلولاً وقالت : يا بني عش كريماً ومت كريماً ، ولا تمكن بني أمية من نفسك فتلعب بك ، فالموت أحسن من هذا ، فأبى عليه أن يذهب إليه في غل ، وامتنع في مواليه ومن تألف إليه من أهل مكة وغيرهم ، وكان يقال لهم : الزبيرية .

فبينما يزيد على بعثة الجيوش إليه ، إذ أتى يزيد خبر أهل المدينة وما فعلوا بعامله ومن كان معه بالمدينة من بني أمية وإخراجهم إياهم منها إلا من كان من ولد عثمان بن عفان ، فجهز إليهم مسلم بن عقبة المري ، في أهل الشام ، وأمره بقتال أهل المدينة ، فإذا أفرغ من ذلك سار إلى ابن الزبير بمكة ، وكان مسلم مريضاً ، في بطنه الماء الأصفر فقال له يزيد : إن حدث بك الموت ، فول الحصين بن نمير الكندي على جيشك ، فسار حتى قدم المدينة فقاتلوه أهل المدينة فظفر بهم ودخلها ، وقتل من قتل منهم ، وأشرف في القتل ، فسمي بذلك مسرفاً ، وأنهب المدينة ثلاثاً ، ثم سار إلى مكة ، فلما كان ببعض الطريق حضرته الوفاة ، فدعا الحصين بن نمير فقال له : يا برذعة الحمار ، لولا أني أكره أن أتزود عند الموت معصية أمير المؤمنين ما وليتك ، أنظر إذا أقدمت مكة فاحذر أن تمكن قريشاً من أذنك فتبول فيها ، لا تكن إلا الوقاف ، ثم الثقاف ، ثم الانصراف ، فتوفي مسلم المسرف ، ومضى الحصين بن نمير إلى مكة ، فقاتل ابن الزبير بها أياماً ، وجمع ابن الزبير أصحابه فتحصن بهم في المسجد الحرام وحول الكعبة ، وضرب أصحاب ابن الزبير في المسجد خياماً ورفافاً يكتنون فيها من حجارة المنجنيق ويستظلون فيها من الشمس ، وكان الحصين بن نمير قد نصب المنجنيق على أبي قبيس وعلى الأحمر -وهما أخشبا مكة- فكان يرميهم بها فتصيب الحجارة الكعبة ، حتى تخرقت كسوتها عليها ، فصارت كأنها جيوب النساء ، فوهن الرمي بالمنجنيق الكعبة ، فذهب رجل من أصحاب ابن الزبير يوقد ناراً في بعض تلك الخيام ، مما يلي الصفا بين الركن الأسود والركن اليماني ، والمسجد يومئذ ضيق صغير ، فطارت شرارة في الخيمة فاحترقت ، وكانت في ذلك اليوم رياح شديدة ، والكعبة يومئذ مبنية بناء قريش مدماك من ساج ، ومدماك من حجارة من أسفلها إلى أعلاها ، وعليها الكسوة ، فطارت الرياح بلهب تلك النار فاحترقت كسوة الكعبة واحترق الساج الذي بين البناء ، وكان احتراقها يوم السبت لثلاث ليال خلون من

شهر ربيع الأول قبل أن يأتي نعي يزيد بن معاوية بسبعة وعشرين يوماً ، وجاء نعيه في هلال شهر ربيع الآخر ليلة الثلاثاء سنة أربع وستين ، وكان توفي لأربع عشرة خلت من شهر ربيع الأول سنة أربع وستين ، وكانت خلافته ثلاث سنين وسبعة أشهر . فلما احترقت الكعبة واحترق الركن الأسود فتصدع ، كان ابن الزبير بعد ربطه بالفضة ، فضعفت جدارات الكعبة ، حتى أنها لتنقض من أعلاها إلى أسفلها ، وتقع الحمام عليها ، فتتناثر حجارتها وهي مجردة متوهنة من كل جانب ، ففزع لذلك أهل مكة وأهل الشام جميعاً ، والحصين بن نمير مقيم محاصر ابن الزبير ، فأرسل ابن الزبير رجالاً من أهل مكة من قريش وغيرهم ، فيهم عبدا لله بن خالد بن أسيد ، ورجال من بني أمية ، إلى الحصين ، فكلموه وعظموا عليه ما أصاب الكعبة وقالوا : إن ذلك كان منكم رميتموها بالنفط . فأنكروا ذلك وقالوا : قد توفي أمير المؤمنين فعلى ماذا تقاتل؟ ارجع إلى الشام حتى تنظر ماذا يجتمع عليه رأي صاحبك – يعنون معاوية بن يزيد – وهل يجمع الناس عليه؟ فلم يزالوا حتى لان لهم ، وقال له عبدا لله بن خالد بن أسيد : أراك تتهمني في يزيد ، ولم يزالوا به حتى رجع إلى الشام .

فلما أدبر جيش الحصين بن نمير ، وكان خروجه من مكة لخمس ليال خلون من ربيع الآخر سنة أربع وستين ، دعا ابن الزبير وجوه الناس وأشرافهم وشاورهم في هدم الكعبة ، فأشار عليه ناس غير كثير بهدمها ، وأبى أكثر الناس هدمها ، وكان أشدهم عليه إباء عبدا لله بن عباس ، وقال له : دعها على ما أقرها رسول ا لله ﷺ فإني أخشى أن يأتي بعدك من يهدمها ، فلا تزال تهدم فيتهاون الناس في حرمتها ، ولكن ارقعها ، فقال ابن الزبير : وا لله ما يرضى أحدكم أن يرقع بيت أبيه وأمه ، فكيف أرقع بيت ا لله سبحانه ، وأنا أنظر إليه ينقض من أعلاه إلى أسفله ، حتى إن الحمام ليقع عليه فتتناثر حجارته ، وكان ممن أشار عليه بهدمها جابر بن عبدا لله – وكان جاء معتمراً – وعبيد بن عمير وعبدا لله بن صفوان بن أمية ، فأقام أياماً يشاور وينظر ثم أجمع على هدمها ، وكان يحب أن يكون هو الذي يردها على ما قال رسول ا لله ﷺ على قواعد إبراهيم ، وعلى ما وصفه رسول ا لله ﷺ لعائشة رضي ا لله عنها ، فأراد أن يبنيها بالورس ويرسل إلى اليمن في ورس يشترى له ، فقيل له : إن الورس يرفت ويذهب ، ولكن ابنها بالقصة ، فسأل عن القصة ، فأخبر أن قصة صنعاء هي أجود القصة ، فأرسل إلى صنعاء بأربعمائة دينار يشتري له بها قصة ويكترى عليها ، وأمر بتنجيح ذلك ، ثم سأل

رجالاً من أهل العلم من أهل مكة ، من أين أخذت قريش حجارتها ؟ فأخبروه بمقلعها ، فنقل له من الحجارة قدر ما يحتاج إليه . فلما اجتمعت الحجارة وأراد هدمها خرج أهل مكة منها إلى منى ، فأقاموا بها ثلاثاً فرقاً من أن ينزل عليهم عذاب لهدمها ، فأمر ابن الزبير بهدمها ، فما اجترأ أحد على ذلك . فلما رأى ذلك ، علاها هو بنفسه فأخذ المعول وجعل يهدمها ويرمي بحجارتها ، فلما رأوا أنه لم يصبه شيء ، اجترأوا فصعدوا يهدموها . وأرقى ابن الزبير فوقها عبيداً من الحبش يهدمونها ، رجاء أن يكون فيهم صفة الحبشي الذي قال رسول الله ﷺ : يخرب الكعبة ذو السويقتين من الحبشة ، قال : وقال مجاهد : سمعت عبدالله بن عمرو بن العاص يقول : كأني به أصيلع ، أفيدع قائم عليها يهدمها بمسحاته ، قال مجاهد : فلما هدم ابن الزبير الكعبة ، جئت أنظر ، هل أرى الصفة التي قال عبدالله بن عمرو؟ فلم أرها فهدموها وأعانهم الناس ، فما ترجلت الشمس حتى ألصقها كلها بالأرض من جوانبها جميعاً ، وكان هدمها يوم السبت النصف من جمادى الآخرة سنة أربع وستين ، ولم يقرب ابن عباس مكة حين هدمت الكعبة حتى فرغ منها ، وأرسل إلى ابن الزبير لا تدع الناس بغير قبلة ، انصب لهم حول الكعبة الخشب ، واجعل عليها الستور حتى يطوف الناس من ورائها ويصلون إليها ، ففعل ذلك ابن الزبير ، وقال ابن الزبير : أشهد لسمعت عائشة رضي الله عنها تقول : قال رسول الله ﷺ : إن قومك استقصروا في بناء البيت ، وعجزت بهم النفقة ، فتركوا في الحجر منها أذرعاً ، ولولا حداثة قومك بالكفر ، لهدمت الكعبة وأعدت ما تركوا منها ، ولجعلت لها بابين موضوعين بالأرض ، باباً شرقياً يدخل منه الناس ، وباباً غربياً يخرج منه الناس ، وهل تدرين لم كان قومك رفعوا بابها؟ قالت : قلت : لا ، قال : تعززاً أن لا يدخلها إلى من أرادوا فكان الرجل إذا كرهوا أن يدخلها ، يدعونه أن يرتقي حتى إذا كاد أن يدخل ، دفعوه فسقط ، فإن بدأ لقومك هدمها ، فهلمي لأريك ما تركوا من الحجر منها ، فأراها قريباً من سبعة أذرع .

فلما هدم ابن الزبير الكعبة وسواها بالأرض ، كشف عن أساس إبراهيم فوجدوه داخلاً في الحجر نحواً من ستة أذرع وشبر ، كأنها أعناق الإبل أخذ بعضها بعضاً ، كتشبيك الأصابع بعضها ببعض ، يحرك الحجر من القواعد فتحرك الأركان كلها ، فدعا ابن الزبير خمسين رجلاً من وجوه الناس وأشرافهم وأشهدهم على ذلك الأساس ، قال : فأدخل رجل من القوم كان أيداً ، يقال له :

عبدالله بن مطيع العدوي ، عتلة كانت في يده في الركن من أركان البيت ، فتزعزعت الأركان جميعاً ، ويقال إن مكة كلها رجفت رجفة شديدة حين زعزع الأساس ، وخاف الناس خوفاً شديداً حتى ندم كل من كان أشار على ابن الزبير بهدمها ، وأعظموا ذلك إعظاماً شديداً وأسقط في أيديهم ، فقال لهم ابن الزبير : اشهدوا ، ثم وضع البناء على ذلك الأساس ، ووضع حدات الباب ، باب الكعبة على مدماك على الشاذروان اللاصق بالأرض ، وجعل الباب الآخر بإزائه في ظهر الكعبة مقابله ، وجعل عتبته على الحجر الأخضر الطويل الذي في الشاذروان الذي في ظهر الكعبة قريباً من الركن اليماني ، وكان البناء يبنون من وراء الستر ، والناس يطوفون من خارج .

فلما ارتفع البنيان إلى موضع الركن ، وكان ابن الزبير حين هدم البيت ، جعل الركن في ديباجة وأدخله في تابوت وأقفل عليه ووضعه عنده في دار الندوة ، وعمد إلى ما كان في الكعبة من حلية فوضعها في خزانة الكعبة ، في دار شيبة بن عثمان ، فلما بلغ البناء موضع الركن أمره ابن الزبير بموضعه ، فنقر في حجرين : حجر من المدماك الذي تحته وحجر من المدماك الذي فوقه ، بقدر الركن وطوق بينهما ، فلما فرغوا منه ، أمر ابن الزبير ابنه عباد بن عبدالله ابن الزبير وجبير بن شيبة بن عثمان أن يجعلوا الركن في ثوب ، وقال لهم ابن الزبير : إذا دخلت في الصلاة ، صلاة الظهر ، فاحملوه واجعلوه في موضعه ، فأنا أطول الصلاة ، فإذا فرغتم فكبروا حتى أخفف صلاتي ، وكان ذلك في يوم شديد الحر ، فلما أقيمت الصلاة كبر ابن الزبير وصلى بهم ركعة ، خرج عباد بالركن من دار الندوة وهو يحمله ومعه جبير بن شيبة بن عثمان ، ودار الندوة يومئذ قريبة من الكعبة ، فخرقا به الصفوف حتى أدخلاه في الستر الذي دون البناء ، فكان الذي وضعه في موضعه هذا عباد بن عبدالله ابن الزبير ، وأعانه عليه جبير بن شيبة ، فلما أقروه في موضعه وطوبق عليه الحجران كبروا فخفف ابن الزبير صلاته ، وتسامع الناس بذلك ، وغضبت فيه رجال قريش ، حين لم يحضرهم ابن الزبير ، وقالوا : والله لقد رفع في الجاهلية حين بنته قريش ، فحكموا فيه أول من يدخل عليهم من باب المسجد ، فطلع رسول الله ﷺ فجعله في ردائه ، ودعا رسول الله ﷺ من كل قبيلة من قريش رجلاً فأخذوا بأركان الثوب ثم وضعه رسول الله ﷺ في موضعه وكان الركن قد تصدع من الحريق بثلاث فرق ، فانشظت منه شظية كانت عند بعض آل شيبة بعد ذلك بدهر طويل ، فشده ابن الزبير بالفضة ، إلا تلك الشظية من أعلاه –

موضعها بيّنٌ في أعلى الركن– وطول الركن ذراعان ، قد أخذ عرض جدار الكعبة ، ومؤخر الركن في داخله الجدر ، مضرس على ثلاثة رؤوس ، قال ابن جريج : فسمعت من يصف لون مؤخره الذي في الجدر ، قال بعضهم : هو مورد ، وقال بعضهم : هو أبيض .

قالوا : وكانت الكعبة يوم هدمها ابن الزبير ثمانية عشر ذراعاً في السماء ، فلما أن بلغ ابن الزبير ثمانية عشر ذراعاً ، قصرت بحال الزيادة التي زاد من الحجر فيها ، واستسمج ذلك إذ صارت عريضة لا طول لها . فقال : قد كانت قبل قريش تسعة أذرع ، حتى زادت قريش فيها تسعة أذرع طولاً في السماء ، فأنا أزيد تسعة أذرع أخرى ، فبناها سبعة وعشرين ذراعاً في السماء ، وهي سبعة وعشرون مدماكاً ، وعرض جدارها ذراعان ، وجعل فيها ثلاث دعائم ، وكانت قريش في الجاهلية ، جعلت فيها ست دعائم ، وأرسل ابن الزبير إلى صنعاء فأتى من رخام بها يقال له البلق ، فجعله في الروازن التي في سقفها للضوء ، وكان باب الكعبة قبل بناء ابن الزبير مصراعاً واحداً ، فجعل له ابن الزبير مصراعين طولهما أحد عشر ذراعاً من الأرض إلى منتهى أعلاهما اليوم ، وجعل الباب الآخر الذي في ظهرها بإزائه على الشاذروان الذي على الأساس مثله ، وجعل ميزابها يسكب في الحجر ، وجعل لها درجة في بطنها في الركن الشامي من خشب معرجة يصعد فيها إلى ظهرها ، فلما فرغ ابن الزبير من بناء الكعبة ، خلقها من داخلها وخارجها من أعلاها إلى أسفلها ، وكساها القباطي ، وقال : من كانت لي عليه طاعة فليخرج فليعتمر من التنعيم ، فمن قدر أن ينحر بدنة فليفعل ، ومن لم يقدر على بدنة فليذبح شاة ، ومن لم يقدر فليتصدق بقدر طوله ، وخرج ماشياً وخرج الناس معه مشاة حتى اعتمروا من التنعيم ، شكراً لله سبحانه ، ولم ير يوماً كان أكثر عتيقاً ولا أكثر بدنة منحورة وشاة مذبوحة ولا صدقة من ذلك اليوم ، ونحر ابن الزبير مائة بدنة ، فلما طاف بالكعبة استلم الأركان الأربعة جميعاً ، وقال : إنما كان ترك استلام هذين الركنين الشامي والغربي ، لأن البيت لم يكن تاماً ، فلم يزل البيت على بناء ابن الزبير إذا طاف به الطائف استلم الأركان جميعاً ويدخل البيت من هذا الباب ويخرج من الباب الغربي ، وأبوابه لاصقة بالأرض حتى قتل ابن الزبير رحمه الله .

ثم قال الأزرقي : قال ابن جريج : وكان باب الكعبة الذي عمله ابن الزبير طوله في السماء أحد عشر ذراعاً ، فلما كان الحجاج نقض من الباب أربعة أذرع وشبراً ، وعمل لها هذين البابين وطولهما ستة أذرع وشبراً .

قال الأزرقي : حدثنا محمد بن يحيى عن الواقدي عن موسى بن يعقوب عن عمه عن الحارث بن عبدالله بن وهب بن زمعة قال : ارتحل الحصين بن نمير من مكة لخمس ليالي خلون من شهر ربيع الآخر سنة أربع وستين ، وأمر ابن الزبير بالخصاص التي كانت حول الكعبة فهدمت ، وبالمسجد فكنس مما فيه من الحجارة والدماء ، فإذا الكعبة متوهنة ترتج من أعلاها إلى أسفلها ، فيها أمثال جيوب النساء من حجارة المنجنيق ، وإذا الركن قد اسود واحترق وتفلق من الحريق ، فرأيته ثلاث فرق ، فشاور ابن الزبير الناس في هدمها ، فأشار عليه جابر بن عبدالله وعبيد بن عمير بهدمها ، وأبى ذلك عليه ابن عباس ، وقال : أنا أخشى أن يأتي بعدك من يهدمها ، فلا تزال تهدم وتبنى ، فيتهاون الناس بحرمتها فلا أحب ذلك ، أخبرني محمد بن يحيى عن الواقدي عن شرحبيل بن أبي عون عن أبيه قال : رأيت الحجر قد انفلق واسود من الحريق ، فأنظر إلى جوفه أبيض كأنه الفضة ، وقد كان شاور المسور بن مخرمة بن نوفل قبل أن يموت بهدمها وبنائها ، فأشار عليه ذلك .

حدثني محمد بن يحيى عن الواقدي عن عبدالله بن محمد عن أبيه عن جده أنه سمع عبدالله بن عمر يسأل نايل بن قيس الجذامي عن الأساس ، فقال نايل : اتبعنا الأساس في الحجر ، فوجدنا أساس البيت وأصلاً بالحجر كأنه أصابعي هذه ، وشبك بين أصابعه فسمعت ابن عمر يكبر ويحمد الله عز وجل على ذلك .

أخبرني محمد بن يحيى عن الواقدي عن محمد بن عمرو عن أبي الزبير قال : سمعت عبدالرحمن بن سابط يقول : دعانا ابن الزبير خمسين رجلاً من قريش فنظرنا إلى الأساس فإذا هو واصل بالحجر ، مشبك كأصابع يدي هاتين ، وشبك بين أصابعه ، فقال ابن الزبير : اشهدوا ثم بنى . قال عبدالرحمن بن سابط : فجلست مع ابن عباس فأخبرته فقال ابن عباس : ما زلنا نعلم أن من البيت في الحجر .

حدثنا محمد بن يحيى عن الواقدي عن إبراهيم بن موسى عن عكرمة بن خالد المخزومي قال : هدم ابن الزبير البيت حتى سواه بالأرض وحفر أساسه وأدخل الحجر فيه ، وكان الناس يطوفون من وراء الستر ويصلون إلى موضعه ، وجعل

الركن في تابوت ، في رقة من حرير . فأما ما كان من حلي البيت وما وجد فيه من ثياب أو طيب فإنه جعله عند الحجبة في خزانة الكعبة حتى أعاد بناءها ، قال عكرمة: فرأيت الحجر الأسود فإذا هو ذراع أو يزيد ، وأخبرني محمد بن يحيى عن الواقدي عن شرحبيل بن أبي عون عن أبيه قال : لما هدم عبدا لله بن الزبير البيت ندم كل من كان أشار عليه وأعظموا ذلك .

حدثني محمد بن يحيى عن الواقدي عن سليمان بن داود بن الحصين عن أبيه عن عكرمة عن ابن عباس أنه أبى على ابن الزبير هدمها ، وقال : أخاف أن يأتي بعدك من يهدمها ، ثم يأتي بعد ذلك آخر ، فإذا هي تهدم أبداً وتبنى . فسكت عبدا لله بن الزبير و لم يقرب ابن عباس مكة حتى فرغ منها .

وأخبرني محمد بن يحيى عن الواقدي عن إبراهيم بن موسى عن عكرمة بن خالد قال : لما بنى ابن الزبير الكعبة انتهى به إلى الأساس الأول وأدخل الحجر فيها . فلما انتهى إلى موضع الركن الأسود جاء به ابن الزبير وولده حتى رفعوه ووضعوه بأيديهم في ساعة خالية تحروا بها غفلة الناس نصف النهار في يوم صائف .

وأخبرني محمد بن يحيى عن الواقدي عن عبد العزيز بن المطلب عن إسحاق بن عبدا لله بن أبي فروة عن أبي جعفر قال : ابن الزبير وضعه وولده نصف النهار في حر شديد ، فرأيت قريشاً غضبوا في ذلك . وأخبرني محمد بن يحيى عن الواقدي عن ابن جريج عن خلاد بن عطاء عن أبيه وكان يعمل في البيت محتسباً قال : وكان الركن في تابوت مقفل عليه فلما كان وقت وضعه وقد نقر له حجران طوبق بينهما ، ثم أدخل فيه ، فلما فرغ من ذلك خرج ابن الزبير في يوم صائف نصف النهار فأشار إلى جبير بن شيبة الحجبي فأدخلاه في موضعه وبنى عليه ، قال عطاء أبو خلاد : وأنا حاضر ذلك .

وأخبرني محمد بن يحيى عن الواقدي عن ابن جريج عن منصور بن عبدالرحمن الحجبي عن مسافع الحجبي قال : لما بنى ابن الزبير البيت حتى بلغ موضع الركن تواعد الحجبة ، قال مسافع : وأنا فيهم ، فلما دخل ابن الزبير في الصلاة حسبت الظهر ، خرج الحجبة بالركن من الصفوف وأنا فيهم ، فرفعناه ، فجاء حمزة بن عبدا لله ابن الزبير وأخذ بطرف الثوب فرفع معنا ، وأخبرني مسافع أن الركن أخذ عرض الضفير ، ضفير البيت .

حدثني محمد بن يحيى عن الواقدي عن ابن جريج و عبدا لله بن عمر بن حفص عن منصور بن عبدالرحمن الحجبي عن أمه قالت : كان الحجرُ الأسود قبل الحريق مثل لون المقام فلما احترق اسود ، قال : فلما احترقت الكعبة تصدع بثلاث فرق فشده ابن الزبير بالفضة .

وأخبرني محمد بن يحيى عن الواقدي عن علي بن زيد عن أبيه عن جده قال : رأيت ابن الزبير هدمها كلها فلما بنى وفرغ ، خلق جوفها بالعنبر والمسك ولطخ جدرها من خارج بالمسك وسترها بالديباج ، وأدخل الحجر فيها ورد الركن الأسود في موضعه ، وكان قد انكسر بثلاث فرق من الحريق الذي أصاب الكعبة ، وكان الركن عند ابن الزبير في بيته في صندوق عليه قفل ، فلما بلغ البناء موضع الركن ، جاء ابن الزبير حتى وضعه هو بنفسه وشده بالفضة فهو مشدود بالفضة واعتمر من خيمة جمانة ماشياً ، فرأى الناس أن قد أحسن ابن الزبير ، ولبى حتى نظر إلى البيت . انتهى من تاريخ الأزرقي . والمراد بخيمة جمانة موضع التنعيم .

سبب بناء ابن الزبير الكعبة على قواعد إبراهيم

والسبب الذي دعا عبدا لله بن الزبير رضي ا لله عنهما أن يبني الكعبة على أساس بناء إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام هو الحديث الذي سمعه من خالته عائشة رضي ا لله عنها الذي يتضمن أن النبي ﷺ كان يتمنى أن يبني الكعبة على قواعد إبراهيم كما سيأتي بيانه وهو :

جاء في تاريخ الأزرقي ما نصه : وحدثني محمد بن يحيى قال : حدثني هشام بن سليمان المخزومي عن ابن جريج عن عبدا لله بن عبيد بن عمير عن الوليد عن عطاء بن حباب أن الحارث بن عبدا لله بن أبي ربيعة وفد على الملك بن مروان في خلافته فقال له عبدالملك بن مروان : ما أظن أبا خبيب ، يعني ابن الزبير سمع من عائشة ما كان يزعم أنه سمع منها ، قال الحارث : أنا سمعته منها ، قال : سمعتها تقول ماذا؟ قال : قالت : قال رسول ا لله ﷺ : «إن قومك استقصروا في بناء البيت ، ولولا حداثة عهد قومك بالكفر أعدت فيه ما تركوا منه ، فإن بدا لقومك أن يبنوه فهلمي لأريك ما تركوا منه فأراها قريباً من سبعة أذرع » وزاد الوليد في الحديث ، وجعلت لها بابين موضوعين بالأرض باباً شرقياً وباباً غربياً ، وهل تدرين لم كان قومك رفعوا بابها؟ قالت : قلت : لا ، قال : تعززاً لئلا يدخلها أحد إلا

من أرادوا ، فكانوا إذا كرهوا أن يدخلها الرجل يدعونه يرتقي ، حتى إذا كاد أن يدخل يدفعونه فيسقط ، قال عبدالملك : أنت سمعتها تقول هذا؟ قال : نعم ، قال: فنكت بعصاه ساعة ثم قال : إني وددت أني تركته وما تحمل . اهـ .

ثم قال الأزرقي : حدثني جدي قال حدثني مالك بن أنس عن ابن شهاب عن سالم بن عبدا لله بن عمر أن عبدا لله بن محمد بن أبي بكر الصديق أخبر عبدا لله بن عمر عن عائشة أن رسول ا لله ﷺ قال : ألم تري أن قومك حين بنوا البيت استقصروا عن قواعد إبراهيم؟ قالت : فقلت : يا رسول ا لله ألا تردها على قواعده؟ قال : لولا حدثان قومك بالكفر لفعلت . قال عبدا لله بن عمر : لئن كانت عائشة سمعت هذا من رسول ا لله ﷺ ما أراه ترك استلام الركنين اللذين يليان الحجر إلا أن البيت لم يتم على قواعد إبراهيم . انتهى من تاريخ الأزرقي .

ما جاء في صحيح مسلم عن بناء ابن الزبير والحجاج الكعبة

ولقد ورد بناء عبدا لله بن الزبير رضي ا لله عنهما في صحيح مسلم في كتاب الحج ، وهذا نص ما جاء فيه :

وحدثني محمد بن حاتم حدثني ابن مهدي حدثنا سليم بن حيان عن سعيد ، يعني ابن ميناء قال : سمعت عبدا لله بن الزبير يقول : حدثتني خالتي (يعني عائشة) قالت : قال رسول ا لله ﷺ : يا عائشة لولا أن قومك حديثو عهد بشرك لهدمت الكعبة فألزقتها بالأرض وجعلت لها بابين باباً شرقياً وباباً غربياً وزدت فيها ستة أذرع من الحجر فإن قريشاً اقتصرتها حيث بنت الكعبة .

حدثنا هناد بن السري حدثنا ابن أبي زائدة أخبرني ابن أبي سليمان عن عطاء قال : لما احترق البيت زمن يزيد بن معاوية حين غزاها أهل الشام فكان من أمره ما كان ، تركه ابن الزبير حتى قدم الناس الموسم يريد أن يجرئهم أو يحزبهم على أهل الشام فلما صدر الناس قال : يا أيها الناس أشيروا علي في الكعبة أنقضها ثم أبني بناءها أو أصلح ما وهي منها؟ قال ابن عباس : فإني قد فرق لي رأي فيها أرى أن تصلح ما وهي منها وتدع بيتاً أسلم الناس عليه وأحجاراً أسلم الناس عليها وبعث عليها النبي ﷺ ، فقال ابن الزبير : لو كان أحدكم احترق بيته ما رضي حتى يجده فكيف بيت ربكم إني مستخير ربي ثلاثاً ثم عازم على أمري ، فلما مضى الثلاث أجمع رأيه على أن ينقضها ، فتحاماه الناس أن ينزل بأول الناس

يصعد فيه أمر من السماء حتى صعده رجل فألقى منه حجارة فلما لم يره الناس أصابه شيء، تتابعوا فنقضوه حتى بلغوا به الأرض، فجعل ابن الزبير أعمدة فستر عليها الستور حتى ارتفع بناؤه، وقال ابن الزبير: إني سمعت عائشة تقول: إن النبي ﷺ قال: لولا أن الناس حديث عهدهم بكفر وليس عندي من النفقة ما يقوى على بنائه لكنت أدخلت فيه من الحجر خمس أذرع ولجعلت لها باباً يدخل الناس منه وباباً يخرجون منه، قال: فأنا اليوم أجد ما أنفق ولست أخاف الناس، قال: فزاد فيه خمس أذرع من الحجر حتى أبدى أساً نظر الناس إليه، فبنى عليه البناء، وكان طول الكعبة ثماني عشرة ذراعاً، فلما زاد فيه استقصره فزاد في طوله عشر أذرع وجعل له بابين أحدهما يدخل منه والآخر يخرج منه، فلما قتل ابن الزبير كتب الحجاج إلى عبدالملك بن مروان يخبره بذلك ويخبره أن ابن الزبير قد وضع البناء على أس نظر إليه العدول من أهل مكة، فكتب إليه عبدالملك أنا لسنا من تلطيخ ابن الزبير في شيء أما ما زاد في طوله فأقره وأما ما زاد فيه من الحجر فرده إلى بنائه وسد الباب الذي فتحه فنقضه وأعاده إلى بنائه.

حدثني محمد بن حاتم حدثنا محمد بن بكر أخبرنا ابن جريج قال: سمعت عبدالله بن عبيد بن عمر والوليد بن عطاء يحدثان عن الحارث بن عبدالله بن أبي ربيعة قال عبدالله بن عبيد: وفد الحارث بن عبدالله على عبدالملك بن مروان في خلافته فقال عبدالملك: ما أظن أبا خبيب (يعني ابن الزبير) سمع من عائشة ما كان يزعم، أنه سمعه منها، قال الحارث: بلى أنا سمعته منها، قال: سمعتها تقول ماذا؟ قال: قالت: قال رسول الله ﷺ: إن قومك استقصروا من بنيان البيت، ولولا حداثة عهدهم بالشرك أعدت ما تركوا منه، فإن بدا لقومك من بعدي أن يبنوه فهلمي لأريك ما تركوا منه فأراها قريباً من سبعة أذرع، هذا حديث عبدالله بن عبيد، وزاد عليه الوليد بن عطاء قال النبي ﷺ: ولجعلت لها بابين موضوعين في الأرض شرقياً وغربياً، وهل تدرين لم كان قومك رفعوا بابها؟ قالت: قلت: لا، قال: تعززاً أن لا يدخلها إلا من أرادوا، فكان الرجل إذا هو أراد أن يدخلها يدعونه يرتقي، حتى إذا كاد أن يدخل دفعوه فسقط، قال عبدالملك للحارث: أنت سمعتها تقول هذا؟ قال: نعم، قال: فنكت ساعة بعصاه ثم قال: وددت أني تركته وما تحمل. انتهى من كتاب صحيح مسلم.

ابتداء هدم الكعبة وانتهاء بنائها في عهد ابن الزبير

قال الإمام الأزرقي رحمه الله تعالى : وكان هدم الكعبة يوم السبت النصف من جمادى الآخرة سنة أربع وستين ، أما الفراغ من بنائها فلم يذكره الأزرقي في تاريخه .

وفي تاريخ الكعبة المعظمة : كان الفراغ من عمارة البيت في سابع من رجب سنة خمس وستين .

ولقد وقع خلاف عند بعض المؤرخين في عمارة الكعبة هل كانت سنة (٦٤) أو سنة (٦٥) ، ونحن لم نبحث عن هذه المسألة بحثاً دقيقاً لندلي برأينا ، وليس في ذلك من بأس .

جاء في تاريخ الخميس في الجزء الثاني : وكان ابتداء حصار الحجاج ليلة هلال ذي القعدة سنة (٧٢) اثنتين وسبعين من الهجرة ، وفي أسد الغابة حصاره أول ليلة من ذي الحجة (٧٢) من الهجرة ، وذكر القولين في الرياض النضرة ، وحج الحجاج بالناس تلك السنة ووقف بعرفة وعليه درع ومغفر ولم يطوفوا بالبيت ولا بين الصفا والمروة ، ونصب الحجاج منجنيقاً على جبل أبي قبيس كذا في أسد الغابة ، وحاصره ستة أشهر وسبع عشرة ليلة على ما ذكر ابن جرير ، ورمى به أحث الرمي وألح عليه بالقتال من كل جانب وحبس عنهم الميرة وحصرهم أشد الحصار ، وكان يرمي بالمنجنيق من أبي قبيس فيصيب الكعبة حجارة المنجنيق لكون ابن الزبير مكثنا بالمسجد ، وفي نهاية ابن الأثير أن ابن الزبير كان يصلي في المسجد الحرام وأحجار المنجنيق تمر على أذنه وما يلتفت كأنه كعب راتب ، أي منتصب . انتهى من تاريخ الخميس .

باب الكعبة الغربي

لا يخفى أنه يوجد الآن للكعبة المشرفة باب واحد فقط مرتفع عن الأرض بمقدار مترين ، وهذا الباب في وجه الكعبة من الجهة الشرقية ، ولم يكن للكعبة بابان إلا في بناء عبدالله بن الزبير رضي الله عنهما ، فإنه لما بناها جعل لها بابين أحدهما في الجهة الشرقية والآخر في الجهة الغربية ، أحدهما للدخول والآخر للخروج ، ولم يجعلهما مرتفعين بل ألصقهما بالأرض لسهولة الدخول والخروج ،

كل ذلك فعله ابن الزبير رضي الله عنهما تحقيقاً لرغبة رسول الله ﷺ بموجب الحديث الذي سمعه من خالته عائشة بنت أبي بكر رضي الله عنهما، كما رواه الأزرقي في تاريخه عن الحارث بن عبدالله المخزومي فإنه سمعها تقول: قال لي رسول الله ﷺ: «إن قومك استقصروا في بناء البيت، ولولا حداثة قومك بالكفر أعدت فيه ما تركوا منه، فإن بدا لقومك أن يبنوه فهلمي لأريك ما تركوا منه فأراها قريباً من سبعة أذرع، وقال رسول الله ﷺ: وجعلت لها بابين موضوعين على الأرض، باباً شرقياً يدخل الناس منه وباباً غربياً يخرج الناس منه» اهـ.

ولقد جاء معنى هذا الحديث في الصحيحين ونصه: «لولا حداثة قومك بالكفر لنقضت البيت ثم لبنيته على أساس إبراهيم عليه الصلاة والسلام، فإن قريشاً استقصرت بناءه وجعلت له خلفاً» رواه البخاري ومسلم عن عائشة رضي الله عنها ـ وهذا لفظ البخاري ـ وهناك روايات أخرى بهذا المعنى أيضا.

ثم جاء الحجاج بن يوسف الثقفي فنقض ما زاده عبدالله بن الزبير رضي الله تعالى عنه وعن أبيه الزبير بن العوام أحد المبشرين بالجنة، وعن أمه أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما فمن ذلك أنه سد الباب الغربي بظهر الكعبة الذي فتحه ابن الزبير للخروج منه، ورفع الباب الشرقي الأصلي عن الأرض، كما قدمنا بيان ذلك مفصلا.

نذكر هنا بمناسبة إلقاء ستارة الكعبة المعظمة عنها عند تعمير وتجديد سقفيها الأعلى والأدنى في وقتنا هذا كما بينا ذلك في محله، وظهور ردف الباب الغربي في ظهر الكعبة، أي ظهور العود الغليظ الذي وضع بأعلى الباب ثم بني فوقه إلى السطح، وظهور علامات تحديد الباب أيضاً في نفس هذا البناء الموجود في وقتنا هذا الذي هو بناء السلطان مراد الرابع للكعبة من سلاطين آل عثمان، فكان قياس العلامات الظاهرة لهذا الباب الغربي حيث قمنا بأنفسنا بأخذه كما يأتي:

طول الباب (٣١٨) سنتيمتراً، وعرضه (١٧١) سنتيمتراً، وارتفاعه عن الأرض من الشاذروان (١٢٢) سنتيمتراً.

فقد ظن بعض الناس من ظهور هذه العلامات أن هذا هو نفس الباب الغربي الذي فتحه عبدالله بن الزبير رضي الله تعالى عنهما في ظهر الكعبة الغراء.

فلبيان الحقيقة نقول وبالله تعالى التوفيق فهو الهادي إلى سواء الطريق، أن بناء عبدالله بن الزبير رضي الله عنهما للكعبة سنة (٦٤) أربع وستين من الهجرة،

وبناء الحجاج الثقفي لها من جهة حجر إسماعيل مع سد بابها الغربي ورفع بابها الشرقي عن الأرض سنة (٧٤) أربع وسبعين هجرية دام هذان البناءان قائمين إلى أن جاء السيل الكبير في زمن السلطان مراد خان الرابع من سلاطين آل عثمان ، فدخل المسجد الحرام فهدم الكعبة ، حتى لم يبق منها إلا جزء يسير من جدارها فقرروا هدم ما بقي خوفاً من وقوعه بغتة .

فبناها السلطان مراد الرابع المذكور بناية قوية محكمة سنة (١٠٤٠) ألف وأربعين هجرية ، فكان بقاء بناية ابن الزبير رضي الله عنهما وبناية الحجاج دام تسعمائة وست وسبعين سنة ، ولا بد في هذه السنوات الطويلة قد حصلت فيها عدة مرات ترميمات وإصلاحات .

والردف أي العود الغليظ الموجود إلى زماننا هذا فوق موضع الباب الغربي ، مع وجود علامة تحديد الباب في نفس البناء ، كل هذا يحدد لنا موضع الباب الغربي الذي فتحه ابن الزبير رضي الله عنه لأن طول هذا الباب كطول الباب الشرقي ، وعرضه ينقص عن عرض الباب الشرقي بمقدار سبع وعشرين سنتيمتراً . وأما ارتفاع هذا الباب عن الأرض فهو ينقص عن ارتفاع الباب الشرقي بمقدار سبعين سنتيمتراً تقريباً .

فإذا تأملنا نجد أن ابن الزبير قد ألصق البابين الشرقي والغربي بالأرض ، فجاء الحجاج الثقفي بعده ورفع الباب الشرقي بمترين عن الأرض ، وسد الباب الغربي سداً تاماً .

فعليه تكون العلامة الظاهرة على ارتفاع الباب الغربي من ظهر الكعبة المشرفة مغلوطاً غير صحيح مطلقاً ، وهذا الغلط جاء من العمال الذين بنوا الكعبة في أيام السلطان مراد المذكور ، فإنهم لما وصلوا بالبناء إلى جهة الباب الغربي أرادوا المحافظة على محله كما كان قديماً ، فبنوا ما يشبه الباب الذي عمله ابن الزبير ، ثم سدوه بالحجارة الشبيكية كما سده الحجاج الثقفي ، لكنهم غلطوا في رفعه عن الأرض بمقدار متر وربع متر ، وكان سد هذا الباب في بناء السلطان المذكور في اليوم الثالث والعشرين من شهر رمضان من السنة المذكورة وهي سنة (١٠٤٠) ألف وأربعين هجرية .

فاعتقاد البعض أن الجدار الذي بظهر الكعبة هو من بناء ابن الزبير باق إلى الآن لوجود ردف الباب الغربي وعلاماته هو اعتقاد غير صحيح ، لأن السلطان

مراد خان الرابع قد بنى الكعبة المشرفة من جميع الأطراف في العام المذكور ، وأما الاعتقاد بأن موضع الباب الغربي الذي فتحه ابن الزبير هو المحل الذي فيه الردف والعلامات فهذا صحيح لا شك فيه ، غير أننا نقول : إن الباب لم يكن مرتفعاً عن الأرض في بنائه بل كان لاصقاً بالأرض ، بأس إن قلنا إنه كان مرتفعاً عن الأرض بمقدار شبر واحد أو شبرين .

بقي علينا أمر دقيق جداً ظهر لنا في الباب الغربي ، وهو : أن الردف « بضم الراء » الذي فوق الباب الغربي ، أي العود الغليظ الذي على الباب ، هل هو من بناء السلطان مراد المذكور وضعوه سنة (١٠٤٠) حين البناء ، أم هو من بناء عبدالله بن الزبير رضي الله عنه؟

الذي نعتقده أنه من بناء عبدالله بن الزبير فهو الذي وضعه فيه سنة (٦٤) أربع وستين هجرية ، والذي يدلنا على ذلك هو ما لاحظناه في العود الغليظ من الغصن والتجعد الكثير ، بما يشبه الرجل العجوز الذي بلغ من الكبر ما تجعد منه وجهه وتكرمش جلده ، لأنه معرض للمطر وإن كان وراء كسوة الكعبة . والله تعالى أعلم بالغيب .

(فإن قيل) : لم لم ينكسر هذا العود بمرور السنين عليه ؟

(نقول) : لم ينكسر لأنه ليس عليه ثقل يذكر ، فهو فوقه بناء وتحته بناء أيضاً فهو في نفس البناء منذ أن سد الحجاج هذا الباب . فلما كان بناء السلطان مراد في السنة المذكورة (١٠٤٠) من الهجرة رأوه صالحاً للبقاء فوضعوه في ظاهر البناء ، فإن كل شيء من خشب أو حجر يخرج من الكعبة عند تعميرها يعاد إليها ثانياً إذا كان صالحاً للبقاء ، كما عملنا نحن ذلك عند تجديد سقفها في عصرنا هذا سنة (١٣٧٧) سبع وسبعين وثلاثمائة وألف هجرية .

فعليه يكون هذا العود الذي فوق الباب الغربي في ظهر الكعبة المشرفة والأعواد الثلاثة القائمة في جوفها الواصلة إلى سقفها الأول ، هي من وضع وبناء عبدالله بن الزبير رضي الله عنهما فتكون هذه الأعواد الأربعة أعواداً أثرية ثمينة جداً لأمرين : أولاً لقدمها ، ولكل شيء قديم قيمة خاصة ، وثانياً : أنها منسوبة لبيت الله الحرام وهذه النسبة لا يستهان بها ، وقد كتبنا هذا المبحث بعد النظر الدقيق على الكعبة المشرفة وهي مجردة عن ثوبها يحيط بها الأخشاب من جميع الجهات لأجل تعميرها وذلك في شهر رجب عام (١٣٧٧) هجرية .

فالحمد لله على توفيقاته العظيمة المتوالية ، والشكر له على نعمه الوافرة المتتالية ، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

حكم استقبال القبلة عند هدم الكعبة المشرفة

إذا هدمت الكعبة من جميع الجهات « لا قدر الله تعالى » حتى لم يبق لها جزء قائم ، فكيف يكون حكم الصلاة إليها والحالة هذه؟ فهل نقول أن الصلاة جائزة إذا استقبل المصلي محلها وهواءها كمن صلى إليها وهو في مكان مرتفع عنها كجبل أبي قبيس؟ أم نقول أن حكم الصلاة إليها في هذه الحالة هو حكم الصلاة على سطح الكعبة من حيث وجود الشاخص أو عدمه ، فلا بد من صحة الصلاة على سطحها من وجود الشاخص بين يدي المصلي ، ومثل حكم الصلاة إليها في الحالة المذكورة حكم الطواف بها .

الظاهر لنا والله تعالى أعلم : لا بد من صحة الصلاة والطواف من وجود نفس الكعبة أو وجود جزء منها ، فإذا هدمت كلها حتى لم يبق منها جزء قائم « لا قدر الله تعالى ذلك » فلا بد من صحة الصلاة والطواف عندئذ من وجود شاخص على محل الكعبة وموضعها تماماً ، هذا إذا كان المصلي عند الكعبة بالمسجد الحرام بحيث يمكن له مشاهدة ذاتها ، أما إذا كان المصلي بعيداً عنها وفي البلدان الأخرى فالظاهر عدم اشتراط وجود الشاخص عندئذ .

ونستدل على ما ذكرناه بما جاء في تاريخ الإمام الأزرقي رحمه الله تعالى بأن ابن عباس رضي الله عنهما أرسل إلى عبدالله بن الزبير ، رضي الله عنهما ، عندما هدم الكعبة حتى ألصقها كلها بالأرض من جميع جوانبها يقول له : « لا تدع الناس بغير قبلة انصب لهم حول الكعبة الخشب واجعل عليها الستور حتى يطوف الناس من ورائها ويصلون إليها » ففعل ذلك ابن الزبير . اهـ .

جاء في هامش الجزء الرابع من صحيح مسلم طبعة الآستانة عند الحديث الخاص باحتراق البيت الحرام وبناء ابن الزبير له وجعله عليه الأعمدة وعليها الستور ما نصه :

قوله : فجعل ابن الزبير أعمدة فستر عليها الستور حتى ارتفع بناؤه ، المقصود بهذه الأعمدة والستور أن يستقبلها المصلون في تلك الأيام ويعرفوا موضع الكعبة ،

ولم تزل تلك الستور حتى ارتفع البناء وصار مشاهداً للناس فأزالها لحصول المقصود بالبناء المرتفع من الكعبة . اهـ نووي . انتهى .

وبعض العلماء يرى أنه إذا هدمت الكعبة ، لا قدر الله تعالى ، حتى لم يبق منها شيء ، فإن المصلي يتوجه إلى محلها وهوائها ، ولا يشترط وجود الشاخص . والله تعالى أعلم .

الخلاصة في كيفية بناء ابن الزبير

فخلاصة الكلام المتقدم كما ذكرناها في كتابنا « مقام إبراهيم عليه السلام » المطبوع بمصر هي :

أن عبدالله بن الزبير رضي الله عنهما بعد أن استخار الله تعالى ثلاثة أيام هدم الكعبة كلها حتى ألصقها وسواها بالأرض وكشف عن أساس إبراهيم عليه السلام فوجده داخلاً في حجر إسماعيل نحواً من ستة أذرع وشبر فبناها على أساسه وعلى ذرعه لدليل استند عليه وهو الحديث الذي سمعه من خالته عائشة رضي الله عنها ، وهو جاء في صحيح مسلم في كتاب الحج في باب نقض الكعبة وبنائها عن سعيد بن ميناء قال : سمعت عبدالله بن الزبير يقول : حدثتني خالتي (يعني عائشة) قالت : قال رسول الله ﷺ : يا عائشة لولا قومك حديثو عهد بشرك لهدمت الكعبة فألزقتها بالأرض وجعلت له بابين باباً شرقياً وباباً غربياً وزدت فيها ستة أذرع من الحجر فإن قريشاً اقتصرتها حيث بنت الكعبة فلما بناها ابن الزبير زاد في طولها إلى السماء حتى صار سبعاً وعشرين ذراعاً ليتناسب مع عرضها وجعل لها بابين لاصقين بالأرض من جهتي الشرق والغرب أحدهما يدخل منه والآخر يخرج منه ، وجعل طول كل منهما أحد عشر ذراعاً وجعل لكل منهما مصراعين وجعل للكعبة أربعة أركان وقد كان لها ركنان فقط الركن الأسود والركن اليماني فكانت أركانها الأربعة تستلم في زمانه حتى قتل رضي الله تعالى عنه ، وجعل لها درجة في بطنها في الركن الشامي من خشب معرجة يصعد فيها إلى ظهرها وحلاها بالذهب وجعل في سطحها ميزاباً يسكب في الحجر . قيل : إن ابن الزبير بنى الكعبة بالقصة بفتح القاف أي الجص أتى بها من صنعاء وقيل : إنه بناها بالرصاص المذاب المخلوط بالورس وهو نبت أصفر يزرع باليمن ويضبغ به .

(فإن قيل) : لم كانت أركان الكعبة تستلم في زمانه و لم تكن تستلم قبل ذلك ولا بعد وفاته ؟

(فنقول وا لله تعالى أعلم) : لما كان بناء قريش لم يتمم على قواعد إبراهيم عليه السلام ، حيث نقصوا من عرض الكعبة من جهة الحجر ستة أذرع وشبراً وجعلوا هذا الجدار الذي من جهة الحجر مدوراً ليس فيه ركنان لم يستلم أحد من الصحابة سوى الركنين الأسود واليماني اقتداء به ﷺ ولعدم وجود أربعة أركان للكعبة .

فلما بنى عبدا لله بن الزبير رضي ا لله عنهما الكعبة على أساس إبراهيم صلوات ا لله وسلامه عليه وجعل لها أربعة أركان رأى باجتهاده واجتهاد بعض كبار الصحابة الموجودين في زمانه أن يستلموا جميع أركان الكعبة ما دامت أقيمت على قواعد إبراهيم كما كان يتمنى النبي ﷺ بناءها على قواعده .

فلما قتل ابن الزبير رضي ا لله عنهما وهدم الحجاج ما زاده ابن الزبير في الكعبة فبناها على أساس قريش ترك الناس استلام أركانها الأربعة ولازموا استلام الركنين فقط الأسود واليماني كما كان ذلك في عهد رسول ا لله ﷺ ، ولا يزال الناس كذلك إلى أن تقوم الساعة .

هذا ما فهمناه مما ورد في صحيح البخاري في كتاب بدء الخلق بعد قصة مجيء إبراهيم عليه السلام بهاجر وإسماعيل إلى مكة وبنائه للبيت الحرام . فقد جاء فيه أن أبي بكر أخبر عبدا لله بن عمر عن عائشة : ألم تر أن قومك بنوا الكعبة اقتصروا عن قواعد إبراهيم ؟ فقلت : يا رسول ا لله ألا تردها على قواعد إبراهيم؟ فقال : لولا حدثان قومك بالكفر فقال عبدا لله بن عمر : لئن كانت عائشة سمعت هذا من رسول ا لله ﷺ ، ما أرى أن رسول ا لله ﷺ ترك استلام الركنين اللذين يليان الحجر إلا أن البيت لم يتمم على قواعد إبراهيم . اهـ .

فمن قول ابن عمر رضي ا لله عنهما استنتجنا ما ذكر وا لله تعالى أعلم . وهذا الحديث في صحيح مسلم أيضاً في كتاب الحج .

هذا فلما فرغ عبدا لله بن الزبير من بناء الكعبة خلق جوفها بالعنبر والمسك ولطخ جدارها بالمسك من الخارج من أعلاها إلى أسفلها وسترها بالديباج وقيل بالقباطي : وهي ثياب من كتان تعمل بمصر وكان ذلك اليوم مشهوداً لم ير يوماً كان أكثر عتقاً ولا أكثر بدنة منحورة ولا شاة مذبوحة من ذلك اليوم ، وخرج

ابن الزبير ماشياً حافياً وخرج معه كثير من قريش مشاة حتى وصلوا إلى مسجد عائشة بالتنعيم فأحرموا بالعمرة شكراً لله تعالى على ما وفقهم لبناء بيته الحرام على الصفة التي بناها إبراهيم عليه الصلاة والسلام.

وسبب بناء ابن الزبير الكعبة أن رجلاً في أيام الحصار أوقد ناراً في بعض الخيام المضروبة في المسجد الحرام فطارت شرارة في الخيمة فمشى الحريق حتى أخذ في كسوة الكعبة فاحترقت واحترق الركن الأسود أيضاً وذلك سنة أربع وستين هجرية .

قال في الجامع اللطيف : القباطي بفتح القاف جمع قبطية بضم القاف ، وهو ثوب رقيق أبيض من ثياب مصر ، كأنه منسوب إلى القبط بكسر القاف والضم فيه من تغيير النسب ، والضم فيه خاص بالثياب ، وأما في الناس فقبطي بكسر القاف لا غير . اهـ .

وفي تاريخ الكعبة : قال الفاكهي من طريق أبي أويس عن موسى بن ميسرة ، أنه دخل الكعبة بعد ما بناها ابن الزبير فكان الناس لا يزدحمون فيها يدخلون من باب ويخرجون من آخر . انتهى .

مميزات بناء ابن الزبير

١- أول من باشر هدم الكعبة هو ابن الزبير فعلاها بنفسه فأخذ المعول وجعل يهدمها ويرمي بحجارتها ثم تبعه الناس .
٢- نصب ستارة من الخشب حول الكعبة وجعل عليها الستور يشتغل العمال من ورائها ويطوف الناس خارجها .
٣- بنى عبدالله بن الزبير رضي الله عنهما الكعبة على أساس إبراهيم عليه السلام.
٤- وأرجع ما نقصته قريش من جدار الكعبة من جهة الحجر إلى محله الأول فبناه على أساس سيدنا إبراهيم بالضبط .
٥- وزاد في ارتفاع الكعبة من الأرض للسماء على ما زادته قريش ، فصار ارتفاعها سبعاً وعشرين ذراعاً .
٦- وجعل لها بابين الباب الشرقي للدخول ، والباب الغربي للخروج .
٧- وجعل البابين لاصقين بالأرض غير مرتفعين .
٨- وجعل لكل من البابين مصراعين ، وجعل طول كل منهما أحد عشر ذراعاً .

٩- وجعل للكعبة أربعة أركان ، أي لم يبن جدارها من جهة الحجر مدوراً كبناء قريش ، بل جعل فيه ركنين .
١٠- وكانت الأركان الأربعة تستلم في زمانه حتى قتل رضي الله عنه .
١١- وجعل في داخلها في الركن الشامي درجة معرجة من الخشب وحلاها بالذهب ، يصعد منها إلى سطحها كما جعل ميزاباً في السطح يسكب في الحجر .
١٢- وجعل في داخلها ثلاث دعائم . وكانت في بناية قريش ستة .
١٣- وبناها بالجص وقيل بالرصاص المخلوط بالورس .
١٤- ولما فرغ من بنائها خلق جوفها وجدارها الخارجي من أعلاها إلى أسفلها بالعنبر والمسك وكساها بالديباج وقيل بالقباطي .
١٥- وبعد الفراغ من ذلك كله أكثروا من العتق ومن نحر البدنة والشياه وتصدقوا بكل ذلك شكراً لله على هذا التوفيق ثم خرج ابن الزبير ماشياً حافياً إلى التنعيم وخرج معه كثير من قريش فأحرموا بالعمرة .
١٦- وكان ذلك سنة (٦٤) أربع وستين هجرية وقيل خمس وستين . والله تعالى أعلم .

أنين الكعبة من ضرب المنجنيق

في عهد ابن الزبير رضي الله تعالى عنه

لما تحصن عبدالله بن الزبير ، رضي الله عنهما مع أصحابه في المسجد الحرام ، ونصب الحصين بن نمير المنجنيق على جبل أبي قبيس وجبل الأحمر وهو قعيقعان الذي نسميه الآن « بجبل هندي » ، صار الرمي على ابن الزبير وأصحابه ، فكانت الحجارة تصيب الكعبة ، وعند وقوع أول حجر عليها من المنجنيق سمع من كان حولها منها أنيناً وتأوهاً كما يصدر من المريض .

فنحب أن نتكلم هنا على هذا المعنى نسأل الله التوفيق فيه ، حيث لم نر من تكلم من المؤرخين فنقول :

جاء في تاريخ الإمام الأزرقي ما نصه : حدثني محمد بن إسماعيل بن أبي عصيدة قال : حدثني أبو النضر هاشم بن القاسم الليثي عن مولى لابن المرتفع قال :

كنا مع ابن الزبير في الحجر ، فأول حجر من المنجنيق وقع في الكعبة سمعنا لها أنيناً كأنين المريض آه آه . انتهى .

وجاء في تاريخ الخميس بصحيفة ١٦٦ من الجزء الأول ما نصه : وفي المواهب اللدنية قال عليه الصلاة والسلام للعباس بن عبدالمطلب : يا عم لا ترم منزلك أنت وبنوك غداً حتى آتيك فإن لي فيكم حاجة فلما أتاهم اشتمل عليهم بملاءته ثم قال : يا رب هذا عمي وصنو أبي وهؤلاء أهل بيتي فاسترهم من النار كستري إياهم بملاءتي هذه ، قال : فأمنت أسكفة الباب وحوائط البيت فقالت : آمين آمين آمين . رواه ابن غيلان وأبو القاسم حمزة والسهمي ورواه ابن السري وفيه فما بقي في البيت مدرة ولا باب إلا أمن . انتهى من تاريخ الخميس .

وجاء في تاريخ الأزرقي أيضاً عند بناء الكعبة : فهدمت قريش معه ، أي مع الوليد بن المغيرة حتى بلغوا الأساس الأول الذي رفع عليه إبراهيم وإسماعيل القواعد من البيت فأبصروا حجارة كأنها الإبل الخلف لا تطيق الحجر منها ثلاثون رجلاً يحرك الحجر منها فترتج جوانبها قد تشبك بعضها ببعض ، فأدخل الوليد بن المغيرة عتلته بن الحجرين فانفلقت منه فلقة عظيمة فأخذها أبو وهب ابن عمرو بن عائذ بن عمران بن مخزوم من يده حتى عادت في مكانها وطارت من تحتها برقة كادت أن تخطف أبصارهم ورجفت مكة بأسرها ، فلما رأوا ذلك أمسكوا عن أن ينظروا ما تحت ذلك . انتهى منه .

والخِلف بفتح فكسر ، المخاض وهي الحوامل من النوق كما في المصباح وفي مكان آخر قال الأزرقي : إن الذي أدخل العتلة هو عبدالله بن مطيع العدوي . اهـ . فقد يجوز أن كلاً منهما أدخل عتلته فيه في الأساس . وقال الأزرقي عند بناء ابن الزبير رضي الله عنهما الكعبة : عن عبيد الله بن أبي يزيد قال : رأيت ابن الزبير هدم الكعبة وأراهم أساساً داخلاً في الحجر آخذ بعضه بعضاً كلما حرك منه شيء تحرك كله فبنى عليه الكعبة . انتهى .

وجاء في تاريخ الغازي : وفي تحصيل المرام ، نقلاً عن الحلبي قال : وفي رواية كشف له عن أساس إبراهيم عليه الصلاة والسلام فوجده داخلاً في الحجر ستة أذرع وشبر وأحجار ذلك الأساس كأنها أعناق الإبل حجارة حمراً آخذاً بعضها في بعض مشتبكة كتشبك الأصابع وأصاب فيه قبر أم إسماعيل فدعى عبدالله بن الزبير خمسين رجلاً من وجوه الناس وأشرافهم وأشهدهم على ذلك الأساس

وأدخل عبدا لله بن مطيع العدوي عتلة كانت بيده في ركن من أركان البيت فتزعزعت الأركان كلها فارتج جانب البيت ورجفت مكة بأسرها رجفة شديدة وطار منه بوقة فلم يبق دار من دور مكة إلا دخلت فيه ففزعوا . انتهى من تاريخ الغازي .

نقول : معنى قوله : « آخذ بعضه بعضاً » وقوله فيما تقدم : « قد تشبك بعضها ببعض » إن هذه الحجارة العظيمة من أساس البيت ، قد تشبك بعضها ببعض بقدرة ا لله تعالى لا بالصناعة البشرية من النحت والتقوير ، بمعنى أن الملائكة حينما كانت تقذف بالصخور في أساس البيت جعل ا لله عز وجل هذه الصخور لينة كالعجين فاشتبك بعضها ببعض بحيث لا ينفصل شيء منها ، كما ألان ا لله تعالى الحديد لنبيه داود عليه الصلاة والسلام . وقوله : كلما حرك منه شيء تحرك وتزعزعت الأركان كلها ، هذه ميزة خاصة لأساس بيت ا لله الحرام ، ويفهم من هذا أمران :

الأول : سهولة تحرك جميع الأركان وهي ثقيلة من الصخور العظام.

الثاني: اتصال أجزائها ببعض كالقطعة الواحدة تماماً وهذان الأمران لا يجتمعان قط في بنيان البشر ، فلا شك أن هذه خصوصية للكعبة الغراء زادها ا لله شرفاً وتعظيماً .

نقول : إن أنين الكعبة من الحجارة التي كانت تصيبها عند الرمي بالمنجنيق في حرب الحجاج مع ابن الزبير لا يستغرب لأن ذلك من الآيات التي يخوف ا لله بها عباده ليرتدعوا . قال ﷺ : إن للكعبة لساناً وشفتين وقد اشتكت فقالت : يا رب قل عوادي وزواري ، فأوحى ا لله أني خالق بشراً خشعاً سجداً يحنون إليك كما تحن الحمامة إلى بيضها . رواه الطبراني عن جابر رضي ا لله عنه .

وهذا الجذع الذي كان يخطب عليه النبي ﷺ بمسجده بالمدينة المنورة ، قد حن وأن أنين الصبي وذلك حينما تحول النبي عليه الصلاة والسلام عنه إلى المنبر الذي صنعوه له .

قال السمهودي رحمه ا لله تعالى في كتابه « وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى » في أول الجزء الثاني ما نصه : روينا في صحيح البخاري عن ابن عمر قال : كان النبي ﷺ يخطب إلى جذع ، فلما اتخذ المنبر تحول إليه ، فحن الجذع فأتاه فمسح يده عليه . . .

وفيه عن جابر أن النبي ﷺ، كان يقوم يوم الجمعة إلى شجرة أو نخلة، فقالت امرأة من الأنصار أو رجل: يا رسول الله ألا نجعل لك منبراً، قال: إن شئتم. فجعلوا له منبراً، فلما كان يوم الجمعة رفع إلى المنبر فصاحت النخلة صياح الصبي، ثم نزل رسول الله ﷺ فضمه إليه وهو يئن أنين الصبي الذي يسكن. قال: كانت تبكي على ما كانت تسمع من الذكر عندها. انتهى من كتاب وفاء الوفا.

فانظر رحمك الله بعين البصيرة والاستبصار، تجد أن أنين الكعبة المعظمة هو للعظة والاعتبار، وأنين الجذع هو للحنين إلى النبي الكريم المختار، وكل ذلك آيات من آيات الله تعالى ليزداد الذين آمنوا إيماناً.

وأمثال ما تقدم كثير، كالحجر الذي كان يسلم على النبي ﷺ قبل أن يبعث كما ورد ذلك في صحيح مسلم، وكبقرة بني إسرائيل التي تكلمت فقالت: « إني لم أخلق لهذا إنما خلقت للحرث » والحديث أوله « بينما رجل راكب على بقرة .. الخ » كما ورد ذلك في البخاري ومسلم، وفي هذا الحديث أيضاً كلام الذئب للراعي، وقد ذكرنا نص هذا الحديث في الكلام على نطق فيل أبرهة لعبد المطلب.

وقد ذكر صاحب كتاب « النطق المفهوم من أهل الصمت المعلوم » أشياء كثيرة مما يشبه ما تقدم، وهو كتاب عجيب قيم، يبحث عن نطق بني آدم، ونطق الحيوان، ونطق الحشرات، ونطق الحشرات، ونطق النباتات والجمادات من كل جنس ونوع، والحق يقال أنه كتاب فريد في بابه، لا نظن أن أحداً ألف كتاباً على نسجه ومنواله، وهو كتاب مطبوع بمطبعة الحلبي بمصر في سنة (١٣٠٨) هجرية.

ونقول أيضاً: إن أنين الكعبة وسماع بعضهم أنينها كالمريض آه، آه، وقولها: آمين آمين آمين ليس في ذلك من غرابة، فإنه للعظة والذكرى والاعتبار، والله تعالى قادر على كل شيء.

وإذا ثبت للرحم النطق والكلام وهو مصدر وليس بجسم، فلا يمتنع التأوه والكلام من الكعبة المشرفة ففي الصحيحين « الرحم معلقة بالعرش، تقول: من وصلني وصله الله ومن قطعني قطعه الله ».

ومثل ذلك شهادة أطراف الإنسان على صاحبها كما في صريح الآية الكريمة في سورة ياسين: ﴿اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما

كانوا يكسبون﴾ وكما في صريح الآية التي في سورة فصلت ﴿ويوم يحشر أعداء الله إلى النار فهم يوزعون ۞ حتى إذا ما جاؤوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعلمون ۞ وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء وهو خلقكم أول مرة وإليه ترجعون﴾.

فا لله عز شأنه إذا كان قادراً على إنطاق أطراف الإنسان عليه، قادر على إنطاق الكعبة المشرفة، على أن سماع نطقها لا يحصل لكل الناس ولا لكل من جلس حولها، وإنما للبعض دون البعض بحسب قوة إيمانهم وصلاحهم.

فلقد كان بعض الأحجار تسلم على رسول الله ﷺ، وإن عصا موسى عليه السلام التقمت ما صنعه سحرة فرعون بعد أن صارت حية تسعى ثم رجعت كما كانت.

ففي صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال: إني لأعرف حجراً بمكة كان يسلم علي قبل أن ينزل علي الوحي. ورواه الترمذي والإمام أحمد عن جابر بن سمرة، وفي بعض الروايات «كان يسلم علي قبل أن أبعث» ونعتقد أن هذا التسليم كان حقيقة أنطقه الله تعالى كما أنطق الجذع وذلك معجزة لرسول الله ﷺ، ولا نبحث عن كيفية نطق الحجر وهو جماد فإن الله أعلم بها.

وما أحلى البيتين الآتيين قالهما بعض الفضلاء على لسان الحجر الناطق وهما:

أنا الحجر المسلم كل حين   على خير الورى فلي البشارة
ونلت فضيلة من ذي المعالي   خصصت بها «وإن من الحجارة»

ومما يلحق بأنين الكعبة المشرفة كلامها، فقد جاء في كتاب "القرى لقاصد أم القرى" للإمام الطبري بصحيفة (٢٣٨) ما نصه: عن وهيب بن الورد قال: كنت في الحجر تحت الميزاب بعد العشاء الآخرة فسمعت من تحت الأستار «إلى الله أشكو وإليك يا جبريل ما ألقى من الناس من التفكه حولي بالكلام» أخرجه الأزرقي وأخرجه الإمام أبو بكر في مسألة الطائفين بزيادة. ولفظه: يا جبريل أشكو إلى الله ثم إليك ما يفعل هؤلاء الطائفون حولي من تفكههم في الحديث ولفظهم وسهوهم. قال وهيب: فأولت أن البيت شكا إلى جبريل. انتهى منه.

أما خبر حنين الجذع الذي كان يخطب عليه ﷺ فمشهور: وذلك أن النبي عليه الصلاة والسلام كان يخطب على هذا الجذع، فلما اتخذوا له المنبر بثلاث

درجات من أثل الغابة وخطب النبي ﷺ يوم الجمعة على هذا المنبر سمع الناس لذلك الجذع صوتاً كصوت العشار وهي الناقة التي أتى عليها من وقت الحمل عشرة أشهر .

جاء في تاريخ الخميس : وفي خلاصة الوفاء اضطربت تلك السارية كحنين الناقة الخلوج أي : التي انتزع ولدها ، قال عياض : حديث حنين الجذع مشهور والخبر به متواتر أخرجه أهل الصحيح ورواه من الصحابة بضع عشر ، وفي رواية أنس حتى ارتج المسجد لخواره ، وفي رواية : أنّ كأنين الصبي ، وفي رواية سهل : وكثر بكاء الناس لما رأوا به ، وفي رواية المطلب : حتى تصدع وانشق حتى جاءه النبي ﷺ فوضع يده عليه فسكت .

وفي حديث بريدة قال النبي ﷺ : إن شئت أردك إلى الحائط الذي كنت فيه تنبت لك عروقك ويكمل خلقك ويجدد لك خوصك وثمرك ، وإن شئت أغرسك في الجنة فيأكل أولياء الله من ثمرك . ثم أصغى له النبي ﷺ يسمع ما يقول فقال : بل تغرسني في الجنة فيأكل مني أولياء الله فأكون في مكان لا أبلى فيه – يعني في الجنة– فسمعه من يليه فقال النبي ﷺ : قد فعلت ثم قال : قد اختار دار البقاء على الفناء . أورده في الشفاء . انتهى مختصراً من تاريخ الخميس ، وفي هذا القدر كفاية .

فأنين الكعبة وسلام الحجر وحنين الجذع ، لو لم يكن على الحقيقة لما سمع الناس منهم ذلك بآذانهم ، وأما الكيفية فالله تعالى أعلم بها وهو على كل شيء قدير .

وأما ما تقدم في بناء قريش وبناء ابن الزبير الكعبة ، من أنهم لما وصلوا في الحفر إلى الأساس وأدخل الوليد بن المغيرة عتلته بين حجرين انقلعت منه فلقة فأخذها رجل فنزت من يده حتى عادت في مكانها وطارت منها برقة كادت تخطف الأبصار فتزعزعت أركان البيت كلها وارتجت جوانب البيت ورجفت مكة بأسرها رجفة شديدة وطار منها برقة فلم يبق دار من دور مكة إلا دخلت فيه ففزع أهلها . فلا تظنن أن زعزعت الأركان والرجفة لمكة كانت من تصادف حصول زلزلة أرضية في وقت البناء كالزلازل التي تكون في بقاع الأرض ، لأن مكة شرفها الله تعالى وصانها من كل سوء هي محفوظة من الزلازل فلم يحدثنا

التاريخ قط عن حصول زلزلة فيها ، وكيف تكون في مكة زلزلة وهي محاطة كلها بالجبال الراسيات الضاربات عروقها في تخوم الأرض .

فالزعزعة والرجفة التي حصلت عند وصولهم إلى أساس إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، إنما كانت بإرادة الله تعالى إشارة إلى أنهم واقفون على نفس الأساس الأصلي للكعبة فليبنوا عليه ولا يتعرضوا له مطلقاً ، لذلك خافوا وفزعوا و لم يمسوه بشيء بل بنوا فوقه البيت الحرام .

وأما نزو الفلقة التي انفصلت من أساس الكعبة المشرفة من يد الرجل الذي أخذها ورجعوها إلى مكانها وموضعها الأول ، فلا عجب في ذلك ، لأن هذه الفلقة قطعة من الأساس الأول للبيت الحرام فلا بد أن ترجع إلى مكانها منه فلا غرابة إذا وثبت القطعة بنفسها من يد الرجل فرجعت إلى موضعها حتى يكون الأساس الأول محفوظاً لا يمسه أحد ، ومن هنا نعلم أنه ليس على وجه الأرض شيء من أساس الكعبة وأنه محفوظ بقدرة الله تعالى ، لأنه أساس عملته الملائكة بقذف الصخور إلى تخوم الأرض في بناء إبراهيم عليه الصلاة والسلام فلا يمكن أن ينفصل منه أي جزء منها كان صغيراً ، أما بناء الكعبة فهو من أحجار هذه الجبال الظاهرة فإن هدمت وتلفت هذه الأحجار يستبدل بغيرها عند تجديد بنائها ، ويدفن التالف منها في أرض المسجد الحرام حرمة لها لأنها كانت من الكعبة .

وبمناسبة كلامنا المتقدم أن مكة شرفها الله تعالى محفوظة من الزلازل ، رأينا أن نكتب لمرصد حلوان بمصر عن مسألة الزلازل في الحجاز ، لأن هذا المرصد هو من المراصد العالمية المهمة ، فكتبنا خطاباً لمدير المرصد في الثامن عشر من شهر شعبان سنة ألف وثلاثمائة وسبع وسبعين هجرية ، الموافق للسابع من شهر فبراير سنة ألف وتسعمائة وثمان وخمسين ميلادية وهذا نص الخطاب :

بسم الله الرحمن الرحيم

حضرة السيد الكريم مدير مرصد حلوان بمصر ، حفظه الله تعالى

بعد التحية : بما أن مرصد حلوان هو أهم مراصد العالم ، لذلك كتبنا لسيادتكم هذا نرجو التكرم بإفادتنا عما يأتي :

١- هل إذا حصل في الحجاز زلزال يعرف ذلك بمرصد حلوان بدقة أم لا ؟

٢- وهل سلسلة الجبال الموجودة بالحرمين الشريفين يمنع حدوث الزلازل بهما أم لا ؟

٣- إن لم تمنع سلسلة الجبال حصول الزلازل بالحرمين الشريفين . فهل من الممكن أن نعرف أقدم زلزلة وأقربها حصلت بهما ، وكم عدد الزلازل التي حدثت فيهما منذ قديم الزمان إلى اليوم . نرجو إفادتنا عن الأسئلة الثلاثة خدمة للعلم . ولسيادتكم الشكر . وتفضلوا بقبول فائق الاحترام .

المخلص

محمد طاهر الكردي الخطاط

فورد إلينا جواب مدير مرصد حلوان بمصر في الرابع والعشرين من شهر فبراير سنة ألف وتسعمائة وثمان وخمسين ميلادية ، تحت رقم (٣٢٥) وهذا نص جوابه :

بسم الله الرحمن الرحيم

حضرة السيد الكريم محمد طاهر الكردي ، حفظه الله تعالى

تحية مباركة وبعد : رداً على خطابكم بتاريخ ١٨-٧- ١٣٧٧هـ أتشرف بأن أنهي إلى سيادتكم بالردود الآتية :

١- إذا حدث في الحجاز أو أية جهة أخرى على سطح الأرض زلزال وكان شديداً نوعاً لسجلته آلات الزلازل بمرصد حلوان ولأمكن تحديد هذا الزلزال بالدقة .

٢- ليس لسلاسل الجبال في أي مكان القوة لمنع انتقال الهزات التي تحدثها الزلازل .

٣- أن الأراضي المقدسة بشبه الجزيرة العربية قد حباها الله سبحانه وتعالى بأرض هادئة مستقرة بعيدة عن مناطق الزلازل التي تحدث من آن لآخر على طول الساحل اليمني .

٤- إن أهم الزلازل التي حدثت بالمنطقة المشار إليها هي اثنان :

الأول: حدث في ١١ يناير سنة ١٩٤١ عند النقطة ١٧ درجة شمالاً و٤٣ درجة شرقاً .

والثاني: في ٤ فبراير سنة ١٩٤١ عند النقطة ١٦ درجة شمالاً و٤٣ درجة شرقاً.

وكلاهما يبعد نحو ٥٠٠ كيلومتراً عن مكة المكرمة. وتفضلوا بقبول فائق الاحترام.

مدير معهد الأرصاد بحلوان بمصر

نقول: ومثل زعزعة أركان الكعبة وارتجاجها في بناء قريش وبناء ابن الزبير، رضي الله تعالى عنهما، تحركها مراراً في آخر القرن السادس الهجري، وذلك كما رواه الغازي في تاريخه المخطوط بخط يده، رحمه الله تعالى، في الجزء الأول بصحيفة (٥٦٤) فإنه قال: وفي سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة بعد خروج الحاج من مكة هبت ريح سوداء عمت الدنيا «أي جميع مكة» ووقع على الناس رمل أحمر، ووقع من الركن اليماني قطعة وتحرك البيت الحرام مراراً، كذا في إتحاف الورى بأخبار أم القرى. انتهى ما ذكره الغازي.

نقول: إن تحرك الكعبة مراراً في هذه الحادثة قد تكون إشارة وآية يخوف الله بها عباده ليتوبوا إليه ويرجعوا عما كانوا عليه من الظلم والفساد، فإن الله تعالى لطيف بعباده لا يعجل بالعقوبة علينا.

جاء في تاريخ الغازي أن الفاكهي قال: حدثني أبو علي الحسن بن مكرم، حدثنا عبدالله بن بكر، حدثني أبو بكر بن حبيب، قال: جاورت بمكة فعابت اسطوانة من أساطين البيت فأخرجت وجيء بأخرى ليدخلوها مكانها فطالت عن الموضع وأدركهم الليل والكعبة لا تفتح ليلاً فتركوها مائلة ليعودوا غداً فيصلحوها، فجاؤوا من غد فأصابوها أقوم من قدح. انتهى.

قال: وهذا غريب وفيه كرامة للبيت، اهـ. انتهى من تاريخ الغازي، والقدح بكسر القاف، السهم.

نقول: إن وقوع مثل هذا الأمر ليس ببعيد عن بيت الله الطاهر المطهر المنور لأنه عامر بالملائكة على الدوام، وليس بعجيب على أمر الله الذي إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون.

والفاكهي المذكور هو محمد بن إسحاق الفاكهي من أهل القرن الثالث الهجري وله مؤلف خاص في تاريخ مكة توجد منه نسخة في إحدى خزائن أوروبا كما هو مذكور في حاشية أخبار مكة للأزرقي .

وجاء في تاريخ الغازي نقلاً عن درر الفرائد ما نصه : وفي سنة (٤١٠) عشر وأربعمائة قتل بمكة هادي المستجلش وكان ظهر في آخر أيام الحاكم العبيدي صاحب مصر وصار يدعو إلى عبادة الحاكم . فحكي عنه أنه سب الرسول ﷺ ، وبصق على المصحف الشريف وسار في البوادي يدعو إلى أن قتله الله تعالى وذلك أنه لما وصلها ونزل على أبي الفتوح وأعطاه الذمام وصار يطوف بالكعبة فكلما رآه المجاورون مضوا إلى أبي الفتوح وذكروا له شأنه وأنه لا يستتاب فقال : هذا قد نزل علي وأعطيته الذمام فقالوا : لا يصح أن يعطى الذمام فدافعهم أبو الفتوح فاجتمع الناس عند باب الكعبة وضجوا إلى الله تعالى وبكوا فقضى الله تعالى بإرسال ريح سوداء حتى أظلمت الدنيا وصار للكعبة نور كنور النبراس ولم يزل كذلك يرى ليلاً ونهاراً على حالة واحدة مدة سبعة عشر يوماً فلما رأى أبو الفتوح ذلك أمر بالغريم وغلام له مغربي فضربت أعناقهما وصلبا ولم يزل المغاربة يرجمونهما بالحجارة حتى سقطا إلى الأرض فجمعوا لهما حطباً وأحرقوهما . كذا في درر الفرائد .

قال الغازي : وفي تاريخ ابن فهد بعد قوله وأعطيته الذمام فقالوا : إن هذا سب وبصق فسأله عن ذلك فأقر به وقال: قد تبت فقال المجاورون : توبة هذا لا تصح وقد أمر النبي ﷺ بقتل ابن خطل وهو متعلق بأستار الكعبة وهذا لا يصح أن يعطى الذمام ولا ينبغي إلا قتله . انتهى .

قال في المنجد : ترس الشمس قرصها ، يقال : غاب ترس الشمس . اهـ .

هذا ولقد يشبه ما تقدم الحجر الذي فر وهرب بثوب نبي الله تعالى وكليمه موسى ، عليه الصلاة والسلام ، فصار يجري وراءه حتى أمسكه وأخذ منه ثوبه وضربه ، وقصته مشهورة في كتب التفسير والحديث والتاريخ ، ولنذكر بعض ما ورد في ذلك من الأحاديث الصحيحة فنقول : قال رسول الله ﷺ : « كان بنو إسرائيل يغتسلون عراة ينظر بعضهم إلى بعض وكان موسى ، عليه الصلاة والسلام يغتسل وحده ، فقالوا : والله ما يمنع موسى أن يغتسل معنا إلا أنه آدر ، فذهب مرة يغتسل فوضع ثوبه على حجر ففر الحجر بثوبه فخرج موسى في أثره يقول :

ثوبي يا حجر ! ثوبي يا حجر ! حتى نظر بنو إسرائيلٍ إلى موسى ، فقالوا : وا الله ما بموسى من بأس ، وأخذ ثوبه فطفق بالحجر ضرباً » رواه البخاري ومسلم في صحيحهما .

قال شيخنا شارح زاد المسلم رحمه الله تعالى : وفي الصحيحين بعد ذكر هذا الحديث قال أبو هريرة : وا الله إنه بالحجر لندب ، بالحجر ستة أو سبعة ضرب موسى بالحجر . وفي رواية مسلم حذف ياء النداء من لفظ ثوبي يا حجر في المرتين .

والآدر الذي له أدرة بالضم ، وهي انتفاخ الخصية . اهـ .

وفي البخاري عن أبي هريرة ، رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : إن موسى كان رجلاً حيياً ستيراً لا يرى جلده شيء استحياء منه ، فآذاه من آذاه من بني إسرائيل ، فقالوا : ما يستتر هذا التستر إلاّ من عيب بجلده إما برصٍ أو أدرة وإما آفة ، وإن الله عز وجل أراد أن يبرأه مما قالوا لموسى ، فخلا يوماً وحده فوضع ثيابه على الحجر ثم اغتسل ، فلما فرغ أقبل على ثيابه ليأخذها وإن الحجر عدا بثوبه ، فأخذ موسى عصاه وطلب الحجر فجعل يقول ثوبي حجر ثوبي حجر حتى انتهى إلى ملأ من بني إسرائيل فرأوه عرياناً أحسن ما خلق الله وبرأه مما يقولون وقام الحجر فأخذ ثوبه فلبسه وطفق بالحجر ضرباً بعصاه ، فوا لله إن بالحجر لندباً من أثر ضربه ثلاثاً أو أربعاً أو خمساً ، قال فذلك قوله عز وجل : ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيهاً﴾ . انتهى .

فالحديث الشريف صريح اللفظ لا يحتاج إلى تفسير وشرح ، ونحن نعتقد أن فرار الحجر بثوب نبي الله موسى عليه الصلاة والسلام ، كان حقيقة لا مجازاً كما هو ظاهر للمتأمل ، ولا نسأل كيف فر الحجر ومشى وهو جماد وكيف أمسك ثوبه ولا نسأل كيف يؤثر العصا في الحجر حتى تترك به ندباً عديدة ، ولا نسأل أيضاً كيف يضرب موسى عليه السلام حجراً جماداً بعصاه فهل يؤدب الحجر وهل هو يتألم من الضرب . فنحن نؤمن بكل ما جاء وثبت عن رسول الله ﷺ من غير بحث ولا تحقيق ، فما فهمناه نحمد الله وما لم نفهمه نفوض أمره إلى الله تعالى .

ومثل ما تقدم عن الجمادات ، نقوله فيما يروى عن نطق الحيوانات ، كنملة وهدهد نبي الله سليمان عليه السلام ، الذي ورد في القرآن الكريم ذكرهما

صراحة في أول سورة النمل من آية ﴿حتى إذا أتوا على واد النمل قالت نملة يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم ...﴾ إلى آخر الآيات التي فيها قصة النملة والهدهد. وكالبقرة والذئب اللذين تكلما، فقد جاء في الصحيحين واللفظ لمسلم أن رسول ا لله ﷺ، قال: « بينما رجل يسوق بقرة له قد حمل عليها، التفتت إليه البقرة فقالت: إني لم أخلق لهذا ولكني إنما خلقت للحرث. فقال الناس: سبحان ا لله تعجباً وفزعاً بقرة تتكلم، فقال رسول ا لله ﷺ: فإني أؤمن به أنا وأبو بكر وعمر. فقال أبو هريرة: قال رسول ا لله ﷺ، بينا راع في غنمه عدا عليه الذئب فأخذ منها شاة فطلبه الراعي حتى استنقذها منه فالتفت إليه الذئب فقال له: من لها يوم السبع يوم ليس لها راع غيري، فقال الناس: سبحان ا لله ذئب يتكلم، فقال رسول ا لله ﷺ: فإني أؤمن بذلك أنا وأبو بكر وعمر وما هما ثمة » إلى غير ذلك مما يشبه ما تقدم، فافهم هذا المبحث فإنك لا تجده في غير هذا.

أما من تكلم في المهد كما جاء في القرآن الكريم والحديث الصحيح فيما رواه الشيخان « لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة ..الخ » فإنا لا نريد إطالة الكلام بذكرهم. وفيما تقدم كفاية لأولي الألباب، وا لله الهادي للصواب وإليه المرجع والمآب، اللهم إني آمنت بكل ما أنزلت على عبدك ونبيك « محمد » ﷺ، إيماناً صادقاً بيقين تام، فاجعلني من السعداء المقربين وألحقني بعبادك الصالحين، واختم لي بخير يا أرحم الراحمين. اللهم وإني أسألك الراحة عند الموت والعفو عند الحساب، والستر في الدنيا والآخرة لي ولأهلي وذريتي وأحبابي بفضلك ورحمتك يا رب العالمين، وصلى ا لله وسلم على النبي الأمي وعلى آله وصحبه أجمعين.

ترجمة عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما

جاء في الجزء الثاني من تاريخ الخميس ما خلاصته: يكنى عبدا لله بن الزبير ابن العوام أبا بكر، ويكنى أيضاً أبا خبيب، أمه أسماء ذات النطاقين بنت أبي بكر الصديق وهو أول مولود ولد للمهاجرين بالمدينة بعد الهجرة وكان قد صحب النبي ﷺ، وهو صبي وحفظ عنه أحاديث فمات النبي ﷺ، وله ثمان سنين بل تسع كذا وقع في دول الإسلام ومورد اللطافة والرياض النضرة وغيرها يعني ذكر خلافة عبدا لله بن الزبير بعد خلافة معاوية بن يزيد بن معاوية وهو الأنسب بالتاريخ. وأما في حياة الحيوان وبعض كتب التواريخ فذكرت خلافة ابن الزبير بعد خلافة

عبدالملك بن مروان فقال وهو السادس فخلع وقتل . وفي حياة الحيوان : بويع لابن الزبير بالخلافة بمكة لسبع بقين من رجب سنة أربع وستين في أيام يزيد بن معاوية .

وفي سيرة مغلطاي : بويع عبدا لله بن الزبير في رابع جمادى الآخرة بالحجاز وما والاه . انتهى . وبايعه أهل العراق ومصر وبعض أهل الشام وبايع خلق كثير من العرب الضحاك بن قيس الفهري وولي دمشق فقدم إليه مروان بن الحكم مع خدمه وحواشيه وانضم إليه عبيد ا لله بن زياد وقد هرب من نيابة العراق خوفاً من القتل لما فعل بالحسين ثم التقى الضحاك ومروان وكان المصاف بتل راهط بمرج دمشق فقتل خلق كثير وقتل الضحاك .

وفي الرياض النضرة : بويع ابن الزبير بالخلافة سنة أربع وستين وقيل سنة خمس وستين بعد موت معاوية بن يزيد واجتمع على طاعته أهل الحجاز واليمن والعراق وخراسان وحج بالناس ثماني حجج . وفي البحر العميق : أقام عبد ا لله بن الزبير الحج للناس سنة ثلاث وستين قبل أن يبايع له فلما بويع له حج ثماني حجج متوالية. انتهى.

ثم قال صاحب تاريخ الخميس : وفي شفاء الغرام : ولي مكة عبدا لله بن الزبير بعد أن لقي في ذلك عناء شديداً سببه أن أهل المدينة لما طردوا منها عامل يزيد عثمان بن محمد بن أبي سفيان وغيره من بني أمية الأولد عثمان بن عفان بعث إليهم يزيد مسلم بن عقبة المري ويسمى مسرفاً بإسرافه في القتل بالمدينة وبعث معه اثني عشر ألفاً فيهم الحصين بن نمير السكوني وقيل الكندي ليكون على العسكر أن عرض لمسلم موت فإنه كان عليلاً في بطنه الماء الأصفر فأمر يزيد مسرفاً إذا بلغ المدينة أن يدعو أهلها إلى طاعة يزيد ثلاثة أيام فإن أجابوه وإلا قاتلهم فإذا ظهر عليهم أباحها ثلاثاً ثم يكف عن الناس ويسير إلى مكة لقتال ابن الزبير .

وفي حياة الحيوان : في سنة ستين دعا ابن الزبير إلى نفسه بمكة وعاب يزيد بشرب الخمر واللعب والتهاون بالدين وأظهر ثلمه ومنقصته فبايع ابن الزبير أهل تهامة والحجاز فلما بلغ ذلك يزيد ندب له الحصين بن نمير السكوني وروح بن زنباع الجذامي وضم إلى كل واحد جيشاً واستعمل على الجميع مسلم بن عقبة المري وجعله أمير الأمراء ولما ودعهم قال : يا مسلم لا تردن أهل الشام عن شيء يريدونه بعدوهم واجعل طريقك على المدينة فإن حاربوك فحاربهم فإن ظفرت بهم فأبحها ثلاثاً . فسار مسلم حتى بلغ المدينة فنزل الحرة بظاهر المدينة بمكان يقال

له حرة واقم فخرج أهل المدينة وعسكروا بها وأميرهم عبدا لله بن حنظلة غسيل الملائكة بن أبي عامر الراهب فدعاهم مسلم ثلاثاً فلم يجيبوه فقاتلهم فغلب أهل المدينة وانهزموا وقتل أمير المدينة عبدا لله بن حنظلة وسبعمائة من المهاجرين والأنصار وقتل منهم معقل الأشجعي وعبدا لله بن يزيد المازني مع عبدا لله بن حنظلة الغسيل وهؤلاء من الصحابة ودخل مسلم المدينة وأباحها ثلاثة أيام وذلك في آخر سنة ثلاث وستين.

وفي شفاء الغرام: قتل من أولاد المهاجرين ثلاثمائة نفر وجماعة من الصحابة وكانت الوقعة بمكان يقال له حرة وأقم كما سبق لثلاث بقين من ذي الحجة سنة ثلاث وستين من الهجرة ثم سار مسلم إلى مكة لقتال ابن الزبير ولما كان بالمشلل مات ودفن بثنية المشلل ثم نبش وصلب هناك وكان يرمى كما يرمي قبر أبي رغال دليل أبرهة المدفون بالمغمس، والمشلل على ثلاثة أميال من قديد بينهما خيمتي أم معبد وقيل مات بثنية هرشى بفتح أوله وسكون ثانيه مقصورة على وزن فعلى هضبة ململمة في بلاد تهامة لا تنبت شيئاً على ملتقى طريقي الشام والمدينة وهي من الجحفة يرى منها البحر والطريق من جنبتيها كذا في معجم ما استعجم. قال الشاعر:

خذ أبطن هرشى أو قفاها فإنه كلا جانبي هرشى لهن طريق

ومات مسلم بن عقبة بعد أن قدم على عسكره الحصين بن نمير فسار الحصين بالعسكر حتى بلغ مكة لأربع بقين من المحرم سنة أربع وستين وقد اجتمع على ابن الزبير أهل مكة والحجاز وغيرهم وانضم إليه من انهزم من أهل المدينة وكان قد بلغه خبر أهل المدينة وما وقع لهم مع مسلم هلال المحرم سنة أربع وستين مع المسور بن مخرمة فلحقه منه أمر عظيم واعتد هو وأصحابه واستعدوا للقتال وقاتلوا الحصين أياماً وتحصن ابن الزبير وأصحابه في المسجد حول الكعبة وضرب أصحاب ابن الزبير في المسجد خياماً ورفاقاً يكتنون بها من حجارة المنجنيق ويستظلون بها من الشمس وكان الحصين بن نمير على أبي قبيس وعلى الأحمر وكان يرميهم بالحجارة وتصيب الحجارة الكعبة فوهنت.

وفي الوفاء: حاصر مكة أربعة وستين يوماً جرى فيها قتال ودقت الكعبة بالمجانيق يوم السبت ثالث ربيع الأول وأخذ رجل قبساً في رأس فطارت به الريح فاحترق البيت. وفي أسد الغابة في هذا الحصر احترقت الكعبة واحترق فيها قرن

الكبش الذي فدي به إسماعيل بن إبراهيم الخليل وكان معلقاً في الكعبة ودام الحرب بينهم إلى أن فرج الله عن ابن الزبير وأصحابه بوصول نعي يزيد بن معاوية ومات يزيد في منتصف ربيع الأول سنة أربع وستين وكان وصول نعيه ليلة الثلاثاء لثلاث مضين من شهر ربيع الآخر سنة أربع وستين وكان بين وقعة الحرة وبين موته ثلاثة أشهر . وقال القرطبي : دون ثلاثة أشهر وبلغ نعيه ابن الزبير قبل أن يبلغ الحصين وبعث إلى الحصين من يعلمه بموت يزيد ويحسن له ترك القتال ويعظم عليه أمر الحرم وما أصاب الكعبة فمال إلى ذلك وأدبر إلى الشام لخمس ليال خلون من ربيع الآخر سنة أربع وستين بعد أن اجتمع بابن الزبير في الليلة التي تلي اليوم الذي بلغه فيه نعي يزيد وسأل ابن الزبير أن يبايع له هو ومن معه من أهل الشام على أن يذهب معهم ابن الزبير إلى الشام ويؤمن الناس ويهدر الدماء التي كانت بينه وبين أهل الحرم فأبى ابن الزبير ذلك .

وفي حياة الحيوان : تحصن منه ابن الزبير بالمسجد الحرام ونصب الحصين المنجنيق على أبي قبيس ورمى به الكعبة المعظمة فبينا هم كذلك إذ ورد الخبر على الحصين بموت يزيد بن معاوية فأرسل إلى ابن الزبير يسأله الموادعة فأجابه إلى ذلك وفتح الأبواب واختلط العسكران يطوفان بالبيت فبينا الحصين يطوف ليلة بعد العشاء إذ استقبله ابن الزبير فأخذ الحصين بيده وقال له سراً : هل لك في الخروج معي إلى الشام فأدعو الناس إلى بيعتك فإن أمرهم قد مرج ولا أحداً أحق بها اليوم منك ولست أعصى ههنا فاجتبذ ابن الزبير يده من يده وقال : وهو يجهر بقوله دون أن أقتل بكل واحد من أهل الحجاز عشرة من أهل الشام . فقال الحصين : كذب الذي قال إنك من دهاة العرب أكلمك سراً وتكلمني علانية وأدعوك إلى الخلافة وتدعوني إلى الحرب ثم انصرف بمن معه من أهل الشام .

وقيل : بايعه الحصين ثم بايعه أهل الحرمين وجرت فتن كبار واقتتل الناس على الملك بالشام والعراق والجزيرة بعد موت يزيد وبايع أهل دمشق بعد يزيد ولده معاوية بن يزيد وقيل بويع لابن الزبير بعد رحيل الحصين بالخلافة بالحرمين ثم بويع بها في العراق واليمن وغير ذلك حتى كاد الأمر أن يجتمع عليه فولى في البلاد التي بويع له فيها العمال وفي شوال سنة سبع وستين كان طاعون الجارف وهو طاعون كان في زمن ابن الزبير مات في ثلاثة أيام في كل يوم سبعون ألفاً ومات فيه لأنس بن مالك ثلاثة وثمانون ابناً ومات لعبدالرحمن بن أبي بكر أربعون ابناً .

ثم قال صاحب تاريخ الخميس: وفي المختصر و لم يزل ابن الزبير يقيم للناس الحج من سنة أربع وستين إلى سنة اثنتين وسبعين ، ولما ولي عبدالملك بن مروان في سنة خمس وستين منع أهل الشام من الحج من أجل ابن الزبير وكان يأخذ الناس بالبيعة له إذا حجوا ، فضج الناس لما منعوا الحج ، فبنى عبدالملك الصخرة وكان الناس يحضرونها يوم عرفة ويقفون عندها ، ويقال إن ذلك كان سبباً للتعريف في مسجد بيت المقدس ومساجد الأمصار . وذكر الحافظ في كتاب نظم القرآن أن أول من سن التعريف في مساجد الأمصار عبدا لله بن عباس . انتهى .

ثم قال أيضاً صاحب تاريخ الخميس : يروى أن عبدالملك بن مروان بعث الحجاج في سنة اثنتين وسبعين إلى ابن الزبير ، وكان الحجاج لما وصل من عند عبدالملك نزل الطائف فكان يبعث منه خيلاً إلى عرفة ويبعث ابن الزبير خيلا إلى عرفة فيقتتلون بها فتنهزم خيل ابن الزبير وتعود خيل الحجاج بالظفر . ثم استأذن الحجاج عبدالملك في منازلة ابن الزبير فأذن له فنزل الحجاج بئر ميمون ومعه طارق بن عمر ومولى عثمان وكان عبدالملك قد أمد الحجاج بطارق لما سأله النجدة أي الشجاعة والحرب على ابن الزبير فقدم طارق في ذي الحجة ومعه خمسة آلاف وكان مع الحجاج ألفان وقيل ثلاثة آلاف من أهل الشام فحاصروه وكان ابتداء حصار الحجاج ليلة هلال ذي القعدة سنة اثنتين وسبعين من الهجرة . وفي أسد الغابة: حصاره أول ليلة من ذي الحجة سنة اثنتين وسبعين من الهجرة وذكر القولين في الرياض النضرة وحج الحجاج بالناس تلك السنة ووقف بعرفة وعليه درع ومقفر و لم يطوفوا بالبيت ولا بين الصفا والمروة ونصب الحجاج منجنيقاً على جبل أبي قبيس كذا في أسد الغابة وحاصره ستة أشهر وسبع عشرة ليلة على ما ذكر ابن جرير ورمى به أحث الرمي وألح عليه بالقتال من كل جانب وحبس عنهم الميرة وحصرهم أشد حصار وكان يرمي بالمنجنيق من أبي قبيس فيصيب الكعبة حجارة المنجنيق لكون ابن الزبير مكتنا بالمسجد . وفي نهاية ابن الأثير أن ابن الزبير كان يصلي في المسجد الحرام وأحجار المنجنيق تمر على إذنه وما يلتفت كأنه كعب راتب أي منتصب . انتهى كل ذلك من تاريخ الخميس .

ومن المقام : هو عبدا لله بن الزبير بن العوام بن خويلد القرشي ، وأمه أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي ا لله عنه ، وأبوه الزبير بن العوام أحد المبشرين بالجنة .

ولد عبدا لله المذكور عام الهجرة ، وهو أول مولود ولـد في الإسـلام بالمدينـة ، وكانت اليهود تقول : قد أخذناهم فلا يولد لهم بالمدينة ولد . فكبر الصحابة حـين ولد ، وعن أمه أسماء أنها حملت بعبدا لله بن الزبير بمكة ، قالت : فخرجت وأنا متم فأتيت المدينة ، ونزلت بقباء فولدته بقبا ، ثم أتيـت بـه رسـول ا لله صلـى ا لله عليـه وعلى آله وسلم فوضعته في حجره ، ثم دعا بتمرة فمضغها ثـم تفـل في فيـه فكـان أول شيء دخل في جوفه ريق النبي ﷺ ، ثم حنكه بالتمرة ثم دعا له وبرك عليه ثم مسحه وسماه عبدا لله ثم أمره أبوه الزبير أن يبايع النبي ﷺ وهـو ابـن سـبع أوثمـان فتبسم رسـول ا لله ﷺ حـين رآه وبايعه ، ولقـد وصفـه ابـن العبـاس ، رضـي ا لله عنهما فقال : إنه عفيف الإسـلام ، قـارئ القـرآن ، أبـوه حـواري رسـول ا لله ﷺ وأمه بنت الصديق ، وجدته صفية عمـة رسـول ا لله ﷺ وعمـة أبيـه خديجـة بنـت خويلد . وعن عمرو بن دينار قال : ما رأيت مصلياً أحسن صلاة مـن ابـن الزبـير . وعن مجاهد : ما كان باب من العبادة إلا تكلفه ابن الزبير ، ولقد جاء سيل بـالبيت فرأيت ابن الزبير يطوف سباحة ، ولقد حفظ ابن الزبير عن النبي ﷺ وهـو صغـير وحدث عنه بجملة من الحديث وعن أبيـه وعـن أبي بكـر وعمـر وعثمـان وخالتـه عائشـة وسـفيان بـن زهـير وغـيرهم ، وهـو أحـد العبادلـة وأحـد الشـجعان مـن الصحابة ، ويكنى بأبي خبيب بولده .

وشهد ابن الزبير ، وقعة اليرموك مـع أبيـه الزبـير ، وشـهد فتـح إفريقيـة وكـان البشير بالفتح إلى عثمان وشهد الـدار وكـان يقـاتل عـن عثمـان ، ثـم شـهد وقعـة الجمل مع عائشة وكان على الرجال ثـم اعـتزل حـروب علـي ومعاويـة ، ثـم بـايع لمعاوية فلما أراد أن يبايع ليزيد امتنع وتحول إلى مكة وعاذ بالحرم ، فأرسل إليه يزيد سليمان أن يبايع له فأبى ولقب نفسه عائذ ا لله ، فلمـا كـانت وقعـة الحـرة وفتـك أهل الشام بأهل المدينة ثم تحولوا إلى مكة فقاتلوا ابن الزبير ، واحترقت الكعبـة أيـام ذلك الحصار ثم جاءهم الخبر بموت يزيد بـن معاويـة فتوادعـوا ورجـع أهـل الشـام وبايع الناس عبدا لله بن الزبير بالخلافة فلما مات مروان قـام عبدالملـك بـن مـروان وجهز الحجاج إلى ابن الزبير فقاتلـه إلى أن قتـل ابـن الزبـير في جمـادى الأولى سـنة ثلاث وسبعين من الهجرة ، انتهى باختصار من الإصابة في تمييز الصحابة .

وذكر الإمام ابن كثير في تاريخه ترجمة وافية مطولة لعبد ا لله بن الزبير في آخر الجزء الثامن ، فمما ورد فيه : عن ثابت البناني قال : كنت أمر بعبد ا لله بن الزبير وهو يصلي خلف المقام كأنه خشبة منصوبة .

وعن يحيى بن وثاب قال : كان ابن الزبير إذا سجد وقعت العصافير على ظهره تصعد وتصعد لا تراه إلا جذم حائط وقال غيره : كان ابن الزبير يقوم ليله حتى يصبح ويركع ليله حتى يصبح ويسجد ليله حتى يصبح ، وعن ابن المنكدر قال : لو رأيت ابن الزبير يصلي كأنه غصن شجرة يصفقها الريح يقع هاهنا وهاهنا . قال سفيان : كأنه لا يبالي به ولا يعده شيئاً . وحكى بعضهم لعمر بن عبدالعزيز أن حجراً من المنجنيق وقع على شرفة المسجد فطارت فلقة منه فمرت بين لحية ابن الزبير وحلقه ، فما زال عن مقامه ولا عرف ذلك من صورته ، فقال عمر بن عبدالعزيز : لا إله إلاّ ا لله جاء ما وصفت . وكان إذا دخل في الصلاة خرج من كل شيء إليها ، ولقد كان يركع فيكاد الرخم أن يقع على ظهره ويسجد فكأنه ثوب مطروح .

وروي أنه كان يوماً يصلي فسقطت حية من السقف فطوقت على بطن ابنه هاشم ، فصرخ النسوة وانزعج أهل المنزل واجتمعوا على قتل تلك الحية فقتلوها وسلم الولد، فعلوا هذا كله وابن الزبير في الصلاة لم يلتفت ولا درى بما جرى حتى سلم . وكان يواصل الصوم سبعاً يصوم يوم الجمعة ولا يفطر إلا ليلة الجمعة الأخرى ، ويصوم بالمدينة ولا يفطر إلا بمكة ، ويصوم بمكة فلا يفطر إلا بالمدينة ، وقال بعضهم : لم يكن يأكل في شهر رمضان سوى مرة واحدة في وسطه . وقال خالد بن أبي عمران : كان ابن الزبير لا يفطر من الشهر إلا ثلاثة أيام . وقال بعضهم : كان ابن الزبير لا ينازع في ثلاث : في العبادة والشجاعة والفصاحة . وقال ليث عن مجاهد : لم يكن أحد يطيق ما يطيقه ابن الزبير من العبادة وقد ثبت أن عثمان ، رضي ا لله عنه جعله في النفر الذين نسخوا المصاحف وكان صيتاً إذا خطب تجاوبه الجبلان : أبو قبيس ، وزروراء .

وكانت ولاية ابن الزبير في سنة أربع وستين وحج بالناس فيها كلها ، وبنى الكعبة في أيام ولايته وكساها الحرير ، وكانت كسوتها قبل ذلك الأنطاع والمسوح ، وكان يطيب الكعبة حتى كان يوجد ريحها من مسافة بعيدة .

وكان مقتله على الصحيح المشهور يوم الثلاثاء سابع عشر جمادى الأولى سنة ثلاث وسبعين ، وأمه لم تعش بعده إلا مائة يوم وكانت أمه قد أتت عليها مائة سنة لم تسقط لها سن ولم يفسد لها بصير ، رضي الله عنه وعن أبيه وأمه وعن أصحابه أجمعين .

انتهى باختصار من تاريخ ابن كثير .

وجاء في تاريخ الخميس ترجمته مطولة نلخص منه هذه النبذة أيضاً :

هو عبدالله بن الزبير بن العوام بن خويلد القرشي ، يكنى أبا خبيب ، وأمه أسماء ذات النطاقين بنت أبي بكر الصديق ، وأبوه الزبير أحد المبشرين بالجنة ، وفي الرياض النضرة: بويع ابن الزبير بالخلافة سنة أربع وستين وقيل سنة خمس وستين بعد موت يزيد بن معاوية وأجمع على طاعته أهل الحجاز واليمن والعراق وخراسان وحج بالناس ثماني حجج وفي البحر العميق أقام عبدالله بن الزبير الحج للناس ثلاث وستين قبل أن يبايع له فلما بويع له حج ثماني حجج متوالية .

انتهى من تاريخ الخميس .

وجاء في تاريخ الخميس عن شجاعة ابن الزبير رضي الله تعالى عنه :

قال هشام بن عروة : لما كان قبل قتل ابن الزبير بعشرة أيام دخل على أمه أسماء وهي شاكية فقال لها : كيف تجدينك يا أماه؟ قالت : ما أجدني إلا شاكية فقال لها : إن في الموت لراحة ، فقالت : لعلك تمنيته لي ما أحب أن أموت حتى يأتي عليك أحد طرفيك إما قتلت فإن حسبك وإما ظفرت بعدوك فقرت عيني ، قال عروة : فألتفت إلى عبدالله فأضحك ، ولما كان اليوم الذي قتل فيه دخل على أمه أسماء فقالت له : يا بني لا تقبلن منهم خطة تخاف على نفسك الذل مخافة القتل فوالله لضربة بسيف في عز خير من ضربة بسوط في ذل ، فأتاه رجل من قريش فقال : ألا نفتح لك الكعبة فتدخلها ، فقال عبدالله : من كل شيء تحفظ أخاك إلا من حتفه ، والله لو وجدوكم تحت أستار الكعبة لقتلوكم ، وهل حرمة المسجد إلا كحرمة البيت ، قال : ثم شد عليه أصحاب الحجاج ، فقال عبدالله : أين أهل مصر ، قالوا : هم هؤلاء من هذا الباب لأحد أبواب المسجد ، فقال لأصحابه : اكسروا أغماد سيوفكم ولا تميلوا عني ، قال : فأقبل الرعيل الأول فحمل عليهم وحملوا معه وكان يضرب بسيفين فلحق رجلاً فضربه فقطع يديه فانهزموا وجعل يضربهم حتى أخرجهم من باب المسجد ، ثم دخل عليه أهل حمص فشد عليهم

وجعل يضربهم حتى أخرجهم من باب المسجد ، ثم دخل عليه أهل الأردن من باب آخر فقال : من هؤلاء؟ فقيل : أهل الأردن فجعل يضربهم بسيفه حتى أخرجهم من المسجد ، ثم انصرف فأقبل عليه حجر من ناحية الصفا فوقع بين عينيه فنكس رأسه وفي الصفوة فأصابته أجرة في مفرقه ففلقت رأسه فوقف قائماً وهو يقول:

ولسنا على الأعقاب تدمى كلومنا ولكن على أقدامنا تقطر الدما

وفي الرياض النضرة: ثم اجتمعوا عليه فلم يزالوا يضربونه حتى قتلوه ومواليه جميعاً ، ولما قتل كبر عليه أهل الشام ، فقال عبدا لله بن عمر : المكبرون عليه يوم ولد ، خير من المكبرين عليه يوم قتل ، وفي الرياض النضرة روي أنه لما اشتد الحصار بابن الزبير قامت أمه أسماء يوماً فصلت ودعت وقالت : اللهم لا تخيب عبد ا لله بن الزبير وارحم ذلك السجود والتحنث والظمأ في تلك الهواجر . وكان قتله يوم الثلاثاء لسبع عشرة أو ست عشرة ليلة خلت من جمادى الأولى سنة ثلاث وسبعين من الهجرة وهو ابن اثنتين أو ثلاث وسبعين سنة كذا أخرجه صاحب الصفوة . انتهى من تاريخ الخميس .

قال أمير الشعراء أحمد شوقي بك رحمه ا لله تعالى في كتابه « دول العرب وعظماء الإسلام » في خلافة عبدا لله بن الزبير رضي ا لله عنهما ما نقتطف من قوله ما يأتي :

ابن الزبير وكفى تعريفا إن الشريف يلد الشريفا
أبوه هضبة العلا الشماء وأمه في الشرف السماء
مستقبل الأيام بالصيام ومتعب الظلام بالقيام
وأخوف الناس إذا الليل دجا وأشجع الناس إذا تدججا
وأطهر المعاهدين ذمة وأكبر المجاهدين همة

ثم قال أمير الشعراء بعد عدة أبيات ما يأتي :

فجاء أمه ، ومن كأمه لعلها تحمل بعض همه
والبيت تحت قسطل الحجاج وخيله أواخذ الفجاج
فقال ما ترين فالأمر لك للموت أمضي أم لعبدالملك
قالت بني ولد القوام وابن العتيق القائم الصوام

انظر فإن كنت لدين ثرت ... فلا تفارق ما إليه سرت
أو كانت الدنيا قصارى همتك ... فبئس أنت كم دم بذمتك
الحق بأحرار مضوا فأحسنوا ... فالموت من ذل الحياة أحسن
ولا تقل هنت بوهن من معي ... فليس ذا فعل الشريف الألمعي
ومت كريماً أو ذق هوانا ... وعبث الغلمان من مروانا
أنت إلى الحق دعوت صحبكا ... فاقض كما قضوا عليه نحبكا
ولا تقل إن مت مثلوا بي ... وطاف أهل الشام بالمصلوب
هيهات ما للسلخ بالشاة ألم ... ورب جذع فيه للحق علم
وعانقته فأحست درعا ... قالت أضقت بالمنون ذرعا
مثلك في ثيابه المشمره ... جاهد لا في الخلق المسمره
لا تمض فيها وأرق منها الجسد ... وامض بلا درع كما يمضي الأسد
فنزع النثرة عنه وانطلق ... في قلة يلقى العديد في الحلق
فمات تحت المرهفات حرا ... لم يأل خير الأمهات برا

وعبدا الله بن الزبير، رضي الله تعالى عنهما، وأمه أسماء بنت أبي بكر الصديق، رضي الله تعالى عنهما وعن جميع صحابة رسول الله ﷺ أجمعين، مدفونان في مقبرة المعلا بمكة المشرفة وقبرهما معروفان إلى اليوم بجهة شعبة النور وقد وقفنا عليهما أن قبريهما بجوار بعضهما لا يبعدان عن بعضهما إلا بنحو خمسة عشر مبتراً، وكل قبر منهما عليه جدار قصير من الجهات الأربعة وفتحة للباب رضي الله تعالى عنهم أجمعين.

اختلاف العلماء في بعض المسائل الدينية

بمناسبة اختلاف عظماء الصحابة رضي الله تعالى عنهم في هدم وتجديد بناء الكعبة المعظمة في عهد عبدالله بن الزبير رضي الله تعالى عنهما كما تقدم بيانه وتفصيله، فإنه لما أراد بناء الكعبة بعد احتراقها، دعا ابن الزبير وجوه الناس وأشرافهم وشاورهم في هدم الكعبة وتجديد بنائها، فأشار عليه قليل من الناس بهدمها وبنائها ثانياً، وأبى أكثر الناس هدمها حرمة لها، وكان أشد الناس إباء عليه عبدالله بن عباس، رضي الله تعالى عنهما، فإنه قال له: دعها على ما أقرها

عليه رسول الله ﷺ ، فإني أخشى أن يأتي بعدك من يهدمها فلا تزال تهدم وتبنى فيتهاون الناس في حرمتها ولكن أرقعها .

فقال ابن الزبير : والله ما يرضى أحدكم أن يرقع بيت أبيه وأمه ، فكيف أرقع بيت الله سبحانه وتعالى ، وأنا أنظر إليه ينقض من أعلاه إلى أسفله حتى أن الحمام ليقع عليه فتتناثر عليه حجارته .

فكان ممن أشار عليه بهدمها جابر بن عبدالله ، وعبيد بن عمير ، وعبدالله بن صفوان بن أمية ، فأقام ابن الزبير أياماً يشاور وينظر ثم أجمع على هدمها فهدمها وبناها.

لهذه المناسبة نذكر في هذا المبحث شيئاً يسيراً من المسائل التي اختلف العلماء فيها ، فمن أصاب بعد الاجتهاد فله أجران ، ومن أخطأ بعد الاجتهاد فله أجر واحد ، لأن أئمة المسلمين وعلماءهم منزهون عن الهوى والأغراض النفسانية ، في الحكم على المسائل الدينية والأمور الشرعية ، التي لم يرد فيها نص صريح في الكتاب والسنة .

فمن أشار بهدم الكعبة المشرفة من كبار الصحابة ، إنما يريد تقويتها وتجديد بنائها بعد أن رأى ما حل بها من الوهن وتناثر حجارتها ، ومن أشار بترقيعها وترميمها وعدم هدمها ، نظر إلى حرمتها وعدم العبث فيها بالهدم والبناء خوف التهاون بحرمتها في المستقبل ، ولا يخفى أن كلا الفريقين من كبار الصحابة وفضلائهم ومن أشراف قريش أولي الحل والعقد ، ولكل من الفريقين وجهة معقولة .

وإن ما قام به ابن الزبير رضي الله تعالى عنه ، من الهدم والبناء لهو عين الصواب .

ومن قبل اختلف كبار الصحابة ، رضوان الله تعالى عليهم أجمعين ، في جمع القرآن الكريم وكتابته ، وذلك بعد وفاة رسول الله ﷺ ، وفي عهد أبي بكر ، رضي الله تعالى عنه ، فقد روى البخاري في صحيحه عن عبيد بن السباق : أن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال : أرسل إلي أبو بكر مقتل أهل اليمامة فإذا عمر بن الخطاب عنده ، قال أبو بكر رضي الله عنه : إن عمر أتاني فقال : إن القتل قد استحر يوم اليمامة بقراء القرآن ، وإني أخشى أن يستحر القتل بالقراء بالمواطن فيذهب كثير من القرآن وإني أرى أن تأمر بجمع القرآن . قلت لعمر : كيف تفعل

شيئاً لم يفعله رسول الله ﷺ قال عمر: هذا والله خير، فلم يزل عمر يراجعني حتى شرح الله صدري لذلك ورأيت في ذلك الذي رأى عمر، قال أبو بكر: إنك رجل شاب عاقل لا نتهمك وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله ﷺ فتتبع القرآن فاجمعه، فوالله لو كلفوني نقل جبلٍ من الجبال ما كان أثقل علي مما أمرني من جمع القرآن، قلت: كيف تفعلون شيئاً لم يفعله رسول الله ﷺ، قال: هو والله خير، فلم يزل أبو بكر يراجعني حتى شرح الله صدري للذي شرح الله صدر أبي بكر وعمر، رضي الله عنهما، فتتبعت القرآن أجمعه من العسب واللخاف وصدور الرجال، حتى وجدت آخر سورة التوبة مع أبي خزيمة الأنصاري لم أجدها مع أحد غيره ﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم ...﴾ حتى خاتمة براءة، فكانت الصحف عند أبي بكر حتى توفاه الله، ثم عند عمر حياته، ثم عند حفصة بنت عمر رضي الله عنهما. انتهى.

فانظر رحمك الله كيف أن أبا بكر وزيد بن ثابت لم يجمعا القرآن ويكتباه كما أشار عليهما عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه، إلا بعد التروي والتفكير والجدال، وإنه والله لهو خير عمل قاموا به. ولقد فصلنا مسألة جمع القرآن الكريم في كتابنا «تاريخ القرآن وغرائب رسمه وحكمه» وهو مطبوع بمصر فارجع إليه إن شئت.

فاختلاف الأئمة ونشأة المذاهب كانت من قبيل هذا الباب، وانظر كيف أنهم اختلفوا قديماً في مسألة أخذ الأجرة على كتابة القرآن وتعليمه، وأخذ الأجرة على الأذان والإمامة، واختلفوا في حكم بيع دور مكة.

ثم انظر كيف اختلف العلماء في العصور القريبة، في حكم شرب قهوة البن، وفي شرب دخان التتن والتنباك، وفي استعمال الساعات الزمنية التي تبين الأوقات، وفي استعمال التليفونات، وغير ذلك. فبعضهم قال بالتحريم وبعضهم قال بالجواز.

ونحن لا نريد سرد جميع المسائل التي اختلفوا فيها، فإن ذلك مما يطول شرحه ويخرجنا عن المقصود، وإنما أتينا بهذا لتنبيه الأذهان والعلم به في الجملة.

اختلاف الناس في بعض الأمور الحيوية

ومما يلحق بالمبحث المتقدم ويستحسن الإتيان به وإن كان ما تقدم من المسائل الدينية وما سنذكره من الأمور الدنيوية المحضة، ما ذكرته إحدى مجلات الهلال التي تصدر بمصر، القاهرة في عصرنا، لم نعلم رقمها وتاريخ صدورها لفقدان غلافها وأوائل أوراقها منها، ونظن أن تاريخ صدورها كان في عام (١٩٣٠) من الميلاد أو بعده بعام، فقد كتب الأستاذ «أمير بقطر» في هذه المجلة مقالة بعنوان: «لكل جديد لذعة» هذا نصها:

لكل جديد لذة في بعض الأحايين، ولذعة في غيرها، وليست المبادئ والعادات والتقاليد وحدها هي التي يصعب نبذها والتمسك بسواها، فإن للأشياء المادية المحسوسة سلطاناً على صاحبها وسيادة قوية السواعد، شديدة المراس، كثيرة البطش.

يقول علماء النفس: أن الإقلاع عن عادة ألفها الإنسان والرجوع عن رأي معروف من الوعورة بمكان عظيم، لأنه يدعو إلى اعتناق مبدأ جديد واتباع عادة جديدة، واعتناق هذا المبدأ أو اتباع هذه العادة يتطلب تفكيراً وموازنة وترجيح مبدأ على مبدأ وعادة على عادة في هذا كله من العناء والنصب والتعب ما لا يخفى، والمرء بطبيعته ميال إلى الراحة والكسل، وقل من لا يهوى الخلود إلى السكينة ومن يرغب في عناء التفكير حباً في البحث عن الحقيقة والجري وراء الأصلح، ما لم يكن الدافع ضرورة قصوى، اقتصادية أو اجتماعية، اتقاء لشر، أو خشية الوقوع في خطر، أو دفاعاً عن النفس.

يقول الرياضيون: إن أقرب مسافة بين نقطتين الخط المستقيم، غير أن الذين يجلون في كل جديد لذعة، يزعمون أن النقطة أو المكان الذي هم فيه هو أقرب مسافة بين نقطتين، كما يزعم الفلاسفة والساسة أن الخط المتعرج المنحني أقرب هذه المسافات، لأن اللف والدوران في نظر الفلاسفة أقرب طريق إلى الحقيقة، وفي نظر الساسة أقرب طريق إلى نيل المراد، والجمود في نظر الأصوليين أقرب طريق إلى كل مكان في الوجود.

إن في تاريخ التمدن الإنساني فترات تقهقر فيها البشر خطوات إلى الوراء، ومراحل شلت فيها أعمالهم، وأصاب كبد مشروعاتهم سهام الفشل والخيبة.

ويعزو أحد علماء الكيمياء سبب هذا التقهقر وذاك الفشل إلى مرض معد يصيب العقول ويتفشى بين الناس بسرعة البرق ، ويدعى نيوفوبيا وهو يشبه الهيدروفوبيا ، غير أن المرضين وإن اتفقا في الأعراض يختلفان في الأسباب . ففي حالة المرض الثاني يقال إن العليل عند رؤية الماء يعتريه الخوف والحنق الشديد ، وفي الحالة الأولى تظهر عليه علائم الانقلاب والتأفف وأعراض الاستياء الشديد عند رؤية كل جديد ، وهذا الداء كثير الانتشار ومتى أزمن لا يعرف له بين العقاقير من دواء غير السم الزعاف .

ومن المشاهد أن الناس جميعهم يحملون جراثيم هذا الداء وكلنا عرضة لظهور أعراض خفيفة منه « وطفح » بسيط من جرائه . وتمتاز عصور عن عصور وبلاد عن بلاد بتفشيه بصفة عدوى سريعة الانتقال ، غير أن أسلم طريقة للوقاية منه هي استعمال « مصل » التربية العلمية التي تدعو للتفكير والبحث وقبول الآراء الحديثة .

الاختلاف في استعمال السكة الحديدية

كتب أحد أعضاء البرلمان الإنجليزي في مارس سنة (١٨٢٥) الكتاب الآتي تعليقاً على أول اقتراح في البرلمان لإنشاء أول خط حديدي في إنجلترا :

لقد اتضح لي في ختام الأمر أن صاحب الاقتراح ذاهب العقل لا مشاحة ، فقد كان زبد الغيظ يفور من فمه كما تفور القدور ، وهو يقترح إدخال تلك الآلة الجهنمية ذلك الوحش الضاري ، الذي يحمل ثمانين طناً من السلع ، ويزعج عباد الله بدخانه الكثيف بين منشستر وليفربول . والحمد لله فقد خنق ذلك الشيطان الملعون في مهده ، إذ جاءت أصوات الأغلبية الساحقة ضده وانسحب أصحاب الاقتراح غير مأسوف عليهم .

الاختلاف في استعمال البخار في الأسطول

ومن قبيل هذا الخطاب ما حدث في مجلس النواب الإنجليزي ، فإنه عندما اقترح نائب إدخال البخار في الأسطول ، قام نائب آخر منتفضاً وخاطب صاحب الاقتراح وهو يتدفق غضباً قائلاً :

إننا عندما ننخرط في سلك البحرية يا حضرة النائب المحترم، نعرض ذواتنا لخطر الحرب ونذهب متأهبين لمعانقة رقاب المنايا، تقطيعاً ونسفاً ورمياً برصاص البنادق وشظايا القنابل، ولكنا يا حضرة النائب المحترم نأبى أن نغلي غلياً ونحن على قيد الحياة.

الاختلاف في استعمال التدفئة وأنابيب الماء وتشييد المنازل العالية

ولما أن أدخلت نظم التدفئة وأنابيب الماء وشيدت المنازل العالية ذات الأدوار العديدة في «روما» استشاط سفيكا الحكيم الروماني غيظاً، ونقم عليها وأعلن سخطه على رؤوس الملأ قائلاً: إنها خطر داهم على الأخلاق وتهديم للفضيلة وتحسر على الماضي، وأبان كيف أن الأقدمين كانوا يعيشون أحراراً نبلاء تحت سقوف من القش، في حين أن العصريين عبيد أرقاء تستر ذلتهم قصور عمادها المرمر والرخام، وجدرانها المنقوشة بالذهب الوهاج.

ولو أتيح لهذا الحكيم أن يبعث من قبره اليوم ويشاهد إحدى ناطحات السحاب التي يتجاوز عدد طبقاتها المائة في نيويورك لغته اللاتينية.

الاختلاف في استعمال الشوكة والسكين في الأكل

وحدث في الجيل السابع عشر للميلاد أن رجلاً دخل محلاً حاملاً معه آلة شيطانية وهي شوكة الأكل المعروفة، ولما أن عرف عنه أنه يستعملها للقبض على قطع اللحم بدلاً من أصابعه كان موضع الهزء والسخرية. وعد عمله هذا مجوناً وإهانة للعناية الربانية وقالوا: «كيف يجرؤ امرؤ أن يخجل من لمس طعام بإصبعه».

ومن أسخف وأغرب ما سمعناه منذ سنوات، أن مدرسة أجنبية للبنات في مصر كانت تشجع الفتيات (المصريات) على الأكل بأصابعهن بدلاً من السكينة والشوكة، بدعوى المحافظة على التقاليد الشرقية، ألا يعلم أصحاب ذلك المعهد أن الشوكة لم تهبط على أوربا من السماء، وأن مصر كغيرها من البلدان، لها حق التمتع بمزايا الميراث الاجتماعي في حدود المعقول أياً كان منشؤه ونوعه، وأن الاستعانة بالآلات على اختلاف أنواعها لمن الفروق الهامة بين الهمجية والمدنية.

الاختلاف في لبس البنطلونات

ولما اعتنق البلغاريون المسيحية ، عقد رجال الدين مجلساً للبحث ، في هل تتفق السراويل التي يلبسها أهالي بلغاريا مع الدين الجديد الذي تدينوا به ، وذلك لأن السراويل (البنطلونات) كانت غير معروفة عند المسيحيين في بادئ الأمر ، وقد انقلبت الآية اليوم فإن بعض المسيحيين الذين ينشرون دينهم في آسيا وأفريقيا ، يشجعون معتنقي المسيحية على ارتداء السراويل تشبهاً بهم سواء أكان ذلك يلائم جو البلاد أم لا يلائمه .

وفي عصر شكسبير كان يقوم الرجال بأدوار السيدات في رواياتهم ، كما يفعل الآن طلبة مدارسنا في كثير من الأحوال ، ولما أن ظهرت في فرنسا سنة (١٦٢٩) ميلادية « بدعة جديدة » وهي أن يقوم النساء بالأدوار النسائية أخذ المتفرجون في الصفير والزمر وضرب الممثلين والممثلات ببذور البرتقال .

الاختلاف في استعمال النظارات

ومن أفكه القول ما وقع في إنجلترا عند ظهور النظارات تحت إشراف الجمعية الملكية ، فقد طعن بعضهم في الزي الجديد وقالوا : إنه مفسدة للأخلاق ، وأن النظارة تعدم المساواة بين من يلبسها ومن لا يلبسها من الرجال ، وأضافوا إلى هذا أن المرأة لا يمكنها أن تضع نظارة على عينيها لأسباب تتعلق بالجمال والحكمة ، وبهذا تعدم المساواة بين الرجل والمرأة . وأذاع قسيس مشهور بياناً أعلن فيه أن في النظارات اعتداء جريئاً على الأخلاق ، لأن فيها قلباً للحقائق المرئية بالعين المجردة ، ووضع الأشياء وضعاً غير طبيعي لما تشعه عليها من ضوء كاذب .

الاختلاف في استعمال أحواض الاغتسال

وفي منتصف القرن التاسع عشر للميلاد أقبل الناس في أمريكا على شراء سلعة جديدة ، وهي أحواض الحمامات « بانيو » لاستعمالها في المنازل ، وما كادت تأتي إلى عالم الوجود حتى هجاها رجال الأقلام والصحافة ، بألسنة حداد ، وقالوا : إنها مدعاة للبذخ والإسراف ومنافية لمبادئ الديمقراطية ، وزاد الأطباء في الطنبور نغمة فادعوا أنها خطر يهدد الصحة العامة ونادوا بمقاطعتها ، واستعان المعارضون

بالحكومة كالمعتاد، وطلبوا منها مصادرة هـذه البدعـة أو تضييـق نطاقهـا، بفـرض ضريبة جسيمة على أصحابها وإجبارهم على استخراج رخص رسمية قبل السـماح لهم بالانتفاع بها، وفعلاً بلغت الضريبة على الحوض الواحـد في ولايـة «فرجينيـا» ثلاثين ريالاً، وحرمت بلدية بوستن استعمال هذه الأحواض تحريماً باتـاً شـرعياً إلا إذا أشار الأطباء على أحد بها.

الاختلاف في استعمال المطابع

وعند ظهور الكتب المطبوعـة لأول مـرة لم يقبـل النـاس علـى شـرائها، حتى أفهموا غشاً وتضليلاً أنها مخطوطات، وطعن العلمـاء الطليـان علـى الطباعـة طعنـاً جارحاً، وقالوا إنها بدعة همجية ألمانية ونادى كهنتهم «لنهـدم كيـان الطباعـة أو تهدم هي كياننا».

ولما دخلت المطبعة إلى تركيا في زمن السـلطان أحمـد الثـالث، أفتـت مشيخة الإسلام بجواز استعمالها، إلا أنه بقـي طبـع المصحـف ممنوعـاً، ثـم عـادت الدولـة العثمانيـة فمنعـت المطبعـة، ثـم جـاء السـلطان عبدالحميـد الأول فأعادهـا، وجـاء السلطان محمود فاهتم بها أكثر، ويقال إنـه في سـنة (١١٢٩) هجريـة أفتـى شـيخ الإسلام بالآستانة عبدا لله أفندي بجواز طبع الكتب غير الدينية، وقيل: بل إنه أفتى بجواز الطباعة.

الاختلاف في أكل الملح والموز والبطاطس والطماطم

وعند وصول السفينة الأولى إلى إنجلترا محملة ملحـاً لم يقبـل علـى شـراء الملـح أحد فألقي في اليم.

والموز على حلاوته كان «مضغة» في الأفواه عند أول ظهـوره في لنـدن، فلـم يتيسر لتجاره أن يوزعوه بـأي ثمـن. وأخـيراً حـاولوا توزيعـه مجانـاً علـى صعـاليك المدينة وفقرائها فأبوا، وأخيراً ترك في مكانه يتسرب إليه الفساد.

والبطـاطس في بـدء عهـد إنجلـترا بهـا أعدمـت بدعـوى أنهـا ضـارة بـالمجتمع الإنساني. أما الطماطم فديست بالأقدام، لأن فيها إفساداً لأخلاق الأمة.

الاختلاف في قبول البنات في المدارس

منذ سبعين عاماً أي في حوالي سنة (١٨٥٠) ميلادية لم تقبل البنات في أميركا سوى كلية واحدة، ولم تقبل امرأة في مطعم إلا مصحوبة بذويها، ولم يكن لامرأة حق التصويت في بلاد العالم كلها، ومنذ عهد قريب لما أن ألقت السيدات الحجارة على البرلمان الإنجليزي احتجاجاً على حرمانهن من حق الانتخاب، صاح أحد النواب متهكماً: «زوجوا الأوانس منهن فيكففن عن المطالبة بحقوقهن».

الاختلاف في استعمال الكهرباء

والكهرباء عند بدء إدخالها في عواصم المديريات في مصر لم تقبل على الرحب والسعة من جميع السكان على السواء، فقيل عنها في بعض الدوائر أنها تذهب بالبصر وتلحس نور العين، وقيل عنها في أوساط أخرى أنها تعرض المباني والمنازل لخطر الحريق، وتباهي بعض ذوي البنايات الفخمة من أعداء الجديد، بأنهم محافظة على التقاليد يرفضون بتاتاً إدخال البدعة الغربية في منازلهم، وقد رفض الكهنة في كثير من الكنائس أن يجعلوا للشموع والقناديل الزيتية مزاحماً، فبقيت الكهرباء ردحاً من الزمن حرماً محرماً غير أنني أذكر أن تلك العقبات التي وضعت في سبيل هذا الاختراع العجيب لم تك إلا حواجز من الهشيم، حيث أقبل الناس جميعاً فيما بعد على استعمال الكهرباء، وأضيئت بها الكنائس فبددت غياهب الظلمات فيها، واختفت أمام شموعه الساطعة أصوات المحتجين من ذوي العمائم السوداء.

الاختلاف في استعمال السيارات والعربات

ولا أزال أذكر أيضاً أن بعض الأعيان في عواصم المديريات على غناهم الوافر وثرواتهم الطائلة ظلوا زمناً طويلاً يترددون في استعمال العربات والأوتومبيلات، وداموا يمتطون ظهور الحمير البيضاء المقصوصة الشعر المكسوة سرجها بالقطيفة الحمراء يخترقون شوارع المدينة الكبرى، فيقف لهم الناس إجلالاً على الجانبين، وهم يفاخرون أنهم لا يزالون على عهودهم الماضية وأن ظهر الدابة أكثر وجاهة وأعز جانباً وأرفع مقاماً من متكآت العربة ومساند الأوتومبيل، وأن خطوة الحمار

الهادئة ومشيته الوئيدة الناعمة ، أصح للمعدة والأمعاء من رجة السيارة وسرعتها الخاطفة ، وصعودها وهبوطها وحركاتها البهلوانية الشيطانية وجموحها الذي لا يكبح .

الاختلاف في استعمال الشمسية

في أوائل القرن الثامن عشر للميلاد أدخلت الشمسية «أي المظلة » إلى أوروبا ، فاستقبلها الناس عند ظهورها بجميع مظاهر السخرية والاستهزاء ، بل لما ظهرت لأول مرة في شوارع لندن أخذ المارة يرشقون حاملها بالحجارة ، ثم فيما بعد ألفها الناس وأدركوا منافعها .

الاختلاف في استعمال الصابون

جاء في كتاب «صفحات من تاريخ الكويت» تأليف الأستاذ يوسف بن عيسى القناعي ما نصه : وكانوا ـ أي أهل الكويت ـ إذا أكلوا العصيدة مسحوا أيديهم بأرجلهم ، وكانوا لا يستعملون الصابون إلا من مدة قليلة ، وأذكر بهذه المناسبة النادرة التالية وهي :

دخل رجل اسمه عيسى أبو عبود على المرحوم الأخ أحمد ، فوجده يغسل يده بالصابون بعد العشاء فقال له متأسفاً : آفا عليك يا أحمد تغسل يدك بالصابون؟ فأجابه أحمد أن الأخ يوسف يغسل يده بالصابون مثلي ، فرد عليه عيسى بشدة : حاشا على ذلك الوجه أن يغسل يده بالصابون . انتهى من الكتاب المذكور .

فانظر رحمك الله إلى مثل هذا التعصب الشديد ، واعلم أن كثيراً من بدو الأعراب وبدو اليمن يفعلون ذلك أيضاً ، أي يمسحون أيديهم في وجوههم أو في ذراعهم أو في أرجلهم بعد الأكل الذي فيه الدسم كاللحم والسمن والشحم ، ولا يغسلون أيديهم ويقولون كيف يغسلون أيديهم من نعمة الله . وهذه حالة قديمة العهد ترجع إلى العصور الأولى من نشأة الإنسان ولكن هذه الحالة تزول سريعاً من البدو والأعراب إذا خالطوا أهل المدن .

الاختلاف في بناء برج إيفل بباريس

لما أراد «جوستاف إيفل» بناء البرج العظيم في باريس عاصمة فرنسا الذي سمي فيما بعد باسمه «برج إيفل» وجد عقبات كثيرة في مشروعه هذا وقام ضده كثيرون ونسبوه إلى الجنون، بل قدموا فيه مذكرة رسمية قالوا فيها ما يأتي:

«نحن جماعة الكتاب والمصورين والنحاتين والمهندسين وعشاق باريس الذين يغارون على جمالها، نحتج بكل قوانا ونعرب عن مزيد اشمئزازنا باسم الذوق الفرنسي والفن الفرنسي، بل باسم تاريخ فرنسا كله المعرض الآن للاحتقار بسبب إقامة برج إيفل الشنيع المنظر الذي لا فائدة منه على الإطلاق في قلب عاصمتنا الجميلة».

هذا ما كتبه حساده ومعارضو مشروعه، لكن الرجل لم يحفل بهم لأنه كان قوي الإيمان بفائدة مشروعه العظيم، فبدأ بإنشاء البرج في سنة (١٨٨٧) سبع وثمانين وثمانمائة وألف من الميلاد، وأكمل بناءه في سنة (١٨٨٩) ميلادية، وبعد سنة من إكمال بنائه فتح للجمهور.

ثم إنه في سنة (١٩٠٣) من الميلاد أنشئت في هذا البرج إدارة للتلغراف واللاسلكي وهو من أكبر المحطات اللاسلكية في العالم، وقد زاد إيراد البرج في السنة الأولى من حياته على نفقة بنائه، ولا تزال إيراداته عظيمة جداً، وقد بلغت نفقات بناء هذا البرج سبعة ملايين وثمانمائة ألف فرنك في ذلك الوقت، وبلغ عدد الذين زاروه يوم الاحتفال بافتتاحه (٢٣٢٠٠) شخص.

ويبلغ عمق أساسه خمسة عشر متراً، ويبلغ ارتفاعه ثلاثمائة متر، ويبلغ وزن الحديد الذي فيه من أساسه إلى قمته سبعة ملايين كيلو غرام، واستنفد في رسوم تصميماته خمسة عشر ألف متر مربع من ورق الرسم.

الاختلاف في الانتقال من الأحياء القديمة

ولم يغب عن ذاكرتي المنازعات والخصومات التي كانت تقوم بين الآباء وأبنائهم في أعرق الأسر وأكرمها، ولم تك هذه الحروب الشعواء إلا صراعاً بين أب محافظ يريد أن يقضي البقية الباقية من حياته في منزل أجداده في ذلك الحي القديم، الذي هجره ذووه ولم يبق فيه إلا الفقراء ومتوسطو الحال، وبين ولد

يرغب في الانتقال إلى أحد الأحياء الجديدة حيث يقطن « ذوات » البلد وحيث تكثر المنازل الحديثة التي تتوافر فيها الشمس المضيئة والهواء النقي والمرافق الحديثة، والحمامات المجهزة بالأحواض والأنابيب التي يجري بها الماء الساخن والبارد، والغرف الصحية المطلة على الحدائق الغناء.

الاختلاف في تعليم البنات

ويقول أمين سامي باشا في مؤلفه «التعليم في مصر» إن الأهالي في أول الأمر كانوا عقبة كؤوداً في طريق تعليم بنيهم، أما تعليم البنات فلم يصادف تسهيلاً في أول الأمر، حتى اضطر محمد علي باشا إلى إصدار أمره بشراء عشر جوار سودانيات صغيرات السن لتلقي فن الولادة ومعهن اثنان من أغوات حرم القصر ليتعلما فن الطب والجراحة. وليست العقبات التي صادفها محبذو تعليم البنات ببعيدة العهد، فإن إحصاءات سنة (١٩٣٠) ثلاثين وتسعمائة وألف ميلادية فقط تدل على أن عدد الطالبات في مدارس وزارة المعارف الثانوية لم يتجاوز (٣٩٦) مقابل (١٤٨٧٧) من الطلبة الذكور.

وقد لاقى كلوت بك في مدرسة قصر العين الأمرين لأن الأهالي كانوا يعارضون في تشريح الجثث ويعدونه اعتداء على حرمة الموتى.

وعند إنشاء مدرسة روض الأطفال في قصر الدوبارة بمصر منذ سنوات تعبت ناظرة المدرسة كثيراً في إقناع الوزارة بأن قبول البنين والبنات للتعليم تحت سقف واحد من تلك المدرسة لا عيب فيه لأنهم أطفال أبرياء لا تتجاوز سنهم السادسة.

إلى هنا انتهى مقالة أمير بقطر في مجلة الهلال. وأمثال هذا كثير وفيما تقدم الكفاية.

نقول: إن ما تقدم من الأمور المختلفة وقد حكم الناس بادئ الأمر فيها بالرفض، ثم أجمعوا على قبولها واستعمالها، لو أنهم ترووا في الحكم ونظروا بإمعان، لوصلوا إلى نتيجة حسنة وحكم مرضي في جميع الحالات، وفيما ذكرناه درس مهم واضح، والدنيا عبر ودروس والمعتبرون أنواع شتى، وكل يأخذ نصيبه بقدر استعداده.

البناية العاشرة: بناء الحجاج الثقفي الكعبة

(العاشر) ممن بنى الكعبة الغراء: الحجاج بن يوسف الثقفي.

قال الإمام الأزرقي في تاريخه بعد أن ذكر بناء عبد الله بن الزبير إلى أن قتل، رضي الله تعالى عنه وعن أبيه ما نصه:

ودخل الحجاج مكة فكتب إلى عبدالملك بن مروان أن ابن الزبير زاد في البيت ما ليس منه وأحدث فيه باباً آخر فكتب إليه يستأذنه في رد البيت على ما كان عليه في الجاهلية، فكتب إليه عبدالملك بن مروان أن سد بابها الغربي الذي كان فتحه ابن الزبير وإهدام ما كان زاد فيها من الحجر وأكبسها به على ما كانت عليه فهدم الحجاج منها ستة أذرع وشبراً مما يلي الحجر وبناها على أساس قريش الذي كانت استقصرت عليه وكبسها بما هدم منها وسد الباب الذي في ظهرها وترك سائرها لم يحرك منه شيئاً فكل شيء فيها اليوم بناء ابن الزبير إلا الجدار الذي في الحجر فإنه بناء الحجاج وسد الباب الذي في ظهرها وما تحت عتبة الباب الشرقي الذي يدخل منه اليوم إلى الأرض أربعة أذرع وشبر كل هذا بناء الحجاج، والدرجة التي في بطنها اليوم والبابان اللذان عليها اليوم هما أيضاً من عمل الحجاج.

سبب بناء الحجاج الكعبة

يظن بعضهم أن أمير المؤمنين عبدالملك بن مروان لم يأمر الحجاج بهدم ما زاده ابن الزبير في الكعبة إلا للخصومة التي كانت بينهما، ولكن هذا الظن ليس في محله ويبعد على جميع المسلمين بالأخص أهل القرن الأول الذين هم خير القرون أن تمتد أيديهم إلى بيت الله الحرام بالهدم والبناء اتباعاً لهوى النفس ونكالاً بالخصم بل أنهم لا يجرؤون على بنائه وتعميره إلا في حالة الاضطرار والنهاية القصوى وبعد الاستشارة واستفتاء العلماء.

وحقيقة الأمر: أن عبدالملك بن مروان ما أمر الحجاج بذلك إلا ظناً منه أن ابن الزبير لما احترقت الكعبة في أيام حصاره هدمها وبناها على حسب رغبته واجتهاده ويدل على ذلك ما ذكره الإمام الأزرقي في تاريخه فإنه قال: فلما فرغ الحجاج من هذا كله -أي بناء الكعبة- وفد بعد ذلك الحارث بن عبدالله بن أبي

ربيعة المخزومي على عبدالملك بن مروان فقال له عبدالملك : ما أظن أبا خبيب - يعني ابن الزبير- سمع من عائشة ما كان يزعم أنه سمع منها في أمر الكعبة ، فقال الحارث : أنا سمعته من عائشة قال : سمعتها تقول ماذا ؟ قال : سمعتها تقول : قال لي رسول الله ﷺ : إن قومك استقصروا في بناء البيت ولولا حداثة عهد قومك بالكفر أعدت فيه ما تركوا منه فإن بدا لقومك أن يبنوه فهلمي لأريك ما تركوا منه فأراها قريباً من سبعة أذرع وقال رسول الله ﷺ : وجعلت لها بابين موضوعين على الأرض باباً شرقياً يدخل الناس منه ، وباباً غربياً يخرج الناس منه ، قال عبدالملك بن مروان : أنت سمعتها تقول هذا ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين أنا سمعت هذا منها ، قال : فجعل ينكت منكساً بقضيب في يده ساعة طويلة ثم قال: وددت والله أني تركت ابن الزبير وما تحمل من ذلك . انتهى من الأزرقي.

فهذا دليل واضح أن عبدالملك ما كان يعلم أن ابن الزبير بنى الكعبة بموجب الحديث الذي سمعه من خالته عائشة رضي الله عنها ، فلما ثبت ذلك كله عنده وتحقق لديه ندم على فعله فإذا تأملت في الحديث المذكور لمع لك بارق المعجزة النبوية ففي قوله ﷺ لعائشة : فإن بدا لقومك أن يبنوه فهلمي لأريك الخ ... معجزة باهرة على أن الكعبة ستبنى بعد وفاته وفي إخباره لها بذلك بالأخص إشارة إلى أن بناءها يكون في حياتها وأن الذي سيبنيها هو من أقاربها عبدالله بن الزبير هو ابن أختها أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنه ، وقد تحقق كل ذلك وكلتا الإشارتين تحققتا بعد موته ﷺ بثلاث وخمسين سنة .

جاء في الجزء الثاني من شرح كتاب «زاد المسلم فيما اتفق عليه البخاري ومسلم» عند حديث : «لولا حداثة قومك بالكفر لنقضت البيت ثم لبنيته... الخ» ما نصه : ولما أراد هارون الرشيد أن يهدم البيت ويعيده على هيئة ابن الزبير الموافقة لأساس إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، حسب رغبة نبينا ﷺ نهاه إمامنا مالك بن أنس عن ذلك سداً للذريعة ، وقال له : ناشدتك الله لا تجعل بيت الله ألعوبة للملوك ، كلما جاء ملك نقضه وبناه ، فتزول هيبته من قلوب الناس ، فانتهى هارون الرشيد عن ذلك واستحسن إشارة مالك رحمه الله تعالى وجزاه عن الإسلام خيراً ، ما أشد تحريه واتباعه للسنة ، وما أحسن عمله بسد الذرائع الذي هو من أصول مذهبه القويم . انتهى من الكتاب المذكور .

الخلاصة في كيفية بناء الحجاج الثقفي

فخلاصة الكلام المتقدم كما ذكرناها في كتابنا «مقام إبراهيم عليه السلام» المطبوع بمصر هي : أن الحجاج الثقفي بعد محاصرة ابن الزبير وقتله كتب إلى أمير المؤمنين عبدالملك بن مروان يخبره أن ابن الزبير زاد في الكعبة ما ليس منها وأحدث فيها باباً آخر واستأذنه في رد ذلك على ما كان عليه في الجاهلية فكتب إليه عبدالملك أن يسد بابها الغربي ويهدم ما زاده فيها ابن الزبير من الحجر ويكبسها على ما كانت عليه ففعل الحجاج ذلك وهدم من الكعبة ستة أذرع وشبراً مما يلي الحجر فقط وبناها على أساس قريش وترك سائرها لم يحرك منها شيئاً وبذلك اتسع الحجر وجعل لها أربعة أركان على هيئة بناء ابن الزبير وسد الباب الغربي الذي في ظهرها ونقض من طول الباب أربعة أذرع وشبراً فصار طوله ستة أذرع وشبراً ورفع الباب الشرقي عن الأرض وذلك سنة أربع وسبعين هجرية .

ولا تظن أن الحجاج حسد ابن الزبير على بنائه الكعبة أو أراد محو آثار بنائه لأنه وقف في وجهه وحاربه كلا ، فإن امتداد الأيدي بالتلاعب ببيت الله تعالى لن يكون من أحد من المسلمين لغرض نفساني ومعاندة لخصم وإنما إخباره عن بناء ابن الزبير رضي الله عنهما للكعبة لأمير المؤمنين عبدالملك بن مروان واجب لأنه نائبه في الحجاز فلا بد أن يخبره بكل ما حدث من الأمور . ويدل على ما ذكر ما جاء في صحيح مسلم في كتاب الحج فلما قتل ابن الزبير كتب الحجاج إلى عبدالملك بن مروان يخبره بذلك ويخبره أن ابن الزبير قد وضع البناء على أس نظر إليه العدول من أهل مكة فكتب إليه عبدالملك : إنا لسنا من تلطيخ ابن الزبير في شيء الخ .. فهذه الجملة من الحجاج تدل على حكمه بصواب بناء ابن الزبير الكعبة لكن عبدالملك بن مروان لم يرض بذلك .

فكل شيء فيها من بناء ابن الزبير رضي الله عنه ، إلا الجدار الذي في الحجر فإنه من بناء الحجاج وكذلك ما تحت عتبة الباب الشرقي إلى الأرض والدرجة الموصلة لسقف الكعبة على داخلها والبابان اللذان عليهما هما أيضاً من بناء وعمل الحجاج ولقد بقيت الكعبة على عمارة الحجاج إلى زمن السلطان مراد كما سيأتي .

وكان حجر إسماعيل في بناء إبراهيم عليهما السلام وفي بناء ابن الزبير صغيراً ومقداره فيهما واحداً أما في بناء قريش وفي بناء الحجاج فكان واسعاً ومقداره واحداً بالصفة التي هو عليها اليوم لأن الحجاج بنى الكعبة بالصفة التي بنتها قريش وهي كانت نقصت من الكعبة من جهة الحجر ستة أذرع وشبراً وبذلك اتسع الحجر.

ما كان من العمارة في الجدار الذي بناه الحجاج

قال الغازي في تاريخه عند ذكر ما وقع من التعميرات في الكعبة : فمن ذلك عمارة في الجدار الذي بناه الحجاج لانفتاحه من وجه الكعبة ودبرها ، ذكر ذلك إسحاق بن أحمد الخزاعي أحد من روى عن الأزرقي في تاريخه ونص كلامه : وأنا رأيتها وقد عمر الجدار الذي بناه الحجاج مما يلي الحجر فانفتح من البناء الأول الذي بناه ابن الزبير مقدار نصف إصبع من وجهها ومن دبرها وقد رضم بالجص الأبيض وقد رأيتها حين جردت الكعبة في آخر ذي الحجة سنة ثلاث وستين ومائتين . انتهى من تاريخ الغازي .

وجوب الطواف من وراء جدار الحجر

وجاء في كتاب «تاريخ الكعبة المعظمة» ما نصه : قال النووي في شرح مسلم : وقد ذكروا أن هارون الرشيد سأل مالك بن أنس عن هدمها وردها إلى بناء ابن الزبير للأحاديث المذكور في الباب فقال مالك : ناشدتك الله يا أمير المؤمنين أن لا تجعل هذا البيت ملعبة للملوك لا يشاء أحد إلا نقضه وبناه فتذهب هيبته من صدور الناس ثم قال النووي : قال أصحابنا -يعني علماء الشافعية- ست أذرع عن الحجر مما يلي البيت محسوبة من البيت بلا خلاف وفي الزوائد خلاف فإن طاف في الحجر وبينه وبين البيت أكثر من ستة أذرع ففيه وجهان لأصحابنا أحدهما يجوز الظواهر هذه الأحاديث وهذا هو الذي رجحه جماعات من أصحابنا الخراسانيين ، والثاني لا يصح طوافه في شيء من الحجر ولا على جداره ، ولا يصح حتى يطوف خارجاً من جميع الحجر وهذا هو الصحيح وهو الذي نص عليه الشافعي ، وقطع به جماهير أصحابنا العراقيين رجحه جمهور

الأصحاب ، وبه قال جميع علماء المسلمين سوى أبي حنيفة فإنه قال : إن طاف في الحجر وبقي في مكة أعاده وإن رجع من مكة بلا إعادة أراق دماً وأجزاه طوافه ، واحتج الجمهور بأن النبي ﷺ طاف من وراء الحجر ، وقال : «لتأخذوا مناسككم» ثم أطبق المسلمون عليه من زمنه ﷺ إلى الآن وسواء كان كله من البيت أم بعضه فالطواف يكون من ورائه كما فعل النبي ﷺ وا لله أعلم . اهـ .

مميزات بناء الحجاج

الحقيقة ليس في بناء الحجاج الثقفي من مميزات ، لأنه هدم بأمر عبدالملك ما عمله ابن الزبير فيها وبناها بالصفة التي بنتها قريش ، ولا بأس أن نذكر مميزات بنائه زيادة في الإيضاح ولنمش كما سبق على وتيرة واحدة ، وهذه هي المميزات :

(١) بنى الحجاج الكعبة على صفة بناء قريش .

(٢) هدم الحجاج ما زاده ابن الزبير رضي ا لله عنه وهو ستة أذرع وشبر ، من جدارها الذي جهة الحجر ولم يتعرض لهدم ما بقي منها .

(٣) وجعل للكعبة أربعة أركان كما فعله ابن الزبير .

(٤) ورفع بابها الشرقي عن الأرض وكبس داخل الكعبة كما فعلته قريش .

(٥) ونقص من طول الباب أربعة أذرع وشبرا .

(٦) وسد الباب الغربي الذي بظهر الكعبة والذي فتحه ابن الزبير .

(٧) وكان بناء الحجاج على أساس بناء قريش ، ما عدا جدار الكعبة الذي جهة الحجر فقد أبقاها بركنين كما فعله ابن الزبير ، ولم يجعله مدوراً كما فعلته قريش .

(٨) تكون الدرجة الداخلية للكعبة من عمل الحجاج لأنها كانت في الجدار الذي هدمه ، كما تكون عتبة الباب الشرقي إلى الأرض من عمل الحجاج أيضاً لأنه هو الذي رفع الباب عن الأرض .

(٩) وكان ذلك سنة (٧٤) أربع وسبعين للهجرة .

ترجمة الحجاج بن يوسف الثقفي

قال المسعودي في كتابه مروج الذهب : إن أم الحجاج الفارعة بنت همام بن عروة ابن مسعود الثقفي كانت تحت الحارث بن كلدة الثقفي الطائفي حكيم

العرب ، فدخل عليها مرة سحراً فوجدها تتخلل فبعث إليها بطلاقها ، فقالت: لم بعثت إلي بطلاقي؟ هل لشيء رابك مني؟ قال : نعم ، دخلت عليك في السحر وأنت تتخللين فإن كنت بادرت الغداء فأنت شرهة ، وإن كنت بت والطعام بين أسنانك فأنت قذرة ، فقالت : كل ذلك لم يكن ، لكني تخللت من شظايا السواك . فتزوجها بعده يوسف بن أبي عقيل الثقفي فولدت له الحجاج مشوهاً لا دبر له ، فنقب عن دبره .

وذكر ابن عبد ربه في العقد الفريد أن الفارعة المذكورة كانت زوجة المغيرة بن شعبة ، وأنه هو الذي طلقها لأجل الحكاية المذكورة في التخلل ، وذكر أيضاً أن الحجاج وأباه كانا يعلمان الصبيان بالطائف ثم لحق الحجاج بروح بن زنباع الجذامي وزير عبدالملك بن مروان فكان في عديد شرطته ، ثم إن عبدالملك بن مروان قلده أمر عسكره . اهـ .

ولقد كان الحجاج من حفاظ القرآن المعدودين وهو الذي أمر أن يضعوا للحروف المشتبهة علامات ، ودعا نصر بن عاصم الليثي ويحيى بن يعمر العدواني لهذا الأمر فاخترعا نقط الحروف الهجائية لتمييز بعضها عن بعض كالدال والذال والفاء والقاف ليأمنوا اللبس والاشتباه والتصحيف .

وأخبار الحجاج كثيرة ، وهو الذي بنى مدينة واسط وهي واقعة بين البصرة والكوفة وفرغ من بنائها سنة ست وثمانين ، وقيل ثمان وسبعين وبها مات ودفن وعفي قبره وأجرى عليه الماء ، وكانت وفاته سنة خمس وتسعين ، وعمره أربع وخمسون سنة . انتهى باختصار من تاريخ القاضي ابن خلكان .

وقد ذكر الإمام ابن كثير في تاريخه ترجمة طويلة للحجاج بن يوسف في الجزء التاسع فمما ورد فيه : أنه خطب فذكر القبر ، فما زال يقول إنه بيت الوحدة وبيت الغربة حتى بكي وأبكى من حوله ، وكان مولد الحجاج سنة تسع وثلاثين ، ونشأ شاباً لبيباً فصيحاً بليغاً حافظاً للقرآن . قال بعض السلف : كان الحجاج يقرأ القرآن كل ليلة ، قال عقبة بن عمرو : ما رأيت عقول الناس إلا قريباً بعضها من بعض إلا الحجاج وإياس بن معاوية ، فإن عقولهما كانت ترجح على عقول الناس ، وكانت فيه شهامة عظيمة ، وكان كثير قتل النفوس التي حرمها ا لله بأدنى شبهة ، وكان ناصبياً يبغض علياً وشيعته ، هوى في آل مروان بني أمية ، وكان جباراً عنيداً ، وكان حريصاً على الجهاد وفتح البلاد ، وكان فيه سماحة بإعطاء

المال لأهل القرآن ، فكان يعطي على القرآن كثيراً ، قال عمر بن عبدالعزيز : ما حسدت الحجاج عدو الله على شيء حسدي إياه على حبه القرآن وإعطائه أهله عليه ، وقوله حين حضرته الوفاة : اللهم اغفر لي فإن الناس يزعمون أنك لا تفعل .
ولما حضرت الحجاج الوفاة أنشأ يقول :

يا رب قد حلف الأعداء واجتهدوا   بأنني رجل من ساكني النار
أيحلفون على عمياء ويحهم   ما علمهم بعظيم العفو غفار

فأخبر بذلك الحسن فقال : با لله إن لينجون بهما ، وزاد بعضهم في ذلك :

إن الموالي إذا شابت عبيدهم   في رقهم عتقوهم عتق أبرار
وأنت يا خالقي أولى بذا كرما   قد شبت في الرق فأعتقني من النار

ولما مات الحجاج لم يعلم أحد بموته ، حتى أشرفت جارية فبكت فقالت : ألا إن مطعم الطعام وميتم الأيتام ومرمل النساء ومفلق الهام وسيد أهل الشام قد مات ثم أنشأت تقول :

اليوم يرحمنا من كان يبغضنا   واليوم يأمننا من كان يخشانا

ومات بواسط وعمره خمس وخمسون سنة ، وأجري عليه الماء لكيلا ينبش ويحرق ، وزعموا أن الحجاج لما مات لم يترك إلا ثلاثمائة درهم ومصحفاً وسيفاً وسرجاً ورحلاً ومائة درع موقوفة ، قال عوف : ذكر الحجاج عند محمد بن سيرين فقال : مسكين أبو محمد إن يعذبه الله فبذنبه ، وإن يغفر له فهنيئاً له ، وإن يلق الله بقلب سليم فهو خير منا ، وقد أصاب الذنوب من هو خير منه . فقيل له : ما القلب السليم؟ قال : أن يعلم الله تعالى منه الحياء والإيمان وأن يعلم الله الحق ، وأن الساعة حق قائمة ، وأن الله يبعث من في القبور . وقال أحمد بن أبي الحواري : سمعت أبا سليمان الداراني يقول : كان الحسن البصري لا يجلس مجلساً إلا ذكر فيه الحجاج فدعا عليه قال : فرآه في منامه ، فقال له : أنت الحجاج؟ قال : أنا الحجاج ، قال : ما فعل الله بك؟ قال : قتلت بكل قتيل قتلته ثم عزلت مع الموحدين ، قال : فأمسك الحسن بعد ذلك عن شتمه والله تعالى أعلم . انتهى باختصار من تاريخ ابن كثير .

جاء في مجلة الاعتصام التي تصدر بالقاهرة بتاريخ جمادى الآخرة سنة ١٣٧٦ ما يأتي :

ابن المسيب والحجاج : صلى الحجاج بجوار ابن المسيب فرآه يرفع قبل الإمام ويضع رأسه كذلك فلما سلم أخذ بثوبه حتى فرغ من صلاته ودعا به ثم رفع نعله على الحجاج فقال : يا سارق يا خائن تصلي هذه الصلاة ؟ لقد هممت أن أضرب بها وجهك ، وكان الحجاج حاجاً فرجع إلى الشام وجاء والياً على المدينة ودخل من فوره إلى المسجد قاصداً مجلس ابن المسيب فقال له : أنت صاحب الكلمات ؟ قال : نعم أنا صاحبها ، قال : جزاك الله من معلم ومؤدب خيراً ، ما صليت بعدك إلا ذاكراً قولك .

حكاية الحجاج مع الأعرابي

ومما هو معدود من حلم الحجاج : أنه لقي رجلاً بظاهر الكوفة فسأله رأيه في الحجاج ، فقال الرجل : زعموا أنه من ثمود وكفى بسوء سيرته شراً ، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، قال الحجاج : أتعرفني ؟ قال : لا ! قال : أنا الحجاج . فقال الرجل : أتعرفني أيها الأمير ، أنا مولى بني عامر أجن في الشهر ثلاث مرات وهذا اليوم اشتد الصراع علي ، فضحك الأمير وعفا عنه . اهـ .

خرج الحجاج ذات يوم فأصحر وحضر غداؤه فقال : « اطلبوا من يتغدى معنا » فطلبوا فلم يجدوا إلا أعرابياً في شملة ، فأتوه به . فقال له : « هلم » قال له : « قد دعاني من هو أكرم منك فأجبته » قال : « ومن هو » قال : « الله تبارك وتعالى دعاني إلى الصيام فأنا صائم » قال : « صوم في مثل هذا اليوم على حر » قال : « صمت ليوم هو أحر منه » قال : « فافطر اليوم وتصوم غداً » . قال : « أو يضمن لي الأمير أن أعيش إلى غد » قال : « ليس ذلك إلي » . قال : « فكيف تسألني عاجلاً بآجل ليس لي إليه سبيل » قال : « إنه طعام طيب » قال : « والله ما طيبه خبازك ولا طباخك ، ولكن طيبته العافية » قال الحجاج : « تالله ما رأيت كاليوم » .

نقل الحجاج إلى العراق

جاء في كتاب « سيف بني مروان الحجاج الثقفي » تأليف الأستاذ عبدالرزاق حميدة ما يأتي :

يروي تاريخ الأدب أن عبدالملك نقل الحجاج من الحجاز إلى العراق بعد وفادة وفدها عليه ومعه إبراهيم بن محمد بن طلحة ، وكان الحجاج قد استخلصه

لنفسه وقربه وعظم منزلته، فلما دخل عليه لم يبدأ بشيء بعد السلام إلا أن قال له: «قدمت عليك أمير المؤمنين برجل الحجاز لم أدع له بها نظيراً في الفضل والأدب والمروءة وحسن المذهب، مع قرابة الرحم وعظم قدر الأبوة، وما بلوت منه في الطاعة والنصيحة وحسن المؤازرة، وهو إبراهيم بن محمد بن طلحة، وقد أحضرته بابك ليسهل عليه أذنك وتعرف له ما عرفته. فقال: «أذكرتنا رحماً قريبة، وحقاً واجباً».

ثم أذن عبدالملك لإبراهيم وأجلسه على فراشه، وذكر له مدح الحجاج، ثم سأله حاجته، فأجابه محمد بن طلحة: «يا أمير المؤمنين، إن أول الحوائج، وأحق ما قدم بين يدي الأمور ما كان لله فيه رضاً، ولحق نبيه، ﷺ أداء، ولك فيه ولجماعة المسلمين نصيحة، وعندي نصيحة لا أجد بداً من ذكرها، ولا أقدر على ذلك إلا وأنا خال». فقال له: دون أبي محمد! يعني الحجاج، فقال له إبراهيم: نعم».

فأمره عبدالملك أن يخرج. ثم قال: يا ابن طلحة. نصيحتك، فقال: يا أمير المؤمنين، لقد عمدت إلى الحجاج في تغطرسه وتعجرفه، وبعده من الحق، وقربه من الباطل، فوليته الحرمين، وهما ما هما، وبهما ما بهما من المهاجرين والأنصار، والموالي والأخيار، يطؤهم ويسومهم الخسف ويحكم فيهم بغير السنة، بعد الذي كان، من سفك دمائهم، وما انتهك من حرمهم، ثم تظن أن ذلك ينجيك من عذاب الله، فكيف إذا جاشاك محمد ﷺ غداً للخصومة بين يدي الله تعالى! أما والله لن تنجو إلا بحجة تضمن لك النجاة. فأربع على نفسك أو دع».

وكان عبدالملك متكئاً فاستوى جالساً، وكأنه راعه أن يكون هذا رأي ابن أبي طلحة في الحجاج وهو ولي نعمته، وصاحب الرأي الحسن فيه. والذي مدحه أمام عبدالملك بما جعله خير أهل الحجاز.

فقال له: كذبت ومنت فيما جئت به. ولقد ظن بك الحجاج ظناً لم نجده فيك، قم، فأنت المائن الحاسد! قال: فقمت والله ما أبصر شيئاً، فلما خطرف الستر لحقني لاحق، فقال: احبسوا هذا، وأذن للحجاج، فدخل، فلبثت ملياً ولا شك أنهما في أمري. ثم خرج الإذن لي. فدخلت فلما كشف لي الستر، إذ أنا بالحجاج خارج، فاعتنقني. وقبل ما بين عيني، وقال: «أما إذا جزى الله

المتواخيين خيراً بفضل تواصلهما ، فجزاك الله عني أفضل الجزاء . فوالله لئن سلمت لك لأرفعن ناظريك ، ولأعلين كعبك ، ولأتبعن الرجال غبار قدميك ».

قال : فقلت في نفسي إنه ليسخر بي ، فلما وصلت إلى عبدالملك أدناني حتى أدناني من مجلسي الأول . ثم قال : « يا ابن طلحة : هل أعلمت الحجاج بما جرى أو شاركك أحد في نصيحتك؟ فقلت : لا والله ، ولا أعلم أحداً أظهر يداً عندي من الحجاج ، ولو كنت محابياً أحداً بديني لكان هو ، ولكن آثرت الله ورسوله والمسلمين ». قال : علمت أنك لم ترد الدنيا ، ولو أردتها لكانت لك في الحجاج ، ولكن أردت الله والدار الآخرة ، وقد عزلته عن الحرمين لما كرهت من ولايته عليهما . وأعلمته أنك استنزلتني له عنهما استقلالاً لها . ووليته العراقين وما هنالك من الأمور التي لا يدحضها إلا مثله ، وإنما قلت له ذلك ليؤدي ما يلزمه من ذمامك ، فإنك غير ذام لصحبته مع يده عندك ».

قال : فخرجت مع الحجاج ، وأكرمني أضعاف إكرامه .

حكاية الحجاج مع الغضبان

جاء في كتاب الإمامة والسياسة ما يأتي :

قال : وذكروا أن عبدالرحمن بن محمد بن الأشعث لما خرج على الحجاج ، جمع أصحابه وفيهم عبدالرحمن بن ربيعة بن الحارث بن نوفل وبنو عون بن عبدالله وعمرو بن موسى بن معمر بن عثمان بن عمرة وفيهم محمد بن سعد بن أبي وقاص ، فقال لهم : ما ترون ؟ قالوا : نحن معك فاخلع عدو الله وعدو رسوله فإن خلعه من أفضل أعمال البر فخلعه وأظهر خلعه فلما أظهر ذلك قدم عليهم سعيد بن جبير فقالوا له : إنا قد حبسنا أنفسنا عليك ، فما الرأي؟ قال : الرأي أن تكفوا عما تريدون فإن الخلع فيه الفتنة والفتنة فيها سفك الدماء واستباحة الحرم وذهاب الدين والدنيا . فقالوا : إنه الحجاج وقد فعل ما فعل فذكروا أشياء و لم يزالوا به حتى سار معهم وهو كاره ، قال : وانتهى الخبر إلى الحجاج ، فقيل له : إن عبدالرحمن قد خلعك ومن معه ، فقال : إن معه سعيد بن جبير وأنا أعلم أن سعيداً لا يخرج وإن أرادوا ذلك فسيكفيهم عنه فقيل له : إنه رام ذلك ثم لم يزالوا به حتى فتنوه وسار معهم . فبعث الحجاج الغضبان الشيباني ليأتيه بخبر عبدالرحمن بن الأشعث من كرمان وتقدم إليه أن لا يكتمه من أمره شيئاً فتوجه الغضبان إلى

عبدالرحمن فقال له عبدالرحمن : ما وراءك يا غضبان ؟ قال : شر طويل تغد بالحجاج قبل أن يتعش بك ثم انصرف من عنده فنزل رملة كرمان وهي أرض شديدة الحر فضرب بها قبة وجلس فيها فبينا هو كذلك إذ ورد أعرابي من بكر بن وائل على قعود فوقف عليه وقال : السلام عليك فقال له الغضبان : السلام كثير وهي كلمة مقولة قال الأعرابي : من أين أقبلت ؟ قال : من الأرض الذلول . قال : وأين تريد ؟ قال : أمشي في مناكبها وآكل من رزق الله الذي أخرج لعباده منها . قال الأعرابي : فمن غلب اليوم ؟ قال الغضبان : المتقون . قال : فمن سبق ؟ قال : حزب الله الفائزون . قال الأعرابي : ومن حزب الله ؟ قال : هم الغالبون فعجب الأعرابي من منطقه وحضور جوابه ثم قال : أتقرض ؟ قال الغضبان : إنما تقرض الفأرة . قال : أفتنشد ؟ قال : إنما تنشد الضالة . قال : أفتسجع ؟ قال إنما تسجع الحمامة . قال : أفتنطق ؟ قال : إنما ينطق كتاب الله . قال : أفتقول ؟ قال : إنما يقول الأمير . قال الأعرابي : تا لله ما رأيت مثلك قط . قال الغضبان : بل رأيت ولكنك نسيت . قال الأعرابي : فكيف أقول ؟ قال : أخذتك القول في العاقول وأنت قائم تبول . قال الأعرابي : أتأذن لي أن أدخل عليك؟ قال الغضبان : وراؤك أوسع لك قال الأعرابي : قد أحرقتني الشمس . قال الغضبان : الآن يضيء عليك الفيء إذا غربت قال الأعرابي : إن الرمضاء قد أحرقت قدمي . قال الغضبان : بل عليهما تبرد . قال الأعرابي : إن الوهج شديد . قال الغضبان : ما لي عليه سلطان . قال الأعرابي : إني والله ما أريد طعامك ولا شرابك . قال الغضبان : لا تعرض بهما فوالله لا تذوقهما ، قال الأعرابي : وما عليك لو ذقتهما؟ قال الغضبان : نأكل ونشبع فإن فضل شيء من الأكرياء والغلمان فالكلب أحق به منك . قال الأعرابي : سبحان الله . قال الغضبان : نعم . من قبل أن يطلع رأسك وأضراسك إلى الدنيا . قال الأعرابي : ما عندك إلا ما أرى ، قال الغضبان : بلى عندي هراوتان اضرب بهما رأسك حتى ينتثر دماغك . قال الأعرابي : إنا لله وإنا إليه راجعون ، قال الغضبان : أظلمك أحد؟ قال الأعرابي : ما أرى ، ثم قال الأعرابي : يا آل حارث بن كعب ، فقال الغضبان : بئس الشيخ ذكرت ، قال الأعرابي : ولم ذلك؟ قال الغضبان : لأن إبليس يسمى حارثاً . قال الأعرابي : إني لأحسبك مجنوناً ، قال الغضبان : اللهم اجعلني من خيار الجن ، قال الأعرابي : إني لأظنك حرورياً . قال الغضبان : اللهم اجعلني ممن يتحرى الخير . قال الأعرابي : إني لأراك منكراً . قال الغضبان : إني لمعروف فيما أوتي ، فولى عنه وهو يقول :

إنك لبذخ أحمق وما أنطق الله لسانك إلا بما أنت لاق وعما قليل تلتف ساقك بالساق . فلما قدم الغضبان على الحجاج قال له أنت شاعر . قال : لست بشاعر ولكني خابر ، قال : أمعراف أنت ؟ قال : بل وصاف . قال : كيف وجدت أرض كرمان . قال الغضبان : أرض ماؤها وشل وسهلها جبل وثمرها دقل ولصها بطل ، إن كثر الجيش بها جاعوا وإن قل بها ضاعوا قال : صدقت . أعلمت من كان الأعرابي ؟ قال : لا قال : كان ملكاً خاصمك فلم تفقه عنه لبذخك . اذهبوا به إلى السجن فإنه صاحب المقالة تغد بالحجاج قبل أن يتعش بك . وأنت يا غضبان قد أنذرك خصمك على نطق لسانك ، ومن الذي به دهاك؟ قال الغضبان : جعلني الله فداك أيها الأمير ، أما إنها لا تنفع من قيلت له ولا تضر من قيلت فيه .

فقال الحجاج : أجل ، ولكن أتراك تنجو مني بهذا ؟ والله لأقطعن يديك ورجليك ، ولأضربن بلسانك عينيك . قال الغضبان : أصلح الله الأمير قد أزاني الحديد ، وأوهن ساقي القيود ، فما يخاف من عدلك البريء ، ولا يقطع من رجائك المسيء . قال الحجاج : إنك لسمين . قال الغضبان : القيد والرتعة ، ومن يك ضيف الأمير يسمن . قال : إنا حاملوك على الأدهم . قال الغضبان : مثل الأمير أصلحه الله يحمل على الأدهم والأشقر . قال الحجاج : إنه لحديد . قال الغضبان : لأن يكون حديداً خير من أن يكون بعيداً . قال الحجاج : اذهبوا به إلى السجن ، قال الغضبان : «فلا يستطيعون توصية ولا إلى أهلهم يرجعون» فاستمر في السجن إلى أن بنى الحجاج خضراء واسط ، فقال لجلسائه : كيف ترون هذه القبة ؟ قالوا ما رأينا مثلها قط . قال الحجاج : أما أن لها عيباً فما هو ؟ قالوا : ما نرى بها عيباً . قال : سأبعث إلى من يخبرني به ، فبعث ، فأقبل بالغضبان وهو يرسف في قيوده ولما مثل بين يديه قال له : يا غضبان كيف تبنى هذه ؟ قال : أصلح الله الأمير نعمت القبة حسنة مستوية . قال : أخبرني بعيبها . قال : بنيتها في غير بلدك ، ولا يسكنها ولدك ، ومع ذلك لا يبقى بناؤها ، ولا يدوم عمرانها ، وما لا يبقى ولا يدوم ، فكأنه لم يكن . قال الحجاج : صدق ، ردوه إلى السجن . فقال الغضبان : أصلح الله الأمير قد أكلني الحديد ، وأوهن ساقي القيود ، وما أطيق المشي . قال : احملوه فلما حمل على الأيدي قال : «سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين» . قال : أنزلوه . قال : «رب أنزلني منزلاً مباركاً وأنت خير المنزلين» . قال الحجاج : جروه . قال الغضبان وهو يجر : «بسم الله مجراها ومرساها إن ربي لغفور رحيم» . قال الحجاج : اضربوا به الأرض فقال : «منها

خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى» فضحك الحجاج حتى استلقى على قفاه ثم قال : ويحكم قد غلبني وا لله هذا الخبيث أطلقوه إلى صحفي عنه . قال الغضبان : «فاصفح عنهم وقل سلام» فنجا من شره بإذن ا لله وكانت براعته فيما انطلق على لسانه .

البناية الحادية عشرة: بناء السلطان مراد الرابع الكعبة

(الحادي عشر) ممن بنى الكعبة الغراء، السلطان مراد الرابع من سلاطين آل عثمان ، وستأتي صورته عند ترجمته في آخر هذا المبحث إن شاء ا لله تعالى . وقد بناها على صفة ما بناها الحجاج الثقفي سواء بسواء، بدون زيادة أو نقص . فلقد بقي بناء الحجاج للكعبة إلى زمن السلطان مراد الرابع، ثم هدمت بسبب السيل العظيم الذي دخل المسجد الحرام ، فبناها السلطان مراد المذكور في سنة (١٠٤٠) هجرية ، فكان بين بناء الحجاج وبين بناء السلطان مراد (٩٦٦) سنة ، وطبعاً قد حصل تعميرات وإصلاحات في الكعبة في بحر هذه المئات السنوات كما سيأتي بيانه في التعميرات الواقعة في الكعبة الشريفة .

وإليك صورة المسجد الحرام عند دخول هذا السيل العظيم فيه وتخريبه الكعبة المشرفة وهي صورة منقولة من كتاب "مرآة الحرمين" لأيوب صبري باشا التركي الذي ألفه باللغة التركية في ربيع الأول سنة (١٢٩٩) هجرية رحمه ا لله تعالى رحمة واسعة وهي هذه :

انظر: صورة رقم ٧٦، الكعبة وقد هدمها السيل سنة ١٠٣٩هـ

الخلاصة في كيفية بناء السلطان مراد الرابع

إن سبب عمارة السلطان مراد الرابع هو أنه في الساعة الثانية من صباح يوم الأربعاء التاسع عشر من شهر شعبان عام ألف وتسع وثلاثين ، نزل مطر عظيم بمكة المكرمة وضواحيها لم يسبق له نظير ، فدخل السيل المسجد الحرام ووصل إلى ارتفاع مترين عن قفل باب الكعبة . وفي عصر اليوم التالي أي يوم الخميس سقط الجدار الشامي من الكعبة بوجهيه ، وانجذب معه من الجدار الشرقي إلى حد الباب الشامي ، ولم يبق سواه وعليه قوام الباب ، ومن الجدار الغربي من الوجهين نحو

السلس ، ومن هذا الوجه الظاهر فقط منه نحو الثلثين ، وبعض السقف وهو الموالي للجدار الشامي .

ويقول محبنا وجارنا المؤرخ الثقة الشيخ عبدا لله الغازي الهندي المكي رحمه ا لله تعالى في تاريخه : وهذا الذي سقط من الجانب الشامي هو الذي بناه الحجاج الثقفي ، وسقطت أيضاً درجة السطح . اهـ كلامه ، فقوله هذا صحيح مطابق للحقيقة .

ثم أمر السلطان مراد رحمه ا لله تعالى ببناء الكعبة المشرفة ، فتم بناؤها في شهر رمضان سنة أربعين وألف على صفة بناء الحجاج رحمه ا لله تعالى ، فعمارة السلطان مراد للكعبة هي العمارة الأخيرة إلى يومنا هذا .

مميزات بناء السلطان مراد

ليس في بناء السلطان مراد الرابع الكعبة من شيءٍ يخالف البنايات السابقة حتى يمتاز عنها ، بل إنه بناها على الصفة التي كانت سابقاً وهي صفة بناء الحجاج الذي بناها كما بنتها قريش ، لكن لا بأس أن نذكر هنا طرفاً من كيفية بنائه لها لنمشي كما سبق على وتيرة واحدة . وهو هذا :

١- بنى السلطان مراد الكعبة كما كانت سابقاً سواء بسواء من غير زيادة شيء أو نقص منها أي بنى على الأساس السابق تماماً ، فإنه لما هدم بقية الكعبة لم يتعرض لهدم أصلها أبداً ، بل بنى على نفس الأساس الأول .

٢- كانت عمارة السلطان للكعبة سنة (١٠٤٠) هجرية .

٣- بين عمارة السلطان مراد وبين عمارة الحجاج للكعبة (٩٦٦) سنة .

٤- كان أول ما هدم من الكعبة بسبب السيل في آخر يوم الخميس عشرين من شعبان سنة (١٠٣٩) .

٥- كان ابتداء العمل في العمارة بعد تمام الهدم في ضحى يوم الأحد ٢٣ جمادى الثانية سنة (١٠٤٠) ففي هذا اليوم بني أساس بعض الجدران بحضور أمير مكة وكبار الناس . وسبب تأخرهم في الشروع في البناء اشتغالهم بإحضار الآلات والأدوات من الخارج فالمواصلات لم تكن كأيامنا هذه ، كما كانوا يشتغلون بتنظيف المسجد من آثار السيل وهدم الكعبة و لم تكن لديهم الآلات الميكانيكية لسرعة العمل .

٦- هدموا الكعبة كلها ، لكن لم يصلوا في الهدم إلى الأساس بل إلى المدماك الـذي على وجه الأرض ليكون العمل عليه حتى لا يزيد البناء ولا ينقص .

٧- هدموا باقي أحجار الأركان وما بينها ما عدا الحجر الأسود فقد أبقوه في محله و لم يحركوه عـن محله أبداً ، وذلك يوم الثلاثاء ثالث جمادى الثانية سنة (١٠٤٠).

٨- رفعوا حجر الركن اليماني الذي هو محل الاستلام ووضعوه داخل الستارة الخشبية التي أداروها على الكعبة ، وذلك في يوم الثلاثاء ثالث جمادى الثانية سنة (١٠٤٠) وفي هذا اليوم أيضاً قلعوا أحجار الشاذروان .

٩- نصبوا ساتراً من الخشب حول الكعبة ليشتغل العمال خلفها كما عمل ابن الزبير رضي الله عنهما ، وكان الشروع في عمل الساتر يوم الخميس ٢٦ من رمضان سنة (١٠٣٩) ، ثم في يوم الأربعاء غرة شعبان سنة (١٠٤٠) رفعوا جميع الستائر التي نصبوها حول الكعبة .

١٠- حصل استفتاء للعلماء في وضع الساتر حول الكعبة هل يجوز وضعه أم لا ؟

١١- استغرقت عمارتها نحو ستة أشهر .

١٢- كان الانتهاء من عمارة كل ما يتعلق بالكعبة في اليوم الثاني من ذي الحجة سنة (١٠٤٠) .

١٣- وضعوا الحجر الذي يستلمه الناس بالركن اليماني في محله الأول ، وذلك في يوم الاثنين غرة رجب سنة (١٠٤٠) .

١٤- أصلحوا ما حول الحجر الأسود إصلاحاً تاماً ، وكان البدء في إصلاح ما حوله يوم الثلاثاء التاسع من شهر رجب سنة (١٠٤٠) وتمام عمله كان في منتصف ليلة الجمعة ثاني عشر رجب من السنة المذكورة .

١٥- وأنهم لم يهدموا الكعبة إلى أساسها وإنما هدموا إلى المدماك الذي على وجه الأرض فقط ثم بنوا على هذا المدماك .

التفصيلات الوافية عن بناء السلطان مراد الرابع للكعبة

نحمد الله تعالى أن قيض لنا رجالاً من كبار العلماء كالعلامة الشيخ محمد بن علان المكي صاحب التصانيف القيمة في تقييد أعمال بناء السلطان مراد الرابع للكعبة يوماً بيوم حيث كان موجوداً في ذلك الحين بمكة ومعاصراً للسلطان

المذكور، فيحق لنا أن نطلق على البيانات التي سجلها العلامة المذكور وتناقلها المؤرخون «يوميات ابن علان المكي عن بناء الكعبة».

وهذه البيانات طويلة التفصيل تقع في أكثر من خمسين صفحة، لكن في ذكرها فائدة كبيرة، وليعلم العالم الشرقي والغربي شدة عناية المسلمين ببيت الله الحرام وبلده الأمين، من أول وضع البيت الشريف وتأسيسه إلى قيام الساعة، فسبحان الواحد القهار الذي بيده ملكوت السموات والأرض، والذي سخر من شاء لما شاء، فهو على ما يشاء قدير.

ولما كان الشيخ عبدالله الغازي رحمه الله تعالى ذكر هذه البيانات في تاريخه المسمى «إفادة الأنام بذكر أخبار بلد الله الحرام» وتاريخه هذا يعد من أوسع كتب التاريخ عن مكة المشرفة، وهو بين أيدينا نطالع فيه على الدوام، ولما كان المذكور رحمه الله تعالى صديقاً ومحباً لنا بل كان لنا بمثابة الوالد الشفوق، وكان يسكن معنا في محل واحد بباب الزيادة بمكة، فقد أحببنا نقل ما نحتاجه من تاريخه في غالب أبحاث كتابنا هذا.

فقد ذكر الغازي في تاريخه رحمه الله تعالى وأحسن جزاءه وألحقنا به على الإيمان الكامل غير مفتونين ولا فاتنين ما نصه:

وأما بناء السلطان مراد فسببه سقوط الجدار الشامي والجدار الشرقي إلى حد الباب، والجدار الغربي نحو ثلثيه من البيت الشريف، وكان ذلك بعد عصر يوم الخميس لعشرين من شعبان سنة تسع وثلاثين وألف.

قال العصامي: وفي يوم الأربعاء تاسع عشر شعبان سنة تسع وثلاثين وألف نشأت على مكة وأقطارها سحابة غربية مدلهمة الأهاب حالكة الجلباب، فلم تزل تجتمع إلى وقت الزوال، فأبرقت وأرعدت وأرخت غزاليها وأغدقت واستمرت تهطل ساعتين ودرجتين فأقبل السيل من سائر النواحي وثلم السد الذي يلي جبل حراء المسمى جبل النور ثلمة كبيرة، وعلا عليه فدخل المسجد الحرام وساق ما وجد على طريقه من جمال ورجال ومال وأحمال وغير ذلك، وأخرب الدور واستخرج ما فيها من الأثاث وغيره، وهدم غالبيتها، فامتلأ المسجد الحرام ماء وأهلك الرجال والأطفال، وكان أكثر الهالكين الأطفال الذين يقرؤون القرآن مع فقهائهم، وتعلق بعضهم بالأماكن المرتفعة، وارتفع على بعض السلاسل الحرمية، فوصل الماء إليهم وأهلك الجميع، وكان من هلك به خمسمائة من بني آدم خاصة

ومن الحيوان كثيراً . ثم بات المطر يهطل إلى نصف الليل ، فلما كانت آخر ساعة قبل المغرب من يوم الخميس العشرين من الشهر المذكور ، سقط جانب الحجر من البيت ، فسقط جميع ما بناه الحجاج منها ، ومن الجانب الشرقي إلى حد الباب ، ومن الجدار الغربي نحو النصف أيضاً ، و لله الأمر من قبل ومن بعد . انتهى.

وقال العلامة السنجاري رحمه الله في منائح الكرم : إنه في عام ألف وتسعة وثلاثين في دولة الشريف مسعود بن إدريس بن حسن بن أبي نمى والي مكة كان سقوط البيت الشريف ، وذلك أنه كان يوم الأربعاء التاسع عشر من شهر شعبان من السنة المذكورة وقع مطر شديد ودخل المسجد الحرام ، وأغرق أمة من الناس . قال الشيخ محمد علي بن علان الصديقي : ويقدر من مات في الليل والنهار نحو ألف إنسان ، وبات تلك الليلة السيل بالمسجد إلى الصبح ودخل البيوت وأخرج أمتعة العالم إلى أسفل مكة وبلغ الماء في الحرم إلى طوق القناديل .

قال الشيخ محمد المذكور : وكان ابتداء المطر في الساعة الثانية من اليوم المذكور وما زال المطر يكثر ويقل إلى قبيل العصر ، فاشتد ونزل مع المطر برد كثير ، قال ابن علان : وذكر لي بعض الناس أنه ذاق ماء ذلك البرد فكان مالحاً أو مراً ، ولما أن أصبح الصباح ثاني يوم المطر ، نزل مولانا الشريف وأمر بفتح سرب باب إبراهيم بحضرته و (السرب بفتحتين ، بيت في الأرض كما في المختار وهو ما نسميه اليوم بالسرداب) وخرج الماء إلى أسفل مكة . فلما كان عصر يوم الخميس قبيل الغروب نهار عشرين من شعبان سقط الجانب الشامي من الكعبة بوجهيه ، وأخذ معه من الجدار الشرقي إلى حد الباب ، ومن الغربي من الوجهين نحو السدس . هذا والذي سقط من الجانب الشامي هو الذي بناه الحجاج بن يوسف الثقفي ، وكانت لها وقعة عظيمة مهيلة ، فنزل مولانا الشريف مسعود بنفسه وأمر بالتنظيف وإفراز الحجارة بعد أن رفع الميزاب وما وجده من قناديل الذهب المعلقة ، وكانت عشرين قنديلاً ، أحدها مرصع باللؤلؤ وغيره من المعادن ، ووضعت في بيت الشيخ جمال الدين بن قاسم الشيبي الحجبي ، بعد أن ضبط ذلك بحضرة صاحب مكة ، فأخذه إلى منزله بالصفا وهو من أوقاف السلطان مراد خان على الحجاز ، فوضعه في مخزن وختم عليه بخاتم صاحب مكة مولانا الشريف مسعود ، وأجلس عليه حرساً كل ذلك قبل الغروب .

حزام الكعبة الذي أرسله السلطان أحمد خان

قال العلامة أحمد الأسدي رحمه الله في أخبار الكرام : وحصل قبل ذلك بسنين عديدة تشقق بالجدار الشامي ثم ازداد في زمن السلطان أحمد والد السلطان مراد فرفع إليه ذلك ، وأنه يحتاج للتعمير ، فأرسل حينئذ السلطان أحمد حزاماً يشد به البيت الشريف وأنفق عليه نحو ثمانين ألف دينار . وذكر السيد أحمد دحلان في السالنامة الحجازية إن السلطان أحمد بن السلطان محمد بن مراد بن سليم الثاني بن سليمان بن سليم اللدول فاتح مصر ، أراد أن يجعل حجارة الكعبة المعظمة ملبسة واحداً بالذهب وواحداً بالفضة ، فمنعه شيخ الإسلام المولى محمد بن سعد الدين ، وقال له : هذا يزيل حرمة البيت ، ولو أراد الله سبحانه وتعالى لجعله قطعة من الياقوت فكف عن ذلك . انتهى .

وذكر السنجاري أيضاً في حوادث سنة ألف وعشرين قصة الحزام الذي أرسله السلطان أحمد خان مفصلاً فنذكرها أولاً ثم نذكر بناء البيت الشريف من الكتاب المذكور ، قال رحمه الله : وفي أيام السلطان أحمد خان وقع عمل نطاق الكعبة المشرفة ، وملخص ذلك كما ذكره شيخ مشائخنا العلامة شهاب الدين أحمد بن علان الصديقي ، أنه لما بلغ حضرة السلطان أحمد خان ما أصاب الجدارين الشرقي والغربي وجدران الحجر من التصدع أراد هدم البيت الشريف ، فمنعه من ذلك علماء الروم ، وقيل له يمكن حفظ هذه الجدران بنطاق يلم هذا التشعث ، فجعلوا النطاق من النحاس الأصفر وغلفوه بالذهب مكتوب فيه بالرسم « لا إله إلا الله محمد رسول الله » وفي بعضها « لا إله إلا الله محمد حبيب الله » إلى غير ذلك من الألفاظ الحسنة والآيات الشريفة مثل « حسبنا الله ونعم الوكيل » ووصل به أمير الحاج المصري سادس ذي الحجة الحرام سنة ألف وعشرين ، فأمر مولانا الشريف بأن يتلقى ذلك علماء مكة ورؤساؤها ومشائخ زواياها من الحجون بعد صلاة العصر ، فتوجهوا إلى ذلك المحل ولاقوا الجمال المحملة للنطاق . فإن أمير الحاج جعل النطاق في صندوق من خشب وحملوه على صفته المحفة بين جملين ، فدخلوا بهم مكة بعد صلاة العصر على أربعة وعشرين بعيراً والزفاف بين أيديهم والعلماء أمامهم حتى وصلوا به إلى باب السلام ، وكان الشريف قد أمر بفراغ دار الميرزا مخدوم لرئيس العمارة حسن باشا ، فنزل الدار المذكورة ووضعت الأحمال ببيت الله الحرام يوم السابع ، ثم رفعت إلى قاعة الكتب من دار الشيخ

عبدالكريم القطبي عند باب الفهود ، وحضر قاضي مكة السيد محمد وقاضي المدينة إسماعيل ، وقاضي بيت المقدس سابقاً العلامة القاضي المنقاري المقدسي ، وشيخ الحرم إسماعيل آغا ، وأمين جدة محمد بيك ، وأمراء الحج الثلاثة المصري والشامي واليماني ، ومفتي السادة الحنفية الشيخ عبدالرحمن المرشدي وأخوه القاضي أحمد ، والقاضي نجم الدين المالكي ومفتي السادة الشافعية محمد بن علان . وجاء فاتح البيت الشريف وفتح البيت فدخل المعمار ورأى الخلاف وخرج واستأذن الشريف فيما جاء بصدده ، فأذن له الشريف بقوله : ما أمركم به السلطان فافعلوه لا آمركم ولا أنهاكم ، وفي الثاني والعشرين من ذي الحجة من السنة المذكورة شرعوا في تركيب هلال المنبر وكانوا قد وصلوا به وبقنديل الكعبة وميزاب جديد من حضرة الأبواب العالية ، وكان أعلا المنبر مبنياً بالآجر ، فهدم ذلك وجعلوا له ألواحاً ركبت فيها بالفضة المطلية بالذهب وتم عمله في الرابع والعشرين من ذي الحجة ، وفي اليوم الخامس والعشرين منها فتحوا الكعبة ووضعوا الميزاب الجديد على العتيق وشدوه ربطاً ، وفي الحادي والعشرين ركبوا السقايل حول الكعبة وذبح المعمار أربعين شاة وتصدق بها عدد أبواب المسجد الحرام ، وشرعوا في النطاق السفلي ليلة السبت ثاني محرم سنة ألف واثنين وعشرين وأتموه في الليلة بعده ووضعوا له أعمدة ركبوا أسفلها في الشاذروان بالرصاص ، وفي ليلة الأحد شرعوا في النطاق العلوي إلى أن أتموه . انتهى .

رجوع إلى قصة بناء البيت ، قال السنجاري : ولما كان يوم السبت ثاني عشرين شعبان نزل مولانا الشريف إلى الحرم واجتمع إليه علماء البلد وحضر أعيان الناس وحضر حسين آغا الشاوش من قبل صاحب مصر محمد باشا فوقع السؤال من مولانا الشريف عن عمارة ما وهي من الكعبة المشرفة هل يؤمر بالمسارعة إلى عمارتها ويعمر في الحال ولي الأمر الذاب عن سرحها ؟ ومن أي مال يكون التعمير ، بمال قناديل الكعبة أم بمال غير ذلك ؟ وكان من حاضري المجلس الشيخ خالد البصري المالكي والقاضي عبدالله بن أبي بكر الحنبلي ، والقاضي أحمد بن عيسى المرشدي الحنفي وغيرهم من علماء مكة ، فانعقد رأي الجماعة بالمبادرة بعمارتها من مال الكعبة ويعرض الأمر على الأبواب ولا يمنع أحد من المسلمين أن يعمرها من ماله إذا لم يكن فيه شبهة وأن ذلك لا يتوقف على العرض على السلطان . ولما أجمع رأي الحاضرين على هذا أمر مولانا الشريف أن يكتب صورة سؤال ويضع العلماء عليه خطوطهم ليبعث به إلى الأبواب ثم قاموا من ذلك

المجلس وفرش لهم بساط في باب الرحمة ، قال في تحصيل المرام : الآن يعرف هذا الباب بباب الشريف ، لأن الشريف سرور كان يخرج من هذا الباب إلى بيته الذي بأجياد ، وطلبوا مني كتاب الشيخ أحمد بن حجر الهيتمي المسمى بالمناهل العذبة في إصلاح ما وهي من الكعبة فأحضرته لهم فأخذ مولانا الشيخ تاج الدين المالكي وجلس يقرأه عليهم عشرة أيام والحاضرون يسمعونه فلما وصلوا إلى المطلوب كتبوا سؤالاً كما قلناه أولاً من المبادرة إلى العمارة بمن له على الحرمين الشريفين إمارة وأن ذلك يعمر من مال البيت الشريف ويكتب بذلك الواقع إلى الأبواب ، قال ابن علان : ثم ظهر لي أن المخاطب بالعمارة إنما هو سلطان الزمان وناشر العدل والأمان سلطان الإسلام والمسلمين وكان إذ ذاك مولانا السلطان مراد خان أعزه الله ، فراجعت بعض الفقهاء المفتين وعرضت عليه ما يؤخذ منه ذلك فأبى الرجوع ، فرجعت عما رأيته من الأمر الموافق لهم وألغيت الرسالة المسماة بنشر ألوية التشريف بالإعلام والتعريف عمن له عمارة ما سقط من البيت الشريف ، فاتفق أن مولانا الشريف أمر بتغيير السؤال لأمر اقتضى ذلك ، فغير بعبارة أخرى وكتب الجماعة كما كتبوا أولاً وكتبت عليه والمخاطب بهذا العرض إلى عمارة الكعبة الغراء سلطان الإسلام المكرم مولانا السلطان مراد خان ثم نائبه مولانا الشريف ، وهذا السؤال وما معه من العروض أرسل صحبة أحمد جادوش من جماعة حسين آغا ومعه النوري علي سنجقدار اليمن ، وكان خروجهم يوم الاثنين الرابع والعشرين من شعبان . وفي يوم الثلاثاء الثاني والعشرين من رمضان ورد من مصر آغا ومعه النوري علي سنجقدار اليمن وأخبرا بوصول الآغا رضوان بيك معمار أعلى المسجد وأنه خلفه ، فدخل رضوان بيك ومعه السيد هيزع ومعه قفطان لمولانا الشريف وذلك ليلة الجمعة خامس عشرين رمضان . قال ابن علان : فأحيط على الكعبة بخشب وخصت وألبست ثوباً من الدولي الأخضر فوق الخشب والخصف وكان إلباسها لهذا الثوب سابع شوال من السنة المذكورة وصار الناس يطوفون حوله على هذه الحالة بعد أن توجه القاصد بالخبر على الأبواب السلطانية .

قال من الأرج المسكي : أرسل الشريف مسعود إلى جدة لتحصيل خشب يجعل على الكعبة لسترها إلى أن يشرعوا في العمارة ، فوصل الخشب من جدة في آخر شهر رمضان وحصلوا خشباً آخر من مكة وستروا جميع ما سقط منها وجعلوا باباً لطيفاً من خشب في الجهة الشرقية . انتهى .

قال العلامة الحلبي في السيرة : ولما وصل الخبر إلى صاحب مصر جمع العلماء والفقهاء وعرض عليهم ذلك فاتفق رأيهم على المبادرة بعمارته وتعين لذلك من الصناجق رضوان بيك المعمار ، فورد مكة صحبة مولانا السيد محمد أفندي قاضي المدينة المنورة وقد عين لذلك .

قال الإمام علي بن عبد القادر الطبري في تاريخه : إن الأمير رضوان بيك دخل مكة يوم السابع عشر من شوال ومعه القفطان ودخل السيد محمد المذكور في سادس عشر ربيع الثاني متولياً قضاء المدينة وعمارة الكعبة وكان وروده مكة من البحر ومعه قائمة سلطانية وخلعة عثمانية فقرأت القائمة بالحطيم وحضر مولانا قاضي مكة والسيد عبدالكريم بن إدريس نائب مولانا الشريف . ثم طلعوا بالخلعة إلى مولانا الشريف فلبسها بالمعابدة لمرض منعه من الظهور والحضور . انتهى .

ولما كان ليلة الثلاثاء من عشرين ربيع الثاني انتقل مولانا الشريف مسعود إلى رحمة الله ودفن بالمعلاة بقبة السيدة خديجة رضي الله عنها ، وتولى مكانه الشريف عبدالله بن حسين بن نمي ، هذا هو جَد العبادلة وبه يسمون العبادلة وذوي عبدالله ، فخلع عليه الأمير رضوان بيك قفطان الولاية بنظر القاضي محمد قاضي المدينة ، ولما كان يوم السبت ثالث عشر جمادى الثانية وقيل يوم الجمعة سابع عشر جمادى الأولى حضر مولانا القاضي ورضوان بيك المعمار والمعلم علي بن شمس الدين المكي المهندس والمعلم محمد علي بن زين الدين وأخوه المعلم عبدالرحمن ، فعرض عليهم بناء الكعبة المشرفة ، فالتزموا بناءها على الوجه الأكمل ، فسجل القاضي ذلك عليهم ، ثم ذكر المعلم محمد علي بن زين الدين أن مراده نصب أخشاب حول البيت ويجعل عليها ستوراً يمنع من مشاهدة الهدم ، فاختلف رأي الحاضرين فمنهم المبيح ومنهم المانع ومن المانعين الشيخ محمد بن علان وله رسالة في منع وضع الساتر لوجه الكعبة . وانقضى المجلس على الاتفاق على نصب الساتر ، وأفتى بالجواز جماعة من الأعيان : كالشيخ خالد المالكي والشيخ عبدالعزيز الزمزمي مفتي الشافعية وغيرهما . انتهى .

صورة الاستفتاء الذي قدمه رضوان آغا لعلماء مكة الأعلام

كما ذكره العلامة أيوب صبري في مرآة الحرمين

ما قولكم، رضي الله عنكم ونفع بعلومكم المسلمين في بناء البيت الشريف زاده الله شرفاً وكرماً، هل يجب ستره عن أعين الناس لأجل البناء والفعال حفظاً للحرمة ورعاية لزيادة الأدب وإن ضاق الحال بالطائفين على وجه أفضل، أم يجوز بناؤه مكشوفاً من غير حائل وسترة لأجل أن ذلك فيه كمال الرفق بالمعلمين والبنائين من حيث التمكن من البناء على وجه المطلوب؟ وهل الستر من حيث هو واجب أم مندوب مستحب أم كيف الحال؟ بينوا لنا ذلك.

جواب الشيخ أحمد بن محمد آق شمس الدين المدرس الحنفي

الحمد لله ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا، لا ريب في كون ستر البيت الشريف زاده الله شرفاً وتعظيماً حال بنائه مندوباً إليه وذلك غير مانع عن حصول كمال فضيلة الطواف ولا يمنع أيضاً من المشاهدة، وأما بناؤه مكشوفاً من غير سترة فغير لائق بوجه من الوجوه وليس هو من الأدب، والله سبحانه وتعالى أعلم وهو المسئول أن يستر عيوبنا ويغفر ذنوبنا.

حرره الفقير أحمد بن محمد آق شمس الدين المدرس الصديقي الحنفي.

جواب الشيخ خالد بن أحمد المالكي

الحمد لله ستر البيت عن أعين الناظرين حال بنائه مندوب ندباً متأكداً لا واجباً والطواف وراء الستر ليس هو مفضولاً، بل الستر قام مقام البيت فلا يمنع من كمال فضيلة الطواف بل ولا يمنع من المشاهدة لأن كسوة البيت جعلت لمنع أعين الناظرين إليها وهذا الستر كذلك بل هذا آكد لأن النظر إلى البيت حال بنائه أفظع من النظر إليه مستوراً، والله سبحانه وتعالى أعلم.

نمقه الحقير إلى الله خالد بن أحمد بن محمد بن عبدالله المالكي الجعفري.

جواب السيد زين العابدين بن عبد القادر الطبري الشافعي

الحمد لله ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ، ستر البيت الشريف عند الشروع في بنائه بل وعند الشروع في مقدمات ذلك كهدم ما يحتاج إلى هدمه منه مندوب إليه ومما ينبغي وليس بواجب وذلك لاقتداء بفعل عبدا لله بن الزبير رضي ا لله عنهما ، ومن كان في عصره من أجلاء الصحابة ، رضي ا لله عنهم ، فإنه لما أن عمر الكعبة الشريفة جعل عليها ساتراً بإشارة عبدا لله بن عباس رضي ا لله عنهما ، وقد نقل ذلك العلامة الأزرقي في عدة مواضع من تاريخه فقال في أثناء باب ما جاء في بناء ابن الزبير للكعبة ما نصه : فهدموا وأعانهم الناس فما ترجلت الشمس حتى ألصقها كلها بالأرض من جوانبها جميعها وكان هدمها يوم السبت للنصف من جمادى الآخر سنة أربع وستين ولم يقرب ابن عباس مكة حتى هدمت الكعبة وحتى فرغ منها وأرسل إلى ابن الزبير لا تدع الناس بغير قبلة وانصب لهم حول الكعبة أخشاباً واجعل عليها الستور حتى يطوف الناس من ورائها ويصلوا إليها ففعل ذلك ابن الزبير . انتهى .

وقال في موضع آخر ما نصه : وكان البناؤون ينون من وراء الستر والناس يطوفون من خارج . انتهى .

وقال في موضع آخر ما نصه : ونصب الخشب حول البيت ثم سترها وبنوا من وراء الستر . انتهى .

فهذه النصوص كلها صريحة في أن الساتر المذكور مندوب إليه وليس فيها دلالة على أنه إنما كان عند الشروع في البناء بل يحتمل أنه جعل عند الشروع في مقدمات ذلك كالهدم وهو الظاهر اللائق بحرمة البيت الشريف التي أمرنا بها ولا شك أنه لو هدم وبني من غير وجود ساتر بينه وبين الأعين لسقطت هيبته من قلوب كثير من الناس ممن لا ينظر إلا إلى الصور ويترتب عليه هتك حرمته . وقد أجمع العلماء على استحباب كسوة الكعبة واستمرارها عليها والقصد من ذلك سترها عن الأعين لما يلزم على عدمه من المحذور المذكور فليكن هذا الساتر كذلك بل أولى لأن رؤية الكعبة المشرفة منهدمة منشقة أفظع من رؤيتها مجردة عن أثوابها ومن زعم أن الساتر المذكور مما لا ينبغي فعله فقد حاد عن طريق الصواب وأخطأ من وجوه عديدة لا يسعها هذا الجواب ، وا لله سبحانه وتعالى أعلم .

حرره الفقير زين العابدين بن عبدالقادر الحسيني الطبري الشافعي أمام المقام الشريف .

كذا في مرآة الحرمين لأيوب صبري قال السنجاري : ثم وقع اجتماع ثاني بالحطيم مع جملة الأعيان المذكورين وسأل مولانا الشريف عبدا لله بن حسن في هدم الجدار اليماني فإنه كان قائماً فدار الكلام ثم اقتضى الحال بالإشراف عليه من خلف الخشب والإشراف على بقية الجدران فأشرف غالب الجماعة ومعهم مولانا الشريف ونصب المعلمون الميزان فوجدوه خارجاً عن الميزان قدر أربعة أذرع فاقتضى رأي الجماعة إلى هدم بقية الجدارين الشرقي والغربي ثم ينظر في اليماني فإن زاد في الميل هدم وإلا فلا ، وانصرف الناس على هذا الرأي بعد أن سجل ذلك وبعد يومين من هذا المجلس رفع سؤال إلى العلماء مضمونة إذا شهد المهندسون بخراب الجدر اليماني هل يهدم أم لا ؟

صورة الاستفتاء الذي قدمه رضوان آغا لعلماء مكة

بخصوص هدم الجدار اليماني كما ذكره العلامة أيوب صبري في مرآة الحرمين

ما تقول السادة العلماء أئمة الدين ومرجع الخاص والعام من المسلمين وقطع بوجودهم دابر المفسدين وعمر بهداهم شعائر الإسلام للمهتدين في الجدار اليماني من البيت الشريف زاده ا لله تشريفاً وتعظيماً ، الذي يظهر في بادي النظر للعوام أنه مستقيم والحال أنه مائل داخل أعلاه وبارز أسفله من رأس الركن الذي على الحجر الأسود إلى المدماك الذي تحت الحجر الأسود نصف ذراع ومن نحو نصف الجدار المذكور ذراع كامل ومن محل وصول الميزان في المدماك المذكور إلى أرض المكان قدر الميل ثلث ذراع أيضاً فيكون الميل من رأس الركن إلى أرض المطاف نصف ذراع وثلث ذراع ومن قرب الحجر الأسود المحل الثاني في الوزن ذراع كامل ومن المحل الثالث في الوزن الذي بالقرب من وسط الجدار ذراع وثلث ، كل ذلك بذراع القماش الحديد وقد ظهر كل ما ذكر أعلاه من الميل في الأماكن الموزونة بالمشاهدة لكل من حضر من العلماء والمهندسين والمعلمين وغيرهم ، وشهد أرباب الخبرة من المهندسين والمعلمين والعارفين ببناء عقارات الجدار المذكور وما كان مثله خصوصاً من المنحوت إذا مال نحو سدس ذراع يجب هدمه ولا يجوز بقاؤه سواء كان ذلك في محل مملوك أو محل موقوف أو مال يتيم وإنهم

يوجبون ذلك وذكروا أن هدم الجدار اليماني من البيت من أوجب الواجبات لما في هدمه من المصالح الواجبة في تعظيم البيت الشريف زاده الله تعالى شرفاً ولما في بقائه من خلاف ذلك نعوذ بالله منه فهل يجوز لمن له ولاية العمارة من جانب السلطنة العثمانية خلد الله دولتها وأيد صولتها أن يهدم هذا الجدار اليماني المذكور ليقيمه ويقيم بناء البيت الشريف جميعه على الوجه الذي يليق به من إتقان العمارة وتحسينها الواجب ذلك في حق البيت الشريف زاده الله تعالى مهابة وتكريماً وزاد من عظمه وأكرمه تشريفاً وتعظيماً أم لا يجوز ذلك والحال ما ذكر أم كيف الحال؟ بينوا ذلك بياناً شافياً أثابكم الله الجنة بمنه وجزاكم عن الإسلام والمسلمين خيراً .

جواب الشيخ خالد بن أحمد المالكي

حيث كان الحائط المذكور بالصفة المذكورة عن العدول المذكورين في السؤال وأرباب الخبرة من أهل الصناعة وغيرهم فهدمه وتجديده أولى بل متعين لأنه أحق من الهدم الصادر من سيدنا عبدالله بن الزبير لأن قضية ابن الزبير كانت محتاجة إلى الترميم فقط كما أشار إليه هو رضي الله تعالى عنه وهذه محتاجة إلى الهدم والبناء سيما مع الانهدام والهدم الكائنين في الثلاثة الأرباع إذ ابن الزبير رضي الله عنه ومن خالفه في القضية يقولون بالهدم في قضيتنا أولى والله سبحانه وتعالى أعلم ..

نمقه الفقير خالد بن أحمد بن محمد بن عبدالله المالكي الجعفري .

جواب الشيخ عبدالعزيز بن محمد الزمزمي الشافعي

الحمد لله ولا حول ولا قوة إلى بالله حيث كان الجدار المذكور من البيت الشريف زاده الله تعالى تشريفاً وتعظيماً بالجملة المشروحة في السؤال المشاهدة للعمل من الرجال وشهد بخرابه أرباب الخبرة الموثوق بهم في كل حال الذي يغلب على الظن فيهم عدم تهمته في هدم ما كان حالي من البقاء ولا غرض لهم في تخريب أدنى جزء منه خوفاً من الله يوم اللقاء فهدمه بعد تحقق ما ذكر جائز بل واجب على من فوض له السلطان الأعظم خلد الله سعادته وأيد سيادته وأقام به شعائر الدين وقطع بسيطه رقاب المعتدين عمارة بيت الله العظيم وإعادته على الأسلوب القديم وبناء جدرانه على ما كانت عليه وإحكامها بكل وجه يمكنه

التوصل إليه فذلك من أعظم شعائر الإسلام وبقاء ما كان خراباً منه على حاله مع إمكان إزالته من موجبات شرور الفجرة الطغام وقد صرح علماؤنا رضي الله عنهم بجواز هدم ما تحقق خرابه من البيت الحرام وما نصوا عليه لا يجوز مخالفته ومن خالف أقوال العلماء كان ممقوتاً عند الله وخلقه أعاذنا الله من ذلك وسلك بنا أحسن المسالك والله سبحانه وتعالى أعلم .

حرره الفقير عبد العزيز بن محمد الزمزمي الشافعي

جواب الشيخ أحمد بن محمد آق المدرس

الحمد لله ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا ، لا ريب في أن الواجب على كل مسلم تعظيم هذا البيت الشريف زاده الله من التعظيم والتكريم والتبجيل والتشريف وقد شاهدنا نحن والجم الغفير من العلماء والولاة حقيقة ما ذكر في السؤال من الجواب و لم يزل يبلغنا كل يوم الثقاة السالكين منهم الصواب أنه يتداعى إلى السقوط ما لم يتداركه أمره مع شهادة المعلمين الموثوق بهم بخرابه وبقاؤه من بنائه إلى حال سقوطه ألف عام إلا خمسة وعشرين عام أو في معجزة ولما أراد الله خرابه خرب وإذا تحقق ما ذكر و لم يكن إبقاء شيء منه على حاله بمال وجب هدمه بغاية الإجلال والإعظام ومزيد التوقير والاحترام وشكرت مساعي من فوضت إليه هذه الخدمة الجليلة المقدار من قبل من فوض له ذلك مولانا السلطان العظيم الفخار دامت سلطنته العظمى ما دام الفلك الدوار ويجتهد على عمارته وإعادته على الأسلوب الحسن وبناء جدرانه على ما كانت عليه مهما أمكن وغير لائق البقاء ما كان خراباً على حاله مع إمكان إزالته وقد نص العلماء على جواز هدم ما تحقق خرابه من البيت الشريف إذا لم يكن بقاؤه نسأل الله تعالى أن يوفقنا ومن تشرف بهذه الخدمة إلى ما يحبه ويرضاه ويكون عوناً لكل منا في أولاه وأخراه وأن يرينا الحق حقاً ويرزقنا اتباعه ويرينا الباطل باطلاً ويوفقنا لاجتنابه . والله أعلم.

نمقه الفقير أحمد بن محمد بن آق شمس الدين المدرس الصديقي الحنفي السهروردي .

جواب الشيخ عبدالله بن أبي بكر بن ظهيرة القرشي

الحمد لله ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب . نعم جوابي كذلك سلك الله بالقائم بخدمة هذا البيت الشريف أحسن المسالك .

الفقير الحقير عبدالله بن أبي بكر بن ظهيرة القرشي الحنبلي . انتهى ما في مرآة الحرمين .

قال ابن علان : وفي ضحى يوم السبت خامس عشرين جمادى الأول فتح مقام إبراهيم ووضعت فيه الكسوة الشريفة وفي يوم الأحد سادس عشرين شهره وصلوا في الهدم إلى باب الكعبة فرفعوا الباب ووضعوه في بيت السيد محمد أفندي شيخ حرم المدينة المشرفة . وفي ضحى يوم الأحد ثالث عشر جمادى الآخر رمى أساس الجدار الشامي وبعض أساس الجدار الغربي مما يلي الحجر ، بكسر الحاء ، وحضر صاحب مكة مولانا السيد عبدالله بن حسن وغيره من الأعيان وباشر مولانا الشريف شيئاً من العمل وتبعه الأعيان في ذلك ، وفي هذا اليوم وضعوا عتبة الباب ثم شرعوا في البناء وهيئت القراءة في المقامات الأربعة وذبح ثور وكبشين على باب السلام وكذا على باب الصفا وكذا على باب الزيادة وكذا على باب إبراهيم . وفي يوم الأحد غرة رجب وضع الحجر اليماني في ركنه بعد أن صمخ بالعنبر والمسك وبخر بالعود. وفي السابع من رجب حضر مولانا الشريف وبعض أبناء عمه وجملة من الأعيان وأرباب العمارة وأرادوا قلع الحجر الأسود لتمكينه في محله على وجه الكمال ، فما أمكن ، وغاية ما قدروا عليه رفع الحجر الذي فوقه وأخبرني مولانا الشيخ عبدالعزيز الزمزمي وكان حضر هذا المجلس معهم أنه رأى باطن الحجر وأن لونه أشهب وأنه مربع كتربيعة مفتاح الدار . وفي التاسع من رجب جعلوا أخشاباً ستروا بها ما حاذى الحجر الأسود ثم أخرجوا الحجر الأعلى ونقلوه إلى محل آخر وأخذ المعلم عبدالرحمن بإصبع الحديد ما أطاف بالحجر مما كان عليه من الفضة والجير والخارج يتلقاه السيد محمد بن الشريف عبدالله صاحب مكة بمحرمة في يده فبينما هم كذلك وكان من بيده المعول قرض بلا تأن فإذا الحجر الأسود تشظى نحو أربع شظايا من وجهه وتفارقت منه وكادت أن تسقط فعند ذلك حضر السيد محمد علي بن بركات فلما رأى ما أهاله من الأمر

الشديد، قال : يا أمة الإسلام إن أخرج الحجر الأسود تفرقت أجزاؤه ولا والله تقدرون على ضمها وجمعها ويترتب على ذلك أمر عظيم أصلحوا هذا الذي انزعج منه . فقال المعلم محمد بن شمس الدين : الحجر الذي عليه الحجر الأسود خارج وفي بقائه خلل لأنه ركن البيت وعليه عتبة الباب فأمر ناظر العمارة للمعلم ابن شمسٍ الدين باتباع قوله وهو مصمم على رفع الحجر عن مكانه، ثم وافق على ذلك قهراً ثم شرعوا في إصلاح ما تكسر منه وإلصاقه وأصلحوا ما خرج منه بعد تعب كثير، وكان إتمام العمل ليلة الجمعة بعد مضي نصفها، وبعد إتمام العمل رفعوا الأخشاب المانعة من تقبيل الحجر الأسود وأسفر الحجر عن محياه وقبله المسلمون وحياه . وفي خامس عشرين رجب أزيل الخشب الساتر لوجه البيت فظهرت جهة الباب، وفي غرة شعبان وكان يوم الأربعاء رفع جميع الساتر وفي ثاني شعبان ركبوا الميزاب في سطح الكعبة وحضر لتركيبه جماعة من الأكابر، وبعد النصف من شعبان شرعوا في تركيب السقف الأول إلى أن تم، ثم شرعوا في تركيب السقف الثاني فتم يوم السبت سادس عشرين شعبان، وفي ضحى يوم الجمعة غرة رمضان ألبست الكعبة الشريفة ثوبها، وكان ذلك بعد الشروق، وفي يوم الاثنين رابع رمضان أتموا ترضيم سطح الكعبة، وفي يوم الثلاثاء ثاني عشر رمضان شرعوا فيٍ هدم ظاهر الحجر، بكسر الحاء، ثم شرعوا في ترميم الحرم وإصلاحه إصلاحاً تاماً، وما هل هلال ذي القعدة إلا وقد تم إصلاح جميع الحرام ولله الحمد . وانتهى العمل في عشر من ذي القعدة وفرشت الحصبا وحصل السرور لجميع أهل الإسلام، بذلك انتهى ملخصاً من رسالة الإمام علي بن عبدالقادر الطبري ذيل بها كتاباً له سماه الأقوال المعلمة في وقوع الكعبة المعظمة . انتهى ما في منائح الكرم .

وقال الطبري في الإتحاف : وفي تاسع شوال تخلخلت أحجار أخرى وتحركت الفضة التي فيها فجاؤا بالمعلم محمود الدهان الساكن برباط ربيع فنظر بعد رفع الفضة فإذا الحجر التصقت أجزاؤه وتحتها خلا بحيث من أراد قلع بعضه تمكن من ذلك، فصنع مركباً ملأ به ما اتصل به من الخلل بين الحجارة وعمل ذلك بعد صلاة الظهر إلى ما بعد الصلاة منه في يومين، وفي أول ذي الحجة عند الظهر دهن الحجر بدهان وطلاه بالسندورسٍ فصلح متخللة، وفي يوم العشرين من ربيع الثاني من السنة المذكورة عمل فيه عملاً يسيراً وأصلح ما يحتاج فيه الإصلاح كل ذلك بعمل محمود الدهان . انتهى .

ورأيت رسالة للشيخ محمد علي بن علان الصديقي الشافعي في عمارة البيت الشريف المسمى بأنباء المؤيد الجليل مراد ببناء بيت الوهاب الجواد ، فأحببت أن ألخص منها أشياء من هذا الموضع فإن فيها فوائد لم يذكرها المؤرخون .

قال الشيخ ابن علان رحمه الله : سقط من البيت الشريف الجدار الشامي بوجهيه وانجبد معه من الجدار الشرقي إلى حد الباب الشامي و لم يبق سواه وعليه قوام الباب ومن الجدار الغربي من الوجهين نحو السدس ومن هذا الوجه الظاهر فقط منه نحو الثلثين وبعض السقف وهو الموالي للجدار الشامي وسقطت درجة السطح وكان سقوطه كذلك بعيد العصر يوم الخميس العشرين من شعبان سنة تسع وثلاثين وألف ، ونقل ما فيها من القناديل إلى بيت السادن وعلق باقي أخشاب سقفه خوفاً عليه من السقوط . واستمرت أبنية الكعبة الباقية على ما هي عليه لم يجعل في محل الساقط ما يستر الباقي من أخشاب ونحوها حتى تكرر دخول البس بالحمام اللاتي تقصدنها من المسجد إلى داخل الكعبة وتنجيس أرض الكعبة بدماء الحمام وتقذير أرضها بفضلات الحمام من الريش والأرجل . فلما تكرر ذلك وتكرر الكلام منا مع غير واحد من جماعة الشريف ومن غيرنا أيضاً أمر صاحب مكة بعد أن استعان على ذلك بإغاء جدة ، فأرسل له بأعواد وآلات أخر وأمر أن يستر ذلك ، فجاء مهندس مكة علي بن شمس الدين بأخشاب من جذوع النخل وقطع نصف العرض من طرف الجذع ووضع رأس كل في رأس الآخر وربطه بالزواير ثم بالمسامير الحديد وجعله تحت الشاذروان ونقر فيه لأخشاب سواص وزنانير سمرها في هذه الأخشاب وجعلها أطواقاً ثلثة تطيف بالكعبة لتمسكها وصفح ما بين أعواد السواص من جهة الجدار الساقطة إلى أعلا البيت وستر به البيت كله ، وكان شروعهم في ذلك يوم الخميس ٢٦ من رمضان في صبح النهار وإتمامه في يوم الأحد ٢٣ من شوال وصبغوا لذلك ثوباً دولياً صبغوه بالأخضر وركبوا فيه الطران الذي كان على الكعبة بعد أن وصلوه وخيطوه بمكانه وألبسوه الكعبة صبح يوم الخميس لسابع شوال .

وقد ألفت لهذا العمل مؤلفاً خاصاً سميته فتح الكريم الفتاح في حكم ما سد به البيت الحرام من حصر وخشب وألواح ، وبينت فيه عملهم البنيان وعدد الأعواد وبيان أصحابها والحصر المسدود بها باقي العمل وأصحابها . وكل ذلك أيضاً مبسوط في تاريخنا الكبير ونقتصر في هذه العجالة على التلخيص وزبد المقالة .

وفي يوم الثلاثاء ٢٢ من شوال وصل من الديار المصرية ومعهم قاصد من العرب صحبته الذي أرسله صاحب مصر ليعمل السد المذكور الذي عمله صاحب مكة إلا أنه من أصل البيت من غير زيادة أصلاً وهو رضوان آغا ، وصحبته السيد علي بن هيزع وجماعة آخرون هجانون ومع الآغا رضوان قفاطين السلطانية وبراءات خاقانية لصاحب مكة بتوليته شرافة مكة والمدينة وأعمالهما وكان دخوله بمكة يوم السبت ٢٦ من شهر شوال فألبس الشريف الخلع السلطانية وأعطاه المكاتيب المنيفة،فقرأها في الحرم الشريف بعد أن عربها القاضي أحمد بن آق شمس الدين المدرس بالمرادية .

وشرع رضوان في تنظيف المسجد من الطين الذي غشيه وملأه ، وكان انتهاء عمله بالمسجد الحرام من قطع الطين وغربلته وإخراج بعض حصى المسجد منه وفرشه فيه يوم الثلاثاء ٢٩ من ذي القعدة الحرام ومع هذا فقطع أيضاً أرض الشارع فإنها علت ونظف بركة المصري من الطين الذي امتلأ في أسفلها من السيل وسوى أرض المدرج عند جمرة العقبة وأصلح بعض خراب في العين بالبنا والتنقيل ورضم أحجاراً وجدت في حفر الشارع وراء جدر المسجد الشرقي واستمر في هذه الأعمال إلى سادس ذي الحجة فحفر عن أرض المروة وبنى الجدار الشامي من زقاق القرارة النازل عليها .

وأرسلوا في أوائل ذي القعدة قاصداً آخر لطلب آلات لعمارة الكعبة من الأخشاب وغيرها .

ولما كان أواخر ذي القعدة وصل المركب الذي جهزه صاحب مصر لعمل سد الكعبة وفيه من الآلات كما ذكر لي كاتب جدة المحروسة الشهاب أحمد بن علي القباني (٩٨) سوحياً بجوز وسبعة وستون سوحياً مفرد وأربعة وعشرون سوبر وتسعة وخمسون زناراً وعشرة قرايا وقاضن واثنا عشر لوح خشب بكر ودوامس ومحمسات ومائتا عصى شون وكورتين كبار بلدي محلول وثلاثة عشر حبلاً بهروزياً وسحيلاً ومائتا مكتل أعلاف ومائة سرفانية وهي المكاتل التي تحمل على ظهور الجمال وثلاثة وعشرون أقتاب جمال وسبع فراد ليف سلب مفتول وأربع ربط قنب وخمس قرمان تركية وخمسة وعشرون مسحاة وثمانون لوحا وهو نحاس مدور للبكر وثلاث عشرة قفة مسامير واثنين وعشرين قضيب حديد معجز هذه آلات سد الكعبة ووصل جملة من النجارة من مصر أيضاً .

وفي يوم الثلاثاء ١٤ ربيع الثاني أمر الأمير رضـوان بتنظيف المصنع السلطاني وهو بلصَق بركة الشامي في المعلاة ، وأن يهيأ ليوضع فيه الحطب والفحم وحجر النورة وتصليح مصانعها ودفع لكل من أصحاب حجر النورة والحطب والفحم ثمناً عينه في قنطار كل بإشارة علي بن شمس الدين المهندس فاستقلوه و لم يرضوا به .

وجئت للأمير رضوان إلى منزله وأعطيته رسالتي (فتح القدير في الأعمال التي يحتاج إليها من جعل له الملك على البيت ولاية التعمير) وسألني الأمير رضوان عن حكم الحطب والفحم وحجر النورة وآلات عمارة الكعبة إذا امتنع أصحابها من الثمن الذي عينه ابن شمس الدين أيجوز أن يؤخذ بتثمينه وإن لم يرضوا به ؟ فقلت : لا يجوز مال المسلم إلا برضاه وأخذ شيء على الوجه المذكور حرام وما طلب فيه صاحبه مما ذكر ثمناً معيناً إن لم يرض إلا به و لم يرض بما دفعتموه له ففي غيره عنه غنى والمنفق في الخير لا ينبغي فيه المماحكة خصوصاً البيت السعيد وأخذ ما لم يرض صاحبه بما يدفع له حرام وواجب تنزيه بيت الله من الحرام تعظيماً لحرمات الله ومن يعظم حرمات الله فهو خير له عند ربه ، وانصرفت عنه ، وبلغني أنه ألزم أصحاب الآلات المذكورة بالحكم أن يرضوا بما يدفع لهم مما قال ابن شمس الدين فالتزموا بذلك والحكم لله .

وفي يوم الثلاثاء (٢١) من ربيع الثاني وصل الخبر بدخول غراب ابن سويدان جدة المحروسة وفيه من آلات العمارة كما أملاه على كاتب جدة المحروسة الشهاب القباني خمسمائة لوح دبسي ومائة زنار وخمسة عشر كريك عشيم وثلاثمائة لاطه وأربعة تراكه وتسعون سواحي بجوز وسوحي مفرد وقرايا واحد ومائتا تمساح رصاص وخمسة عشر قنطاراً حديداً خاماً وعشرة قناطير مسمار وثمانية سحل ليف وألف وأربعمائة عصى شون ومائة وأربعون قتب جمال وخمسة قناطير صلب وثلاثمائة طست وسطل من النحاس .

وفي يوم الأربعاء شرع النجارون في شغل الأخشاب التي يطيفون بها من الطواف على قدر حاجتهم ويكون أخذه من الطواف نحو ستة أذرع من جدار البيت إلى الطواف من جهاته كلها وقطعوا أطراف رؤوس الخشب كما تقدم في عمل ما سد به الكعبة واستمر في هذا الداير القرافي ويجعل عليه من صفائح الخشب ما يمنع من وصول الناس للعملة وشرعوا في هذا العمل في زيادة باب إبراهيم أمام رباط الخوزي وعملوا أيضاً تحت الرواق بين الزيادة المذكورة وصحن المسجد

ونشروا أيضاً لاطات من الأخشاب ألواحاً تحت الرابط المذكور مما يلي وجه الكعبة .

وفي يوم السبت سد فم العتبة من تحت ربع الملك الأشرف قانصوه الغوري بعد أن نظفت بإفراج التراب الذي جمعه السيل فيها منذ نظفها حسن باشا عام عشرين وألف لما وضع حزام البيت وميزابه وأخرج منها حسن باشا فيما قيل عشرين ألف حمار وكان ابتداء فتحها من جهة باب الزيادة تحت الشيخ عبد الكريم القطبي مفتي الحنفية سابقاً ونظفوا أيضاً من تحت باب العتبة من ربع الغوري ما يليه من الدبل الذي يجري فيه الماء المجتمعة من العتبة من جهة الغلق وأعمالها وهو دبل ينصب آخره بقرب حوش خدام المسجد في رأس الزقاق الذي ينفذ على مقبرة الشبيكة ويحاذي باب دبل العتبة البازان السفلي وكان يستقى منه ثم دمر من السيل الواقع عام ٣٩ والله يعمر من يعمره ويجري فيه الماء كما كان ينتفع به فقراء ذلك المكان .

وفي ٢٧ ربيع الثاني وصلوا بأول الأحجار الكبار التي اقتطعوها للكعبة الشريفة من جبل الشبيكة قرب الشيخ محمود وطول الحجر نحو ذراع ونصف وسمكه نحو ذراع فجيء بثلاثة منه ووضعت بقرب باب العمرة .

وفي يوم الأربعاء حضر مولانا السيد محمد الناظر على العمارة والأمير رضوان وشيخ الحرم المكي مولانا شمس الدين عتاق والمهندس علي بن شمس الدين وأطافوا بالكعبة وعلي بن شمس الدين يحسن هدم ما بقي من الجدر ويقول إن أحجارها تكلس بعضها وكان من كلام السيد أن لا يرفع من أحجارها حجراً إلا بعد ظهور اضطراره للهدم واحتياجه الحاجة التامة وبالتحليف مع ذلك لمدعى ذلك في شيء من أحجارها تعظيماً لبيت الله تعالى واحتراماً له ، وتفتت بعض الأحجار وتأكل أطرافه لا يضر إذا كان البناء ثابتاً وانصرفوا على ذلك .

وفي يوم الجمعة هلال جمادى الأولى شرع العملة في تبريح أحجار الكعبة فرصوا الصغار منها فيما بين صف الحنفية الأول وحاشية المطاف ونقل العتالون الأحجار الكبار وفرقوها في صحن المسجد ونقلوا الجباب إلى ما تحت السليمانية من الأروقة الغربية ، وهكذا إلى قرب باب الزيادة . وشرع الحجارون في نحت الأحجار الجدد التي قطعوها لإكمال البناء بها وكان نحتهم تحت المدرسة الباسطية وراء مقام الحنفي .

وفي ضحوة اليوم المذكور دعي فاتح البيت وسئل عن قائمة قناديل البيت فقال: لا قائمة لها عندي أصلاً وأحضر كتبة الحرم فقال كل منهم ما حضرنا ذلك ولا عندنا فيه شيء فدعى عبدالرحمن بن أبي البقا فأحضر دفتراً بخط أخيه عقيل فيه ضبطها في عام تسعة عشر وألف أيام قضاء السيد محمد أفندي بمكة ودفتر آخر بخط عبدالرحمن نفسه فيه ضبطها في موسم سنة (١٠٣٧) سبع وثلاثين وألف على عهد ولاية شريف مكة الشريف أحمد بن عبدالمطلب وحاصله أن عدة قناديل الذهب تسعة عشر وأن قناديل الفضة ثلاثة وثلاثون ، فقال الفاتح : ما أطالب إلا بما تضمنه الخط الثاني دون الأول لأن البيت كان بيد السادن قبلي وقال الثلاثة والثلاثون الفضة ليست كذلك كلها بل معظمها هكذا وفيها نحاس مموه بالفضة وفيها زجاج وتكسر بعضه فاقتضى رأي المذكورين تأخير البحث فيها إلى الاجتماع على صاحب البلاد الشريف ويبرز فيها رأيه المنيف .

وفي يوم الاثنين صعد السيد محمد بن السيد محمود الحسين قاضي المدينة المنورة وناظر العمارة الشريفة والأمير وقاضي مكة المكرمة وشيخ حرمها وفاتح البيت وآغا جدة إلى صاحب مكة وطلبت القناديل فأحضرت من بيت الفاتح وقرئ الدفتر المكتوب على عهد الشريف أحمد بن عبدالمطلب وفيه عدة القناديل وضبط وزن كل ومجموع قناديل الذهب منها تسعة عشرة قنديلاً فوجدت في العدد كذلك من غير نقص ووجدت قناديل الفضة كذلك أي ثلاثة وثلاثون كما هو مكتوب وتسلم القناديل كلها بالديوان الشريف بحضور من ذكر مولانا شيخ الحرم وناظره وانصرفوا .

ثم اجتمعت بالمهندس فرأيته والهاً والعاً بهدم الجدار اليماني الباقي بعد الهدم بالسيل وأنه لا يحسن عملاً إلا بذلك فخوفته من انتهاك الحرمة وأنه لا يجوز أن يهدم منه إلا ما دعت الضرورة إليه أوالحاجة الحاقة والسلطان إنما أناب في عمل ما تهدم دون هدم القائم ، وأمر عمل الكعبة هدماً وبناء موقوف على ما يصدر من رأي السلطان ورأيته مصراً على هدم الجدار المذكور وجميع ما بقي من جدر الكعبة وبنيتها على خيط عمله ، ثم اجتمعت على السيد محمد الناظر على العمارة فبعد أن ذكرت له ما ذكر ونقولاً آخر في منع ما لم تثبت الضرورة أو الحاجة الحاقة إلى هدمه وقلت له : إن بناء الكعبة تابع لهندسة جبريل وظل السكينة الذي بنى عليه الخليل وأعانه عليه إسماعيل لا خيط العملة ، فقال : الأمر كما ترون ولا

نهدم منها إن شاء الله تعالى إلا ما ثبت بالضرورة ضرورية هدمه أو حاق الحاجة إليه وما بقي ندعه على ما هو عليه حتى يسقط فيهيء الله له من يقوم بعمارته وألفت رسالة سميتها إيضاح تلخيص بديع المعاني في بيان منع هدم جدار الكعبة اليماني أعطيت نسخة منها للسيد محمد ناظر العمارة وأخرى لقاضي مكة المكرمة وأخرى لشيخ حرمها.

وفي عاشر جمادى الأولى شرعوا في كشط الحصى عن وجه الأرض من محاذاة الوقادين إلى محاذاة دكة الفقيه النزيلي وقد أعدوا ذلك لوضع النورة وتخميرها فيها وأسفل منها وأداروا عليها أخشاباً أقاموها ثم سمروها في خشب معترض بها وقد شرعوا في وقيد النورة في المصانع من ١٨ شهر ربيع الثاني.

وفي خامس عشر جمادى عمل النشارون في نشر الخشب والحجّارون في قطع الأحجار من جبل الشبيكة والنحاتون في نحتها وإصلاحها والحمارة في نقل النورة على ظهور الحمير إلى المحل المهيأ لها وينقلونها وهي حجارة ويصفونها في المحل المذكور من المسجد.

وفي يوم الثلاثاء ثامن عشر جمادى الأولى اجتمع بالمسجد الحرام الأمير رضوان على مولانا السيد محمد ودار الكلام بينهما في الشروع في عمارة الكعبة فقال السيد: تنتظر المعمارية والعملة الواصلين لذلك من مصر ورأى رضوان البدار من غير انتظار وانفض المجلس على أن يشرعوا يوم السبت (٢٢) من الشهر المذكور في وضع الأخشاب المطيفة بالبيت الآخذة بقدر ستة أذرع من الطواف ثم رأوا تأخير العمل للأخشاب إلى يوم الأحد لأنه يوم شريف كان فيه بدء العالم.

وفي صبيحة (٢٣) يوم الأحد اجتمع على صاحب بلد الله الحرام السيد والأمير وجمع من الشرفاء وناس من الفقهاء وحضر قاضي بلد الله الحرام مولانا حسين أفندي وناظر المسجد الحرام مولانا شمس الدين عتاق واستؤذن الشريف في مباشرة عمارة الكعبة الشريفة فأذن فيها وفي أن يطاف من الدائر بها بأخشاب قدر ستة أذرع وسمكه نحو قامته الأولى فأذن به وعينوا لمباشرة العمل علي بن شمس الدين ومحمد زين فقالا: نتولى عمل البيت وعمارته لكن بشرط إطاعة الناظرين بتوسعة أجر العمال فقال رضوان: نفعل ذلك، فأحضروا ثلاث خلع واحدة لرئيس النجارين المعلم سليمان الصحراوي المصري وواحدة لابن شمس الدين وأخرى لابن زين، وتفرق الجمع وحمل جماعة الأمير آلات العمارة من الحبال

والمسامير والسطول والحلل إلى سقاية العباس وذبحوا أغناماً يسيرة على بعض الأبواب وشرعوا في وضع الأخشاب المطيفة وتسميرها .

وفي اليوم المذكور شرع النجارون أيضاً في عمل سقالة من الخشب يصعد عليها البنا إلى جدر الكعبة وجعلوا مبدأها مما يسامت الباب الغربي للكعبة وذلك بأن تقام أخشاب ويسمر بينها عوارض وترمى عليها أخشاب طوال يوضع طرفها الثاني على عوارض أخرى على قوائم تحتها وهكذا إلى جدر سطح الكعبة ، وبعد انتهائها تسمر في الطول خشب عوارض بعرض السقالة ومجموع ما سمر (٧٢) منه وصعد عليها العتالة فأنزلوا بعض الأحجار ثم في الحال صعدوا عليها بالأحجار وكل من الحجارين في نحتهم والنشارين في نشرهم على حالهم .

وفي يوم الثلاثاء شرعوا في إصلاح الأحجار الساقطة من البيت ونحت ما يحتاج للإصلاح منها .

وفي عصر يوم الأحد هلال جمادى الآخرة صعد السيد ورضوان فرأيا سطح البيت وجداره الباقية وألقى عندهم علي بن شمس الدين أنه لا بد من هدمها والسيد وكل أمر ذلك إلى الله تعالى .

وفي صبيحة يوم الاثنين اجتمع كل من مولانا السيد والأمير بالحطيم وحضر السيد علي بن بركات فصعد معه الأمير إلى سطح الكعبة وأراه المكان وأرسل إلى مولانا السيد محمد وأنا بقبة الشراب المعروفة بقبة الفراشين وأشار إلي بأن أصعد إلى سطح الكعبة وأرى ما هنالك وتوجهت لذلك فأشار علي الأمير والسيد علي بانتظار وصولي فجلسوا فوصلت فرأيت سقف البيت مفارقة لجدار اليماني نحو خمسة أصابع ورأيت انصداعاً في الجدار الذي يحذو الباب وبمحاذيه من الجدار الغربي فقال لي الأمير ونحن على السطح : ماذا ترون ؟ فقلت : هذه الأحجار المفارقة والخربة والشعثة تزال لتحقق الضرر فيها ويقتصر على الأمر الضروري فقال المهندس : هذا الذي بأعلاها إنما حدث من انبعاج أسفلها فتأثر هذا منه ، ثم عدنا إلى السيد فسألني ، فأخبرته بما رأيت وبما قلت وزدت حينئذٍ أن هدم باقي الجدار يتوقف على ثبوت أن ذلك الأمر عن انبعاج الأسفل ، فقال الأمير : وزن بعض البناة الجدار من محل الحزام فرأى خروجاً على أن ما تحت الحجر الأسود تحتاج إلى الإصلاح . وتكلم رضوان ، فقلت له : أنا رجل من أهل العلم وأتكلم

بمقتضى العلم ولا أبالي مما يلحقني في ذلك من الأعراض الدنيوية والحق على النفوس ثقيل ، وانصرفت .

وفي يوم الجمعة اجتمع في الحطيم ملك البلاد والسيد عبدا لله وولده محمد وأحمد وأشراف آخرون وناظر العمارة مولانا السيد محمد الحسين الأنقوري النائب في ذلك مناب السلطان الأعظم ومولانا الأفندي حسين الشهير بمتولي زاده ، ومولانا ناظر المسجد الحرام شمس الدين عتاقي والأمير رضوان ، وحضر جمع من فقهاء البلد الحرام وأعيانه منهم خالد المالكي وعبدالعزيز الزمزمي والقاضي أحمد بن آق شمس الدين المدرس بالمرادية المفتي الحنفي وتاج الدين المالكي وأحمد بن جعفر الواعظ والفقير إلى ا لله تعالى . فدار الكلام في جواز هدم باقي الجدار الباقية بعدما انهدم من السيل والمنع منه ، فمال جمع إلى ما قال المهندس من هدمه وملت إلى تحريم هدم ما لم تدع ضرورة أو حاجة حاقة ونحوت منحى ابن عباس في المنع من ذلك ، ودخلوا البيت الحرام وخرجوا وطال الكلام والجدال بين قاضي مكة المكرمة وبين الأمير فقال مولانا السيد الناظر على العمارة لابن شمس الدين ولابن زين : إن كنتم صادقين في دعواكما خراب هذه الجدار وأنها لا صلاحية فيها للبقاء فاحلفا على وفق دعواكما وأيد ذلك قاضي مكة وقام ومشى إلى الحجر الأسود وقال : تقدما إلى الحجر فامتنعا عن الحلف وقالا : إن هدمتم فاهدموا وإلا فاتركوا ، نحن لا نحلف ثم اقتضى رأي مولانا السيد أحمد والحاضرين من أن نهدم ما بقي من الجدار الشرقي ومن الجدار الغربي ويبقى اليماني ويصمد بما يحرسه من السقوط من دراية وإمامة ويبنى الساقط والمهدوم ثم ينظر بعد لحال الجدار اليماني فيعامل بما يبدو فيه ، ورضوا كلهم بذلك وحكم به القاضي الشرعي وانفصل المجلس عليه وكتب صورته القاضي أحمد بن عيسى بن مرشد نائب أفندي مكة بأمره وانصرفوا على ذلك.

وفي يوم السبت شرع العملة في إخراج باقي خشب السقف وفي ضحوة النهار شرعوا في هدم الجدار الشرقي مما يحاذي البيت .

وفي يوم الأحد شرعوا في هدم الجدار الغربي ونقض الأخشاب التي عملت في محل الجدار الساقطة بالسيل وفيه عزم البناة على هدم الجدار اليماني وزعموا أنه ضروري الهدم ونظموا في ذلك سؤالاً كتب لهم عليه بالجواز خالد المالكي

وعبدالعزيز الزمزمي والقاضي أحمد المدرس وعبدا لله الحنبلي وقالوا : المفتي أسير السؤال .

وفي يوم الأحد المذكور نصبوا البكرات وأخرجوا بها عمودين من العمد الثلاثة التي عليها بساتل أخشاب السقف ووضعوهما عند محل الحجارين أمام الباسطية وهما سالمان سوى يسير من رأس أحدهما الذي يلي الأرض تآكل بالمياه عند غسل البيت وعند دخول بعض السيول لجوفه وأما البساتل التي عليها فمنها ما رأوه منكسراً فألقوه مع رث خشب البيت بين سقاية العباس وفيه الشراب ومنها ما ليس كذلك فوضعوه في حاشية المطاف مما يقارب مقام الحنفي إلى محاذاة ما بين اليمانيين . وفيه هدموا بعض الجدار الشرقي ورموا أحجاره من أعلا الجدار إلى ما أطاف به الخشب من الطواف وتركوا حمل العتالين له من أعلا الجدار وحملوه من وجه الأرض .

وفي يوم الاثنين شرعوا في هدم الجدار اليماني الذي أفتاهم بجواز هدمه من ذكرنا والأمر لله الواحد القهار .

وفي يوم الثلاثاء أخذوا في هدم باقي الجدار . وفي يوم السبت نصبوا أخشاباً بطول شبابيك مقام إبراهيم عليه السلام ، من الجوانب ما عدا جانب الباب وسمروها ونقلوا إلى ذلك الكسوة الحمراء والسوداء فجعلوا حزمتين أسفل وعليهما البرقع ومن فوقهما حزمتان أخريان . وفيه وصلوا بالهدم إلى ما فوق عتبة الباب العليا وتعسر عليهم إخراج بعض أحجار الهدم حتى عالجوا بالمعاول والصفايح الحديد في حجر من الجدار اليماني من الظهر فما تم خروجه إلا بين صلاتي العصر والمغرب ، وكان للعملة عند إلقائه من محله جلبة ملأت المسجد صراخاً .

وفي يوم الأحد قلعوا العتبة التي على أعلى الباب ووضعوها عند العمد بمحل نحاتي الأحجار وأخرجوا درفتي باب الكعبة الشريفة وحملوها على الرؤوس واحدة بعد الأخرى ووضعوهما في الخلوة التي تحت بيت مرزا مخدوم مسكن ناظر العمارة وكان ذلك ضحوة النهار .

وفيه قلعوا أحجار الشاذروان وهي رخام فيها حلق نحاس مموهة بالذهب لإدخال البريم فيها ، وهو بموحدة فراء فتحية بوزن فعيل ، الحبل المبروم الذي يحيط به أسفل كسوة الكعبة وفيها مسامير لإلصاقها بما تحتها وكان ذلك من عمل مولانا السلطان أحمد خان بمباشرة حسن بن مراد شيخ الحرم المكي حينئذ .

وفيه رفعوا الحجر الذي فيه الركن اليماني الذي هو محل الاستلام للطائف وألقوا حجر الركن في داخل ما أطاف عليه الأخشاب من الطواف وهدموا باقي أحجار الأركان وما بينهما وما أبقوا سوى الحجر الأسود وما فوقه وما تحته وما بجانبيه ونصبوا أخشاباً على ظهر الحجر الأسود وسمروا طرفها الأعلى وكأنه لمنع أن يرقى أحد من ذلك المحل إلى العملة .

وفيه ابتدءوا في طحن الجص في المصنع السلطاني عند بركة الشامي وتم أيضاً مطابخ الجير للأعمال السلطانية ، وقد كان الجير يؤتى به أحجاراً على ظهر الحمير إلى داخل المسجد وتطفى عند باب القبلة ، ثم تركوا ذلك وصاروا يطفونه عند مطبخه ويأتون به دقيقاً .

وفي يوم الخميس نظفوا أسفل الجدر ووجهها لصحة أساسها وكمال أحكامه بحيث منع البنائين مما أرادوا من هدمه وقربوا بعض الأحجار إلى محل البناء .

وفي يوم الجمعة اجتمعا على السيد محمد ناظر العمارة الشريفة فأكرمنا على عادته بالطيب وغيره أكرمه الله وذكر لنا أنه وقع في سره أن انقلاب ماء زمزم عما كان فيه من المرارة إلى الحلاوة علامة على أن ما صنع بالبيت من الهدم حسن وفيه التفاؤل بصلاح الحال وبالحلاوة بعد المرارة ، وكان ﷺ يحب الفال الحسن .

وأشرت على مولانا السيد محمد ناظر العمارة بأن يأمر البناة بغسل الأحجار قبل البناء بها لاحتمال عروض ما ينجسها من هذه المدة من هر أو كلب أو طير ، وقد صرح الفقهاء بندب غسل حصا الحمار لذلك ، وأيضاً فقد قال تعالى : ﴿وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتي﴾ فاستحسن ذلك وأشار به عليهم ففعلوا لكن في كبار الأحجار المنحوتة دون أحجار الوجه الثاني والحشو وكأنهم استثقلوا ذلك وغسلوها بالماء الحلو دون ماء زمزم لأنهم زعموا أنه يؤثر في إضعاف الجص والجير .

وفي يوم السبت نحت الحجارون من محل استلام الناس للركن اليماني قدر أصابع قالوا لأن من فوقه كان قد انفلقت منه قديماً فلقة ، فنحتوا في بطن الحجر ما يساوي تلك الفلقة المفقودة ، وإن فات لذلك لمس ما تشرف بأيدي الأنبياء والصحابة والتابعين والعلماء والصالحين من وجه ذلك الركن .

وفي يوم الأحد ٢٣ جمادى الآخرة شرعوا في وضع الأحجار في بناء الكعبة ، وضعوها على الأساس من بعض الأطراف ، وحملت فيه أحجاراً على كاهلي

تشرفاً بذلك واتباعاً لسيد الخلائق ﷺ ورأيت البناة يعملون في الجانب الشامي وهذا المدماك غير معدود من مداميك الكعبة المعدودة ، لأنه وراء الشاذروان وعدة المداميك فوقه إلى منتهى سمكها في بناء ابن الزبير (٢٥) مدماكاً ، وقد بنيت في هذا البناء كذلك .

وفي التاريخ المذكور سئلت عن الخشب البارز من الكعبة : أيجوز أن يتخذ منه مسابح أم لا ؟ فأجبت بأن ما صلح منه لإعادته إليها وجب ذلك فيه على الوجه الممكن ولو بأن تجعل نشارته مع الطين والخشبة فيه مكان اللبن في جدارها وما لا تقع فيه البتة دفن في موضع منها أو في المسجد صوناً له عن الابتذال وقياساً على دفنه ﷺ للجذع الذي يخطب عنده ثم تركه للمنبر ، وأيضاً ففي عمل ذلك منه تعريض للامتهان فإنه إذا انقطع سلك تعرض للابتذال . وا لله أعلم .

وفي يوم الاثنين وضعت العتبة السفلى التي بِسَمْت الشاذروان وفي أسفل جدار البيت من وجهه دبل صغير ، قال علي بن شمس الدين أنه رأى ذلك من الجانب الشامي وما وقف على منتهاه ولا عرف منهاه فدك في هذا البناء وقال : إن الخلل الذي لحق الجدار منه .

وفي يوم الثلاثاء جاءوا بالأحجار التي اقتطعوها من الجبل الشبيكي وراء مشهد العارف با لله الشيخ محمود بن إبراهيم بن أدهم نفع ا لله بهما ونحتوها وأصلحوها عند مقام المالكي وحملوها العتالة إلى قرب جدار الكعبة وهذا المدماك هو الذي يستره الشاذروان .

ثم اجتمع الناس في الحطيم للدعاء ، وجاء مولانا الشريف ومعه أولاده وناظر المسجد الحرام ورضوان فدعى لمولانا السلطان مراد على العادة ثم لمولانا الشريف ثم لبقية المسلمين وكان رضوان أمر بعض أتباعه أن يعد في عشرين حلة نورة ، وفي عشرين مكتلاً حجارة ، فلما أتم الدعاء توجه الشريف ومن ذكر أجمع إلى الكعبة الشريفة وحمل المذكورون ما ذكر تبركاً واتباعاً ، ودعوا لمولانا السلطان وعادوا إلى محمل الدعاء من الحطيم فأخرج الأمير رضوان من جيبه رقعة صغيرة فيها أسماء من يريد إلباسهم الأثواب وهم : مولانا الشريف صاحب مكة ، وقاضي الشرع وناظر المسجد الحرام وحاكم البلد السياسي القائد جوهر بن ياقوت الحسني وفاتح البيت الحرام كل خلعة خلعة ، وألبسوا من أفتاهم بجواز هدم الكعبة من الجدر القائمة أثواباً ، فالحنبلي أخذوا منه قطنية بيضاء والحنفي أخذوا منه صوفاً

له وألبسوهما ووضعوا كلاً منهما بدل الثوب عشرة غروش ، وأما الشافعي والمالكي فلما طلب منهما كاللذين قبلهما لم يجدا شيئاً فأخذ لكل منهما صوفا أحمر وألبس الشافعي ولم يحضر المالكي فقبضه له أحمد بن جعفر الرومي ثم أعاد أبو السرور العجيمي الدعاء لمن ذكر أولاً وانصرفوا ، وأمر عند كل مقام من المقامات الأربعة أن يقرأ جماعة القرآن ، فلما أتم كل ما عليه أدخلوا جوف الكعبة وختموا فيما بقي من وسطها القرآن الشريف ودعوا لمولانا السلطان وأعطى كل قارئ نحو الثلاثين محلقاً وفيه ذبحوا أربعة ثيران وبعض الغنم . وفي وقت الضحى تشرفت بنقل الأحجار الشريفة على كاهلي إلى البنية المنيفة ودك بها البناة باطن الجدر .

وفي يوم الأحد شرعوا في المدماك الثاني وسمكه (٢٢) قيراطاً من ذراع العمل ، وبدءوا فيه من الجانب الشرقي وفيه صبوا رصاصاً على وجه أسفل الجدار اليماني ليساوي المتآكل منه باقي الجدار في سمته .

وفي يوم الاثنين غرة رجب الحرام وضعوا الحجر الذي بطرفه محل استلام الطائفين من الركن اليماني وكان طرف الحجر الذي تحته انكسر من أعلاه فوضع محل ذلك من الرصاص المذاب ما يساوي به مع باقي الأحجار سمتاً ، وكان تمام وضع الحجر وتسويته عند العصر من اليوم المذكور وجاء الفاتح بقليل من الصندل المذاب في زبدية وصمخ به محل الاستلام وما يقاربه ، وفيه وضعوا حجر الركن الغربي الشامي ونصبوا أحجار الجدار الشامي ، وفيه قال مراد آغا ناظر العمارة للبناء عبدالرحمن بن زين : أتقن بناءك فإن هؤلاء البناة يذهبون ولا يبقى من البناة بمكة إلا أنت وينسب إليك كل ما يظهر في البناء من خلل . ودعاه لهذا القول أنه رأى الحجارة المنحوتة ليست في التلاحم على غايته بخلافها في بناء ابن الزبير رضي الله تعالى عنه ، فإنه لا يكاد بين الحجرين فيه .

وفي عملهم هذا بين الحجرين نحو نصف إصبع وذلك مظنة لدخول ماء السيل منه وإن كحل وجهه بالجص فقد ينحل عند مكث السيل مع أن جدار ابن الزبير رضي الله تعالى عنه كان ذا وجهين .

وفي يوم الثلاثاء كمل نصب أحجار المدماك الثاني من جوانبه الأربعة وشرعوا في دك ما وراء ذلك .

وفي يوم الأربعاء كنت واقفاً مع مولانا السيد محمد الناظر على العمارة المطهرة على سقايل البناة مما يلي جهة اليمن فأخبرته أني شرعت في قراءة صحيح البخاري رواية بعد صلاة العصر من أوائل شهر جمادى الآخرة فأشار بأن يختم في داخل البيت وندعو عقب ختمه لمولانا سلطان الإسلام والمسلمين فيكون ختم في البيت كل من القرآن وصحيح البخاري، ودعى لمولانا السلطان عقب كل منهما. وفيه حملت النورة والأحجار ودك بها الجدار اليماني. وفيه عملوا حديدة نحو ذراع على هيئة الخطاف قالوا ليحكموا له الغلاف الذي يريدونه الحجر الأسود.

وفي يوم الخميس وضعت عتبة الباب الشريف بمحلها وفي الحجر نقب مستدير من ظاهرها إلى نحو نصفها ثم بعد ذلك هو مشقوق إلى آخر الحجر على صورة نصف الدائرة نقر ذلك ليخرج ما قد يتحصل في داخل الكعبة من السيل عن وكف السقف أو نحوه.

وفي يوم الخميس بعد الظهر نقلت العتالة العمد الثلاثة من محلها السابق وردف باب الكعبة العليا إلى وسط الكعبة وجعلت بعضها على بعض في منتصف الكعبة وجعلت طرفاً مما يلي الجدار اليماني وآخر مما يلي الشامي قالوا ليتمكن من العمد عند الوصول إلى محلها من غير تعب ووضعوا عليها يوم السبت صفائح الخشب وستموا أطرافها حفظاً لها من نجاسة طير ووسخ عمارة.

وفي يوم السبت عمل البناة الأحجار على المدماك الثالث وزرع سمك أحجاره عشرون قيراطاً وفيه الباب الشريف الشرقي، وفيه رسموا باب الكعبة الغربي وهو بحذاء الباب الشرقي في الجدار الغربي.

وفي يوم الأحد أكمل نصب الأحجار المنحوتة في المدماك الثالث من جميع جهاته ما عدا محل الحجر الأسود. وفيه نجر النجارون الأخشاب الصحيحة من البيت وأصلحوها، فعادت حسنة المظهر في غاية الجدة. وفيه موه الصايغ الفضة المصفح بها النحاس المجعول غلافاً للحجر الأسود.

وفي يوم الاثنين انتهى الدك ما كان بين الجدار وما في أصل الكعبة من الرضم وعلى وجهه الرخام المفروش من جانب اليمن. وفيه أدخلوا الحجرين الشبيكين المنقور ما بينهما بقدر موضع الحجر الأسود، وأحدهما راكب على الثاني، فدخلوا بهما على العتالة إلى محاذاة الحجر الأسود من المحيط به الخشب، وأدخلوا

بين الحجرين ما أعدوه للحجر الأسود وقاسوه وعرفوا عملهم وأمروا الصائغ بإتمام تمويه الذهب في باقي اليوم، فقال: ما يتيسر إلا في غد وشرع البناة في المدماك الرابع وزرع سمكه ثمانية عشر قيراطاً بدؤوا فيه من الجانب الشامي.

وفي يوم الثلاثاء بعد الإشراق جاء السيد محمد الناظر على العمارة وولده والأمير رضوان ومعهم ما أعدوه للحجر الأسود من المصفح بالفضة المموهة بالذهب فجاءوا بصفائح من خشب مسمر بعضها إلى بعض في أعواد من ورائها، فسدوا بذلك ما كان مفتوحاً بحذاء الحجر الأسود لتقبيله وقلع الحجر الذي على الحجر الأسود المطيق عُلى أعلاه والمطيف به طرفه من الجانب اليماني، فوضعوا أخشاباً على طرف جدر الكعبة ودحرجوا عليها ذلك الحجر حتى نزل إلى حذاء الكعبة، فحمله العتالة وأبرزوه، ثم وصل الشيخ عبدالعزيز الزمزمي مع فاتح البيت ثم مولانا العلامة شيخ الحرم المكي وقاضي مكة حسين أفندي، وكان حاضراً مصطفى آغا جدة وكاتب البندر المذكور الشهاب أحمد القباني، ثم حضر مولانا الشريف صاحب مكة ومعه ولداه محمد والسيد أحمد والسيد علي بن بركات وآخرين من السادة الأشراف، فلما رفع الحجر الكبير الذي على ظهر الحجر الأسود وقصد ابن شمس الدين رفعه من محله ورفع الحجر تحته فأخذ عبدالرحمن بن الزين البنا إصبعاً من حديد وصار يقلع به ما ظهر على الحجر الأسود من فضة وجير فقرص به في وسط الحجر واتكأ، فإذا انقطع وجه الحجر الأسود وانقشر عما تحتها وتفارقت فيما بينها وكادت تسقط فسقط في أيدي القوم. ودعا السيد علي بن بركات فقال لهم: يا أمة الإسلام تحروا فإنكم إن أخرجتم الحجر الأسود من مكانه تفرقت أحجاره، ولا والله تقدرون على جمعها وإعادة الحجر كما كان فيحصل ضرر شديد، وسكتنا في أمر هدم الجدران ووكلنا ذلك إلى ذممكم. وأما هذا فلا نسكت عليه، وابن شمس الدين وابن زين يأبيان إلا في رفعه ورفع الحجر من تحته ولو جرى ما جرى، ويدعيان أن الحجر تحته خارج عن ميزان عمله، وأنه محل الركن وله اتصال بالباب، وهو محل التردد إلى البيت فلا يمكن بقاؤه. فقال السيد علي: بفرض ما يقول البناة المتقنون يعقدون العقود ويبنون عليها القصور ويعتقون الجدر الخراب ويبنون ما يريدون. فلما رأى الأمير رضوان أن تفقش أجزاء الحجر أمرهما بما قال السيد علي وأطاعا ورد الحجر الذي تحته في الحال بعتبه إلى بيته، وأمرا أن يجعلا من فوق الحجر حجراً يعتقه ويكون عليه مدار العمل ثم وقد بسطت الكلام في هذا المقام في كتابي العمل المفرد من فضل وتاريخ

الحجر الأسود ولون ما يستتر من الحجر الأسود بالعمارة في قدر الكعبة أبيض بياض حجر المقام وذرع طوله نصف ذراع بذراع العمل وعرضه ثلث ذراع ونقص منه قيراط في بعضه قالوا لتآكل المحل منه وسمكه أربعة قراريط وعليه سيور من فضة واحد من أول ما غاب من رأسه من جهة الباب مستدير إلى مثله مما يلي الجانب اليماني في وسط سمكه وعليه سيران من فضة محيطان بعرضه إلى طرف السير من الوجه الثاني ، وفي عرض الحجر ثلاثة شطوب مستطلية واحد من جهة الباب وآخر من جهة الركن اليماني وسرى إلى آخر الحجر من هذا الجانب . والثالث في الوسط سوا وبعد الاتفاق على بقائه عمل مركب يلصق به ما تفرق عنه من أجزائه ، فطبخوا عنبراً ولاذناً فقلت لهم : ضعوا فيه لسكاً فمنع من ذلك ابن شمس الدين وطبخوا ذلك طبختين مرتين وأعادوا به الفتات من الحجر إليه ، وغسلوه بعده بالماورد الأزدي . وباشر في ذلك مولانا الشريف وولده والسيد علي وباقي الأكابر الحاضرين . وبعد إتمام اللصاق جاءوا بالطوق الذي صنعوه للحجر الأسود وقاسوا إذا كان يمكن عمله على الحجر مع بقائه ، فرأوا إمكانه ثم أعرضوا عنه بالمرة ، ثم قرأت الفاتحة لمولانا السلطان وانصرف القوم . وقبيل صلاة العصر دخلت حذاء الحجر الأسود عند السيد الناظر والأمير رضوان فأخبروا أن الأحجار ما التصقت بما لصقت به وأن اللصاق ذاب من حر الشمس وأن معلماً وعدهم أن يصلح ذلك بالليل ففرحوا .

وفي ليلة الأربعاء سرجوا شموعاً كثيرة بعضها على جدر الكعبة وثلاث مركبيات منها أمام الحجر الأسود . وجاء الجمال محمد بن يوسف الحكاك أحد الوقادين بالمسجد الحرام وبوابيه ومعه ابن بهاء الدين الملتاني وكان أبوه نجار المسجد فغسل الوقاد الأحجار بعد قلعها بالزيت الطيب ثم بالماء الحار عن الإذن والعنبر الذي ألصق به أحجاره أولاً وفعل ذلك وعلي حذاء الحجر ستارة تمنع رؤية العمل وركب قلنفونية واسبيذاجاً بعلبكياً وسندورساً وأضاف إليه مسكاً وعنبراً لطيب العرف وقليل من الفحم للسواد .

وأخبرني الوقاد أن عدة فلق الحجر الكبار نحو ثلاثة عشر ، و الكبار منها أربعة ، والباقين صغار بالنسبة إليها وشرع في الإلصاق بذلك المركب بعد نحو سدس الليل وأتم العمل عند مضي نصف الليل .

وفي صبيحة الأربعاء، دخلت فرأيت الأحجار عادت بحسن اللصاق إلى ما كانت عليه في الجملة، إلا أنه حدث الآن نتوء في بعض الأحجار حال وضعه فصار خارجاً عن سطح الحجر فيؤلم من يسجد على الحجر سيما من غير ترو. وأخبرني الجمال الوقاد أن لون ما انكشفت عنه الأحجار من الحجر الأسود أخضر زيتي، وقال غيره: فيه شوب صغيرة كالمحبب بالزعفران.

وفي صبيحة اليوم المذكور قاس سليمان النجار ما بقي بين أعلا الحجر الأسود والحجر الذي فوقه وقطع ذلك ليأخذ النحاس بقدره من الطوق الذي أرادوه فيصفح بالفضة ويموه بعده بالذهب.

وفيه بنى البناة في المدماك الثالث من الجانب اليماني والجانب الغربي، وأتم البناة المدماك الثاني بأعلى دكة البيت سوى الحجر الذي في حذاء الحجر الأسود.

وفي ليلة الخميس جاءوا بحرف لسد ما بين الحجر الأسود والذي فوقه وسمكه ذلك نحو أربع أصابع وعليها فضة وأرادوا إلحام طرف الفضة بطرف الحجر الأسود وأن يكون ذلك لمصب مذاب الفضة على أطراف الحجر فأبى الذي عمل اللصاق منه، وقال: إن فعلنا ذلك تفككت الأحجار الملصقة ولا يقدر على إعادتها فتركوا ذلك وأخذوا في حك الفضة بالمبرد عن أطراف الحجر.

ومن عجيب آيات الحجر أنه يؤتى بالمبرد صحيحاً قوياً فما هو إلا أن يبرد به قليلاً تلف وأثر ذلك في يد العامل فتركوا البرد وقطعوا تلك الفضة بالقدوم، وأخبرت أن المتحصل من الفضة ليلتئذ نحو ثلاثة دراهم، وكذا المتحصل قدر ذلك أول يوم من قلعه.

وفي يوم الخميس شرعوا أيضاً في العمل المذكور في الحجر وأخذ البناة في بناء الأحجار التي فوق الحجر الأسود وبجوانبه، وأتموا بها المداميك الموازية لها وشرع باقي البناة من الركن الغربي إلى اليماني فبنوا باقي الجدار ودكوا باطنه.

وفي ليلة الجمعة حضر كل من مولانا السيد والأمير إلى فناء البيت وأسرجوا الشموع وحضر الوجيه ابن زين لسد ما بين الحجر الأسود والحجر الذي من فوقه فأخذ خشبة سمكها أربعة أصابع بطول ذلك وعرضه وضعها بداخل ذلك المكان، بعد أن ملأه بالجص فأحكم عملها فيه ثم ضرب النجارون مسامير الفضة في الصفيحة الفضة المموهة بالذهب على وجه الخشبة وبقيت فضة من طوقه الأول من أسفل الحجر نحو ثلثه وعمل بالفضة المموهة بالذهب ما عدا من ذلك، وتم

عملهم بعد مضي نحو ثلث الليل وحضره شيخ الحرم والسيد علي بن بركات والسيد أحمد بن مولانا الشريف واستحسنوا ذلك ورفع الحجاب للطائفين عن تقبيل الحجر عند نصف الليل، فقبل الناس الحجر وحمدوا الله تعالى. وبعد صلاة الحنفي الصبح أعاد النجارون سد ما فتحوه من المطيف من الخشب إلى هذا المكان لعمله، فعاد كما كان وتم عملهم ذلك عند طلوع الشمس، وألبس كل من الصايغ وهو علي اليماني صبي قاسم بن مهار ومن الصايغ في إلصاق أجزاء الحجر وهو ابن بهاء الدين الملتاني خلعة وامتنع عن ذلك محمد الحكاك فيما قال لي. وقد حكيت هذه القضية وجعلت لها تاريخاً من قولي :

الحجر الأسود ما	زال سناه نورا
وفضله ومجده	عن النبي مأثورا
شاهد صدق للذي	قبله لا زورا
يأتي قيامة له	عينان خذ مسطورا
محمداً قبله	فاسأل به خبيرا
فزاد في تشريفه	وزاده تشهيرا
وهو يمين الله في	أرض له مشهورا
وكم لوآ رفعة	أتاحه منشورا
لما بنوا البيت الذي	به أنلنا النورا
وجددوه كله	وعمروا تعميرا
ورمموا بعنبر	وأكثروا العبيرا
مع لاذن به أصلحوا	الحجر المذكورا
فألصقوا أحجاره	وحبروا تحبيرا
لما بدا الصدع بدا	من إصبع مدورا
دار على جوانب	مذهب منها الجبيرا
وفضة دارت به	من قدم تدويرا
شدا بن زيد يده	عليه إذا ديرا
تفتتت أحجاره	عن بعضه تكسيرا
وبعد إلصاق لها	وأتقنوا الأمورا
ساج عبير عنبر	وقد ذكا عبيرا
وكان ما قد جبروا	يفارق التحبيرا

أتــاهم معلمكــم ... بصنــع ذا مخبــورا
فقــال لا بــأس وذا ... أعيــده مجبــورا
ألم صدعــه بمــا ... يذهــب التكســيرا
ســر بهــذا ســيد ... زاد بــه ســرورا
كــذاك رضــوان الأمــير ... أكــرم بــه أمــيرا
لأن في ذا خدمــة ... لله يعطــي النــورا
فواعــداه أن يجيــى ... وتابعــاً مذكــورا
قبيــل عتمــة فجــا ... مغتنمــاً أجــورا
والمــير والأمــير قــد ... بــالنور زاد النــورا
جــاؤوا بشــمع عــدة ... ونــوروا التنويــرا
وحجــراً قــد ســتروا ... بثوبهــم تســتيرا
وقــت اصطنــاع صــانع ... قــد أتــتن الجبــورا
جــا بــآلات بهــا ... قــد لصــق المكســورا
أجــزاؤه كأنهــا ... مــا قــد شــكت تكســيرا
عــادت كمــا كــانت ســوا ... فاســأل فتــى بصــيرا
كأنــه الآن وقــد ... لم بــه الكســورا
هــو قبــل صــدع مــا تــرى ... صدعــا ولا فطــورا
فــانصر إلهــي ســيدي ... ســلطاننا المنصــورا
مــراد خــان لم يــزل ... بعــزه مشــهورا
ولا يــزال ملكــه ... في عــزه مجبــورا
عمــر بيــت ربنــا ... فــزاده تعمــيرا
والحجــر الأســود قــد ... جــبره تجبــيرا
أن تبــغ عــام صنعــه ... ويومــه المــبرورا
صبــح الثلاثــاء تاســع ... مــن رجــب شــهورا
وختــم أمــر صنعــه ... في جمعــة مــبرورا
ثــاني عشــر رجــب ... واليــد رضــاء النــورا
عنــد انتصــاف ليلــه ... ثــم عطــا ســرورا
وعامــه لا يــا أخــي ... تاريخــه المســطورا
وكــان أمــر الله قــد ... رأيــا أخــي مقــدورا

ذي أنـــه أرخ لهــــا	ذا العمـــل المذكـــورا
ثـــم الصـــلاة أبـــدا	تنـــور الديجـــورا
علـــى النـــبي محمـــد	مـــن أســـس الخيـــورا
وآلـــه وصحبـــه	مـــن ألبســـوا الحيـــورا
ووارث وتـــــابع	ومـــن أنيـــل نـــورا
مـــا زال بيـــت الله في	أعـــلا الســـنا معمـــورا

وفي يومٍ السبت شرعوا في وضع أحجار المدماك الخامس وذرع سمكه ثمانية عشر قيراطاً وابتدأوا فيه من الجانب الشامي وأتموا نصب أحجار الجانب كلها فيه وباقي الجهات في اليوم بعده .

وفيه جاؤوا بالقبان لتقبين ما يحتاجون إلى إدخاله في البناء من الحديد فإنهم جعلوا في طرف كل ركن حديدة معكوسة الرأس من الطرفين ونقروا لرأسيها في الأحجار وأدخلوها في ذلك وصبوا عليها الآتك ومن هذا المدماك عملوا الحديد دون ما تحته من المداميك .

وفيه شرع النجارون في نجر أخشاب الدفن وهي أربعة أدوار بقدر بناء البيت أجمع فنقروا أطراف الخشب وألصقوا البعض بالبعض وجعلوا لكل دفين طوقين واحد وراء آخر وهو من الداخل من وراء الحجر الشبيكي المنحوت الموجه به وجه الجدار من الخارج من فوق الباب فأخذوا لذلك ما صلح من دفنها التي كانت فيها وكملوا الباقي بما كان في سقف البيت .

وفي يوم الأحد وفيما قبله وصلت أخشاب ساج أخذت من بيوت جدة المعمورة لسقف البيت الشريف .

وفي يوم الاثنين نحت الحجارون الحجر الكبير الذي على طرفه الحجر الأسود وهو الذي أراد ابن شمس الدين تنحيته عن مكانه وأبى الله إلا إبقاءه فبقي .

وفيه جاءت أخشاب من ساج من جدة . وفيه شرعوا في المدماك السادس وذرع سمكه ثمانية عشر قيراطاً من الجانب الشرقي من جهة الباب وتم نصب أحجاره وعملوا في الغربي ودكوا ما وراء الوجه من الجدار اليماني . وفيه وفيما قبله عمل النجارون قواعد لتوضع على العمد من أعلاها تحت السقف .

وفي هذه الأيام صارت الحمر تدخل في المسجد إلى محل تخمير النورة عند مقام الحنبلي وعلى ظهورها النورة والبطحاء وإدخال البهيمة التي لا يؤمن تلويثها

المسجد بغير ضرورة حرام وبها مكروه صرح به أصحابنا وما ذكر ليس من الضرورة في شيء لإمكان وضعها عن البهائم عند باب المسجد وحمل العملة له من ثم ، ولكن الأمر لله .

وفي يوم الأربعاء شرعوا في المدماك السابع وذرع سمكه سبعة عشر قيراطاً وفيه صعد السيد نائب السلطان في العمارة الشريفة والأمير رضوان إلى سطح المسجد ورأيا ما يحتاج للبياض من قببه فعزموا على الشروع فيه يوم السبت .

وفي يوم الخميس بنوا من المدماك السابع الجدار الغربي وشرعوا في اليماني منه وابتدؤوا منه بما يحاذي أعلى الركن الأسود وفيه أتم الحجارون نحت الحجر الذي عليه الحجر الأسود .

وفي يوم السبت عمل المبيضون في بياض قبب سطح المسجد وكان قد بيضه حسن باشا لما جاء بالحزام من قبل مولانا السلطان أحمد بن محمد فيما أحب . فعملوا في هذا اليوم أربع قبب بدأوا مما يلي باب العمرة ، وأخبرت بأن كل قبة تبيض بثلاثة أرادب من الجص وقد بلغني أن جملة ما أنفق في ثمن الجص في عمارة الكعبة وتبييض المنائر والقبب فوق أربعة آلاف دينار وفي الخشب فوق سبعة آلاف .

وفيه شرع البناة في المدماك الثامن وذرع سمكه سبعة عشر قيراطاً أيضاً ونصف قيراط وبدأوا فيه من الجانب الشامي .

وفي يوم الأحد أتموا المدماك الثامن وكان انتهاء دكه بعد الظهر .

وفي يوم الاثنين ألصقوا باب الكعبة الخشب المصفح بالفضة المصطنعة بالتحلية صورة وآلات متلاصقة وأنه من عمل السلطان عليه الرحمة والرضوان ، وكذلك الخشبة التي في أعلاها الباب الشريف فيها وبها مكتوب بسم ا لله الرحمن الرحيم . وجاؤا بالباب الشريف الذي كان أولاً وهو من عمل السلطان سليمان فأوقفوا الدرفتين وتركوا وضع درف الباب العليا عليها إلى وقت ضحوة النهار حتى عمل الحدادون سكرجات حديد لأعلى الباب وأسفله وحضر وقت إقامته مع الناظر على العمارة مولانا السيد والأمير رضوان وأفندي مكة حسين وشيخ الحرم ومؤلف هذا التاريخ وفاتح البيت وبعض خدام البيت .

وفيه شرع البناة في المدماك التاسع وذرع سمكه سبعة عشر قيراطاً وبدأوا فيه من الركن العراقي ثم من الغربي . والفقير و لله الحمد والمنة يحمل الأحجار والنورة في هذا العمل من الضحوة الكبرى إلى الظهر كل يوم طالباً ثواب ا الله تعالى حققه لنا بمنه .

وفي يوم الثلاثاء أتم الحدادون السكرجات فوضعت التحتيتان في محلهما من عتبة الباب السفلي بعد أن بنيت بالنورة وصغار الأحجار ثم بالأقونة ووضع الرخام الذي على وجهة الباب عليها ونقر في الرخام لمحل السكرجتين بقدرهما حتى لا يتحرك الباب منها من مكانه ووضعوا درف الباب العليا وفتحوا الباب الشريف فانفتح كما كان ووضع على الباب الشريف قفله وكان وضعه مع أذان الظهر .

وفي يوم الأربعاء شرعوا في المدماك العاشر وذرع سمكه ستة عشر قيراطاً ونصف قيراط .

وفي صبح الخميس نظف العملة ما على أمام البيت من الجباب وغيره ورفع العتالة كبار الأحجار الباقية فيه وذلك إلى حد المعجنة فرفعوا الأخشاب التي كانت مطيفة بذلك المكان وجعل منتهى الأخشاب إلى حد المعجنة وأحكم سدها بما يمنع الوصول إلى ما ورائها من ذلك المكان . وفيه شرعوا في المدماك الحادي عشر وذرع سمكه ثمانية عشر قيراطاً وابتدأوا فيه من جهة الحجر .

وبعد العصر نظفت أرض الكعبة مما يلي بابها الشرقي من وراء العمد المجعولة بنسق الكعبة وذلك مما بها من خشب وآلات وذلك ليختم في صبيحة النهار بعده صحيح البخاري فإنه قارب التمام وأن الختم يكون تمه حينئذ .

فلما كان بعد فراغي من درس التفسير بعد العشاء أرسل إلى مولانا السيد محمد الناظر على العمارة وقال : إن الأمير رضوان أرسل إلي عند صلاة العشاء أن جمعاً من فقهاء مكة أنكروا ختم صحيح البخاري بالكعبة بأنه لم يسبق إلى ذلك فأرسل إليه السيد أيقولون بحرمة ذلك أم بكراهته ؟ فقال : سألتهم فقالوا : لا وإنما هذا أمر ما سبقت به عادة ، فقال السيد : هذا لا يمنع فهلم رجلاً منكم يقرأ الصحيح ويختمه عن جوف الكعبة وما في الخير إلا خير وترك فعل الشيء فيما سلف لا يقتضي المنع منه إذا لم يقم للمنع وجه ، ثم التقى السيد معه بعد صلاة ركعتي الطواف عند المقام وطال بينهما الكلام قال السيد : إن الحامل له على

موافقتهم ما في نفسه من أفتاكم بالحق أنه لا يجوز هدم جدار الكعبة القائمة الصحيحة قال : وانفصل الأمير معه على إرسال المفتاح صبيحة وافترقنا وذهبت إلى منزلي وراجعت المواد فإذا هي شاهدة عدل بجواز قراءة السنة في جوف الكعبة ولا سند لمن غير من وجه الحق إلا الحسد فنمت وقمت عند السحر وكتبت سؤالاً في ذلك وأنه هل يمنع من أراد من أهل العلم بالحديث من ختم صحيح البخاري بالبيت الحرام والدعاء بعده لمولانا السلطان بالنصر ولمولانا الشريف بالتأييد وللمسلمين أجمعين ؟ فكتب حينئذٍ على ضوء الشمعة صاحبنا الفهامة أحمد بن محمد الخطيب الحضرمي الشافعي ما حاصله لا شبهة أن علم الحديث النبوي أفضل العلوم بعد علم التفسير وقراءته قربة وأفضل أماكن القرب الكعبة ولا مساغ لإنكار ذلك بعدما علم أنه من أفضل العلوم . وكتب أيضاً حينئذٍ كذلك الشيخ الحاسب الفرضي محمد بيري الحنفي وزاد : وإن كنا لم نسمع بمثله . وكتب مولانا القاضي شهاب الدين أحمد بن شمس الدين المدرس الحنفي المفتي وزاد : وغير جميل المنع من قراءة ألفاظ رسول الله ﷺ في بيت الله تعالى . وتوجهت بعد صلاة الشافعي الصبح إلى مولانا السيد وأريته كتابة الباقين على نور العلم السالمين من ظلمة الحسد فأشار بأن أعود له بعد صلاة الحنفي ففعلت فأرسل إلى الأمير رضوان وطلب مفتاح ما أطاف بالبيت فأرسل به مع بعض أتباعه وقال : هذا المفتاح ، فقال السيد : نحن ما نريد نتحدث في جوف الكعبة بكلام الناس ولا بسيرة الملوك وأخبارهم بل نقرأ كلام سيد المرسلين وحبيب رب العالمين ﷺ وندعو عقب ذلك لمولانا السلطان والشريف والمسلمين ، فنزل السيد وولده ونزلت صحبتهم فلما كنا عند منتهى الدرجة لمنزله إذا بالمنتصبين في منع ذلك حسداً وهم خالد وعبدالعزيز وتاج الدين المالكي وأحمد بن جعفر الرومي وعلي بن خالد واقفون ثم سألهم السيد عن حاجتهم بعد أن بدأهم بالسلام فأعلموه أنها إنكار عليه وعلى هذا الخير الذي خصصنا به فتكلم عليهم السيد وأثخن وقال لهم : إنكم متعصبون وانقلبوا و لم ينالوا من مرادهم شيئاً وردهم الله بغيظهم فدخلنا الكعبة الشريفة وصلينا ركعتين فحضر مولانا العارف بالله تعالى الشيخ تاج الدين النقشبندي ومولانا الأفندي الأعظم حسين ونائبه مفتي الحنفية ومولانا شيخ الحرم عتاقي زاده وجمع كثير من العلماء وعدد من الأتقياء الفلحاء وجلسنا فيما يلي الباب عند حذا مجتمع درفتيه من وراء العمد ودخل كثير من الناس وشرعت في صحيح البخاري من باب ما يجوز في تفسير النورية وكتب الله

بالعربية وغيرها إلى آخر الكتاب ، ودعونا أجمعين بالنصر لسلطان الإسلام والمسلمين وبعد تمام القراءة والدعاء خرجنا إلى خارج البيت مما أطاف به الأخشاب من الجانب الغربي فقسمنا فيه الطيب والبخور والريحان وكان يوماً مشهوداً ، وألفت مؤلفاً سميته القول الحق والنقل الصريح بجواز أن يقرأ في جوف الكعبة الحديث الصحيح .

وفي يوم السبت يوم عيد المعراج أصبح ابن شمس الدين من جدة وقد عين لسقف الكعبة من خشب الساج من بيوت جدة وارتكب في جمعه ما يجازيه الله عليه في عرصات القيامة فكم أخرب بيتاً وهدم وقفاً والبيت في غنى عن ذلك ، وقد كان بغير سقف في بناء إبراهيم عليه السلام وقد ألهم الله قريشاً وهم في الجاهلية أن لا يدخلوا في البيت شيئاً غصبياً وأن إخراج أذرع منها إلى الحجر أهون من إدخالهم ذلك فيه فانتبه أيها النبيه .

وفيه شرعوا في المدماك الثاني عشر وذرع سمكه ستة عشر قيراطاً .

وفي يوم الأحد شرعوا في عمل خشب السقف ونشر صفائحه وأخبرني شيخ المعلمين للنجارة أنه أربع فجوات كل فجوة اثنان وعشرون عوداً فيكون مجموع أعواده ثمانية وثمانين عوداً عدد ما كان فيها أولاً وعلى الأعواد صفائح أخشاب مسمرة عليها من ظهرها .

وفي يوم الاثنين شرعوا في المدماك الثالث عشر وذرع سمكه ستة عشر قيراطاً أيضاً . وفيه شرعوا في بسط رخام السطح على وجه الأرض ليأخذوا قياسه ورقموا ما بين الحجر وما يليه كما فعل نظيره في الأحجار المنحوتة من أحجار المداميك .

وفي يوم الثلاثاء رفعوا السرادق الذي كان على أحجار الكعبة . وفيه أتموا المدماك الثالث عشر ومنه الشروع في النصف الثاني من مداميك الكعبة .

وفي يوم الأربعاء هلال شعبان رفعوا الستارة عن الأخشاب التحتية وطووها إلى نحو نصفها من أسفلها فظهرت غرة وجه البيت الشريف وحمد الله الناس على كشف ما ستر عنهم . وفيه عمل النجارون للقواعد على العمد من أعلاها ما أحسنوا في صنعه ونقروا في كل منها ما سعته عشرة قراريط . وفيه أشار على مولانا السيد محمد الناظر على العمارة أن أصنع تاريخاً يكون فيه بناء البيت على وفق المراد فأنشأت في ذلك قولي :

خـير بيـت في البرايـا والعبـاد ... كعبـة لله في أم البـلاد

مـا لهـا بعـد ضريـح المصطفـى ... مـن شـبيه في كمـال وانفـراد

عمر السـلطان سـلطان الـورى ... نـاصر للشـرع مولانـا مـراد

عمـر الكعبـة كـلا يرتجـي ... فيـه بـراً مـن كريـم خـير هـاد

عمـر البيـت وأحيـاه بنـى ... كلـه لله مولانـا مـراد

قـام في الخدمـة في ذا سـيد ... حاكم الشرع على وفـق السـداد

في بـلاد المصطفـى واسـم لـه ... كسـمى جدالـه خـير العبـاد

إن تـرم تـاريخ عـام كملـت ... بحـروف كعقـود للجيـاد

مـع جـواد قـد أتـى تاريخـه ... جـدد البيـت علـى وفـق المـراد

وفي يوم الجمعة بسط المرحمون باقي النصف الثاني من رخام السطح للكعبة.

وفي يوم السبت رفعوا باقي النصف الثـاني مـن الستارة وطووهـا إلى منتهاهـا وصارت الكعبة بادية من غير ستره يمنع عن رؤية محياها . وفيـه شرعوا في المدمـاك السابع عشر وذرع سمكه وسمك السادس عشر خمسة عشر قيراطاً كمـا أن ذرع سمك كل من الرابع عشر والخامس عشر أربعة عشر قيراطاً ونصف .

وفي يوم الأحد عادوا لتبييض قبب سطح المسجد بعد تركهم لذلك ثلاثة أيام .

وفي يوم الثلاثاء وصلوا إلى المدماك الذي عليه بساتل أخشـاب السـقف الأول وهي ثلاثة . وفيه وصل كاتب جدة المحروسة الشـهاب أحمـد القبـاني ومعه بعض أخشاب السقف الباقي ووصل بالبستل قطعة من دقل مركـب نحو ثلثه حمل من جدة على عجلتين مقدمين ومثلهما مؤخرينٍ وجـرت بـاثني عشـر جمـلاً وأدخلت القطعة من باب الصفا حملها اثنا عشر رجلاً ووضعوها أمام مقام المالكي .

وفيه شرع المبيضون في بياض منارة باب الحزورة وربطوا أعـواد الحبـال بـدور المنارة وأرخوا حبالاً على قدر سمت عملهم حتى أتموا بياضها في نحو خمسة أيام .

وفي يوم الأربعاء رجع الشهاب القباني إلى جدة لباقي الدقل وهما قطعتان منه وصلت إحداهما إلى الرغامة في طريق جدة والأخرى بجدة مظنة وصولهما لمكة إلى بعد مضي جمعة من نزوله .

وبقي من مداميك البيت نحو ستة ، وذرع سمك كل من المدماك الثامن عشر والتاسع عشر خمسة عشر قيراطاً .

وفي يوم الخميس ركبوا أربع بكرات بحبالها لتطليع أخشاب البساتل لسقف الكعبة .

وفي يوم الجمعة عاشر شعبان شرع المرخمون في ترصيص رخام الوزرة من الكعبة من جهاتها كما في نظيره من رخام سطح الكعبة .

وفي يوم السبت أصعدوا بالدوار على البكرة الخشبية الكبيرة التي جاءت من جدة ووضعوا طرفها على الجدرين الشرقي والغربي وفيه شرعوا في بناء الشاذروان بدأوا فيه من تحت الحجر الأسود . وفيه عند العصر أقاموا واحداً من العمد للكعبة بالدوار وأجلسوه على القاعدة من الحجر وجعلوا على الحجر الذي تحته طوقاً من حديد صبوا فيه الرصاص المذاب ليربط بينه وبين العمود الخشبي .

وفي يوم الأحد أقاموا العمود الثاني والثالث بما أقيم به العمود الأول .

وفي يوم الاثنين وصلت الخشبتان الباقيتان بجدة وطريقها ، فإحداهما حملت على خمسة عشر جملاً وألقيتا عند باب إبراهيم ، ودخل بها الحمال فأصعدهما العملة والناس بالدوار إلى طرف الجدار للكعبة .

وفي يوم الثلاثاء وضعوا البستل الأول من البساتل للسقف الأول في محله من الجدر ثم الآخرين منها وبنوا على المدماك المحيط بها وهو المدماك العشرون وذرع سمكه تسعة قراريط وهو أصغرها ذرعاً .

وفي يوم الأربعاء تم بناء المدماك العشرين وتم الشاذروان من الجدار اليماني ومن الجدار الشرقي .

وفي يوم الخميس بني المدماك الحادي والعشرون .

وفي يوم السبت دهنوا عمد الكعبة الثلاثة بالجير والزعفران وطلوا ذلك بغر الجلود وأنكره شيخ الحرم بأن غر الجلود يصنع من فضلات جلود الميتة وأعضائها وربما يكون فيه شيء من أجزاء الخنزير ولصاق الدهان ممكن بالطيب الطاهر من الصمغ والسندورس . وقال كذلك إسماعيل الدهان وكان دهان العمد في أيام ، وأخبرني المباشر بعمل ذلك محمود الهندي أنه عمل في ذلك بخمسة وعشرين رطلاً

من غر الجلود وبعشرة أرطال من الأشراس الشامي ألصق به ست طاقات بفته على العمد ثم صبغها بلون العمد ثم دهنها بستة أرطال سندورس ورطل دهن نفط .

وفيه بني المدماك الثاني والعشرون خشب الأول التحتي سوى شقة منه من جهة الحجر ، بكسر المهملة منها يكون رأس درجة السطح .

وفيه بني المدماك الثالث والعشرون وذرع سمك كل من المدماك الحادي والعشرون إلى الرابع والعشرون أربعة عشر قيراطاً .

وفيه رفعوا الستارة الخضراء بعد أن طووها بأعالي الخشب المستدير ببناء الكعبة .

وفي يوم الثلاثاء وضعوا البساتل الثلاثة للسقف الثاني على أعلى البساتل بحزم خشب على حذاء العمد جوف الكعبة .

وفيه بنوا المدماك الرابع والعشرين الذي فيه البساتل العليا وعند غروب الشمس صعد السقا وعلى ظهره الوعل إلى ظهر الكعبة فصب من الوعل الماء على أخشاب السقف التحتي لتنظيفه .

وفي يوم الأربعاء أتموا المدماك الرابع والعشرين وفيه عمل المرخمون عملهم والنشارون في صفائح السقف الثاني والنجارون في عمل خشبه وعدة خشبه كالسقف تحته .

وفيه ابتدؤوا وضع الأهلة النحاس المموهة بالذهب على قبب سطح المسجد قيل وكلفة كل واحدة عملاً وغيره سبعة ذهب وعدتها نحو الثلاثين ، وحوضوا حوضاً من النورة لما يدك به الآجر على خشب سقف البيت وجاءوا بآجر لذلك ولا يخفى ما فيه ، فإنه يصطنع بالسرجين والنار لا تطهر عند الأئمة الثلاثة ، وإنما تطهر عند الإمام أبي حنيفة في رواية عنه فينبغي تنزيه بيت الله تعالى وأن لا يدك إلا بالطاهر المتفق على طهره من صغار الأحجار كما كان ، وكان الأولى لو وضعوا لذلك آجراً طاهراً خالصاً من الشبهة ، ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب .

وفي يوم الخميس شرعوا في المدماك الخامس والعشرين وذرع سمكه ثلاثة عشر قيراطاً .

وفي يوم السبت نقل النجارون خشب السقف الثاني وشرع البناة في وضعها فوضعها وعمل النجارون في شغل قطع درج السطح للكعبة وهي ست مرات تدور دورانِ درج المنارة ، و لما ركبوها حاروا في أمرها حتى أرشدهم لوضعها مهندس مصر عبدالرحمن .

وفي يوم الأحد دكوا السطح بالآجر المذكور والحكم لله على ظهر خشب السقف وتم السقف الثاني فأخرج الأمير الكسوة الحمراء من المقام الإبراهيمي فنشرت عند باب أجياد بصحن المسجد وخيط متقطعها وأخرجت الكسوة السوداء من المقام ووضعت في سبيل المؤيد شيخ وبعد العصر أدخلت الكسوة الحمراء التي لسقفه ووضعت فيه في حلق صغار حددت في هذه العمارة وركبت لتغني عن دق المسامير بجوانب الكسوة وبطنها .

وفي يوم الاثنين خيط باقي الكسوة الحمراء فيه دك البناة السطح بعد أن تركوا عملها مدة وعملوا في الجانب اليماني .

وفي يوم الثلاثاء ترك المبيضون بياض قبب السطح وبيضوا داخل البيت من تحت سقفه إلى محل الوزرة عوض الرخام الذي كان فيه أولاً وطبقوا بأحجار شبيكية ما كانوا تركوه من المداميك العليا طريقاً للعملة في صعودهم إلى سطح البيت وأتموا دك المداميك إلى محاذاة الحجر الشبيكي .

وفي يوم الأربعاء طنف بالآجر المذكور الجدر من الجوانب الأربع وفي وقت الضحى منه جاء العملة بالميزاب وهو من خشب في ذرع نحو ثلاثة أذرع ونصف البارز منه مصفح بالفضة المملأة بالذهب واللازورد مكتوب فيه اسم مهديه مولانا السلطان أحمد خان ، عليه الرحمة والرضوان ، وكان وصوله لمكة عام عشرين وألف مع حزام البيت ، فجاؤوا يحملونه من بيت رضوان ، فلما وصلت الحملة إلى أسفل السقالة نزل مولانا السيد محمد ناظر العمارة فتلقاه وحمله على مقدم رأسه ونزل لذلك شيخ الحرم والأمير رضوان ، فحملوه حتى أوصلوه لمحله من الجدار وأسلموه للبناة ، وبعد تمام عمله وبنائه دعى لمولانا السلطان بالتأييد والنصر ولصاحب مكة بالإعانة وانصرف القوم وما تصدق عند ذلك بدافق وقد كان حسن باشا لما وضعه في عمارته لمولانا السلطان أحمد كشح الذهب والفضة على الس شكر الله على هذه المنة .

وفي يوم الخميس صعد المبيضون إلى سطح الكعبة فبيضوا الطنف الآجر أجمع بدأوا فيه بالجانب الشرقي من الحَجر -بالفتح- إلى الحِجر -بكسر الحاء-، ثم من اليماني حتى أتموا بياضه أجمع في عصر ذلك اليوم، وذلك قدر أحد وثمانين ذراعاً.

وفي يوم الجمعة هلال رمضان عند طلوع الشمس أخرجت الكسوة السوداء ونشرت أمام باب الصفا وما يقاربه ثم حمل كل ربع في حمله وصعد بها إلى السطح ثم فتح الفاتح المقام الإبراهيمي وأخرج منه البرقع فصعد به الأمير رضوان إلى أعلى السطح وأرسلت شقو الكسوة من الجوانب الأربع بدئ بالشرق منها وأرسل البرقع إلى حذاء الباب من أعلاه، ثم شمرت الكسوة من باقي الأركان ونزل الأمير وأحضرت عشر خلع لمولانا صاحب مكة اثنتان ثم للحاكم السياسي القائد جوهر بن ياقوت، ثم لفاتح البيت، ثم لاثنين من شواويش الأمير رضوان، ثم لواحد من جماعة السيد، ثم لابن زين وأخيه، ثم لابن شمس الدين، ثم لسليمان شيخ النجارين. وبعد انفضاض المجلس عاد فاتح البيت إلى السيد محمد الناظر وهو بالحطيم وعاد الأمير رضوان فجاؤوا بخلعة ألبسوها شيخ خدام الكعبة وبعد عصر اليوم ألبسوا شيخ الحجارين المصارية خلعة.

وفي يوم السبت فرشوا رخام سطح البيت عليه من وقت الضحى.

وفي يوم الأحد أتموا عمل الشاذروان من الجهة الغربية وهي آخر جهات عمله وكان قد تكسر من رخامه عشرة فأبدلوها برخام جديد وضعوه في الجانب الغربي.

وفي يوم الثلاثاء صعد جمع من المرخمين إلى سطح الكعبة ومعهم لاقونة، وشرع النجارون في تفكيك أخشاب السقايل.

وفيه شرع البناة في تهيئة أحجار لبناء مقدم مقام الحنبلي ومحرابه لعتق الأول جداً، وتم عمل المبيضين لداخل الكعبة، وشرع المرخمون في نصب رخام الوزرة وابتدأ عملهم من الجانب اليماني من جهة الحجر الأسود.

وفي يوم الأربعاء شرع مهندس مصر في هدم الجدر القبلي من مقام الحنبلي، وكان حجره شميسياً فأبدل بالشبيكي وأتموا فيه معظم العمل.

وفي يوم السبت عاد المبيضون إلى قبب سطح المسجد وتوجه كل من السيد والأمير والمهندس المصري وابن شمس الدين إلى دار أم المؤمنين خديجة ، رضي الله عنها ، فعرفوا ما يحتاج منها للعمارة ، وقد ذكرت أعمالها كلها في كتابي النضحات الأريجية في متعلقات بيت أم المؤمنين السيدة خديجة ، وفيه هدموا مقدم المقام المالكي وكان حجر شميسياً فأبدلوه بالشبيكي .

وفيه تم نصب درجة السطح للكعبة . وفي يوم الأحد نظفوا باطن الحجر وجوانبه عما كان فيه ، وشرعوا في بناء جداره وباشره المهندس عبدالرحمن المصري ومعه فالح الطباطي وابتدأوا في عمله من الجانب العراقي فهدموا منه أربع تركيبات إلى الأرض وانكشف تحت الرخام حجر صوان شبيكي لعله من أحجار الكعبة التي أخرجت من بناء ابن الزبير لها في عمل الحجاج فإن الأزرقي ذكر أنه دفن ذلك في جوف الكعبة والذي وجد في باطنها أحجار صغار مرضومة .

وفي يوم الثلاثاء عمل البناة في الحجر وهدم جداره شيئاً فشيئاً كلما هدموا شيئاً بنوا ما وراءه .

وفيه زادوا من سمك الجدار القبلي لمقام الحنبلي فزادوا مسافة ، وكذا أزادوا مثل ذلك في مقام المالكي وكان تمام بناء وجه جدار الحجر يوم الخميس .

وفي يوم السبت وضعوا أحجار رفرفة عليه بمكانها وهي منقورة فيها أسماء من له في الحجر عمارة من خليفة أو ملك ، وكل ذلك من عمارة الملك الأشرف قانصوه الغوري في أوائل القرن العاشر ، وقد بسطت ذلك في كتابي تنبيه ذوي النهى والحجر على فضائل وأعمال الحجر ، وفقدت منه رخامة فأبدلت برخامة ملساء .

وفي يوم الأحد شرع البناة في هدم وجه الجدار الباطني المحاذي للكعبة وبدأوا فيه من الجانب الغربي ليتصل العمل بعضه ببعض .

وفيه عمل المرخمون في الوزرة وقد جاودوا على ترخيم كل ذراع منه بثلاثين محلقاً .

وفي يوم الاثنين شرعوا في بناء جدار قدر قامة من أسفل درجة سطح الكعبة وتم وجه الجدار للحجر الباطن .

وفي يوم الأربعاء شرع المرخمون في ترخيم وزرة الجدار الشرقي وعمل الحدادون لدرجة باب السطح باباً .

وفي يوم الخميس كمل المهندس المصري ما بين مسافات جدار الحجر عند الظهر . وأحضر المعلم محمود الهندي إلى الحجر الأسود وجعلت ستارة وأقطع من الحجر فيما قال لي ثلاثة عشر قطعة كباراً والصغار جداً كثير فجمع بعضها ببعض بمركبه الذي صنعه لذلك وجعلها في باطنه وألصق الكبار على وجه الحجر ويقال : أنه فقد من الحجر ثلاثة أحجار والعلم عند ا لله .

وفي يوم الجمعة عمل المرخمون في جوف الكعبة عملهم ، وعند العصر كتبوا محضراً أرسلوه إلى عزيز مصر فيه شهادة المكيين بحسن عمارة البيت المعادة .

وفي يوم السبت سدوا الباب الغربي بحجارة شبيكية وتمت عند الغروب وبقي من وجهه الباطن ومن دكه قليل وفتحوا من حينئذ الباب الشرقي وقد قارب الترخيم التمام .

وفي يوم الأحد تم دك الباب الغربي وترخيم الوزرة وما بقي إلا ترخيم أرضها فإن رخامها وإن لم يقلع من محله إلا أنه تأثر في الجملة فشرع فيه المرخمون .

وفي يوم الأربعاء فتحوا باب الكعبة لباقي الترخيم وفيه زاد البناؤون من سمك مقام المالكي مدماك وكان تمام عمله عند العصر من هذا اليوم .

وفيه جدّ المرخمون في عملهم وبعد صلاة العصر أتموا ذلك .

وفي يوم السبت الثامن من شوال حضر المرخمون إلى الحجر فنصبوا خشبتين في عرض باب الحجر ونصبوا خيمة وسطه فرخموا وجه جدار الحجر على أتم الوجوه وشرعوا في ترميم المتكسر من رخام الطواف بإخراج القطع المتكسرة وإبدالها بسالم من ذلك .

وفي يوم الأحد بنى البناة ما بين السليمانية وبيت مرزا مخدوم جداراً مستقيلة بالحجر الغشيم وأعلاه بالشبيكي المنحوت وعجنوا النورة لعملهم ذلك تحت أروقة باب الزيادة التي بين المصحفين .

وفيه شرع المنقلون في تكحيل صفة المطاف وممشى باب السلام وباب الزيادة وباب العمرة وباب إبراهيم وباب الحزورة وباب الصفا وفرشات الأبواب في أيام عديدة عيت في أصله .

وفي يوم الأحد دخلت الحمر على ظهورها الحصى الذي يفرش به المسجد الحرام وكبته عند مقام الحنبلي وما يحاذيه ودخولها مع عدم أمن تلويثها المسجد بالبول والروث حرام لاسيما ولا ضرورة إليه وترك فرش الحصى عليه كله أهون من تنجيسه وإبقاء أثر النجس فيه فإنهم لم يتبعوا ذلك ولا غسلوا أثره والأمر لله .

وفيه عاد المعلم محمود الهندي فأصلح في الحجر الأسود كما فعل في رمضان قال لأن أجزاء الحجر لا تمكث مع المركب فلا بد من تفقدها وإلا تذهب أجزاء الحجر وكان عمله المذكور عند صلاة الظهر وتم عمله ثاني يوم في الوقت المذكور من اليوم قبله .

وفي يوم الأربعاء أتم المبيضون بياض قبب الجانب الشامي من قبب السطح ولم يبق سوى قبب زيادة باب الزيادة الشامية وبيضوا منارة باب العمرة في يوم ونصف .

وفيه أصلح النجارون خلل درجة الكعبة بإبدال الخشبتين وبإبدال درجة من درجها .

وفيه أصلح المرخمون باب الحجر الشرقي بقلعه وإبدال الخراب بالصالح وقلعوا الرخام المتكسر في المعجنة .

وفي يوم السبت تم إصلاح درجة الكعبة وجرت بعد العصر إلى محلها .

وفي يوم الأحد غرة ذي القعدة الحرام فتحت الكعبة وصعد المرخمون لجلاء رخام الوزرة . وفيه بيضوا قبب زيادة باب الزيادة .

وفي يوم الجمعة شرع المرخم ينقر في حجر من رخام الكعبة تاريخاً لعمارة الكعبة ، صاغ ألفاظه مولانا السيد محمد بن السيد محمد الحسين الأنقوري نائب السلطان في عمارة البيت الشريف وصورته « بسم الله الرحمن الرحيم ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم ، تقرب بتجديد هذا البيت العتيق إلى الله سبحانه وتعالى خادم الحرمين المحترمين وسائق الحجاج بين البرين والبحرين السلطان مراد خان بن السلطان أحمد خان بن السلطان محمد خان خلد الله ملكه وأيد سلطنته في أواخر شهر رمضان المبارك المنتظم في سلك شهور سنة أربعين وألف من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل التحية » .

وفي يوم الأربعاء أخذوا الأقونة جعلوها تحت جدر طنف السطح لئلا يدخل ماء المطر فيها إلى الخشب تحتها فتعمل فيه الأرضة .

وفيه جدد النجارون أخشاباً للمحكمة الشرعية .

وفي يوم السبت تم تبييض منارة باب الزيادة وعمل المرخمون في جلاء رخام الشاذروان .

وفيه أدخلوا الحمر المسجد لنقل بعض أوساخ طاهرات منه وصارت تروث فيه وتبول والحكم لله وما ندري ما نقول .

وفيه شرعوا في بياض منارة الملك الأشرف قايتبائي وأتموها في يومين وقليل .

وفي يوم الخميس تم نقر التاريخ .

وفي يوم الجمعة جيء به إلى بيت السيد الناظر على العمارة وفيه عمل النجارون كرسياً ليصعد منه للكعبة ويعقد عليه الخدمة حال خياطة شيخهم لثوبها .

وفي يوم السبت أعطي الحجر المنقور فيه التاريخ للدهان فحلاه بالذهب وأتم عمله.

وفي يوم الاثنين حضر مولانا الشريف ومولانا السيد محمد والسيد حسين وولداه ومولانا السيد محمد الناظر على العمارة ومولانا الأفندي وشيخ الحرم والأمير وجيء من بيت شيخ الحرم بنحو سخانتين وبعد الدعاء فتحت الأولى فأقمنا منها عشرون قنديلاً من الذهب العين واحد مصطنع باللؤلؤ والثانية أخرج منها ثلاثون قنديلاً من الفضة فدعاء الأمير فاتح البيت محمد الشيبي وأسلمه ذلك بحضرة الجمع وأشهد عليه أنه تسلم ذلك وصار في ضمانه ثم دعا شيخ الوقادين فجاء ليعلقها في أماكنها ثم جرت الدرجة إلى الباب وصعد مولانا الشريف وأولاده والأمير .

وفيه بنى المرخمون الحجر الذي نقر فيه التاريخ قبالة الباب الشرقي .

وفي يوم السبت حضر شيخ الحرم وأولاده مولانا الشريف والأمير والفاتح وبعض الخدام للبيت فأصعدوا سطولاً من ماء زمزم وغسلوا بذلك الكعبة وبخروها وانصرفوا في ضحوة النهار .

وفي يوم الاثنين جلا المرخمون من وجه الحِجر -بكسر الحاء- ما عليه من الزيت الحلو والغبار وكذا أعادوا الجلاية في آخر النهار .

وفي يوم الخامس والعشرين من ذي القعدة جاء ابن شمس الدين وفالح فكحلوا بالنورة ما بين الفضة المصفح بها الخشب في خذي الباب وكحلوا كل ما كان يحتاج إلى التكحيل .

وفي يوم هلال ذي الحجة أصلحوا الحجر الأسود ودهنوه بسواد وسندروس.

وفي ثاني الشهر عملوا محل شعل النار عند الأهلة والأعياد من أعلا مقام الشافعي وكان قد سقط في أثناء السنة فأصلح في هذا اليوم وهو آخر عملهم في هذا البيت الحرام والمسجد المحرم زيد من الإجلال والإحترام . انتهى ما نقل من رسالة الشيخ ابن علان الصديقي .

قال في تحصيل المرام : وهذا البناء هو الباقي لعصرنا وهو من أجل مفاخر بني عثمان جمل الله بدولتهم الزمان ، ونظم الفاسي في شفاء الغرام :

بنى الكعبة الغراء عشر ذكرتهم ... ورتبتهم حسب الذي أخبر الثقة
ملائكة الرحمن آدم ابنه ... كذاك خليل الله ثم العمالقة
وجرهم يتلوهم قصي قريشهم ... كذا ابن زبير ، ثم حاج لاحقة

وذيله بعضهم بقوله :

وخاتمهم من آل عثمان بدرهم ... مراد المعالي أسعد الله شارقه

وبيت آخر :

ومن بعدهم من آل عثمان قد بنى ... مراد حماه الله من كل طارقة

وقال العلامة علي بن عبدالقادر الطبري في الأرج المسكي وقد كنت نظمت أسماء من عمّر البيت الشريف فقلت :

بنى البيت خلق وبيت الإله ... مدى الدهر من سابق يكرم
ملائكة ، آدم ، ولده ... خليل ، عمالقه ، جرهم
قصي ، قريش ، ونجل الزبير ... وحجاج بعدهم يعلم
وسلطاننا الملك المرتضى ... مراد هو الماجد المكرم المنعم
أدام الإله لنا ملكه ... وأبقاه خالقنا الأعظم

ونظم العلامة محمد علي بن علان الصديقي ثلاثة أبيات جمع فيها بناء الكعبة المعظمة وهي هذه :

بنى الكعبة الأملاك ، آدم ، ولده   شيث ، فإبراهيم ، ثم العمالقة

وجرهم قصي مع قريش وتلوهم   هو ابن زبير ، ثم حجاج لاحقه

ومن بعد هذا قد بنى البيت كله   مراد بن عثمان فشيد رونقه

ذكر السيد أحمد دحلان في سالنامته وللقاضي تاج الدين المالكي مؤرخاً لعمارتها وممتدحاً معمرها بقوله :

هنيئاً لملك خصه ا لله واجتبى   وصداه للبيت العتيق مجده

بنى البيت بعد ابن الزبير و لم يفز   سواه بهذا الفخر لا زال سعده

مليك أقام ا لله أيام ملكه   ولا زال خفاقاً مدى الدهر بنده

مليك ملوك الأرض طرا عبيده   تدين له شرقاً وغرباً وجنده

مليك حباه ا لله فخراً وسؤدداً   وصيتاً مداه لا ينال وحده

بتعمير بيت الإله على يدي   من اختاره رب العلى دام رشده

فدونك تاريخاً لعام بنائه   وفياً بضبط العام حين تعده

مراد بنى بيت الإله وزاده   سناء بهاء يزدهي زيد مجده

وله رحمه ا لله تاريخها نثراً أسس بنيانه على تقوى من ا لله وهدى ثم نظمه فقال:

تاريخه أسس بنيانه   على هدى تقوى من ا لله

ذكره العلامة نور الدين الموسوي في كتاب نزهة المجالس .

فوائد تتعلق بهذا الباب :

الفائدة الأولى : قال السنجاري في منائح الكرم : لطيفة بل منقبة شريفة مما تفرد به شيخ مشايخنا العلامة خاتمة المحققين الشيخ محمد بن علان الصديقي المكي رحمه ا لله أنه قرأ البخاري في جوف الكعبة بطرفه في مدة هذه العمارة كما رأيته بخطه وهو مما لا يتفق لغيره من الأئمة . انتهى .

أقول : ذكر الشيخ أحمد الشماع في ترجمة الشيخ عبدا لله البصري أنه أقرأ في جوف الكعبة الشريفة صحيح البخاري سنة تسع ومائة وألف ، وكان في داخلها عمارة وكذلك أقرأه في داخلها مرة أخرى سنة تسع عشرة ومائة وألف ، وكان أمر بتجديد بابها مولانا السلطان أحمد والقائم بذلك صاحب جدة وشيخ الحرم

الشريف وكذلك أقرأ مسند الإمام أحمد بن حنبل، رحمه الله جميعه في الروضة الشريفة عند رأس الجناب المعظم ﷺ، في ست وخمسين مجلساً وذلك في سنة ألف ومائة وإحدى وثلاثين.

مما قيل في تاريخ هدم السيل للكعبة المشرفة، وبناء السلطان مراد الرابع لها ما يأتي:

﴿اعلموا أن الله على كل شيء قدير﴾ هذه الآية تتضمن بحساب الأبجد على تاريخ وقوع هدم الكعبة وهو سنة (١٠٣٩) ألف وتسعة وثلاثين هجرية، وفي تاريخ الهدم قال الإمام فضل الطبري:

سئلت عن سيل أتى — والبيت منه قد سقط
متى أتى قلت لهم — تاريخه كان غلط

(١٠٣٩) هـ

وقال بعضهم في هدم الكعبة أيضاً:

لا غرو أن الذنب أوجب ما — مما أرى ورأيته مني فقط
فأخذت من تاريخه من هجرة — وحسبته فوجدت صحته غلط

(١٠٣٩) هـ

وقيل في تاريخ بناء السلطان مراد المذكور للكعبة بعد السيل المذكور:

مراد بنى بيت الإله وزاده — سناء بهاء يزدهي زيد

وقيل أيضاً في ذلك:

تاريخه أسس بنيانه — على هدى تقوى من الله

عدد حجارات الكعبة الظاهرة في هذا البناء

بناء الكعبة المشرفة بهذا الشكل الحالي هو من بناء السلطان مراد الرابع من سلاطين آل عثمان، بناها رحمه الله تعالى وأحسن إليه سنة (١٠٤٠) أربعين وألف من الهجرة بسبب السيل الكبير الذي دخل المسجد الحرام فهدمها، ولم تزل هذه البناية قائمة إلى اليوم على أحسن حال، فهي بناية قوية متينة ثابتة الأركان والبنيان ولله الحمد، وهي مبنية بالحجارات الكبيرة السوداء المشوبة بالزرقة، المأخوذة من نفس جبال مكة القوية الصخرية الصماء.

ومثل هذه الحجارة يسمونها عندنا بمكة « الحجر الشبيكي » نسبة إلى جبل الشبيكة بقرب الشيخ محمود بجرول الذي كانوا يقتطعون الحجارة منه للكعبة ، ونعتقد أن جبل الشبيكة هو الذي نسمية الآن بجبل الكعبة لأن حجارتها تقطع منه لصلابتها .

وحجارات الكعبة فيها الكبير والصغير ، فأكبر حجاراتها طوله (١٩٠) مائة وتسعون سنتيمتراً ، وعرضه (٥٠) خمسون سنتيمتراً ، ورأسه (٢٨) ثمانية وعشرون سنتيمتراً ، ويطلق البناؤون بمكة على رأس الحجر « مخ الحدة » بفتح الحاء المهملة . وأصغر حجاراتها طوله نحو (٥٠) خمسون سنتيمتراً ، وعرضه (٤٠) أربعون سنتيمتراً تقريباً .

ولقد انتهزنا فرصة تجريد الكعبة كلها من كسوتها عند تجديد وعمارة سقفها ، فأحصينا جميع حجاراتها الشبيكية الجبلية صغيرها وكبيرها ، الظاهرة من خارجها فقط مما يلي ثوبها وكسوتها ، وذلك في يوم الاثنين الثامن والعشرين من شهر رجب سنة (١٣٧٧) سبع وسبعين وثلاثمائة وألف من الهجرة ، فوجدنا عدد حجاراتها الظاهرة فقط من أعلى السطح إلى نفس الشاذروان في أرض المطاف كما يأتي في هذا الجدول:

عدد الحجارة بالأرقام	عدد الحجارة بالكتابة	ملحوظات
٤١٩	أربعمائة وتسعة عشر	في جميع الجدار الشرقي للكعبة الذي فيه الباب .
٤٤٩	أربعمائة وتسعة وأربعون	في جميع الجدار الغربي للكعبة الذي بظهرها.
٤٢٨	أربعمائة وثمانية وعشرون	في جميع الجدار الجنوبي الذي هو بين الركن الأسود والركن اليماني.
٣١٨	ثلاثمائة وثمانية عشر	في جميع الجدار الشمالي الذي فيه الميزاب على حجر إسماعيل .

فتكون جملة الحجارة الشبيكية الجبلية الظاهرة من خارج الكعبة المشرفة من أعلاها إلى أسفلها ما عدا حجارة الشاذروان هي (١٦١٤) ألف وستمائة وأربعة عشر حجراً ، من الحجارات الشبيكية الجبلية السوداء.

واعلم: أن هذا العدد هي للحجارات الظاهرة من خارج جدران الكعبة التي هي من وراء كسوتها السوداء، أما الحجارات التي هي مبنية مع نفس الجدران فلا يمكن عدها مطلقاً لعدم ظهور شيء منها، والذي يغلب على ظننا أنه يوجد في بناء الكعبة أضعاف هذا العدد من الحجارة، لأن عرض جدارها تسعون سنتيمترا -أي ما يقارب متراً واحداً- فبناء عرض جداره بهذا القياس لا بد أن يحتوي على شيء كثير من الحجارة. أما حجارة الشاذروان البيضاء فقد ذكرنا عددها عند الكلام على مبحث الشاذروان فراجعه في محله.

قوة بناية السلطان مراد الرابع للكعبة

لقد ذكرنا فيما تقدم أن خليل الله إبراهيم عليه أفضل الصلاة والتسليم كان بنى الكعبة بالرضم أي حجارة بعضها فوق بعض من غير طين ولا نورة ثم بنتها كذلك من أتى من بعده، فلما كانت بناية قريش بنتها بالطين والحجارة الصغيرة وكذلك كان بناء عبدالله بن الزبير رضي الله تعالى عنهما، وبناية الحجاج الثقفي غفر الله تعالى لنا وله وعفا عنا وعنه.

أما بناية السلطان مراد خان الرابع فلقد كانت بالحجارة الصماء الطويلة وبالجص والنورة البلدية التي من مكة المكرمة، وكانت الحجارة التي بنيت بها من الجبال الشديدة الصلابة التي بمكة، وكان بعض الحجارة طولها متراً واحداً وبعضها نصف متر وبعضها أقل وبعضها أطول كما بينا وأحصينا عدد حجارتها، وكما هذه البناية المحكمة ظاهرة للعيان أمام أنظار الناس.

إنه إلى عامنا هذا عام (١٣٨٤) ألف وثلاثمائة وأربع وثمانين قد مر على بنايته للكعبة (٣٤٤) ثلاثمائة وأربع وأربعين سنة لم تخرج منها قطعة صغيرة من الحجارة لا من أسفلها ولا من أعلاها من جهة السقف، ولولا أن سقف الكعبة محمل على أعواد خشبية لم يحتج السقف إلى تجديد في زماننا هذا، لذلك نعتقد أن هذه البناية ستدوم إلى نحو ألفي سنة أيضاً أي إلى قيام الساعة إن شاء الله تعالى والله تعالى أعلم.

اللهم زد بيتك هذا تشريفاً وتعظيماً ومهابةً وتكريماً واجعل بلدك الأمين في أمن وأمان ورضاء واطمئنان واجعل أهله من المغفورين المقبولين لديك واجعلهم

من الآمنين يوم الفزع الأكبر من غضبك والنار آمين يا رب العالمين، وصلى الله تعالى وسلم على النبي الأمين وعلى آله وصحبه أجمعين.

انظر: صورة رقم ٧٧، للكعبة المشرفة الموجودة اليوم، بناية السلطان مراد الرابع

انظر: صورة رقم ٧٨، السلطان مراد الرابع أحد مجددي بعض بناء الكعبة المشرفة

ترجمة السلطان مراد الرابع

ولد الغازي السلطان مراد الرابع ابن السلطان أحمد ابن السلطان محمد سنة ألف وثمانية عشرة هجرية، وقيل سنة ألف وإحدى وعشرين، تولى السلطنة وبويع له باتفاق الآراء من العلماء والوزراء في يوم الأحد رابع عشر ذي القعدة سنة اثنتين وثلاثين وألف، وكان عمره يومئذٍ إحدى عشر سنة وسبعة أشهر، وقيل أربعة عشرة سنة وهو السابع عشر من سلاطين آل عثمان، وأعظمهم شجاعة وقوة وهمة ويلقب بفاتح بغداد،وهو الذي غزا بلاد العجم لأن سلطانها الشاه عباسا كان قد أخذ كثيراً من البلدان التابعة لآل عثمان حتى أخذ بغداد أيضاً فجرد السلطان مراد جيشاً عظيماً لمحاربته وتوجه هو بنفسه لقتاله وذلك سنة ألف وأربع وأربعين ففتح بلاد العجم، ثم توجه بنفسه أيضاً لفتح بغداد سنة ثمان وأربعين وألف ففتحها بعد أن حاصرها أربعين يوماً ودخلها العسكر ثم دخلها السلطان في أثرهم وقتلوا من العجم نحو ثلاثين ألفاً وأسروا من رؤسائهم كثيراً وبذلك ضعفت شوكت العجم وزالت قوتهم.

وكان السلطان مراد رحمه الله تعالى كثير الإحسان لأهل الحرمين وأمر مصر وغيرها من الجهات بإجراء حبوبهم وإرسال غلات أوقافهم وكان يحثهم بذلك على الدوام. وكان أيضاً كثير الالتفات إلى أخبار الرعية مطلقاً، وكان كثير البحث عن أحوال ولاة البلدان لا يغفل عنهم بحيث صار الولاة لا يجاوزون حداً، وفي زمانه وقع السيل العظيم بمكة المشرفة سنة تسع وثلاثين وألف ودخل المسجد الحرام وبسببه انهدمت الكعبة المعظمة، فقام بتعميرها وبنائها سنة أربعين وألف هجرية، وهذا من أعظم مناقبه وأفخر أعماله، وهو الذي أمر بإبطال القهاوي في جميع ممالكه ومنع شرب الدخان واستعمال النشوق، وكان يجازي على ذلك.

ولقد كان بطلاً من الأبطال قوي الجأش متين الساعد، ذكر أنه أرسل إلى مصر درقة نحو إحدى عشرة طبقة ضربها بعود فثبت فيها وأصدر أمره إلى

العساكر المصرية بإخراج العود منها وأن من أخرجه يزاد في علوفته فحاولوا إخراجه فعجزوا عن ذلك، ثم إنه أرسل أيضاً قوساً إلى مصر وأصدر أمره إلى العساكر بجر هذا القوس وزيادة علوفة من يفعل ذلك فحاولت العساكر جره فلم يقدروا، ثم علقت الدرقة بالديوان السلطاني بمصر وعلق القوس بباب زويلة .

توفي السلطان مراد رحمه الله تعالى في شوال سنة ألف وتسع وأربعين هجرية، وعمره ثمانية وعشرون عاماً، وقيل إحدى وثلاثون، ومدة ولايته سبعة عشر سنة، ودفن في تربة والده السلطان أحمد خان رحمهما الله تعالى .

انتهى ملخصاً من خلاصة الأثر بصحيفة (٣٣٦) ومن الفتوحات الاسلامية بصحيفة (١٣٠) في الجزء الثاني، ومن قاموس الأعلام بصحيفة (٤٢٥٤) في الجزء السادس تأليف شمس الدين سامي وهو باللغة التركية، ولقد جاءت ترجمته أيضاً في صحيفة (٥٤٨) من كتاب نقد التواريخ باللغة التركية .

وجاء في كتاب تحفة الخطاطين باللغة التركية أن السلطان المذكور رحمه الله تعالى كان شاعراً وكان خطاطاً يكتب الخط الحسن حتى اشتهر بذلك، وأن السيد إبراهيم زاده أفندي الذي كان في زمانه نظم قصيدة ذكر فيها كثيراً من آثاره الخطية وما له من البراعة التامة في الخط .

ونحن لهذه المناسبة ذكرنا ترجمة صغيرة لهذا السلطان ووضعنا صورته في صحيفة ٢٧٥ من كتابنا تاريخ الخط العربي وآدابه المطبوع بمصر .

ولقد جاء ترجمة السلطان مراد المذكور في كتاب «تلخيص التاريخ العثماني المصور» وهو كتاب صغير به بعض رسوم السلاطين، فنحن نذكر هنا منه نبذة تضاف إلى ترجمته هنا وهي : جلس السلطان مراد الرابع المذكور على تخت الملك سنة (١٠٣٢)، وهو في الثانية عشرة من عمره، فأصبحت إدارة الملك في يد والدته «ماه بيكر» الملقبة بكوسم سلطان، فلما بلغ أشده أخذ زمام السلطنة بيده وصار يتجول بنفسه في الليل متنكراً ومنع الفحش وشرب الخمر وضرب على أيدي الظالمين والعابثين بالفساد، وفي سنة (١٠٤٩) توفي السلطان مراد المذكور بعلة النقريس وهو في سن الثلاثين، فكانت مدة سلطنته ستة عشر عاماً . انتهى من الكتاب المذكور.

فكأنه عمر الكعبة المشرفة وهو في سن العشرين بنفسه لا بواسطة والدته، فسبحان واهب المكرمات لمن يشاء رحمه الله تعالى رحمة الأبرار وجزاه عن أعماله

العظيمة خير الجزاء. وبعد أن انتهى من عمارة الكعبة المشرفة في سنة (١٠٤٠) ألف وأربعين هجرية جدد في هذه السنة المذكورة أيضاً عمارة مسجد مزدلفة كما هو مكتوب في محرابه وقد قرأناه بأنفسنا حينما ذهبنا إلى مزدلفة في شهر صفر سنة (١٣٨٤) هجرية وهي العمارة الموجودة في زماننا هذا، لكن في سنة (١٣٧٧) هجرية زادوا في ارتفاع مسجد مزدلفة بمقدار قامة واحدة تقريباً، ويا ليتهم ما زادوا في ارتفاعه شيئاً ليرى الحاضرون في المشعر الحرام الحجاج الذاهبون إلى عرفات والراجعون منها.

بيان بأسماء السلاطين من آل عثمان الذين قاموا بتعمير الحرمين الشريفين

١- السلطان سليمان خان الأول بن السلطان سليم.

٢- السلطان سليم خان الثاني بن السلطان سليمان.

٣- السلطان مراد خان الثالث بن السلطان سليم.

٤- السلطان محمد خان الثالث بن السلطان مراد خان.

٥- السلطان أحمد خان الأول بن السلطان محمد.

٦- السلطان مراد خان الرابع بن السلطان أحمد.

٧- السلطان مصطفى خان الثاني بن السلطان محمد.

٨- السلطان عبد الحميد خان الأول بن السلطان أحمد.

٩- السلطان محمود خان الثاني بن السلطان عبدالحميد.

١٠- السلطان عبدالمجيد خان بن السلطان محمود.

١١- السلطان عبدالعزيز خان بن السلطان محمود.

١٢- السلطان عبدالحميد خان الثاني بن السلطان عبدالمجيد.

١٣- السلطان محمد رشاد خان الخامس.

رفع الراية على قلاع الحرمين

منذ قيام سلاطين آل عثمان العظام بخدمة الحرمين المحترمين المستوجبة للافتخار واستمرار إجراء الأحكام الشرعية باسم السلطنة السنية فيها وقيام الجنود العثمانيين بالمحافظة على أرواح وأموال سكان البلدتين المذكورتين لم ترفع الراية العثمانية لا على القلاع ولا على الثكنات العسكرية إلى تاريخ اليوم (١٢٩٦) .

إن عدم رفع الراية على القلاع الشاهانية بالحرمين الشريفين في الواقع كان من مقتضيات مراسم الاحترام للبلاد المقدسة . ولكن نظراً لعدم وجود أي علامة تدل على الحكومة التي تحكم فيها وهي قبلة كافة الموحدين ونظراً لأن هذا موجب لمحاذير عديدة في المستقبل قررت الحكومة العثمانية رفع الراية على القلاع والثكنات بمكة المكرمة والمدينة المنورة بعد أن اقترن هذا القرار بتصويب من السلطان عبدالعزيز خان . انتهى مترجماً من كتاب مرآة مكة المكرمة لأيوب صبري من المجلد الأول صحيفة (٥٠) .

ولا يستبعد من سلاطين آل عثمان شدة احترامهم للحرمين الشريفين ، فإن الناظر اليوم إلى بناية المسجد الحرام القديمة الموجودة في زماننا هذا ، يجد أن جميع أروقة المسجد الحرام وقبابها أقل ارتفاعاً من ارتفاع الكعبة المشرفة ، وذلك احتراماً لها ، رحمهم الله تعالى جميعاً .

وانظر إلى الحكاية الآتية : فلقد أراد أيضاً السلطان أحمد بن السلطان محمد بن مراد بن سليم الثاني من سلاطين آل عثمان أن يهدم الكعبة حين تصدع جدارها الشرقي وجدارها الغربي ويبنيها ويجعل حجارتها ملبسة واحداً بالذهب وواحداً بالفضة فمنعه العلماء من ذلك وقالوا : يمكن حفظ هذه الجدران بنطاق يلم هذا الشعث فعمل لها نطاقاً من النحاس الأصفر مغلفاً بالذهب ، وأنفق عليه نحو ثمانين ألف دينار ، وجرى تركيبه عليها في أواخر عام العشرين بعد الألف وأوائل العام الذي بعده كما جاء ذلك في الملحقات التي بآخر الجزء الأول من تاريخ الأزرقي المسمى « أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار » المطبوع بالمطبعة الماجدية بمكة المكرمة سنة (١٣٥٢) هجرية والذي منع السلطان أحمد المذكور من عمل ذلك هو شيخ الإسلام محمد بن سعد الدين ، وقال له : إن هذا يزيل حرمة البيت ، ولو أراد الله سبحانه وتعالى لجعل بيته الحرام قطعة من الياقوت . فكف السلطان عن

ذلك . انتهى من كتابنا "مقام إبراهيم عليه الصلاة والسلام" المطبوع بمطبعة الحلبي بمصر .

ومما يروى عن أحد سلاطين آل عثمان الأتراك : أنه لما ذهب لينام في غرفة نومه ليلاً وجد فيها مصحفاً معلقاً على جدارها ، فوقف عند المصحف بأدب واحترام ولم ينم إلى أن أصبح ، وقد نسينا اسم هذا السلطان . إن جميع سلاطين آل عثمان ، رحمهم الله تعالى كان إيمانهم قوياً راسخاً لا يميلون إلى سفاسف الأمور وإلى الفسق والفجور ، وكانوا يحترمون العلم وأهله والصالحين والفضلاء ، لذلك تولاهم الله بعنايته ورعايته ففتح لهم الفتوحات ونصرهم على أعدائهم نصراً مبيناً .

الزمن الذي بين بنايات الكعبة

لا نريد الخوض في بيان السنوات التي كانت بين كل بناية من البنايات السابقة للكعبة المعظمة بيت الله الحرام ، من بناء آدم عليه السلام إلى آخر البنايات التي مضى الكلام عليها ، لأن ذلك يرجع إلى العصور الأولى البعيدة التي لا تدرك ، فمن يعلم كم مضى ما بيننا وبين آدم من آلاف السنين أو ملايين السنين ، إلا الله جل جلاله خالق الأرض والسموات ، فهو تعالى وحده علام الغيوب ، يعلم ما كان وما يكون ، هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم ، يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو معكم أينما كنتم والله بما تعملون بصير .

وإنما نذكر ما بين أشهر البنايات الخمسة من السنوات وهي : بناء إبراهيم عليه السلام ، وبناء قريش ، وبناء ابن الزبير ، وبناء الحجاج ، وبناء السلطان مراد الرابع فنقول :

اعلم أن بين بناء إبراهيم عليه السلام لبيت المقدس ، أي تجديده له وبين بنائه للكعبة أربعين سنة كما هو الحديث الصحيح ، وبين بنائه للكعبة وبين بناء قريش لها (٢٦٤٥) سنة خمس وأربعين وستمائة وألفين من السنين ، كما نقله البخاري في تاريخه عن الحلبي ، وبين بناء قريش وبين بناء ابن الزبير اثنتان وثمانين سنة ، وبين بناء ابن الزبير وعمارة الحجاج الثقفي عشر سنين ، وبين عمارة الحجاج وعمارة السلطان مراد الرابع تسعمائة وست وستين سنة .

الجبال التي أخذت منها الحجارة لبناء الكعبة

حينما بنى آدم عليه السلام الكعبة ضرب جبريل بجناحه الأرض فأبرز عن أس ثابت على الأرض السفلى فقذفت فيه الملائكة من الصخر ما لا يطيق حمل الصخرة ثلاثون رجلاً .

فبناه من خمسة أجبل من : لبنان ، وطور زيتاء ، وطور سيناء ، والجودي ، وحراء حتى استوى على وجه الأرض كما في الأزرقي .

قال الثعالبي : طور زيتاء وطور تيناءُ هما جبلان ببيت المقدس . اهـ . أما لبنان فجبل بقرب الشام ويقال له جبل الأولياء . انتهى من شرح عامود النسب وهو كتاب مخطوط غير مطبوع .

قال في مختار الصحاح : والجودي جبل بأرض الجزيرة استوت عليه سفينة نوح عليه السلام . انتهى . وأما طور سيناء فبمصر ، وحراء بمكة .

جاء في نهاية الأرب في فنون الأدب للنويري أن عبدا لله بن عمر قال : أربعة أجبال مقدسة بين يدي ا لله تعالى : طور تيناء ، وطور زيتاء ، وطور سيناء ، وطور تيماناء . فأما طور تيناء فدمشق ، وأما طور زيتاء فبيت المقدس ، وأما طور سيناء فهو الذي كان عليه موسى عليه السلام ، وأما طور تيماناء فمكة اهـ .

نقول : (إن قيل) : كيف أمكن إتيان الصخور من تلك البلاد إلى مكة ؟

(فالجواب) : أنه ما دام النقل كان بواسطة الملائكة فلا يستحيل ذلك عليهم ، وهذا قوم لوط عليه السلام لما لم يؤمنوا به ولم يسمعوا إلى نصيحته رفع جبريل قراهم على جناحيه وكانت خمس مدائن إلى السماء ثم أسقطها مقلوبة على الأرض .

(وإن قيل) : إذا كان جبريل عليه السلام ضرب الأرض بجناحه حتى ظهر أساس الكعبة على الأرض السفلى في بناء آدم عليه السلام ثم قذفت الملائكة بالصخر فيه ، فكيف بقيت هذه الجبال على حالتها ولم تفن من قذف الملائكة صخورها في أساس البيت الواصل إلى تخوم الأرض السفلى ؟

(فالجواب) : علم ذلك عند ربي فهو علام الغيوب ، فمن يعلم كيف كانت حالة الأرض والجبال في بدء خلقها وفي عهد آدم عليه السلام ، فلا يعلم بحقيقة كل شيء إلا الله سبحانه وتعالى .

(وإن قيل) : ما سبب حفر الملائكة لأساس بيت الله الحرام في عهد آدم عليه الصلاة والسلام إلى الأرض السفلى مع أن العادة جرت أن يجعل أساس البيوت تحت الأرض إلى نحو مترين أو ثلاثة أو خمسة ؟

(فالجواب) : الله أعلم بكل ذلك أيضاً ليس لنا أن نحكم بالعقل والتخمين ، لكن لا يبعد أن يكون ذلك لتشريف كل أرض من الأرضين السبعة ، كما لا يبعد أن يكون ذلك لاتجاه السكان المؤمنين من كل طبقة من الأرض إلى الكعبة في صلاتهم سواء كانوا من الجن أو من غيرهم من المخلوقات التي لا يعلم بهم إلا الخلاق العظيم . والله تعالى أعلم .

وفي ما ذكره الإمام الأزرقي في تاريخه ما يؤيد كلامنا هذا ، فإنه روى عن مجاهد قال : إن هذا الحرم حرم ما حذاؤه من السموات السبع والأرضين السبع ، وإن هذا البيت رابع أربعة عشر بيتاً في كل سماء بيت وفي كل أرض بيت ، ولو وقعن وقع بعضهن على بعض . اهـ .

(وإن قيل) : ما سبب أخذ الحجارة لبناء الكعبة من جبال البلدان المذكورة مع أن الحجاز فيها من الجبال ما لا يعد ولا يحصى ، بل إن نفس مكة وما حولها كلها جبال ؟

(فالجواب) : ليكون لهذه البلدان والجبال شرف المساهمة في بناء بيت الله الحرام ، ولتعود ذلك بالبركة إليها من دون البلدان الأخرى .

(وإن قيل) : لماذا لم تؤخذ الصخور والأحجار لأساس الكعبة وبنائها من جبل أبي قبيس كما أخذت من الجبال المذكورة مع أنه أول جبل وضع على وجه الأرض وأنه جبل عظيم صلب الحجارة ؟

(فالجواب) : الله تعالى أعلم بذلك فإنه لم يتكلم أحد على هذه المسألة لا من العلماء ولا من المؤرخين . هذا ما ظهر لنا من المعاني في هذا المبحث . والله تعالى أعلم بحقيقة كل ذلك فهو جل جلاله لا تخفى عليه خافية .

وأما الجبال التي أخذت منها الحجارة لبناء الكعبة في عهد إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام فخمسة أيضاً : حراء،وتبير ، ولبنان ، وطور سينا ، والجبل الأحمر. وقيل هي الخمسة الجبال التي أخذت منها الصخر في عهد آدم عليه السلام وقد تقدم ذكرها .

(فإن قيل) : كيف أخذت الملائكة من هذه الجبال الخمسة لبناء أساس الكعبة في عهد إبراهيم عليه السلام بينما أنهم قد ملأوا أساسها في عهد آدم عليه السلام بصخور هذه الجبال ؟

(فالجواب) : أن قذف الصخور في الأساس الأول في عهد آدم كان إلى الأرض السفلى ، ولما جاء طوفان نوح رفعت الكعبة ومحى أثر محلها ، ولا يبعد أن تكون الأرض ارتفعت أيضاً من الطوفان إلى زمن إبراهيم الخليل ، وكان قذف الصخور عند بنائه للبيت حينما بوأ الله له مكانه إلى ظهور أساس آدم على وجه الأرض ، وربما كان عمق هذا الأساس الثاني أساس إبراهيم نحو مائة متر . والله تعالى أعلم بالغيب .

وأما الجبال التي أخذت منها الصخور لبناء الكعبة في عهد قريش ، وفي عهد ابن الزبير ، فهي من نفس جبال مكة لا غير كما جاء في تاريخ الأزرقي أن قريشاً أخذت حجارة الكعبة حين بنتها من سبعة جبال وهي : حراء، وتبير ، والمقطع ، وقافية الخندمة ، وجبل عند الثنية البيضاء التي في طريق جدة ، وجبل مقلع الكعبة ، ومن المفجر بين منى ومزدلفة وكل هذه الجبال داخل حدود الحرم .

قال الأزرقي : فهذه الجبال السبعة التي يعرفها أهل العلم من أهل مكة أنها مقلع الكعبة . قال مسلم بن خالد : ولم يثبت عندنا أنها بنيت من غير هذه الأجبل . انتهى .

فقوله : ولم يثبت عندنا أنها بنيت من غير هذه الأجبل ، أي في بناء قريش وابن الزبير فقط .

ومن أراد بيان مواقع هذه الجبال فليراجع تاريخ الأزرقي عند الكلام على ما جاء في مقلع الكعبة .

(فإن قيل) : لماذا لم تبن قريش الكعبة ولم يبنها ابن الزبير من نفس الجبال التي بناها منها آدم وإبراهيم ، عليهما الصلاة والسلام ؟

(فالجواب) : إن وضع الأساس الأول لآدم ووضع الأساس الثاني لإبراهيم من جبال بعض البلدان كان بواسطة الملائكة للنبيين الكريمين ، فلا صعوبة عليهم في نقل الصخور الكبار من البلاد البعيدة الى مكة المشرفة ، مع إمكان رؤية الملائكة والتحدث معهم للأنبياء ، عليهم الصلاة والسلام .

أما في بناء قريش وابن الزبير فلا يحتاج الأساس إلى قذف الصخور فيه ، لأنه ثابت وظاهر أمام أعينهم فهم يركزون بناءهم عليه ، فلا يحتاجون إلا إلى الحجارة العادية في بناء البيوت فأتوا بها من جبال مكة القريبة إليهم ، وهؤلاء لم يكونوا أنبياء حتى تخدمهم الملائكة وحتى يمكن التفاهم بينهم .

فقريش أخذت الحجارة لبناء الكعبة من الجبال السبعة المذكورة كما نفهم ، والله تعالى أعلم لصلابة أحجارها فما كل جبل تصلح حجاراته للبناء وهم بالخيار من أي جبل شاءوا أخذوا الحجارة منه .

أما ابن الزبير رضي الله تعالى عنهما ، فقد أحب أن يبني الكعبة من حيث بنتها قريش كما هو صريح عبارة الإمام الأزرقي رحمه الله تعالى فإنه يروي عن ابن جريج : أنه لما أراد ابن الزبير هدم الكعبة سأل رجالاً من أهل العلم من أهل مكة من أين كانت قريش أخذت حجارة الكعبة حين بنتها فأخبر أنهم بنوها من الجبال السبعة المتقدم ذكرها ، وهذه الجبال السبعة لا تخرج عن حدود الحرم .

هذا ما فتح الله به علينا في هذا المبحث فالحمد لله أولاً وآخراً وظاهراً وباطناً . ونسأله الهداية والتوفيق والرحمة والإحسان ، والعفو والغفران ، والعفو والعافية آمين يا أرحم الراحمين ، وصلى الله على النبي الأمي وعلى آله وصحبه وسلم.

بقاء الكعبة إلى قيام الساعة

إذا تأملت وتفكرت وجدت أن هذه الكعبة المشرفة أعظم دليل على وجود الله ووحدانيته وقدرته وعظمته وقهره وسلطانه حيث أنها منذ الآف السنين والأعوام قائمة محاطة بالتعظيم والإجلال من جميع أجناس البشر وستبقى كذلك حتى قيام الساعة كما أخبرنا رسول الله ﷺ . فقد روى الشيخان والنسائي عن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال : يخرب الكعبة ذو السويقتين من الحبشة . وأخرج أحمد عن ابن عمرو نحوه وزاد ويسلبها حليها ويجردها من كسوتها فلكأني أنظر

إليه أصيلع أفيدع يضرب عليها بمسحاته أو معوله . وروى الأزرقي عن أبي هريرة يحدث أبا قتادة أن رسول ا لله ﷺ قال : يبايع للرجل بين الركن والمقام ولن يستحل هذا البيت إلا أهله فإذا استحلوه فلا تسأل عن هلكة العرب تأتي الحبش فيخربونه خراباً لا يعمر بعده أبداً وهم الذين يستخرجون كنزه.

جاء في تاريخ الأزرقي ما خلاصته : عن أبي هريرة رضي ا لله تعالى عنه قال: قال رسول ا لله ﷺ : يخرب الكعبة ذو السويقتين من الحبشة . وعن عبدا لله بن عمرو بن العاصي أنه كان يقول : كأني به أصيلع أفيدع قائماً عليها يهدمها بمسحاته ، قال مجاهد : فلما هدم ابن الزبير الكعبة جئت أنظر هل أرى الصنعة التي قال عبدا لله بن عمرو : فلم أرها . وعن علي بن أبي طالب رضي ا لله عنه أنه قال : استكثروا من الطواف بهذا البيت قبل أن يحال بينكم وبينه فكأني أنظر إليه حبشياً أصيلع أصيمع قائماً عليهما يهدمها بمسحاته . وعن حفصة رضي ا لله عنها أنها قالت : سمعت رسول ا لله ﷺ يقول : ليؤمن هذا البيت حبش حتى إذا كانوا ببيداء من الأرض خسف بأوسطهم وينادي أولهم آخرهم فخسف بهم فلا يبقى إلا الشريد الذي يخبر عنهم ، فقال رجل لجدي : أشهد ما كذبت على حفصة ولا كذبت حفصة على رسول ا لله ﷺ ، قال أمية: فلما جاء جيش الحجاج لم نشك أنهم هم حبش ، وقال ﷺ : اتركوا الحبشة ما تركتكم فإنه لا يستخرج كنز الكعبة إلا ذو السويقتين من الحبشة . انتهى من الأزرقي.

قال شيخنا المحدث الشهير الشيخ محمد حبيب ا لله الشنقيطي رحمه ا لله تعالى في شرحه على كتابه « زاد المسلم فيما اتفق عليه البخاري ومسلم » في الجزء الخامس عند الكلام على حديث « يخرب الكعبة ذو السويقتين من الحبشة » ما يأتي :

قال ابن الجوزي : (فإن قيل) : ما السر في حراسة الكعبة من الفيل و لم تحرس في الإسلام مما صنع بها الحجاج والقرامطة وذو السويقتين ؟

(فالجواب) : أن حبس الفيل كان من أعلام النبوة لسيدنا رسول ا لله ﷺ ودلائل رسالته لتأكد الحجة عليهم بالأدلة التي شوهدت بالبصر قبل الأدلة التي ترى بالبصائر . اهـ.

قال شيخنا رحمه ا لله تعالى : وقد تقدم ما هو كالجواب لما أشار إليه ابن الجوزي في هذا الكلام وهو ما سقناه من أن عدم أمن الحرم في قرب الساعة إنما

وقع لإرادة الله تعالى خراب الدنيا ولا بد منه لمصير أهل الجنة دار الكرامة، جعلنا الله ومن نحبه من أهلها ومتعنا فيها بالنظر إلى ربنا جل وعلا، ومصير أهل الكفر إلى النار دار الإهانة، أعاذنا الله تعالى منها ومن الكفر وكلما يجر إليه. انتهى المراد من الشرح المذكور.

وقوله هنا: «وقد تقدم ما هو كالجواب الخ..» يشير إلى كلامه الذي ذكره قبل هذه الجملة وهو: ولا ينافي تخريب ذي السويقتين الكعبة قوله تعالى: ﴿أو لم يروا أنا جعلنا حرماً آمناً... الخ﴾ لأن الأمن باق للحرم إلى قرب القيامة وخراب الدنيا، فحينئذٍ يأتي ذو السويقتين فيخربها. انتهى.

نقول: إن من أعظم الأسرار الإلهية أنه لم يرد في التاريخ قط ولم يسمع أبداً منذ بدء الخليقة أن أحداً من الجبابرة أو الملوك ادعى أن الكعبة الشريفة وما حولها من المطاف ملكه أو ملك أجداده بل إن المشركين مع ما نصبوا حولها من الأصنام كانوا يقرون بأنها بيت الله الحرام ويطوفون بها ويعظمونها.

وليس في قدرة أحد أن يبني بيتاً مثله يخلد إلى الأبد ويبقى أساسه من أول الدنيا إلى آخرها، ولقد بنى بعضهم مثله فكان ما له سرعة الخراب والزوال وكان جزاؤه الهلاك والوبال. فإن أبرهة بنى بيتاً في صنعاء اليمن لم يبن مثله سماه القليس، طوله في السماء ستون ذراعاً وأنفق عليه من الأموال ما لا يقدر، يريد بذلك جرف حاج العرب عن بيت الله الحرام إلى القليس، فجاءه رجلان من العرب فتغوطا فيه فغضب أبرهة من ذلك وقال: لا أنتهي حتى أهدم بيتهم الذي بمكة. فساق الفيل إلى بيت الله الحرام ليهدمه فمنعه الله تعالى وسلط عليهم طيراً أبابيل حتى هلك هو وجميع جيشه وقصته مشهورة، ثم إن العباس بن الربيع الحارثي الذي ولاه أمير المؤمنين أبو جعفر المنصور اليمن هدم القليس فأصاب منه مالاً كثيراً وكنزاً عظيماً، وقد جاء وصف القليس وقصة أبرهة في تاريخ الأزرقي فراجعه إن شئت.

وذكر الغازي في تاريخه: أن أحد أجداد خالد بن برمك بنى بيتاً عارض به الكعبة وجعل حول أروقته ثلاثمائة وستين مقصورة يسكنها خدامه وقوامه وكان من يليه يسمى برمكاً يعني والي مكة فكان أهل مملكته يحجونه ويطوفون به. وذكر أيضاً أن ظالم بن أسعد بنى لغطفان بيتاً على قدر الكعبة فكانوا يحجونه إليه، فأغار عليهم زهير بن جناب الكلبي فقتل ظالماً وهدم بناءه. اهـ ملخصاً من

تاريخ الغازي فسبحان الذي جعل بيته الحرام في بلده الأمين ، وغمره بالبركات والخيرات ، وأحاطه بالأنوار والأسرار ، والحمد لله الذي من أهله وجيرانه وحفنا بلطفه وعفوه وغفرانه .

الحجارات الرخام المكتوبة داخل الكعبة

توجد في داخل الكعبة تسعة أحجار من الرخام مكتوبة بالخط الثلث بالحفر على الحجر إلا حجراً واحداً فإنه مكتوب بالخط الكوفي لا بالحفر على الحجر ، وإنما كل حرف وكل كلمة تتكوّن من عدة قطع من الرخام الملون الثمين ملصقة بعضها إلى جانب بعض على قاعدة الخط الكوفي المربع ، وكل هذه الأحجار مكتوبة بعد القرن السادس للهجرة ، كما يظهر في تواريخها الآتية ، ثم وضع في داخلها في وقتنا هذا حجر واحد كتب فيه تاريخ عمارة سقفي الكعبة وترميمها ، التي وقع في عصرنا كما ذكرنا ذلك مفصلاً في هذا الكتاب ، وبذلك صار عدد الأحجار المكتوبات في باطن الكعبة المشرفة تسع أحجار كلها من الرخام الأبيض ، وقد أحصيناها بحسب ترتيب وضعها في جدار الكعبة ، مبتدئين في عدها وذكرها من يمين الداخل من الباب ، وكل هذه الرخامات مرتفعة عن رخام أرض الكعبة بمقدار (١٤٤) مائة وأربعة وأربعين سنتيمتراً ، ما عدا الحجر العاشر الموضوع فوق عقد باب الكعبة من الداخل فإنه يرتفع بأكثر من مترين . وإليك نص الكتابة الموجودة في كل حجر منها كما يأتي وهو :

(الحجر الأول) يقع في الجدار الشرقي على يمين الداخل من باب الكعبة ، وليس في هذا الجدار الشرقي حجر مكتوب غير هذا الحجر ، وطوله تسعون سنتيمتراً ، وقد كتب فيه ما يأتي :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم ، أمر بتجديد ترخيم داخل البيت مولانا السلطان الملك الأشرف أبو النصر قايتباي خلد الله ملكه يا رب العالمين ، بتاريخ مستهل رجب الفرد عام أربع وثمانين وثمانمائة من الهجرة » .

(والحجر الثاني) يقع في وجه جدار باب الدرجة الداخلية للكعبة الموصلة إلى سطحها ، وهذه الدرجة في الركن الذي على يمين الداخل ويسمى « بالركن الشمالي » وليس في جدار الكعبة الشامي حجر مكتوب غير هذا الحجر ، وطول

هذا الحجر تسعة وخمسون سنتيمتراً، وعرضه ستة وأربعون سنتيمتراً، وقد كتب فيه ما يأتي :

قد بدا التعمير في بيت الإله	قبلة الإسلام والبيت الحرام
أم خاقان الورى مصطفى خان	دام بالنصر العزيز المستدام
بادرت صدقاً إلى التعمير ذا	إنما كان بإلهام السلام
وارتجت من فضله سبحانه	أن يجازيها به يوم القيام
قال تاريخاً له قاضي البلد	عمرته أم سلطان الأنام

بمباشرة أحمد بيك شيخ الحرم المكي، في سنة تسع ومائة وألف هـ .

(والحجر الثالث) يقع على يمين الجدار الغربي، أي الجدار الذي خلف الكعبة المقابل لبابها، وطول هذا الحجر تسعة وثلاثون سنتيمتراً، وعرضه ثلاثون سنتيمتراً. وقد كتب فيه ما يأتي :

« أمر بعمارة البيت المعظم الإمام الأعظم أبو جعفر المنصور، المستنصر بالله أمير المؤمنين بلغه الله أقصى آماله، وتقبل منه صالح أعماله في شهور سنة تسع وعشرين وستمائة وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم ».

(والحجر الرابع) يقع في الجدار الغربي أيضاً، أي الجدار الذي خلف الكعبة، وهذا الحجر مربع تقريباً طوله مائة واثنان سنتيمتراً، وعرضه خمسة وتسعون سنتيمتراً.

في وسط هذا الحجر مربع، وفي وسط المربع دائرة كبيرة قطرها سبعون سنتيمتراً، كتب فيها ما يأتي :

« أمر بتجديد رخام هذا البيت المعظم العبد المفتقر إلى رحمة ربه، يوسف بن عمر بن علي رسول. اللهم أيده بعزيز نصرك، واغفر له ذنوبه برحمتك ».

وكتب في زاوية المربع اليمنى من الأعلى كلمة « يا رحمن » وفي اليسرى كلمة « يا رحيم ». وكتب في زاويته اليمنى من تحت كلمة « يا كريم » وفي اليسرى « يا غفار » ويدور بهذا المربع أربعة أسطر. كتب في السطر الأعلى « بسم الله الرحمن الرحيم رب أوزعني ». وكتب في السطر الأيمن « أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي ». وكتب في السطر الأسفل « وأن أعمل صالحاً ترضاه.

بتاريخ شوال سنة ». وكتب في السطر الأيسر « ثمانين وستمائة . وصلى ا لله على سيدنا محمد وآله ».

قال في تاريخ الكعبة روى الفاسي في شفاء الغرام : إن رخام الكعبة عمّر سنة (٥٥٠) خمسين وخمسمائة ، وهذه العمارة من جهة الوزير جمال الدين الأصبهاني المعروف بالجواد وزير صاحب الموصل . ومن ذلك أنه جدد رخام الكعبة بأمر الملك المظفر صاحب اليمن ، واسمه مكتوب على رخامة في وسط الجدار الغربي من الكعبة وذلك في شوال سنة (٦٨٠) ثمانين وستمائة . قال ابن فهد : وهو أول ملك كتب اسمه في الكعبة . انتهى من تاريخ الكعبة .

(والحجر الخامس) يقع في الجدار الغربي أيضاً ، أي الجدار الذي خلف الكعبة ، في مواجهة الداخل من الباب ، وهذا الحجر مربع ضلعه اثنان وستون سنتيمتراً ، وقد كتب فيه « لا إله إلا ا لله محمد رسول ا لله » وذلك بالخط الكوفي المربع ، ولفظ الجلالة مكتوب في وسط المربع بالحجارات الحمراء الغامقة ، ومن عجيب أمر هذه الرخامة أنك إذا وقفت أمامها لا تعرف ما فيها من الكتابة ، وإذا بعدت عنها قليلاً قرأتها بوضوح تام . لكن اختلف هذا الأمر بعد رفعها من جدار الكعبة عند ترميمها في عصرنا الحاضر ، فإنهم لما وضعوها في محلها ثانياً بالجدار لم توضع بصفة فنية كأول مرة لذلك لا يظهر فيها الآن ذلك السر العجيب ، وصارت تقرأ من القرب كما تقرأ من البعد ، كما أن لفظ الجلالة صار مكتوباً في الوسط بالحجارات السوداء أي بعكس المرة السابقة .

وهذا الحجر ليس قطعة واحدة وإنما هو يتألف من عدة قطع من الرخام الملون الممتاز النادر ، فيوجد فيه من الرخامات البيضاء (٨٢) قطعة ، ومن الرخامات السوداء (٨٣) قطعة ، ومن الرخامات الخضراء (٣) قطع ، ومن الرخامات الحمراء الغامقة (٨) قطع ، وقطعة واحدة بنية اللون ، وكلها قطع صغيرة .

ولقد أردنا أخذ صورة هذه اللوحة الكوفية بعد رفعها من جدار الكعبة ، لكن لم نتمكن من ذلك لتفرق قطع أحجارها الصغار ، ثم بعد جمعها ثانية ووضعها في محلها بالجدار ، لم نتجاسر بأخذ صورتها من داخل الكعبة تأدباً واحتراماً وتعظيماً .

ونحن لم نهتد في بادئ الأمر إلى هذه اللوحة العجيبة ، فإننا عندما عددنا الأحجار المكتوبة في جدران الكعبة المعظمة كان عددها « كذا » فلما رجعنا لعدها بعد أيام صارت زائدة عن العدد الأول ، فصرنا نكرر عدها فأحياناً تنقص لوحة

واحدة وأحياناً تزيد لوحة واحدة ، حتى طرأ علينا الشك بل إن أحد أصدقائنا من سدنة الكعبة اتهمنا بالوسواس لكثرة عدنا لهذه الأحجار فقد عددناها أكثر من اثني عشر مرة . وأخيراً هدانا الله تعالى إلى الكتابة الموجودة في هذه اللوحة ، ففي إحدى المرات أردت الخروج من الكعبة فعند وصولي قرب بابها التفت إلى الوراء لأكلم أحد العمال الموجودين بها ، إذا ببصري يقع على هذه اللوحة وقد ظهرت الكتابة بها واضحة جلية ، فمشيت صوبها بدون أن أرفع بصري عنها ، حتى قربت منها اختفت الكتابة ، ثم بعدت عنها إلى موضعي الأول عند الباب إذا بالكتابة تظهر ظهوراً تاماً ، ثم قربت منها فإذا بالكتابة تخفى ، فتحقق لدينا أن الإنسان إذا بعد عن هذه اللوحة ظهرت الكتابة التي فيها ، وإذا قرب منها اختفت الكتابة ، ثم أريتها لبعض الإخوان فتعجبوا من هذا الأمر غاية العجب ، ولما كنا واثقين بأن هذه اللوحة لو قلعت من موضعها فإن هذا السر الموجود فيها يذهب بتاتاً ، فقد حذرنا العامل المختص بقلع الرخامات وتنظيفها ثم وضعها في أماكنها ، أن لا يمس هذه الرخامة ولا يقلعها من محلها مطلقاً ، فإن قلعها فإنه لن يقدر على إرجاعها كسابق وضعها فيختفي منها هذا السر العجيب الذي اكتشفنا في وقتنا هذا . ولكن مع الأسف الشديد كان هذا العامل معتداً بنفسه ومهارته ، فقلع هذه اللوحة ثم أرجعها إلى مكانها الأول ، لكن بغير الوضع السابق والترتيب الأول ، فاختفى عنها ذلك السر العجيب اختفاءً تاماً وصارت الكتابة التي فيها تقرأ من القرب والبعد على حد سواء ، وكان أمر الله قدراً مقدورا .

ونحن نعتقد أنه لم ينتبه من السابق إلى أمر هذه الرخامة أحد مطلقاً ، حتى نفس سدنة الكعبة الذين بيدهم مفتاحها ويكثر دخولهم فيها ، لا يعرفون عن هذه الرخامة أنها مكتوبة بل إن الشيخ حسين عبدالله باسلامة صاحب كتاب « تاريخ الكعبة المعظمة » رحمه الله تعالى لم يكتشف الكتابة التي في هذه الرخامة ، فإنه قال في كتابه المذكور عند الكلام على ألواح الرخام المكتوبة في داخل الكعبة إن عدد هذه الألواح سبعة ، ثم ذكر نص ما هو مكتوب في كل لوحة منها ، فلو أنه اهتدى إلى هذه اللوحة التي كتب فيها « لا إله إلا الله محمد رسول الله » بالخط الكوفي المربع لذكرها وأشار إليها ، بل لتكلم عنها قبل جميع الألواح لما لها من القيمة الفنية الممتازة وسر تركيبها العجيب فرحم الله من كتبها وركبها ومن قرأها بل ومن قلعها أيضاً فإنه قلعها بحسن نية . والحمد لله الذي وفقنا لاكتشافها وتسجيل سرها العجيب .

(والحجر السادس) يقع في الجدار الغربي أيضاً ، أي الجدار الذي يقع خلف الكعبة ، وهذا الحجر مربع ضلعه اثنان وسبعون سنتيمتراً ، وفي هذا الحجر أربعة أسطر ، كل سطر مقسم إلى قسمين ، بينهما فاصل على صفة أبيات الشعر .

وإليك ما كتب على هذا الحجر :

ففي السطر الأول مكتوب : بسم الله الرحمن الرحيم ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم . تقرب بتجديد هذا البيت المعظم العتيق إلى الله .

وفي السطر الثاني مكتوب : سبحانه وتعالى ، خادم الحرمين وسائق الحجاج بين البحرين والبحرين السلطان بن السلطان مراد خان .

وفي السطر الثالث مكتوب : ابن السلطان أحمد خان بن السلطان محمد خان ، خلد الله تعالى ملكه وأيد سلطنته ، في آخر شهر رمضان المبارك .

وفي السطر الرابع مكتوب : المنظم في سلك شهور سنة أربعين بعد الألف من الهجرة النبوية عليه أفضل التحية .

(والحجر السابع) يقع في الجدار الغربي أيضاً ، أي الجدار الذي خلف الكعبة ، وطول هذا الحجر ثلاثة وسبعون سنتيمتراً ، وعرضه تسعة وثلاثون سنتيمتراً ، وفي هذا الحجر أربعة أسطر كتب فيها ما يأتي :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، ربنا تقبل منا ، أمر بتجديد سقف البيت الشريف ، وجميع داخل الحرم وخارجه ، مولانا السلطان ابن السلطان محمد خان ، خلد الله خلافته ، سنة سبعين وألف » .

(والحجر الثامن) يقع في الجدار الغربي أيضاً ، أي الجدار الذي خلف الكعبة ، وطول هذا الحجر ثمانية وسبعون سنتيمتراً ، وعرضه ستة وأربعون سنتيمتراً ، وقد كتب فيه ما يأتي :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم ، تقرب إلى الله بتجديد رخام هذا البيت المعظم المشرف ، العبد الفقير إلى الله تعالى السلطان الملك الأشرف أبو النصر برسباي ، خادم الحرمين الشريفين ، بلغه الله آماله ، وزين بالصالحات أعماله ، بتاريخ سنة ست وعشرين وثمانمائة » .

(والحجر التاسع) يقع فوق عقد باب الكعبة من داخلها ، مرتفع عن أرض الكعبة بأكثر من مترين ، وطوله ثلاثة أمتار تقريباً ، وعرضه نحو نصف متر .

وهو ليس بحجر واحد، بل إنه ثلاثة أحجار أو أربعة .

وقد كتب عليها بعض جمل صغيرة بالخط الكوفي لم نتمكن من قراءتها عند إخراجها من محلها ووضعها بالأرض، لكثرة أشغالنا، بحيث نسينا أمرها حتى رفعت ثانية فوضعت في محلها الأصلي فوق الباب من الداخل .

نقول : لقد انتهينا و لله الحمد من نقل جميع الرخامات المكتوبة التي في داخل الكعبة المشرفة، في اليوم الثامن من شهر شعبان سنة (١٣٧٧) سبع وسبعين وثلاثمائة وألف هجرية، بعد أن أخرجناها من داخل الكعبة عند تجديد سقفيها وترميم داخلها في شهر شعبان من العام المذكور .

ولقد أخذنا صورتها الفوتوغرافية في التاريخ المذكور أيضاً، بعد أن أخرجناها من الكعبة المشرفة ووضعناها بقرب منبر المسجد الحرام، ثم أرجعناها إلى داخل الكعبة لتوضع في محلاتها عند الترميم، ولولا ذلك لما تجاسرنا بأخذ صورها من داخل بيت الله الحرام . فالحمد لله على توفيقاته المتتالية ونعمائه المتوالية .

وهذه الصور موجودة في مكتب مشروع التوسعة لم نتمكن من أخذها مع الأسف، كما لم نتمكن من أخذ صور الأحجار في داخل الكعبة المشرفة لتعذر ذلك علينا .

الكتابة الموجودة على عقد باب الكعبة

وأما ما هو مكتوب فوق عقد باب الكعبة من الخارج فهو هذا : مكتوب بأعلى باب الكعبة سطران بخط الثلث الواضح الجميل على ألواح من الذهب الخالص .

(فالسطر الأول) مكتوب فيه قوله تعالى : ﴿إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً وهدى للعالمين ۝ فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمنا و لله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا﴾.

(والسطر الثاني) مكتوب فيه ثلاثة أبيات وهي :

لقد رقم الحنكار باباً لبيته ... له كل مخلوق يصلي ويسجد
وخلف ذخر الأجر من بعد جده ... بنى ملك عثمان أحمد يحمد
فقل فيه مدحاً ما استطعت مؤرخاً ... « بتجديده بالبيت قد فاز أحمد »

أي أنه حصل تجديد خدور باب الكعبة في سنة (١١١٨) ثمان عشرة ومائة وألف في عهد السلطان أحمد خان الثالث أحد سلاطين آل عثمان .

و لم نر من أشار ووضح ما هو مكتوب بأعلى بـاب الكعبـة ، وقـد وفقنـا ا لله تعالى إلى قراءة كل ذلك بعد أن صعدنا على سلم طويل من الخشب حتـى وصلنا فوق باب الكعبة وقرأنا كل ذلك وكتبناه ، وذلك في خامس يوم مـن شـوال سـنة (١٣٧٦) ست وسبعين وثلاثمائة وألف ، وقد تكلمنـا علـى ذلـك بتفصيـل تـام في مبحث « عمل باب للكعبة المشرفة » فراجعه إن شئت .

حلية الكعبة

المكانة المشرقة السـامية للكعبـة المشـرفة في قلـوب النـاس جاهليـةً وإسـلاماً لا لتحليتها بالذهب والفضة بل هي لذاتها التي أودعها ا لله فيها سواء بنيت بالحجـارة المرضومة أم بالإسمنت المسلح لأنها بيت ا لله وقبلة المسلمين وما بنيت إلا بـأمر ا لله سبحانه وتعالى الغني عن العالمين .

وأن ما نراه فيها من التحلية والهدايا بالنقدين ونفيس الجواهر ، إنما هو من قبيل التشرف بخدمتها واحترامها رجاء التقرب إلى ا لله تعـالى وطلـب رحمتـه ومغفرتـه ، وليس في ذلك من بأس فهذا خليـل ا لله إبراهيـم صلـوات ا لله عليـه وسـلامه عليـه وعلى نبينا وجميع الأنبياء والمرسلين وآل كل منهم أجمعين ، لما أمره ا لله عـز وجـل ببناء الكعبة المشرفة حفر في باطنها على يمين من دخلها حفرة كالبئر عمقهـا ثلاثـة أذرع تكون خزانة لها يلقى فيها ما يهدى إليها ، فـالإهداء إليهـا مطلـوب والأجـر عليها من ا لله ثابت مضمون .

ولئن كان مؤلف هذا الكتـاب محمـد طـاهر بـن عبـد القـادر الكـردي المكـي كاتب مصحف مكة المكرمة عاجزاً عن إهـداء الذهـب والفضـة للكعبـة المشـرفة ، فإنه يسأل ا لله العظيم الحليم الكبير المتعال أن يتقبل منه خدماته لهذه الكعبة الطاهرة المقدسة من الناحيـة العلميـة والتاريخيـة وأن يسـعده وذريتـه سـعادة أبديـة في الدنيـا والآخرة من كافة الوجوه وأن يختم حياته على الإيمان الكامل وعلى نظافة وطهـارة وراحة تامة عند الموت وأن لا يميته حتى يقـر عينـه بأهلـه وأولاده وكافـة أصدقائـه ومشايخه وأن يغنيه ومن يلوذ به عمن سواه بفضله الواسع إنـه سميـع مجيـب الدعـاء آمين . وصلى ا لله وسلم على النبي الأمي الأمين وعلى آله وصحبه أجمعين .

فنقول وبا لله التوفيق :

١- أول من حلى الكعبة في الجاهلية بالذهب عبد المطلب بن هاشم جدّ النبي ﷺ ، وذلك أنه أمر في المنام أن يحفر زمزم في موضعها الذي هي فيه فجاء بالمعول ومعه ابنه الحارث ليس له يومئذ ولد غيره فحفر حتى بدا له الطي طي البئر كبّر فعرفت قريش أنه قد أدرك حاجته فلما تمادى به الحفر وجد فيها غزالين من ذهب وهما الغزالان اللذان دفنتهما جرهم حين خرجت من مكة ووجد فيها أسيافاً ودروعاً وسلاحاً ثم حفر حتى أنبط الماء في القرار ثم بحرها حتى لا ينزف ثم بنى عليها حوضاً فكان هو وابنه ينزعان فيملآن ذلك الحوض فيشرب منه الحاج . فضرب عبدالمطلب الأسياف على باب الكعبة وضرب فوقه أحد الغزالين وجعل الغزال الآخر في جب الكعبة الذي يجعل فيه ما يهدى إليها . هذا ما ذكره الأزرقي .

٢- تحلية عبدا لله بن الزبير ، رضي ا لله عنهما ، فإنه بعد أن أتم بناء الكعبة جعل عليها وعلى أساطينها صفائح الذهب وذلك سنة أربع وستين من الهجرة وهو أول من حلى الكعبة في الإسلام .

٣- تحلية عبدالملك بن مروان باب الكعبة بالذهب كما ذكره الشيخ حسين باسلامة في مؤلفه نقلاً عن الفاسي وذلك في العمارة التي عملها بالمسجد الحرام سنة خمس وسبعين .

٤- تحلية الوليد بن عبدالملك بن مروان . قال الغازي نقلاً عن الأزرقي : أرسل الوليد بستة وثلاثين ألف دينار يضرب منها على باب الكعبة صفائح الذهب وعلى أساطينها وعلى الميزاب وعلى أركانها من الداخل . اهـ .

وقال أيضاً نقلاً عن شفاء الغرام : إن الوليد صرف في ميزاب الكعبة وسقفها ما كان في يد نبي ا لله سليمان عليه الصلاة والسلام ، من ذهب وفضة وكان قد احتمل على بغل قوي فتفسخ تحتها فضرب منها الوليد حلية الكعبة وكانت قد احتملت إليه من طليطلة من جزيرة الأندلس وكانت لها أطواق من ياقوت وزبرجد . انتهى .

والظاهر أن ذلك كان سنة إحدى وتسعين حينما أمر بتوسيع المسجد الحرام ، وكان إذا عمل المساجد زخرفها .

٥- تحلية الخليفة العباسي الأمين محمد بن هارون الرشيد فإنه أرسل بثمانية عشر ألف دينار ليضرب بها صفائح الذهب على باب الكعبة وجعل مساميرها وحلقتي الباب وأعتابه من الذهب كما ذكره الأزرقي ، ولم نر في أي سنة أرسل تلك الدنانير لتحلية الكعبة ، والأمين محمد تولى الخلافة بعد موت أبيه في سنة إحدى وتسعين ومائة واسمه محمد ولقبه الأمين .

٦- تحلية المتوكل العباسي جعفر بن المعتصم بن الرشيد فإنه لما بلغه من حجبة الكعبة أن زاويتين من زواياها تآكل ذهبهما أرسل المتوكل إلى إسحاق بن سلمة الصايغ بذهب وأمره بعمل ذلك فكسر إسحاق تلك الزوايا وأعادها من الذهب وعمل منطقة من فضة ركبها فوق إزار الكعبة من الداخل عرضها ثلثا ذراع ، وجعل لها طوقاً من الذهب متصلاً بهذه المنطقة ، وألبس عتبة الباب الخشب بالفضة . قال إسحاق : فكان بمجموع الزوايا والطوق الذهب ثمانية آلاف مثقال ومنطقة الفضة وما على الباب وما حلي به المقام سبعين ألف درهم . انتهى ما ذكره الأزرقي .

بويع المتوكل بالخلافة في أواخر سنة (٢٣٢) وقتل سنة سبع وأربعين ومائتين .

٧- تحلية المعتضد العباسي أحمد المعتضد بالله بن طلحة بن المتوكل المذكور كتب الحجبة إليه أن أحد الولاة بمكة قلع أيام الفتنة سنة (٢٥١) إحدى وخمسين ومائتين ما على عضادتي باب الكعبة من الذهب فضربه دنانير وصرفها على الفتنة فكانوا يسترون العضادتين بالديباج .

وأن عامل مكة سنة (٢٦٨) ثمان وستين ومائتين قلع أيضاً أيام الفتنة مقدار الربع من الذهب من أسفل باب الكعبة وما على أنف الباب من الذهب واستعان به على دفع تلك الفتنة وجعل بدل ما أخذه فضة مموهة بالذهب فإذا تمسح الحجاج به أيام الحج انكشفت الفضة فأمر المعتضد بإعادة جميع ذلك . ذكره الفاسي في شفاء الغرام .

والخليفة المعتضد المذكور هو الذي زاد في المسجد الحرام بإدخال دار الندوة فيه جهة باب الزيادة وبنى عنده المنارة وما يتبعه من الأروقة والسقوف ودامت عمارته ثلاث سنوات وكان ذلك سنة (٢٨١) إحدى وثمانين ومائتين وقد توفي سنة (٢٨٩) .

٨- تحلية المقتدر العباسي أبو محمد، علي المقتدر بالله بن المعتضد بالله، وذلك أنه في سنة (٣١٠) عشر وثلاثمائة أمر عامله على مكة أن يلبس جميع الأسطوانة الأولى التي تلي باب الكعبة الذهب لأن التي تليها ملبسة بصحائف الذهب وبقيتها مموها. ذكره ابن فهد.

وقال الغازي نقلاً عن الفاسي: أن أم المقتدر العباسي هي التي أمرت غلامها (لؤلؤاً) أن يتوجه إلى مكة وأن يلبس جميع أسطوانات البيت الشريف ذهباً ففعل ذلك في سنة عشر وثلاثمائة. انتهى.

والمقتدر ولي الخلافة سنة (٢٩٥) ثم خلع ثم أعيد ثم خلع ثانياً ثم أعيد ثالثاً واستمر حتى قتل في شوال سنة (٣٢٠).

٩- تحلية الوزير جمال الدين المعروف بالجواد الأصبهاني وزير «مودود بن زنكي» صاحب الموصل أنفذ رجلاً من جهينة يقال له الحاجب وذلك سنة (٥٤٩) تسع وأربعين وخمسمائة إلى مكة ومعه خمسة آلاف دينار ليعمل بها صحائف الذهب والفضة في أركان الكعبة من الداخل. اهـ.

بعض المؤرخين يقول: أنفذ الوزير جمال الدين حاجبه، وبعضهم يقول: أنفذ رجلاً من جهينة يقال له الحاجب وهو ما ذكر الشيخ حسين باسلامة رحمه الله تعالى في كتابه «تاريخ الكعبة».

قال أستاذنا المرحوم يوسف أحمد الخطاط الكوفي الشهير مفتش الآثار العربية بمصر في كتابه «المحمل والحج» عن الوزير جمال الدين المذكور أنه هو الذي جدد مسجد الخيف بمنى، وبنى حجر إسماعيل وزخرف الكعبة وبنى المسجد الذي على عرفات وعمل بعرفات مصانع الماء وبنى سوراً على المدينة إلى غير ذلك من الأعمال النافعة المجيدة.

ووصى إذا مات أن يدفن بالمدينة المنورة فمات سنة (٥٥٩) تسع وخمسين وخمسمائة فحمل إليها عن طريق مكة ودفن بجوار قبر النبي ﷺ، بينه وبين القبر الشريف نحو خمسة عشر ذراعاً، ونودي في كل بلد نزلوه بالصلاة عليه ولما أرادوا الصلاة عليه بالحلة أنشد شاب:

سرى نعشه فوق الرقاب وطالما　　سرى جوده فوق الركاب ونائله
يمر على الوادي فتثني رماله　　عليه وبالوادي فتثني أرامله

ومن أراد زيادة الاطلاع على أعمال الوزير المذكور فعليه بمراجعة صحيفة ٦٨ من الجزء الثاني من كتاب ابن الوردي . انتهى ملخصاً .

والوزير جمال الدين المذكور ، رحمه الله تعالى ، هو الذي قام بعمل باب الكعبة مصفحاً بالذهب والفضة باسم الخليفة العباسي المقتفي لأمر الله سنة (٥٥١) وقد جعل الوزير جمال الدين باب الكعبة القديم بعد قلعه تابوتاً لنفسه يدفن فيه كما ذكرنا ذلك عند الكلام على باب الكعبة المشرفة . فانظر رحمك الله إلى قوة إيمانه واعتقاده وإلى إجماع الناس على حبه والدعاء له حتى بعد موته . اللهم وفقنا لما تحبه وترضاه آمين .

١٠- تحلية الخليفة العباسي المقتفي لأمر الله ، فقد عمل باباً للكعبة بالذهب والفضة بواسطة الوزير جمال الدين المتقدم ذكره وذلك سنة (٥٥١) إحدى وخمسين وخمسمائة .

١١- تحلية الملك المظفر صاحب اليمن حلاها بستين رطلاً من الفضة ضربها صفائح على باب الكعبة ، وذلك لما حج سنة (٦٥٩) تسع وخمسين وستمائة .

١٢- تحلية الملك الناصر محمد بن قلاوون صاحب مصر ، فإنه عمل باباً للكعبة وحلاّه المعظمة بخمس وثلاثين ألف درهم سنة (٧٣٣) ثلاث وثلاثين وسبعمائة .

١٣- تحلية الناصر حسن بن محمد بن قلاوون فإنه عمل باباً للكعبة وأصلحوا تحلية هذا الباب مراراً وذلك سنة (٧٦١) إحدى وستين وسبعمائة .

١٤- تحلية الملك الأشرف شعبان حفيد الملك محمد بن قلاوون صاحب مصر ، فإنه حلى باب الكعبة في سنة (٧٧٦) ست وسبعين وسبعمائة ، ذكره الغازي نقلاً عن الفاسي .

١٥- تحلية ناظر الحرم الشريف بيرم خوجه ، فإنه حلى الكعبة بالفضة المطلية بالذهب ، فمقدار الفضة التي طليت بها ألف وستمائة قفلة ، ومقدار الذهب الذي حلى بها سبعون أفلوريا . ذكره الغازي نقلاً عن ابن فهد ، ولم يبين السنة التي حصل ذلك فيها .

١٦- تحلية السلطان سليمان خان القانوني ، فقد عمل باباً للكعبة وحلاّه بحلية كثيرة من الفضة والذهب ، كما عمل ميزاب الكعبة المحلّى بالذهب وذلك سنة (٩٦٤) أربع وستين وتسعمائة . وقد تكلمنا عنه عند ميزاب الكعبة .

قال الغازي في تاريخه نقلاً عن السنجاري : وقدر ما فيه من الذهب ألف ومائتين وثمانين أشرفياً بعملة تاريخه ، ومن الفضة نحو أربعة قناطير تعجز قليلاً . اهـ.

١٧- تحلية السلطان مراد خان الرابع ، فإنه عمل باباً للكعبة المشرفة وذلك بعد بنائه لها بسبب السيل الذي هدمها بخمس سنين ، وقد حلى الباب بالفضة والذهب فكان وزن الفضة مائة وستة وستون رطلاً ، ووزن الذهب البندقي ألف دينار ، وقد ركبوا الباب على الكعبة في ثلاثة أيام حتى صار محكماً ثابتاً ، وكان عمله سنة (١٠٤٥) خمس وأربعين وألف .

١٨- تحلية الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن الفيصل آل السعود مؤسس المملكة العربية السعودية ، رحمه الله تعالى ، فإنه أمر بتجديد باب الكعبة المشرفة مصفحاً بالذهب والفضة وبعد انتهاء عمل الباب ركب في الكعبة باحتفال عظيم وذلك في ٢٣ ذي القعدة سنة (١٣٧٠) سبعين وثلاثمائة وألف وقلع الباب القديم الذي عمله السلطان مراد الرابع .

ونختم هذا الفصل بأن كل من حلى ميزاب الكعبة بالنقدين أو جعل منهما طوقاً للحجر الأسود يعتبر أنه ممن عمل في تحلية الكعبة المشرفة .

الكراسي التي كانت موجودة في الكعبة

بمناسبة الكلام على الكرسي الذي كان في الكعبة المشرفة زمن عمر رضي الله تعالى عنه ، نذكر هنا جلوس رسول الله ﷺ أحياناً على الكرسي ، فلقد جاء في الجزء الأول من كتاب « التراتيب الإدارية والعمالات والصناعات والمتاجر والحالة العلمية التي كانت على عهد تأسيس المدينة الإسلامية في المدينة المنورة العلية » تأليف العلامة الحافظ المحدث الشهير الشيخ عبد الحي الكتاني الفاسي ، المطبوع بالمطبعة الأهلية بدرب الفاسي بالرباط ببلاد المغرب الأقصى سنة (١٣٤٦) هجرية .

جاء في هذا الكتاب بعنوان « اتخاذ رسول الله ﷺ الكرسي » بصحيفة ٩٧ من الجزء الأول ما نصه :

ذكر الدارقطني في العلل من حديث علي قال : كنت آتي رسول الله ﷺ كل غداة إذا تنحنح دخلت ، وإذا سكت لم أدخل ، قال : فخرج إلي فقال : حدث البارحة أمر ، سمعت خشخشة في الدار وذكر قصة فيها ، فإذا بجرو للحسن تحت كرسي لنا ، وفي المشرع الروي : الكرسي هو الذي يجلس عليه وقيل : لا يفضل عن مقعد القاعد .

ذكر جلوس النبي ﷺ على الكرسي في صحيح مسلم وسنن النسائي والنص لمسلم عن حميد بن هلال قال : قال أبو رفاعة العدوي : انتهيت إلى النبي ﷺ وهو يخطب فقلت : يا رسول الله رجل غريب يسأل عن دينه لا يدري ما دينه ، قال : فأقبل علي رسول الله ﷺ وترك خطبته حتى انتهى إلي ، فأتى بكرسي حسبت قوائمه حديداً ، قال : فقعد عليه رسول الله ﷺ وجعل يعلمني مما علمه الله ثم أتى خطبته فأتم آخرها .

(وقلت) : الحديث المذكور غفل السيوطي في الجمع والهندي في الكنى فاقتصرا على عزوه للطبراني في الكبير وأبي نعيم ، مع أنه كما علمت في مسلم وأخرجه البخاري في الأدب المفرد ، وفيه جلوسه ﷺ على كرسي قوائمه من حديد حتى في المسجد والناس ينظرون ، ففيه جواز ذلك وأنه لا يعد مذموماً وقد قربت مرة إلى رجل من الصالحين كرسياً لجلوسه فأبى ورأى أنه من التشبه المذموم .

وقد ترجم البخاري في الأدب المفرد باب الجلوس على السرير ، فذكر قصة جلوس معاوية على سرير ، وقول أبي قرة : جلست مع ابن عباس على سرير ، وقول أبي جمرة : كنت أقعد مع ابن عباس فكان يقعدني على سريره فقال لي : أقم عندي حتى أجعل لك سهماً من مالي فأقمت عنده شهرين ، وقصة جلوس أنس مع أمير البصرة الحكم على سرير ، وقصة أبي رفاعة العدوي السابقة عن مسلم ، وفيها فأتى بكرسي خلت قوائمه من حديد ، قال حميد : ولكن زاد أراه خشباً أسود حسبته حديداً فقعد عليه .

وعن موسى بن دهقان قال : رأيت ابن عمر جالساً على سرير عروس عليه ثياب حمر ، وعن عمران بن مسلم قال : رأيت أنساً جالساً على سرير واضعاً إحدى رجليه على الأخرى . والله أعلم .

وقد ذكر المبرد في الكامل في قصة حبس عمر بن الخطاب للحطيئة على هجوه للزبرقان قال : إن عمر دعا بكرسي فجلس عليه ، ودعا بالحطيئة فأجلس بين يديه ، ودعا بآلة القطع يوهمه أنه عامل على قطع لسانه الخ .. القصة .

وفي سنن النسائي عن عبد خير قال : شهدت علياً دعا بكرسي فقعد عليه ، ثم دعا بماء في تور فغسل يديه ثلاثاً الخ .. القصة .

وفي تاريخ الوزير جودت باشا التركي نقلاً عن تاريخ واصف أفندي التركي : أن سيدنا يوسف عليه السلام كان يجري الأحكام وهو جالس على كرسيه ، وأن سيدنا سليمان عليه السلام كان ينفذ الأحكام أيضاً وهو على كرسي مرتفع ، وأن سيدنا معاوية اتخذ لنفسه دائرة خصوصية كان يجلس فيها على كرسي مثل التخت ويجري الأحكام . اهـ .

وأخرج أبو نعيم في الحلية عن يحيى بن أيوب عن الكناني رسول عمر إلى هرقل ، وكان يقال له جثامة بن مساحق بن الربيع بن قيس الكناني قال : جلست فلم أدر ما تحتي فإذا تحتي كرسي من ذهب فلما رأيته نزلت عنه ، فضحك فقال لي : لم نزلت عن هذا الذي أكرمناك به ؟ فقلت : إني سمعت رسول الله ﷺ ينهى عن مثل هذا .

انظر ترجمة جثامة بن مساحق من فضائل الصحابة من كنز العمال . فانظر كيف جلس على الكرسي أولاً ثم نزل عنه ، لا لأنه كرسي ، بل لما رآه من ذهب ، فلو وجده من غيره مما يباح استعماله لاسترسل جالساً عليه . والله أعلم . انتهى من الكتاب المذكور .

الكعبة المشرفة وهندستها

لقد نشرنا مقالة مهمة عن اتجاه المسلمين إلى الكعبة المعظمة في صلواتهم أينما كانوا في جريدة البلاد السعودية التي تصدر بمكة المكرمة وذلك بتاريخ ٢٠ جمادى الثانية سنة (١٣٧١) للحجرة بعنوان (الكعبة المشرفة وهندستها) ولما كانت هذه

المقالة فريدة في بابها دقيقة في معناها، أحببنا ذكرها وإعادة نشرها مع ما جاءنا من الجواب عليها من مصلحة المساحة المصرية، حباً في نشر العلم وتنويراً للأذهان، فلنذكر أولاً نص مقالتنا في الجريدة المذكورة وهو :

الكعبة المعظمة : هي قبلة المسلمين يتجهون إليها في صلاتهم أينما كانوا من بقاع الكرة الأرضية، قال الله تعالى : ﴿جعل الله الكعبة البيت الحرام قياماً للناس﴾ وقال أيضاً : ﴿قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره﴾، وقال ﷺ : «ينزل الله عز وجل على هذا البيت كل يوم وليلة عشرين ومائة رحمة، ستون منها للطائفين، وأربعون للمصلين وعشرون للناظرين».

ولما كانت لهذه الكعبة التي بناها خليل الله إبراهيم عليه السلام منزلة سامية في قلوب كافة المسلمين كان حقاً علينا أن ندرسها من كافة النواحي الدينية والتاريخية. ولقد خطرت في بالنا نقطة دقيقة مهمة أحببنا عرضها على أنظار إخواننا المسلمين وهي : أن إبراهيم الخليل صلوات الله وسلامه عليه وعلى جميع الأنبياء والمرسلين بنى هذه الكعبة الغراء على الأساس الذي عرفه الله تعالى أن ينيها عليه فبناها حسب الأمر الإلهي «فهل يدل اتجاه أركانها وموضع بابها على نفس الجهات الأربع وهي الشرق والغرب والجنوب والشمال» أم لا ؟.

نرجو من حضرات العلماء الأجلاء وأرباب الهندسة والفلك «إفادة دقيقة مبنية على القواعد العلمية والآلات الفلكية العصرية على وجه الضبط واليقين لا على الحدس والتخمين، كما نرجو منهم بيان موقع جبل حراء وجبل الرحمة بعرفات من الكعبة المشرفة بالضبط وبيان مواقع الحارات والشوارع بمكة المكرمة بالنسبة لجهة الكعبة المشرفة، بمعنى إلى أي درجة يكون ميل كل حارة إلى الجهات الأربع وموقع الكعبة من الجهات أيضاً».

ولقد ذكر بعض العلماء «أن بعض البلدان يصلون إلى جهة باب الكعبة، وبعض البلدان يصلون إلى الجهة المقابلة للباب، وبعض البلدان يصلون إلى جهة الميزاب، وبعض البلدان يصلون إلى الجهة المقابلة للميزاب» ولكن لا ندري هل ذكروا ذلك في باب الظن أو اليقين ومن رأينا أن ذلك راجع إلى أهل الهندسة وأهل الفلك، فعسى أن نطلع على إفادتهم المبنية على القواعد والأصول المرعية، وليس ذلك بمستنكر فإن لله عز وجل حكماً دقيقة قد تهتدي إلى شيء منها

عقول البشر وقد تتيه فيها . ففي نتيجة الحكومة المصرية رسم يبين اتجاه القبلة في مدينة القاهرة مع بيان درجة انحراف القبلة من الجنوب نحو الشرق ودرجة سمتها من الشمال نحو الشرق أيضاً ، كما في مصلحة المساحة المصرية خبراء يعرفون اتجاه القبلة في أي مكان بالديار المصرية .

وهذا هرم الجيزة الأكبر بمصر ، فإن الذين بنوه أقاموا بنيانه على أساس عجيب ودقة متناهية ، فقد ذكر علماء الآثار أن الهرم الأكبر الذي هو البناء الوحيد في العالم من نوعه هو أدق بناء في العالم من حيث توجيه زواياه نحو الجهات الأصلية ، ومما يزيد في شأنه من هذه الناحية أن زوايا قاعدته تواجه بالضبط الشمال والشرق والجنوب والغرب ، وأن انعكاسات الشمس عن أوجه الهرم تشير بالدقة إلى الأيام التي يحدث فيها الانقلاب الشتوي والاعتدال الربيعي والانقلاب الصيفي والاعتدال الخريفي ، وقد قام في السنوات الأخيرة كثير من العلماء بدراسات وافية عن تاريخ الهرم وهندسة بنائه لا نرى لازماً لسرد ما توصلوا إليه وإنما ذكرنا ما تقدم تنبيهاً للوعي العلمي واستنهاضاً لهمم العلماء في النظر إلى ما وضعه الله تعالى من خفايا الأمور والأسرار في مخلوقاته كما قال عز شأنه في محكم كتابه العزيز : ﴿أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت ۞ وإلى السماء كيف رفعت ۞ وإلى الجبال كيف نصبت ۞ وإلى الأرض كيف سطحت ۞ فذكر إنما أنت مذكر﴾ إلى غير ذلك من الآيات ، نسأل الله الهداية والتوفيق آمين .

انتهى نص مقالتنا في الجريدة ،ولنذكر الآن إجابة مصلحة المساحة المصرية عليها ، وهذا نصها :

« حضرة الأستاذ محمد طاهر الكردي الخطاط بالمعارف العامة بمكة المكرمة ، السلام عليكم ورحمة الله . بالإشارة إلى خطابكم المؤرخ ٢١ رجب سنة (١٣٧١) الموافق ١٦ أبريل سنة (١٩٥٢) نرجو الإحاطة بأننا قمنا بدراسة موضوع الأسئلة الواردة في مقالكم عن تاريخ الكعبة الشريفة وهندستها من واقع الأعمال التي قامت بها مصلحة المساحة أخيرا بمكة المكرمة ،وفيما يلي الرد عما يدخل في اختصاص هذه المصلحة :

١- تبين من الأعمال المساحية التي عملت أخيراً أن أركان الكعبة الشريفة لا تتجه إلى اتجاه معين ، وأن حوائطها ليست متعامدة تماماً ، وتختلف أطوالها عن بعضها البعض ، كما تميل هذه الحوائط عن الجهات الأربع بحوالي (٥٧) درجة .

٢- يقع غار حراء في الشمال الشرقي من نقطة وسط الكعبة ، وينحرف اتجاهه عنها بنحو (٤٢) درجة من الشمال وهو على خط عرض ٢٢ً ٢٧َ ٢١ْ شمالاً ، وخط طول ٣٠ْ ٥١َ ٣٩ً درجة شرقاً . ويقع جبل الرحمة في الجنوب الشرقي من نقطة وسط الكعبة وينحرف اتجاهه عنها بنحو ٦٤ درجة من الجنوب نحو الشرق وهو على خط عرض ٨ً ٢١َ ٢١ْ درجة شمالاً وخط الطول ٢٧ً ٥٨َ ٣٩ْ درجة شرقاً . وأما نقطة وسط الكعبة وهي نقطة تقابل قطريها فتقع على خط عرض ١٥ً ٢٥َ ٢١ْ درجة شمالاً ، وخط الطول ٣١ً ٤٩َ ٣٩ْ شرقاً .

ومرفق بهذا لوحة مكة مقياس ١٠٠٠٠/١٠٠ مبنياً عليها مواقع الأمكنة المذكورة مؤشراً عليها بالخط الأحمر .

٣- وقد قمنا بتبيان الاتجاه نحو الكعبة من الشمال الحقيقي نحو الشرق بالدرج على حافة لوحة المسجد الحرام وما حوله مقياس ١/٥٠٠ المرفقة بهذا بحيث يمكن تعيين الاتجاه نحو الكعبة في أي مكان وذلك بتوصيل خط من نقطة منتصف الكعبة إلى هذا المكان ومده حتى يقابل حافة اللوحة فيكون الدرج المبين بها عند نقطة التقابل هو مقدار انحراف الكعبة في هذا المكان من الشمال نحو الشرق . وينحرف الشمال المغناطيسي عن الشمال الحقيقي في مكة المكرمة بدرجتين نحو الشرق ، فإذا أريد استعمال البوصلة يطرح هذا المقدار من الانحراف الحقيقي المستخرج من اللوحة فيكون الناتج هو مقدار انحراف الكعبة عن الشمال المغناطيسي للمكان المطلوب .

٤- ونظراً لأن المسافة بين نقطة منتصف الكعبة وكل من الباب أو الميزاب أو أي مكان آخر بها صغيرة جداً تكاد لا تذكر إذا ما قورنت ببعد المسافة بين الكعبة وأي بلد من البلدان الأخرى التي تقام بها الصلاة فإن هذه المسافة لا تؤثر في اتجاه المصلي ، وعلى ذلك تصبح الكعبة كلها كأنها نقطة واحدة بالنسبة للمصلي في أي بلد آخر .

هذا هو نص إجابة مصلحة المساحة المصرية ، وحيث أن هذه الإجابة هي من الأهمية بمكان بالنسبة لكل مسلم فقد رأينا من اللازم أن نضعها في مؤلفاتنا كلها وبا لله التوفيق . انتهى من كتاب إرشاد الزمرة لمناسك الحج والعمرة .

اختلاف بنايات الكعبة وتعميرها

لقد تقدم أن الكعبة المعظمة بنيت إحدى عشرة مرة ، منذ بناء الملائكة وآدم عليه السلام إلى بناء السلطان مراد بن السلطان أحمد عام ألف وأربعين من الهجرة ، فإذا دققنا النظر رأينا أن ما وقع لبيت الله الحرام من البنايات الإحدى عشرة منذ آلاف السنين والأعوام ليس بشيء يذكر ، وإن مكثه سليماً قائماً دهراً طويلاً ما هو إلا كرامة له ، وسر اختصه الله به فلو كثر خرابه وتعميره كل وقت لأدى ذلك إلى تهاون الناس باحترامه وتعظيمه .

أما اختلاف البنايات فيه بالصفة التي ذكرناها فيما تقدم فليس في ذلك بأس ما دام البناء لم يخرج عن الأساس الأول ولم يتحول عن قواعد إبراهيم عليه السلام ، فاتباع الأساس هو الشرط الأول ، أما البناء على صفة مخصوصة فإنه لم يرد من الشارع ، فهذه قريش نقصت من طوله من جهة الحجر لقلة النفقة الحلال التي جمعوها لبنيانه وطولت من ارتفاعه ورفعت بابه عن الأرض وسقفته ولم يكن له سقف ، وقد كان النبي ﷺ يشتغل معهم في بنائه وهو حينئذٍ في الخامسة والثلاثين من عمره الشريف .

ثم نقض عبدالله بن الزبير رضي الله عنهما بناء قريش وبنى الكعبة على الصفة التي تمناها رسول الله ﷺ فإنه قال لعائشة رضي الله عنها : « يا عائشة لولا أن قومك حديثو عهد بجاهلية لأمرت بالبيت فهدم فأدخلت فيه ما أخرج منه وألزقته بالأرض وجعلت له بابين باباً شرقياً وباباً غربياً فبلغت به أساس إبراهيم » رواه البخاري في صحيحه ، فبموجب هذا الحديث الذي سمعه ابن الزبير من خالته عائشة بنى الكعبة بعد احتراقها تحقيقاً لأمنية النبي ﷺ ورغبته وجعل له بابين لاصقين بالأرض أحدهما للدخول والآخر للخروج ، وجعل لها أربعة أركان بعد أن كان لها ركنان فقط وكان إذا طاف استلم الأركان الأربعة جميعاً وقال : إنما كان ترك استلام هذين الركنين الشامي والغربي لأن البيت لم يكن تاماً « أي أن جداره الذي من جهة الحجر كان مدوراً من غير أركان » فلم تزل الأركان الأربعة حتى قتل رضي الله عنه وجعل في بطنه درجة من خشب يصعد منها إلى سطحها وجعل ارتفاعها من الأرض للسماء سبعة وعشرين ذراعاً .

قال الأزرقي في تاريخه : وكانت الكعبة يوم هدمها ابن الزبير ثمانية عشر ذراعاً في السماء ، ولما أن بلغ ابن الزبير بالبناء ثمانية عشر ذراعاً قصرت بحال الزيادة التي زاد من الحجر فيها واستسمج ذلك إذ صارت عريضة لا طول لها فقال : قد كانت قبل قريش تسعة أذرع حتى زادت قريش فيها تسعة أذرع طولاً في السماء فأنا أزيد تسعة أذرع أخرى فبناها سبعة وعشرين ذراعاً في السماء . اهـ .

والحقيقة أن ابن الزبير قد أحسن في زيادة ارتفاعها للسماء وحتى يكون ارتفاعها ملائماً لطولها وعرضها وبذلك يكون شكل الكعبة جميلاً ، ولا حرج في الزيادات المستحسنة اللائقة ما دام البناء على قواعد إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام .

ولما قتل ابن الزبير ودخل الحجاج الثقفي مكة استأذن من أمير المؤمنين عبدالملك بن مروان أن يرد الكعبة على ما كانت عليه في الجاهلية فأمره عبدالملك أن يهدم ما زاده ابن الزبير وأن يسد بابها الغربي ، ويجعلها كسابق عهدها ظناً منه أن ابن الزبير إنما بناها على حسب رغبته واجتهاده ، فلما تبين له أنه بناها للحديث السابق الذي سمعه من خالته عائشة رضي الله عنها ، ندم على هدمها وردها على البنيان الأول وجعل ينكت منكساً بقضيب في يده ساعة طويلة ثم قال : وددت والله لو أني تركت ابن الزبير وما تحمل من ذلك .

فأنت ترى أن هذه البنايات كلها مبنية على أساس إبراهيم عليه السلام أما الزيادات التي حصلت فيها فإنما هي زيادات في صفة البناء لا في الأساس والقواعد .

أما بناء الكعبة لخراب أصابها فإنه يجب بناؤها وتعميرها وإصلاحها إذ لا يعقل تركها على خرابها وهي قبلة المسلمين وبيت الله المعظم ، وفيما يأتي من قول عبدالله بن الزبير دليل واضح على هذا ، وناهيك بعبدالله بن الزبير الذي أبوه من العشرة المبشرين بالجنة وأمه أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عن الصحابة أجمعين ، فقد روى الأزرقي في تاريخه : أن ابن الزبير لما أراد أن يهدم الكعبة ويبنيها دعا وجوه الناس وأشرافهم وشاورهم في هدمها فأشار عليه ناس غير كثير بهدمها وأبى أكثر الناس هدمها ، وكان أشدهم عليه إباء عبدالله بن عباس فقد قال له : دعها على ما أقرها عليه رسول الله ﷺ فإني أخشى أن يأتي

بعدك من يهدمها فلا تزال تهدم وتبنى فيتهاون الناس في حرمتها ولكن أرقعها ، فقال ابن الزبير : وا لله ما يرضى أحدكم أن يرقع بيت أبيه وأمه فكيف أرقع بيت ا لله سبحانه وأنا أنظر إليه ينقض من أعلاه إلى أسفله حتى أن الحمام ليقع عليه فتتناثر حجارته ، ثم أجمع على هدمها وكان يحب أن يكون هو الذي يردها على ما قال رسول ا لله ﷺ على قواعد إبراهيم وعلى ما وصفه رسول ا لله ﷺ لعائشة رضي ا لله عنها . اهـ .

ولما عزم على هدمها خرج أهل مكة منها إلى منى فأقاموا بها ثلاثة أيام خوفاً من أن ينزل عليهم عذاب لهدمها ، ولم يقرب ابن عباس مكة حين هدمت حتى فرغ منها وأرسل إلى ابن الزبير يقول له : لا تدع الناس بغير قبلة انصب لهم حول الكعبة الخشب واجعل عليها الستور حتى يطوف الناس من ورائها ويصلون إليها ففعل ابن الزبير ذلك.

ولقد أراد أمير المؤمنين هارون الرشيد أو أبوه المهدي أو جده المنصور أن يهدم الكعبة ويردها إلى بناء ابن الزبير لكنه حينما سأل إمام دار الهجرة مالك بن أنس رضي ا لله عنه عن ذلك منعه وقال له : ناشدتك ا لله يا أمير المؤمنين أن لا تجعل بيت ا لله ملعبة للملوك لا يشاء أحد أن يهدمه إلا هدمه وبناه فتذهب هيبته من صدور الناس .

ولقد أراد أيضاً السلطان أحمد بن السلطان محمد بن مراد بن سليم الثاني من سلاطين آل عثمان أن يهدم الكعبة حين تصدع جدارها الشرقي وجدارها الغربي ويبنيها ويجعل حجارتها ملبسة واحداً بالذهب وواحداً بالفضة فمنعه العلماء من ذلك وقالوا يمكن حفظ هذه الجدران بنطاق يلم هذا الشعث فعمل لها نطاقاً من النحاس الأصفر مغلفاً بالذهب وأنفق عليه نحو ثمانين ألف دينار وجرى تركيبه عليها في أواخر عام العشرين بعد الألف وأوائل العام الذي بعده كما جاء ذلك في الملحقات التي بآخر الجزء الأول من تاريخ الأزرقي المسمى «أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار» المطبوع بالمطبعة الماجدية بمكة المكرمة سنة (١٣٥٢) هجرية والذي منع السلطان محمداً من ذلك هو شيخ الإسلام المولى محمد بن سعد الدين وقال له : هذا يزيل حرمة البيت ولو أراد ا لله سبحانه وتعالى لجعله قطعة من الياقوت ، فكف السلطان عن ذلك ، كما ذكره الغازي نقلاً عن السالنامة الحجازية .

فالكعبة المشرفة إذا حدث فيها خلل أو صدع أو حرق أو وقوع بعض جدرانها وحجارتها ، فإنه تجب المبادرة إلى تعميرها وإصلاحها إصلاحاً تاماً محكماً من المال الحلال وبشتى مواد البناء الطاهرة من حجارة وطين ونورة وإسمنت وحديد وغير ذلك ، فإن الله تعالى يحسن إلى المصلحين ويأجرهم على أعمالهم ، وهذا الوليد بن المغيرة قال لقريش حينما أرادوا بناء الكعبة ولكنهم هابوا هدمها : أتريدون بهدمها الإصلاح أم الإساءة ؟ قالوا : بل نريد الإصلاح ، قال : فإن الله لا يهلك المصلحين ، ثم ارتقى الوليد على جدار البيت ومعه الفأس فقال : اللهم إنا لا نريد إلا الإصلاح ثم هدم وهدمت قريش معه .

ولو أراد الله تعالى أن لا يمسها مخلوق بالتعمير والإصلاح لجعلها قطعة واحدة من الجواهر الثمينة والأحجار الكريمة ، لا تزحزحها الرياح ولا يؤثر فيها حدثان الزمان ، حتى يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين ، ولكنه جل جلاله وتقدست أسماؤه وضع بيته الحرام بمكة وخص من شاء من عباده برفع قواعده وتعميره ، وتوجه بالهيبة والجلال حتى يطوف به السعداء من أهل الأرض كما يطوف أهل السماء بالبيت المعمور .

ولقد خص الله تعالى بيته الحرام بالمهابة والتعظيم ، والإجلال والتكريم ، وأحاطه بالأسرار القدسية ، والأنوار الإلهية ، يقف عنده الزائر خاشعاً خاضعاً ، ويطوف به الجبار ذليلاً متواضعاً ، ويقوم لديه المذنب منكسراً باكياً ، ويبتهل المضطر إلى الله أمامه راجياً داعياً فعندها تستجاب الدعوات وتقال العثرات وتسكب العبرات . قال بعض الفضلاء:

في البيت أنواع فضل لست أحصرها وصاحب البيت أدرى بالذي فيه

من جاءه خائفاً من سوء زلته فإن للبيت رباً سوف يحميه

وكان رسول الله ﷺ إذا رأى البيت يقول : « اللهم زد هذا البيت تشريفاً وتعظيماً وتكريماً ومهابة وزد من شرفه وكرمه ممن حجه واعتمره تشريفاً وتعظيماً وتكريماً وبراً » . وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه إذا رأى البيت قال : اللهم أنت السلام ومنك السلام فحينا ربنا بالسلام .

صفة أشهر بنايات الكعبة المعظمة

كيفية بناء إبراهيم عليه السلام

بنى إبراهيم عليه الصلاة والسلام الكعبة بحجارة بعضها فوق بعض من غير طين ولا جص ، وحفر في باطنها على يمين من دخلها حفرة عميقة كالبئر يلقى فيها ما يهدى إليها تكون خزانة لها ، وكان عمقها ثلاثة أذرع كما ذكره الأزرقي ، ولم يجعل للكعبة سقفاً ولا باباً من خشب أو غيره وإنما ترك لمكان الباب فتحة في جدارها الشرقي للدلالة على وجه البيت .

فأول من جعل للكعبة باباً يغلق أسعد الحميري ، وهو من تبع أحد ملوك اليمن قبل البعثة بزمن بعيد ، وهو أول من كساها كسوة كاملة ونحر عندها .

والسبب في بنائها بتلك الكيفية أنهم كانوا على الفطرة لا يعرفون الخيانة ولا السرقة ، وما كان عندهم من الأموال والذهب والفضة ما يسرق ، وما كانوا يسكنون في تلك العصور الأولى كما نسكن نحن في البيوت المنيعة والقصور المشيدة .

وقد كان بناء إبراهيم للكعبة من خمسة جبال من طور سيناء وطور زيتاء ولبنان والجودي وحراء .

فطور زيتاء وطور تيناء : هما جبلان ببيت المقدس قاله الثعالبي . أما لبنان : فجبل بالشام ويقال له جبل الأولياء . اهـ من شرح عامود النسب وهو مخطوط غير مطبوع .

وكانت الملائكة تأتيه بالحجارة من تلك الجبال ، فكان هو يبني وإسماعيل يناوله الحجارة ، فبناها على أساس آدم وهذا الأساس حجارته من جبل حراء كانت الملائكة تأتي بها وتقذف فيه وهو المسمى بالقواعد ، وقد جعل إبراهيم عليه السلام للكعبة ركنين فقط : الركن الأسود والركن اليماني ولم يجعل لها أركاناً من جهة الحجر بل جعلها مدورة على هيئة نصف دائرة كجدار الحجر ، وجعل الحجر إلى جنبها عريشاً من أراك تقتحمه غنم إسماعيل فكان زرباً لغنمه ، وجعل الباب لاصقاً بالأرض وغير مبوب ، وجعل ارتفاعها من الأرض في السماء تسعة أذرع ، وجعل عرض جدار وجهها الذي فيه الباب اثنين وثلاثين ذراعاً ، وعرض

الجدار المقابل له إحدى وثلاثين ذراعاً ، وعرض الجدار الذي فيه الميزاب جهة الحجر اثنين وعشرين ذراعاً وعرض الجدار المقابل له عشرين ذراعاً . وما ذكره صاحب كتاب تاريخ الكعبة المعظمة بأن إبراهيم عليه السلام جعل لها بابين هو وهم منه ، والصواب أنه جعل لها باباً واحداً فقط كما يظهر ذلك عند التأمل في كتب التاريخ .

وقد يتساءل بعضهم : لم بنى سيدنا إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام الكعبة المعظمة بالرضم من غير طين ولا جص و لم لم يجعل لها سقفاً من الخشب أو غيره ، و لم لم يجعل لها بابين أحدهما للدخول والآخر للخروج ، و لم جعل حجر إسماعيل مدوراً ، وجعله من شجر الأراك و لم يبنه بالرضم ، ولماذا ما كسى البيت الحرام بعد الفراغ من بنائه ؟ .

(فالجواب) والله تعالى أعلم بالصواب : هو أن إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه بنى الكعبة الغراء بالرضم من غير طين ولا جص ومن غير سقف ولا باب لأن ذلك العصر القديم لم يكن فيه شيء من وسائل البناء وأسباب الحضارة فمن أين يأتي بالأدوات الحديدية المختلفة لحفر الأرض وخلط الطين ونشر الخشب ودق المسامير ؟

وما دام لم يكن بمكة سوى إبراهيم وابنه عليهما الصلاة والسلام ، ونفر من قبيلة جرهم ، وما دام باطن الكعبة تراباً وجدرانها من حجارة الصخور ، فلا لزوم لعمل سقف لها ولا لعمل باب يغلق عليها ، كما لا لزوم لعمل مدخلين فيها للدخول وللخروج لقلة السكان بمكة .

وأما جعله حجر إسماعيل مدوراً كما هو الآن فليتناسب شكله شكل جدار الكعبة المقابل للحجر الذي كان مدوراً أيضاً ولينتهي إليه حدود البيت . وأما جعله من شجر الأراك من غير أن يجعله مبنياً بالرضم فليعلم أنه تابع للبيت ومن حدوده من غير أن يدخل في ذات بنائه .

و لم يكس البيت لأنه لم يؤمر بذلك ، ثم لم تكن مكة عامرة بالناس إنما بها نفر من جرهم وما كانوا يعرفون صناعة النسيج في ذلك الزمن حتى يخيطوا له ثوباً .

وعلى كل حال فالأنبياء عليهم الصلاة والسلام لا يعملون شيئاً مما له مساس في الدين إلا بأمر الله تعالى . هذا ما ظهر لنا والله أعلم بالغيب .

كيفية بناء قريش

وأما قريش فقد بنت الكعبة قبل بعثة رسول الله ﷺ بخمس سنين على الأشهر ، أي سنة خمس وثلاثين من ولادته عليه الصلاة والسلام .

ولقد اشترك رسول الله ﷺ مع قريش في بناء بيت الله المعظم فكان يحمل الحجارة على كتفه ولما وصل البناء إلى محل الحجر الأسود اختلفوا فيما بينهم على من يضعه في مكانه ثم اتفقوا على أن يضعه النبي الأمي الأمين فوضعه ﷺ بيده الشريفة وأحكم محله كما هو مفصل في كتب السير ، ثم إن قريشاً نقصوا من عرض الكعبة من جهة الحجر ستة أذرع وشبراً لقلة النفقة الحلال التي جمعوها لعمارتها وأداروا على الحجر جداراً قصيراً يطوف الناس من ورائه ، وجعلوا بابها مرتفعاً عن الأرض وكبسوه بالحجارة حتى لا تدخل السيول فيها وحتى يدخلوا فيها من شاءوا ويمنعوا من أرادوا ، وجعلوا الباب مصراعاً واحداً وأبقوا فيها جب الكعبة : أي خزانتها التي يلقى فيها ما يهدى إليها ، وجعلوا في داخلها ست دعائم في صفين في كل صف ثلاث دعائم ، وجعلوا لها سقفاً وميزاباً من الجهة الشمالية مصبه على حجر إسماعيل عليه السلام ، وكانت قبل ذلك بلا سقف وجعلوا ارتفاعها من الأرض إلى السماء ثمانية عشر ذراعاً ، وجعلوا لها ركنين ولم يجعلوا لها أركاناً من جهة الحجر بل جعلوها مدورة على صفة بناء إبراهيم عليه السلام ، وكان الناس كذلك يبنون بيوتهم مدورة تعظيماً للكعبة ، فأول من بنى بيتاً مربعاً حميد بن زهير فقالت قريش : ربع حميد بيتاً إما حياة وإما موتاً ، وبعد أن تم بناؤها كسوها كسوة معتبرة .

ولقد كان أول من جعل للكعبة سقفاً بعد إبراهيم عليه السلام ، قصي بن كلاب فإنه سقفها بخشب الدوم الجيد وجريد النخل حين بناها ، ثم صارت بعده بلا سقف إلى أن بنتها قريش فسقفتها بخشب الدوم وجريد النخل أيضاً ، وقصي بن كلاب هو الجد الرابع للنبي ﷺ .

وكان سبب بناء قريش للكعبة أن امرأة منهم أجمرت الكعبة ، أي بخرتها ، والمجمرة المبخرة ، فطارت شرارة من مجمرتها في كسوتها فاحترقت وتصدعت وتوهنت جدرانها من كل جانب ، وكانت الكعبة قبل بناء قريش مبنية برضم

يابس ليس بمدر تدلى الكسوة على الجدر من خارج وتربط من أعلى الجدر من باطنها فبنتها قريش بالطين والذي بناها لهم اسمه « باقوم الرومي » .

كيفية بناء ابن الزبير

أما عبدا لله بن الزبير رضي ا لله عنهما فإنه بعد أن استخار ا لله تعالى ثلاثة أيام هدم الكعبة كلها حتى ألصقها وسواها بالأرض وكشف عن أساس إبراهيم عليه السلام فوجده داخلاً في حجر إسماعيل نحواً من ستة أذرع وشبر فبناها على أساسه وعلى ذرعه لدليل استند عليه وهو الحديث الذي سمعه من خالته عائشة رضي ا لله عنها ، وهو جاء في صحيح مسلم في كتاب الحج في باب نقض الكعبة وبنائها عن سعيد بن ميناء قال : سمعت عبدا لله بن الزبير يقول : حدثتني خالتي -يعني عائشة- قالت : قال رسول ا لله ﷺ : يا عائشة لولا أن قومك حديثو عهد بشرك لهدمت الكعبة فألزقتها بالأرض وجعلت لها بابين ، باباً شرقياً وباباً غربياً ، وزدت فيها ستة أذرع من الحجر فإن قريشاً اقتصرتها حيث بنت الكعبة . فلما بناها ابن الزبير زاد في طولها إلى السماء حتى صار سبعاً وعشرين ذراعاً ليتناسب مع عرضها ، وجعل لها بابين لاصقين بالأرض من جهتي الشرق والغرب أحدهما يدخل منه والآخر يخرج منه ، وجعل طول كل منهما أحد عشر ذراعاً وجعل لكل منهما مصراعين ، وجعل للكعبة أربعة أركان وقد كان لها ركنان فقط الركن الأسود والركن اليماني ، فكانت أركانها الأربعة تستلم في زمانه حتى قتل رضي ا لله تعالى عنه ، وجعل لها درجة في بطنها في الركن الشامي من خشب معرجة يصعد فيها إلى ظهرها وحلاها بالذهب ، وجعل في سطحها ميزاباً يسكب في الحجر ، قيل إن ابن الزبير بنى الكعبة بالقصة ، بفتح القاف ، أي الجص أتى بها من صنعاء ، وقيل إنه بناها بالرصاص المذاب المخلوط بالورس : وهو نبت أصفر يزرع باليمن ويصبغ به .

(فإن قيل) : لم كانت أركان الكعبة الأربعة تستلم في زمانه ، ولم تكن تستلم قبل ذلك ولا بعد وفاته ؟

(فنقول وا لله تعالى أعلم) : لما كان بناء قريش لم يتمم على قواعد إبراهيم عليه السلام حيث نقصوا من عرض الكعبة من جهة الحجر نحو ستة أذرع لم يستلم

رسول الله ﷺ الركنين اللذين من جهة الحجر فلم يستلمها أحد من الصحابة اقتداءً به ﷺ .

فلما بنى عبدالله بن الزبير رضي الله عنهما الكعبة على أساس إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه رأى باجتهاده واجتهاد بعض كبار الصحابة الموجودين في زمانه أن يستلموا جميع أركان الكعبة ما دامت أقيمت على قواعد إبراهيم كما كان يتمنى النبي ﷺ بناءها على قواعده .

فلما قتل ابن الزبير رضي الله عنهما وهدم الحجاج ما زاده ابن الزبير من الكعبة فبناها على أساس قريش ترك الناس استلام أركانها الأربعة ولازموا استلام الركنين فقط الأسود واليماني كما كان ذلك في عهد رسول الله ﷺ ، ولا يزال الناس كذلك إلى أن تقوم الساعة .

هذا ما فهمناه مما ورد في صحيح البخاري في كتاب بدء الخلق بعد قصة مجيء إبراهيم عليه السلام بهاجر وإسماعيل إلى مكة وبنائه للبيت الحرام .

فقد جاء فيه أن ابن أبي بكر أخبر عبدالله بن عمر عن عائشة رضي الله عنهم زوج النبي ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : ألم تري أن قومك بنوا الكعبة اقتصروا عن قواعد إبراهيم؟ فقلت : يا رسول الله ألا تردها على قواعد إبراهيم؟ فقال : لولا حدثان قومك بالكفر ، فقال عبدالله بن عمر : لئن كانت عائشة سمعت هذا من رسول الله ﷺ ما أرى أن رسول الله ﷺ ترك استلام الركنين اللذين يليان الحجر إلا أن البيت لم يتمم على قواعد إبراهيم . اهـ . فمن قول ابن عمر رضي الله عنهما استنتجنا ما ذكر والله تعالى أعلم . وهذا الحديث في صحيح مسلم أيضاً في كتاب الحج .

هذا فلما فرغ عبدالله بن الزبير من بناء الكعبة خلق جوفها بالعنبر والمسك ولطخ جدارها بالمسك من الخارج من أعلاها إلى أسفلها وسترها بالديباج وقيل بالقباطي ، وهي ثياب من كتان تعمل بمصر وكان ذلك اليوم يوماً مشهوداً لم ير يوم كان أكثر عتقاً ولا أكثر بدنة منحورة ولا شاة مذبوحة من ذلك اليوم ، وخرج ابن الزبير ماشياً حافياً وخرج معه كثير من قريش مشاة حتى وصلوا إلى مسجد عائشة بالتنعيم فأحرموا بالعمرة شكراً لله تعالى على ما وفقهم لبناء بيته الحرام على الصفة التي بناها إبراهيم عليه الصلاة والسلام .

وسبب بناء ابن الزبير الكعبة أن رجلاً في أيام الحصار أوقد ناراً في بعض الخيام المضروبة في المسجد الحرام فطارت شرارة في الخيمة فمشى الحريق حتى أخذ في كسوة الكعبة فاحترقت واحترق الركن الأسود أيضاً وذلك سنة أربع وستين هجرية .

كيفية بناء الحجاج الثقفي

أما الحجاج بن يوسف الثقفي فإنه بعد محاصرة ابن الزبير وقتله كتب إلى أمير المؤمنين عبدالملك بن مروان يخبره أن ابن الزبير زاد في الكعبة ما ليس منها وأحدث فيها باباً آخر واستأذنه في رد ذلك على ما كان عليه في الجاهلية فكتب إليه عبدالملك أن يسد بابها الغربي ويهدم ما زاد فيها ابن الزبير من الحجر ويكبسها على ما كانت عليه ، ففعل الحجاج ذلك وهدم من الكعبة ستة أذرع وشبراً مما يلي الحجر فقط وبناها على أساس قريش وترك سائرها لم يحرك منها شيئاً وبذلك اتسع الحجر وجعل لها أربعة أركان على هيئة بناء ابن الزبير وسد الباب الغربي الذي في ظهرها ونقص من طول الباب أربعة أذرع وشبراً فصار طوله ستة أذرع وشبراً ، ورفع الباب الشرقي عن الأرض وذلك سنة أربع وسبعين هجرية .

ولا تظنن أن الحجاج حسد ابن الزبير على بنائه الكعبة أو أراد محو آثار بنائه لأنه وقف في وجهه وحاربه كلا ، فإن امتداد الأيدي بالتلاعب ببيت الله تعالى لن يكون من أحد من المسلمين لغرض نفساني ومعاندة لخصم ، وإنما إخباره عن بناء ابن الزبير رضي الله عنهما للكعبة لأمير المؤمنين عبدالملك بن مروان واجب لأنه نائبه في الحجاز فلا بد أن يخبره بكل ما حدث من الأمور ، ويدل على ما ذكر ما جاء في صحيح مسلم في كتاب الحج فلما قتل ابن الزبير كتب الحجاج إلى عبدالملك بن مروان يخبره بذلك ويخبره أن ابن الزبير قد وضع البناء على أس نظر إليه العدول من أهل مكة فكتب إليه عبدالملك أنا لسنا من تلطيخ ابن الزبير في شيء الخ .. فهذه الجملة من الحجاج تدل على حكمه بصواب بناء ابن الزبير الكعبة لكن عبدالملك بن مروان لم يرض بذلك .

فكل شيء فيها من بناء ابن الزبير رضي الله عنه إلا الجدار الذي في الحجر فإنه من بناء الحجاج وكذلك ما تحت عتبة الباب الشرقي إلى الأرض والدرجة الموصلة لسقف الكعبة من داخلها والبابان اللذان عليها هما أيضاً من بناء وعمل

الحجاج ، ولقد بقيت الكعبة على عمارة الحجاج إلى زمن السلطان مراد كما سيأتي .

وكان حجر إسماعيل في بناء إبراهيم عليهما السلام ، وفي بناء ابن الزبير صغيراً ومقداره فيهما واحداً أما في بناء قريش وفي بناء الحجاج فكان واسعاً ومقداره فيهما واحداً بالصفة التي هو عليها اليوم ، لأن الحجاج بنى الكعبة بالصفة التي بنتها قريش وهي كانت نقصت من الكعبة من جهة الحجر ستة أذرع وشبراً وبذلك اتسع الحجر .

سبب بناء الحجاج الكعبة

يظن بعضهم أن أمير المؤمنين عبدالملك بن مروان لم يأمر الحجاج بهدم ما زاده ابن الزبير في الكعبة إلا للخصومة التي كانت بينهما ، ولكن هذا الظن ليس في محله ، ويبعد على جميع المسلمين وبالأخص أهل القرن الأول الذين هم خير القرون أن تمتد أيديهم إلى بيت الله الحرام بالهدم والبناء اتباعاً لهوى النفس ونكالاً بالخصم ، بل إنهم لا يجرؤون على بنائه وتعميره إلا في حالة الاضطرار والنهاية القصوى وبعد الاستشارة واستفتاء العلماء .

وحقيقة الأمر : أن عبدالملك بن مروان ما أمر الحجاج بذلك إلا ظناً منه أن ابن الزبير لما احترقت الكعبة في أيام حصاره هدمها وبناها على حسب رغبته واجتهاده ويدل على ذلك ما ذكره الإمام الأزرقي في تاريخه فإنه قال : فلما فرغ الحجاج من هذا كله ، أي بناء الكعبة وفد بعد ذلك الحارث بن عبدالله بن أبي ربيعة المخزومي على عبدالملك بن مروان فقال له عبدالملك : ما أظن أبا خبيب ، يعني ابن الزبير سمع من عائشة ما كان يزعم أنه سمع منها في أمر الكعبة ، فقال الحارث : أنا سمعته من عائشة ، قال : سمعتها تقول ماذا ؟ قال : سمعتها تقول : قال لي رسول الله ﷺ : « إن قومك استقصروا في بناء البيت ولولا حداثة عهد قومك بالكفر أعدت فيه ما تركوا منه فإن بدا لقومك أن يبنوه فهلمي لأريك ما تركوا منه ، فأراها قريباً من سبعة أذرع ، وقال رسول الله ﷺ : وجعلت لها بابين موضوعين على الأرض : باباً شرقياً يدخل الناس منه وباباً غربياً يخرج الناس منه » قال عبدالملك بن مروان : أنت سمعتها تقول هذا ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين أنا

سمعت هذا منها . قال : فجعل ينكت منكساً بقضيب في يده ساعة طويلة ثم قال : وددت وا لله أني تركت ابن الزبير وما تحمل من ذلك . انتهى من الأزرقي .

فهذا دليل واضح أن عبدالملك ما كان يعلم أن ابن الزبير بنى الكعبة بموجب الحديث الذي سمعه من خالته عائشة رضي ا لله عنها ، فلما ثبت ذلك عنده وتحقق لديه ندم على فعله ، فإذا تأملت في الحديث المذكور لمع لك بارق المعجزة النبوية ، ففي قوله ﷺ لعائشة : « فإن بدا لقومك أن ينوه فهلمي لأريك الخ .. » معجزة باهرة على أن الكعبة ستبنى بعد وفاته ، وفي إخباره لها بذلك بالأخص إشارة إلى أن بناءها يكون في حياتها وأن الذي سيبنيها هو من أقاربها فإن عبدا لله بن الزبير هو ابن أختها أسماء بنت أبي بكر رضي ا لله عنه وقد تحقق كل ذلك ، وكلتا الإشارتين تحققتا بعد موته ﷺ بثلاث وخمسين سنة .

كيفية عمارة السلطان مراد الرابع

أما عمارة السلطان مراد الرابع ابن السلطان أحمد من سلاطين آل عثمان ، فسببها أنه في الساعة الثانية العربية من صباح يوم الأربعاء التاسع عشر من شهر شعبان عام ألف وتسع وثلاثين نزل مطر عظيم بمكة المكرمة وضواحيها لم يسبق له نظير ، فدخل السيل المسجد الحرام ووصل إلى ارتفاع مترين عن قفل باب الكعبة ، وفي عصر اليوم التالي أي يوم الخميس سقط الجدار الشامي من الكعبة بوجهيه وانجذب معه من الجدار الشرقي إلى حد الباب الشامي ولم يبق سواه وعليه قوام الباب ، ومن الجدار الغربي من الوجهين نحو السلس ومن هذا الوجه الظاهر فقط منه نحو الثلثين وبعض السقف وهو الموالي للجدار الشامي .

ويقول محبنا وجارنا المؤرخ الثقة الشيخ عبدا لله الغازي الهندي المكي رحمه ا لله تعالى في تاريخه : وهذ الذي سقط من الجانب الشامي هو الذي بناه الحجاج الثقفي وسقطت أيضاً درجة السطح . اهـ كلامه ، فقوله هذا صحيح مطابق للحقيقة .

ثم أمر السلطان مراد رحمه ا لله تعالى ببناء الكعبة المشرفة فتم بناؤها في شهر رمضان سنة أربعين وألف على صفة بناء الحجاج رحمه ا لله تعالى ، فعمارة السلطان مراد للكعبة هي العمارة الأخيرة إلى يومنا هذا .

واعلم أن بين بناء إبراهيم عليه السلام الكعبة وبين بناء قريش (٢٦٤٥) ألفي سنة وستمائة وخمساً وأربعين سنة، كما نقله البخاري في تاريخه عن الحلبي.

أما بين بناء قريش وبين بناء ابن الزبير، فاثنتان وثمانون سنة، وبين بناء ابن الزبير وعمارة الحجاج الثقفي عشر سنين، وبين عمارة الحجاج وعمارة السلطان مراد تسعمائة وست وستون سنة.

ومن أراد الوقوف على تفاصيل عمارات الكعبة كلها فليراجع كتب التاريخ، فإننا لم نذكر هذه الخلاصات لبعض العمارات إلا للمناسبة.

بسم ا لله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين (وبعد) فيقول محمد طاهر بن عبدالقادر بن محمود الكردي المكي الخطاط كاتب مصحف مكة المكرمة وواضع التفسير المكي غفر ا لله تعالى له ولوالديه وللمسلمين كافة، أنه لما كانت الأنفس المهذبة تميل عادة إلى الشعر، وتستحلي سماع القريض وإنشاده خصوصاً ما كان منه سهلاً مستملحاً فقد عملنا منظومة لطيفة في صفة أشهر البنايات للكعبة المعظمة، وأشهرها خمسة وهي :

١- بناية خليل ا لله إبراهيم عليه الصلاة والسلام.
٢- بناية قريش.
٣- بناية عبد ا لله بن الزبير رضي ا لله تعالى عنهما.
٤- بناية الحجاج بن يوسف الثقفي.
٥- بناية السلطان مراد خان الرابع من سلاطين آل عثمان.

ثم أضفنا إليها ما وقع في زماننا هذا من تجديد سقفي الكعبة المعظمة «الأعلى والأدنى» وترميمها من الداخل والخارج، وكان ابتداء العمل في بيت ا لله الحرام في اليوم الثامن عشر من شهر رجب سنة (١٣٧٧) هـ ألف وثلاثمائة وسبع وسبعين هجرية، وذلك تنفيذاً لأمر حضرة صاحب الجلالة مليكنا المعظم، الملك سعود بن عبدالعزيز الفيصل آل سعود ملك المملكة العربية السعودية وفقه ا لله تعالى وأعزه، حيث بلغه حصول تصدعٍ في سقفي الكعبة المشرفة وخلل في أعواد السقفين، فأمر بتشكيل هيئة علمية مضافاً إليها بعض المهندسين المعمارين، وبعد رفع القرار منهم لجلالته بضرورة المبادرة للإصلاح وآرائهم في طريقة العمل.

أمر جلالته حفظه ا لله تعالى وزير الدولة الشيخ محمد عوض بن لادن بتنفيذ القرار المشار إليه بجد وإخلاص، فباشرنا هذا العمل المبرور بهمة ونشاط ليلاً ونهاراً، وقد كان الناس من أهل مكة وغيرهم من المقيمين بها يبادرون في خدمة بيت ا لله الحرام بنقل الحجارة ورفع التراب والأخشاب، بإخلاص عظيم وفرح كبير، مسبحين ومهللين ومكبرين في غلوهم ورواحهم.

ولقد تشرف صاحب هذه المنظومة محمد طاهر الكردي الخطاط وولده عبدالرحمن الكردي بالخدمة والبناء قليلاً في الكعبة المطهرة، وبالوقوف على العمل

فيها يوماً فيوماً حتى انتهاء العمارة ، كما فصلنا بيان كل ذلك في كتابنا « التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم » الذي سنطبعه قريباً إن شاء الله تعالى .

وكان انتهاء العمل في الكعبة المشرفة تماماً في اليوم الثامن والعشرين من شهر شعبان من السنة المذكورة سنة (١٣٧٧) هجرية . وبمناسبة الانتهاء من عمارة سقفي الكعبة المشرفة ، ما عدا بعض الأعمال الخفيفة ، دعا مليكنا « سعود » حفظه الله تعالى ، سفراء ووزراء الدول العربية والإسلامية لحضور الاحتفال بانتهاء العمل في الكعبة المعظمة.

وفي صباح يوم الأحد الثاني عشر من شعبان من السنة المذكورة حضر إلى المسجد الحرام مليكنا المعظم « سعود » وبصحبته جمع كبير من العلماء والأمراء والوزراء والسفراء وكثير من أهل مكة وغيرهم ، فدخلوا الكعبة المعظمة وصلوا فيها وكل واحد دعا ربه بما أراد وأحب ، وقد عطر مليكنا ، حفظه الله تعالى ، والحاضرون جدران الكعبة بالعطر الأصلي الغالي ، ثم ألقى مليكنا أدام الله توفيقه خطبة قصيرة من جوف الكعبة حمد الله وأثنى عليه على ما وفقه لعمارة بيته الحرام ، وقد تشرف صاحب هذه المنظومة ومؤلفها بتعطير جدار الكعبة ، شرفها الله تعالى ، وكان يقرأ في جوف الكعبة مدة وجود الناس بها في هذا اليوم في ميكروفون الإذاعة بعض الآيات القرآنية المناسبة للمقام مع التسبيح والتهليل والتكبير . والحمد لله رب العالمين .

ويظن بعض الناس أنه حصل في جدران الكعبة المشرفة تصدع وتشقق وخلل ، كلا إن جدران الكعبة مبنية بالحجارة القوية الصماء المأخوذة من جبال مكة المشرفة ، قد يبلغ طول بعض حجارتها متراً واحداً مع العرض المناسب ، وبعضها أقل من المتر ، كما بينا ذلك في تاريخنا المذكور ، بل لقد بينا عدد ما يوجد في بناء جدران الكعبة من الحجارات من الجهات الأربعة . إن بناء جدران الكعبة المعظمة قوية متينة إلى أقصى حد ، إن بناءها سيبقى ويدوم ، إن شاء الله تعالى ، إلى ألف سنة . وهذا البناء الحالي الموجود اليوم هو بناء السلطان مراد خان الرابع أحد سلاطين آل عثمان الأتراك ، رحمه الله تعالى وأجزل أجره وثوابه ، بناها في سنة (١٠٤٠) ألف وأربعين هجرية حينما سقطت الكعبة بسبب السيل العظيم الذي دخل المسجد الحرام ، كما بينا كل ذلك بالتفصيل التام في تاريخنا المذكور .

إن بناية الكعبة الحالية لا يؤثر فيها ضرب المدافع .

نسأل الله تعالى أن يتقبل من جلالة مليكنا المعظم هذا العمل الجليل وأن يعمر قلبه بالإيمان والتقوى، كما نسأله عز شأنه أن يجعل هذا العمل المبرور فاتحة خير ويمن وأمن ورخاء علينا وعلى كافة البلاد الإسلامية بفضله ورحمته آمين.

ونسأله وهو أكرم مسؤول أن لا يشقينا بعد أن أسعدنا بخدمة بيته المطهر، وأن يجعلنا مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا، بفضله وعظيم رحمته آمين، وصلى الله على سيدنا محمد أبي القاسم الأمين وعلى آله وصحبه أجمعين.

في
١٨ شعبان سنة ١٣٨٦هـ.
أول كانون الأول سنة ١٩٦٦م

المؤلف
محمد طاهر الكردي المكي
الخطاط بوزارة المعارف وعضو اللجنة التنفيذية لعمارة الكعبة وتوسعة المسجد الحرام بمكة المكرمة

منظومة في صفة أشهر بنايات الكعبة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي هدانا ... حمداً يوافي نعماً أولانا
نشكره شكر الذليل المفتقر ... إلى العزيز والغني المقتدر
سبحانه جل تعالى الله ... من التجا إليه لا ينساه
ثم صلاته مع السلام ... على النبي وآله الكرام
(وبعد) هذي نبذة لطيفه ... وطرفة بديعة ظريفه
في صفة البنا لبيت الله ... تعظيمه فرض بلا تناهي
كنا طبعنا هذه المنظومه ... ثم أعدنا طبعها منظومه
من بعد أن زدنا عليها نظما ... ببعض أبيات تزيد الفهما
وقد جعلنا حجمها صغيرا ... لكن حوت من أمرها كثيرا
وما رأينا في بناء الكعبة ... منظومة تكون كالقلادة

فنحمـــد الله علـــى التوفيـــق　　فقـــد أرانـــا مســـلك الطريـــق

* * *

إيماننـا أقـوى مـن الصخـر الأصـم　　يعجـز عـن تعبـيره جـري القلـم
فـــالقلب عـــامر بذكـــر الله　　والفكـــر ســـابح بـــآي الله
تحدثـــاً بنعمـــة الله لنـــا　　لقـــد ذكرنـــا مـــا تـــراه علنـــا
ونســتعيذ الله مــن شــر الحســد　　وغمــز نــاقد ونــافث العقــد
نســـأله زيـــادة التوفيـــق　　حتـــى نجـــوز كـــامل الطريـــق
أعـني الصـراط المسـتقيم إذ ورد　　في أول القـــرآن نعـــم مـــا ورد
فمـــن هـــداه الله للصـــراط　　كـــان ســـعيداً وافـــر النشـــاط
مـــا أحســـن الإيمـــان والتوفيقـــا　　والعلـــم واليقـــين والتحقيقـــا
فالعـــالم العـــامل مجلـــى الظلـــم　　والعلـــم نـــور مـــن أجـــل النعـــم
وأن نكـــون في نشـــاط مســـتمر　　لطاعـــة الله العزيـــز المقتـــدر
وقـــوة خارقـــة للعبـــاده　　حتـــى نـــؤدي واجـــب العبـــاده
عســـاه أن يقبلنـــا بفضلـــه　　وأن يثيبنـــا بجـــود بذلـــه
فإنـــه رب عظيـــم الشـــان　　كثـــير عفـــو واســـع الإحســـان
فكيـــف لا نحســـن ظننـــا بـــه　　والله عنـــد ظـــن عبـــده بـــه
وهـــل لنـــا رب ســـواه نلجـــأ　　إليـــه - كـــلا - إليـــه نلجـــأ
ســـبحان مـــن أطعـــم عبـــده ولا　　يطعمـــه العبـــد ، فجـــل وعـــلا
فهـــو الـــذي أنفـــق مـــا أنفقـــه　　مـــذ خلـــق الكـــون ، فمـــا أخلقـــه
مـــا نقـــص الإنفـــاق شـــيئاً منـــه　　والخـــير والـــرزق جميعـــاً منـــه
هـــل يعقـــل النقـــص لمـــن يقـــول　　للشـــيء « كـــن » فجـــل مـــن يقـــول
ســـبحانه المهيمـــن الـــرزاق　　الملـــك العظيـــم والخـــلاق
فـــالحمد الله الـــذي هدانـــا　　لدينـــه الحـــق ، فقـــد أنجانـــا
مـــن ظلمـــات الجهـــل والضـــلال　　وزادنـــا في العلـــم والنـــوال

* * *

أسماء من بنى الكعبة

لقـــد بنـــى بيـــت الإلـــه الأكـــرم　　عشـــر وواحـــد مضـــوا مـــن قـــدم
ملائـــك الرحمـــن ، ثـــم آدم　　ثـــم ابنـــه شـــيث ، كمـــا قـــد يعلـــم
ثـــم خليـــل الله إبراهيـــم　　صلاتنـــا عليـــه والتســـليم

كذا العماليق، وأيضاً جرهم ... ثم قصي، فقريش، يفهم
وابن الزبير، وكذا الحجاج ... وفي مراد الرابع، انبلاج
لم يبن بيت الله غير من ذكر ... أسماؤهم معروفة لم تستتر
هذا الذي روى لنا التاريخ ... ونحن نروي ما روى التاريخ
والعلم عند الله سبحان الذي ... نعم النصير وهو خير منقذ

* * *

لقد ذكرنا نحن في تاريخنا ... بيان وصف ما بنوه من بنا
مفصلاً بناء كل منهم ... فانظره فيه فهو حقاً مغنم
لأنه «تاريخنا قويم» ... محرر منقح فخيم
لكن هنا اقتصرنا الوصفا ... لخمسة من البناء قطفا
لأنها شهيرة في الكتب ... فائقة الوصف بغير حجب
ثم أضفنا حادث التجديد ... لسقف بيت ربنا الحميد
في عصرنا هذا وشاهدناه ... وقد خدمناه، تعالى الله
فخذ إليك وصف ما ذكرنا ... من البنايات لتروى عنا

صفة بناء إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام الكعبة

قد أمر الله الخليل بالسفر ... من زوجه «سارة» دفعاً للضرر
سافر إبراهيم بإسماعيلا ... وأمه «هاجر» كن نبيلا
أتى إلى مكة من بلاده ... وذا قضاء الله في مراده
على البراق ركبوا يدلهم ... جبريل للطريق إذ يؤمهم
وضعهم مكان بيت الله ... ممتثلاً دوماً لأمر الله
يقول ربي إنني أسكنت ... ذريتي وههنا وضعت
فالطف بهم وأجمعهم بالناس ... لتذهب الوحشة باستئناس
وارزقهم من ثمرات الروض ... ليشكروا رب السما والأرض
وبعد ذا عاد إلى بلاده ... يرشده الله إلى سداده
لم يكتشف قبل خليل الله ... مكة فافهم يا رفيع الجاه

* * *

ترك هاجر وإسماعيلا ... بمكة قاما بها نزيلا
وكان عندهم جراب تمر ... وقربة الماء بهذا القفر
وليس في مكة أنس وبشر ... في ذلك العصر ولا فيها أثر

لمـــاء أو بنـــاء أو حيـــوان ... وذاك تقديـــر مـــن الرحمـــن
إلا عضـــاة الشـــوك في واديهـــا ... تسـقى مـن الأمطـار في ناديهـا
والشـوك والسـعدان فيهـا يكـثر ... ليومنـــا هـــذا بهـــا منتشـــر
وحيـث أن المـاء منهـا قـد نفـد ... وعطـش إسمـاعيل حتـى مـا رقـد
ووصلـــت حالتـــه للمـــوت ... وأمـــه قـــد حكمـــت بـــالفوت
فقـد سـعت بـين الصفـا والمـروه ... لسبع مـرات ، لهـا مـن حكمـه
عسـى تـرى شـخصاً لديـه المـاء ... أو مطـراً يـأتي بـه السـماء
فسـمعت صوتـاً فقـالت أسمـع ... صوتـك فـأدركني عسـاك تنفـع
فجـاء جـبريل لهـا وضربـا ... برجلـه الأرض لكيمـا تشـربا
فنبعـت زمـزم فـوق الـترب ... ثـم أحاطتهـا بجمـع الـترب
خوف انسياب المـاء فـوق الأرض ... فوقفـت مكانهـا « كـالحوض »
لـو أنهـا قـد تركتهـا تجـري ... كـانت معينـاً كـالعيون تجـري
كمـا أتـى ذلـك في الحديـث ... مـن قـول خـير الرسـل المبعـوث
فشـربت مـع ابنهـا ورويـت ... وشـكرت خالقهـا وقويـت
وبعـث الله إليهـا نفـرا ... مـن جرهـم كيمـا يقيمـوا زمـرا
نشـأ إسمـاعيل فيمـا بينهـم ... يخـرج للصيـد دوامـاً معهـم
ثـم تـزوج لديهـم فـافهم ... برعلـة بنـت مضـاض الجرهمـي
جاءتـه بـاثني عشـر ابنـا وهـم ... تناسـلوا وكـثروا وحكمـوا
فعمـرت مكـة مـن ذاك الزمـن ... وأصبحـت « أم القـرى » نعـم الوطـن
صـارت شـهيرة لـدى الأجنـاس ... يؤمهـا للحـج كـل النـاس
فيهـا مـن الخـيرات والأرزاق ... والنعـم العظمـى مـن الـرزاق
وكـل ذا مـن دعـوة الخليـل ... كمـا هـو الصريـح في التـنزيل

* * *

ثـم أتـى إبراهيـم للزيـارة ... عـدة مـرات فخـذ أخبـاره
كيمـا يـرى ولـده الحبيبـا ... إن النجيـب ينجـب النجيبـا
ثـم أتـى إليـه أمـر الله ... أن يبـني الكعبـة بيـت الله
قـد بـوأ الله لـه مكانـه ... فقـر عينـا إذ رأى إحسـانه
فقـام يبـني بيتـه الحرامـا ... ثـم دعـا لحجـه الأنامـا
سـاعده في ذاك إسمـاعيل ... وهـو النـبي الصـادق النبيـل

والحجـــر الأســـود فيـــه وضعــــا ... في ركنـــه المعـــروف خـــيراً صنعـــا
حتـــى إذا طـــال بـــه الجـــدران ... ومـــا أتم حـــــده البنيــــــان
قـــام علـــى المقـــام وهـــو ارتفعـــا ... بـــه ، فـــأكمل البنـــا وأبدعـــا
ورســـخت قدمـــه علـــى الحجـــر ... ليومنـــا هـــذا يـــرى فيـــه الأثـــر
وكـــل ذا معجـــــزة الخليـــــل ... مكرمـــــة مـــــن ربنـــا الجليـــــل
لم يـــبن بـــالطين ولا بـــالجص ... وإنمـــا بـــالرضم جـــافي القـــص

* * *

وبعـــــد أن تم لـــــه البنـــــاء ... وقـــد بـــدا للكعبـــــة البهـــاء
والنـــور والطهـــر مـــع الجـــلال ... طـــافوا بـــه كـــأمر ذي الجـــلال
أذن في النـــــاس أذان الحـــــج ... فالمســــلمون بـــادروا للحـــج
ليشـــهدوا منافعـــاً وليوفـــوا ... نذورهـــم وحولـــه يطوفـــوا
ومـــن يعظـــم حرمـــات الله ... فـــإن ذاك مـــن تقـــي الإلـــه
وإن جـــبريل الأمـــين ذهبـــا ... مـــع الخليـــل إبراهيـــم المجتبـــى
إلى المشـــاعر العظـــام كـــي يـــرى ... مناســـك الحـــج فيتبعـــه الـــورى
وفي البخـــاري جـــاء بـــالتفصيل ... بنـــاء بيـــت ربنـــا الجليـــل
تـــراه في كتـــاب بـــدء الخلـــق ... فـــانظره واتبـــع طريـــق الحـــق
بنـــاه حســـب مـــا بنـــاه آدم ... فكـــم بـــه طـــافت قديمـــاً أمـــم
بنـــاه بـــالرضم بغـــير طـــين ... وقـــد أتـــى تعظيمـــه في الديـــن
حفـــر في باطنـــه خزانـــه ... لكـــل مـــا يهـــدى لـــه صيانـــه
وجعـــل الحجـــر إلى جانبـــه ... مـــدوراً كمـــا هـــو الآن بـــه
وجعـــل البـــاب بلصـــق الأرض ... وقاســـه بـــالطول ثـــم العـــرض
ومـــا لـــه ســـقف ولا مـــيزاب ... ولا لـــه بـــاب ولا بـــواب

* * *

واعلـــم بـــأن الله جـــل شـــأنه ... أكـــرم بيتـــه وأعـــلا شـــأنه
مـــن ســـالف العصـــور والأزمـــان ... حتـــى تقـــوم ســـاعة الزمـــان
أحاطـــه بـــأروع الأســـرار ... وحفـــه بـــالعز والإكبـــار
وخصـــه بهيبـــة وعظمـــه ... مـــا للملـــوك مثلـــه مـــن عظمـــه
وجـــاء في الحديـــث مـــا معنـــاه ... يـــنزل الله تعـــالى الله
لبيتـــه المحفـــوف بالكرامـــه ... في كـــل يـــوم بـــل وكـــل ليلـــه

عشــرين رحمــة مضافــاً لمائـــه　　ينالهــا قــوم هــم خـــير فئـــه
منقســـم للطـــائفين نصفهـــا　　وللمصلـــين يخـــص ثلثهـــا
والنـــاظرون البيـــت يأخذونـــا　　عشــرين وهـــو سدســـها يقينـــا
فكيـــف وهـــو قبلـــة الأنـــام　　ومركـــز الإيمـــان والإســـلام
فبيـــت ربـــي قـــائم العمـــاد　　إليـــه ترنـــوا أعـــين العبـــاد

* * *

انظر: صورة رقم ٧٩، باب غرفة بئر زمزم
وصورة رقم ٨٠، الحجر الأسود حينما قلعنا عنه الطوق الفضي القديم
وصورة رقم ٨١، المؤلف يريد تقبيل الحجر الأسود
وصورة رقم ٨٢، مقام إبراهيم عليه الصلاة والسلام

صفة بناء قريش الكعبة قبل بعثة النبي ﷺ بخمس سنين

وقبـل بعثـة النـبي قـد بنـت　　قريـش الكعبـة حـين وهنـت
فجمعـوا مـن أطيـب الأمـوال　　حتـى يقيموهـا مـن الحـلال
وجنبوهـا كـل مـال خبثـا　　مـن شـبهة أو غيرهـا ملوثـا
فـلا ربـا فيـه ولا مـا جمعـا　　مـن ميسـر أو مهـر بغـي وضعـا
فـانظر إلى فعـل قريـش وهـي في　　جهالـة ففضلهـم لا يختفـي
وبعـد جمعهـم لمـال طيـب　　مـن خـير كسـب وحـلال طيـب
قـاموا إلى بنائهـا وشمـروا　　عـن سـاعد الجـد بخـير ظفـروا
فنقّصـوا مـن الأسـاس الأول　　جدارهـا الشـامي بغـير جـدل
فاتسـع الحجـر بـذاك النقـص　　وكـان قبـل ضيقـاً كـالخرص
وجعلـوا ارتفاعهـا إلى السـما　　ورفعـوه ضعـف مـا تقدمـا
وعملـوا أيضـاً لهـا ركنـين　　كسـابق العهـد بغـير مـين
وقـد أداروا حائطـاً بـالحجر　　مـدوراً مكلـلاً بـالطهر
وسـقّفوها خشـباً ملائمـا　　ووضعـوا داخلهـا دعائمـا
سـت دعـائم علـى صفـين　　مذكـورة حقـاً بـدون مَـين
وعملـوا الـدرج مـن داخلهـا　　ليصعـد النـاس بهـا لسـطحها
وركّبـوا المـيزاب فـوق السـطح　　مصبـه في الحجـر خـوف النضـح

ورفعـوا البـاب عـن الأرض كمـا ... تـــراه في زماننـــا معلمـــا
وكـان مصراعــاً بـدون شـك ... فـافهم وقـاك الله عيـش الضنـك
ثـم كسـوها كسـوة جميلـه ... لائقـة فـازوا بـذي الفضيلـه
وحضـر البنـاء سـيد البشـر ... مستسـهلاً في كتفـه حمل الحجـر
فرفـع الركـن إلى محلـه ... بيـده وقـد رضـوا بحلـه
صلـى عليـه ربنـا وسـلما ... مـا دامـت الأرض ومـا دام السـما
وفي البخـاري ومسـلم ورد ... بِنـا قريـش فـاحفظن مـا ورد

* * *

صفة بناء عبدالله بن الزبير رضي الله عنهما الكعبة

وابـن الزبـير بعدهـم بناهـا ... حـين وَهَـتْ وضعفـت قواهـا
علـى أسـاس مـا بنـى الخليـل ... حيـث لـه قـد ثبـت الدليـل
في عـام أربـع وسـتين بنـى ... وشـكر الله علـى هـذا البنـا
وسـتر الكعبـة بالأخشـاب ... عنـد البنـا فجـاء بالصواب
فزادهـا طـولاً إلى السـماء ... سـبعاً وعشـرين بـلا امـتراء
وجعـل الأركـان فيهـا أربعـه ... كـانت إلى مماتـه مسـتلمه
ووضـع الميزاب فـوق سـطحها ... موضعهـا الأول مـن مصبهـا
يصعـد فـوق سـطحها بالدرجـة ... عملهـا مـن خشـب معرجـه
وجعـل البـابين مصراعـين ... كليهمـا بـالأرض لاصقـين

* * *

فبابهـا الشـرقي للدخـول ... وبابهـا الغربـي للأفـول
وأنـه جعـل في باطنهـا ... أعمـدة ثلاثـة تحملنهـا
فـلا تـزال هـذه داخلهـا ... ليومنـا هـذا علـى محلهـا
عطرهـا بعنـبر ومسـك ... داخلهـا وخارجـاً بالمسـك
ثـم كسـاها كسـوة معتـبرة ... لائقـة بالكعبـة المطهـره
وهللـوا وكـبروا تكبـيرا ... وأعتقـوا ونحـروا كثـيرا
وخرجـوا لمسـجد التنعيـم ... لعمـرة تكملـة النعيـم
هـذا البنـا ثـم بنـاء الثقفـي ... قـد وردا في (مسـلم) فاستكشـف
ففـي «كتـاب الحـج» جـا وصفهمـا ... وجـاء في التـاريخ أيضـاً فافهمـا

* * *

صفة بناء الحجاج بن يوسف الثقفي الكعبة

ثـم بناهـا الثقفـي الحجـاج بينهمـا قـد وقـع اللجـاج
بـأمر عبدالملـك المـروان فقـام ينيهـا بـلا تـوان
فهـدم الجـدار صـوب الحجـر ثـم بناهـا كقريـش فـادر
فاتسـع الحجـر كمـا قـد كانـا ووسـع النـاس بـه مكانـا
وسـد بابهـا الـذي في ظهرهـا ورفـع البـاب الـذي في وجهها
أبقـى لهـا الأركـان لم يغـيرا أربعـة كـانت ومـا زالـت تـرى
وقـد بنـى في بطنهـا ذاك الـدرج بحجـر وليـس فيـه مـن حـرج
بنيانـه كـان لعـام أربـع مـن بعـد سـبعين فـأرخ واسمـع
ثـم ابـن مـروان لهدمهـا نـدم بعـد دليـل ابـن الزبـير أن علـم

صفة بناء السلطان مراد خان الرابع الكعبة
وهو البناء الحالي الموجود اليوم

وآخـر البنـاء جـا بـالوصف في عـام أربعـين بعـد الألـف
بسـبب السـيل الـذي قـد دخـلا للمسـجد الحـرام حتـى وصـلا
لقفـل بـاب الكعبـة المشـرفة فوقعـت منهـا الجـدار متلفـه
فقـام بالتعمـير سـلطان الـورى مـراد بـن أحمـد فحـررا
مـن آل عثمـان الكـرام النجبـا فقـد روى التـاريخ عنهـم عجبـا
وسـتروها بسـتارة الخشـب عـن أعـين النـاس وذا عـين الأدب
حتـى إذا مـا تمـت العمـاره قـاموا برفـع خشـب السـتاره
فكـان مـا بنـاه وفـق مـا بنـى الثقفـي الحجـاج فـازا بـالمنى
مـن غـير مـا زيـادة أو نقـص روى لنـا التـاريخ ذا بـالنص
ومنـذ ذاك العصـر حتـى يومنـا مـا قـد جـرى شـيء لبيـت ربنـا
إلا بـالاصلاح وبالـترميم يـا فـوز مـن عمـر بـالتكريم
أحاطـه الله بثـوب العظمـه وقـد حمـى حـدوده وحرمـه
فهـذه خلاصـة مختصـره جـاءتك في منظومـة مسـطره
تنبيـك عـن بنـاء بيـت الله قـرة عـين المؤمـن الأواه
ومـن أراد أن يـرى التفصيـلا بنفسـه ويحفـظ المنقـولا

فليقرأ التاريخ حتى ينظرا بعينه على الذي قد غبرا

* * *

والحمد لله الذي وفقنا لوضع « تاريخ قويم » حسنا
تاريخ « مكة وبيت الله » محرر الضبط به نباهي
فلم يؤلف مثله تاريخ منقح فيا له تاريخ
فيه من الأبحاث والأخبار ما فيه فاشكر نعمة الغفار
تحدثاً نقول هذا بالنعم فالشكر لله يزيد في النعم

* * *

فالبلد الأمين أعني « مكه » أم القرى وقد يقال « بكة »
أجدر ما يخدم من بلاد لأنها شريفة التلاد
قد اعتنى بها كثير الناس مِن خلَفا ومن ملوك الناس
وكيف لا ، ومن أتاها أمنا ومن أقام مخلصاً نال المنى
فبيت ربنا عظيم القدر ونوره سار كضوء البدر
قد وضع الله من الأسرار فيه فلا تخفى على الأبرار
أحاطه بالبر والإجلال وكيف وهو بيت ذي الجلال
من جاءه وكان حقاً مؤمناً با لله والرسول كان آمناً
والحسنات عنده بالضعف وا لله يعطي من يشاء بالألف
فهو الكريم الواسع الإحسان ذو الطول والفضل عظيم الشان
لا يقنط المذنب من رحمته لا يكتفي الغني من نعمته
سبحانه من خالق عظيم جل تعالى الله من حليم
من سلم الأمر إليه سلما ومن دعاه مخلصاً ما ندما

* * *

انظر: صورة رقم ٨٣، الكعبة المشرفة وحولها ألوف المصلين

بيان ما وقع من العمارة في الكعبة المشرفة في عصرنا الحاضر وذلك في عام (١٣٧٧) من الهجرة

باسم الإله الخالق العظيم تبارك اسم ربنا الكريم
من استوى في عرشه كما استوى من غير بحث لا ولا كيف استوى
ثم صلاة الله والسلام على الذي أرسله السلام
نبينا « محمد » ما ساء قط من الذي عليه جبريل هبط

وآلـــه وصحبـــه الكـــرام ذوي التقـــى وقـــادة الأنـــام

* * *

(وبعــد) هــذا رجــز منظــوم موضـــح بيانـــه مفهـــوم
يبحــث عــن مســألة التجديــد لســطح بيــت ربنــا المجيــد
بيــت عتيــق طــاهر الأركــان بنــاه إبراهيــم خــير بــان
صلــى عليــه الله مــا دام البنــا وطــاف طــائف حــوالي البنــا
وحيثمــا كــان البنــا مــن البشــر بــالطين والنــورة والمــا والحجــر
لا بــد أن يحــدث فيــه الخلــل والضعـف فـالاصلاح حتمـاً أفضـل
فلـــو أراد الله ذو الجـــلال لبيتـــه المحفـــوف بـــالجلال
أنْ لا تمســـه أيـــادي البشـــر ولا تضـــره ســـيول المطـــر
جعلــه مــن معــدن ثخــين أو لؤلــؤ أو جوهــر ثمــين
لكنمــا عــادات دنيانــا لهــا قواعــد تســير في نظامهــا

* * *

فبيــت ربــي حــف بالأســرار وبالبهــا ووافــر الأنــوار
قــد ابتنــاه أمــم وعمــروا وأصلحــوا خرابــه واعتمــروا
عــدة مــرات كمــا تقدمــا بيانهــا فاحفظــه كيمــا تغنمــا
مــن ذاك مــا وقــع في زماننــا تجديـد سـقف البيـت حيـث وهنـا
فــاجتمع النــاس مــع العمــال وصعـدوا فـوق السـطوح العـالي
لبيــت رب العــزة العظيــم الملـــك القـــدوس، الرحيـــم
بعــد صــدور الأمــر بالتعمــير بوافــر الأجــرة للأجــير
مــن المليــك الصــالح الكريــم (ســعود) ذي الخــيرات والتفخيــم
فنفــذ الأمــر الكريــم العــالي « محمــد بــن لادن » المفضــال
في صبح يوم الجمعة الثـامن عشـر مـن رجـب الفـرد وفي عـام أغـر
ســـبع وســـبعين وثلثمائـــة وألــف عــام علهــا وأثبــت
فبعـد وضعهـم سـتارة الخشـب على جوانـب البيـت وذاك في رجـب
حـالاً أتـى « الأمـير فيصـلٍ » الـذي ولي عهـــد للبـــلاد الجهبـــذ
بـــدأ بـــالهدم قليـــلا فـــنزل وتــرك النــاس يتمــون العمــل
فــأهل مكــة وأهــل مصــر وغـيرهم فـاعلم بـدون حصـر
قـاموا بكشـف السـقف والأطـراف ممـا يلـي جدرانـه اللطـاف

وقلعـــوا حجـــارة الرخـــام وكشـــفوا الأخشـــاب بالتمـــام
واشـــتغلوا بهمـــة وعـــزم ونيـــة صادقـــة وحـــزم
وذكرهـــم كلمـــة الشـــهادة بـــأدب فنعـــم هـــذي العـــاده

* * *

وبعـــد ذاك وضعـــوا الأعـــواد للسـقف الأعلـى راقبـوا السـداد
تعـداده إحـدى وعشـرون أتـى عـوداً أيضـاً في الجـدار ثبتـا
تمتـد بـين الجـدر الشـرقي وبـين جـدر الكعبـة الغربـي
ثـم أتـوا بخشـب الألـواح وفرشـوا فوقهـا يـا صـاح
وسمـك كـل لوحـة مـن الخشـب مقـدار بوصتـين يـا أخـا العـرب
وفـوق ذاك فرشـوا المشـمعا وفوقـه قمـاش قلـع وضعـا
وفـوق هـذا القلـع رمـل مختلـط بنـورة محبوكـة ومنضبـط
وفـوق هـذا وضعـوا الآجـرا قوالبـاً قوالبـاً محصـورا
أتـوا بطوبـه مـن « العـاقول » ممـا يلـي مدينـة « الرسـول »
وفـوق الآجـر أتـوا بـالطين مختلطـاً بـالنورة الثخـين
وفوقـه حجـارة الرخـام ناصعـة البيـاض كالغمـام
وصـب بينهـا الرصـاص الذائـب يبقـى كمـا شـاء الإلـه الغـالب

* * *

والسـقف الآخـر أزالـوا خشـبه حيـث رأوا قدمـه وعطبـه
أعـواده ثلاثـة غـلاظ نذكرهـا ليفهـم الحفـاظ
عـودان منهـا صالحـان للبقـا والثـالث التـالف إذ تشـققا
وذا هـو العـود الـذي في الوسـط فـاعرف مكانـه بـدون غلـط
فـأبدلوا هـذا بعـود صلـب عـود غليـظ وقـوي صعـب
تمتـد هـذي كـامتداد الأولى بـين الجداريـن تـرى موصـولا
وفوقهـا قـد فرشـوه بالخشـب نظيفـة مرصوفـة جنبـاً لجنـب
وليـس في خشـب هـذا السـقف طـين ولا طـوب فهـذا وصفـي
سـببه وقـوع مـاء المطـر للسـقف الأعلـى لا لهـذا فأشـكرْ
ودهنـوا السـقفين بـالقطران للحفـظ مـن سـوس ومـن ديـدان
ثـم أعـادوا دهنـه بالبويـة بيضـاء مثـل القطـن أو كالشـمعة

* * *

في يوم الاثنين لعشرين رجب ... وزده واحداً ترى فيه العجب
اشتغل العمال بالتنقيل ... حباً لبيت ربنا الجليل
فعملوا من الجهات الأربعه ... طائفة طائفة موزعه
من خارج البيت من الجدران ... من سطحه للأرض خذ بياني
فنقبوا بين الحجار ما وهى ... من التراب والحصا حتى استوى
فملأوا الفراغ باللاقونه ... والجص والرمل كذاك النوره
حتى أتموا سائر الجهات ... فرجعوا بوافر الهبات

* * *

ثم أتوا بعد صلاة الجمعة ... ثالث شعبان لجوف الكعبة
قاموا يزيلون من الجدران ... الجص والنورة بالإحسان
وأخرجوا كل الرخام الدائر ... بالجدران إذ لها كالساتر
ثم أعادوه كما قد كانا ... ما غيروا لحجر مكانا
لأن كل ما من البيت خرج ... يصان حتماً ليس فيه من حرج
والارتفاع للرخام فأدر ... ثلاث أمتار ونصف متر
وبعدها إلى علو السقف ... منقل بنورة كالعرف
تسع رخامات بها كتابه ... والباقي موضوع بلا خلابه
أما رخام نفس أرض البيت ... ما قلعوه لاستواء السمت
لكنهم قد وضعوا رخاما ... فوق رخام الأرض «استلهاما»
وأصلحوا درجه إصلاحا ... كيما ينالوا الفوز والفلاحا
واشتغلوا بالليل والنهار ... لسرعة الانجاز والعمار
ودهنوا أخشاب هذا السقف ... ببوية الزيت اعتمد لوصفي
وبعد الانتهاء أعادوا كسوته ... من داخل وخارج مثبته
وقد أناروا داخلاً بالكهربا ... والكهربا حديث عهد نصبا
كيما يروا في ضوئها ويعملوا ... بالجد والنشاط حيث اشتغلوا
فبيت ربي ليس فيه منفذ ... للضوء غير الباب، نعم المنفذ
والبيت زاهر البها والنور ... لذكر رب العزة الغفور
والحق أنه بني بنيانا ... تقبل الله لنا البنيانا
وكان يوم انتهاء الكعبه ... أمنن علينا ربنا بالتوبه
ثامن والعشرين من شعبان ... لاتيأسن من رحمة الرحمن

مــن بعــد ألــف وثلاثمائــه ... ســبع وسـبعين مضـت للهجـره
وجـاء للكعبـة حتـى ينظـرا ... مليكنـا والأمـرا والـوزرا
صلـوا بهـا وحمـدوا الوهابـا ... وقـد دعـوا ربهـم التوابـا
وسـبحوا وهللـوا وكـبروا ... في جوفهـا والجـدران عطـروا
وخرجـوا مستبشـرين فرحـا ... كـل يهنـئ أخـاه مرحـا
فكـان هـذا أعظـم الأعيـاد ... قـد عمـت الأفـراح في البـلاد
أقـامت الحكومـة السـنيه ... للنـاس جمعـاً حفلـةً بهيـه
وأكرمـت كـل الذيـن اشـتغلوا ... في بيـت رب البيـت فيـه عملـوا
وأجزلـت عطـاء كـل السـدنه ... حجـاب بيـت الله نعـم السـدنه
تقبـل الله الكبـير المتعـال ... بفضلـه العظيـم خـالص الفعـال

(ختام المنظومة بالدعاء)

يـا رب مـن أخلـص للبـلاد ... وخدمـة العبـاد في ذا الـوادي
وفقـه وانصـره وشـد أزره ... ومـن نـوى الشـر احتملـه وزره
وكـل مـن بغـى ومـن تزندقـا ... حَوِّلْـهُ عنـا مغربـاً ومشـرقا
وانصـر ملـوك المسـلمين كلهـم ... ورؤسـاءهم ومـن واصلهـم
واهلـك طغـاة المشـركين الكفـره ... ومـن يريدهـم فـأهلك عسـكره
يـا رب وارفـع رايـة الإسـلام ... علـى ربـوع الأرض بالسـلام
وانشـر علـى بلادنـا الأمانـا ... والخـير والرخـاء والإحسـانا
يـا رب أنـت المحسـن العظيـم ... وإنـك الرحمـن والرحيـم
لقـد دعونـاك وأنـت المرتجـى ... فـاقبل دعـا الـذي أتـاك وارتجـا
ولنختـم المنظـوم بـالصلاة ... علـى نبينـا الشـريف الـذات
« محمـد » مـن كـان يرفـع الحجـر ... في كتفيـه حجـراً بعـد حجـر
عنـد بنـاء البيـت في زمانـه ... كـذا خليـل الله في أوانـه
عليهمـا الصـلاة والسـلام ... والأنبيـاء وهـم الكـرام
وآلهـم وصحبهـم جميعـا ... وكـلٌ مـن تـابعهم مطيعـا

انظر: صورة رقم ٨٤، قطعة خطية كتبها مؤلف هذه المنظومة سنة ١٣٥٧هـ

(ناظم هذه القصيدة)

(وبعـد) هـذا رجـز منظـوم ... مسـتملح مسـتظرف مفهـوم

في صفة البناء والتعمير لبيت رب العزة الكبير
وإنه نظم عظيم الشان بلا مثيل ما له من ثان
نظمه طاهر الكردي لقبه الخطاط والمكي
كتبها بخطه الجميل حفظ من حاسده الثقيل
يا رب واغفر لمحمد طاهر ولأبيه وهو عبد القادر
واغفر لأمه ولبنيه وامنحه من فضلك ما يغنيه
واستره يا رب ووسع رزقه من غير طغيان وحقق عتقه
وافتح عليه في العلوم والعمل حتى ترى عليه آثار العمل
واجعله ممن قد أقام الشرعا وقد أقام الصلوات جمعا
يا رب من برك لا يستغنى أفض على عبدك يا ذا المن
من كل خير باطناً وظاهرا واجعله في الدارين حقاً طاهرا
أعماله من الهوى بجرده يرجو من الله بلوغ مقصده
والعفو والراحة عند الموت والرزق والخير وحسن البخت
والستر والصحة ثم العافيه ونعماً وابلة ووافيه
يسأله الثبات جوف القبر والفوز بالجنة يوم الحشر
والأمن والأمان في الدارين واليسر في أموره باللهين
وأن يكون قلبه ونفسه كاسمه وأن يدوم أنسه
وستر الله له عيوبه ووالديه وعفا ذنوبه
وجعل الباقي من حياته أحسن ما مر إلى مماته
واختم حياته بخير حال يا حي يا قيوم ذا الجلال
واغفر لكل المسلمين ذنبهم « يا ربنا » وأصلح لهم أحوالهم
فأنت « يا رب » غني عنا وعن جميع الخلق فاعف عنا
والحمد لله في البدء وفي الختام والشكر لله على الدوام
فكم له من نعم لا تحصى تزداد بالشكر كما جا نصا
فهو الكريم المحسن العظيم خالقنا الرحمن والرحيم
الملك القدوس والسلام المؤمن المهيمن العلام

وأشرف الصلاة والسلام على النبي وآله الكرام
« محمد » من لا نبي بعده أيده الله تعالى وحده
فهو الذي أشرقت الدنيا به وفاح في الأرجاء عرف طيبه

* * *

قد تمت الرسالة اللطيفه منظومة في الكعبة الشريفه
نكرر الصلاة والتسليما على النبي وآله تكريما
والحمد لله جزيل الحمد رب العباد ذي الثنا والمجد
قد كان نظم هذه « الرساله » بمكة التي بها « الرساله »
في عام ألف وثلاثمائه سبع وسبعين مضت للهجره
أبياتها خمس وخمسون وزد فيها ثلاثمائة عدا تجد
إلى هنا منظومتي قد انتهت وصححت أبياتها فانتظمت

* * *

نظم هذه الأرجوزة اللطيفة ، محمد طاهر بن عبد القادر بن محمود الكردي المكي الخطاط كاتب مصحف مكة المكرمة ومؤلف « التفسير المكي » غفر الله تعالى له ولوالديه ولجميع المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات آمين .

نظمها بمكة المشرفة في رمضان المبارك بعد الانتهاء من تجديد سقف الكعبة المشرفة . سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين سنة ١٣٨٠هـ .

الحجر الأسود

الحجر الأسود ويقال له « الركن » باعتبار أنه موضوع في الركن الأهم من البيت الحرام ، وهو الركن الذي يبتدئ الطواف منه ، وهوالركن الشرقي ، وارتفاعه من أرض المطاف متر واحد ونصف المتر ليتمكن كل إنسان من تقبيله ما عدا الطفل الصغير ، ولونه أبيض ما عدا ما يظهر منه فإنه مسود من أثر الحريق الذي وقع في الكعبة في عهد قريش وابن الزبير ، والذي يظهر منه بعض قطع صغيرة وهو محاط بطوق من الفضة الخالصة السميكة . وطوله نحو ذراع داخل في بنيان الكعبة فما كان داخل البنيان فهو أبيض مورد ، وما ظهر منه من القطع

المتكسر فهو مسود من الحريق المتقدم . هكذا جاء وصفه في كتاب « الإشاعة لأشراط الساعة » عن محمد بن نافع الذي رآه حينما قلعه القرمطي في سابع ذي الحجة سنة سبع عشرة وثلاثمائة . بل ذكروا في التاريخ أن مقدار طول الحجر الأسود نصف ذراع بذراع العمل وعرضه ثلث ذراع ونقص منه قيراط في بعضه قالوا لتاكل ذلك منه وسمكه أربعة قراريط وعليه سيور من فضة وفي عرضه ثلاثة شطوب مستطيلة . انتهى .

وجاء في تاريخ الأزرقي عند الكلام على بناء ابن الزبير للكعبة ، قال عكرمة : فرأيت الحجر الأسود فإذا هو ذراع أو يزيد . انتهى منه وهذه هي الحقيقة التي لا مراء فيها .

وجاء فيه أيضاً بصحيفة ١٣٦ وطول الركن ذراعان قد أخذ عرض جدار الكعبة ومؤخر الركن داخله في الجدر مضرس على ثلاثة رؤوس . قال ابن جريج : فسمعت من يصف لون مؤخره الذي في الجدر قال بعضهم : هو مورد وقال بعضهم : هو أبيض . اهـ .

نقول : والذي يظهر منه الآن في زماننا ونستلمه ونقبله ثماني قطع صغار مختلفة الحجم أكبرها بقدر التمرة الواحدة ، تساقطت منه حين الاعتداءات عليه من بعض الجهال والمهووسين في الأزمان السابقة ، وقد كان عدد القطع الظاهرة منه خمسة عشر قطعة وذلك منذ خمسين سنة أي أوائل القرن الرابع عشر للهجرة ، ثم نقصت هذه القطع بسبب الإصلاحات التي تحدث في إطار الحجر الأسود ، فما صغر ورق حجمه عجن بالشمع والمسك والعنبر ووضع أيضاً على الحجر الكريم نفسه ، ولقد زاد سواد هذه القطع من كثرة وضع العطورات والخلوق عليه دائماً وأبداً والله تعالى أعلم .

وفي زمن ابن جبير الأندلسي أي في سنة (٥٧٨) كان في الحجر الأسود الكريم أربع قطع ملصقة بسبب قلع القرامطة له وكسره ، هكذا مذكور في رحلة ابن جبير .

وأمر الحجر الأسود يرجع إلى عهد إبراهيم الخليل ، عليه الصلاة والسلام ، فإنه لما كان يبني البيت المعظم وابنه إسماعيل ينقل له الحجارة على رقبته ويناوله ووصل إلى موضع الركن الأسود ، قال إبراهيم لإسماعيل : أبغني حجراً أضعه هاهنا يكون للناس علماً يبتدؤون منه الطواف ، فذهب إسماعيل يطلب له حجراً ورجع وقد

جاءه جبريل بالحجر الأسود ، وكان الله عز وجل استودع الركن أبا قبيس حين أغرق الله الأرض زمن نوح ، وقال : إذا رأيت خليلي يبني بيتي فأخرجه له ، فقال إسماعيل : يا أبي من أين لك هذا ؟ قال : جاءني به من لم يكلني إلى حجرك جاء به جبريل ، فلما وضع جبريل الحجر في مكانه بنى عليه وهو حينئذ يتلألأ تلألؤاً من شدة بياضه ، فأضاء نوره شرقاً وغرباً ، ويمناً وشاماً ، فكان نوره يضيء إلى منتهى أنصاب الحرم من كل ناحية من نواحي الحرم ، وإنما شدة سواده لأنه أصابه الحريق مرة بعد مرة في الجاهلية والإسلام ، فإنه احترق باحتراق الكعبة حتى اسود ، وتوهنت من ذلك الكعبة زمن قريش فقاموا على هدمها وبنائها ، ثم احترق أيضاً في عصر ابن الزبير رضي الله عنهما ، باحتراق الكعبة فتفلق ثلاث فلق ، فشده ابن الزبير بالفضة حينما بنى الكعبة ، فسواده كان من الحريق .

هذا ما ذكره الأزرقي في تاريخه ، فيفهم من هذا أن الحجر الأسود لم يكن من جنس حجارة البيت ، بل ولا من جنس باقي الحجارات ، كما يفهم أيضًا مما ذكر من أن الله تعالى استودع الحجر الأسود جبل أبي قبيس حينما عم الطوفان الأرض في زمن نوح ، عليه الصلاة والسلام . إن الحجر الأسود كان في الكعبة في بناياتها السابقة لبناء إبراهيم ، أي في بناء الملائكة وفي بناء آدم وفي بناء ابنه شيث ، عليهم الصلاة والسلام ، وعلى كل حال سواء ثبتت البنايات السابقة المذكورة أم لم تثبت فقد أتى به جبريل عليه الصلاة والسلام من حيث كان .

أصل الحجر الأسود من الجنة

جاء في أول تاريخ الأزرقي عن وهب بن منبه : أن الله تعالى لما تاب على آدم عليه الصلاة والسلام ، أمره أن يسير إلى مكة فطوى له الأرض وقبض له المفاوز فصار كل مفازة يمر بها خطوة ، وقبض له ما كان فيها من مخاض ماء أو بحر ، فجعله له خطوة ، فلم يضع قدمه في شيء من الأرض إلا صار عمراناً وبركة حتى انتهى إلى مكة ، وكان قبل ذلك قد اشتد بكاؤه وحزنه لما كان فيه من عظيم المصيبة ، حتى أن كانت الملائكة لتحزن لحزنه ولتبكي لبكائه ، فعزاه الله تعالى بخيمة من خيام الجنة ووضعها له بمكة في موضع الكعبة قبل أن تكون الكعبة ،

وتلك الخيمة ياقوتة حمراء من يواقيت الجنة فيها ثلاثة قناديل من ذهب من تبر الجنة فيها نور يلتهب من نور الجنة ونزل معها « الركن » وهو يومئذ ياقوتة بيضاء من ربض الجنة .. إلى آخر كلامه ، أي من أرض الجنة .

وجاء فيه من رواية عبدالله بن لبيد أنه قال : بلغني أن ابن عباس قال : لما أهبط الله سبحانه آدم عليه السلام إلى الأرض أهبطه إلى موضع البيت الحرام ، وهو مثل الفلك من رعدته ، ثم أنزل عليه الحجر الأسود -يعني الركن- وهو يتلألأ من شدة بياضه ، فأخذه آدم عليه السلام ، فضمه إليه أنساً به ، ثم نزلت عليه العصا فقيل له : تخط يا آدم ، فتخطا فإذا هو بأرض الهند والسند فمكث بذلك ما شاء الله ، ثم استوحش إلى الركن ، فقيل له : احجج ، قال : فحج فلقيته الملائكة ، فقالوا : بر حجك يا آدم لقد حججنا هذا البيت قبلك بألفي عام . انتهى من تاريخ الإمام الأزرقي .

وقد جاء فيه جملة روايات بهذا المعنى ، اكتفينا بما ذكر خوف الإطالة .

ولقد ورد في نزول الركن من الجنة بعض أحاديث نسردها هنا وهو : روى الترمذي وأحمد والحاكم وابن حبان أن رسول الله ﷺ ، قال : « إن الركن والمقام ياقوتتان من ياقوت الجنة طمس الله تعالى نورهما ولو لم يطمس نورهما لأضاءتا ما بين المشرق والمغرب » .

وروى الإمام أحمد عن أنس بن مالك والنساء عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال: « الحجر الأسود من الجنة » ، وروى أحمد وغيره : « الحجر الأسود من الجنة وكان أشد بياضاً من الثلج حتى سودته خطايا أهل الشرك » وروى الطبراني في معجمه الكبير عن ابن عباس « الحجر الأسود من حجارة الجنة وما في الأرض من الجنة غيره وكان أبيض كالماء ولولا ما مسه من رجس الجاهلية ما مسه ذو عاهة إلا برئ » . وروى ابن خزيمة في صحيحه عن ابن عباس « الحجر الأسود ياقوتة بيضاء من ياقوت الجنة وإنما سودته خطايا المشركين يبعث يوم القيامة مثل أحد يشهد لمن استلمه وقبله من أهل الدنيا » .

وروى الخطيب بإسناد ضعيف « الحجر يمين الله في الأرض يصافح بها عباده » . وجاء في تاريخ الأزرقي عن مجاهد أنه قال : « الركن من الجنة ولو لم يكن من الجنة لفني » . وجاء فيه أيضاً عن عطاء عن ابن عباس ، رضي الله عنهما ، أنه قال : ليس في الأرض من الجنة إلا الركن الأسود والمقام فإنهما جوهرتان من

جوهر الجنة ، ولولا ما مسهما من أهل الشرك ما مسهما ذو عاهة إلا شفاه الله عز وجل .

وجاء فيه أيضاً عن سعيد بن جبير عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال : إن الله عز وجل يبعث الركن الأسود له عينان يبصر بهما ولسان ينطق به يشهد لمن استلمه بحق . وجاء فيه أيضاً : عن عبدالملك بن جريج عن أبيه أنه قال : كان سلمان الفارسي قاعداً بين الركن وزمزم والناس يزدحمون على الركن فقال لجلسائه : هل تدرون ما هو ؟ قالوا : هذا الحجر ، قال : قد أرى ولكنه من حجارة الجنة أما والله نفس سلمان بيده ليجيئن يوم القيامة له عينان ولسان وشفتان يشهد لمن استلمه بالحق .

وجاء فيه أيضاً عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : قال رسول الله ﷺ : أكثروا من استلام هذا الحجر فإنكم توشكون أن تفقدوه بينما الناس يطوفون به ذات ليلة إذ أصبحوا وقد فقدوه إن الله عز وجل لا يترك شيئاً من الجنة في الأرض إلا أعاده فيها قبل يوم القيامة .

وجاء فيه أيضاً عن عكرمة قال : إن الحجر الأسود يمين الله في الأرض فمن لم يدرك بيعة رسول الله ﷺ فمسح الحجر فقد بايع الله ورسوله .

وجاء فيه أيضاً عن يوسف بن ماهك قال : قال عبدالله بن عمرو : إن جبريل عليه السلام نزل بالحجر من الجنة وأنه وضعه حيث رأيتم وإنكم لم تزالوا بخير ما دام بين ظهرانيكم فتمسكوا به ما استطعتم فإنه يوشك أن يجيء فيرجع به من حيث جاء به . وفي كتاب الإشاعة في أشراط الساعة عن ابن عمر ، رضي الله عنهما ، قال : لا تقوم الساعة حتى يرفع الركن والمقام ورؤيا النبي في المنام . إلى غير ذلك من الأحاديث الواردة في الركن الأسود .

قال في الجامع اللطيف : معنى كون الحجر الأسود يمين الله في الأرض : أن من صافحه كان له عند الله عهد ، وقال فيه : ونقل عن المحب الطبري أن كل ملك إذا قدم عليه الوافد قبل يمينه فنزل الحجر منزلة يمين الملك ولله المثل الأعلى . اهـ .

على أنه لو لم يرد في الحجر الأسود شيء من الأحاديث ، لكفى له شرفاً كونه في ركن بيت الله المعظم ، وإجماع الناس على احترامه وتعظيمه آناء الليل وأطراف النهار جاهلية وإسلاماً ، وفيه يقول أبو طالب :

وبالحجر المسود إذ يمسحونه إذا اكتنفوه بالضحى والأصائل

انظر: صورة رقم ٨٥، الحجر الأسود خالياً من الطوق الفضي القديم ١٣٧٥هـ

فحجر في بيت الله الحرام، جاء به جبريل ووضعه إبراهيم الخليل، ثم وضعه خاتم الأنبياء نبينا محمد ﷺ بيده فيه أيضاً، وقبله هو والأنبياء والمرسلون، والأصفياء والمتقون، ويتمسح به عامة الناس من جميع الأجناس منذ وجوده بالبيت إلى أن تقوم الساعة، لجدير بكل احترام وتعظيم، وتقبيل وتسليم.

على أن هذا الركن الكريم سواء كان من الجنة أو من الأرض، فهو حجر لا يضر ولا ينفع، وما اكتسب هذا الشرف والإحترام إلا من الأديان السماوية، وانظر إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، كيف يخاطب هذا الحجر الكريم حين تقبيله ويقول: «والله إني لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ولولا أني رأيت رسول الله ﷺ يقبلك ما قبلتك» وفي رواية «كان عمر بن الخطاب إذا بلغ موضع الركن قال: أشهد أنك حجر لا تضر ولا تنفع وأن ربي الله الذي لا إله إلا هو، ولولا أني رأيت رسول الله ﷺ يمسحك ويقبلك ما قبلتك ولا مسحتك».

ومن الأسرار الدقيقة: أن أهل الجاهلية على كثرة عبادتهم للأحجار والأصنام لم يرد قط في التاريخ أنهم عبدوا الحجر الأسود أو حجر المقام أو نفس الكعبة. ونرى والله تعالى أعلم أن ذلك كان لحكمة إلهية جليلة وهي: أن الله تعالى لم يقدر في سابق الأزل عبادة هذه الأشياء المقدسة حتى لا تدخل ضمن قوله عز شأنه في آخر سورة الأنبياء: ﴿إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون ۞ لو كان هؤلاء آلهة ما وردوها وكل فيها خالدون﴾ فتأمل.

ثم إن في تقبيل المسلمين واستلامهم للحجر الأسود نقطة دقيقة أخرى وهي: أن تقع أفواههم موضع فم رسول الله ﷺ وفم الأنبياء الذين قبله، عليهم الصلاة والسلام، وأن تلمس أيديهم ما لمسته أيديهم الشريفة من هذا الحجر المكرم، وأي مسلم إذا خطرت بباله هذه النقطة لا يبادر بتقبيله واستلامه.

قال بعض العلماء المحدثين في هذا المعنى وقد قبل الحجر الأسود مراراً:

لدى الحجر المقبل في طواف ... ببيت الله نلت لدى دخولي
من التقبيل ما أرجو لنفسي ... به أمناً يدوم مع الوصول
لتقبيل الرسول له فأعظم ... بشيء مسه بدن الرسول
صلاة دائمة عليه ... بها أعطى الفلاح مع القبول

ثم للحجر الأسود مغزى خاص ورمز تعبدي ، ذلك أن المسلمين إذا أتوا من كل فج عميق لأداء فريضة الحج ، فطافوا ببيت الله الحرام واجتمعوا على تقبيل هذا الحجر الأسود ، فكأنهم بذلك يبايعون الله ورسوله ويقدمون لهما الطاعة والإيمان بهما ، وفي هذا نهاية الخضوع والامتثال .

وأيضاً أن في الطواف بالبيت واستلام الركن الأسود ، إشعار بالوحدة الإسلامية واستمساك بالرابطة المحمدية ، فالمسلمون في حالة البعد يتوجهون في صلاتهم إلى هذا البيت الحرام ، وفي حالة القرب والوصول يطوفون حوله يعوذون برب هذا البيت ، ويلتفون حول ركنه المنيع ، القائم في السلام مقام الراية في الحرب ، ولسان حالهم يقول : ﴿واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون ۞ ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون﴾ . وما أجمل وأبهى منظر الطائفين حول البيت الحرام وهم يهللون ويكبرون ويدعون ربهم بنية خالصة وقلب خاشع خاضع ، فإنهم والحالة هذه يشبهون الملائكة الذين يطوفون حول العرش يسبحون بحمد ربهم . فالحمد لله على نعمة الإيمان والإسلام وكفى بها من نعمة .

ومن أدق الأسرار التي قد تغيب عن الكثيرين : أن بقعة الكعبة وما حولها من المطاف طاهراً نقياً لا تخلوا لحظة واحدة من ليل أو نهار من العبادة ، لا أثر للعصيان وارتكاب الذنوب في هذه البقعة منذ قديم الزمان جاهلية وإسلاماً إلى قيام الساعة ، لذلك تفضل على جميع البقاع ، فهنيئاً لأهلها ولمن وصل إليها ولمن عرف مكانتها وقدسيتها وطهارتها .

لون الحجر الأسود

لا يمكن أن نصف لون الحجر الأسود الكريم عن مشاهدة بسبب دخوله الآن في بناء نفس الكعبة المشرفة اللهم إلا ما يظهر لنا اليوم من بعض قطعه وهي سوداء بسبب الحريق الذي أصابه ولكن نصف لونه من الأحاديث الواردة ومن ما جاء في التاريخ . أما طوله فقد تقدم عن عكرمة أنه رأى الحجر الأسود في بناء ابن الزبير الكعبة فإذا هو ذراع أو يزيد كما جاء في تاريخ الأزرقي .

أما الأحاديث فقد تقدم جملة منها ، ونأتي هنا بحديث واحد فقط وهو يكفي . فقد روى الإمام أحمد وغيره أن رسول الله ﷺ قال : «الحجر الأسود من الجنة وكان أشد بياضاً من الثلج حتى سودته خطايا أهل الشرك» .

ولا يخفى أنه ﷺ قد رأى نفس الحجر الأسود بأكمله حينما كان يحمل الحجارة على كتفه الشريف عند بناء قريش الكعبة ، وهو الذي وضعه في محله بيده الشريفة حينما حكمته قريش في شأن وضعه ورفعه لمحله فحكم بما أرضى الجميع .

وأما التاريخ ، فقد جاء في تاريخ الإمام الأزرقي عند بناء ابن الزبير الكعبة عن شرحبيل عن أبي عون عن أبيه قال : رأيت الحجر الأسود قد انفلق واسود من الحريق فأنظر إلى جوفه أبيض كأنه الفضة . اهـ . وجاء فيه أيضاً عند هذا البناء عن منصور بن عبدالرحمن الحجبي عن أمه قالت : كان الحجر الأسود قبل الحريق مثل لون المقام ، فلما احترق اسودّ . قال : فلما احترقت الكعبة تصدع بثلاث فرق فشده ابن الزبير بالفضة . انتهى .

ونقول أيضاً : أما في زماننا هذا الذي نكتب هذا التاريخ فيه وهو عام (١٣٧٦) فليس في الحجر الأسود ، أي في القطع الصغيرة الظاهرة منه شيء من البياض مطلقاً ولا مثقال ذرة ، أما ما كان من الحجر الكريم الداخل في بناء الكعبة فهو كله أبيض لا شك فيه ما عدا رأسه فقد اسود من الحريق المتقدم كما هو مذكور هنا . والله تعالى أعلم .

وقال ابن جبير في رحلته التي كانت سنة ثمان وسبعين وخمسمائة عن مشاهدته للحجر الأسود حينما وصل إلى مكة في السنة المذكورة ما يأتي :

وفي القطعة الصحيحة من الحجر الأسود مما يلي جانبه الذي يلي يمين المستلم له إذا وقف مستقبله نقطة بيضاء صغيرة مشرقة تلوح كأنها خال في تلك الصفحة

المباركة وفي هذه الشامة البيضاء أثر أن النظر إليها يجلو البصر . انتهى كلام ابن جبير رحمه الله تعالى .

وجاء في كتاب «الإشاعة لأشراط الساعة» عند الكلام على قلع القرامطة الحجر الأسود في سنة (٣١٧) من الهجرة ما يأتي:

وقال محمد بن نافع الخزاعي : تأملت الحجر الأسود وهو مقلوع فإذا السواد في رأسه فقط وسائره أبيض ، وطوله قدر عظم الذراع . اهـ .

وجاء في الجامع اللطيف لابن ظهيرة القرشي ما يأتي :

قال القاضي عز الدين بن جماعة : وقد رأيته أول حجاتي سنة ثمان وسبعمائة وبه نقطة بيضاء ظاهرة لكل أحد ، ثم رأيت البياض بعد ذلك قد نقص نقصاً بيناً . انتهى .

وقال العلامة ابن خليل المتوفى في منسكه الكبير : وقد أدركت في الحجر الأسود ثلاث مواضع بيضاء نقية في الناحية التي إلى باب الكعبة المعظمة إحداها وهي أكبرهن قدر حبة الذرة الكبيرة ،والأخرى إلى جنبها وهي أصغر منها ، والثالثة إلى جنب الثانية وهي أصغر من الثانية تأتي قدر حبة الدخن ثم إني أتلمح تلك النقط فإذا هي كل وقت في نقص. انتهى بنصه . انتهى من الجامع اللطيف . نقول : لا يبعد أن يكون نقص بياض النقط التي كان بالحجر الأسود في قول ابن جماعة وابن خليل تفسيراً لكلامه ﷺ المتقدم « ... وكان أشد بياضاً من الثلج حتى سودته خطايا أهل الشرك» والله تعالى أعلم .

ذكر صاحب كتاب «تاريخ الكعبة المعظمة» قال : قال ابن علان : ولون ما استتر من الحجر الأسود بالعمارة في جدر الكعبة أبيض بياض المقام يعني مقام الخليل إبراهيم ﷺ وذرع طوله نصف ذراع بذراع العمل وعرضه ثلث ذراع ونقص منه قيراط في بعضه وسمكه أربعة قراريط وعليه سيور من الفضة واحد من أول ما غاب من رأسه من جهة الباب مستديراً إلى مثله مما يلي الجانب اليماني في وسط سمكه وعليه سيران من فضة محيطان بعرضه إلى طرف السير من الوجه الثاني .. إلى آخر كلامه .

وابن علان المذكور هو العلامة الشيخ محمد بن علان الصديقي ، وكان حاضراً بمكة في عمارة السلطان مراد الرابع للكعبة سنة (١٠٤٠) أربعين وألف من

الهجرة، فعليه يكون قد شاهد نفس الحجر الأسود في هذه العمارة فهو يخبر هنا عن مشاهدة، وقوله: «أن ما استتر من الحجر الأسود بالعمارة في جدر الكعبة أبيض بياض مقام إبراهيم الخليل» هو معقول وصحيح ومطابق للحقيقة، لأن الحجر الأسود طويل نحو ذراع، وهو داخل في بناية ركن الكعبة وما كان ظاهراً منه في صدر الإسلام إلا رأسه، كما لا يظهر منه في عصرنا هذا إلا بعض قطع صغيرة وقد اسود رأسه من أثر حريق الكعبة في عهد قريش وفي عهد ابن الزبير، فهذه القطع الصغيرة الظاهرة اليوم كسرت من رأسه المحترق، فيكون ما دخل من الحجر الأسود في بناية الكعبة أبيض بياضاً يشبه بياض حجر مقام إبراهيم عليه الصلاة والسلام الموجود أمام الكعبة المشرفة بجوار بئر زمزم، لم يتأثر المستتر منه بالاحتراق ولا بالشمس والهواء ولا بغير ذلك، لأنه مستور ومحفوظ غير ظاهر.

فقول ابن علان عن لون الحجر الأسود مطابق لما رواه الإمام الأزرقي في تاريخه: عن منصور بن عبدالرحمن الحجبي عن أمه قالت: كان الحجر الأسود قبل الحريق مثل لون المقام فلما احترق اسود، قال: فلما احترقت الكعبة تصدع بثلاث فرق فشده ابن الزبير بالفضة. انتهى من الأزرقي.

ولا يمكن الإخبار بلون ما كان مستوراً من الحجر الأسود إلا عن مشاهدة، ولا تمكن المشاهدة إلا إذا هدم من الكعبة مكان الحجر لا سمح الله، وهذا لا يكون إلا نادراً بعد مرور مئات السنين والأعوام، فالعلامة الشيخ محمد بن علان أخبر بذلك عند مشاهدته للحجر الأسود في العمارة الكبيرة للكعبة عندما هدمها السيل في زمن السلطان مراد الرابع. وكان يحضر على الدوام عند الكعبة لمشاهدة بنائها وكتابة مذكراته ويومياته عن بنائها وعندما وصل الإصلاح في مكان الحجر الأسود كان يقف عنده مع الأمير رضوان وناظر الحرم، وأن المذكور قرأ جزءاً من صحيح البخاري في جوف الكعبة عند انتهاء بنائها وعمارتها التي حصلت في زمنه.

وللعلامة ابن علان المذكور تآليف قيمة، منها: كتاب «القول الحق والنقل الصريح بجواز أن يقرأ في جوف الكعبة الحديث الصحيح» ومنها: «العمل المفرد في فضل وتاريخ الحجر الأسود» ومنها «أنباء المؤيد الجليل مراد ببناء بيت الوهاب الجواد» ومنها «شرح رياض الصالحين» وهو أربع مجلدات، ومنها «شرح كتاب

الأذكار » وهو أربع مجلدات أيضاً ، وغير ذلك من المؤلفات رحمه ا لله تعالى وأحسن جزاءه .

علة تسمية الركن بالحجر الأسود

تقدم أن لون الركن الشريف أبيض مورد ، وكان في عهد إبراهيم عليه السلام يتلألأ من شدة بياضه وقد أضاء نوره الجهات الأربع ، ثم طمس ا لله نوره ليمكن التقرب منه .

و لم نر أحداً ذكر علة لتسميته بالحجر الأسود ، ونحن نذكر هنا ما قد فتح ا لله به علينا بفضله الواسع فنقول :

١- قد يكون سمي بذلك من باب أسماء الأضداد ، أو من سيادته على جميع الأحجار .

٢- وقد يكون بسبب اسوداد رأسه من أثر الحريق الذي حصل للكعبة في الجاهلية والإسلام .

٣- وقد يكون تسميته بذلك بسبب خطايا بني آدم وما مسه من رجس الجاهلية . كما جاء ذلك صريحاً في بعض الأحاديث المتقدمة ، لكن هذا أمر معنوي لا يمكن إدراكه بالعقل ، فيكون من قبيل الفسق والفجور يذهبان بنور الإيمان من وجه الإنسان .

٤- سمي الركن « بالحجر الأسود » من ابتداء الأمر من قديم الزمان ، بدون نظر إلى علة ، على قاعدة الأسماء لا تعلل . وا لله تعالى أعلم .

تقبيل الأيدي عند استلام الركن

قال الإمام الأزرقي في تاريخه : حدثنا أبو الوليد قال : حدثني جدي حدثنا مسلم بن خالد عن ابن جريج عن عطاء قال : رأيت عبد ا لله بن عمر وأبا هريرة وأبا سعيد الخدري وجابر بن عبدا لله إذا استلموا الحجر قبلوا أيديهم ، قال ابن جريج : قلت له : وابن عباس؟ قال : وابن عباس حسبت كثيراً .

حدثنا أبو الوليد قال : حدثني جدي حدثنا عبدا لله بن يحيى السهمي قال : رأيت عطاء بن أبي رباح وعكرمة بن خالد وابن أبي مليكة يطوفون بعد العصر

ويصلون ورأيتهم يستلمون الركن الأسود واليماني ويقبلون أيديهم ويمسحون بها وجوههم وربما استلموا ولا يمسحون بها أفواههم ولا وجوههم .

حدثنا أبو الوليد قال : حدثني جدي حدثنا عيسى بن يونس بن أبي إسحاق عن عبدا لله ابن أبي زياد قال : رأيت عطاء ومجاهداً وسعيد بن جبير إذا استلموا الركن قبلوا أيديهم .

حدثنا أبو الوليد قال : حدثني جدي عن الزنجي عن ابن جريج قال : قال عمرو بن دينار : جفا من استلم الركن و لم يقبل يده ، قال ابن جريج : وأخبرت أن النبي ﷺ كان إذا طاف على راحلته يستلم الركن بمحجنه ثم يقبل طرف المحجن .

حدثنا أبو الوليد قال : حدثني جدي حدثنا سفيان أنه سمع حميد بن حيان قال : رأيت سالم بن عبدا لله إذا استلم يضع يده على خده أو جبهته قال سفيان: ورأيت أيوب بن موسى إذا استلم الركن يضع يده على جبهته أو على خده .

حدثنا أبو الوليد قال حدثني جدي عن سفيان عن عبدالكريم عن مجاهد قال : لا بأس أن تستلم الحجر من قبل الباب . انتهى من تاريخ الأزرقي .

نقول : ومن عادة أهل مكة إلى يومنا هذا أن بعضهم إذا صافح إنساناً قبل يد نفسه ، والظاهر أن هذه العادة قديمة العهد ناشئة من تقبيل الأيدي إذا استلموا الحجر الأسود كما تقدم . وا لله تعالى أعلم .

جاء في كتابنا « إرشاد الزمرة لمناسك الحج والعمرة » عند الكلام على سنن الطواف ما نصه :

وسنن الطواف كثيرة منها أن يستقبل الطائف الحجر الأسود قبل البدء بالطواف إذا كان المطاف خالياً ، وأن يستلمه بيده اليمنى ثم يقبله بفمه قبلة خفيفة ثم يضع جبهته عليه ويفعل ذلك في كل مرة ، فإن عجز عن التقبيل بيده اليمنى فباليسرى ، فإن عجز عن استلامه استلمه بنحو عود ثم قبل ما استلم به ، فإن عجز عن استلامه أشار إليه بيده أو بشيء فيها ثم قبل ما أشار به ، ولا يشير بالفم إلى التقبيل ، ولا يزاحم للتقبيل بل تحرم المزاحمة والاستلام إن آذى غيره أو تأذى بغيره ، ولا يستحب للنساء في الطواف استلام ولا تقبيل للحجر السود والركن اليماني إلا عند خلو المطاف .

(ومنها) أن يستلم الركن اليماني بيده ويقبل يده بعد استلامه ، فإن عجز عن استلامه أشار إليه بيده أو بشيء فيها لكن لا يقبل ما أشار به للركن اليماني ، وظاهر كلام النووي وغيره تقبيل ما أشار به إليه أيضاً ، أما الركن الشامي والركن العراقي فلا يسن تقبيلهما ولا استلامهما .

قال البجيرمي في حاشيته : وقد ثبت أنه ﷺ قبل الحجر الأسود وثبت أنه استلمه بيده ثم قبلها ، وثبت أنه استلمه بمحجنه فقبل المحجن ، ولم يثبت أنه ﷺ قبل الركن اليماني ولا قبل يده حين استلمه ، ولم يستلم الركنين المقابلين للحجر ، أي الركن الشامي والركن العراقي ، اهـ . فالركن العراقي جهة باب العمرة والشامي جهة باب الزيادة كما هو ظاهر في رسم الكعبة ، اهـ .

ثم ذكرنا هناك في كتابنا المذكور بقية سنن الطواف ولم نأت بها لعدم تعلقها بهذا المبحث .

بقاء الحجر الأسود إلى يوم القيامة

يتعلق أمر هذا الحجر الأسود الكريم ببيت الله الحرام ، فإنه منذ بنائه الأول أتى بهذا الحجر فوضعه في ركنه ، إذن فهو مرتبط به ويبقى ببقائه إلى يوم القيامة ، ويدل على ذلك ما يأتي : روى الأزرقي في تاريخه أن النبي ﷺ قال : « أول ما يرفع الركن والمقام ورؤيا النبي في المنام » وفيه أيضاً عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « أكثروا استلام هذا الحجر فإنكم توشكون أن تفقدوه بينما الناس يطوفون به ذات ليلة إذ أصبحوا وقد فقدوه ، إن الله عز وجل لا يترك شيئاً من الجنة في الأرض إلا أعاده فيها قبل يوم القيامة » . وفيه أيضاً عن عبدالله بن عمرو بن العاص قال : « إن الله تعالى يرفع القرآن من صدور الرجال والحجر الأسود قبل يوم القيامة » .

وجاء في كتاب الإشاعة لأشراط الساعة عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : « لا تقوم الساعة حتى يرفع الركن » وجاء فيه أيضاً عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : « يخرب الكعبة ذو السويقتين من الحبشة » رواه الشيخان وأخرج أحمد عن ابن عمر نحوه وزاد « ويسلبها حليها ويجردها من كسوتها ، فلكأني أنظر إليه أصيلع أفيدع يضرب عليها بمسحاته أو معوله » ومعنى السويقتين : تصغير الساقين

أي دقيق الساقين، والأصيلع تصغير أصلع وهو صغير الرأس، والأفيدع تصغير الأفدع وهو من في يديه اعوجاج.

وفي تاريخ الأزرقي أيضاً عن رجل من أصحاب النبي ﷺ قال: «أترك الحبشة ما تركتكم فإنه لا يستخرج كنز الكعبة إلا ذو السويقتين من الحبشة».

إلى غير ذلك مما ورد من الأحاديث التي سننشرها أيضاً في المناسبة الآتية إن شاء الله تعالى.

وهذه الأحاديث وإن كان أكثرها في تخريب الكعبة فإنها تشمل الحجر الأسود أيضاً لتعلقه بها تعلقاً شديداً فهو معها منذ بنائها الأول ويكون فيها إلى قيام الساعة، والظاهر من الأحاديث المتقدمة أن الحجر الأسود يرفع من الكعبة قبل تخريبها، ورفعه علامة لقيام الساعة، والله تعالى أعلم.

نقول: ومن مميزات الحجر الأسود أنه مهما قبلته الأفواه ومسحته الأيدي لا يتغير شكله وصورته ولا ينحت منه شيء مطلقاً، فهو أصلب من الحديد بآلاف المرات، إنه ليس كالأحجار العادية، بل فيه سر إلهي يشرفه عن جميع الأحجار حساً ومعنى، ولو كان قابلاً للإنحات والتفتت لرأيناه متغير الصورة والشكل، وكيف لا يكون الحجر الأسود كذلك وقد أتى به جبريل عليه السلام ووضعه في محله المعلوم خليل الله إبراهيم عليه أفضل الصلاة والتسليم، وقبله الأنبياء عليهم الصلاة والسلام والأولياء الكرام، والصالحون العظام، كما قبله ملايين الملايين من البشر، ولمسوه ومسحوه بأيديهم، من العهد الإبراهيمي إلى عهدنا هذا، ويكون كذلك إلى قيام الساعة. فالحمد لله رب العالمين الذي من علينا بالإيمان والعلم والتوفيق.

الرد على من يقول بأن الحجر الأسود من النيازك

لم نسمع مطلقاً أن أحداً في العصور الغابرة والأزمان السابقة قال إن الحجر الأسود من النيازك أي يشبه الصواعق أو النجوم المتبلورة الساقطة من السماء، وإنما سمعنا في عصرنا هذا من يتوهم ذلك ويذهب هذا المذهب، ومنهم أستاذنا الكبير الفاضل الأستاذ يوسف أحمد مفتش الآثار العربية سابقاً بمصر ومحيي الخط الكوفي هناك في عصرنا الحاضر، فإنه يقول في كتابه «المحمل والحج» بصحيفة ١٠٣ ما نصه:

« ولا ندري إن كان الحجر الأسود وصل إلى العرب من طريق النيازك أي : ما يرى في السماء كنجوم متساقطة كما في المنجد ، أو من طريق آخر » . اهـ .

ويقول أيضاً في صحيفة ١٠٤ ما خلاصته :

« إن إبراهيم عليه الصلاة والسلام وضع الحجر الأسود إما أن يكون تذكاراً لصدعه بأمر ربه ببناء البيت المعظم ، وإما أن يكون للعهد الذي أخذه على نفسه وولده بجعل هذا البيت مثابة للناس ، وإما أن يكون قد أقامه حجة عليه وعلى ولده بأن هذا البيت قد انتقل من ملكيتهم إلى الله تعالى ، وجعل لونه أسود لسهولة تعيينه وتحديد مكانه » . انتهى كلامه .

هكذا يقول الأستاذ يوسف أحمد رحمه الله تعالى عن الحجر الأسود وقوله غير صحيح كما سنبين ذلك ، والمذكور نعرفه حق المعرفة وأنه من خيار الناس وأفاضلهم ولا يتهم بزيغ أو فساد رأي ، ولا يقدح في حقه إذا أخطأ في هذه المسألة فإنه لم يطلع على ما ورد من الأحاديث في حق الحجر الأسود ، كما أنه لم يطلع على ما رواه المؤرخون عن بناء إبراهيم الخليل الكعبة ووضع الحجر الأسود فيه أو اطلع و لم يقتنع بقولهم ، فلو اطلع على كل ذلك لما قال عنه ما قال ، فالأستاذ يوسف رحمه الله تعالى نظر إلى الحجر الأسود كما ينظر إلى بعض الآثار القديمة ، فكتب عنه ما بدا له عن طريق الاستنتاج ، فنفسه متشبعة بالأبحاث الأثرية ، فكم تقلبت بين يديه مئات الأحجار القديمة عندما كان مفتشاً للآثار بمصر ليبدي رأيه فيها ويقيد ملاحظاته عليها .

لكن لما كان الحجر الأسود المبارك الميمون غير تلك الأحجار العادية ، وجب علينا أن نبين الحقيقة حتى لا يبقى أدنى شبه لدى أحد من الناس ، وليرتفع عمن توهم ذلك الشك والالتباس فنقول وبالله التوفيق :

إننا نرد قول الأستاذ الذي جاء بصحيفة ١٠٤ من كتابه المذكور « من أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام لم يضع الحجر الأسود في البيت إما تذكاراً لقيامه ببنائه ، وإما للعهد الذي أخذه على نفسه وولده بجعل هذا البيت مثابة للناس ، وإما لإقامة الحجة عليهم بأن هذا البيت قد انتقل من ملكهم إلى الله تعالى » .

فنقول : إن كل ذلك ليس بصحيح وغير معقول ولا يليق أن يصدر منه كأستاذ كبير ، فما معنى أن يضع الحجر الأسود في البيت كتذكار لبنائه ، أو جعله فيه ليكون مثابة للناس ، فهل إذا لم يضعه لا يكون مثابة لهم ، مع أن الله سبحانه

وتعالى هو الذي جعله كذلك كما في الآية الكريمة : ﴿وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا﴾ فكيف غابت عنه هذه الآية الصريحة ، وأما قوله جعله لانتقال البيت من ملكهم إلى ملك الله تعالى فهذه أسمج مما تقدم ، ألم يقرأ قوله تعالى : ﴿وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت أن لا تشرك بي شيئا وطهر بيتي للطائفين والقائمين والركع السجود﴾ فبيت الله يبنيه خليل الله بأمر الله ، كيف يعقل أن يدعي ملكيته ، ثم يقول : « وقد جعل إبراهيم لون الحجر أسود لسهولة تعيينه وتحديد مكانه » هذا القول لا أصل له مطلقاً ، فالحجر الأسود كان أشد بياضاً من الثلج حينما وضعه إبراهيم عليه الصلاة والسلام في البيت وأنه كان يتلألأ نوراً حتى أضاء مسافات الحرم البعيدة من كل الجهات كما هو مذكور في الأحاديث المتقدمة ، وأنه لم يسود إلا من حريق البيت الذي وقع في الجاهلية والإسلام .

ولا يخفى أن خليل الله إبراهيم ما بنى البيت الحرام إلا بأمر الله وما وضع الحجر الأسود إلا بأمره تعالى أيضاً ومن هنا جاء الأمر بتقبيل الحجر الأسود واستلامه ، و لم يطلب منا استلام حجارة الكعبة المشرفة ، ثم إن حجارتها قد تتغير وتتبدل كلما هدمت وبنيت ولكن الحجر الأسود لم يتبدل ولن يتبدل إلى يوم القيامة ، فتأمل فمسألة دينية كهذه أما كان الأجدر بالأستاذ المذكور أن يرجع إلى الكتاب والسنة بدل أن يسترسل في وهمه وتخيلاته ؟

وأما ما جاء بصحيفة ١٠٣ من كتابه المذكور من قوله : « ولا ندري إن كان الحجر الأسود وصل إلى العرب من طريق النيازك أو من طريق آخر » فقوله هذا خلط وخطأ محض ، فالحجر الأسود جاء به جبريل لإبراهيم عليهما الصلاة والسلام حين بناء البيت وأنه نزل من الجنة كما هو مذكور في الأحاديث المتقدمة ، فأين حرمة حجر جاء به جبريل أمين الوحي من حجر يؤخذ من الأرض ؟

ومن قال أن الحجر الأسود من النيازك فقوله مردود بالأدلة التالية :

١- ما ورد فيه من الأحاديث بأنه من الجنة ، وقد تقدم ذكرها .
٢- أنه لم يسمع قط من يقول بذلك لا في الجاهلية ولا في الإسلام .
٣- لو لم تكن ميزة خاصة للحجر الأسود لما وضعه إبراهيم عليه السلام في بيت الله الحرام ، وتلك الميزة هي كونه من الجنة أتى به جبريل الأمين ووضعه في بيت الله بأمر الله .

٤- لو كان الحجر الأسود من النيازك كالصواعق الحديدية لذاب وفني من كثرة لمس الناس له هذه الآلاف السنين، كما هو الشأن في المواد الحديدية كما روى الأزرقي عن مجاهد أنه قال: « الركن من الجنة ولو لم يكن من الجنة لفني ».

بهذه الأدلة القوية يبطل قول القائل أن الحجر الأسود أصله من النيازك.

ثم من أين لإبراهيم عليه الصلاة والسلام أن يفتش في وقت البناء في البراري والقفار والسهول والصخار على حجر نزل من النيازك كالصاعقة ليضعه في « بيت الله الحرام المعظم » وليس بمكة كلها في أيامه غير نفر من قبيلة جرهم، ثم لماذا يضع في الكعبة المشرفة حجر أصله من الصواعق وهل له حرمة تبرر أن يستلمها الأنبياء وجميع الناس هذه الآلاف السنين؟ كلا ثم كلا.

وإنما المعقول أن يكون للحجر الأسود ميزة خاصة بأن يكون نزل من الجنة حتى يستحق أن يوضع في بيت الله الحرام المطهر، وليكون بمثابة يمين الله في الأرض يقبله المؤمنون إخلاصاً وطاعة وإيماناً برب العالمين.

ولئن افتخر الغربيون بما لديهم من الآثار القديمة، فإنه يحق للعرب بل للمسلمين قاطبة أن يفتخروا بهذا الحجر الأسود المبارك الذي مرت عليه آلاف السنين وقبله واستلمه الأنبياء والمرسلين، وعموم المسلمين وعامة الناس من كافة الطبقات والأمم.

وفيما تقدم كفاية للمنصف العادل والمؤمن الصادق والله الهادي إلى سواء الطريق.

وإننا نكرر القول بأن الأستاذ يوسف أحمد الذي يقول في كتابه المتقدم أن الحجر الأسود ربما كان من النيازك الساقطة من السماء رجل صاحب دين واستقامة وفضل وكرم لا يتهم بالزيغ والإلحاد، فإني أعرفه حق المعرفة واجتمعت به كثيراً بمصر وأعرف ابنه المحترم أيضاً، ولكنه قال ذلك عن حسن قصد ونية حسنة فقد غلبت عليه في هذه المسألة مهنة الاشتغال بالآثار القديمة ففاته أن يتحقق منها من الوجهة العلمية والدينية، وقد قيل في المثل: « لكل جواد كبوة ولكل عالم هفوة » فرحمه الله رحمة واسعة وأسكنه فردوس جناته وغفر لنا وله وألحقنا به على حسن الخاتمة وصالح الأعمال إنه بعباده لطيف خبير.

وبمناسبة ذكر النيازك الساقطة من السماء، نذكر الحكاية التي أوردها ابن بطوطة في رحلته وهذا نصها : وسألني السلطان « أي سلطان بركي » في هذا المجلس فقال لي : هل رأيت قط حجراً نزل من السماء؟ فقلت : ما رأيت ذلك ولا سمعت به ، فقال لي : إنه قد نزل بخارج بلدنا هذا حجر من السماء ثم دعا رجالاً وأمرهم أن يأتوا بالحجر فأتوا بحجر أسود أصم شديد الصلابة له بريق قدرت أن زنته تبلغ قنطارا ، وأمر السلطان بإحضار القطاعين فحضر أربعة منهم ، فأمرهم أن يضربوه ، فضربوا عليه ضربة رجل واحد أربع مرات بمطارق الحديد فلم يؤثروا فيه شيئاً من أمره ، ثم أمر برد الحجر إلى حيث كان . انتهى من ابن بطوطة .

ومثل هذا ما جاء في الجزء الثاني من تاريخ الخميس : أنه في سنة اثنتين وثلاثين وأربعمائة وقع ببلاد خوزستان قطعة حديد من الهواء وزنها مائة وخمسون طناً فكان لها دوي عظيم أسقط منها الحوامل ، فأخذها السلطان وأراد أن يعمل منها سيفاً فكانت الآلات لا تعمل فيها وكل آلة ضربوها بها تكسرت . انتهى من الكتاب المذكور .

الزحام على تقبيل الحجر الأسود

يسن تقبيل الحجر الأسود اقتداء برسول الله ﷺ لكن بشرط أن لا يؤذي المستلم غيره فإن حصل ذلك حرم تقبيله لحدوث الضرر له أو لغيره ، وعندئذ يكفي أن يشير إلى الحجر الأسود بيده ويقبل يده .

جاء في تاريخ الأزرقي أن رسول الله ﷺ قال لعمر بن الخطاب : « يا عمر إنك رجل قوي وإنك تؤذي الضعيف فإذا رأيت خلوة فاستلمه وإلا فكبر وامض » . وجاء فيه أيضاً عن هشام بن عروة أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يستلم إذا وجد فجوة فإذا اشتد الزحام كبر كلما حاذاه . وجاء فيه أيضاً عن عطاء أنه سمع ابن عباس يقول : إذا وجدت على الركن زحاماً فلا تؤذ ولا تؤذى . وجاء فيه أيضاً : كان طاووس قل ما استلم الركنين إذا رأى عليهما زحاماً . قال ابن عباس : لا تؤذ مسلماً ولا يؤذيك إن رأيت منه خلوة فقبله أو استلمه وإلا فامض .

وأما ما يكون من الحجاج في موسم الحج من ازدحامهم الشديد على تقبيل الحجر الأسود ، وأنهم لا يبالون بحصول الأذى لهم أو لغيرهم ، فإنا نرى لهم نوع عذر في ذلك فإنهم قد أتوا من بلاد بعيدة يقصدون هذا البيت المقدس أفلا يحق لهم أن يقبلوا الحجر الأسود ولو مرة واحدة لكل فرد منهم حتى تلمس شفتاه موضع شفتي رسول الله ﷺ ، وحتى لا تبقى حسرة في قلب من رجع إلى بلده و لم يستلم الحجر الأسود المبارك و لم يعرف شكله .

والذي نذهب إليه والله تعالى أعلم أنه بدأ التزاحم على الركن منذ ظهور الإسلام من عهد رسول الله ﷺ لما ورد في تقبيله من الأحاديث ، وقد أفرد الإمام الأزرقي رحمه الله تعالى في تاريخه فصلاً لذلك فقال : (الزحام على استلام الركن الأسود والركن اليماني) فجاء فيه عن ابن عمر عن النبي ﷺ أنه كان لا يدع الركن الأسود والركن اليماني أن يستلمهما في كل طواف أتى عليهما قال : وكان لا يستلم الآخرين . اهـ .

نقول والله تعالى أعلم : إن عدم استلام الركنين الآخرين « العراقي والشامي » كان لعدم وجودهما في بناء قريش الكعبة فإنها بنت جدارها المقابل لحجر إسماعيل مدوراً ليس فيه الركنان المذكوران كما كان ذلك في عهد إبراهيم عليه الصلاة والسلام أيضاً ، فلما بنى ابن الزبير رضي الله عنهما الكعبة جعل لهذا الجدار ركنين « العراقي والشامي » فصار للكعبة أربعة أركان فلما بناها الحجاج جعلها كذلك .

وجاء فيه أيضاً : أن ابن عمر رضي الله عنهما كان لا يدع الركنين « أي الركن الأسود والركن اليماني » في كل طواف طاف بهما حتى يستلمهما ، لقد زاحم على الركن مرة في شدة الزحام حتى رعف فخرج فغسل عنه ثم رجع فعاد يزاحم فلم يصل إليه حتى رعف الثانية فخرج فغسل عنه ، ثم رجع فما تركه حتى استلمه .

وجاء فيه أيضاً : عن سالم بن عبدالله يقول : إن عبدالله بن عمر كان لا يترك استلام الركنين في زحام ولا غيره حتى رأيته زاحمنا عنه يوم النحر وأصابه دم فقال : قد أخطأنا هذه المرة ، وجاء فيه أيضاً : عن طلحة بن يحيى قال : سألت القاسم بن محمد عن استلام الركن فقال : استلمه وزاحم عليه يا ابن أخي فقد رأيت ابن عمر يزاحم عليه حتى يدمى ، وجاء فيه أيضاً : عن هشام بن عروة عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال لعبدالرحمن ابن عوف : كيف صنعت يا أبا محمد في

استلام الحجر ، وكان قد استأذنه في العمرة فقال : كلا قد فعلت استلمت وتركت ، فقال النبي ﷺ: أصبت . انتهى كل ذلك من الأزرقي .

فعليه نرجو الله سبحانه وتعالى العفو والغفران في ازدحام الحجاج وغيرهم على تقبيل الحجر الأسود خصوصاً وأنهم يرضون بطيب خاطر بحصول الأذى لهم في سبيل ذلك ، وأنهم يعدون أنفسهم سعداء إذا فازوا بتقبيله وهو كذلك إن شاء الله ، ففضل الله عظيم ورحمته واسعة .

(تنبيه) إن ما عمله عبدالله بن عمر رضي الله عنهما من محافظته على استلام الركنين في كل طوفة طاف بهما وأنه لا يتركهما حتى في شدة الزحام ، هذه خصوصية له لا يطلب من أحد أن يزاحم على الركنين اقتداء به ، فهو رضي الله عنه من أجلاء الصحابة له اجتهاده وعمله فإنه كان شديد المحافظة على كل ما سمعه من رسول الله ﷺ وتتبع أفعاله . فقد جاء في زاد المسلم فيما اتفق عليه البخاري ومسلم عند حديث « نعم الرجل عبدالله لو كان يصلي من الليل » أن الزبير بن بكار قال : كان ابن عمر يحفظ ما سمع من رسول الله ﷺ ويسأل من حضر إذا غاب عن قوله وفعله وكان يتتبع آثاره في كل مسجد صلى فيه ، وكان يعترض براحلته في طريق رأى رسول الله ﷺ عرض ناقته فيه وكان لا يترك الحج ، وكان إذا وقف بعرفة يقف في الموقف الذي وقف فيه رسول الله ﷺ . وفي الزهد للبيهقي بسند صحيح عن عمر ابن محمد بن يزيد بن عبدالله بن عمر سمعت أبي يقول : ما ذكر ابن عمر رسول الله ﷺ إلا بكى ولا مر على ربعهم إلا غمض عينيه . انتهى من زاد مسلم من الجزء الرابع . فرجل هذا حاله يجب أن نعتبر بحاله رضي الله عنه وعن جميع الصحابة .

الترغيب في استلام الركنين

يستحب أن يستقبل الإنسان الحجر الأسود بوجهه فيستلمه بيمينه أولاً أي يمسحه بها ثم يقبله قبلة خفيفة من غير صوت ويسجد عليه بوضع الجبهة ، فإن عجز عن التقبيل لزحمة أو غيرها اقتصر على استلامه بيده اليمنى أي يمسحه بيده ثم يقبلها ، فإن عجز عن الاستلام أشار بيده أو أشار بما فيها من نحو خشبة أو عصا ثم يقبل ما أشار به من يده أو غيره .

جاء في تاريخ الأزرقي عن ابن جريج أنه قال : وأخبرت أن النبي ﷺ كان إذا طاف على راحلته يستلم الركن بمحجنه ثم يقبل طرف المحجن ، والمحجن العصا المنعطفة الرأس ، هذا بالنسبة للحجر الأسود .

وفي الأزرقي أيضاً عن عباد بن جعفر قال : رأيت ابن عباس رضي الله عنهما جاء يوم التروية وعليه حلة مرجلاً رأسه فقبل الركن الأسود وسجد عليه ، ثم قبله وسجد عليه ثلاثاً . اهـ .

ذكر الغازي في تاريخه عند الكلام على بناء السلطان مراد أنه في يوم الاثنين غرة رجب الحرام سنة (١٠٤٠) وضعوا الحجر الذي بطرفه محل استلام الطائفين من الركن اليماني وكان طرف الحجر الذي تحته انكسر من أعلاه فوضع في محل ذلك من الرصاص المذاب ما يساوي به مع باقي الأحجار سمتاً وكان تمام وضع الحجر وتسويته عند العصر من اليوم المذكور وجاء الفاتح بقليل من الصندل المذاب وضمخ به محل الاستلام وما يقاربه. انتهى من الغازي .

أما إلصاق قطع الركن اليماني وتسميرها الذي ذكره ابن جبير في رحلته ، فقد كان في عهد الفاطميين في سنة (٥٥٩) تسع وخمسين وخمسمائة عندما تضعضع الركن ، كما جاء ذلك في تاريخ مكة للسباعي بصحيفة ١٤٧ .

وجاء فيه أيضاً بصحيفة ١٥١ نقلاً عن الدحلان في وقائع سنة (٥٩٢) اثنتين وتسعين وخمسمائة أن ريحاً سوداء عظيمة عصفت بمكة عند خروج الحجاج منها وكان فيها رمل أحمر أصاب الناس وسقطت أحجار من ركن الكعبة اليماني ، وينقل أبو شامة في ذيل الروضتين أن الذي سقط من الركن قطعة واحدة ، وأن الكعبة تحركت مراراً وأن ذلك لم يعهد من قبل . انتهى منه .

وجاء في شفاء الغرام للفاسي : قال ابن الأثير في أخبار سنة (٥١٥) خمس عشرة وخمسمائة ، فيها تضعضع الركن اليماني من البيت الحرام ، زاده الله شرفاً وانهدم بعضه ، وذكر مثل ذلك المؤيد صاحب حماه في أخبار سنة خمس عشرة وخمسمائة .

وقال أبو عبيد البكري في كتابه المسالك والممالك : وحدث جماعة أن في سنة (٤٣٣) ثلاث وثلاثين وأربعمائة انكسرت من الركن اليماني فلقة قدر إصبع وغفل الناس عن سدها فصارت عند قوم من أهل مكة من الحسنيين فوقع وباء

عظيم بمكة عام وموت وكان لا يلبث المريض فوق ثلاثة أيام ، وهلك في أهل الدار الذي اتهم أن الفلقة فيها ثمانية عشر إنساناً ، فرأى بعض الصالحين المجاورين من أهل خراسان في نومه أن يتفقد ما ذهب من الكعبة ويرد فيرفع الله عنهم الوباء فردت إلى موضعها فارتفع الوباء . انتهى من شفاء الغرام .

نقول : الظاهر مما تقدم أن حجر الركن اليماني الذي يقع فيه الاستلام قديم يرجع عهده إلى بناء عبدالله بن الزبير رضي الله تعالى عنهما ، فهو الذي نقض البيت كله ثم بناه بناءً جديداً ، أما الحجاج الثقفي فإنه هدم من جداره الذي في حجر إسماعيل ستة أذرع وشبراً ثم بناه وترك سائر جدرانه ، فبقي الركن اليماني كما هو لم يحصل فيه شيء .

وقد بقيت هذه البناية على ما هي عليه إلى زمن السلطان مراد الرابع الذي بنى الكعبة من جديد سنة (١٠٤٠) أربعين وألف من الهجرة واضطروا إلى نقل حجر الركن اليماني من موضعه للإصلاح والبناء .

فعلى ما تقدم يكون حجر الركن اليماني يقع فيه الاستلام يرجع عهده إلى بناء ابن الزبير فلذلك ولحرمة نفس الركن إذا وقعت منه قطعة أرجعوها إلى محلها وأحكموا إصلاحها بالمسامير والرصاص زيادة في التحفظ . والله تعالى أعلم .

ما يقال عند استلام الحجر الأسود

قال العلامة محب الدين الطبري في كتابه « القرى لقاصد أم القرى » فيما يقال عند استلام الركن الأسود ما نصه :

عن ابن جريج قال : أخبرت أن بعض أصحاب النبي ﷺ قال : يا رسول الله كيف نقول إذا استلمنا ؟ قال : قولوا : باسم الله والله أكبر إيماناً بالله وتصديقاً لإجابة محمد ﷺ . أخرجه الشافعي .

وعن ابن عمر رضي الله عنهما أنه كان إذا استلم الركن قال : بسم الله والله أكبر ، أخرجه أبو ذر والأزرقي . وعنه أنه كان إذا استلم الحجر قال : اللهم إيماناً بك ، ووفاء بعهدك وتصديقاً بكتابك وسنة نبيك ، ويصلي على النبي ﷺ ويستلمه . وعن علي عليه السلام أنه كان إذا استلم الحجر قال : الله أكبر اللهم إيماناً بك وتصديقاً بكتابك واتباعاً لسنتك وسنة نبيك . أخرجهما أبو ذر .

وعن عبد الكريم بن أبي أمية قال : يقال عند استلام الركن اليماني : اللهم إجابة دعوة نبيك واتباع رضوانك وعلى سنة نبيك ﷺ .

وعن سعيد بن المسيب أن عمر بن الخطاب كان يقول إذا كبر لاستلام الحجر : باسم الله والله أكبر على ما هدانا الله لا إله إلا الله وحده لا شريك له آمنت بالله وكفرت بالطاغوت واللات والعزى ، وما يدعى من دون الله ، إن وليي الله الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين . أخرجهما الأزرقي . انتهى من كتاب الطبري المذكور .

قال العلامة الشيخ ابن علان في يومياته المذكورة في الجزء الأول من تاريخ الغازي وفي آخر الجزء الأول من تاريخ الأزرقي ما نصه :

وفي يوم الأحد ٢٩ جمادى الثانية سنة (١٠٤٠) ألف وأربعين هجرية شرعوا في وضع المدماك الثاني وسمكه ٢٢ قيراطاً ثم صبوا الرصاص على وجه أسفل الجدار اليماني ليساوي المتآكل منه باقي الجدار في سمته.

وفي يوم الاثنين غرة رجب من السنة المذكورة وضعوا الحجر الذي بطرفه محل استلام الطائف من الركن اليماني ، وكان طرف الحجر الذي تحته انكسر من أعلاه فوضع في محل ذلك من الرصاص المذاب ما يساوي به باقي الأحجار سمتاً ، ووضعوا حجر الركن الغربي الشامي ونصبوا أحجار الجدار الشامي . انتهى المراد منه .

أما الركن اليماني فيستحب أن يستلمه بيده ثم يقبل يده ، ولا يستحب تقبيل الركن المذكور ، ولا يخفى أنه فرق بين الركنين ، ففضل الركن الأسود أعظم من الركن اليماني ، لأن الركن اليماني ليس في مزية سوى أنه ركن البيت الثاني من عهد إبراهيم ، عليه الصلاة والسلام ، وأما الركن الأسود فهو الركن الأول من ذلك العهد أيضاً ، وفيه مزية أخرى وهي وجود الحجر الأسود فيه ، يقول ابن جبير في رحلته التي كانت سنة (٥٧٨) من الهجرة أنه انصدعت قطعة من الركن اليماني فسمرت بمسامير فضة وأعيدت كأحسن ما كانت عليه والمسامير فيها ظاهرة . اهـ .

نقول : إن مسامير الفضة لا زالت إلى عصرنا هذا موجودة ، فإننا ذهبنا إلى الكعبة المشرفة لرؤية مسامير الركن اليماني ، صباح يوم الأربعاء التاسع عشر من ربيع الأول عام ستة وسبعين وثلاثمائة وألف فوجدنا فيه أكثر من ثلاثين مسماراً

من الفضة رأس أكبرها كحدقة عين الإنسان وأصغرها كحبة العلس ، وفي الركن اليماني عدة قطع انكسرت من حجارته الأصلية القديمة فأعيدت إلى محلاتها وألصقت فيها إلصاقاً محكماً بالمسامير الفضة والرصاص .

روى الأزرقي عن سالم بن عبدا لله عن أبيه قال : على الركن اليماني ملكان موكلان يؤمنان على دعاء من يمر بهما وأن على الأسود ما لا يحصى . أخرج الحاكم أنه ﷺ قال : ما انتهيت إلى الركن اليماني قط إلا وجدت جبريل عليه السلام ، عنده فقال : قل يا محمد قلت : وما أقول ؟ قال : قل : اللهم إني أعوذ بك من الكفر والفاقة ومواقف الخزي في الدنيا والآخرة ، ثم قال جبريل عليه السلام : إن بينهما سبعين ألف ملك فإذا قال العبد هذا قالوا آمين . وأخرج أبو داود : ما مررت بالركن اليماني إلا وعنده ملك ينادي يقول : آمين آمين ، فإذا مررتم به فقولوا : اللهم آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار . وجاء في تاريخ الأزرقي عن عائشة رضي ا لله عنها قالت : قال رسول ا لله ﷺ : ما مررت بالركن اليماني إلا وجدت جبريل عليه قائماً . وجاء في أيضاً عن عثمان « ابن ساج » قال: وبلغني عن عطاء قال: قيل يا رسول ا لله رأيناك تكثر استلام الركن اليماني ، قال: فقال إن كان قاله ما أتيت عليه قط إلا وجبريل قائم عنده يستغفر لمن استلمه . وجاء فيه أيضاً عن مجاهد أنه قال: من وضع يده على الركن اليماني ثم دعا استجيب له قال: قلت له: قم بنا يا أبا الحجاج فلنفعل ذلك ففعلنا ذلك .

وفي تاريخ الأزرقي أن عبيد بن عمير قال لابن عمر رضي ا لله عنهما : إني أراك تزاحم على هذين الركنين ، فقال : إني سمعت رسول ا لله ﷺ يقول: إن استلامهما يحط الخطايا حطا . وأخرج الترمذي حديثاً عن عبدا لله بن عمر بهذا المعنى أيضاً . وأخرج الإمام أحمد وابن حبان في صحيحه عن ابن عمر أيضاً عن النبي ، ﷺ قال : مسح الحجر الأسود والركن اليماني يحط الخطايا حطا . وأخرج القاضي عياض في الشفاء أن النبي ﷺ أنه قال : ما من أحد يدعو عند هذا الركن الأسود إلا استجاب ا لله له . وروى ابن ماجة والحاكم عن ابن عمر رضي ا لله عنهما أنه قال : استقبل النبي ﷺ الحجر ثم وضع شفتيه عليه يبكي طويلاً ثم التفت فإذا هو بعمر بن الخطاب يبكي فقال : يا عمر ههنا تسكب العبرات . وروى الأزرقي عن ابن عباس رضي ا لله عنهما عن النبي ﷺ قال : إن ا لله عز

وجل يبعث الركن الأسود له عينان يبصر بهما ولسان ينطق به يشهد لمن استلمه بحق .

فضل الملتزم والدعاء فيه

الملتزم : هو ما بين الحجر الأسود وباب الكعبة ، قال ابن عباس : الملتزم والمدعى والمتعوذ ما بين الحجر والباب ، قال الأزرقي : ذرع الملتزم وهو ما بين باب الكعبة وحد الركن الأسود أربعة أذرع .

والمستجاب : هو ما بين الركن اليماني والباب المسدود الذي في ظهر الكعبة . قال مجاهد : قال معاوية بن أبي سفيان : من قام عند ظهر البيت فدعا استجيب له وخرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه .

روى القاضي عياض في الشفاء عن ابن عباس ، رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ما دعا أحد بشيء في هذا الملتزم إلا استجيب له » . قال مجاهد : رأيت ابن عباس وهو يستعيذ ما بين الركن والباب ، وقال أيضاً : ما بين الركن والباب يدعى الملتزم ولا يقوم عبد ثم فيدعو الله عز وجل بشيء إلا استجاب له ، وعن عطاء عن ابن عباس قال : من التزم الكعبة ثم دعا استجيب له ، فقيل له : وإن كانت استلامة واحدة ؟ قال : وإن كانت أوشك من برق الخلب . ومعنى الخلب بضم الخاء وفتح اللام المشددة الذي لا مطر فيه . وعن مجاهد ألصق خديك بالكعبة ولا تضع جبهتك ، وعن عمرو بن شعيب عن أبيه قال : طفت مع عبدالله بن عمرو فلما جئنا دبر الكعبة قلت : ألا تتعوذ ؟ قال : أعوذ بالله من النار ثم مضى حتى استلم الحجر فقام بين الركن والباب ثم وضع صدره ووجهه وذراعيه وكفيه بسطاً وقال: هكذا رأيت رسول الله ﷺ يفعل .

انظر: صورة رقم ٨٦ ، ويشير السهم إلى الملتزم وهو حائط الكعبة

نقول : مما لا شك فيه أن الله تعالى يستجيب دعاء المضطر أينما كان ولو في رؤوس الجبال أو في وسط البحار ، فإنه تعالى أمر بالدعاء بصريح آية : ﴿وقال ربكم ادعوني أستجب لكم﴾ وآية : ﴿ادعوا ربكم تضرعاً وخفية﴾ فإن الدعاء هو عين العبادة ، فإذا دعا العبد ربه في أي موضع كان بذلة وانكسار ، فقد أقر بوحدانيته وقدرته وفضله وإحسانه ، وكرمه وحلمه وعفوه وغفرانه ، ومن أقر

بكل ذلك لربه كان إليه أقرب وبنيل مطالبه وزوال بلائه حقيق وأجدر ، فإنه تعالى وحده هو للمرتجى والملتجا ، وأنه كاشف الهم والكرب ، وأنه أرحم الراحمين .

فمن التجأ إلى الله الكبير المتعال بقلب خالص وعزم صادق ، في أي مكان كان ، صار جديراً باستجابة دعائه وقبول تضرعه وكشف غمته ، فكيف بالإنسان إذا دعا ربه وهو عند بيته الحرام ، وبين الركن والمقام والمشاعر العظام ، أنه أولى باستجابة دعوته والفوز بعفوه ورحمته . اللهم مغفرتك أوسع من ذنوبنا ورحمتك أرجى من أعمالنا . ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار .

الحوادث التي مرت على الحجر الأسود

لا نريد أن نأتي هنا عن أصل الحجر الأسود ولا عن وضعه في البيت الحرام ولا عن تقبيله واستلامه وفضله واحترامه لأن كل ذلك تقدم بيانه ، وإنما نحب أن نذكر هنا باختصار ما مر عليه من الحوادث من حريقه وقلعه والتعدي عليه بكسر جزء منه للاحتفاظ به للتبرك أو للتذكار .

ولنبدأ من صدر الإسلام ، أما ما كان قبله من أن جرهماً أو بني إياد بن نزار حين أخرجوا من مكة أخذوا الحجر الأسود فدفنوه في بئر زمزم أو غيره فدلتهم على موضع دفنه جدة امرأة قصي بن كلاب ، فإنا لم نطمئن إلى هذا الخبر الذي رواه بعضهم ، ولئن كان هذا الخبر صحيحاً فتكون هذه الواقعة هي الأولى والأخيرة للحجر الأسود ، قبل الإسلام والله تعالى أعلم فنقول وبالله تعالى التوفيق وهو حسبي ونعم الوكيل ولا حول ولا قوة إلا بالله :

١- أن الحجر الأسود حدث فيه تصدع بسبب حريق الكعبة الذي وقع في عهد ابن الزبير رضي الله تعالى عنهما سنة أربع وستين من الهجرة ، لأن الحجر احترق معها حتى تشظب ثلاث فرق ، ولذلك ربطه وشده ابن الزبير بالفضة فيكون هو أول من ربطه بها ، وهذه أول حادثة وقعت للحجر الأسود .

أما حريق الكعبة في زمن قريش فلم يكن الحريق قوياً شديداً كما وقع في عهد ابن الزبير ، بسبب أن الكعبة قبل بناء قريش كانت مبنية بالرضم فقط ، فكانت الثياب التي هي بمثابة الكسوة توضع عليها تسدل سدلاً على جدارها ولم يكن لها سقف حتى يكون فيها أخشاب تزيد النار التهاباً .

لذلك لم يحدث على الحجر الأسود في هذا الحريق شيء مطلقاً ولو حدث فيه شيء لجاء ذكره فقد كان الحجر الكريم في بناء قريش ظاهراً لجميع الناس ، وذلك لما بنت قريش الكعبة واختلفوا فيمن يضع الحجر الأسود في محله ، جاء رسول الله ﷺ و لم يبعث بعد فبسط رداء ثم وضع الركن بيده فوقه وقال لهم : «لتأخذ كل قبيلة بناحية الثوب ، ثم قال : ارفعوه جميعاً» ثم ارتقى النبي ﷺ على جدار الكعبة ورفع القوم إليه الركن فوضعه ﷺ بيده الشريفة في موضعه .

فمن هنا نستنتج أنه لو كان في الحجر شيء لكان ظاهراً لجميع الناس ولبادروا بإصلاحه ولذكر ذلك في التاريخ .

٢- ثم في زمن هارون الرشيد كانت الفضة التي ربط بها ابن الزبير الحجر الأسود قد تزلزلت وتخلخلت ، فأمر هارون الرشيد رحمه الله تعالى سنة (١٨٩) تسع وثمانين ومائة بالحجارة التي بينها الحجر الأسود أن تثقب بالماس فثقبت من فوقها ومن تحتها ثم أفرغ فيها الفضة .

٣- ثم لما جاء أبو طاهر القرمطي مكة وعمل فيها هو وأصحابه أموراً منكرة ضرب بعضهم الحجر الأسود بدبوس فكسره ثم قلعه وذهبوا به معهم إلى بلادهم هجر وهي قرية مشهورة من أعمال البحرين ، وذلك سنة (٣١٧) سبع عشرة وثلاثمائة من الهجرة فمكث عندهم حتى آخر سنة (٣٣٩) تسع وثلاثين وثلاثمائة فأتى به سنبر بن الحسن القرمطي إلى مكة فوضعه بيده في محله من الكعبة يوم النحر من السنة المذكورة قبل حضور الناس من منى للطواف والسعي ، وقال سنبر بعد رد الحجر الأسود : أخذناه بقدرة الله ورددناه بمشيئة الله ، ونظر الناس إلى الحجر فتبينوه وقبلوه واستلموه وحمدوا الله تعالى على ذلك ، وقد عمل القرامطة على الحجر ضبة من الفضة تضبط الشقوق التي حدثت عليه يوم قلعه ، فكانت مدة مكثه عند القرامطة بالأحساء اثنتين وعشرين سنة إلا أربعة أيام ، قال الفاسي : وقد بذل بحكم التركي مدبر الخلافة ببغداد للقرامطة على رد الحجر الأسود خمسين ألف دينار فأبوا وقالوا : أخذناه بأمر ولا نرده إلا بأمر ، وقيل : إن المطيع العباسي اشتراه بثلاثين ألف دينار من القرامطة ، وقال ابن فهد : إن أبا القاسم المسناني ذكر أن المقتدر العباسي اشتراه من أبي سعيد الجنابي بثلاثين ألف دينار ورد هذه الرواية ، هذا ما جاء في كتاب تاريخ الكعبة المعظمة .

ونحن نقول والله تعالى أعلم بالغيب : أن مسألة شراء الحجر الأسود بثلاثين ألف دينار أو أكثر أو أقل غير صحيح في رأينا ، والصحيح عندنا ما قاله القرامطة لبحكم التركي حينما بذل لهم خمسين ألف دينار «أخذناه بأمر ولا نرده إلا بأمر» والدليل على صحة رأينا : هو أن سنبراً بن الحسن القرمطي هو الذي أتى بالحجر الأسود إلى مكة ووضعه بيده في محله الأصلي من الكعبة بحضور أمير مكة يومئذ ، فلو أنه حصل شراء الحجر الأسود لدفعه القرامطة إلى من اشتراه ، وكان الذي اشتراه منهم هو الذي يأتي به إلى مكة ويضعه بنفسه في موضعه من الكعبة . هو رأينا والله تعالى أعلم بغيبه .

وسبب أخذ القرامطة الحجر الأسود ثم رده ثانياً إلى الكعبة : هو أنهم عزموا على تحويل الحج إلى بلادهم « هجر » وصرف الناس عن الكعبة إليهم لذلك حافظوا على الحجر الأسود لديهم وضببوه بالفضة ، فلما مكث عندهم اثنتين وعشرين سنة بدون فائدة ومات أبو طاهر القرمطي رئيس القرامطة ردوا الحجر الأسود إلى مكة ووضعوه في محله من الكعبة .

ولزيادة الإيضاح نذكر ما قاله البتنوني رحمه الله في كتابه «الرحلة الحجازية» عن القرامطة وأخذهم الحجر الأسود وهو : وفي أيام المقتدر العباسي ظهرت في العراق طائفة القرامطة وهم قوم ينسبون إلى موالاة محمد ابن الحنفية بن علي كرم الله وجهه ، ويكفرون من لم يكن على مذهبهم . وأول من ظهر منهم أبو طاهر القرمطي وقد بنى داراً في هَجَر «بفتحتين» وهي قرية مشهورة من أعمال البحرين ، سماها دار الهجرة ، وأراد أن ينقل الحج إليها ، لذلك كان يقصد الطرق الموصلة إلى مكة ويفتك بحجاج بيت الله الحرام ، فانقطع الحج في أيامه خشية منه ، وسار القرمطي إلى مكة في عسكر كثيف أيام الحج ودخل بخيله ورجله إلى الحرم ووضع السيف في الطائفين والعاكفين والركع السجود على بغتة منهم ، وقتل في مكة وشعابها نحو ثلاثين ألفاً واقتلع باب الكعبة وجرده مما كان عليه من صفائح الذهب وأخذ جميع ما في خزينة بيت الله الحرام من الجوهرات الثمينة ، واقتلع الحجر الأسود من مكانه وانصرف به إلى بلاده بعد أن هدم قبة زمزم ، وبقي مكان الحجر خالياً يتبرك الناس بمحله .

وبعد موت أبي طاهر رأى قومه أن من المستحيل تحويل الحج عن الكعبة إلى بلادهم ، فقام سنبر بن الحسن القرمطي بالحجر إلى مكة وكان يحيط به برواز من

الفضة يضبط بعض القطع التي تكسر منه حين قلعه فوضع في مكانه على الحالة التي تراه عليها الآن . انتهى من كتاب الرحلة الحجازية . فهذه نبذة وافية عن أخذ القرامطة الحجر الأسود المكرم .

فالحمد لله على هدايته لنا للإسلام والشكر له على جعله لنا من سكان بلده الأمين وبيته الحرام ، وصلى الله وسلم على رسوله النبي الأمي وعلى آله المطهرين الكرام وصحابته البررة الفخام .

٤- ثم إن حجبة البيت الشريف قلعوا الحجر الأسود منه الذي أتى به سنبر القرمطي ليجعلوا له طوقاً جديداً من الفضة ، فعملوا له ذلك وشدوه به شداً محكماً كما كان قديماً حينما عمله ابن الزبير ، رضي الله عنهما فكان فيه من الفضة ثلاثة آلاف وسبعة وتسعون درهماً ونصف درهم وذلك بعد إرجاع سنبر الحجر ببضعة أشهر ، أي في سنة (٣٤٠) أربعين وثلاثمائة .

٥- أخذ داود بن عيسى بن فليته أمير مكة طوق الحجر الأسود الذي كان به وذلك قبيل عزله سنة (٥٨٥) خمس وثمانين وخمسمائة .

٦- وفي سنة (٣٦٣) ثلاث وستين وثلاثمائة بينما الناس في وقت القيلولة وشدة الحر وما يطوف إلا رجل أو رجلان ، إذ جاء رجل عليه طمران مشتمل على رأسه فدنا من الركن الأسود وضربه بالمعول ضربة شديدة حتى خفته الخفتة التي فيه ثم رفع يده ثانياً يريد ضربه فابتدره رجل من أهل اليمن رآه وهو يطوف فطعنه طعنة عظيمة بالخنجر حتى أسقطه فأقبل الناس من نواحي المسجد فنظروه فإذا هو رجل رومي جاء من أرض الروم ، وقد جعل له مال عظيم على إخراج الركن وإحضاره معه ، ثم أخرجوه من المسجد الحرام وجمعوا حطباً كثيراً فأحرقوه بالنار . اهـ . ذكره ابن فهد القرشي في إتحاف الورى .

٧- وفي سنة (٤١٣) ثلاث عشرة وأربعمائة قام رجل فقصد الحجر الأسود فضربه ثلاث ضربات بدبوس وتبخش وجه الحجر من تلك الضربات وتساقطت منه شظايا مثل الأظفار وتشقق وخرج أسمر يضرب إلى صفرة محبباً مثل الخشخاش ، ثم جمع بنوا شيبة الفتات وعجنوه بالمسك والشمع وحشوا الشقوق وطلوها من ذلك . اهـ . ذكره الفاسي ، قال الشيخ باسلامة رحمه الله تعالى في كتابه « تاريخ الكعبة » : وذكر ابن الأثير هذه القصة في إخبار سنة (٤١٤) وساق القصة بتمامها وقال : كان هذا الرجل من ملاحدة المصريين الذين استغواهم

الحاكم العبيدي قال : وبعد أن ضرب الرجل الحجر الأسود بالدبوس قال : إلى متى يعبد هذا الحجر ولا محمد ولا علي يمنعني عما أفعله فإني أريد اليوم أن أهدم هذا البيت .

قال : وخافه الحاضرون وتراجعوا عنه وكاد أن يفلت ، وكان على باب المسجد عشرة من الفرسان على أن ينصروه ، فاحتسب رجل من أهل مكة وثار به فوجأه بخنجر واحتوشه الناس فقتله ثم تكاثروا عليه فقطعوه وأحرقوه بالنار وقتل جماعة ممن شاركوه وعاونوه وأحرقوا بالنار ، وكان الظاهر منهم عشرين رجلاً غير ما خفي منهم فثارت الفتنة فأطفأها أمير مكة يومئذ أبو الفتوح ، ثم إن بني شيبة جمعوا ما سقط من الحجر الأسود وعجنوه بالمسك واللك وحشوا الشقوق وطليت من ذلك . انتهى . واللك بضم اللام هو ما يسمى بمصر الشمع الأحمر وهو الشمع الذي يختم به على الظروف والطرود البريدية . ذكر البتنوني في كتابه « الرحلة الحجازية » عن هذه الحكاية أنها وقعت في سنة (٤١١) ثم قال : ويزعمون أن الحاكم بأمر الله الفاطمي هو الذي كان أرسل ذلك الرجل حتى إذا كسر الحجر الأسود أمكنه تحويل وجهة المسلمين عن الكعبة إلى مسجده بجوار باب الفتوح بالقاهرة. اهـ .

٨- وفي منائح الكرم : أنه في عشر التسعين وتسعمائة جاء رجل أعجمي بدبوس في يده فضرب الحجر الأسود ، وكان حاضراً الأمير ناصر جاوش فوجأ ذلك الأعجمي بالخنجر فقتله .

٩ - وفي تاريخ مكة للأستاذ السباعي بصحيفة ٣٤٣ عند الكلام على بناء السلطان مراد للكعبة سنة (١٠٤٠) أنه في أثناء عملهم فيما يحيط بالحجر الأسود انفلق الحجر إلى أربع شظايا فهالهم ذلك وأزعجهم فبادروا إلى جمع الشظايا بمركب عجنوه بالعنبر واللادن فتماسك إلى أمد غير طويل ثم تكك فعالجوه بمركب من قلفونية واسبيداج وسندروس ومسك فتماسك أمداً ثم عاد إلى التفكك فجيء بالمعلم محمود الدهان فاتخذ له مركباً خاصاً تماسكت به القطع تماسكاً تاماً .

١٠ - وفي آخر شهر محرم سنة (١٣٥١) إحدى وخمسين وثلاثمائة وألف من الهجرة في عصرنا الحاضر جاء رجل فارسي من بلاد الأفغان فاقتلع قطعة من الحجر الأسود وسرق قطعة من ستارة الكعبة وقطعة فضة من مدرج الكعبة الذي

هو بين بئر زمزم وباب بني شيبة ، فشعر به حرس المسجد الحرام فاعتقلوه ثم أعدم عقوبة له ، كما أعدم من تجرأ قبله على الحجر الأسود بقلع أو تكسير أو سرقة حيث أصبح حكم الإعدام على أمثال هؤلاء سنة متبعة .

ثم إنه في آخر ربيع الثاني حضر جلالة الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل سعود ملك المملكة العربية السعودية رحمه الله تعالى ، من الطائف إلى مكة لوضع تلك القطعة موضعها من الحجر الأسود فعمل الأخصائيون معجوناً لتثبيت تلك القطعة ثم أخذها جلالته ووضعها بيده في محلها . انتهى كل ذلك مختصراً من تاريخ الكعبة المعظمة .

فيعلم مما تقدم سبب ظهور القطع الصغيرة من الحجر الأسود الكريم ، والحمد لله بعد الحادث الأخير إلى عامنا هذا لم يقع عليه شيء ، وقد وضعت حكومتنا الموفقة على الحجر الأسود جندياً خاصاً لحراسته يقف بجواره فلا يفارقه ، كما وضعت أيضاً جندياً على مقام إبراهيم عليه السلام ، فكل جندي يقف على الحراسة ساعة واحدة أو ساعة ونصف ثم يأتي غيره فيقف هذه المدة ثم يأتي غيره وهكذا ليلاً ونهاراً .

الرد على من يقول أن القرامطة استبدلوا الحجر الأسود

من المعروف في التاريخ أن أبا طاهر القرمطي وافى مكة في سابع ذي الحجة سنة سبع عشرة وثلاثمائة ، وفعل فيها هو وقومه أموراً منكرة ، وأمر أبو طاهر جعفر بن أبي علاج البنّاء بقلع الحجر الأسود فقلعه لأربع عشرة خلت من ذي الحجة من السنة المذكورة ، وذهب به معه إلى بلاده هجر وبقي موضعه من الكعبة المعظمة خالياً يضع الناس فيه أيديهم للتبرك ثم إن سنبر بن الحسن القرمطي وافى مكة بالحجر الأسود سنة تسع وثلاثين وثلاثمائة فوضعه بيده في موضعه من الكعبة وقال : أخذناه بقدر الله ورددناه بمشيئة الله ، وذلك يوم النحر من السنة المذكورة الخ ...

فبعض المغفلين يظن أن القرامطة استبدلوا الحجر الأسود بحجر آخر حينما ردوه إلى الكعبة ، فهذا الظن في غير محله ، وهو مردود بأمرين تاريخي وديني ، فالأمر التاريخي: أن التقي الفاسي ذكر في شفاء الغرام بعد أن ساق قصة القرامطة ، ورد سنبر القرمطي الحجر الأسود ، ووضعه بيده في موضعه بالكعبة ما نصه :

«ونظر الناس إلى الحجر فتبينوه وقبلوه واستلموه وحمدوا الله تعالى، وكان رد الحجر الأسود في موضعه قبل حضور الناس لزيارة الكعبة يوم النحر، وكانت مدة كينونته عند القرمطي وأصحابه اثنتين وعشرين سنة إلا أربعة أيام، هذا معنى كلام المسبحي. اهـ».

فقوله: وَنظر الناس إلى الحجر فتبينوه وقبلوه الخ.. صريح في أن الناس لم يستلموه إلا بعد التحقق منه والتثبت من عدم تغييره وتبديله، ولا يخفى أن مدة إقامة الحجر الأسود عند القرامطة هي اثنتان وعشرون سنة، وهذه المدة لا تحتمل موت جميع أهل مكة الذين أخذ الحجر الأسود أمام أعينهم، ثم إن الحجر الأسود له مميزات خاصة ما كانت خافية على أهل ذلك العصر، وإن خفي علينا الآن بسبب الطوق الفضي العظيم المضروب عليه حتى إنه لا يظهر منه اليوم إلا بعض قطع صغار وهي ثمانية قطع.

جاء في كتاب الإشاعة لأشراط الساعة أن محمد بن نافع الخزاعي قال: تأملت الحجر وهو مقلوع فإذا السواد في رأسه فقط وسائره أبيض وطوله قدر عظم الذراع. اهـ. ورؤيته للحجر كانت حينما قلعه القرمطي، وانظر في صحيفة (١٢٦) كيف يصفه بعضهم أيضاً.

وأما الأمر الديني: فقد روى الأزرقي عن عائشة رضي الله عنها، أنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «أكثروا استلام هذا الحجر فإنكم توشكون أن تفقدوه بينما الناس يطوفون به ذات ليلة إذ أصبحوا وقد فقدوه إن الله عز وجل لا يترك شيئاً من الجنة في الأرض إلا أعاده فيها قبل يوم القيامة».

وروي أيضاً عن عثمان أنه قال: وحدثت عن مجاهد أنه قال: «كيف بكم إذا أسري بالقرآن ورفع من صدوركم ونسخ من قلوبكم ورفع الركن»، قال عثمان: وبلغني عن النبي ﷺ أنه قال: «أول ما يرفع الركن والقرآن ورؤيا النبي ﷺ في المنام». وروي أيضاً عن عبدالله بن عمروبن العاص قال: «إن الله تعالى يرفع القرآن من صدور الرجال والحجر الأسود قبل يوم القيامة».

وروي أيضاً عن يوسف بن ماهك أنه قال: «إن الله تعالى جعل الركن عيد أهل هذه القبلة، كما كانت المائدة عيداً لبني إسرائيل وإنكم لن تزالوا بخير ما دام بين ظهرانيكم، وإن جبريل وضعه في مكانه يأتيه فيأخذه من مكانه».

وجاء في كتاب « القرى لقاصد أم القرى » للإمام الطبري عن ابن مسعود أنه قال : أكثروا من زيارة هذا البيت قبل أن يرفع وينسى الناس مكانه ، وأكثروا من تلاوة القرآن قبل أن يرفع ، قالوا : هذه المصاحف ترفع فكيف بما في صدور الرجال ؟ قال : يسرى عليها ليلاً فتصبح صفراً أو قفراً حتى ينسوا لا إله إلا الله فيقولون كما نقول قولاً ونتكلم به ، ويرجعون إلى شعار الجاهلية وكلامهم . أخرجه الأزرقي . انتهى من الطبري .

وجاء في الإشاعة في أشراط الساعة : عن ابن عمر رضي الله عنهما ، قال : « لا تقوم الساعة حتى يرفع الركن والمقام ورؤيا النبي في المنام » . أخرجه السجزي . وقد تقدم بعض الأحاديث في هذا المعنى .

فيعلم من كلام النبي ﷺ المتقدم : أن الحجر الأسود نفسه يبقى في موضعه من الكعبة إلى يوم القيامة ، فيرفع عندئذ بواسطة الملائكة ، فلا يفقد بطريقة السرقة ولا بالاعتداء .

هذا ما يؤمن به المسلمون وهم أدرى بأمور دينهم ، ولا عبرة بكلام غيرهم من أهل الشك والشرك ومن أهل النفاق والشقاق .

بقي علينا من بحث الحجر الأسود نقطة مهمة يجب ذكرها ، وهي : أن الأستاذ يوسف أحمد مفتش الآثار العربية سابقاً بالديار المصرية ومحيي الخط الكوفي هناك في عصرنا الحاضر ، رحمه الله ، يقول في كتابه المحمل والحج بصحيفة (١٠٣) ما نصه : «ولا ندري إن كان الحجر الأسود وصل إلى العرب من طريق النيازك أو من طريق آخر» ويقول في صحيفة (١٠٤) من الكتاب المذكور ما ملخصه : «إن إبراهيم عليه الصلاة والسلام وضع الحجر الأسود إما أن يكون تذكاراً لصدعه بأمر ربه ببناء البيت المعظم ، وإما أن يكون للعهد الذي أخذه على نفسه وولده بجعل هذا البيت مثابة للناس ، وإما أن يكون قد أقامه حجة عليه وعلى ولده بأن هذا البيت قد انتقل من ملكيتهم إلى الله تعالى ، وجعل لونه أسود لسهولة تعيينه وتحديد مكانه» . اهـ . هكذا يقول الأستاذ يوسف أحمد رحمه الله تعالى عن الحجر الأسود في كتابه المذكور .

ونحن مع احترامنا للأستاذ يوسف أحمد رحمه الله كأحد مشايخنا الذين أخذنا عنه الخط العربي حين إقامتنا بمصر ، وأنه رجل من خيار الناس وأفاضلهم ، لا منا إلا أن نرد قوله بياناً للحقيقة فنقول : يظهر لنا أن الأستاذ يوسف أحمد لم

يطلع على ما ورد من الأحاديث في حق الحجر الأسود، وأنه لم يقتنع بما رواه المؤرخون عن كيفية وضع إبراهيم عليه السلام له وإلا لما قال ما قال عنه في كتابه، بل إنه نظر إلى الحجر الأسود كما ينظر إلى بعض الآثار القديمة فكتب عنه ما بدا له على طريقة الاستنتاج، ونحن لا نتهمه قط، وهو رجل الاستقامة والفضل والذكاء، وإنما نلتمس له العذر لأن نفسه متشبعة بالأبحاث الأثرية، فكم تقلبت بين يديه مئات الأحجار القديمة عندما كان مفتشاً للآثار بمصر ليبدي رأيه فيها ويقيد ملاحظاته عليها، لكن لما كان الحجر الأسود المبارك غير تلك الأحجار، وجب علينا أن نبين حقيقته حتى لايبقى أدنى شبهة لدى أحد من الناس فنقول :

لما بلغ إبراهيم عليه الصلاة والسلام في بناء البيت إلى موضع الحجر الأسود جاء به جبريل عليه السلام، فوضعه في مكانه وبني عليه إبراهيم وهو حينئذ يتلألأ تلألؤاً من شدة بياضه فأضاء نوره شرقاً وغرباً ويمناً وشاماً فكان نوره يضيء إلى منتهى أنصاب الحرم من كل ناحية من نواحي الحرم، وإنما كان سواده من خطايا بني آدم، كما جاء في الحديث وهذا أمر معنوي لا يدركه كل فرد، وقد اسود أيضاً من إصابته بالحريق مرة بعد مرة في الجاهلية والإسلام كما تقدم بيانه في بناء قريش وبناء ابن الزبير الكعبة .

فالحجر الأسود ليس من النيازك كما يظنه الأستاذ يوسف أحمد، وإنما هو والمقام ياقوتتان من يواقيت الجنة نزل بهما جبريل عليه السلام، ولولا أن الله تعالى أطفأ نورهما لأضاءا ما بين السماء والأرض كما جاء ذلك صريحاً في بعض الأحاديث، قال ابن عباس : « ولولا أن الله طمس ضوء الحجر الأسود لما استطاع أحد أن ينظر إليه » . وقال مجاهد : « الركن من الجنة ولو لم يكن من الجنة لفني » .

وكما أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام، رفع قواعد البيت بأمر الله، فقد وضع الحجر الأسود فيه بأمره عز شأنه أيضاً، لا للعل التي ذكرها الأستاذ يوسف أحمد، قال عكرمة : « إن الحجر الأسود يمين الله في الأرض، فمن لم يدرك بيعة رسول الله ﷺ فمسح الحجر فقد بايع الله ورسوله » . وقال ابن عباس : « الركن يمين الله في الأرض يصافح بها عباده كما يصافح أحدكم أخاه » .

ولقد جاء في فضل الحجر واستلامه أحاديث كثيرة لا لـزوم لسـردها حتـى لا يطول الكلام ، نسأل الله التوفيق والهداية للصواب .

انظر: صورة رقم ٨٧، الحجر الأسود وتظهر منه ثماني قطع في زماننا اليوم

أصل القرامطة ومذهبهم

حيث أن هؤلاء الطائفة لهم ذكر في كتابنا هذا عند اقتلاعهـم الحجـر الأسـود وانتهاكهم لحرمة مكة والبيت الحرام ، نذكر هنا طرفاً عن أصلهم وأخبارهم .

فقد جاء في تاريخ الخميس عن القرامطة عند الكلام على خلافة المقتـدر بـا لله ما يأتي :

وفي المواقف : لقبوا بالقرامطة لأن أولهم الذي دعـا النـاس إلى مذهبهـم رجـل يقال له حمدان قرمطة ، وهي إحدى قرى واسط ، لقبوا بسبعة ألقاب :

(١) بالقرامطة لما مـر ، (٢) وبالباطنيـة لقولهـم ببـاطن الكتـاب دون ظـاهره ، فإنهم قالوا للقرآن ظاهر وباطن والمراد منه باطنه لا ظاهره المعلوم مـن اللغـة ونسـبة البـاطن إلى الظـاهر كنسبة اللـب إلى القشـر ، (٣) وبالحرميـة لإبـاحتهم الحرمـات والمحارم ، (٤) وبالسبيعة لأنهم زعمـوا أن النطقـاء بالشـرائع أي الرسـل سـبعة آدم ونـوح وإبراهيـم وموسـى وعيسـى ومحمـد ومحمـد المهـدي سـابع النطقـاء ، (٥) وبالبابكية إذ تبع طائفة منهم بابك بن عبدالكريم الحرمي في الخـروج بأذربيجـان ، (٦) وبالمحمرة للبسهم الحمرة في أيـام بـابك ، (٧) وبالإسماعيليـة لإثبـاتهم الإمامـة لإسماعيل بن جعفر الصادق وهو أكبر أبنائه .

وفي الملل والنحل لمحمد بن عبدالكريـم الشهرسـتاني لهـم ألقـاب كثـيرة علـى لسان كل قوم ، فبالعراق يسمون الباطنية والقرامطة والمزدكية ، وبخرسـان التعليمـة والملحدة وهم يقولون : نحن إسماعيلية لأنا نميز عن فرق الشيعة بهـذا الاسـم وبهـذا الشخص . انتهى من تاريخ الخميس .

ولقد تكلم الخضري رحمـه الله تعـالى في كتابـه « محـاضرات الخضـري » عـن بعض الطوائف ومنهم القرامطة ، نذكر هنا طرفاً مـن أخبـارهم نقـلاً عـن الكتـاب المذكور باختصار فنقول :

ظهر في أواخر دولة المعتمد بالله بن المتوكل بن المعتصم المتوفى لإحدى عشرة ليلة بقيت من رجب سنة (٢٧٩) تسع وسبعين ومائتين من الهجرة، رجل بسواد الكوفة قدم إليها من نواحي خوزستان وكان يظهر الزهد والتقشف ويأكل من كسبه ويكثر الصلاة، فأقام على ذلك مدة وأعلم الناس أنه يدعو إلى إمام من أهل البيت، وكان يزداد في أعين الناس نبلاً بما يظهره من الزهد ثم مرض.

وكان في القرية رجل يلقبونه « بكرميته » لحمرة عينيه وهو بالنبطية أحمر العين فحمل هذا المريض إلى منزله ووصى أهله بالإشراف عليه والعناية به فلم يزل مقيماً عنده حتى برئ فكان « كرميته » يدعو الناس إلى مذهبه حتى أجابه جمع كثير من الأكرة (جمع آكار بالتشديد وهو الحراث) وكان يأخذ من كل من دخل في مذهبه ديناراً بزعم أنه للإمام، واتخذ من أهل القرية نقباء اثني عشر، فاشتغل الزراع هناك عن أعمالهم بما رسم لهم من الصلوات الكثيرة التي أخبرهم أنها مفروضة عليهم.

وكان للهيصم في تلك النواحي ضياع فوقف على تقصير أكرته في العمارة، فسأل عن ذلك فعلم بخبر الرجل فوجه في طلبه فأخذ وجيء به إليه فحبسه واشتغل بشربه فرقت إحدى جوار الهيصم للرجل فأخذت مفتاح الحجرة التي حبس فيها من تحت رأس الهيصم وفتحت الباب وأخرجته ثم أعادت المفتاح إلى مكانه، فلما أصبح الهيصم فتح الباب ليقتل الرجل فلم يجده، وشاعت تلك الحادثة في الناس فافتتنوا به وقالوا رفع ثم ظهر في ناحية أخرى، وأشيع بين الناس أنه لا يمكن أحداً أن يناله بسوء فعظم في أعينهم ومع ذلك فإنه خاف على نفسه وخرج إلى الشام وأطلق على نفسه اسم الرجل الذي آواه وهو « كرميته » ثم خفف فقيل قرمط ولمن تبعه القرامطة ثم إنه فشا مذهب القرامطة في سواد الكوفة والسلطان لاه عنهم، لا يفكر في تغيير شيء مما هم عليه حتى كان منهم ما كان من الكوارث العظمى التي حلت بالأمة الإسلامية وحتى أخيفت السبل وقطع طريق الحاج.

ثم ظهر بالبحرين رجل يقال له أبو سعيد الحسن بن بهرام الجنابي، وجنابة من ساحل فارس يدخل إليها في المراكب في خليج من البحر الفارسي وبين المدينة والبحر ثلاثة أميال، وقبالتها في وسط البحرين جزيرة خارك، نشأ بها أبو سعيد هذا وكان رقاقاً فنفي عن جنابة فخرج إلى البحرين فأقام بها تاجراً وجعل يستميل

العرب إلى نحلته فاستجاب له أهل البحرين وما والاها وقوي أمره فقتل ما حوله من أهل القرى وفعل كذلك بالقطيف وأظهر أنه يريد البصرة وأقبل إليها بجموعه في سنة (٢٨٧) سبع وثمانين ومائتين ، فأرسل إليه المعتضد جيشاً فهزمه أبو سعيد الجنابي وقتل الأسرى ، ثم سار الجنابي بعد الواقعة إلى « هجر » .

وأيضاً أرسل المعتضد با لله العباسي جيشاً يقوده مولاه شبل غلام أحمد بن محمد الطائي إلى الكوفة لمحاربة هؤلاء المارقين الذين انتشر مذهبهم وكثر أتباعهم ، فظفر بهم شبل غلام أحمد الطائي ، وأسر رئيساً لهم يقال له أبو الفوارس وقدم به على المعتضد ، فسأله المعتضد : هل تزعمون أن روح ا لله تعالى وأرواح أنبيائه تحل في أجسادكم فتعصمكم من الزلل وتوفقكم لصالح العمل؟ فقال : يا هذا إن حلت روح ا لله فينا فما يضرك وإن حلت روح إبليس فما ينفعك فلا تسأل عما لا يعنيك وسل عما يخصك . فقال المعتضد : ما تقول فيما يخصني ؟ قال : أقول إن رسول ا لله ﷺ مات وأبوكم العباس حي فهل طلب بالخلافة أم هل بايعه أحد من الصحابة على ذلك ، ثم مات أبو بكر فاستخلف عمر وهو يرى موضع العباس ولم يوص إليه ، ثم مات عمر وجعلها شورى في ستة أنفس ولم يوص إليه ولا أدخله فيهم . فبما تستحقون أنتم الخلافة وقد اتفق الصحابة على دفع جدك عنهم؟ فأمر به المعتضد فقتل .

ولما تتابع جيش المعتضد إلى من بسواد الكوفة سعى داعية قرمط زكرويه بن مهرويه في استغواء كلب بن وبرة بواسطة أولاده فأجابه بعض بطونهم وبايعوا سنة (٢٩١) ابن زكرويه المسمى يحيى والمكنى بأبي القاسم ولقبوه الشيخ وزعموا أنه محمد بن عبدا لله بن محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق وزعم لهم أن له بالبلاد مائة ألف تابع وسمى أتباعه الفاطميين . فقصدهم شبل مولى المعتضد المذكور من ناحية الرصافة فاغتروه وقتلوه وأحرقوا مسجد الرصافة واعترضوا كل قرية اجتازوا به حتى بلغوا بلاد الشام وكانت إذ ذاك في حوزة خمارويه بن أحمد بن طولون وينوب عنه فيها طغج بن جف فقاتلهم مراراً فهزموه .

هذا ما كان من أمر هؤلاء القرامطة في حياة المعتضد با لله ، فقد ظهروا في ثلاثة مواضع ، بالبحرين والعراق والشام ، وقد توفي المعتضد لثمان بقين من ربيع الآخر سنة (٢٨٩) وكان ولي عهده ابنه المكتفي .

وفي أيام المقتدر بالله بن المعتضد الذي بويع بالخلافة بعد وفاة أخيه المكتفي في ذي القعدة سنة (٢٩٥) خمس وتسعين ومائتين، كان رئيس القرامطة أبو طاهر سليمان الجنابي بن أبي سعيد الحسن الجنابي الذي تقدم ذكره والذي قتل سنة (٣٠١) إحدى وثلاثمائة، وكان قد استولوا على هجر والأحساء والقطيف وسائر بلاد البحرين، فلما تولى أبو طاهر تتابعت غزواته إلى جهة البصرة وكانت أشد غزواته لها سنة (٣١١) فإنه سار إليها في ألف وسبعمائة من القرامطة ودخلها وقتل حاميتها ووضع السيف في أهلها وأقام بها سبعة عشر يوماً يحمل منها ما يقدر عليه من المال والأمتعة والنساء والصبيان ثم عاد إلى بلده، وتوجه منها إلى طريق الحاج ليلقاهم عند رجوعهم إلى مكة، فأوقع بالقافلة العظمى من الحجاج القتل والنهب وأخذوا جمالهم وأمتعتهم وأموالهم والنساء والصبيان ومن نجا منهم مات من الجوع والعطش في موضعه ثم عاد أبو طاهر إلى هجر، فطلب أمير المؤمنين المقتدر بالله من أبي طاهر أن يطلق من عنده من أسرى الحاج فأطلقهم، وطلب ولاية البصرة والأهوار فلم يجبه المقتدر.

ثم خرج الحجاج من بغداد يريدون الحج فسار معهم جعفر بن ورقاء الشيباني وكان على أعمال الكوفة وطريق مكة ومعه ألف رجل من بني شيبان وسار معهم أيضاً قواد السلطان بستة آلاف رجل، فلقيهم أبو طاهر القرمطي فهزمهم فرجعوا إلى الكوفة فتبعهم أبو طاهر إلى باب الكوفة ثم دخلها وأقام بها ستة أيام ثم عاد إلى « هجر » بعد أن حمل معه ما قدر على حمله من الأموال فخاف أهل بغداد أن يهجم عليهم أبو طاهر.

وفي سنة (٣١٥) سار أبو طاهر نحو الكوفة أيضاً واستولى عليها، ثم قصد الأنبار واستولى عليها أيضاً وهزم جيش المقتدر، وجاء شخص إلى علي بن عيسى الوزير وأخبره أن في جيرانه رجلاً من شيراز على مذهب القرامطة يكاتب أبا طاهر بالأخبار، فأحضره وسأله فاعترف وقال: ما صحبت أبا طاهر إلا لما صح عندي أنه على الحق وأنت وصاحبك كفار تأخذون ما ليس لكم ولا بد لله من حجة في أرضه وإمامنا محمد بن فلان بن فلان بن محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق المقيم ببلاد المغرب ولسنا كالرافضة والاثني عشرية الذين يقولون بجهلهم أن لهم إماماً ينتظرونه ويكذب بعضهم لبعض فيقول قد رأيته وسمعته وهو يقرأ ولا ينكرون بجهلهم وغباوتهم أنه لا يجوز أن يعطى من العمر ما يظنونه فقال له الوزير: قد

خالطت عسكرنا وعرفتهم فمن فيهم على مذهبك ؟ فقال : وأنت بهذا العقل تدبر الوزارة كيف تطمع مني أن أسلم قوماً مؤمنين إلى قوم كافرين يقتلونهم ؟ لا أفعل ذلك فأمر به فضرب ضرباً شديداً ومنع الطعام والشراب فمات بعد ثلاثة أيام .

ثم سار أبو طاهر وعثى في أرض الجزيرة نهباً وقتلاً إلا من اعتصم منه بالأمان والفدية وجيوش السلطان لا تؤثر فيها أثراً وتخاف أن تقدم عليه فلما تم له ما أراد من الجزيرة عاد إلى الكوفة ومنها دخل هو وأصحابه البرية بعد أن خافوا السبل وأهلكوا العدد الجم .

وكانت هذه الانتصارات سبباً في ظهور من كان بالسواد ممن يعتقد مذهب القرامطة ويكتم اعتقاده خوفاً فأظهروا اعتقادهم واجتمع منهم بسواد الكوفة أكثر من عشرة آلاف رجل وولوا أمرهم رجلاً يعرف بحريث بن مسعود واجتمعت طائفة أخرى بعين التمر ونواحيها في جمع كثير وولوا أمرهم رجلاً يعرف بعيسى بن موسى وكانوا يدعون إلى المهدي وسار عيسى إلى الكوفة ونزل بظاهرها وجبى الخراج وصرف عمال السلطان على السواد وسار حريث إلى أعمال الموفقي وبنى بها داراً سماها دار الهجرة واستولى على تلك الناحية فكان أصحابه ينهبون ويقتلون ويسبون .

فأرسل المقتدر إلى حريث بن مسعود ومن معه هارون بن غريب وإلى عيسى بن موسى ومن معه بالكوفة صافياً البصري فأوقع كل منهما بمن أرسل إليه من القرامطة وأسر منهم خلق كثير وقتل أكثر ممن أسر وأخذت أعلامهم وكانت بيضاء كتب عليها « ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين » فأدخلت بغداد منكوسة واضمحل أمر من السواد منهم وكفى الله الناس شرهم وإن كان ذلك مما يعجل بخراب القرى وإتلاف المزارع .

وفي سنة (٣١٧) سبع عشرة وثلاثمائة فعل أبو طاهر ما هو أشنع وأدهى وذلك أنه سار بجنده إلى مكة فوافاها يوم التروية فلم يرع حرمة البيت الحرام بل نهب هو وأصحابه أموال الحجاج وقتلوهم حتى في المسجد الحرام وفي البيت نفسه وقلع الحجر الأسود وأنفذه إلى هجر فخرج إليه أمير مكة في جماعة من الأشراف فسألوه في أموالهم فلم يشفعهم فقاتلوه فقتلهم أجمعين وقلع باب البيت وطرح القتلى في بئر زمزم ودفن الباقين في المسجد الحرام حيث قتلوا بغير غسل ولا كفن

ولا صلى على أحد منهم ، وأخذ كسوة البيت فقسمها بين أصحابه ونهب دور مكة . ولم يحصل في التاريخ أن انتهكت حرمة هذا البيت إلى هذا الحد حتى أن المهدي عبيد الله العلوي لما علم ذلك كتب إلى أبي طاهر ينكر عليه ذلك ويلومه ويلعنه ويقيم عليه القيامة يقول : قد حققت على شيعتنا ودعاة دولتنا اسم الكفر والإلحاد بما فعلت ، وإن لم ترد على أهل مكة وعلى الحجاج وغيرهم ما أخذت منهم وترد الحجر الأسود إلى مكانه وترد كسوة الكعبة فأنا بريء منك في الدنيا والآخرة فلما وصله هذا الكتاب أعاد الحجر الأسود واستعاد ما أمكنه من أموال أهل مكة فرده وقال : إن الناس اقتسموا كسوة الكعبة وأموال الحجاج ولا أقدر على منعهم . انتهى كل ذلك من كتاب محاضرات الخضري .

وقصة قتل أبي سعيد الجنابي الذي تقدم ذكره مذكورة في تاريخ الخميس فقد جاء فيه ما نصه : وفي سنة (٣٠١) قتل أبو سعيد الجنابي رأس القرامطة قتله مملوك له صقلبي راوده في الحمام ثم خرج فاستدعى قائداً من أصحاب الجنابي فقال : السيد يطلبك فلما دخل قتله وخرج فطلب آخر فقتله حتى قتل أربعة من رؤسائهم واستدعى الخامس فلما دخل فطن لذلك فأمسك بيد الخادم وصاح الناس وصاح النساء فقتلوه . انتهى منه . وجاء فيه أيضاً أنه في سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة مات الطاغية القرمطي أبو طاهر سليمان بن أبي سعيد الجنابي في هجر بالجدري لا رحمه الله . انتهى .

بقيت هنا مسألة صغيرة عنهم وهي : لماذا تمادت القرامطة في طغيانهم وأغوائهم بدون أن تقضي عليهم جيوش أمير المؤمنين الذي كان في زمنهم نقول : إن أمير المؤمنين أو من ينوب عنه في البلدان ما قصروا في محاربتهم ولكن لم يكن في ذلك الزمن الأسلحة الحديثة ولا الطائرات ولا الأوتوموبيلات ولا أساطيل البحر والبر ، كما لم يكن لديهم الراديو والتلغراف والتليفون ووسائل المخابرات السريعة ليقمعوا المارقين والخارجين سريعاً قبل استفحال أمرهم . فإلى أن يرسلوا رسولاً إلى جهة ليأتي بالخبر اليقين والأمر الحازم والإمدادات من مال وأسلحة وجيش وطعام يسرع الباغون والخارجون عن الطاعة بتنفيذ خططهم التي رسموها فيستولوا على بعض البلدان ويتقووا بما يأخذونه منها من المال والأمتعة والرجال ، ثم إذا التقى هؤلاء بجيش الخليفة فالحرب سجال والنصر بيد الله ينصر من يشاء وهو القوي العزيز . هذا رأينا والله تعالى أعلم بالغيب .

اللهم أعز الاسلام والمسلمين واجمع كلمتهم وشتات أمرهم، ووفقهم لاتباع دينك القويم وصراطك المستقيم، وأهلك الكفرة والمشركين، واخذلهم أينما كانوا، واضرب عليهم الذلة والمسكنة والضعف والهوان، ﴿واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين﴾.

آمين، وصلى الله وسلم على النبي الأمي وعلى آله وصحبه أجمعين.

بعد أن كتبنا جميع ما تقدم، عثرنا على كتاب مطبوع بمصر اسمه «كشف أسرار الباطنية وأخبار القرامطة» لمؤلفه العلامة محمد بن مالك بن أبي الفضائل الحمادي اليماني من أهل القرن الخامس للهجرة، عن الباطنية والقرامطة، فرأينا أن ننقل منه بعض الصحائف المهمة، ليطلع المسلمون كيف تكون الدسائس من أعداء الإسلام، وكيف يغوي الدخلاء والمنافقون الجهلاء ضعاف العقول، حتى أنهم مهما أتوا من الحيل والطرق الشيطانية، فلا يقدرون أن ينالوا من الدين الإسلامي الحنيف شيئاً، لأنه دين قوي متين، تكفل الله العزيز الحميد بحفظه إلى قيام الساعة، كما هو صريح قوله: ﴿يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون﴾.

وإليك ما جاء في الكتاب المذكور:

بسم الله الرحمن الرحيم، قال محمد بن مالك رحمة الله عليه: اعلموا أيها الناس المسلمون، عصمكم الله بالإسلام وجنبنا وإياكم طرق الآثام، وأصلحكم وأرشدكم، ووفقكم لمرضاته وسددكم إني كنت أسمع ما يقال عن هذا الرجل الصليحي كما يسمعون، وما يتكلم به عليه من سيء الإذاعة وقبح الشناعة، فإذا قال القائل: هو يفعل ويصنع، قلت: أنت تشهد عليه غداً، فيقول: ما شهدت ولا عاينت بل أقول كما يقول الناس.

فكنت أتعجب من هذا أولاً، ولا أكاد أصدق ولا أكذب، ما قد أجمع عليه الناس ونطقت به الألسن، فتارة أقول هذا ما لا يفعله أحد من العرب والعجم، ولا سمع به فيما تقدم من سالف الأمم، إنما هذه عداوة له من الناس للمآل الذي بلغه من غير أصل ولا أساس، وكنت كثيراً ما أسمعه يقول: «حكم الله لنا على من يظلمنا ويرمينا بما ليس فينا». فرأيت أن أدخل في مذهبه، لأتيقن صدق ما قيل فيه من كذبه، ولأطلع على سرائره وكتبه، فلما تصفحت جميع ما فيها وعرفت معانيها رأيت أن أبرهن على ذلك ليعلم المسلمون عمدة مقالته، وأكشف

لهم عن كفره وضلالته ، نصيحة لله وللمسلمين ، وتحذيراً ممن يحاول بغض هذا الدين ، وا لله موهن كيد الكافرين .

فأول ما أشهد به وأشرحه ، وأبينه للمسلمين وأوضحه أن له نواباً يسميهم الدعاة المأذونين ، وآخرين يلقبهم المكلبين تشبيهاً لهم لكلاب الصيد ، لأنهم ينصبون للناس الحبائل ، ويكيدونهم بالغوائل ، وينقبضون عن كل عاقل ، ويلبسون على كل جاهل ، بكلمة حق يراد بها الباطل ، يحضونه على شرائع الإسلام من الصلاة والزكاة والصيام ، كالذي ينثر الحب للطير ليقع في شركه ، فيقيم أكثر من سنة يمعنون به وينظرون صبره ويتصفحون أمره ، ويخدعونه بروايات عن النبي ﷺ محرفة ، وأقوال مزخرفة ، ويتلون عليه القرآن على غير وجهه ، ويحرفون الكلم عن مواضعه ، فإذا رأوا منه الانهماك والركون والقبول والإعجاب بجميع ما يعلمونه والانقياد بما يأمرونه ، قالوا حينئذٍ : اكشف عن السرائر ، ولا ترض لنفسك ولا تقنع بما قد قنع به العوام من الظواهر ، وتدير القرآن ورموزه ، واعرف مثله وممثلوه ، واعرف معاني الصلاة والطهارة ، وما روي عن النبي ﷺ بالرموز والإشارة ، دون التصريح في ذلك والعبارة ، فإنما جميع ما عليه الناس أمثال مضروبة ، لممثولات محجوبة ، فاعرف الصلاة وما فيها ، وقف على باطنها ومعانيها ، فإن العمل بغير علم لا ينتفع به صاحبه .

فيقول : عم أسأل ؟ فيقولون : قال ا لله تعالى : ﴿أقيموا الصلاة وآتوا الزكاة﴾ فالزكاة مفروضة في كل عام مرة ، وكذلك الصلاة من صلاها مرة في السنة ، فقد أقام الصلاة بغير تكرار ، وأيضاً فالصلاة والزكاة لهما باطن ، لأن الصلاة صلاتان ، والزكاة زكاتان ، والصوم صومان ، والحج حجان ، وما خلق ا لله سبحانه من ظاهر إلا وله باطن ، يدل على ذلك ﴿وذروا ظاهر الإثم وباطنه﴾ ، و﴿قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن﴾ .

ألا ترى أن البيضة لها ظاهر وباطن ، فالظاهر ما تساوى به الناس وعرفه الخاص والعام ، وأما الباطن فقصر علم الناس به عن العلم به ، فلا يعرفه إلا القليل ، من ذلك قوله : ﴿وما آمن معه إلا قليل﴾ وقوله : ﴿وقليل ما هم﴾ وقوله : ﴿وقليل من عبادي الشكور﴾ فالأقل من الأكثر الذين لا عقول لهم والصلاة والزكاة سبعة أحرف ، دليل على محمد وعلي صلى ا لله عليهما ، لأنهما سبعة

أحرف ، فالمعنى بالصلاة والزكاة ولاية محمد وعلي ، فمن تولاهما فقد أقام الصلاة وآتى الزكاة .

فيوهمون على من لا يعرف لزوم الشريعة والقرآن وسنن النبي ﷺ فيقع هذا من ذلك المخدوع بموقع الاتفاق والموافقة ، لأنه مذهب الراحة والإباحة ، يريحهم مما تلزمهم الشرائع من طاعة الله ، ويبيح لهم ما حظر عليهم من محارم الله ، فإذا قبل منهم ذلك المغرور هذا ، قالوا له : قرب قرباناً يكون لك سلماً ونجوى ، ونسأل مولانا يحط عنك الصلاة ويضع عنك هذا الإصر فيدفع اثني عشر ديناراً ، فيقول ذلك الداعي : يا مولانا ! إن عبدك فلان قد عرف الصلاة ومعانيها فاطرح عنه الصلاة وضع عنه هذا الإصر ، وهذا نجواه اثنا عشر ديناراً ، فيقول : اشهدوا أني قد وضعت عنه الصلاة ويقرأ له : ﴿ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم﴾ فعند ذلك يقبل إليه أهل هذه الدعوة يهنئونه ، ويقولون : الحمد لله الذي وضع عنك وزرك الذي أنقض ظهرك .

ثم يقول له ذلك الداعي الملعون بعد مدة : قد عرفت الصلاة وهي أول درجة ، وأنا أرجوا أن يبلغك الله إلى أعلى الدرجات ، فاسأل وابحث فيقول : عم أسأل ؟ فيقول له : سل عن الخمر والميسر اللذين نهى الله تعالى عنهما أبو بكر وعمر لمخالفتهما على علي وأخذهما الخلافة دونه ، فأما ما يعمل من العنب والزبيب والحنطة وغير ذلك فليس بحرام ، لأنه مما أنبتت الأرض ويتلو عليه : ﴿قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق﴾ إلى آخر الآية ، ويتلو عليه : ﴿ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا﴾ إلى آخر الآية .

والصوم الكتمان فيتلو عليه : ﴿فمن شهد منكم الشهر فليصمه﴾ يريد كتمان الأئمة في وقت استتارهم خوفاً من الظالمين ويتلو عليه : ﴿إني نذرت للرحمن صوماً فلن أكلم اليوم إنسيا﴾ فلو كان عنى بالصيام ترك الطعام ، لقال فلن أطعم اليوم شيئاً فدل على أن الصيام الصموت فحينئذٍ يزداد ذلك المخدوع طغياناً وكفراً وينهمك إلى قول ذلك الداعي الملعون لأنه أتاه بما يوافق هواه والنفس أمارة بالسوء .

ثم يقول له : ادفع النجوى تكون لك سلماً ووسيلة حتى نسأل مولانا يضع عنك الصوم فيدفع اثني عشر ديناراً فيمضي به إليه فيقول : يا مولانا ! عبدك فلان

قد عرف معنى الصوم على الحقيقة فأبح له الأكل برمضان، فيقول له: قد وثقته وأمنته على أسرارنا؟ فيقول له: نعم، فيقول: قد وضعت عنه ذلك.

ثم يقيم بعد ذلك مدة فيأتيه ذلك الداعي الملعون، فيقول له: قد عرفت ثلاث درجات فاعرف الطهارة ما هي، ومعنى الجنابة ما هي في التأويل، فيقول: فسر لي ذلك، فيقول له: اعلم أن معنى الطهارة طهارة القلب، وأن المؤمن طاهر بذاته، والكافر نجس لا يطهره الماء ولا غيره، وأن الجنابة هي موالاة الأضداد أضداد الأنبياء والأئمة، فأما المني فليس بنجس، منه خلق الله الأنبياء والأولياء وأهل طاعته، وكيف يكون نجساً وهو مبدأ خلق الإنسان، وعليه يكون أساس البنيان، فلو كان التطهير منه من أمر الدين لكان الغسل من الغائط والبول أوجب لأنهما نجسان، وإنما معنى: ﴿وإن كنتم جنباً فاطهروا﴾ معناه: فإن كنتم جهلة بالعلم الباطن فتعلموا واعرفوا العلم الذي هو حياة الأرواح كالماء الذي هو حياة الأبدان قال الله تعالى: ﴿وجعلنا من الماء كل شيء حي﴾. وقوله: ﴿فلينظر الإنسان ممّ خُلِقْ ۞ خُلِقَ من ماء دافق﴾ فلما سماه الله بهذا دل على طهارته، ويوهمون ذلك المخدوع بهذه المقالة، ثم يأمره ذلك الداعي أن يدفع اثني عشر ديناراً ويقول: يا مولانا! عبدك فلان قد عرف معنى الطهارة حقيقة وهذا قربانه إليك فيقول: اشهدوا أني قد حللت له ترك الغسل من الجنابة.

ثم يقيم مدة فيقول له هذا الداعي الملعون: قد عرفت أربع درجات وبقي عليك الخامسة، فاكشف عنها فإنها منتهى أمرك وغاية سعادتك ويتلو عليه: ﴿فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين﴾ فيقول له: ألهمني إياها ودلني عليها، فيتلو عليه: ﴿لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد﴾. ثم يقول له: أتحب أن تدخل الجنة في الحياة الدنيا فيقول: وكيف لي بذلك؟ فيتلو عليه: ﴿وإن لنا للآخرة والأولى﴾ ويتلو عليه: ﴿قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة﴾.

والزينة هاهنا ما خفي على الناس من أسرار النساء التي لا يطلع عليها إلا المخصوصون بذلك، وذلك قوله: ﴿ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن﴾ والزينة مستورة غير مشهورة ثم يتلو عليه: ﴿وحور عين ۞ كأمثال اللؤلؤ المكنون﴾ فمن لم ينل الجنة في الدنيا لم ينلها في الآخرة، لأن الجنة مخصوص بها ذوو الألباب،

وأهل العقول دون الجهال ، لأن المستحسن من الأشياء ما خفي ، ولذلك سميت الجنة جنة لأنها مستجنة ، وسميت الجن جناً لاختفائهم عن الناس ، والجنة المقبرة لأنها تستر من فيها ، والترس المجن لأنه يستتر به ، فالجنة هاهنا ما استتر عن هذا الخلق المنكوس ، الذين لا علم لهم ولا عقول فحينئذٍ يزداد هذا المخلوع انهماكاً ويقول لذلك الداعي الملعون : تلطف في حالي ، وبلغني إلى ما شوقتني إليه ، فيقول : ادفع النجوى اثني عشر ديناراً تكون لك قرباناً وسلماً ، فيمضي به فيقول : يا مولانا ! إن عبدك فلان قد صحت سريرته وصفت حبرته ، وهو يريد أن تدخله الجنة ، وتبلغه حد الأحكام ، وتزوجه الحور العين ، فيقول له : قد وثقته وأمنته ؟ فيقول : يا مولانا ! قد وثقته وأمنته وخبرته ، فوجدته على الحق صابراً ولأنعمك شاكراً .

فيقول : علمنا صعب مستصعب ، لا يحمله إلا نبي مرسل ، أو ملك مقرب ، أو عبد امتحن ا لله قلبه بالإيمان ، فإذا صح عندك حاله فاذهب به إلى زوجتك فاجمع بينه وبينها ، فيقول سمعاً وطاعة لله ولمولانا ، فيمضي به إلى بيته فيبيت مع زوجته حتى إذا كان الصباح قرع عليهما الباب وقال : قوما قبل أن يعلم بنا هذا الخلق المنكوس ، فيشكر ذلك المخدوع ويدعو له ، فيقول له : ليس هذا من فضلي هذا من فضل مولانا ، فإذا خرج من عنده تسامع به أهل هذه الدعوة الملعونة فلا يبقى منهم أحد إلا بات مع زوجته كما فعل ذلك الداعي الملعون .

ثم يقول له : لا بد لك أن تشهد المشهد الأعظم عند مولانا فادفع قربانك فيدفع اثني عشر ديناراً ويصل به ، ويقول : يا مولانا ! إن عبدك فلان يريد أن يشهد المشهد الأعظم وهذا قربانه ، حتى إذا جن الليل ودارت الكؤوس وحميت الرؤوس وطابت النفوس أحضر جميع أهل هذه الدعوة الملعونة حريمهم ، فيدخلن عليهم من كل باب وأطفأوا السرج والشموع وأخذ كل واحد منهم ما وقع عليه في يده ثم يأمر المقتدي زوجته أن تفعل كفعل الداعي الملعون وجميع المستجيبين ، فيشكره ذلك المخدوع على ما فعل له ، فيقول له : ليس هذا من فضلي ، هذا من فضل مولانا أمير المؤمنين فاشكروه ولا تكفروه ، على ما أطلق من وثاقكم ، ووضع عنكم أوزاركم ، وحط عنكم آصاركم ، ووضع عنكم أثقالكم ، وأحل لكم بعض الذي عليكم جهالكم ﴿وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظٍ عظيم﴾ .

قال محمد بن مالك رحمه الله تعالى : هذا ما اطلعت عليه من كفرهم وضلالتهم ، والله تعالى لهم بالمرصاد ، والله تعالى علي شهيد بجميع ما ذكرته ، مما اطلعت عليه من فعلهم وكفرهم وجهلهم ، والله يشهد علي بجميع ما ذكرته عالم به ، ومن تكلم عليهم بباطل فعليه لعنة الله ولعنة اللاعنين والملائكة والناس أجمعين ، وأخزى الله من كذب عليهم ، وأعد له جهنم وساءت مصيرا ، ومن حكى عنهم بغير ما هم عليه فهو يخرج من حول الله وقوته إلى حول الشيطان وقوته ، فأديت هذه النصيحة إلى المسلمين حسب ما أوجبه الله علي من حفظ هذه الشهادة ، فإن الله سبحانه أمر بحفظ الشهادة ومراعاتها وأدائها إلى من لم يسمعها ، قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ ستكتب شهادتهم ويسئلون ﴾ والله أسأله أن يتوفانا مسلمين ، ولا ينزع عنا الإسلام بعد إذ آتانا الله بمنه ورحمته .

المقالة في أصل هذه الدعوة الملعونة ومبدئها

وقد رأيت أيها الناس وفقنا الله وإياكم للصواب ، وجنبنا وإياكم طرق الكفر والارتياب ، أن أذكر أحبال هذه الدعوة الملعونة لئلا يميل إلى مذهبهم مائل ، ولا يصبوا إلى مقالتهم لبيب عاقل ، ويكون في هذا القدر من الكلام في هذا الكتاب إنذاراً لمن نظره ، وأعذاراً لمن وقف عليه واعتبره .

(باب) اعلموا يا إخواني في الإسلام أن لكل شيء من أسباب الخير والشر والنفع والضر والداء والدواء أصولاً ، وللأصول فروعاً ، وأصل هذه الدعوة الملعونة التي استهوى به الشيطان أهل الكفر والشقوة ، ظهور «عبدالله بن ميمون القداح» في الكوفة ، وما كان له من الأخبار المعروفة ، والمنكرات المشهورة الموصوفة ، ودخوله في طريق الفلسفة واستعماله الكتب المزخرفة ، وتمشيته إياها على الطغام ، ومكيدته لأهل الإسلام .

وكان ظهوره في سنة ست وسبعين ومائتين من التاريخ للهجرة النبوية ، فنصب للمسلمين الحبائل ، وبغى لهم الغوائل ، ولبس الحق بالباطل ، ومكر أولئك هو يبور وجعل لكل آية من كتاب الله تفسيراً ، ولكل حديث عن رسول الله ﷺ تأويلاً ، وزخرف الأقوال ، وضرب الأمثال ، وجعل لآي القرآن شكلاً يوازيه ، ومثلاً يضاهيه ، وكان الملعون عارفاً بالنجوم متضلعاً بجميع العلوم يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون فجعل أصل دعوته

التي دعاها ، وأساس بنيته التي بناها ، الدعاء إلى ا لله وإلى رسوله ويحتج بكتاب ا لله ومعرفة مثله وممثوله ، والاختصاص لعلي بن أبي طالب رضي ا لله عنه بالتقديم والإمامة والطعن على جميع الصحابة ، بالسب والأذى وقد روى عن رسول ا لله ﷺ أنه قال : « لعن ا لله من سب أصحابي » وقال عليه السلام : « أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم » وقال ﷺ : « من سب أصحابي فقد سبني ، ومن سبني فقد سب ا لله ، ومن سب ا لله كبه ا لله على وجهه في النار » فأفسد بتمويه قلوب الجهال ، وزين لهم الكفر والضلال ، وله شرح يطول فيه الخطاب غير أني أختصر وفيما أشرحه كفاية واعتبار لأولي الألباب والأبصار .

وكان هذا الملعون يعتقد اليهودية ويظهر الإسلام ، وهو من اليهود من ولد الشلعلع من مدينة بالشام يقال لها سلمية ، وكان من أحبار اليهود وأهل الفلسفة الذين عرفوا جميع المذاهب ، وكان صائغاً يخدم (شيعة) إسماعيل بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين ابن الحسين بن علي بن أبي طالب عليهم السلام ، وكان حريصاً على هدم الشريعة المحمدية ، لما ركب ا لله في اليهود من عداوة الإسلام وأهله ، والبغضاء لرسول ا لله ﷺ فلم ير وجهاً يدخل به على الناس حتى يردهم عن الإسلام ألطف من دعوته إلى أهل بيت رسول ا لله ﷺ ، وكان قد خرج في أيام قرمط البقار ، وكان اسمه أو لقبه لأنه كان يقرمط في سيره إذا مشى ، ولذلك نسب أهل مذهبه ومذهب ابن ميمون إلى قرمط ، لأنهما اجتمعا وعملا ناموساً يدعوان إليه ، وكانا يعرفان بالنجوم وأحكام الأزمان ، فدلهما الوقت على تأسيس ما عملاه ، فخرج ميمون إلى الكوفة وأقام بها مدة ، وله أخبار يطول شرحها ، مما كان منه ومن علي بن فضل والمنصور صاحب مسور وأبي سعيد الجنابي وأنا أشرح ذلك عند انتهائي إليه إن شاء ا لله تعالى ، وأما قرمط البقار فإنه خرج إلى بغداد فقتل هنالك لا رحمه ا لله .

(باب) ذكر ما كان من القداح وعقبه لعنه ا لله ومن تعلق بسببه ودخل في ضلالته ومذهبه ، وكان أول أولاده عبيد وهو المهدي ثم « محمد » وهو القائم ثم «الطاهر » إسماعيل المنصور ثم « المعز » ثم « العزيز » ثم « الحاكم » ثم « الظاهر » ثم « معد المستنصر » هؤلاء الذين ينسبون إليه إلى عصرنا هذا ، فانتسبوا إلى ولد الحسين بن علي بن أبي طالب كرم ا لله وجهه ، وانتحالهم إليه انتحال كاذب ، وليس لهم في ذلك برهان ، وأهل الشرف ينكرون ذلك فإنهم لم يجلوا لهم في

الشرف أصلاً مذكوراً ، ولا عرفوا لهم في كتاب الشجرة نسباً مشهوراً ، بل الكل يقصيهم عن الشرف وينفيهم عن النسب ، إلا من دخل معهم في كفرهم وضلالتهم ، فإنه يشهد لهم الزور ، ويساعدهم في جميع الأمور ، وقد زعموا أنهم من ولد محمد إسماعيل بن جعفر الصادق وحاش لله ما كان لمحمد إسماعيل من ولد ، ولا عرف ذلك من الناس أحد ، بل هم كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار .

الدليل على ذلك وعلى بطلان ما ذكروه أنهم يقولون معداً المستنصر بن الظاهر ابن الحاكم ابن العزيز ابن المعز ابن المنصور ابن القائم ابن المهدي وهو عبيد بن ميمون ، ثم يقولون ابن الأئمة المستورين من ولد إسماعيل بن جعفر الصادق ، فإذا سألهم سائل عن هؤلاء المستورين حادوا عن الجواب ، وكان للسائل لهم الارتياب ، وقالوا هم أئمة قهروا فتستروا ، و لم يؤمروا بإظهارهم ولا ذكرهم لأحد ، وهذا من أعظم الشواهد على بطلان ما ذكروه وانتسبوا إليه .

والدليل على أنهم من ولد اليهود ، استعمالهم اليهود في الوزارة والرئاسة ، وتفويضهم إليهم تدبير السياسة ما زالوا يحكمون اليهود في دماء المسلمين وأموالهم ، وذلك مشهور عنهم يشهد بذلك كل أحد .

(باب) خروج ميمون القداح من سلمية إلى الكوفة وقد ولد عبيد وهو الذي يسمونه عبيد الله المهدي فأقاما بالكوفة مدة طويلة حتى تهيأ لهما ما كانا يطلبان ، وإلى أن أجابهما إلى ذلك تسعة رهط يفسدون في الأرض ولا يصلحون ، منهم علي بن فضل الجدني اليماني ، وأبو القاسم بن زاذان الكوفي المسمى المنصور عند كونه في اليمن في مسور ، وأبو سعيد الجنابي صاحب الأحساء والبحرين ، وأبو عبدالله الشيعي صاحب كتامة في الغرب ، والحسن بن مهران المسمى بالمقنع الخارج فيما وراء النهر من خراسان ، ومحمد بن زكريا الخارج في الكوفة ، ولا بد أن أذكر أصح خبر كل واحد منهم مختصراً إن شاء الله تعالى .

(باب) ذكر أبي سعيد الجنابي لعنه الله كان فيلسوفاً ملعوناً ملك البحرين واليمامة والأحساء ، وادعى فيها أنه المهدي القائم بدين الله ، فاستفتح .. ودخل مكة ، وقتل الناس في المسجد الحرام ، ومنع الناس من الحج ، واقتلع الركن وراح به إلى الأحساء ، وقال في ذلك شعراً :

ولو كان هذا البيت لله ربنا لصب علينا النار من فوقنا صبا

لأنا حججنا حجة جاهلية ... محللة لم نبق شرقاً ولا غربا
وإنا تركنا بين زمزم والصفا ... جنائز لا تبغي سوى ربها ربا

وله لعنه الله أشعار بالقدر في ذلك تركتها اختصاراً، وكان دخوله مكة سنة سبع عشرة وثلاثمائة وقتل فيها ثلاثة عشر ألفاً عليه لعنة الله.

انتهى من كتاب كشف الأسرار الباطنية وأخبار القرامطة، المطبوع بمصر ١٣٥٧ على حساب ناشره ومصححه السيد عزت العطار، وهو كتاب يقع في أربع وأربعين صحيفة، ونحن نقلنا من صحيفة ١١ إلى صحيفة ٢١ وتركنا الباقي حتى لا يطول بنا الكلام.

وضع الأطواق على الحجر الأسود

سبب وضع الأطواق الفضية على الحجر الأسود وربطه بالفضة الخالصة، هو حصول تصدع وتشطيب فيه وكان أول حدوث ذلك في أيام خلافة ابن الزبير رضي الله تعالى عنهما بسبب حريق الكعبة المعظمة الذي حصل في أيام الحصار، وذلك أن رجلاً أوقد ناراً في بعض الخيام المضروبة في المسجد الحرام فطارت شرارة في الخيمة فمشى الحريق حتى أخذ في كسوة الكعبة فاحترقت واحترق الركن الأسود أيضاً وذلك سنة (٦٤) أربع وستين هجرية، فتصدع الحجر الأسود بثلاث فرق، فربطه ابن الزبير بالفضة، ثم وقع على الركن جملة حوادث مما تقدم ذكرها زادت من تصدعه وتفلقه، لذلك كان أمراء المؤمنين والسلاطين الأقدمون لا يلمسون الحجر الكريم في عمارتهم للكعبة إلا برفق وحذر، حتى أنه في عمارة السلطان مراد الرابع التي حصلت سنة (١٠٤٠) تركوا الحجر الأسود في محله خوفاً من تفرق أجزائه وأحكموا البنيان حوله إحكاماً.

هذا سبب وضع أطواق الفضة على الحجر الأسود، ولنذكر هنا عدد ما وضع عليه من الأطواق واسم واضعها غير ناظرين إلى اختلاف أشكالها ووزن أحجامها فنقول وبالله التوفيق:

١- عبدالله بن الزبير رضي الله عنه: وهو أول من ربط الحجر بالفضة لما أصابه الحريق في عهده سنة (٦٤) أربع وستين من الهجرة.

٢- هارون الرشيد : وذلك عندما اعتمر سنة (١٨٩) تسع وثمانين ومائة من الهجرة حيث تزلزلت الفضة التي حول الركن ، فأمر بالحجارة التي بينها الحجر الأسود أن تنقب فنقبت بالماس من فوقها ومن تحتها ثم أفرغ فيها الفضة .

٣- القرامطة : فإنهم لما أتوا مكة في سابع ذي الحجة سنة (٣١٧) سبع عشرة وثلاثمائة وفعلوا بها أموراً منكرة عظيمة ، قلعوا الحجر الأسود من موضعه ، ضربه أحدهم بدبوس فقلعه من محله لأربع عشر خلت من ذي الحجة من السنة المذكورة فذهبوا به إلى بلادهم ، ثم في يوم النحر سنة (٣٣٩) تسع وثلاثين وثلاثمائة ردوه إلى محله ، وافى به سنبر بن الحسن القرمطي ، فإنه لما جاء بفناء الكعبة ومعه أمير مكة أظهر الحجر الأسود من سفط (وهو وعاء كالقفة) وعليه ضبة فضة قد عملت من طوله وعرضه تضبط الشقوق التي حدثت عليه بعد اقتلاعه ، فوضع سنبر الحجر بيده في محله وشده الصانع بالجص الذي أحضره معه لهذا الغرض ، ثم قال سنبر : أخذناه بقدرة الله ورددناه بمشيئة الله .

٤- سدنة الكعبة : ثم في سنة (٣٤٠) ثلاثمائة وأربعين من الهجرة أي بعد إرجاع سنبر الحجر الأسود ببضعة أشهر قلعه الحجبة آل الشيبي وعملوا له طوقاً من فضة أحكموه عليه إحكاماً وكان فيه ثلاثة آلاف وسبعة وتسعون درهماً ونصف من الفضة .

٥- وفي سنة (٥٨٥) خمس وثمانين وخمسمائة أخذ أمير مكة داود بن عيسى بن فليته الحسني طوق الحجر الأسود قبيل عزله من مكة ولم نقف نحن على من وضع بدله طوقاً آخر .

٦- وفي سنة (١٠٩٧) سبع وتسعين وألف في أوائل ربيع جعل شيخ الحرم «ولم نعرف اسمه» على الحجر الأسود طوقاً من الفضة ، والظاهر أن أحمد باشا الذي أصلح الشاذروان وأمر بالحجر السماق فوضع تحت الركن الأسود مما يلي الأرض كما جاء بصحيفة ١٤٧ من تاريخ الكعبة .

٧- السلطان عبد المجيد خان : أرسل في سنة (١٢٦٨) ثمان وستين ومائتين وألف طوقاً من الذهب الخالص للحجر الأسود وزنه نحو عشر أقات فجعلوه عليه بعد أن قلعوا الطوق القديم ، وقد كان في غاية الإتقان من النقش والزخرفة وكتب عليه آية الكرسي وغيرها من الآيات وهذه أول مرة طوق الحجر الأسود بالذهب .

٨- السلطان عبد العزيز خان : أرسل في سنة (١٢٨١) إحدى وثمانين ومائتين وألف طوقاً من الفضة فجعل على الحجر الأسود بعد أن قلع الطوق الذهب المذكور .

٩- السلطان محمد رشاد خان : أرسل في سنة (١٣٣١) إحدى وثلاثين وثلاثمائة وألف من الهجرة طوقاً من الفضة فجعل على الحجر الأسود ، وقد بقي هذا الطوق على الحجر إلى سنة (١٣٧٥) هجرية .

١٠- مليكنا المعظم ، الملك سعود بن عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل الفيصل آل سعود ملك المملكة العربية السعودية : أمر حفظه الله تعالى بعمل طوق جديد من الفضة الخالصة ، ففي يوم الأربعاء الثاني والعشرين من شهر شعبان قبيل صلاة المغرب وضع هذا الطوق الملك سعود المذكور بيده الكريمة على الحجر الأسود وقد كنت أنا محمد طاهر الكردي مؤلف هذا الكتاب واقفاً بجواره ممسكاً بالطوق الجديد لتثبيته على الركن الأسود بعد أن قلعنا الطوق الفضي القديم الذي كان وضعه السلطان محمد رشاد خان المذكور .

ولا يفوتنا أن نسجل في تاريخنا هذا أن والد الملك سعود المذكور الملك عبدالعزيز آل سعود مؤسس الدولة السعودية رحمه الله تعالى وأحسن مثواه ، كان قد أصلح جزءاً في طوق الحجر الأسود القديم الذي قلعناه وذلك سنة (١٣٦٦) هجرية وبالدعاء بالرحمة والغفران لهذا الملك الراحل الصالح المصلح ، وبالتوفيق والعز والتأييد لابنه العظيم مليكنا الملك سعود نختم هذا الفصل ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ، سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين .

تطويق الحجر الأسود بالذهب والفضة

أول من طوق الحجر الأسود بالفضة عبدالله بن الزبير رضي الله عنه وسببه أن الكعبة احترقت في أيامه ، فاحترق الركن الأسود معها ، وانصدع ثلاث فرق ، فشده ابن الزبير بالفضة . روى أبو عون عن أبيه قال : رأيت الحجر قد انفلق واسود من الحريق فأنظر إلى جوفه أبيض كأنه الفضة ، قال ابن جريج: فسمعت من يصف لون مؤخره الذي في الجدر ، قال بعضهم: هو مورد ، وقال بعضهم: هو أبيض ، ثم في سنة ألف ومائتين وثمان وستين هجرية طوقه بالذهب السلطان

عبد المجيد خان ، وهي أول مرة طوق الحجر الأسود بالذهب ، ثم في سنة ألف ومائتين وإحدى وثمانين طوقه بالفضة السلطان عبدالعزيز خان ، ثم في سنة ألف وثلاثمائة وإحدى وثلاثين غيرت تلك الفضة بالفضة التي هي عليه الآن وذلك في زمن السلطان محمد رشاد خان ، رحمه الله تعالى ثم جرى إصلاح في طوق الحجر ، وذلك سنة ألف وثلاثمائة وست وستين هجرية ، وإليك صورة الحجر الأسود وهو مطوق بالفضة ، وهو علة قطع كما هو ظاهر في الرسم .

انظر: صورة رقم ٨٨، للحجر الأسود أخذت منذ أربعين سنة تقريباً

وقد تكسر لاعتداء بعض المجرمين عليه عدة مرات كما جاء ذلك في التواريخ ، وقد ظهرت منه في هذه الصورة خمسة عشر قطعة ، ولكن الذي هو ظاهر منه في أيامنا هذا قطع قليلة وسببه اعتداء بعضهم عليه في عصرنا الحاضر أيضاً فتطايرت منه شظايا عندئذٍ . ثم جمع ما تكسر وخلط ببعض الأجزاء من نحو الشمع وأعيد إلى موضعه ، بعد أن لقي المعتدي الجزاء الصارم . لهذا أحيط هذا الحجر الكريم بالفضة صوناً له و لم يترك منه إلا بعض قطع صغار يقبله الناس . على أن نفس الحجر الأسود بأكمله داخل في بناء الكعبة المشرفة .

نقول : وللحجر الأسود مغزى خاص ورمز تعبدي وحكمة بالغة ، ذلك أن المسلمين الذين يأتون لأداء فريضة الحج وشهود المنافع في تلك البقاع الطاهرة ، إذا طافوا ببيت الله الحرام وقبلوا هذا الحجر الأسود واستلموه بأيديهم ، فكأنهم بذلك يصافحون الله عزوجل ، ويقدمون له الطاعة والإيمان به وبرسوله . وقد قال عكرمة : « إن الحجر الأسود يمين الله في الأرض ، فمن لم يدرك بيعة رسول الله ﷺ فمسح الحجر فقد بايع الله ورسوله » وفي هذا نهاية الخضوع والامتثال لأمر الله تعالى .

وفي الطواف بالبيت واستلام الحجر الأسود إشعار بالوحدة الإسلامية واستمساك بالرابطة المحمدية فالمسلمون في حالة البعد يتوجهون في صلاتهم إلى هذه القبلة الحرمية ، وفي حالة القرب والوصول يطوفون حولها يعوذون برب هذا البيت ويلتفون حول ركنه الأسود القائم في السلام مقام الراية في الحرب ولسان حالهم يقول : ﴿ واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون ۞ ولتكن منكم

أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون﴾ .

وفي تقبيل المسلمين واستلامهم للحجر الأسود نقطة دقيقة ، وهي أن تقع أفواههم موضع فم رسول الله ﷺ وأن تلمس أيديهم ما لمسته يده الشريفة من هذا الحجر المكرم ، وأي مسلم إذا خطرت بباله هذه النقطة لا يبادر بتقبيله واستلامه ؟ ..

المحافظة التامة على قطع الحجر الأسود إن كسر منه شيء

(واعلم) بأنه لو اعتدى سفيه أو مخبول على الحجر الأسود المكرم ، فضربه بشيء حتى انكسر منه بعضه ، فإنهم يحافظون على تلك الأجزاء والفتات تمام المحافظة ، بأن يعجنوه بمواد من الشمع الأحمر والعطر وبعض الأجزاء فيضعونه في محله أيضاً ، فما كان منه متفتتاً أو قطعاً صغيرة كالنواة مثلاً يعجن ولا يظهر منه شيء ثم يلصق بمحل الحجر الأسود فيرجع إليه ، وما كان منه قطعاً كبيرة كالليمونة مثلاً فيعجن ويوضع في محله أيضاً لكنهم يبرزون منه جزءاً ليكون ظاهراً للناس ليقبلونه ، فهذا هو سبب ظهور بعض القطع من الحجر الأسود ، مع العلم بأن جرم الحجر الأسود كله داخل في باطن ركن الكعبة المعظمة ، ولذلك يختلف ظهور أجزاء الحجر الأسود المتكسرة في بعض الأزمنة .

شاذَروان الكعبة

قال في المصباح المنير ما نصه:

الشاذَرْوان (بفتح الذال) من جدار البيت الحرام وهو الذي تُرك من عرض الأساس خارجاً ويسمى تأزيراً لأنه كالإزار للبيت . انتهى منه .

فالشاذروان الموجود الآن في داخل بناء الكعبة المشرفة هو من بناء السلطان مراد الرابع عند بنائه الكعبة سنة (١٠٤٠) ألف وأربعين هجرية كما تقدم تفصيل ذلك ، وليس مرادنا أن السلطان المذكور هو الذي اخترع وضع الشاذروان في الكعبة ، بل إن الشاذروان كان موجوداً منذ القدم في البناية السابقة كما سيأتي بيان ذلك مفصلاً في هذا المبحث إن شاء الله تعالى.

فالشاذروان : هو الحجارة المائلة الملتصقة بأسفل الكعبة المحيطة بها من جوانبها الثلاثة ، أما الجانب المقابل لحجر إسماعيل ففيه كدرجة واحدة مسطحة يقف عليها بعضهم للتضرع والدعاء ملصقاً بطنه بالكعبة ورافعاً يديه فوق رأسه ، وهي بطول جدارِ الكعبة وارتفاعها عن الأرض أحد عشر سنتيمتراً وعرضها أربعون سنتيمترا . واختلف في الشاذروان هل هو من البيت أم لا كما سيأتي الكلام عنه .

والسبب الذي لم يوضع الشاذروان في هذه الجهة هو أن هذه الجهة من جدار الكعبة إلى نحو منتصف حجر إسماعيل هي حدودها حينما بناها سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام فنقصتها قريش حين بنائها . وكذلك لم يوضع الشاذروان أسفل باب الكعبة بل فيه كدرجة واحدة مسطحة أيضاً يقف عليها الناس للتضرع في الملتزم وطول هذه الدرجة ثلاثة أمتار وخمس وأربعون سنتيمتراً.

ونحن لم نر في التاريخ شيئاً مذكوراً عن أول من عمل الشاذروان للكعبة المشرفة ، ولكن الأستاذ البتنوني ذكر في "رحلته الحجازية" عند الكلام على شكل الكعبة بصحيفة ١٠٥ شيئاً عن الشاذروان ننقله هنا بنصه ، قال رحمه الله تعالى :

"والشاذروان معناه ما يحيط بالسلسبيل ، وكانوا يطلقونه في العمارات المصرية القديمة على محيط النافورات التي كانت في وسط القاعات الكبرى ، وعلى ظني أنه هنا من أثر عمارة الحجاج ، أقامه ليقي جدار البيت المعظم من تأثير الأمطار والسيول التي كانت ولا تزال تنزل بكثرة إلى المطاف ، ودليلنا على ذلك إنما هو لفظه الفارسي الذي لا بد أن يكون من وضع عملة من الفرس استحضرهم الحجاج بن يوسف لعمارتها . ولا يبعد أن يكون ذلك من عهد ابن الزبير ، ويؤيده ما ورد في الأغاني من أن ابن سريج سئل عمن تعلم الغناء على القاعدة التي كان يغني عليها مع أنها ما كانت معروفة عند العرب ، فقال : إنه تعلمها من عملة الفرس كان ابن الزبير استحضرهم لبناء الكعبة ، وكانوا يتغنون بأغنية لطيفة فأخذها عنهم وأضاف نغماتها على النغمات العربية وغنى بها . وعلى كل حال فالشاذروان والميزاب لفظان أعجميان ، ولم يرد ذكرهما على مدته ﷺ". انتهى ما أورد الأستاذ محمد لبيب البتنوني في الرحلة الحجازية .

قال العلامة ابن خلدون في مقدمته عن الشاذروان ، عند الكلام على المساجد والبيوت العظيمة في العالم ما يأتي:

ويعرض هنا إشكال قوي، لمنافاته لما يقوله الفقهاء في أمر الطواف، ويحذر الطائف أن يميل على الشاذروان الدائر على أساس الجدر من أسفلها، فيقع طوافه داخل البيت بناء على أن الجدر إنما قامت على بعض الأساس وترك بعضه وهو مكان الشاذروان، وكذا قالوا في تقبيل الحجر الأسود لا بد من رجوع الطائف من التقبيل حتى يستوي قائماً لئلاً يقع بعض طوافه داخل البيت، وإذا كانت الجدران كلها من بناء ابن الزبير وهو إنما بنى على أساس إبراهيم، فكيف يقع هذا الذي قالوه؟.

ولا مخلص من هذا إلا بأحد أمرين: إما أن يكون الحجاج هدم جميعه وأعاده وقد نقل ذلك جماعة، إلا أن العيان في شواهد البناء بالتحام ما بين البناءين وتمييز أحد الشقين من أعلاه عن الآخر في الصناعة يرد ذلك، وإما أن يكون ابن الزبير لم يردّ البيت على أساس إبراهيم من جميع جهاته، وإنما فعل ذلك في الحجر فقط ليدخله فهي الآن مع كونها من بناء ابن الزبير ليست على قواعد إبراهيم، وهذا بعيد ولا محيص من هذين والله تعالى أعلم. انتهى من مقدمة ابن خلدون.

أما بناء الشاذروان وأنه من نفس البيت: فلم نر من تكلم عنه الكلام الشافي من العلماء والمؤرخين، فبعضهم قال أنه من الكعبة، وبعضهم قال ليس من الكعبة كما سيظهر فيما سيأتي.

والذي نجنح إليه أن الشاذروان من الكعبة، ونستدل على هذا بما جاء في تاريخ الإمام الأزرقي المتوفى في النصف الأول من القرن الثالث للهجرة، فقد قال عند ذكر بناء عبدالله بن الزبير رضي الله عنهما ما نصه: فلما هدم ابن الزبير الكعبة وسواها بالأرض كشف عن أساس إبراهيم فوجدوه داخلاً في الحجر نحواً من ستة أذرع وشبر كأنها أعناق الإبل آخذ بعضها بعضاً كتشبيك الأصابع بعضها ببعضٍ يحرك الحجر من القواعد فتتحرك الأركان كلها، فدعا ابن الزبير خمسين رجلاً من وجوه الناس وأشرافهم وأشهدهم على ذلك الأساس، قال: فأدخل رجل من القوم يقال له عبدالله بن مطيع العدوي عتلة كانت في يده في ركن من أركان البيت فتزعزعت الأركان جميعاً، ويقال: أن مكة كلها رجفت رجفة شديدة حين زعزع الأساس وخاف الناس خوفاً شديداً حتى ندم كل من كان أشار على ابن الزبير بهدمها وأعظموا ذلك إعظاماً شديداً وأسقط في أيديهم. فقال لهم ابن الزبير: اشهدوا. ثم وضع البناء على ذلك الأساس ووضع

حدات الباب باب الكعبة على مدماك علـى الشـاذروان اللاصـق بـالأرض وجعـل الباب الآخر بإزائه في ظهر الكعبة مقابله وجعل عتبته على الحجر الأخضر الطويـل الذي في الشاذروان الذي في ظهر الكعبة قريباً من الركـن اليمـاني وكـان البنـاؤون يبنون من وراء الستر والناس يطوفون مـن خـارج، فلمـا ارتفـع البنيـان إلى موضـع الركن ... إلى آخر الكلام . اهـ.

وقال في تاريخه أيضاً عند الكلام على سيول وادي مكة في الجاهلية مـا نصـه : عن محمد بن عبدالعزيز أن وادي مكة سال في الجاهلية سيلاً عظيمـاً وخزاعـة تلـي الكعبة وأن ذلك السيل هجم على أهل مكة فدخل المسجد الحرام وأحاط بالكعبـة ورمى بالشجر بأسفل مكة وجاء برجل وامرأة ميتين فعرفـت المرأة كـانت تكـون بأعلا مكة يقال لها "فارة" ولم يعرف الرجل، فبنت خزاعة حول البيت بناء أداروه عليه وأدخلوا الحجر فيه ليحصنوا البيت من السيل، فلم يزل ذلك البناء على حالـه حتى بنت قريش الكعبة، فسمي ذلك السيل سيل فارة وسمعت أنها امرأة مـن بـني بكر . اهـ.

فعلى هذا يكون أصل الشـاذروان مـن عمـل خزاعـة وحـذت قريـش حذوهـا فأبقت الشاذروان حين بنائها الكعبة . وا لله تعالى أعلم .

انتهى كل ذلك من تاريخ الإمـام الأزرقـي رحمـه ا لله تعـالى وجـزاه عنـا خـير الجزاء لتأليفه هذا التاريخ المهم عن أخبـار مكـة الـذي أصبـح عمـدة لـدى العلمـاء والمؤرخين .

ونستنتج من كلام الأزرقي جملة أمور، منها :

(١) أن أصل الشاذروان هو من عمل خزاعة حينما كـان أمـر الكعبـة إليهـا، بنتـه حولها ليحصنوها من السيل وأن هذا البناء بقي علـى حالـه حتـى بنـاء قريـش للكعبة .

(٢) أن الشاذروان كان في بناء عبدا لله بن الزبير رضي ا لله عنهما، بدون شـك، وأن الشاذروان اللاصق بالأرض هو على نفس الأسـاس الأول الـذي كشـفه ابن الزبير، وإن لم يأت ذكـره في بنـاء قريـش للكعبـة، والحجـاج الثقفـي لم يتعرض للشاذروان مطلقاً حينما هدم الكعبة، فإنه هدم منها ما زاده فيها ابـن الزبير وهو الجانب الذي من جهة حجر إسماعيل وسد البـاب الغربـي، ورفـع

الباب الشرقي عن الأرض كما كان في بناء قريش ، وترك بقية الكعبة على بناء ابن الزبير .

(٣) أن عتبة الباب الشرقي وعتبة الباب الغربي كانتا مرفوعتين عن الأرض بنحو شبر و لم تكونا متساويتين بالأرض ، كما هو ظاهر من صريح عبارة الأزرقي المتقدمة .

(٤) تأكد ابن الزبير من ظهور أساس إبراهيم عليه الصلاة والسلام ودعوته خمسين رجلاً من أشراف الناس وأعيانهم ليشهدوا على ذلك ، وهو ما يطلب شرعاً في كل أمر مهم ، نفياً عن التهمة والشك .

(٥) حجب البناء عن أعين الناس بوضع الستارة حول الكعبة والناس يطوفون من خارجها ، وفي ذلك فائدتان : ستر البناء من فضول أعين الناس حتى لا يحصل تهاون بحرمة الكعبة ، وقيام البناء على هدوء وسكينة بدون تشويش واعتراض.

ومثل هذا يحدث في عصرنا في البلدان الأخرى عند إقامة التماثيل وبناء الصور الرمزية ونحوهما .

(٦) اختيارهم عند بناء الكعبة الأحجار الثمينة الجميلة لوضعها فيها كما جاء في صريح العبارة "وجعل عتبته على الحجر الأخضر الطويل الذي في الشاذروان" وهم أهل القرون الثلاثة الأولى خير القرون ، ومنها أخذ الولاة والسلاطين أن يضعوا الأحجار الكريمة الثمينة على الكعبة وما حولها ، كالرخامة الخضراء تحت ميزاب الكعبة الموضوعة في سنة إحدى وأربعين ومائتين ، وكالرخامات الصفر الموضوعة بأعلى الشاذروان الذي فوق الحفرة التي عند باب الكعبة حين عمارة المطاف سنة إحدى وثلاثين وستمائة كما هو مكتوب على الحجر الأزرق الذي تحت الرخامات الصفر ، وكالحجر الأحمر الصغير الموضوع في باطن الحفرة المذكورة ، فمثل هذه الأشياء لم توضع إلا لقيمتها الثمينة ولندرة وجودها . وسنتكلم عنها إن شاء الله تعالى بعد هذا الفصل .

هذا ما ظهر لنا عن الشاذروان والله تعالى أعلم بالصواب ، ولا نظن أن أحداً كتب عنه بمثل ما كتبنا فالحمد لله على توفيقاته ونعمائه.

حكم الشاذروان بالنسبة للطواف

بقي علينا أن نذكر ما قاله العلماء والمؤرخون عن الشاذروان تكملة للبحث من جميع الوجوه :

فقد جاء في كتاب "الفقه على المذاهب الأربعة" للعلامة الشيخ عبدالرحمن الجزيري عند الكلام على تعريف القبلة ما نصه :

وليس من الكعبة الحجر ولا الشاذروان وهما معروفان لمن كان بمكة وسيأتي بيانهما في كتاب الحج إن شاء الله تعالى ، فمن كان بمكة واستقبل الحجر أو الشاذروان فأن صلاته لا تصح عند ثلاثة من الأئمة وخالف الحنابلة فانظر منهبهم تحت الخط (ثم ذكر منهبهم فقال): الحنابلة قالوا أن الشاذروان وستة أذرع من الحجر وبعض ذراع فوق ذلك من الكعبة ، فمن استقبل شيئاً من ذلك صحت صلاته .

انتهى من كتاب الفقه المذكور ، ولم يذكر في كتاب الحج عن الحجر والشاذروان إلا بيان حكم الطواف بالنسبة إليهما فلم نر ما يوجب نقل كلامه هنالك.

أما قول المؤرخين عن الشاذروان ، فهو يتلخص فيما ذكره المؤرخ الكبير الشيخ عبدالله الغازي في تاريخه ، وهذا نصه .

(الفائدة الخامسة) في ذكر شاذروان الكعبة : قال الفاسي في شفاء الغرام أما شاذروان الكعبة فهو الأحجار الملاصقة بالكعبة التي عليها البناء المسنم المرخم في جوانبها الثلاثة الشرقي والغربي واليماني وبعض حجارة الجانب الشرقي لا بناء عليه وهو شاذروان أيضاً .

وأما الحجارة الملاصقة بجدار الكعبة الذي يلي الحجر فليست شاذرواناً لأن موضعها من الكعبة بلا ريب .

والشاذروان هو ما نقصته قريش من عرض جدر أساس الكعبة حتى ظهر على الأرض كما هو عادة الناس في الأبنية أشار إلى ذلك الشيخ أبو حامد الإسفرائيني وابن الصلاح والنووي ونقل ذلك عن جماعة من الشافعية وغيرهم كالمحب الطبري

وذكر أن الشافعي أشار إلى ذلك في الأم ونقل عنه أنه قال : إن طاف عليه أعاد الطواف . انتهى .

وقد اختلف العلماء في حكم الشاذروان فذهب الشافعي وأصحابه إلى وجوب الاحتراز منه وعدم إجزاء طواف من لم يحترز منه وهو مقتضى مالك على ما ذكر ابن شاش وابن الحاجب وشارحه الشيخ خليل وتلميذه صاحب الشامل وغيرهم من متأخري المالكية وأنكر ذلك بعض متأخري المالكية و لم يثبته في المذهب .

ومذهب الحنابلة أن الاحتراز منه مطلوب إلا أن عدم الاحتراز لا يفسد الطواف .

ومذهب أبي حنيفة أنه ليس من البيت على مقتضى ما نقل القاضي شمس الدين السروجي من الحنفية عنهم وهو اختيار جماعة من محققي العلماء على ما ذكر القاضي عز الدين بن جماعة .

قال الفاسي : قلت : ينبغي الاحتراز منه لأنه إن كان من البيت كما قيل فالاحتراز منه واجب وإلا فلا محذور في ذلك كيف والخروج من الخلاف مطلوب وهو هنا قوي . وا لله أعلم .

قال : و لم أدر متى كان ابتداء البناء في الشاذروان و لم يبن مرة واحدة وإنما بني دفعات منها في سنة اثنين وأربعين وخمسمائة و لم أدر ما بني منه في هذه السنة ، ومنها في نيف وثلاثين وستمائة على ما ذكر ابن خليل في منسكه ومنها في آخر عشر الستين وستمائة أو في أوائل عشر السبعين وستمائة لأن القاضي بدر الدين بن جماعة ذكر أنه رأى الشاذروان في سنة ست وخمسين وستمائة وهي مصطبة يطوف عليها بعض العوام ورآه في سنة إحدى وستين وقد بني عليه ما يمنع من الطواف عليه على هيئته اليوم هكذا نقل عنه ولده عز الدين فيما أخبرني به عنه خالي .

وذكر القاضي عز الدين بن جماعة فيما أخبرني عنه خالي أيضاً أن ارتفاع الشاذروان عن أرض المطاف في جهة باب الكعبة ربع ذراع وثمن ذراع ، وعرضه في هذه الجهة نصف وربع ، وذكر الأزرقي أن طول الشاذروان في السماء ستة عشر إصبعاً وعرضه ذراع وقد نقص عرضه كما ذكر الأزرقي في بعض الجهات ، وأفتى المحب الطبري عالم الحجاز في وقته بوجوب إعادة مقداره على ما ذكره

الأزرقي وله في ذلك تأليف نحو نصف كراس سماه استقصاء البيان في مسألة الشاذروان . انتهى ما ذكره الفاسي .

وفي تحصيل المرام : وأخرج عبدالله بن الزبير لما بنى الكعبة الشاذروان وقيل : أخرجته قريش لأجل استمساك البناء وثباته . قال : فعلى هذا القول يكون الشاذروان من البيت وهو قول جمهور الشافعية وجمهور المالكية . وقال أبو حنيفة : إنه ليس من البيت لأنه لم يرد حديث صحيح أنه من البيت إلا من عموم قوله ﷺ لعائشة : إن قومك حين بنوا الكعبة اقتصروا على قواعد إبراهيم فقال الجمهور : إن الاقتصار شامل للحجر والشاذروان وخص أبو حنيفة الحجر دون الشاذروان . انتهى ما في تاريخ الغازي ، ومما تقدم يظهر للقارئ الكريم أصل الشاذروان وحقيقته .

عدد مرات بناء الشاذروان وإصلاحه

تقدم أن الشاذروان كان في بناء عبدالله بن الزبير رضي الله عنه ، والله تعالى أعلم كم مرة حصل في الشاذروان بناء أو إصلاح إلى زمن الإمام الأزرقي ، ومن زمنه إلى زمن التقي الفاسي وبينهما نحو ستمائة سنة كما قاله الشيخ حسين باسلامة صاحب تاريخ الكعبة المعظمة رحمهم الله جميعاً ، فيكون عدد مرات بناء الشاذروان وإصلاحه بعضه أو كله كما يأتي تقريباً :

١) كان الشاذروان في بناء عبدالله بن الزبير سنة أربع وستين هجرية .
٢) طلي على الشاذروان الجص والمرمر في أيام جد الأزرقي كما صرح بذلك في تاريخه في نهاية الجزء الأول.
٣) بني بعض الشاذروان في سنة (٥٤٢) كما قاله الفاسي .
٤) وقد بني أيضاً في سنة (٦٣٦) كما ذكره الفاسي أيضاً .
٥) وقد بني أيضاً في سنة (٦٦١) كما ذكره الفاسي أيضاً.
٦) وقد بني أيضاً في سنة (٦٧٠) تقريباً كما ذكره الفاسي أيضاً.
٧) وقد بني أيضاً في سنة (٨٣٨) عمّره سودون المحمدي كما ذكره ابن فهد.
٨) وقد بني أيضاً في سنة (٨٤٦) في شهر محرم كما ذكره ابن فهد أيضاً.
٩) وقد بني أيضاً في سنة (١٠٤٠) مع بناء الكعبة المشرفة زمن السلطان مراد رحمه الله تعالى وجزاه خير الجزاء ، وقد شرعوا في بناء الشاذروان في اليوم

الحادي عشر من شعبان من السنة المذكورة ، وأتموا بناءه في اليوم الثالث من رمضان من السنة المذكورة أيضاً .

١٠) وقد بني أيضاً في سنة (١٠٩٨) أصلحه أحمد باشا وأمر بالحجر السماق فوضع تحت الركن الأسود مما يلي الأرض ، كما ذكره السنجاري .

هذا مختصر ما وقفنا عليه في بناء وإصلاح شاذروان الكعبة سواء كان ذلك الجزء منه أو لجميعه ، وقد عددنا ذلك بالأرقام حتى الرقم العاشر ، ولكن ليس المراد أنه حصل البناء والإصلاح في الشاذروان عشر مرات - كلا - فربما كان أكثر من ذلك ، وإنما نحن لم نقف فيه على أكثر مما ذكرناه . وا لله تعالى أعلم بالغيب .

ولا يخفى أن صفة البناء تختلف في كل عصر وزمان ، وصفة بناء الشاذروان على الكعبة في زماننا هي معروفة ومشاهدة لأعيننا ، وأما صفته فيما مضى من عصر الصحابة فا لله تعالى أعلم بها ، وعلى أي صفة كان بناؤه فهو شاذروان ، وما ذكره الفاسي عند بنائه في أوائل عشر السبعين وستمائة بقوله : هي مصطبة يطوف عليها بعض العوام ثم بني عليه ما يمنع الطواف عليه على هيئة اليوم ، دليل على أن صفة بنائه كانت تختلف .

ونحن إلى يومنا هذا نستعمل عمل الشاذروان في غالب المنازل والبيوت الكبيرة من الخارج أي من الشارع صوناً لها من مياه الأمطار وعجلات العربات ، بل إننا نستعمله في جميع أماكن الوضوء المبلطة بالطبطاب وفي جميع الأحواض والحنفيات وهو الذي نسميه بلغة البنائين "الإفريز" بكسر الهمزة والراء وإسكان الفاء والزاي ، وطول هذا الإفريز في أماكن الوضوء ونحوها شبر واحد أو أقل ، وقد يكون أطول في بعض المحلات ، وهذا العمل شائع من قديم الزمان في الحجاز وفي غير الحجاز ، وهو موجود بمصر في زماننا هذا في جميع المساجد والجوامع عند أماكن الوضوء فهو كما يقول صاحب الرحلة الحجازية كان مستعملاً في العمارات المصرية القديمة على محيط النافورات .

مقاس الشاذروان وعدد حجارته وعدد الحلقات به

قال الإمام النووي في تهذيب الأسماء واللغات : الشاذروان هو بناء لطيف جداً ملصق بحائط الكعبة ، وارتفاعه عن الأرض في بعض المواضع نحو شبرين وفي

بعضها نحو شبر ونصف، وعرضها في بعضها نحو شبرين ونصف وفي بعضها نحو شبر ونصف . انتهى من تاريخ الكعبة .

وجاء فيه : وذكر إبراهيم رفعت باشا في مرآة الحرمين أن ارتفاع الشاذروان في الجهة الشمالية (٥٠) سنتيماً في عرض (٣٩) ومن الجهة الغربية ارتفاعه (٢٧) سنتيماً في عرض (٨٠) ومن الجهة الجنوبية ارتفاع (٢٤) سنتيماً في عرض (٨٧) ومن الجهة الشرقية ارتفاعه (٢٢) سنتيماً في عرض (٦٦) . انتهى من تاريخ الكعبة .

قال مؤلف مرآة الحرمين المذكور : وقد حققته بالمقاس من حجاتي الأربع "أي سنة ١٣١٨ و ١٣٢٠ و ١٣٢١ و ١٣٢٥ هجرية".

وحجارة الشاذروان في عصرنا الحاضر كلها من حجر الرخام الأبيض القوي الصلب، وهي متفاوتة الحجم منها الصغير والكبير والمتوسط، وقد بني الشاذروان على دفعات مراراً عديدة وعلى صفات مختلفة كما سيأتي بيانه إن شاء الله تعالى .

أما عدد حجارة الشاذروان التي حول الكعبة في القرن الثالث من الهجرة أي : في عهد الإمام الأزرقي فهو ثمانية وستون حجراً في ثلاثة من جوانبها كما ذكره في تاريخه "أخبار مكة" وقد بين بالتفصيل كل ذلك رحمه الله تعالى وجزاه عن المسلمين خيراً.

وأما عدد حجارته في عهدنا هذا فهو أربعة وستون حجراً بجعل الرخامات الصفر التي عددها ثمانية أحجار حجراً واحداً باعتبار أنها متلاصقة بجوار بعضها فحسبناها كالحجر الواحد، أما لو جعلناها كما هي ثمانية أحجار فإنه يكون عدد حجارة الشاذروان حينئذ واحداً وسبعين حجراً، وهذه الحجارات الصفر موضوعة بأعلى الحفرة التي عند باب الكعبة وسنتكلم عنها إن شاء الله تعالى بعد هذا الكلام وقد ذكرناها أيضاً في كتابنا "مقام إبراهيم عليه السلام" المطبوع بمطبعة مصطفى البابي الحلبي وشركاه بمصر القاهرة .

وأما حلقات الشاذروان فهي حلقات مثبتة قوية من النحاس الأصفر جعلت لربط كسوة الكعبة الخارجية فيها حتى لا تتحرك وترتفع بفعل الهواء، وعدد هذه الحلقات حول الكعبة في الشاذروان ثمانية وأربعون حلقة كما قاله المرحوم إبراهيم رفعت باشا في كتابه "مرآة الحرمين" والمذكور توفي في عهدنا هذا قريباً رحمه الله تعالى .

أما عدد هذه الحلقات في أيامنا فهو إحدى وأربعون حلقة وقد نقصت هذه الحلقات عن أيام مؤلف مرآة الحرمين المذكور لتقادم العهد عليها فتتخلخل عن أماكنها ثم تخرج ولا يوضع بدلها ، ومحلات الحلقات الخارجة ثابتة واضحة في حجارة الشاذروان .

وقد وفقنا الله لعد حجارة الشاذروان وعد الحلقات الموجودة بها ، في يوم السبت حادي عشر محرم الحرام عام ألف وثلاثمائة وستة وسبعين من الهجرة فنحمد الله على توفيقاته المتوالية ونعمائه المتتالية ونسأله المزيد من كل ذلك بفضله ومنه ورحمته وإحسانه إنه حليم كريم وبر رحيم .

الرخامات الصفر التي بالشاذروان

موضوع على شاذروان الكعبة بأعلى الحفرة التي عند باب الكعبة ، رخامات صفر نفيسة جداً ، نادرة الشكل والمثال ، لونها لا يضرب إلى الصفرة الخالصة وإنما هو أصفر مائل إلى الحمرة قليلاً ، تتخللها نقوش بديعة جداً ، لونها أصفر فاقع أكسب الرخامات حسناً وجمالاً ، كل ذلك من أصل الخلقة .

وهذه الرخامات ثمانية أحجار ، متقاربة الأحجام ، متلاصقة ببعضها كل حجر منها مستطيل الشكل أكبرها طوله ٣٣ سنتيمتراً ، وعرضه ٢١ سنتيمتراً ، وكلها مرصوصة وموضوعة بأعلى الشاذروان في محل على هيئة المربع ، طوله ٧٤ سنتيمتراً وكذلك عرضه .

والظاهر أنها وضعت في محلها فوق الشاذروان حين عمارة المطاف التي كانت سنة إحدى وثلاثين وستمائة حسبما هو مكتوب بالنقر على الحجر الأزرق الذي تحت الرخامات الصفر وهو حجر ثمين من الرخام الأزرق الصافي ، طوله ٦٩ سنتيمتراً ، وعرضه ٣٢ سنتيمتراً فيكون قد مضى على هذه الرخامات الصفر والرخامة الزرقاء إلى عامنا هذا ، عام ١٣٨٧ من الهجرة (٧٥٦) سنة . والله تعالى أعلم .

انظر: صورة رقم ٨٩، للثمانية الأحجار الصفر الظاهرة

فهذه الرخامات الصفر التي على الشاذروان تكون من أفخم الآثار العربية وأغلاها وأندرها ، فلو لم تكن من القدر والقيمة بمكان لما وضعها ولاة الأمر

الأقدمون في أشرف بقعة عند الكعبة المعظمة ، وهم أهل القرون الثلاثة الأولى ، فكانوا أعرف منا بنفائس الأشياء وجواهرها واختيار الأمكنة لحفظها وصيانتها وكانت أعمالهم الجليلة في غاية من الجودة والإتقان تمر عليها مئات السنين والأعوام ، وهي على حالها ما أصابها تلف ولا خراب ولا تتزحزح عن مكانها .

ونحن لم نقم بالكشف عما يوجد بالحجر والمطاف من الرخام النادر الوجود ، فلو قمنا وبحثنا لعثرنا على أشياء ثمينة جداً مما يدلنا على عناية الملوك والسلاطين الأقدمين بهذا المكان المقدس والبقعة الطاهرة المباركة ، وما ذكرنا هذه الرخامات الصفر إلا للمناسبة .

وقبل أن نختم هذا الفصل نشير إلى قيمة الرخامات الصفر عند ذوي الخبرة من رجال الآثار القديمة ، فإننا لا نبالغ إن قلنا : أن قيمة بعضها قد تبلغ نحواً من ألف جنيه مصري بل أكثر .

ولا نعتقد أن أحداً ممن كان قبلنا ولا ممن هو في عصرنا التفت إلى هذه الرخامات ، ولا توصل إلى ملاحظاتنا فيها ، هذه الملاحظات الدقيقة الفنية فالحمد لله على التوفيق .

واعلم أنه كان بعض رخامات صفراء وخضراء وحمراء وغيرها من الرخامات الثمينة النادرة الوجود في الدنيا موجودة في داخل الكعبة المشرفة ، على أرضها وعلى جدرانها إلى سنة (١٣٧٧) ألف وثلاثمائة وسبع وسبعين هجرية . فلما كان في هذه السنة حصل تجديد سقف الكعبة المشرفة كما حصل فرش أرض الكعبة المشرفة من الداخل بالرخام فهذا الفرش غطى على بعض الرخامات الثمينة في أرض الكعبة المشرفة ، مع العلم بأن جميع أحجار الشاذروان الرخامية البيضاء الصلبة القوية النادرة الوجود هو من عمل وبناء السلطان مراد الرابع من سلاطين آل عثمان الأتراك .

فإنه رحمه الله تعالى بنى الشاذروان عندما بنى الكعبة المعظمة سنة (١٠٤٠) ألف وأربعين هجرية . رحمه الله تعالى ورضي عنه وجعل الجنة مسكنه ومأواه بفضله ورحمته آمين .

ونرى أن الحكمة من وجود الشاذروان بأسفل الكعبة المعظمة ، والله تعالى أعلم ، أولاً أن تكون بناية بيت الله الحرام بكيفية خاصة تمتاز عن بقية بناء بيوت البشر ، وثانياً أن وجود الشاذروان بأسفل الكعبة يمنع من التصاق الطائفين بالبيت

الحرام ، وهذا هو الأدب اللائق بالطائفين الكرام ، ولو لم يكن الشاذروان موجوداً بالكعبة لالتصق الطائفون بها واحتكوا بكسوتها أشد الاحتكاك ، عند كثرة الزحام وقت الطواف ، وهذا يؤدي حتماً إلى تمزق كسوتها تمزقاً بالغاً ، وليس ذلك من اللائق ببيت الله الحرام.

هذا ما نراه من الحكمة ، والله تعالى أعلم بالغيب .

مع العلم بأن حجارات هذا الشاذروان هي من حجارة المرمر الأصلية القوية والمتينة جداً وفي هذا الشاذروان بعض قطع من حجاراته الصفراء تعد تحفة نادرة لا يوجد مثلها لدى الملوك مطلقاً ، لأنها منقوشة نقشاً طبيعياً ومزخرفة زخرفة خلقية من وسطها وأعماقها ، وعدد هذه الحجارة ثمانية وهي واقعة فوق الشاذروان بجوار باب الكعبة . وقد تكلمنا عنها بالتفصيل في الجزء الثالث من هذا الكتاب (صفحة ١٧) كما تكلمنا عنها في كتابنا المطبوع "مقام إبراهيم عليه الصلاة والسلام" .

قال الله سبحانه وتعالى : ﴿وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمناً واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى﴾ ، قال بعضهم عند هذه الآية : يحتمل أن تكون من تبعيضية أو زائدة في الإثبات على مذهب الأخفش أو بمعنى في ، وكل بعيد ، والأقرب أنها بمعنى عنْدَ . اهـ . والمقام هو بفتح الميم من قام يقوم : موضع القيام ، وأما المقام بالضم فهو من أقام يقيم .

واختلفوا في المراد بالمقام فقيل : المسجد كله مقام إبراهيم ، وقيل : الحرم كله مقام إبراهيم وقيل: جميع مشاهد الحج كمنى ومزدلفة وعرفة ، وقيل : المقام هو الحجر الذي وضعته زوجة إسماعيل تحت قدم إبراهيم عليه السلام حين غسلت رأسه ، وقيل : مقام إبراهيم هو الحجر الذي قام عليه إبراهيم عليه السلام عند بناء الكعبة ، وكان يرتفع به كلما ارتفع البناء وإلى هذا أشار صاحب نظم عمود النسب بقوله :

وكلما طال البناء ارتفعا ... به المقام في الهوا ورفعا
به القواعد وفيه قدم ... تشبهها للهاشمي قدم
وحين بالحج الخليل أذنا ... وفي كلا أذنيه إصبعاً ثنى
أيضاً كأطوال الجبال ارتفعا ... به وكل من يحج أسمعا

فهذا القول الأخير هو الصحيح المعول عليه حيث يفهم من الآية أنه مقام مخصوص وذلك بالنظر إلى الأمر بالصلاة عنده، أما بالنظر إلى معناه اللغوي فإنه يصدق بجميع الأماكن التي قام عليها إبراهيم عليه السلام، ومن تأمل قوله تعالى: ﴿إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً وهدى للعالمين ۝ فيه آيات بينات مقامُ إبراهيم﴾ وقوله تعالى: ﴿واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى﴾ ظهر له ذلك جلياً.

ويؤيد صحة هذا القول الأخير: ما حدث جابر عن حجة النبي ﷺ قال: "لما طاف النبي عليه الصلاة والسلام قال له عمر: هذا مقام أبينا قال: نعم. قال: أفلا نتخذه مصلى؟ فأنزل الله عز وجل: ﴿واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى﴾. وفي رواية: "أن رسول الله ﷺ مر بالمقام ومعه عمر، فقال: يا رسول الله أليس هذا مقام أبينا إبراهيم قال: بلى، أفلا نتخذه مصلى؟ قال: لم أؤمر بذلك فلم تغب الشمس حتى نزلت الآية". وفي البخاري عن أنس بن مالك قال: قال عمر بن الخطاب: "وافقت ربي في ثلاث أو وافقني ربي في ثلاث قلت: يا رسول الله لو اتخذت مقام إبراهيم مصلى فنزلت: ﴿واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى﴾ ...الخ الحديث". وعن جابر أنه قال: "استلم رسول الله ﷺ الركن، فرسل ثلاثاً ومشى أربعاً، ثم نفذ إلى مقام إبراهيم فقرأ: ﴿واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى﴾ فجعل المقام بينه وبين البيت فصلى ركعتين".

قال ابن كثير في تفسيره: وهذا قطعة من الحديث الطويل الذي رواه مسلم في صحيحه من حديث حاتم بن إسماعيل.

فالخلاصة: أن مقام إبراهيم عليه السلام هو الحجر الذي كان يقوم عليه لبناء البيت الحرام لما ارتفع جداره، وكان إسماعيل يناوله الحجارة فيضعها بيده وكلما كمل ناحية انتقل إلى الناحية الأخرى يطوف حول الكعبة وهو واقف عليه حتى انتهى إلى وجه البيت.

ونحن نجزم بهذا القول جزماً أكيداً لأمرين:

(الأمر الأول): لقد أجمعت الأمة المحمدية أن المراد بآية: ﴿واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى﴾ أن يكون حجر المقام الموجود الآن بقرب بئر زمزم أمام الكعبة بين المصلى وبين الكعبة وهذا المقام هو الذي غاصت فيه قدما إبراهيم الخليل صلوات الله وسلامه عليه كما هو ظاهر عند رفع الستارة التي تغطيه.

(والأمر الثاني) : أن حجر المقام هذا هو الذي كان يرتفع بإبراهيم ﷺ حين بنائه الكعبة كما جاء ذلك صريحاً في صحيح البخاري في كتاب بدء الخلق بعد باب قصة يأجوج ومأجوج وهو أمر معقول ومعجزة واقعة في محلها ، وذلك أن طول إبراهيم الخليل كان كأمثالنا فلو لم يجعل الله له هذا المقام المقدس معجزة يرتفع ويمشي به في الهواء كيفما شاء سيدنا إبراهيم حين البناء فكيف كان يكمل بناء البيت إذا ارتفع جدرانه عن القامة وليس عنده سلم يقف عليه ولا أخشاب أو أدوات النجارة ليعمل له كرسياً أو مصعداً يصعد عليه ويبني فإن الدنيا كانت في أوائل عهدها لم تتقدم في وسائل العمران بعد .

فما دام البيت بيت الله عز وجل فهو ييسر لخليله سبيل البناء وقد جعل له هذا المقام بمنزلة سقالة البنائين يتوصل به إلى ما ارتفع عنه من الجدار ليتمم بناءه تكرمة ومعجزة لخليله وصفيه وقد ألان له حجر المقام حتى غاصت فيه قدماه معجزة أخرى وليكون ذلك آية ودلالة تبقى إلى يوم القيامة في محله الأول عند بيته المحرم ونستدل من أثر القدمين في المقام أن سيدنا إبراهيم لم يكن يلبس نعلاً في رجليه عند بناء البيت والله تعالى أعلم بالغيب .

فعلم مما ذكر أن المراد بالمقام الحجر الذي قام عليه إبراهيم عليه الصلاة والسلام لبناء البيت لا الحجر الذي وضعته زوجة ابنه إسماعيل تحت قدمه حين غسلت رأسه .

فالسنة: أن تكون الصلاة خلف المقام بأن يكون المقام بين المصلي والكعبة ، ولا تشترط مقابلة عينه ومحاذاته ، لأن حجم المقام الذي هو الحجر صغير نحو ذراع لا يكفي أن يكون مصلى لشخص واحد ، فمن صلى وراء المقام فقد أتى بالسنة وإن لم يقف خلف الحجر بالتمام ، لأن ما قارب الشيء يعطى حكمه ، فهذا كالإمام والمأمومين فهؤلاء وهم جمع كبير يطلق عليهم أنهم صلوا كلهم وراء الإمام . فلو اشترطنا على المصلي مقابلة عين الحجر للزم أن يصلي الناس خلفه فرداً فرداً لصغره ، وفي ذلك من الحرج والمشقة ما لا يخفى .

انظر: صورة رقم ٩٠ ، مقام إبراهيم عليه الصلاة والسلام

ولقد نزل المقام والركن مع أبينا آدم عليه السلام من الجنة وهما ياقوتتان من يواقيتها ، فقد روى الترمذي وأحمد والحاكم وابن حبان أن رسول الله ﷺ قال :

"إن الركن والمقام ياقوتتان من ياقوت الجنة طمس الله تعالى نورهما ، ولو لم يطمس نورهما لأضاءتا ما بين المشرق والمغرب" .

ولقد كان من معجزات إبراهيم عليه السلام أن صار الحجر تحت قدميه رطباً فغاصت فيه قدماه ، وقد بقي أثر قدميه ظاهراً فيه من ذلك العصر إلى يومنا هذا وإن تغير عن هيئته الأصلية بمسح الناس بأيديهم قبل وضع الحجر في المقصورة النحاسية ، والعرب تعرف ذلك في جاهليتها قال أبو طالب عم النبي ﷺ في قصيدته اللامية المشهورة التي قالها حين تحالفت قريش على بني هاشم في أمر النبي عليه الصلاة والسلام وأول هذه القصيدة :

ولما رأيت القوم لا ودّ عندهم	وقد قطعوا كل العرى والوصائل
وثور ومن أرسى ثبيراً مكانه	وراق لبر في حراء ونازل
وبالبيت حق البيت من بطن مكة	وبالله إن الله ليس بغافل
وبالحجر المسود إذ يمسحونه	إذا اكتنفوه بالضحى والأصائل
وموطئ إبراهيم في الصخر رطبة	على قدميه حافياً غير ناعل

فيكون هذا الحجر المقام ، والحجر الأسود أقدم أثر محترم لدى المسلمين بالاتفاق ، إذ بيننا وبين إبراهيم عليه السلام نحو أربعة آلاف سنة .

ومما هو جدير بالذكر والالتفات : أن العرب في جاهليتها مع عبادتهم الأحجار وبالأخص حجارة مكة والحرم ، لم يسمع عنهم أن أحداً عبد الحجر الأسود ، أو حجر المقام مع عظيم احترامهم لهما ومحافظتهم عليهما .

ولقد تأملنا في سر ذلك وسببه ، فظهر لنا أن ذلك من عصمة الله تعالى فإنهما لو عبدا من دون الله في الجاهلية ، ثم جاء الإسلام بتعظيمهما باستلام الركن الأسود ، والصلاة خلف المقام ، لقال المنافقون وأعداء الدين أن الإسلام أقر احترام بعض الأصنام ، وأنه لم يخلص من شائبة الشرك ، ولتمسك بعبادتهما من كان يعبد أحدهما من قبل.

فلهذا حفظ الله تعالى هذين الحجرين الكريمين من أيام إبراهيم عليه السلام إلى يوم القيامة من عبادة أهل الجاهلية لهما ، كما حفظ بيته الحرام من عبادتهم أيضاً ، ولا يخفى أن هذه نقطة دقيقة لا يتنبه لها كل أحد .

منظومة السيوطي في موافقات عمر رضي الله عنه

بمناسبة ما قاله عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه لرسول الله ﷺ عن اتخاذ المقام مصلى نقول: فأمر الله سبحانه وتعالى باتخاذه مصلى ونزل في ذلك آية : ﴿واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى﴾ .

إن موافقات أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه للوحي كثيرة جمعها الجلال السيوطي في منظومة سماها "قطف الثمر في موافقات عمر" وهي منظومة مطبوعة وحدها، وهي أيضاً موجودة في كتاب "زاد المسلم فيما اتفق عليه البخاري ومسلم" بالجزء الخامس ونحن ننقلها منه وهي هذه بأكملها:

الحمد لله وصلى الله	على نبيه الذي اجتباه
يا سائلي والحادثات تكثر	عن الذي وافق فيه عمر
وما يرى أنزل في الكتاب	موافقاً لرأيه الصواب
خذ ما سألت عنه في أبيات	منظومة تأمن من شتات
ففي المقام وأسارى بدر	وآيتي تظاهر وستر
وذكر جبريل لأهل الغدر	وآيتين أنزلا في الخمر
وآية الصيام في حل الرفث	وقوله نساؤكم حرث يبث
وقوله لا يؤمنون حتى	يحكموك إذ بقتل أفتى
وآية فيها لبدر أو به	ولا تصل آية في التوبة
وآية في النور هذا بهتان	وآية فيها بها الاستئذان
وفي ختام آية في المؤمنين	تبارك الله بحفظ المتقنين
وثلة من في صفات السابقين	وفي سواء آية المنافقين
وعددوا من ذاك نسخ الرسم	لآية قد نزلت في الرجم
وقال قولاً هو في التوراة قد	نبهه كعب عليه فسجد
وفي الأذان الذكر للرسول	رأيته في خبر موصول
وفي القرآن جاء بالتحقيق	ما هو من موافق الصديق
كقوله هو الذي يصلي	عليكم أعظم به من فضل
وقوله في آخر المجادلة	لا تجد الآية في المخالله

نظمت ما رأيته منقولا والحمد لله على ما أولى

ذرع ما بين مقام إبراهيم وبين الكعبة وما حولها

لقد ذرعنا في أول جمادى الأولى سنة (١٣٧٧) سبع وسبعين وثلاثمائة وألف ، ما بين شاذروان الكعبة وبين أول شباك مقام إبراهيم عليه السلام المقابل للكعبة وللحفرة التي عندها ، فكان القياس أحد عشر متراً .

وأما قياس ما بين المقام وبين الكعبة وما حولها بالأذرع ، فقد جاء في الجزء الأول من تاريخ الفاسي المسمى "شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام" ما نصه :

روينا عن الأزرقي بالسند المتقدم في تاريخه أنه قال : وذرع ما بين الركن الأسود إلى مقام إبراهيم عليه السلام تسعة وعشرون ذراعاً وتسعة أصابع ، وذرع ما بين الكعبة من وسطها إلى المقام سبع وعشرون ذراعاً ، وذرع ما بين شاذروان الكعبة إلى المقام ست وعشرون ذراعاً ونصف ، ومن الركن الشامي إلى المقام ثمانية وعشرون ذراعاً وسبع عشرة إصبعاً ، ثم قال : ومن المقام إلى حرف بئر زمزم أربع وعشرون ذراعاً وعشرون إصبعاً . انتهى .

ثم قال القاضي عز الدين بن جماعة فيما أخبرني به عند خالي : ومن صدر الشباك الذي داخله المقام إلى شاذروان الكعبة عشرون ذراعاً وثلثا ذراع وثمن ذراع يعني بذراع الحديد المتقدم ذكره ، وقد حررنا بعض ما حرره الأزرقي في هذا المعنى فكان ما بين ركن الكعبة الذي فيه الحجر الأسود وبين الركن اليماني من أركان الصندوق الذي فيه المقام من داخل الشباك الذي فيه الصندوق أربعة وعشرون ذراعاً إلا سدس ذراع ، وكان ذرع ما بين وسط جدار الكعبة الشرقي إلى وسط الصندوق المقابل له اثنين وعشرين ذراعاً إلا ربع ذراع ، وكان ما بين ركن الكعبة الشامي الذي يلي الحجر ، بسكون الجيم وركن الصندوق الشامي ثلاثة وعشرون ذراعاً ، وكان مما بين ركن الصندوق الشرقي إلى ركن البيت الذي فيه بئر زمزم المقابل له خمسة عشر ذراعاً إلا ثلث ذراع ، وكل ذلك بذراع الحديد المتقدم ذكره . ولم نجد شيئاً مؤلفاً عن مقام إبراهيم عليه الصلاة والسلام . والله سبحانه وتعالى وفقنا لموضع كتاب عن ذلك اسمه "مقام إبراهيم عليه السلام" وهو مطبوع بمطبعة الحلبي بمصر .

صفة المقام

كنا نعتقد أن مقام إبراهيم عليه الصلاة والسلام الموجود في باطن الصندوق الخشبي والمغطى بستارة حريرية مكتوبة منقوشة ، والذي يحيط بجوانبه الأربعة شباك من الحديد المضروب باللون الأخضر المقابل لباب الكعبة المعظمة ، هو حجر كبير لا يمكن أن يحمله أقل من بضعة رجال ، وكنا نظن أن ما بقي من أثر قدمي خليل الله إبراهيم عليه الصلاة والسلام شيء يسير بقدر ما يظهر أقدام الإنسان في الأرض الترابية ، ولكن جاء الأمر بعكس ما كنا نعتقده ونظنه بعد مشاهدتنا له برؤية العين ، وذلك في اليوم السابع والعشرين من شهر شعبان سنة ألف وثلاثمائة وسبع وستين هجرية ، كما سنبين ذلك .

وقبل أن نذكر كلامنا يجب أن نسوق عبارات المؤرخين فيه لمقارنة عباراتنا بعباراتهم ، ونسأل الله التوفيق والهداية إلى الصواب ، فإنه لا حول ولا قوة إلا بالله .

قال الإمام الأزرقي المتوفى في حدود الأربعين بعد المائتين من الهجرة في كتابه القيم النفيس "أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار" في الجزء الثاني بصحيفة (٢٩) عند ذكر ذرع المقام ما نصه : قال أبو الوليد - يعني نفسه - وذرع المقام ذراع ، والمقام مربع سعة أعلاه أربعة عشر إصبعاً في أربعة عشر إصبعاً من أسفله مثل ذلك ، وفي طرفيه من أعلاه وأسفله طوقا ذهب ، وما بين الطوقين من الحجر من المقام بارز بلا ذهب عليه ، طوله من نواحيه كلها تسعة أصابع وعرضه عشرة أصابع عرضاً في عشرة أصابع طولاً ، وذلك قبل أن يجعل عليه هذا الذهب الذي هو عليه اليوم من عمل أمير المؤمنين المتوكل على الله ، وعرض حجر المقام من نواحيه أحد وعشرون إصبعاً ، ووسطه مربع ، والقدمان داخلتان في الحجر سبعة أصابع ودخولهما منحرفتان ، وبين القدمين من الحجر إصبعان ، ووسطه قد استدق من التمسح به ، والمقام في حوض من ساج مربع حوله رصاص ملبس به ، وعلى الحوض صفائح رصاص ملبس بها ومن المقام في الحوض إصبعان ، وعلى المقام صندوق ساج مسقف ومن وراء المقام ملبس ساج من الأرض في طرفيه سلسلتان تدخلان في أسفل الصندوق ويقفل فيهما قفلان . انتهى كلام الإمام الأزرقي في تاريخه المذكور .

وقال ابن جبير الأندلسي في رحلته ، وكان قد حج سنة ثمان وسبعين وخمسمائة ما نصه : وهذا المقام الكريم الذي داخل هذا القبو هو مقام إبراهيم ﷺ ، وهو حجر مغشى بالفضة وارتفاعه مقدار ثلاثة أشبار ، وسعته مقدار شبرين ، وأعلاه أوسع من أسفله ، وأثر القدمين وأثر الأصابع بين ، ثم قال : لموضع المقام قبة مصنوعة من حديد موضوعة جانب قبة زمزم فإذا كان في أشهر الحج وكثر الناس رفعت القبة الخشب ووضعت قبة الحديد . انتهى كلام ابن جبير الأندلسي .

وروى التقي الفاسي في شفاء الغرام عن القاضي عز الدين بن جماعة أنه قال : حررت لما كنت مجاوراً بمكة سنة ثلاث وخمسين وسبعمائة مقدار ارتفاع المقام عن الأرض فكان سبعة أثمان الذراع وأعلى المقام مربع من كل جهة ثلاثة أرباع الذراع ، وموضع غوص القدمين ملبس بالفضة ، وعمقه من فوق الفضة سبعة قراريط ونصف قيراط من ذراع القماش المستعمل بمصر . انتهى كلام ابن جماعة كما رواه الفاسي .

وقال الشيخ حسين بن عبدالله باسلامة المتوفى في عصرنا في كتابه "تاريخ عمارة المسجد الحرام" بصحيفة (١٥١) ما نصه : وأما صفة حجر المقام ومقاسه فهو حجر رخو من نوع حجر الماء ولم يكن من الحجر الصوان ، وهو مربع على وجه الإجمال ، ومساحته ذراع يد في ذراع يد طولاً وعرضاً وارتفاعاً أو نحو خمسين سنتيمتراً في مثلها طولاً وعرضاً وارتفاعاً ، وفي وسطه أثر قدمي إبراهيم الخليل ﷺ ، وهي حفرتان على شكل بيضوي مستطيل قد حفرهما الناس بمسح الأيدي ووضع ماء زمزم فيهما بمرات عديدة فنتج من كثرة مرور الأيدي محو أثر القدمين واستبدل موضعهما حفرتان كما دلت على ذلك الروايات المتقدمة في أول الباب ، وقد رأيت حجر المقام بعيني سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة وألف بصحبة المرحوم صاحب الفضيلة رئيس السدنة في تلك السنة الشيخ محمد صالح بن أحمد بن محمد الشيبي فوجدته مصفحاً بالفضة وهو موضوع على قاعدة وشكله مربع كما وصفته ولونه بين البياض والسواد والصفرة ورأيت أثر القدمين .

وهنا أذكر زيادة على ما تقدم ما ورد في أثر القدمين من الأخبار والروايات ، فروى الحافظ ابن حجر العسقلاني في فتح الباري عن ابن الجوزي أنه قال : وإن أثر قدميه يعني إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام في المقام كرقم الباني ، ولم تزل

آثار قدمي إبراهيم حاضرة في المقام معروفة عند أهل مكة حتى قال أبو طالب في قصيدته المشهورة :

ومَوطِئ إبراهيم في الصخر رطبة على قدميه حافياً غير ناعل

وفي موطأ ابن وهب عن يونس عن ابن شهاب عن أنس قال : رأيت المقام فيه أصابع إبراهيم وأخمص قدميه غير أنه أذهبه مسح الناس بأيديهم . وأخرج الطبري في تفسيره عن قتادة في هذه الآية : ﴿واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى﴾ أنه قال: إنما أمروا أن يصلوا عنده ولم يؤمروا بمسحه قال : ولقد ذكر لنا من رأى أثر عقبه وأصابعه فيها فما زالوا يمسحونه حتى اخْلَوْلَق وانمحى . انتهى كلام الشيخ حسين باسلامة في تاريخه المذكور .

وصفنا لمقام إبراهيم

هذا ما ذكره هؤلاء المؤرخون عن صفة مقام إبراهيم عليه الصلاة والسلام نقلناه بالحرف الواحد من غير أن نشرحه أو نعلق عليه بحاشية اكتفاء بذكاء أولي العلم والمعرفة ، واعتماداً على ما سنوضحه هنا من التفصيل التام والبيان الدقيق فنقول وبالله التوفيق:

إننا لما شرعنا في تأليف كتابنا هذا عن مقام إبراهيم عليه السلام وما كان أحد سبقنا إلى مثله من قبل ، حصلت عندنا رغبة شديدة وميل عظيم إلى مشاهدة نفس المقام الكريم ، فالتمسنا فتح مقصورة المقام لنا من حضرة صاحب السمو الملكي ولي عهد المملكة العربية السعودية الأمير المعظم "سعود بن عبدالعزيز بن عبدالرحمن الفيصل" حفظه الله فصدر أمر سموه الكريم بفتح مقصورة مقام إبراهيم عليه الصلاة والسلام الذي هو أمام الكعبة المشرفة لننظر إليه ونكتب عنه الحقيقة بالتفصيل التام خدمة للدين والعلم ، ليعرف المسلمون حقيقة المقام الكريم الذي هو مستور عن أعينهم فنقول :

إنه في صباح يوم الأحد السابع والعشرين من شعبان سنة ألف وثلاثمائة وسبع وستين هجرية جاء إلى المسجد الحرام السادن الثاني لبيت الله المعظم صاحب السعادة الشيخ عبدالله ابن المرحوم الشيخ عبدالقادر الشيبي صحبة ابنه الفاضل الشيخ عبدالعزيز لغسل الكعبة المشرفة حسب العادة ولفتح مقام إبراهيم عليه السلام لنا ، فدخلنا أولاً بيت الله الحرام وتشرفنا بغسل داخله بالزمزم بعطر ،

وكان معنا صاحب السعادة الشيخ محمد صالح قزاز ابن المرحوم عبدالرحمن قزاز مدير شؤون الحج، وحضرات الأفاضل الكرام السيد هاشم نائب الحرم رئيس مجلس إدارة الحرم، والشيخ عمر عبدالجبار رئيس شرطة الحرم، والشيخ صالح باخطمة رئيس القسم الإداري بالأمن العام والسيد عبدالله ابن المرحوم السيد محمد علي الدباغ، والشيخ عبدالله ابن الشيخ أحمد الباز، وبعض الخدمة الخاصة، ثم بعد انتهائنا من غسل الكعبة المعظمة توجه بنا سادنها سعادة الشيخ عبدالله الشيبي المذكور إلى مقصورة مقام إبراهيم عليه الصلاة والسلام ففتحها بحضور مندوب رئاسة القضاء الشيخ عبدالعزيز العقيلي وحضور الشيخ عبدالله ابن المرحوم الشيخ أمين ميرداد وحضور الجماعة المذكورين وحضور جمع غفير من أهل مكة والحجاج القادمين إليها.

وبعد تنظيف المقام من الأتربة والغبار دخلت أنا محمد طاهر الكردي المكي الخطاط مؤلف هذا الكتاب إلى داخل الصندوق الذي فيه نفس حجر مقام إبراهيم عليه السلام لإجراء البحث الدقيق عليه ومكثت في داخل الصندوق نحو ساعة ونصف، أي تسعين دقيقة تقريباً وحجر المقام الشريف بهيئته بين يدي ثم طلبت من صديقنا الشيخ عمر عبدالجبار المذكور أن يجلس بجانبي داخل الصندوق ليساعدني في مسك الأوراق وضبط القياسات فجلس بجواري ملتصقاً بي لضيق الصندوق، وقد جلس أمامنا جمع كثير ومن ذكرنا أسماءهم يشاهدون أبحاثنا الدقيقة حول المقام الكريم.

وإليكم بيان ذلك بالتفصيل التام والتحقيق الكامل بتوفيق الله تعالى:

لقد وجدنا حجر مقام إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام مثبتاً فوق قاعدة صغيرة من الرخام المرمر بقدر قياس نفس المقام الشريف طولاً وعرضاً. وأما ارتفاعها فثلاثة عشر سنتيمتراً، وقد استمسك المقام بهذه القاعدة، بواسطة الفضة التي تحيط بنفس المقام مع جزء من هذه القاعدة، حتى صار المقام ثابتاً فيها ثبوتاً قوياً بحيث لا يمكن تحريكه قط.

انظر: صورة رقم ٩١ بالفوتوغرافيا لمقصورة مقام إبراهيم عليه السلام يوم فتحها

ثم إن هذه القاعدة الصغيرة ثابتة ثبوتاً محكماً جداً في وسط قاعدة كبيرة من الرخام المرمر أيضاً تشبه البركة طول ضلعها من جميع الجهات متر واحد، وارتفاعها من الأرض ستة وثلاثون سنتيمتراً ولون الرخامتين أبيض.

ويحيط بهذه القاعدة الكبيرة صندوق من الخشب كهيئة الهرم الرباعي ارتفاعه نحو القامة، وليس به منافذ مطلقاً سوى الباب الذي يرى منه المقام الكريم، وهو في الجهة الشرقية، وهذا الصندوق ملبس كله من الظاهر بصفائح الفضة مكتوب عليه من الجهة الشرقية فقط ما يأتي:

"بسم الله الرحمن الرحيم وبه الهداية ﴿إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً وهدى للعالمين ۞ فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمناً و لله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا﴾" كتبه الحافظ إسماعيل الزهدي أدرنوي خوجه، كتبه عام ألف ومائتين وثمان وعشرين.

وباب الصندوق مصفح من الظاهر بالفضة أيضاً، وقد كتبت عليه هذه العبارة: صاحب الخيرات والحسنات سلطان البرين وفاتح الحرمين الغازي السلطان محمود خان بن عبدالحميد خان، دام ملكه سنة ألف ومائتين وثمان وعشرين هجرية.

والذي يظهر لنا من هذه العبارة: أن الذي أمر بتلبيس هذا الصندوق بصفائح الفضة هو السلطان محمود خان المذكور، وأما الصندوق من الداخل فهو خشب عادي بلونه الطبيعي لا أثر فيه لكتابة أو نقش.

وهذا الصندوق مغطى كله من قمته إلى الأرض بكسوة من الحرير مكتوب فيها بعض آيات قرآنية كتبها مؤلف هذا الكتاب سنة ألف وثلاثمائة وثمان وأربعين، وصنعت بدار الكسوة بمكة المشرفة في السنة المذكورة، ومن هذه السنة إلى الآن لم تغير الكسوة، ثم يحيط بهذا الصندوق الشباك الحديد المضروب باللون الأخضر من الجهات الأربع.

أما مقام إبراهيم عليه الصلاة والسلام: فهو حجر ليس بصوان لونه ما بين الصفرة والحمرة، وهو إلى البياض أقرب، ويمكن أن يحمله أضعف الرجال.

فقد روى الإمام الأزرقي في الجزء الثاني من تاريخه صحيفة (٢٨) أن أمير المؤمنين المهدي حج سنة ستين ومائة فنزل دار الندوة، فجاء عبيدالله بن عثمان بن

إبراهيم الحجبي بالمقام مقام إبراهيم في ساعة خالية نصف النهار مشتملاً عليه، فقال للحاجب: ائذن لي على أمير المؤمنين فإن معي شيئاً لم يدخل به على أحد قبله وهو يسر أمير المؤمنين. فأدخله عليه فكشف عن المقام فسر بذلك وتمسح به وسكب فيه ماء ثم شربه وقال له: اخرج وأرسل إلى بعض أهله فشربوا منه وتمسحوا به ثم أدخل فاحتمله ورده مكانه وأمر له بجوائز عظيمة وأقطعه خيفاً بنخله يقال له ذات القويع فباعه من منيرة مولاة المهدي بعد ذلك بسبعة آلاف دينار. اهـ.

وأما حجم حجر المقام الكريم: فهو يشبه المكعب، ارتفاعه عشرون سنتيمتراً، وطول كل ضلع من أضلاعه الثلاثة من جهة سطحه ستة وثلاثون سنتيمتراً وطول ضلعه الرابع ثمانية وثلاثون سنتيمتراً، فيكون مقدار محيطه من جهة السطح مائة وستة وأربعين سنتيمتراً.

وأسفل المقام أوسع بقليل من أعلاه، فيكون مقدار محيطه من جهة القاعدة نحو: مائة وخمسين سنتيمتراً.

وفي هذا الحجر الشريف غاصت قدما خليل الله تعالى سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام مقداراً كبيراً إلى نصف ارتفاع الحجر، فعمق إحدى القدمين عشرة سنتيمترات، وعمق الثانية تسعة سنتيمترات، ولم نشاهد أثراً لأصابع القدمين مطلقاً فقد انمحى من طول الزمن ومسح الناس بأيديهم، وأما موضع العقبين: فلا يتضح إلا لمن دقق النظر وتأمل، وحافة القدمين الملبستين بالفضة أوسع من بطنهما من كثرة مسح الناس بأيديهم.

وطول كل واحدة من القدمين من سطح الحجر والفضة سبعة وعشرون سنتيمتراً، وعرض كل واحدة منهما أربعة عشر سنتيمتراً، أما قياسهما من باطن القدمين من أسفل الفضة النازلة فيهما، فطول كل واحدة منهما اثنان وعشرون سنتيمتراً، وعرض كل واحدة منهما أحد عشر سنتيمتراً.

وما بين القدمين فاصل مستدق نحو سنتيمتر واحد وقد استدق هذا الفاصل من أثر مسح الناس له بأيديهم للتبرك، وكذلك اتسع طول القدمين وعرضهما من أعلاهما بسبب المسح أيضاً ومع أنه قد مر على حجر المقام الشريف أكثر من أربعة آلاف سنة، فإن معالمه وهيئة القدمين واضحة لم تتغير ولم تتبدل، وتبقى كذلك إلى يوم القيامة، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿فيه آيات بينات مقام إبراهيم﴾.

وحجر المقام كله ملبس بالفضة الخالصة ، فلا تظهر حقيقة الحجر إلا من باطن حفرة القدمين وجوانبهما ، وأن باطنهما غير مستو ، بل فيهما بعض نتوءات صغيرة ، وقد كتب على الفضة حول القدمين من سطح المقام آية الكرسي بخط الثلث الواضح الجميل ، وكتب عليها من الجوانب بخط الثلث أيضاً ما يأتي : ﴿إن إبراهيم كان أمة قانتاً لله حنيفاً ولم يك من المشركين ۞ شاكراً لأنعمه اجتباه وهداه إلى صراط مستقيم ۞ وآتيناه في الدنيا حسنة وإنه في الآخرة لمن الصالحين﴾ . ثم كتب بعد ذلك : "أمر بتجديد صحيفة القدم الشريف ابتغاء لمرضاة الله تعالى ، ومحبة لصاحبه مولانا السلطان مصطفى خان ابن السلطان محمد خان دام عزه ونصره سنة (١١١٣) سنة ألف ومائة وثلاثة عشر " ويوجد على الفضة شيء من النقش أما ما نزل من الفضة في حفرة القدمين ، فليس عليه شيء لا من الكتابة ولا من النقش .

ولما كان المقام الشريف ملبساً كله بالفضة وثابتاً ثبوتاً قوياً لا يتحرك لم يظهر لنا هل فيه شطب وكسر أم لا ونحمد الله تعالى أن وفق سلاطين المسلمين وملوكهم للعناية والاهتمام بهذا المقام الإبراهيمي الشريف ، ويحق للمسلمين والعرب أن يفخروا بهذا المقام الأثري القديم المقدس .

والذي نستنتج من رؤيتنا للقدمين الشريفين أن سيدنا إبراهيم لم يكن يلبس نعلاً في رجليه حال بناء البيت ، بل كان حافياً لأن الأرض كانت نظيفة طاهرة لا توجب لبس النعل ونحوه ، حيث لم يكن بمكة في زمنه عليه الصلاة والسلام سوى جماعة قليلة من قبيلة جرهم .

ولقد كان طول سيدنا إبراهيم الخليل صلوات الله وسلامه عليه كطول الرجل العادي في زماننا ، لا بالطويل ولا بالقصير ، ولذلك كان نبينا محمد يشبه جده إبراهيم صلى الله وسلم عليهما وعلى جميع الأنبياء والمرسلين فقد ورد في صحيح البخاري في كتاب بدء الخلق عند وصف موسى وإبراهيم عليهما السلام صريح قول نبينا محمد ﷺ ضمن الأحاديث مراراً (فمنها) قال : "ورأيت إبراهيم وأنا أشبه ولده به ... الخ " ، (ومنها) " وأنا أشبه ولد إبراهيم به ... الخ" ، (ومنها): " أما إبراهيم فانظروا إلى صاحبكم ...الخ " يعني نفسه ﷺ.

ولقد ذكر بعض العلماء : أن قدم نبينا محمد يشبه قدم إبراهيم الخليل صلوات الله وسلامه عليهما ، وإلى ذلك أشار ناظم عمود النسب بقوله :

وكلما طال البناء ارتفعا ... به المقام في الهوا ورفعا
به القواعد وفيه القدم ... تشبهها للهاشمي قدم

وهو حق لا شك فيه لما تقدم من الأحاديث الصحيحة ، ولما يدل عليه شكل القدمين اللتين على المقام الكريم . وكان أبو جهم بن حذيفة القرشي الذي حضر بناء الكعبة المعظمة مرتين : في بناء قريش ، وفي بناء ابن الزبير يقول : ما رأيت شبهاً كشبه قدم النبي ﷺ بقدم إبراهيم التي كنا نجدها في المقام . اهـ.

وقال قوم من بني مدلج وهم من أشهر العرب معرفة بالقيافة بالآثار والعلامات لعبد المطلب جد النبي ﷺ حينما كفله بعد وفاة أمه آمنة : احتفظ بمحمد فإنا لم نر قدماً أشبه بالقدم التي في مقام إبراهيم منه . فكان عبد المطلب يحبه حباً شديداً لا يأكل طعاماً إلا يقول : علي بابني صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وأصحابه وأنصاره وأزواجه وذريته . نقول : ويا ليتنا كنا في زمانه صلوات الله وسلامه عليه حتى نكون من جملة خدمه وحملة نعله الشريف والحمد لله الذي أسعدنا بالإيمان به وبمحبته ومحبة آله وأصحابه كلهم .

موضع المقام

اختلف العلماء في موضع المقام ، فقد أخرج البيهقي في سننه عن عائشة رضي الله عنها أن المقام كان في زمن رسول الله ﷺ وزمان أبي بكر ملصقاً بالبيت ثم أخره عمر بن الخطاب ، ونقل المحب الطبري عن الإمام مالك في المدونة أنه قال : كان المقام في عهد إبراهيم عليه السلام في مكانه اليوم ، وكان أهل الجاهلية ألصقوه بالبيت خيفة السيل فكان كذلك في عهد النبي ﷺ وأبي بكر فلما ولي عمر رده . وروى الأزرقي عن ابن أبي مليكة أن موضع المقام الآن هو موضعه في الجاهلية وفي عهد النبي ﷺ والخليفتين بعده إلى أن السيل ذهب به في خلافة عمر رضي الله عنه فجعل في وجه الكعبة حتى قدم عمر فرده إلى مكانه بمحضر من الصحابة رضي الله عنهم . وروى السنجاري في كتابه "منائح الكرم عن الإمام النووي" أنه قال : هذا للموضع الذي فيه للمقام اليوم هو الموضع الذي كان فيه في

الجاهلية وفي زمن رسول الله ﷺ وبعده إلى عصرنا لم يتغير . إلا أنه جاء السيل زمن عمر رضي الله عنه - وذكر القصة - ثم قال : وهو الآن في الموضع الذي كان فيه .

وقال الحافظ ابن حجر العسقلاني في فتح الباري : وكان المقام في عهد إبراهيم عليه السلام لزق البيت إلى أن أخره عمر رضي الله عنه إلى المكان الذي هو فيه الآن أخرجه عبدالرزاق بسند صحيح عن عطاء وغيره وعن مجاهد أيضاً وقد أخرج ابن أبي حاتم بسند صحيح عن ابن عيينة قال : كان المقام في صقع البيت في عهد رسول الله ﷺ فحوله عمر فجاء سيل فذهب به فرده عمر إليه . قال سفيان : لا أدري أكان لاصقاً بالبيت أم لا . قال الحافظ ابن حجر بعد ذكر ما تقدم : ولم ينكر الصحابة فعل عمر ولا من جاء بعدهم فصار إجماعاً ، وكان عمر رأى أن بقاءه يلزم منه التضييق على الطائفين والمصلين فوضعه في مكان يرتفع به الحرج وتهيأ له ذلك لأنه الذي كان أشار باتخاذه مصلى . وقال الحافظ عماد الدين بن كثير في تفسيره في سورة البقرة عند قوله تعالى: ﴿وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمناً واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى﴾ ما نصه : وقد كان هذا المقام ملصقاً بجدار الكعبة قديماً ومكانه معروف اليوم إلى جانب الباب مما يلي الحجر يمنة الداخل من الباب في البقعة المستقلة هناك ، وكان الخليل عليه السلام لما فرغ من بناء البيت وضعه إلى جدار الكعبة أو أنه انتهى عنده البناء فتركه هناك ولهذا - والله أعلم - أمر بالصلاة هناك عند الفراغ من الطواف وناسب أن يكون عند مقام إبراهيم حيث انتهى بناء الكعبة فيه ، إنما أخره عن جدار الكعبة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه أحد الأئمة المهديين والخلفاء الراشدين الذين أمرنا باتباعهم وهو أحد الرجلين اللذين قال فيهما رسول الله ﷺ: "اقتدوا باللذين من بعدي أبي بكر وعمر" وهو الذي نزل القرآن بوفاقه في الصلاة عنده ، ولهذا لم ينكر ذلك أحد من الصحابة رضي الله عنهم أجمعين . وجاء في تفسير ابن كثير أيضاً في سورة النساء عند آية : ﴿إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها﴾ أن ابن مردويه روى من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس في هذه الآية "أن رسول الله ﷺ لما فتح مكة وأخذ من عثمان بن أبي طلحة مفتاح الكعبة وفتح بابها وغمس بالماء التماثيل التي كانت فيها أخرج مقام إبراهيم وكان في الكعبة فألزقه في حائط الكعبة ثم قال : يا أيها الناس هذه القبلة..." الخ والرواية مذكورة بكاملها في المجلد الثاني من التفسير بصحيفة (٤٩٢) فليراجعه من شاء

فإننا نقلنا منه هذه الجملة بصورة مختصرة لنستشهد بأن المقام كان في الكعبة . وذكر العمري في مسالك الأبصار أن موضع المقام كان موضع الخلوق ، أي الحفرة الملاصقة للكعبة . ثم قال : وصلى ﷺ عنده حين فرغ من طوافه ركعتين وأنزل الله تعالى عليه : ﴿واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى﴾ ثم نقله ﷺ إلى الموضع الذي هو فيه الآن وذلك على عشرين ذراعاً من الكعبة ... الخ ، وذكر ابن سراقة ما نصه : أن ما بين الباب يعني باب الكعبة ومصلى آدم عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام حين فرغ من طوافه وأنزل الله عليه التوبة أرجح من تسعة أذرع ، وهناك كان موضع مقام إبراهيم ، وصلى النبي ﷺ عنده حين فرغ من طوافه ركعتين وأنزل عليه : ﴿واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى﴾ ثم نقله ﷺ إلى الموضع الذي هو فيه الآن وذلك على عشرين ذراعاً من الكعبة لئلا ينقطع الطواف بالمصلين خلفه ثم ذهب به السيل في أيام عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى أسفل مكة فأتى به وأمر عمر برده إلى الموضع الذي وضعه فيه رسول الله ﷺ . اهـ من تاريخ عمارة المسجد الحرام .

أرجح الأقوال في موضع المقام

لقد ذكرنا هذه الأقوال في موضع المقام بنصها ولفظها من غير تعليق عليها ، ثم رأينا أن نأتي هنا بأرجح الأقوال على رأينا وما نميل إليه فنقول وبالله العون والتوفيق .

إذا لاحظت ما تقدم عن حد المسجد الحرام قديماً ، وأن مكان البيت كان ربوة مرتفعة عن الأرض ذات الرمال والحصى ، وأن إبراهيم عليه السلام ما بنى الكعبة بالطين ولا بالجص وإنما رضمها رضماً ولم يسقفها ، وتصورت أن أهل الجاهلية كانوا يجلسون في ظل الكعبة ويقعدون حولها يتذاكرون شؤونهم العامة ، وأنه لم يكن حينئذ للمسجد الحرام على صغره سور ولا حائط حتى بنى عمر بن الخطاب جداراً قصيراً بعد أن زاد فيه ووسعه .

ظهر لك أن أرجح الأقوال المتقدمة وأقربها إلى الصواب هو ما رواه البيهقي في سننه من أن المقام كان في زمن النبي ﷺ وزمن أبي بكر ملصقاً بالبيت حتى أخره عمر بن الخطاب وما ذكره أيضاً ابن حجر العسقلاني في فتح الباري بأن المقام كان في عهد إبراهيم عليه السلام لزق البيت إلى أن أخره عمر إلى المكان

الذي هو فيه الآن ، وما قاله أيضاً ابن كثير في تفسيره بأن المقام كان ملصقاً بجدار الكعبة قديماً ومكانه معروف اليوم إلى جانب الباب مما يلي الحجر ، وكان الخليل عليه السلام لما فرغ من بناء البيت وضعه إلى جدار الكعبة أو أنه انتهى عنده البناء فتركه هناك ، وأنه أخره عن جدار الكعبة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه...الخ كلامه المتقدم وهو كلام حسن جيد للغاية ، وما ذكره ابن كثير أيضاً في تفسيره من رواية ابن مردويه أن مقام إبراهيم كان في الكعبة فأخرجه رسول الله ﷺ فألزقه في حائط الكعبة وذلك حينما دخل الكعبة يوم فتح مكة .

ولقد رجحنا هذه الأقوال الأربعة مما تقدم ، لأن المعقول أن إبراهيم عليه السلام لا بد أن يضع الحجر الذي قام عليه في بناء البيت الحرام بلزقه وجواره لا أن يضعه بعيداً عن البيت حينما اتفق وهو ياقوتة من يواقيت الجنة ومقامه الذي كان يقوم عليه وأيضاً لا بد أن الله تعالى أمره بحفظه وعدم التفريط فيه حيث يأتي في آخر الزمان خاتم النبيين محمد ﷺ فيؤمر هو وأمته بالصلاة عنده وقبلتهم البيت المعظم . ويؤيد كلامنا هذا ما جاء في الجزء الثاني من تاريخ الأزرقي أن إبراهيم عليه السلام قام على المقام حينما أذن في الناس بالحج ، فلما فرغ من التأذين أمر بالمقام فوضعه قبلة فكان يصلي إليه مستقبل الباب ثم كان إسماعيل بعده يصلي إليه إلى باب الكعبة... الخ .

فلدى التأمل في هذه النقطة يظهر جلياً أن إبراهيم عليه السلام جعل الحجر الذي قام عليه لبناء الكعبة بلصقها ولايبعده عنها بمسافة أذرع مخصوصة إلا لسبب وأي سبب لذلك في أيامه وأيضاً أن أهل الجاهلية كانوا ألصقوا المقام بالبيت خيفة السيل بل وضعوه في جوف الكعبة حتى أخرجه رسول الله ﷺ منها فألزقه في حائطها كما تقدم بيان ذلك ، فما الذي يدعو أهل الجاهلية إلى إبعاد ذلك الحجر الأثري المحترم عن الكعبة ووضعه في هذا المحل الذي هو عليه الآن كما في رواية السنجاري المتقدمة ولا أحد منهم يتعبد عنده ، بل لو أبعدوه عن البيت لكان المعنى أنهم لم يعتبروه ولم يحترموه حيث رموه في آخر ساحته عند أبواب بيوتهم المحيطة بالبيت ، وكيف يقع ذلك منهم وهم الذين يعتقدون أنه ذلك الحجر المقدس الذي عليه أثر قدمي إبراهيم الخليل عليه السلام ، وقد قال أبو طالب فيه وفي الحجر الأسود :

وبالحجر المسود إذ يمسحونه إذا اكتنفوه بالضحى والأصائل

وموطئ إبراهيم في الصخر رطبة ... على قدميه حافياً غير ناعل

فلما جاء الإسلام أكد احترامهما وجعل لهما مغزى خاصاً ورمزاً تعبدياً وإن كان الحجر الأسود أعظم حرمة من المقام ، فإنه يمين الله في الأرض وإنه يبعث يوم القيامة وله عينان يبصر بهما ولسان ينطق به يشهد لمن استلمه بالحق كما ورد ذلك . وقد تقدم أن الحجر الأسود والمقام هما من ياقوت الجنة .

وفي الأزرقي عن مجاهد أنه قال : يأتي يوم القيامة الركن والمقام كل واحد منهما مثل أبي قبيس يشهدان لمن وافاهما بالموافاة . اهـ.

فيكون الحجر الأسود والمقام من أقدم الأحجار الأثرية الدينية المحترمة ، حيث مر عليهما آلاف السنين والأعوام ، وسيبقيان في موضعهما بإذن الله حتى قيام الساعة ، ففي الأزرقي عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : قال رسول الله ﷺ : (أكثروا استلام هذا الحجر فإنكم توشكون أن تفقدوه ، بينما الناس يطوفون به ذات ليلة إذ أصبحوا وقد فقدوه ، إن الله عز وجل لا يترك شيئاً من الجنة في الأرض إلا أعاده فيها قبل يوم القيامة) .

وفي الأزرقي أيضاً عن عبدالله بن عمرو بن العاص قال : "إن الله تعالى يرفع القرآن من صدور الرجال والحجر الأسود قبل يوم القيامة" .

ما ورد في كتاب شفاء الغرام عن موضع المقام في الجاهلية والإسلام

نحب أن نذكر هنا زيادة في الإيضاح ما ذكره الفاسي في كتابه "شفاء الغرام" مفصلاً عن موضع المقام في الجاهلية والإسلام ، فقد جاء في الجزء الأول منه ما نصه :

روينا عن الأزرقي بالسند المتقدم إليه قال : حدثني جدي قال : حدثنا عبدالجبار ابن الورد قال : سمعت ابن أبي مليكة يقول : موضع المقام هو هذا الذي هو به اليوم هو موضعه في الجاهلية وفي عهد النبي ﷺ وأبي بكر وعمر رضي الله عنهما ، إلا أن السيل ذهب به في خلافة عمر فجعل في وجه الكعبة حتى قدم عمر فرده بمحضر من الناس .

وذكر الأزرقي ما يوافق قول ابن أبي مليكة في موضع المقام عن عمرو بن دينار وسفيان بن عيينة وروى الفاكهي عن عمرو بن دينار وسفيان بن عيينة مثل ما حكاه عنهما الأزرقي بالمعنى .

ونقل المحب الطبري في القرى عن مالك ما يخالف ذلك لأنه قال : وقال مالك في المدونة: كان المقام في عهد إبراهيم ﷺ في مكانه اليوم وكان أهل الجاهلية ألصقوه بالبيت خيفة السيل ، فكان كذلك في عهد النبي ﷺ وعهد أبي بكر ، فلما ولي عمر رده بعد أن قاس موضعه بخيوط قديمة قيس بها حين أخروه . انتهى .

ثم قال المحب : وفي هذا مناقضة ظاهرة لما ذكره الأزرقي عن ابن أبي مليكة وسياق لفظ حديث جابر الصحيح الطويل وما روى نحوه شهد لترجيح قول ابن أبي مليكة ، وذلك قوله: ثم تقدم إلى مقام إبراهيم وقرأ : ﴿واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى﴾ ، فجعل المقام بينه وبين الكعبة ، والمتبادر إلى الفهم منه عند سماع هذا اللفظ أنه لم يكن حينئذ ملصقاً بالبيت ، لأنه لا يقال في الصرف تقدم إلى كذا فجعله بينه وبين كذا إلا فيما يمكن أن يقدمه أمامه وأن يخلفه خلفه ، وإن كان ملصقاً تعين التقديم لا غير . انتهى باختصار .

وقد ذكرنا في أصل هذا الكتاب بقية كلام المحب وكلاماً لمالك في المعنى وبينا ما فيه الصواب والله أعلم .

وذكر موسى بن عقبة في مغازيه ، وأبو عروبة في الأوائل له والفاكهي في كتابه ما يوافق ما ذكره مالك في أن المقام كان في وجه الكعبة لاصقاً في الجاهلية ، قال موسى بن عقبة : فإن قال فيما رويناه عنه وكان زعموا أن المقام لاصق في الكعبة فأخره رسول الله ﷺ في مكانه هذا . انتهى .

وذكر ذلك في خبر فتح مكة ، وأما أبو عروبة فإن قال فيما رويناه عنه حدثنا سلمة قال : حدثنا عبدالرزاق قال : أخبرنا معمر عن حميد الأعرج عن مجاهد قال : كان المقام إلى جنب البيت وكانوا يخافون عليه من السيول وكان الناس يصلون خلفه . انتهى باختصار لقصة رد عمر للمقام إلى موضعه الآن وما كان بينه وبين المطلب ابن أبي وداعة السهمي في موضعه الذي حرره المطلب ، وقال أبو عروبة أيضاً : حدثنا سلمة قال : حدثنا عبدالرزاق قال : إن ابن جريج قال : سمعت عطاء

وغيره من أصحابنا يزعمون أن عمر رضي الله عنه أول من رفع المقام فوضعه في موضعه الآن وإنما كان من قبل الكعبة . انتهى .

وأما الفاكهي فقال : حدثنا عبدالله بن أبي سلمة قال : حدثنا عبدالجبار بن سعيد عن ابن أبي سبرة عن موسى ابن سعيد عن نوفل بن معاوية الديلي قال : رأيت المقام في عهد عبدالمطلب ملصقاً بالبيت مثل البهار ، وروى الفاكهي بسنده إلى عبدالله بن سلام خبراً فيه أذان إبراهيم على المقام للناس بالحج فلما فرغ أمر بالمقام فوضعه قبلته فكان يصلي إليه مستقبل الباب ، وفيه أن النبي ﷺ قدم مكة من المدينة فكان يصلي إلى المقام وهو ملصق بالكعبة حتى توفي رسول الله ﷺ.

وقال الفاكهي حدثنا الزبير بن أبي بكر قال : حدثنا يحيى بن محرر بن توبان عن سليم عن ابن جريج عن عثمان بن أبي سليمان عن سعيد بن جبير أنه قال: كان المقام في وجه الكعبة وإنما قام إبراهيم عليه حين ارتفع البنيان فأراد أن يشرف على البناء ، قال : فلما كثر الناس خشي عمر ابن الخطاب أن يطؤوه بأقدامهم فأخره إلى موضعه الذي هو به اليوم حذاء موضعه الذي كان قدام الكعبة .

وقال الفاكهي : حدثنا يعقوب بن حميد ابن كاسب قال : حدثنا عبدالعزيز بن محرر عن هشام بن عروة عن أبيه قال عبدالعزيز : أراه عن عائشة أن المقام كان في زمن النبي ﷺ إلى سقع البيت . قال الفاكهي : وقال المكيون : كان بين المقام وبين الكعبة ممر العنز . انتهى.

وليس فيما ذكره مالك وابن عقبة وأبو عروبة والفاكهي من كون المقام كان عند الكعبة بيان موضعه عند الكعبة ، إلا أن في الخبر الذي رواه الفاكهي عن سعيد بن جبير مما يفهم منه تقريب بيان موضع المقام عند الكعبة ، إلا أن فيه ما يقتضي أن موضعه الآن هذا موضعه الذي كان به قدام الكعبة ، والمقام الآن في جوف الصندوق الذي في جوف الشبابيك الأربعة المتقدم ذكرها ، ويحاذي الصندوق الذي فيه المقام من وجه الكعبة ذراعان بالحديد ونحو خمسة قراريط بذراع الحديد أيضاً المقدم ذكره ، والذراعان هما نصف الحفرة المرخمة الملاصقة لشاذروان الكعبة ونصف الحفرة المشار إليه هنا هو النصف الذي يلي الحجر ، بسكون الجيم ، وما زاد على الذراعين من القراريط التي هي كمال ما يحاذي الصندوق الذي فيه المقام وهي إلى طرف الحفرة مما يلي الحجر ، بسكون الجيم ، وإذا كان كذلك فيكون موضع المقام عند الكعبة تخميناً . والله أعلم .

وفيما بين نصف الحفرة مما يلي الحجر ، بسكون الجيم والقراريط الزائدة على الذارعين ، لأن ذلك يحاذي الصندوق الذي فيه المقام الآن ، وإذا كان كذلك فهو يوافق قول من قال أن موضع المقام الآن حذاء موضعه عند الكعبة . وا لله أعلم .

وذكر الفقيه محمد بن سراقة العامري في كتابه دلائل القبلة في موضع المقام عند الكعبة ما يخالف قول من قال : إن موضعه الذي بحذاء موضعه عند الكعبة ، ونص ما ذكره ابن سراقة ومن الباب يعني باب البيت إلى مصلى آدم عليه السلام حين فرغ من طوافه وأنزل ا لله عليه التوبة وهو موضع الخلوق من إزار الكعبة أرجح من تسعة أذرع ، وهناك كان موضع مقام إبراهيم عليه السلام وصلى ﷺ عنده حين فرغ من طوافه ركعتين وأنزل ا لله عليه : ﴿واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى﴾ ثم نقله ﷺ إلى الموضع الذي هو فيه الآن وذلك على عشرين ذراعاً من الكعبة لئلا ينقطع الطواف بالمصلين خلفه أو يترك الصلاة خلفه لأجل الطواف حين كثر الناس وليدور الصف حول الكعبة ويرى الإمام من كل وجه . ثم حمله السيل في أيام عمر وأخرجه من المسجد فأمر عمر رضي ا لله عنه برده إلى موضعه الذي وضعه رسول ا لله ﷺ فيه وبين موضع الخلوق وهو مصلى آدم وبين الركن الشامي ثمانية أذرع . انتهى .

وقد سبق بعض ما ذكرناه عن ابن سراقة في الباب الثامن من هذا الكتاب عند بيان مصلى آدم عليه السلام ، وهذا يقتضي اتخاذ موضع مصلى آدم وموضع الخلوق وموضع المقام عند الكعبة وهو على مقتضى ما ذكر ابن سراقة في ذرع ما بينه وبين ركن الكعبة الذي يلي الحجر ، بسكون الجيم ، يكون على ذراعين وثلثي ذراع بالحديد من طرف الحفرة إلى جهة الحجر ، بسكون الجيم ، وعلى هذا فيكون موضع المقام عند الكعبة خارجاً عن الحفرة في مقدار ذراعين وثلثي ذراع ، وعلى مقتضى ما قيل من أن موضعه اليوم حذاء موضعه عند الكعبة ، يكون موضعه عند الكعبة في مقدار نصف الحفرة التي تلي الحجر ، بسكون الجيم ، وا لله أعلم بالصواب .

وأما الموضع الذي ربط فيه المقام عند الكعبة لما ذهب به السيل فقد بينه الفاكهي لأنه قال : فصل وذكر عن بعض المكيين ، أن الموضع الذي ربط عنده المقام في وجهه الكعبة بأستارها إلى أن حج عمر بن الخطاب رضي ا لله عنه فرده وذلك أن يقصد الطائف من الحجر الشامي في حجارة شاذروان الكعبة إلى أن يبلغ

الحجر السابع فإذا بلغ الحجر السابع فهو موضعه وإلا فهو التاسع من حجارة الشاذروان أيضاً . انتهى .

وذكر الفاكهي في موضع آخر من كتابه ما يقتضي أن هذا علامة للموضع الذي ذكر عبدا لله بن السائب المخزومي أنه رأى النبي ﷺ يصلي عنده يوم فتح مكة وذكر الأزرقي مثل ذلك وا لله أعلم . وما ذكره ابن سراقة من أن النبي ﷺ رد المقام إلى موضعه الآن يشهد له ما ذكره ابن عقبة ، وما سأذكره مخالف لما ذكره سعيد بن جبير وعطاء وغيرهم من أن عمر رضي ا لله عنه أول من رده إلى موضعه الآن وذكر الفاكهي خبراً يقتضي أن الولاة حولته إلى مكانه هذا ، وهذا يفهم أن الذي رده غير عمر رضي ا لله عنه .

فيتحصل فيمن رده إلى موضعه الآن ثلاثة أقوال : أحدها : أنه النبي ﷺ ، والثاني : أنه عمر ، والثالث : غير عمر وا لله أعلم . والمشهور أنه عمر ورد الخبر الذي ذكره الفاكهي عن سعيد بن جبير ما يفهم أن رد عمر للمقام إلى موضعه الآن لئلا تطؤه الناس والمعروف أن رد عمر له إلى موضعه الآن لكون السيل المعروف بسيل أم نهشل ، أزاله عن موضعه الأول وا لله أعلم . وذكر الفاكهي خبراً يقتضي أن رجلاً من آل عابدين عبدا لله بن مخزوم قال : قال لعمر : أنه يعلم موضع المقام الأول والمعروف أن الذي قال ذلك لعمر هو المطلب بن أبي وداعة السهمي كما ذكر الأزرقي والفاكهي وغيرهما . وا لله أعلم .

وما ذكره ابن سراقة في ذرع ما بين موضع المقام الآن ووجه الكعبة لا يستقيم لنقص ما ذكره ابن سراقة في ذلك عما ذكره الأزرقي فيه نقصاً كثيراً والذراع الذي حرر به ابن سراقة ذراع اليد ، وكذلك الأزرقي وفيما ذكره ابن سراقة نظر من غير هذا الوجه ، وذكر ابن جبير في أخبار رحلته ما يقتضي أن الحفرة المرخمة في وجه الكعبة علامة موضع المقام في عهد الخليل عليه السلام ، إلى أن رده النبي ﷺ إلى الموضع الذي هو الآن مصلى وفي هذا نظر لأن موضع المقام الآن هو موضعه في عهد الخليل عليه السلام من غير خلاف علم في ذلك ، وأما الخلاف ففي موضعه اليوم هل هو موضعه في زمن النبي ﷺ كما ذكر ابن أبي مليكة أو لا كما قال مالك . وا لله أعلم .

وفي كلام ابن جبير نظر من وجه بيناه في أصل هذا الكتاب وا لله أعلم ، و لم أرَ في تاريخ الأزرقي ذكر السنة التي رد فيها عمر المقام إلى موضعه هذا لما غيره

عنه السيل ، وهو سنة سبع عشرة من الهجرة على ما ذكره ابن جرير وكذا ابن الأثير في كامله ، وقيل : سنة ثمان عشرة . ذكره ابن حمدون في تذكرته . والله أعلم بالصواب . انتهى كل ذلك من شفاء الغرام .

وضع المقام في مكانه الحالي

كان وضع مقام إبراهيم عليه السلام في مكانه الذي هو فيه الآن من عمل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وذلك أنه جاء سيل أم نهشل في خلافته سنة سبع عشرة من الهجرة إلى مكة من أعلاها ، فدخل المسجد الحرام وكان سيلاً عظيماً بحيث اقتلع المقام من موضعه وذهب به ، فلما جف الماء وجدوه بأسفل مكة ، فأتى به وألصق في وجه الكعبة وربط بأستارها ، وكان عمر يومئذ بالمدينة ، فلما بلغه ذلك هاله الأمر وركب من ساعته فزعاً إلى مكة ، فدخلها بعمرة في رمضان من السنة المذكورة ، فلما دخل المسجد الحرام ووقف على حجر المقام قال : أنشد الله عبداً عنده علم في هذا المقام . فقال المطلب بن أبي وداعة السهمي رضي الله عنه : أنا يا أمير المؤمنين عندي علم بذلك ، فقد كنت أخشى عليه مثل هذا الأمر ، فأخذت قدره من موضعه إلى الركن ومن موضعه إلى باب الحجر ، ومن موضعه إلى زمزم بمقاط وهو عندي في البيت ، فقال له عمر : فاجلس عندي ، وأرسل إليها ، فأتى بها فمدها فوجدها مستوية إلى موضعه هذا ، فسأل الناس وشاورهم ، فقالوا: نعم هذا موضعه ، فلما استثبت ذلك عمر رضي الله عنه أمر به ، فأعلم ببناء تحت المقام ثم وضعه ، فهو في مكانه هذا إلى اليوم . اهـ من الأزرقي باختصار .

والمقاط بالكسر : حبل مثل القماط فهو مقلوب منه ، والقماط : حبل يشد به قوائم الشاة عند الذبح وكذا ما يشد به الصبي في المهد . اهـ من مختار الصحاح . ولقد أمر عمر بن الخطاب المطلب بن أبي وداعة بالجلوس عنده زيادة في الاحتياط والتثبت ، ولأن ذلك أدعى للتصديق ونفي الشبهة وإن كان المطلب بن أبي وداعة لا يتهم في كلامه .

ترجمة عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه

قال صاحب كتاب "زاد المسلم فيما اتفق عليه البخاري ومسلم" في الجزء الخامس عن ترجمته رضي الله تعالى عنه ما نصه:

وأما عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقد ألفت التآليف في ترجمته، ولنتبرك بقليل منها فأقول: هو عمر بن الخطاب رضي الله عنه بن نفيل بن عبدالعزى بن رباح بن عبدالله بن قرط بن رزاح ابن عدي بن كعب القرشي العدوي أبو حفص، وأمه حنتمة بنت هاشم بن المغيرة بن عبدالله بن عمر ابن مخزوم. قال الزبير: كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه من أشراف قريش وإليه كانت السفارة في الجاهلية وذلك أن قريشاً كانت إذا وقعت بينهم حرب أو بينهم وبين غيرهم بعثوه سفيراً وإن نافرهم منافر أو فاخرهم مفاخر رضوا به وبعثوه منافراً ومفاخراً. أسلم بعد أربعين رجلاً وإحدى عشرة امرأة فكان إسلامه عزاً ظهر به الإسلام بدعوة النبي ﷺ فقد أخرج أبو يعلى من طريق أبي عامر العقدي عن خارجة عن نافع عن ابن عمر قال: إن رسول الله ﷺ قال: اللهم أعز الإسلام بأحب الرجلين إليك بعمر بن الخطاب أو بأبي جهل ابن هشام وكان أحبهما إلى الله عمر بن الخطاب. وأخرجه عبد بن حميد وأخرج الدارقطني عن أنس رفعه: اللهم أعز الدين بعمر أو بعمرو بن هشام في حديث طويل فأجاب الله تعالى دعاءه في عمر رضي الله عنه. قال ابن عبد البر في الاستيعاب: وشهد عمر بدراً وبيعة الرضوان وكل مشهد شهده رسول الله ﷺ وتوفي رسول الله ﷺ وهو عنه راض. وقال ابن الأثير في أسد الغابة: شهد عمر بن الخطاب مع رسول الله ﷺ بدراً واحداً والخندق وبيعة الرضوان وخيبر والفتح وحنيناً وغيرها من المشاهد وكان أشد الناس على الكفار فلما أسلم كان إسلامه فتحاً على المسلمين وفرجاً لهم من الضيق، قال عبدالله بن مسعود: وما عبدنا الله جهرة حتى أسلم عمر. وأخرج أحمد من رواية صفوان ابن عمرو عن شريح بن عبيد قال: قال عمر: خرجت أتعرض لرسول الله ﷺ فوجدته سبقني إلى المسجد فقمت خلفه فاستفتح سورة الحاقة فجعلت أتعجب من تأليف القرآن فقلت: هذا والله شاعر كما قالت قريش قال: فقرأ: ﴿إنه لقول رسول كريم ۞ وما هو بقول شاعر قليلاً ما تؤمنون﴾ فقلت: كاهن قال: ﴿ولا بقول كاهن قليلاً ما تذكرون﴾ حتى ختم السورة قال: فوقع الإسلام في قلبي كل موقع. وهو رضي الله عنه أحد فقهاء

الصحابة وثاني الخلفاء الراشدين وأحد العشرة المشهود لهم بالجنة وأول من سمي أمير المؤمنين وولي الخلافة بعد أبي بكر بويع له بها يوم مات أبو بكر رضي الله عنه باستخلافه له سنة ثلاث عشرة فسار بأحسن سيرة أنزل نفسه من مال الله منزلة رجل من الناس وفتح الله له الفتوح بالشام والعراق ومصر ، ودون الدواوين في العطاء ورتب الناس فيه على سوابقهم وكان لا يخاف في الله لومة لائم ، وهو الذي نور شهر الصوم بصلاة الإشفاع فيه وأرخ التاريخ من الهجرة الذي بأيدي الناس إلى اليوم وهو أول من اتخذ الدرة وكان نقش خاتمه "كفى بالموت واعظاً يا عمر" وكان آدم شديد الأدمة طوالاً كث اللحية أصلع أعسر أيسر يخضب بالحناء والكتم هكذا ذكره زر بن حبيش ، ومكث في الخلافة عشر سنين ونصفاً حتى قتل شهيداً قتله غلام المغيرة بن شعبة العلج ، له خمسمائة وتسعة وثلاثون حديثاً اتفق البخاري ومسلم على عشرة منها وانفرد البخاري بتسعة ومسلم بخمسة عشر . روى عنه أبناؤه عبدا لله وعاصم وعبيدا لله وعلقمة بن وقاص ، وعن ابن عمر مرفوعاً أن الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه ، ولما دفن قال ابن مسعود: ذهب اليوم بتسعة أعشار العلم . استشهد في آخر سنة ثلاث وعشرين ودفن في الهجرة النبوية في أول سنة أربع وعشرين وهو ابن ثلاث وستين وصلى عليه صهيب ، وكان رضي الله عنه من المحدثين أي الملهمين ففي الصحيحين من رواية عائشة وأبي هريرة عن رسول الله ﷺ لقد كان فيما قبلكم من الأمم محدثون فإن يكن في أمتي أحد فإنه عمر . وقد تقدم هذا الحديث في حرف اللام في الجزء الثاني من متن زاد المسلم . وموافقاته رضي الله عنه للوحي كثيرة جمعها الجلال السيوطي في منظومة سماها قطف الثمر في موافقات عمر وهاهي بتمامها :

الحمد لله وصلى الله	على نبيه الذي اجتباه
يا سائلي والحادثات تكثر	عن الذي وافق فيه عمر
وما يرى أنزل في الكتاب	موافقاً لرأيه الصواب
خذ ما سألت عنه في أبيات	منظومة تأمن من شتات
ففي المقام وأسارى بدر	وآيتي تظاهر وستر
وذكر جبريل لأهل الغدر	وآيتين أنزلا في الخمر
وآية الصيام في حل الرفث	وقوله نساؤكم حرث يبث
وقوله لا يؤمنون حتى	يحكموك إذ بقتل أفتى

وآيــة فيهــا لبــدر أو بــه ... ولا تصــل آيــة في التوبــة

وآيــة في النــور هــذا بهتــان ... وآيــة فيهــا بهــا الاســتئذان

وفي ختــام آيــة في المؤمنــين ... تبــارك الله بحفــظ المتقنــين

وثلــة مــن في صفــات السـابقين ... وفي ســواء آيــة المنــافقين

وعـددوا مــن ذاك نسـخ الرسـم ... لآيــة قــد نزلــت في الرجــم

وقـال قــولاً هــو في التــوراة قـد ... نبهــه كعــب عليــه فســجد

وفي الأذان الذكــر للرســول ... رأيتــه في خــبر موصــول

وفي القــرآن جــاء بــالتحقيق ... مــا هــو مــن موافــق الصديــق

كقولــه هــو الــذي يصلــي ... عليكـم أعظـم بـه مـن فضـل

وقولــه في آخــر المجادلــة ... لا تجــد الآيــة في المخاللــه

نظمــت مــا رأيتــه منقــولا ... والحمــد لله علــى مــا أولى اهــ

أقول: ومما هو صريح منها في موافقة ما أنزل في القرآن ما أخرجه البخاري في كتاب التفسير من صحيحه في تفسير سورة البقرة في باب: ﴿واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى﴾ عن أنس قال: قال عمر: وافقت الله في ثلاث أو وافقني ربي في ثلاث قلت يا رسول الله لو اتخذت مقام إبراهيم مصلى، زاد في كتاب الصلاة في باب ما جاء في القبلة فنزلت: ﴿واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى﴾ وقلت: يا رسول الله يدخل عليك البر والفاجر فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب فأنزل الله آية الحجاب قال: وبلغني معاتبة النبي ﷺ بعض نسائه فدخلت عليهن قلت: إن انتهيتن أو ليبدلن الله رسوله ﷺ خيراً منكن حتى أتيت إحدى نسائه قالت: يا عمر أما في رسول الله ﷺ ما يعظ نساءه حتى تعظهن أنت فأنزل الله: ﴿عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجاً خيراً منكن مسلمات﴾ الآية، ونزل القرآن بموافقته أيضاً في أسارى بدر وفي تحريم الخمر ومن حديث ابن عمر أن رسول الله ﷺ ضرب صدر عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين أسلم ثلاث مرات وهو يقول: اللهم أخرج ما في صدره من غل وأبدله إيماناً يقولها ثلاثاً. ومن حديثه أيضاً قال: قال رسول الله ﷺ: إن الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه. وروي من حديث عقبة بن عامر وأبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: لو كان بعدي نبي لكان عمر.

وقصة إسلامه رضي الله تعالى عنه على يد أخته فاطمة بنت الخطاب المكناة أم جميل ولقبها أميمة رضي الله تعالى عنها زوج سعيد بن زيد أحد العشرة المبشرين بالجنة خبرها عجيب ، قال الحافظ ابن حجر في الإصابة : أخرجه محمد بن عثمان بن أبي شيبة في تاريخه أبو نعيم في طريقه ومن طريق إسحاق بن عبدالله عن أبان بن صالح عن مجاهد عن ابن عباس قال: سألت عمر عن إسلامه قال: خرجت بعد إسلام حمزة بثلاثة أيام فإذا فلان بن فلان المخزومي فقلت له: أرغبت عن دين آبائك إلى دين محمد قال: قد فعل ذلك من هو أعظم عليك حقاً مني قال : قلت: ومن هو ؟ قال: أختك وختنك قال: فانطلقت فوجدت الباب مغلقاً وسمعت همهمة قال: ففتح لي الباب فدخلت فقلت: ما هذا الذي أسمع ؟ قالت: ما سمعت شيئاً فما زال الكلام بيننا حتى أخذت برأسها فقالت: قد كان ذلك على رغم أنفك ، قال: فاستحييت حين رأيت الدم وقلت : أروني الكتاب فذكر القصة بطولها . وروى الواقدي عن فاطمة بنت مسلم الأشجعية عن فاطمة الخزاعية عن فاطمة بنت الخطاب أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول: "لا تزال أمتي بخير ما لم يظهر فيهم حب الدنيا في علماء فساق وقراء جهال وجبابرة فإذا ظهرت خشيت أن يعمهم الله بعقاب" فنسأله تعالى أن لا يعمنا وجميع من نحبه بذلك العقاب.

ومناقبه رضي الله عنه جمة والحكايات عنه في عبادته وسيرته وزهده وشدته في الدين ممتعة لو ذكرناها لطال بنا الحديث وخرجنا عن المقصود . وبالله تعالى التوفيق وهو الهادي إلى سواء الطريق . انتهى من الكتاب المذكور .

فضل عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه

ولقد جاءت أحاديث صحيحة كثيرة في فضل عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، في الصحيحين وغيرهما نقتصر على بعضها على سبيل التبرك لا على سبيل الحصر والتعداد :

فقد جاء في صحيح البخاري في باب فضائل أصحاب النبي ﷺ في باب مناقب عمر بن الخطاب رضي الله عنه : عن محمد بن سعد بن أبي وقاص عن أبيه ، قال : استأذن عمر بن الخطاب على رسول الله ﷺ وعنده نسوة من قريش يكلمنه ويستكثرنه عالية أصواتهن على صوته ، فلما استأذن عمر بن الخطاب قمن

فبادرن الحجاب ، فأذن له رسول الله ﷺ فدخل عمر ورسول الله ﷺ يضحك فقال عمر: أضحك الله سنك يا رسول الله . فقال النبي ﷺ: عجبت من هؤلاء اللاتي كن عندي فلما سمعن صوتك ابتدرن الحجاب ، فقال عمر: فأنت أحق أن يهبن يا رسول الله ثم قال عمر : يا عدوات أنفسهن أتهبنني ولا تهبن رسول الله ﷺ فقلن: نعم أنت أفظ وأغلظ من رسول الله ﷺ ، فقال رسول الله ﷺ: إيها يا ابن الخطاب والذي نفسي بيده ما لقيك الشيطان سالكاً فجاً قط إلا سلك فجاً غير فجك . انتهى منه .

وفي البخاري أيضاً : عن ابن أبي مليكة أنه سمع ابن عباس يقول : وضع عمر على سريره فتكنفه الناس يدعون ويصلون قبل أن يرفع وأنا فيهم فلم يرعني إلا رجل أخذ منكبي فإذا علي فترحم على عمر وقال: ما خلفت أحداً أحب إلي أن ألقى الله بمثل عمله منك ، وايم الله إن كنت لأظن أن يجعلك الله مع صاحبيك ، وحسبت أني كنت كثيراً أسمع النبي ﷺ يقول : ذهبت أنا وأبو بكر وعمر ، ودخلت أنا وأبو بكر وعمر . وخرجت أنا وأبو بكر وعمر .

وفيه أيضاً : عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : صعد النبي ﷺ إلى أحد ومعه أبو بكر وعمر وعثمان فرجف بهم فضربه برجله قال: اثبت أحد فما عليك إلا نبي أو صديق أو شهيدان .

وفيه أيضاً : عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : لقد كان فيما قبلكم من الأمم محدثون ، فإن يك في أمتي أحد فإنه عمر ، زاد زكرياء بن أبي زائدة عن سعد عن أبي سلمة عن أبي هريرة قال : قال النبي ﷺ: لقد كان فيمن كان قبلكم من بني إسرائيل رجال يكلمون من غير أن يكونوا أنبياء فإن يكن من أمتي منهم أحد فعمر . انتهى منه.

وفيه أيضاً : عن ابن أبي مليكة عن المسور بن مخرمة قال : لما طعن عمر جعل يألم ، فقال له ابن عباس وكأنه يجزعه: يا أمير المؤمنين ولئن كان ذاك لقد صحبت رسول الله ﷺ فأحسنت صحبته ، ثم فارقته وهو عنك راض ، ثم صحبت أبو بكر فأحسنت صحبته ثم فارقته وهو عنك راض ، ثم صحبت صحبتهم فأحسنت صحبتهم ، ولئن فارقتهم لتفارقهم وهم عنك راضون قال: أما ما ذكرت من صحبة رسول الله ﷺ ورضاه فإنما ذاك من الله تعالى منَّ به علي ، وأما ما ذكرت من صحبة أبي بكر ورضاه فإنما ذاك من الله جل ذكره منَّ به علي وأما ما ترى

من جزعي ، فهو من أجلك ، وأجل أصحابك ، وا لله لو أن لي طلاع الأرض ذهباً ، لافتديت به من عذاب ا لله عز وجل قبل أن أراه . انتهى من البخاري .

ونكتفي بهذا القدر ، ففضل أصحاب النبي ﷺ معروف ، وما من مسلم إلا وهو يحبهم محبة عظيمة أكثر من نفسه وأولاده ، كيف وهم قد فازوا بمشاهدة رسول ا لله ﷺ وسعدوا بخدمته وخدمة هذا الدين السمح الحنيف .

اللهم صل على عبدك ونبيك "محمد" وعلى آله الأطهار وصحابته الأخيار ، وأزواجه المصونات الطاهرات أمهات المؤمنين ، وسلم تسليماً كثيراً .

عمر بن الخطاب وبعض أعماله

روي أن عمر بن الخطاب رضي ا لله عنه استعمل على حمص عمير بن سعد ، فلما مضت السنة ، كتب إليه عمر أن أقدم علينا ، فلم يشعر عمر إلا وقد قدم عليه ماشياً حافياً عكازته بيده وأدواته ومزودة وقصعته على ظهره فلما نظر إليه عمر قال له : يا عمير أجدبنا أم البلاد بلاد سوء فقال : ولمه يا أمير المؤمنين وقد جئت إليك بالدنيا أجرها بقرابها ، فقال له : وما معك من الدنيا قال : عكازة أتوكأ عليها وأدفع بها عدواً إن لقيته ومزود أحمل فيه طعامي وأداوة أحمل فيها ماء لشرابي ولطهوري ، فوا لله يا أمير المؤمنين ما الدنيا بعد إلا تبع لما معي فقام عمر من مجلسه إلى قبر رسول ا لله ﷺ وأبي بكر رضي ا لله عنهما فبكى ودعا ثم عاد إلى مجلسه فقال : ما صنعت في عملك يا عمير؟ فقال : أخذت الإبل من أهل الإبل والجزية من أهل الذمة عن يد وهم صاغرون ثم قسمتها بين الفقراء والمساكين وأبناء السبيل فوا لله يا أمير المؤمنين لو بقي عندي منها شيء لآتيتك به .

فقال عمر : عد إلى عملك يا عمير قال : أنشدك ا لله يا أمير المؤمنين أن تردني إلى أهلي فأذن له فأتى أهله فبعث عمر رجلاً يقال له حبيب بمائة دينار وقال له : اختبر لي عميراً وأنزل عليه ثلاثة أيام حتى ترى حاله أهو في سعة أم في ضيق فإن كان في ضيق فادفع إليه الدنانير فأتاه حبيب فنزل عليه ثلاثة أيام فلم ير له عيشاً إلا الشعير والزيت فلما مضت الثلاثة الأيام دفع إليه الدنانير وقال : قد بعث بها أمير المؤمنين إليك فدعى بفرو خلق لامرأته فجعل يصر منها الخمسة الدنانير والستة والسبعة ويبعث بها إلى إخوانه من الفقراء إلى أن أنفدها فقدم حبيب على عمر

وقال : جئتك يا أمير المؤمنين من عند أزهد الناس وما عنده من الدنيا قليل ولا كثير ولما رجع عمير من عند أهله أمر له عمر بوسقين من طعام وثوبين فقال : يا أمير المؤمنين أما الثوبان فأقبلهما وأما الوسقان فلا حاجة لي بهما فعند أهلي صاع من بر وهو كافيهم حتى أرجع إليهم .

وروي أن عمر رضي الله عنه صر أربعمائة دينار وقال لغلام : اذهب بها إلى أبي عبيدة بن الجراح ثم تربص عنده في البيت ساعة حتى تنظر ما يصنع فذهب بها الغلام إليه وقال له : يقول أمير المؤمنين عمر بن الخطاب : اجعل هذه في بعض حوائجك فقال : وصله الله ورحمته ثم دعا بجارية وقال لها : اذهبي بهذه السبعة إلى فلان وبهذه الخمسة إلى فلان حتى أنفدها فرجع الغلام إلى عمر وأخبره فوجده قد أعد مثلها لمعاذ بن جبل فقال : انطلق بها إلى معاذ بن جبل وانظر ما يكون من أمره ، فمضى إليه وقال له كما قال لأبي عبيدة بن الجراح ففعل معاذ كما فعل أبو عبيدة فرجع الغلام وأخبر عمر فقال : إنهم إخوة بعضهم من بعض رضي الله عنهم أجمعين .

قتل عمر رضي الله عنه وما قاله عند موته

جاء في صحيح البخاري في فضائل أصحاب النبي ﷺ في باب مناقب عثمان بن عفان رضي الله عنه : حدثنا موسى بن إسماعيل حدثنا أبو عوانة عن حصين عن عمرو بن ميمون قال : رأيت عمر بن الخطاب رضي الله عنه قبل أن يصاب بأيام بالمدينة ، وقف على حذيفة بن اليمان وعثمان بن حنيف ، قال : كيف فعلتما أتخافان أن تكونا قد حملتما الأرض ما لا تطيق ، قالا : حملناها أمراً هي له مطيقة ، ما فيها كبير فضل ، قال : انظرا أن تكونا حملتما الأرض ما لا تطيق قال : قالا : لا ، فقال عمر : لئن سلمني الله لأدعن أرامل أهل العراق لا يحتجن إلى رجل بعدي أبداً ، قال : فما أتت عليه إلا رابعة حتى أصيب ، قال : إني لقائم ما بيني وبينه إلا عبدالله بن عباس غداة أصيب ، وكان إذا مر بين الصفين قال استووا ، حتى إذا لم ير فيهن خلل تقدم فكبر ، وربما قرأ سورة يوسف أو النحل أو نحو ذلك في الركعة الأولى حتى يجتمع الناس ، فما هو إلا أن كبر فسمعته يقول : قتلني أو أكلني الكلب حين طعنه فطار العلج بسكين ذات طرفين ، لا يمر على أحد يميناً ولا شمالاً إلا طعنه حتى طعن ثلاثة عشر رجلاً مات منهم سبعة ، فلما رأى ذلك

رجل من المسلمين طرح عليه برنساً ، فلما ظن العلج أنه مأخوذ نحر نفسه ، وتناول عمر يد عبدالرحمن بن عوف فقدمه ، فمن يلي عمر ، فقد رأى الذي أرى ، وأما نواحي المسجد فإنهم لا يدرون ، غير أنهم قد فقدوا صوت عمر وهم يقولون : سبحان الله ، فصلى بهم عبدالرحمن صلاة خفيفة ، فلما انصرفوا قال : يا ابن عباس انظر من قتلني فجال ساعة ، ثم جاء فقال : غلام المغيرة ، قال : الصنع ، قال : نعم ، قال : قاتله الله لقد أمرت به معروفاً الحمد لله الذي لم يجعل ميتتي بيد رجل يدعي الإسلام ، قد كنت أنت وأبوك تحبان أن تكثر العلوج بالمدينة ، وكان أكثرهم رقيقاً ، فقال : إن شئت فعلت ، أي إن شئت قتلنا ، قال : كذبت بعدما تكلموا بلسانكم وصلوا قبلتكم وحجوا حجكم فاحتمل إلى بيته فانطلقنا معه وكأن الناس لم تصبهم مصيبة قبل يومئذ ، فقائل يقول : لا بأس ، وقائل يقول : أخاف عليه ، فأتي بنبيذ فشربه فخرج من جوفه ثم أتي بلبن فشربه فخرج من جوفه فعلموا أنه ميت فدخلنا عليه وجاء الناس يثنون عليه ، وجاء رجل شاب فقال : أبشر يا أمير المؤمنين ببشرى الله لك من صحبة رسول الله ﷺ وقدم في الإسلام ما قد علمته ، ثم وليت فعدلت ، ثم شهادة . قال : وددت أن ذلك كفاف لا علي ولا لي ، فلما أدبر إذا إزاره يمس الأرض قال : ردوا علي الغلام ، قال : ابن أخي ارفع ثوبك فإنه أبقى لثوبك ، وأتقى لربك ، يا عبدالله بن عمر انظر ما علي من الدين ، فحسبوه فوجدوه ستة وثمانين ألفاً أو نحوه ، قال : إن وفى له مال آل عمر فأده من أموالهم ، وإلا فسل في بني عدي بن كعب ، فإن لم تف أموالهم فسل في قريش ، ولا تعدهم إلا غيرهم ، فأد عني هذا المال ، انطلق إلى عائشة أم المؤمنين فقل : يقرأ عليكَ عمر السلام ، ولا تقل أمير المؤمنين فإني لست اليوم للمؤمنين أميراً ، وقل : يستأذن عمر بن الخطاب أن يدفن مع صاحبيه ، فسلم واستأذن ، ثم دخل عليها ، فوجدها قاعدة تبكي ، فقال : يقرأ عليك عمر بن الخطاب السلام ويستأذن أن يدفن مع صاحبيه ، فقالت : كنت أريده لنفسي ، ولأوثرن به اليوم على نفسي ، فلما أقبل قيل : هذا عبدالله بن عمر قد جاء ، قال : ارفعوني ، فأسنده رجل إليه ، فقال : ما لديك قال : الذي تحب يا أمير المؤمنين أذنت قال : الحمد لله ما كان مني شيء أهم إلي من ذلك ، فإذا أنا قضيت فاحملوني ثم سلم فقل : يستأذن عمر بن الخطاب فإن أذنت لي فأدخلوني ، وإن ردتني ردوني إلى مقابر المسلمين ، وجاءت أم المؤمنين حفصة والنساء تسير معها ، فلما رأيناها قمنا ، فولجت عليه ، فبكت عنده ساعة ، واستأذن الرجال فولجت

داخلاً لهم فسمعنا بكاءها من الداخل ، فقالوا : أوصي يا أمير المؤمنين استخلف ، قال : ما أجد أحق بهذا الأمر من هؤلاء النفر أو الرهط الذين توفي رسول ا لله ﷺ وهو عنهم راض ، فسمى علياً وعثمان والزبير وطلحة وسعداً وعبدالرحمن ، وقال يشهدكم عبدا لله بن عمر ، وليس له من الأمر شيء ، كهيئة التعزية له ، فإن أصابت الأمرة سعداً فهو ذاك ، وإلا فليستعن به أيكم ما أمر ، فإني لم أعزله عن عجز ولا خيانة ، وقال : أوصي الخليفة من بعدي ، بالمهاجرين الأولين ، أن يعرف لهم حقهم ، ويحفظ لهم حرمتهم ، وأوصيه بالأنصار خيراً الذين تبوؤا الدار والإيمان من قبلهم ، أن يقبل من محسنهم ، وأن يعفى عن مسيئهم ، وأوصيه بأهل الأمصار خيراً فإنهم ردء الإسلام وجباة المال وغيظ العدو ، وأن لا يؤخذ منهم إلا فضلهم عن رضاهم ، وأوصيه بالأعراب خيراً فإنهم أصل العرب ومادة الإسلام أن يؤخذ من حواشي أموالهم ويرد على فقرائهم ، وأوصيه بذمة ا لله وذمة رسوله ﷺ أن يوفي لهم بعهدهم ، وأن يقاتل من وراءهم ولا يكلف إلا طاقتهم ، فلما قبض خرجنا به فانطلقنا نمشي ، فسلم عبدا لله بن عمر ، قال : يستأذن عمر بن الخطاب ، قلت : ادخلوه . فأدخل فوضع هنالك مع صاحبيه فلما فرغ من دفنه اجتمع هؤلاء الرهط ، فقال عبدالرحمن : اجعلوا أمركم إلى ثلاثة منكم ، فقال الزبير : قد جعلت أمري إلى علي ، فقال طلحة : قد جعلت أمري إلى عثمان ، وقال سعد : قد جعلت أمري إلى عبدالرحمن بن عوف ، فقال عبدالرحمن : أيكما تبرءا من هذا الأمر فنجعله إليه وا لله عليه والإسلام لينظرن أفضلهم في نفسه فأسكت الشيخان ، فقال عبدالرحمن : أفتجعلونه إلي وا لله عليّ أن لا آلو عن فضلكم قالا : نعم ، فأخذ بيد أحدهما فقال : لك قرابة من رسول ا لله ﷺ والقدم في الإسلام ما قد علمت ، فا لله عليك ، لأن أمرتك لتعدلن ، لأن وأمرت عثمان لتسمعن ولتطيعن ، ثم خلا بالآخر فقال له مثل ذلك ، فلما أخذ الميثاق قال : ارفع يدك يا عثمان فبايعه فبايع له علي ، وولج أهل الدار فبايعوه . انتهى من البخاري .

ترجمة المطلب بن أبي وداعة السهمي رضي الله تعالى عنه

المطلب بن أبي وداعة السهمي رضي ا لله تعالى عنه الذي أخذ قياس موضع مقام إبراهيم عليه الصلاة والسلام من موضعه إلى الركن الأسود ، ومن موضعه إلى باب الحجر ، ومن موضعه إلى بئر زمزم كما تقدمت قصته .

أخذ هذا القياس "بالمقاط" بكسر الميم ، حبل مثل القماط فهو مقلوب منه ، والقماط ، بكسر القاف حبل يشد به قوائم الشاة عند الذبح ، وكذا ما يشد به الصبي في المهد ، كما جاء في مختار الصحاح .

والمطلب السهمي صحابي جليل روى عن النبي ﷺ بعض أحاديث وذكره ابن سعد في مسلمة الفتح . وقال الواقدي : نزل المدينة وله بها داراً وبقي دهراً . وقال أبو عبيد : له صحبة وروى عن النبي ﷺ وحديثه في مسند أحمد بسند صحيح إلى عكرمة بن خالد عن المطلب بن أبي وداعة قال : رأيت النبي ﷺ يسجد في النجم . . . الحديث ، وفي آخره قال المطلب : فلا أدع السجود فيها أبداً . انتهى ملخصاً عن الإصابة في تمييز الصحابة .

قال الإمام الأزرقي في تاريخه عند الكلام على ما جاء في القيام في الطواف ما نصه :

حدثنا أبو الوليد ، حدثني أحمد بن ميسرة المكي ، قال : حدثنا عبدالمجيد بن أبي رواد قال : سألت أبي عن القيام في الطواف فقال : كان عبدالكريم بن أبي المخارق أول من نهاني عن ذلك ، قال : أخذت بيده فاحتبسته لأسأله عن شيء فأنكر عليّ ذلك نكرة شديدة ووعظني فيه بأشياء قال : فبعثني ذلك على مسألته ، فأخبرت أن المطلب بن أبي وداعة خرج نحو البادية ثم قدم فرأى ناساً قياماً في الطواف يتحدثون فأنكر ذلك ثم قال : " اتخذتم الطواف أندية . قال أبي : ثم سألت نافعاً مولى ابن عمر ، فقلت : هل كان ابن عمر يقوم في الطواف ؟ فقال : لا رأيته قائماً فيه حتى يفرغ منه ، إلا عند الحجر والركن اليماني فإنه كان لا يدعهما أن يستلمهما في كل طواف طاف . انتهى من الأزرقي .

نقول : يكفي المطلب بن أبي وداعة السهمي شرفاً أن أمير المؤمنين عمر رضي ا لله تعالى عنهما وضع مقام إبراهيم عليه الصلاة والسلام في موضعه على القياس الذي أخذه المطلب السهمي رضي ا لله عنه .

وانظر إلى حكمة الباري جل جلاله، في إلهام المطلب بن أبي وداعة ليأخذ قياس موضع المقام قياساً محرراً تاماً بحبل احتفظ به عنده في بيته، وذلك خوفاً أن يذهب به السيل فلا يعرف موضعه بالضبط كما أخبر هو بذلك عن نفسه عندما تحدث مع عمر بن الخطاب رضي الله عنهما. فتأمل رحمك الله في قوله تعالى: ﴿فيه آيات بينات مقام إبراهيم﴾ لترى الحكمة الربانية جلية واضحة كالشمس المشرقة.

اهتمام عمر رضي الله عنه بأمر المقام

فإن قيل: لماذا لما بلغ أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه وهو بالمدينة أن السيل المسمى "بسيل أم نهشل" اقتلع المقام من محله وذهب به إلى أسفل مكة، ركب من ساعته فزعاً وأتى مكة.

نقول: إن مقام إبراهيم عليه السلام شأنه خطير، أليس الله تعالى قال في حقه: ﴿واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى﴾ وقال: ﴿فيه آيات بينات مقام إبراهيم﴾ فهو مقام مقدس لا يستهان بأمره، وهو كالحجر الأسود يرتبط أمرهما بالكعبة المشرفة إلى أن تقوم الساعة، فخليق بعمر رضي الله تعالى عنه أن يحضر من المدينة إلى مكة سريعاً عندما بلغه خبر السيل الذي اقتلع المقام من محله وذهب به إلى أسفل مكة أليس أن عمر رضي الله عنه كان يتمنى أن يجعلوا المقام مصلى قبل نزول آية: ﴿واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى﴾، فكيف لا يبادر بالحضور إلى مكة لينظر بنفسه في أمره.

حدث جابر عن حجة النبي ﷺ وقال: لما طاف النبي ﷺ قال له عمر: هذا مقام أبينا. قال: نعم. قال: أفلا نتخذه مصلى؟ فأنزل الله عز وجل ﴿واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى﴾.

وفي رواية: أن رسول الله ﷺ مر بالمقام ومعه عمر، فقال: يا رسول الله أليس هذا مقام أبينا إبراهيم؟ قال: بلى. قال: أفلا نتخذه مصلى. قال: لم أؤمر بذلك. فلم تغب الشمس حتى نزلت الآية.

وفي البخاري عن أنس بن مالك قال: قال عمر بن الخطاب: وافقت ربي في ثلاث أو وافقني ربي في ثلاث. قلت: يا رسول الله لو اتخذت مقام إبراهيم مصلى، فنزلت: ﴿واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى﴾ ... إلى آخر الحديث.

والذي جعل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه يهتم بشأن المقام فيركب من ساعته فزعاً قاصداً مكة أربعة أمور :

الأمر الأول : خوفه على المقام الكريم هل حدث فيه خدش أو كسر من أثر السيل الذي جره إلى أسفل مكة أم لا ، وهو المقام المقدس المحترم ، مقام باني الكعبة خليل الله "إبراهيم" عليه الصلاة والسلام .

الأمر الثاني : لا بد من وقوف ولي أمر المسلمين وأمامهم بنفسه على هذا الأمر الخطير ، فلو أرسل مندوباً من طرفه من المدينة ليأتيه بخبر المقام ، لكان عليه أن ينتظر مندوبه نحو عشرين يوماً بالدواب ذهاباً وإياباً حتى يرجع إليه من مكة فيخبره عن أمر المقام ، لأن المسافة بين مكة والمدينة بسير الإبل نحو عشرة أيام . وهذا مما لا يشفي غليله ، ولم يكن في أيامه رضي الله تعالى عنه "لاسلكي" حتى يتخابر مع مكة برقياً بالتلغراف .

الأمر الثالث : لو فرضنا أنه أرسل من طرفه مندوباً إلى مكة ، وانتظر رجوعه بالخبر اليقين ، ثم يرسله ثانياً إلى مكة ليبلغ عامله عليها أوامره التي يجب اتباعها في شأن المقام ، لاستلزم ذلك مدة لا تقل عن ثلاثين يوماً في حالة الإسراع . ففي كل هذه الأيام قد تنقطع الصلاة خلف المقام ، وقد أمرنا الله تعالى بالصلاة خلفه ، فإن لم تنقطع الصلاة فلا بد من حصول التشويش بين المصلين خلفه والطائفين حول البيت حيث أن المقام لما أتوا به من جهة المسفلة جعلوه في وجه البيت وربطوه بأستاره . فعليه رأى عمر رضي الله عنه اختصاراً للوقت المبادرة بالسفر بنفسه إلى مكة ليرجع كل شيء على ما كان عليه قبل هجوم السيل واقتلاعه للمقام .

الأمر الرابع : أن اقتلاع السيل للمقام وذهابه إلى أسفل مكة لأمر يوجب التشويش والاهتمام العظيم ، لأن محله كان من عهد النبي ﷺ وعهد خليفته أبي بكر رضي الله تعالى عنه ، وعمر قد لا يعرف بالضبط نقطة محله وموضعه ، وقد لا يعرفها بالضبط أيضاً أحد من أهل مكة ، وهو رضي الله عنه الحريص كل الحرص على اتباع رسول الله ﷺ خطوة خطوة ، والمحافظة على كل شيء كان في زمنه عليه الصلاة والسلام ، فلا يدري هل يجد عند أحد الصحابة بمكة علماً تاماً وقياساً محرراً عن محل المقام أم لا .

كل هذا كان يشغل ذهن عمر وفكر عمر رضي الله تعالى عنه وأكرمه بواسع فضله وإحسانه ، وكل هذا دفع عمر دفعاً ليبادر بالسفر فزعاً من ساعة ما بلغه خبر السيل الذي هجم على المسجد الحرام فاقتلع المقام من محله وذهب به .

وصل عمر رضي الله عنه إلى مكة في رمضان سنة سبع عشرة من الهجرة محرماً بعمرة ، وقد نزل في دار ابن سباع ، فلما دخل المسجد الحرام وقد غبي موضع المقام وعفاه السيل ، دعا عمر بالناس فقال : أنشد الله عبداً عنده علم في هذا المقام فقال المطلب بن أبي وداعة السهمي : أنا يا أمير المؤمنين عندي علم بذلك ، فقد كنت أخشى عليه هذا فأخذت قدره من موضعه إلى الركن . . . إلى آخر القصة المتقدمة .

فلما استوثق عمر من خبر المطلب بن أبي وداعة ، واستثبت ذلك بعد سؤاله الناس أيضاً ومشاورتهم أمر بالمقام فوضع في محله المضبوط المحرر بإجماع الصحابة وعلى مرأى ومشهد منهم .

روى الأزرقي في تاريخه عن عبدالله بن صفوان أنه قال : أمر عمر بن الخطاب رضي الله عنه عبدالله بن السائب العابدي وعمر نازل في دار ابن سباع ، بتحويل المقام إلى موضعه الذي هو فيه اليوم ، قال : فحوله ثم صلى المغرب ، وكان عمر قد اشتكى رأسه ، قال : فلما صليت ركعة جاء عمر فصلى ورائي .

قال : فلما قضى صلاته قال عمر : أحسنت . فكنت أول من صلى خلف المقام حين حول إلى موضعه . وروى الأزرقي أيضاً عن عبدالله بن السائب وكان يصلي بأهل مكة : قال : أنا أول من صلى خلف المقام حين رد في موضعه هذا ، ثم دخل عمر وأنا في الصلاة فصلى خلفي صلاة المغرب . انتهى .

نقول : لقد استنتجنا مما تقدم ما يأتي :

(١) أن سيل أم نهشل الذي اقتلع المقام من محله ، كان إما في شهر رمضان أو في أواخر شعبان ، حيث أنه بعد مجيء السيل مباشرة كتبوا إلى عمر رضي الله تعالى عنه عن أمر اقتلاع المقام ، فوصول الكتاب إليه مع الرسول حامل الكتاب يحتاج إلى نحو عشرة أيام بسير الدواب ، ووصول عمر إلى مكة يحتاج إلى عشرة أيام أيضاً ، فصار ما بين مجيء السيل إلى المسجد الحرام ووصول عمر رضي الله عنه إلى مكة عشرون يوماً ، وكان وصوله في شهر رمضان سنة (١٧) من

الهجرة ، ومع الأسف لم يذكر في التاريخ يوم مجيء السيل ولا يوم دخول عمر مكة .

(٢) لم يذكر في التاريخ هل عند وصول عمر رضي ا الله عنه محرماً بالعمرة طاف وسعي أو لا أم أنه قدم أمر المقام على ذلك ونحن نرى أنه رضي ا الله تعالى عنه قدم الطواف والسعي أولاً حتى يتحلل من إحرامه أولاً ثم ينظر في أمر المقام ، لأن تحية المسجد الحرام الطواف والطواف للمحرم يعقبه السعي ، ولا يعقل أن عمر رضي ا الله عنه يدخل المسجد الحرام وهو محرم فيترك الطواف والسعي ويبدأ بأمر المقام .

(٣) أن اجتماع عمر رضي ا الله تعالى عنه بالناس في المسجد الحرام بشأن المقام والتثبت من محله كان بعد صلاة العصر أو قبل المغرب بنحو ساعة أو أقل ، بدليل ما ذكره الأزرقي من قول عبدا لله بن صفوان .

(٤) أن عمر رضي ا الله تعالى عنه لم يضع بنفسه المقام في موضعه ، وإنما أمر عبدا لله بن السائب العابدي الذي كان يصلي بأهل مكة بتحويل المقام إلى موضعه فحوله المذكور ثم صلى المغرب بالناس ، فكان هو أول من صلى خلف المقام حين رده إلى موضعه ، فلما صلى ابن السائب ركعة جاء عمر فصلى وراءه ، وتأخر عمر عن اللحاق بالإمام ابن السائب في أول الصلاة كان لعذر من شكاية رأسه ، وهذا أيضاً هو السبب في عدم وضعه المقام بنفسه في محله ، كما هو صريح عبارة الأزرقي .

(٥) معنى قول عمر رضي ا الله تعالى عنه لعبدا لله بن السائب العابدي أمام أهل مكة : أحسنت ، وذلك بعد الفراغ من الصلاة ، أي لقد أحسنت في الإحرام بالصلاة بدون أن تنتظر حضوري .

ويؤخذ من إقرار عمر بهذا الأمر ورضائه به ، أن الإمام الراتب للصلاة أولى بالتقدم للصلاة بالناس من ولي المسلمين .

نعم لو أحب ولي الأمر التقدم للصلاة بالناس فهو عندئذ أحق بالتقدم من الإمام الراتب ، لأن الولاية والعزل راجع إليه . وا الله تعالى أعلم .

فإن قيل : لم أمر عمر رضي ا الله عنه عبدا لله بن السائب بوضع المقام إلى محله بعد التثبت والتحري عن موضعه و لم يأمر غيره بذلك ؟ .

نقول : لأن عبدا لله بن السائب صحابي جليل وقد كان شريك رسول ا لله ﷺ في الجاهلية .

ولأنه كان من قراء القرآن المهرة وعنه أخذ أهل مكة القراءة كما سيأتي ذلك في ترجمته .

فكانوا في صدر الإسلام يفضلون أهل القرآن لأنهم كانوا يعملون بما يعلمون . قال عمر رضي ا لله عنه : "أما إن نبيكم ﷺ قال : إن ا لله سبحانه يرفع بهذا القرآن أقواماً ويضع به آخرين" رواه الأزرقي في تاريخه ورواه مسلم في صحيحه .

(٦) أن عمر رضي ا لله تعالى عنه لما عرف محل المقام وثبت عنده ذلك بحضور الصحابة العدول رضي ا لله تعالى عنهم أمر ببناء تحت المقام ثم وضعه عليه كما تقدم بيان ذلك ، فلا يزال المقام مرتفعاً فوق رخامة بيضاء إلى يومنا هذا ، ومقدار ارتفاعه عن الأرض نحو نصف متر تقريباً .

فيكون أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي ا لله تعالى عنه هو أول من وضع المقام على بناء مرتفع عن الأرض وقد أحسن صنعاً بذلك أثابه ا لله تعالى عليه ، لأن حجر المقام مقدس مكرم ، ولأن ا لله تعالى أمرنا بالصلاة عنده ، فينبغي رفعه عن الأرض نحو ذراع أو أكثر فلا يلقي به على الأرض ، وعلى ذلك جرت العادة إلى يومنا هذا . فرضي ا لله عن عمر بن الخطاب الذي قال في حقه رسول ا لله ﷺ : "إن ا لله جعل الحق على لسان عمر وقلبه" رواه أحمد والترمذي وغيرهما.

وقال أيضاً : "لقد كان فيما قبلكم محدثون فإن يكن في أمتي أحد فإنه عمر" رواه البخاري ومسلم ، ومحدثون بفتح الدال المشددة أي ملهمون .

ترجمة عبد الله بن السائب العابدي رضي الله عنه

نذكر هنا ترجمته ملخصاً من كتاب الإصابة في تميز الصحابة ، ومن كتاب الاستيعاب في أسماء الأصحاب ، وهي كما يأتي :

هو عبدا لله بن السائب بن أبي السائب ، واسم أبي السائب صيفي بن عائذ ابن عبدا لله بن عمرو بن مخزوم القرشي المخزومي القارئ . كان عبدا لله من قراء القرآن ، أخذ عنه أهل مكة القراءة ، وعليه قرأ مجاهد وغيره من قراء أهل مكة ،

فلهذا كان يصلي بأهل مكة ولهذا أمره أمير المؤمنين عمر رضي ا لله تعالى عنه بتحويل المقام إلى موضعه كما تقدمت الإشارة إليه .

وقد روى مسلم لعبد ا لله بن السائب حديثاً من رواية محمد بن عباد ابن جعفر عنه أنه شهد النبي ﷺ في الفتح قرأ في صلاة الصبح سورة المؤمنين . . . الحديث ، وعلقه البخاري لعبدا لله بن السائب وأسنده في التاريخ ، وأسند البخاري بسند صحيح من طريق ابن أبي مليكة رأيت عبدا لله بن عباس وقف على قبر عبدا لله بن السائب .

وأخرج له أبو داود والنسائي من رواية عطاء عنه شهدت العيد مع النبي ﷺ . . . الحديث ، وحديث : سمعت رسول ا لله ﷺ يقول بين الركنين : ﴿ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة. . . الآية﴾ . اهـ .

ومن حديث عبدا لله بن السائب هذا قال : شهدت رسول ا لله ﷺ صلى الصبح بمكة فافتتح بسورة المؤمنين فلما أتى على ذكر موسى وهارون أخذته سعلة فركع .

قال هشام بن محمد الكلبي : وكان شريك رسول ا لله ﷺ في الجاهلية عبدا لله بن السائب .

وقال الواقدي : كان شريك رسول ا لله ﷺ في الجاهلية السائب بن أبي السائب .

وقال غيرهما : كان شريك رسول ا لله ﷺ في الجاهلية قيس بن السائب وقد جاء بذلك كله الأثر .

وكان عبدا لله بن السائب يسكن مكة وتوفي بها قبل قتل ابن الزبير بيسير كما في الاستيعاب .

وقال في الإصابة : مات عبدا لله بن السائب بمكة في إمارة ابن الزبير وصلى عليه ابن عباس رضي ا لله تعالى عن الجميع .

انتهى ذلك ملخصاً من الكتابين المذكورين بتصرف وزيادة .

فيفهم من الرواية السابقة : أن المقام كان في موضعه الآن قبل سيل أم نهشل ، وعمر رضي الله عنه ما وضعه إلا موضعه الأول ، وهذا يوافق قول ابن أبي مليكة ، وقول العمري ، وقول ابن سراقة ، وقد تقدمت أقوالهم ، وسواء كان المقام

قبل السيل في مكانه الآن أم لا ، فقد وضعه أحد الخلفاء الراشدين أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه بعد السيل المذكور في المكان الذي هو فيه الآن بعد مشاورة الصحابة رضي الله عنهم وإجماعهم على موافقته ، فنحن مأمورون باتباعهم والتمسك بطريقتهم .

ولئن كان عمر أخر المقام إلى هذا المكان الذي هو فيه الآن مخافة التضييق على الطائفين والمصلين كما ذكره ابن حجر العسقلاني في قوله المتقدم ، فقد أصاب عمر عين الحق ، ووفق أعظم توفيق ، وهذا يعد من مناقبه العظمى ، فلو لم يؤخر المقام إلى موضعه هذا كيف كان اليوم حال الطائفين مع المصلين وراء المقام وهو بجوار الكعبة . ولو كان عمر في زماننا ورأى هذا الازدحام العظيم في المطاف ، والمسجد الحرام على اتساعه الكبير يموج بآلاف الحجاج موج البحر ، لأمر بتأخير المقام إلى أبعد من ذلك . والله تعالى أعلم .

والحقيقة أن فضائل عمر رضي الله عنه لا تعد ، ومناقبه لا تحصى ومن الذي يحصي مناقب رجل ينزل القرآن وفق رأيه حتى هنا في اتخاذ المقام مصلى . وكفاه شرفاً قوله ﷺ : "لقد كان فيما قبلكم من الأمم محدثون ، فإن يكن في أمتي أحد فإنه عمر" ، وقوله عليه الصلاة والسلام : "إن الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه" ، ومعنى : جعل هنا : أجرى ، فجزاه الله وجميع صحابة رسول الله ﷺ عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء ، ووفقنا لاتباعهم ، وحشرنا في زمرتهم آمين .

ذرع مقام إبراهيم

قال الإمام الأزرقي في تاريخه : قال أبو الوليد : وذرع المقام ذراع ، والمقام مربع سعة أعلاه أربعة عشر إصبعاً في أربعة عشر إصبعاً ومن أسفله مثل ذلك وفي طرفيه من أعلاه وأسفله طوقا ذهب وما بين الطوقين من الحجر من المقام بارز بلا ذهب عليه ، طوله من نواحيه كلها تسع أصابع وعرضه عشر أصابع عرضاً في عشر أصابع طولاً وذلك قبل أن يجعل عليه هذا الذهب الذي هو عليه اليوم من عمل أمير المؤمنين المتوكل على الله وعرض حجر المقام من نواحيه إحدى وعشرون إصبعاً ، ووسطه مربع والقدمان داخلتان في الحجر سبع أصابع ودخولهما منحرفتان ، وبين القدمين في الحجر إصبعان ووسطه قد استدق من التمسح به والمقام في حوض من ساج مربع حوله رصاص ملبس به وعلى الحوض صفائح

رصاص ملبس بها ومن المقام في الحوض إصبعان وعلى المقام صندوق ساج مسقف ومن وراء المقام ملبن ساج في الأرض في طرفيه سلسلتان تدخلان في أسفل الصندوق ويقفل فيهما بقفلان . انتهى من تاريخ الأزرقي .

الذهب الذي على مقام إبراهيم

قال الإمام الأزرقي في تاريخه : حدثنا أبو الوليد قال : حدثني جدي قال : سمعت عبدا لله بن شعيب بن شيبة بن جبير بن شيبة يقول : ذهبنا نرفع المقام في خلافة المهدي فانثلم قال : وهو من حجر رخو يشبه السنان فخشينا أن يتفتت أو قال يتداعى فكتبنا في ذلك إلى المهدي فبعث إلينا بألف دينار فضببنا بها المقام أسفله وأعلاه وهو الذهب الذي عليه اليوم ، قال : سمعت يوسف بن محمد العطار يحدث عن عبدا لله بن شعيب نحوه ، قال : و لم يزل ذلك الذهب عليه حتى ولي أمير المؤمنين جعفر المتوكل على ا لله فجعل عليه ذهباً فوق ذلك الذهب أحسن من ذلك العمل فعمل في مصدر الحج سنة ست وثلاثين ومائتين فهو الذهب الذي عليه اليوم وجعل فوق ذلك الذهب الذي كان عمله المهدي و لم يقلع عنه ، وأخبرني غير واحد من مشيخة أهل مكة قالوا : حج المهدي أمير المؤمنين سنة ستين ومائة فنزل دار الندوة فجاء عبدا لله بن عثمان بن إبراهيم الحجبي بالمقام مقام إبراهيم في ساعة خالية نصف النهار فستحل عليه فقال للحاجب : ائذن لي على أمير المؤمنين فإن معي شيئاً لم يدخل به على أحد قبله وهو يسر أمير المؤمنين فأدخله عليه فكشف عن المقام فسر بذلك وتمسح به وسكب فيه ماء ثم شربه وقال له : أخرج وأرسل إلى بعض أهله فشربوا منه وتمسحوا به ثم أدخل فاحتمله ورده مكانه وأمر له بجوائز عظيمة وأقطعه خيفاً بنخله يقال له : ذات القويع فباعه من منيرة مولاة المهدي بعد ذلك بسبعة آلاف دينار . انتهى من الأزرقي .

تطويق المقام بالذهب والفضة

أول من طوق مقام إبراهيم عليه السلام ، أي الحجر الذي كان يقوم عليه عند بناء البيت الحرام بالذهب ، أمير المؤمنين محمد المهدي العباسي ، وذلك سنة مائة وإحدى وستين ، فإنه لما بلغه أن المقام قد مر عليه زمان طويل ، ويخشى عليه أن يتفتت أو يتداعى بعث بألف دينار فضببوه بها ، ثم في سنة مائة وتسع وسبعين

رأى هارون الرشيد أن الفضة التي ضبب بها الحجر تخلخلت ، فأمر بضبطه وإصلاحه فثقب الحجر بالماس وسكب فيه فضة ، ثم إن أمير المؤمنين جعفر المتوكل أمر أن يجعل فوق ذلك الذهب ذهب أحسن منه ، فضببوه به وأحكموا شده وضبطه ، وذلك سنة ست وثلاثين ومائتين ، ثم إن الحجبة سدنة البيت الحرام ذكروا لعامل مكة علي بن الحسن العباسي أن المقام تسللت أحجاره ويخشى عليه ، فأمر أن يعمل له طوقان طوق من ذهب وطوق من فضة ، وذلك في المحرم سنة ست وخمسين ومائتين فأحضر المقام إلى دار الإمارة وأذيبت له العقاقير بالزئبق وشد بها شداً جيداً حتى التصق ، وكان قبل ذلك سبع قطع ، وكان الذي شده بيده في السنة المذكورة بشر الخادم مولى أمير المؤمنين المعتمد العباسي ثم حمل المقام بعد تركيب الطوقين عليه ولصقه وشده إلى موضعه وكان ذلك يوم الاثنين الثامن من ربيع الأول سنة ست وخمسين ومائتين . قال الفاسي : وهذا ملخص ما ذكره الفاكهي .

وروى صاحب كتاب إتحاف فضلاء الزمن : أن إبراهيم بيك عمّر المقام وجدد ما كان محتوياً على موضع قدم إبراهيم عليه الصلاة والسلام بالفضة المطلية بالذهب ، وصب الرصاص بين الفضة والحجر ، حتى أحكموا الفضة ، وشدوا أحجار القدم ، وذلك في سنة ألف ومائة واثنتي عشرة هجرية .

ما ذكره إبراهيم رفعت باشا في كتابه مرآة الحرمين عن مقام إبراهيم

عليه الصلاة والسلام وما كتب عليه

١- مقام إبراهيم . هو مقامه المعروف بالمسجد الحرام وهو أقوى الأقوال . قال تعالى : ﴿واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى﴾ ونرى أن الآية صريحة في أن المصلى بعض المقام ، أي موضع القيام والحجر لا يصلح أن يكون مصلى لصغره فالمقام مكان غيره أكبر منه ولعل الحجر المعروف الآن بمقام إبراهيم كان موضوعاً في مكان قيامه علامة عليه ملخص من الفقرة الأولى ص٢٤٢ و٢٤٣ مرآة الحرمين .

٢- قياس المقام، الحجر وتحليته . قال القاضي عز الدين بن جماعة : حررت لما كنت مجاوراً بمكة سنة ٧٥٣ مقدار ارتفاع المقام عن الأرض فكان ٧/٨ الذراع وأعلى المقام مربع من كل جهة ٣/٤ الذراع وموضع غوص القدمين ملبس بالفضة وعمقه من فوق الفضة سبع قراريط ونصف من ذراع القماش المستعمل في مصر . اهـ .

وأول ما حلي المقام في خلافة المهدي العباسي لأنه رفع فانثلم لرخاوة حجره فكتب الحجبة إلى المهدي يعرفونه بذلك وأنهم يخشون عليه أن يتفتت فبعث المهدي في سنة ١٦١ بألف دينار أو أكثر فضببوا بذلك المقام من أعلاه وأسفله فلما كان في خلافة المتوكل زاد في تضبيب المقام سنة ٢٣٦ ومقدار ما زاده ٨٠٠٠ مثقال من الذهب و٧٠٠٠٠ درهم من الفضة وكان ذلك فوق حليته الأولى . ثم إن جعفر بن الفضل عامل مكة ومحمد بن حاتم قلعا حلية المتوكل وضرباها دنانير ليستعينا بها على ما قيل في حرب إسماعيل بن يوسف العلوي الذي خرج وأفسد بمكة والحجاز في سنة ٢٥١ ولم تزل حلية المهدي على المقام إلى أن قلعت عنه في محرم سنة ٢٥٦ لأجل إصلاحه لأن الحجبة ذكروا لعامل مكة علي بن الحسن العباسي أن المقام وهي وتسللت أحجاره ويخشى عليه وسألوه في تجديد عمله وتضبيبه حتى يشتد فأجابهم لسؤالهم وزادهم ذهباً وفضة إلى حليته الأولى فعمل له طوقان من ذهب فيهما ١٩٩٢ مثقال وطوق من فضة وأحضر المقام إلى دار الأمان وأذيبت له العقاقير بالزئبق وشد بها شداً جيداً حتى التصق وكان قبل ذلك سبع قطع زال عنها الالتصاق لما قلعت الحلية عنه سنة ٢٥٥ أو ٢٥٦ لأجل إصلاحه وكان الذي شده بيده في هذه السنة بشر الخادم مولى أمير المؤمنين المعتمد العباسي وحمل المقام بعد لصقه وتركيب الحلية عليه لشده إلى موضعه وكان ذلك في يوم الاثنين ٨ ربيع الأول سنة ٢٥٦ . اهـ الفقرة الثانية مرآة الحرمين .

٣- موضع المقام والمصلى خلفه . قال التقي الفاسي : روى الأزرقي عن ابن أبي مليكة أن موضع المقام الآن هو موضعه في الجاهلية وفي عهد النبي ﷺ والخليفتين رضي الله عنهما بعده إلا أن السيل سيل أم نهشل سنة ١٧هـ ذهب به في خلافة عمر رضي الله عنه فجعل في وجه الكعبة الجهة الشرقية إلى منها الباب الخ . . . منقول من تاريخ الأزرقي .

قال التقي الفاسي : المقام الآن تحت قبة عالية من خشب قائمة على أربعة أعمدة دقيقة من حجارة منحوتة بينها أربعة شبابيك من حديد بين كل عمودين شباك ومن الجهة الشرقية يدخل إلى المقام والقبة مزخرفة من باطنها بالذهب ، ومما يلي السماء مبيضة بالنورة . وأما المصلى الذي هو خلف المقام فعليه ظلة قائمة على أربعة أعمدة ، منها عمودان عليهما القبة إذ هي متصلة بالقبة والظلة مزخرف سقفها من الباطن بالذهب ومبيض أعلاه بالنورة وأحدث وقت صنع فيه ذلك شهر رجب سنة ٨١٠هـ واسم الملك الناصر فرج صاحب الديار المصرية والشامية مكتوب فيه بسبب هذه العمارة ، واسم الملك الناصر محمد بن قلاوون صاحب مصر مكتوب في الشباك الشرقي بسبب عمارته له في سنة ٧٢٨هـ ومقام إبراهيم في وسط القبة بين شبابيكها الأربعة الحديدية ويحيط بالمقام قبة من الحديد مقصورة مثبتة في الأرض برصاص مصبوب بحيث لا يستطاع قلع القبة التي فوقه إلا بالمعاول وشبهها ولعل هذه القبة الحديدية هي التي كانت توضع فوقه عند قدوم الحجاج إلى مكة صوناً له لكونها أشد تحملاً للازدحام والاستلام على ما ذكره ابن جبير في رحلته سنة ٥٧٩هـ وقد ذكر ما يدل على أن المقام لم يكن ثابتاً بل كان تارة يجعل في الكعبة وتارة في موضعه الآن في قبة من خشب فإذا كان الموسم أبدل بها القبة الحديدية .

قال التقي الفاسي : وما عرفت حتى جعل المقام ثابتاً في القبة على صفته التي هو عليها الآن وأما القبة التي فوق القبة الحديدية التي في جوفها المقام ، فأظن أن الملك المسعود صاحب اليمن ومكة أول من بناها . اهـ .

وقد جددت قبة المقام في سنة ٩٠٠هـ وكذلك في سنة ١٠٤٩هـ ونقشها بالذهب في ١٠٧٢هـ سليمان بك والي جدة ومكة من قبل السلطان محمد كزلار سلطان مصر وقد رأيت مكتوباً على القبة من الجهة الجنوبية أمر بتجديد هذا المقام الشريف -كلام كثير- الملك الأشرف أبو النصر قانصوه الغوري عز نصره في ١٥ رجب سنة ٩٠٠هـ ومكتوباً عليها في الجهة الغربية المقابلة لباب الكعبة أمر بتجديد هذا المقام المعظم ، السلطان سليم خان ابن السلطان بايزيد خان وعلى الجهة الشمالية بقية أجداده سنة ١٠٤٩هـ وقد قست المسافة التي بين المقصورة التي على المقام وجدار الكعبة الذي فيه الباب من الوسط فإذا هي ١٥/٤٠ متراً ودخلت المقصورة مع المطوف فوضع من ماء زمزم على أثر القدمين وشربنا منه في

حجتنا هذه سنة ١٣١٨هـ وكان خليقاً بي وبالمطوف أن نتجنب التبرك بالآثار والشرب من مواطئ الأقدام وأن ندع هذه البدعة جانباً ولا نفعل عند هذا الأثر سوى ما فعله رسول الله ﷺ من الصلاة عنده امتثالاً لأمر الله تعالى: ﴿واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى﴾ ولكن كنت في هذا الوقت لما تنضج معلوماتي الدينية في الحج ومشاعره ولم أكن وقفت تمام الوقوف على تأثير البدع السيء في الدين وقد دعاني الإنصاف إلى ذكر الواقع ودعاني البصر بالدين إلى إنكار ما حصل.

الأحجار الأثرية المفروشة خلف مقام إبراهيم عليه الصلاة والسلام

جاء في تاريخ الغازي ص٢٢٠ من الجزء الأول:

ونقل العلامة ابن خليل في منسكه الكبير أن الحجرين الكبيرين المفروشين خلف المقام الذي يقف المصلي عليهما قد صلى عليهما بعض الصحابة.

وفي منائح الكرم وفي سنة (١٠٨٨) ورد بعض المغاربة من البحر في أواسط شعبان المعظم بحجر سماق طوله ذراعين وشيء، وطلعوه إلى مكة على عجل زعموا أنهم أخذوه من بعض كنائس النصارى، وأنهم بذلوا للمغاربة دراهم لها صورة فامتنعوا من ذلك وأرسلوه ليجعلوه في الحرم، وأرادوا وضعه خلف مقام سيدنا إبراهيم الخليل عليه السلام.

ورفع أحد الحجرين الموضوعين هناك في مصلى الإمام الشافعي، فرفع في ذلك سؤال إلى مفتي مكة في هذا العصر وهو الشيخ عبدالله بن المنلا فروخ الحنفي، فذكر لي أنه أجابهم بما ذكر المنلا رحمة الله السندي عن بعض من أدركه من أئمة المقام أن الحجرين المفروشين خلف المقام اللذين يقف المصلي عليهما قد صلى عليهما بعض الصحابة، انتهى كلام المنلا، فأمر نائب الحرم الشريف فدفن ذلك الحجر في المسجد فدفن خلف مقام الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه. ثم في سنة ١٠٩٨ يوم الثلاثاء ثاني محرم أمر أحمد باشا بإصلاح نصوص اختلت في الشاذروان وأمر بالحجر السماق المدفون بإخراجه فوضعه تحت الركن الأسود مما يلي الأرض ودفن ما كان في ذلك الموضع من الرخام بعد قلعه. انتهى. انتهى من تاريخ الغازي.

التحقيق التام عن موضع المقام

لقد تقدم من الكلام ما فيه الكفاية عن مقام خليل الله إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، غير أن الله سبحانه وتعالى فتح علينا فهم مسألة دقيقة عنه وهي :

أن المشهور لدى المؤرخين وجميع الناس أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه هو الذي وضع المقام في هذا المحل الآن الذي هو أمام باب الكعبة بجوار بئر زمزم ، وذلك عندما ذهب سيل أم نهشل بالمقام . وهذا كلام صحيح لا شك فيه .

غير أن عمر رضي الله عنه ما وضع المقام إلا في نفس المحل الذي كان فيه قبل أن يذهب به سيل أم نهشل ، أي وضعه في الموضع الذي كان المقام فيه في عهد رسول الله ﷺ وفي عهد خليفته أبي بكر رضي الله تعالى عنه بدليل ما رواه الإمام الأزرقي أن عمر لما حضر من المدينة إلى مكة لأجل وضع المقام في محله ودخل المسجد الحرام وقف عنده وقال : "أنشد الله عبداً عنده علم في هذا المقام" فقال المطلب بن أبي وداعة السهمي رضي الله عنه : أنا يا أمير المؤمنين عندي علم بذلك ، فقد كنت أخشى عليه مثل هذا الأمر ، فأخذت قدره من موضعه إلى الركن ومن موضعه إلى باب الحجر ومن موضعه إلى زمزم بمقاط وهو عندي في البيت . فقال له عمر : فاجلس عندي وأرسل إليها ، فأتى بها فمدها فوجدها مستوية إلى موضعه هذا ، فسأل الناس وشاورهم فقالوا : نعم هذا موضعه ، فلما استثبت ذلك عمر أمر به فأعلم ببناء تحت المقام ثم وضعه فهو في مكانه هذا إلى اليوم . اهـ .

فظاهر كلام الأزرقي وصريح عبارته أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه لم يضع المقام في محله الذي هو فيه اليوم باجتهاد من نفسه ، وإنما وضعه في محله الأول بعد السؤال ممن يعرف محله تمام المعرفة ، وبعد أن أحضر الصحابي الجليل المطلب بن أبي وداعة السهمي رضي الله عنه الحبل الذي قاس به موضع المقام من كل جهة قبل أن يذهب به سيل أم نهشل وقد ألهم الله تعالى المطلب بن أبي وداعة أن يأخذ القياس فربما يحتاجون إليه في مثل هذا اليوم وقد وقع تخمينه .

فعمر رضي الله تعالى عنه وأرضاه بعد أن عرف محل المقام على قياس المطلب بن أبي وداعة ، سأل أيضاً الصحابة العدول الحاضرين معه عند الكعبة المشرفة فشهدوا بأن هذا هو موضع المقام ، فعندئذ أمر ببناء تحت المقام ثم وضعه في محله على هذا البناء .

فإن قيل : لم يسأل عمر الصحابة رضي الله عنهم جميعاً عن موضع المقام ومحله الأصلي ، وهو الذي يعرف محله حق المعرفة فإنه ليس بغريب عن مكة ، بل هو الذي قال : "يا رسول الله لو اتخذت مقام إبراهيم مصلى" فنزلت آية : ﴿واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى﴾ فجاء أمر الله تعالى على حسب ما كان يرجو ويتمنى ، فغير معقول أن لا يعرف عمر محل المقام بالضبط ؟ .

نقول : نعم إن عمر رضي الله تعالى عنه يعرف موضع المقام حق المعرفة ما في ذلك شك ، ولكنه أراد بسؤال أصحاب رسول الله ﷺ أمرين مهمين دقيقين :

الأمر الأول : تكريمهم باستشارتهم ومحافظته على اعتبارهم ومقامهم ، وحتى لا يقال إنه يقطع الأمور بدون أخذ رأيهم وموافقتهم ، والاستشارة سنة مؤكدة في جميع الأمور ، وهي في الأمور المهمة الدينية أشد طلباً وآكد .

والأمر الثاني : أن عمر رضي الله عنه سأل صحابة رسول الله ﷺ في المسجد الحرام عن موضع المقام ومحله وهو أعرف منهم بذلك ، حتى يتثبت من الأمر بشهادة غيره ويظهر ذلك كالشمس في رابعة النهار لمن حضر من الصحابة الكرام في المسجد الحرام ، فلا يتهمه أحد من المنافقين والأعداء أنه وضع المقام هنا بدون أخذ رأي الصحابة ولا استشهاد أحد منهم .

فعمله هذا رضي الله تعالى عنه هو عين الصواب وعين الحكمة ، ولقد وافق الحاضرون من أجلاء الصحابة رضي الله عنهم ممن شهد بدراً وأحداً وغيرهما من المشاهد ، على أن موضع المقام ومحله هو ما ذكره المطلب بن أبي وداعة السهمي رضي الله تعالى عنه ، فأمضى عمر شهادتهم ووافق على رأيهم وحكمهم ، فكان ذلك إجماعاً تاماً منهم رضي الله عنهم أجمعين ، فنحن مأمورون باتباعهم والتمسك بطريقتهم .

وانظر أيها القارئ الكريم رحمنا الله وإياك ، كيف خدم صحابة رسول الله ﷺ ديننا الحنيف السليم من كل شائبة ، وكيف أنهم حافظوا على أصوله وفروعه

ومسائله وأموره، فرضي الله عنهم وأرضاهم ووفقنا لاتباع سنتهم، فكلهم كالنجوم الزاهرة بأيهم اقتدينا اهتدينا.

وانظر إليهم رضي الله عنهم كيف جمعوا القرآن العظيم لأول مرة في التاريخ وقد كان مفرقاً في الألواح والعظام وصدور الرجال، ما جمعوه اعتماداً على أن أحدهم يقول: عندي آية كذا أو سورة كذا وكلهم أتقياء عدول، بل جمعوه آية آية بشهادة الشهود، فلقد كان زيد بن ثابت رضي الله عنه لا يقبل من أحد شيئاً حتى يشهد شاهدان.

أخرج ابن أشتة في المصاحف عن الليث بن سعد قال: أول من جمع القرآن أبو بكر وكتبه زيد، وكان الناس يأتون زيد بن ثابت فكان لا يكتب آية إلا بشاهدي عدل... الخ، وأخرج ابن أبي داود من طريق هشام ابن عروة عن أبيه: أن أبا بكر قال لعمر ولزيد: اقعدا على باب المسجد فمن جاءكما بشاهدين على شيء من كتاب الله فاكتباه. اهـ. انظر كتابنا المطبوع "تاريخ القرآن وغرائب رسمه وحكمه".

هكذا كانت الصحابة رضي الله عنهم يحتاطون في كل شيء من أمور ديننا الحنيف الذي اختاره الله تعالى لنا كما هو صريح قوله: ﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً﴾ فالحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله.

بقيت علينا مسألة دقيقة يجب أن نعرفها بصورة واضحة، وهذه المسألة تشتمل على ثلاث أحوال:

الحالة الأولى: أين كان المقام في عهد إبراهيم عليه الصلاة والسلام؟

الحالة الثانية: أين كان المقام في الجاهلية؟

الحالة الثالثة: أين كان المقام في عهد رسول الله ﷺ؟

(أما في الحالة الأولى) فالذي نراه أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام بعد أن فرغ من بناء البيت وضعه إما داخل الكعبة أي في الحفرة التي حفرها في بطنها على يمين الداخل وكان عمقها ثلاثة أذرع لتكون بمثابة الخزانة يوضع فيها ما يهدى للكعبة، وإما وضعه لزق الكعبة عند بابها، فلا يعقل أنه وضعه في محله اليوم بقرب زمزم

بعيداً عن الكعبة بمسافة أذرع بدون سبب ، وأي سبب لذلك و لم يأمره ا لله تعالى بالتوجه إليه حين الصلاة كما أمر الأمة المحمدية بذلك .

فإذا علمنا أن حجر المقام ياقوتة من يواقيت الجنة كالحجر الأسود ، وأن خليل ا لله إبراهيم عليه الصلاة والسلام قام عليه حين بناء الكعبة ، وقام عليه أيضاً حينما أذن في الناس بالحج كما أمره ا لله تعالى ، وأن قدميه راسختان على هذا المقام وأنه من الآيات البينات كما في صريح الآية .

علمنا أن إبراهيم لا يفرط في هذا المقام المكرم ويبعده عن الكعبة إلى جهة زمزم ، بل إنه بعد أن انتهى من غرضه منه حفظه في الحفرة التي في باطن الكعبة أي في الجب ، ليبقى دهراً طويلاً حتى يأتي نبي آخر الزمان سيدنا "محمد" ﷺ حيث يأمره ا لله تعالى بالصلاة عنده ، هكذا أطلع ا لله تعالى خليله إبراهيم عليه السلام بعد أن بنى البيت ما سيكون في شأن المقام في آخر الزمان ، وهكذا حفظ لنا إبراهيم مقامه الكريم المقدس الذي فيه أثره الخالد كما أمره ا لله تعالى ، فإن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لا يفعلون شيئاً في أمور الدين إلا بوحي وإلهام من ا لله الملك العزيز العلام .

ثم إن إسماعيل عليه الصلاة والسلام لم يحرك المقام و لم يخرجه من جوف الكعبة ، لأنه يعرفه حق المعرفة فلماذا يخرجه من موضعه وهو لم يؤمر بالصلاة خلفه ، وإنما حافظ عليه محافظة تامة وكذلك أولاده من بعده .

(أما في الحالة الثانية) فإنه لما مر على بناء إبراهيم عليه السلام للبيت نحو ألفي سنة تقريباً واشتهر أمر المقام ووجود أثر القدمين فيه وكثر الناس بمكة وأطرافها ، صار أهل الجاهلية في شوق عظيم لرؤية هذا المقام المقدس كما أن المسلمين اليوم في شديد الشوق لرؤيته وهو محجوب تحت الصندوق والستارة الكثيفة ، فكانوا أحياناً يخرجونه من جوف الكعبة فيضعونه بلزقها عند الباب ، أي في محل الحفرة الموجودة بالجانب الأيمن من الباب ، فيشاهدونه جميعاً ويحترمونه أشد الاحترام ، كيف لا ، وهو التراث العربي المقدس الباقي لهم من باني الكعبة الأول إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام ، وأحياناً يرجعونه إلى جوف الكعبة أيضاً بحسب ما تقتضيه المصلحة وخوفاً عليه من السيول .

ولا يعقل أنهم إذا أخرجوا المقام من جوف الكعبة أن يضعوه في محله اليوم بقرب زمزم ، أي في آخر حدود المسجد الحرام في ذلك العهد قبل الإسلام ، وما

الداعي لإبعاده عن الكعبة وهم لا يصلون عنده ، بل إنهم لا يعرفون الصلاة وكيفيتها ، فعبادتهم كانت للأصنام ، والأصنام بكثرة عند الكعبة وما حولها .

ومن المعجزات الباهرات أن أهل الجاهلية مع عبادتهم للأوثان والأصنام بمختلف أنواعها ، لم يسمع قط أنهم عبدوا حجر المقام أو الحجر الأسود أو الكعبة ، وهذا سر من الأسرار الدقيقة لا يخفى على العلماء العاملين وذوي الألباب .

(وأما الحالة الثالثة) فقد قيل كان المقام في أول عهد رسول الله ﷺ أي قبل فرض الصلوات الخمس بلزق البيت عند الباب أي في محل الحفرة ، وقيل : كان المقام في داخل الكعبة فلما كان يوم فتح مكة أخرجه رسول الله ﷺ منها فوضعه بلزق الكعبة أي في محل الحفرة أيضاً ، فلما أنزل الله تعالى عليه : ﴿واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى﴾ نقله ﷺ إلى الموضع الذي هو فيه الآن بقرب زمزم ، لئلا ينقطع الطواف بالمصلين ، وحتى لا يحصل ضيق على الطائفين والمصلين .

فبقي المقام في محله الذي هو فيه اليوم في عهد رسول الله ﷺ وفي عهد أبي بكر وفي عهد عمر رضي الله تعالى عنهما ، فلما جاء سيل أم نهشل في عهد عمر ذهب بالمقام إلى أسفل مكة ، فأتوا به وربطوه بأستار الكعبة عند الحفرة المذكورة ، وأرسلوا إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه يخبرونه بذلك ، فركب من ساعته فزعاً وأتى مكة فوضع المقام في محله هذا الذي هو فيه اليوم بعد أخذ رأي صحابة رسول الله ﷺ والتثبت التام عن محله وموضعه ولم ينكر أحد منهم فعل عمر ولا من جاء بعدهم فصار ذلك إجماعاً .

فعلم من كل ما تقدم أن محل المقام الذي هو فيه الآن عند زمزم ، هو محله الأصلي الذي كان في عهد رسول الله ﷺ وفي عهد أبي بكر وفي عهد عمر رضي الله تعالى عنهم أجمعين ، وجزاهما الله تعالى عن الأمة المحمدية خير الجزاء ، وإلى عهدنا هذا لم يتغير موضعه ولن يتغير إلى أن تقوم الساعة إن شاء الله تعالى .

فإن قيل : إن المقام بعد الإسلام كان ينقل من محله فيوضع أحياناً في جوف الكعبة ؟

نقول : نعم حصل ذلك مرتين :

الأول : في زمن القرامطة سنة (٣١٧) للهجرة .

والثاني : في زمن ابن جبير كما ذكره في رحلته حينما وصل مكة للحج سنة (٥٧٩) للهجرة ، كما سنذكر ذلك الآن .

ولكن إذا أخرج المقام من الكعبة فإنه لا يوضع إلا في موضعه الأصلي الأول ، ولم يسمع قط أن المقام إذا أخرج من الكعبة يوضع في غير محله ويصلى عنده فلو حصل هذا لذكره أصحاب التواريخ بدون شك .

وإليك تفصيل الحالتين المذكورتين :

فالمرة الأولى : أنه لما كانت فتنة القرامطة ووصلوا إلى مكة في اليوم السابع أو اليوم الثاني من ذي الحجة سنة (٣١٧) سبع عشرة وثلاثمائة ، وحملوا معهم الحجر الأسود إلى بلادهم حين رجوعهم ، أرادوا أيضاً أن يحملوا معهم "مقام إبراهيم" عليه الصلاة والسلام ، فغيبه حجبة الكعبة وسدنتها في بعض شعاب مكة ، فلما سكنت فتنتهم ورجعوا إلى بلادهم ، أحضرته السدنة فوضعوه في محله الأصلي المعروف لدى كافة الناس .

والمرة الثانية : لما كان المقام في القرن السادس لم يكن ثابتاً في موضعه الأصلي الذي هو بجوار بئر زمزم ، فإنهم كانوا يرفعونه أحياناً لسبب من الأسباب فيضعونه في جوف الكعبة في مدخل درجتها الموصلة إلى سطحها ويقفون عليه باب الدرجة . فإذا أحضروه منها وضعوه في محله الأصلي ولا يضعونه في محل آخر مطلقاً .

وكان للمقام قبتان :

إحداهما : قبة من الخشب توضع عليه في غير أوقات الحج .

وثانيتهما : قبة من الحديد توضع عليه في وقت موسم الحج ، لكون هذه القبة الحديدية أحمل وأقوى للازدحام والاستلام ، كما ذكره ابن جبير رحمه الله تعالى في رحلته وذلك حسبما رآه عند وصوله إلى مكة للحج في شهر رجب سنة (٥٧٩) تسع وسبعين وخمسمائة هجرية .

فمهما رفعوا المقام في جوف الكعبة فإنه عند إخراجه منها يضعونه في محله الأصلي ، ولم يذكر في التاريخ قط أن المقام وضع في مكان غير مكانه الأصلي ، فموضعه هو المحل الذي وضعه فيه رسول الله ﷺ ، وإلى عهدنا هذا لم يتغير محله هذا ولن يتغير إن شاء الله تعالى حتى قيام الساعة .

واعلم أيها القارئ الكريم رحمنا الله تعالى وإياك وجعل الجنة مأوانا ومأواك ، أن هذا المبحث النفيس الفريد لا تجده في كتاب غير هذا الكتاب ، فالحمد لله الذي ألهمنا لكتابته بفضله العظيم الواسع ، وذلك في اليوم الثالث عشر والرابع عشر من شهر رجب سنة ألف وثلاثمائة وسبع وسبعين هجرية ، وصلى الله وسلم على خاتم الأنبياء نبينا "محمد" كما صلى وسلم على أبي الأنبياء "إبراهيم" وعلى جميع الأنبياء والمرسلين وآل كل منهم وصحابته أجمعين ، وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين .

كسوة المقام

يظهر والله تعالى أعلم أن وضع الكسوة على المقام من اختراع دولة آل عثمان فقد كان من عادة سلاطينهم أن يكسوا مقام إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام الذي هو بجوار الكعبة بكسوة سوداء مطرزة بأسلاك الفضة المموهة بالذهب على شكل ستارة باب الكعبة المعظمة وتوضع هذه الكسوة على التابوت الخشبي الذي هو داخل الشباك الحديد فوق حجر المقام ، وكانت هذه الكسوة تأتي سنوياً مع كسوة الكعبة من مصر زمن الدولة العثمانية ، وأحياناً كانت تأتي كسوة المقام في كل خمس سنين مرة ، ثم انقطعت كسوة المقام منذ سنوات عديدة إلى اليوم ، والكسوة التي على المقام الآن هي قديمة لها أكثر من سبعة عشر سنة .

والحقيقة أن وضع كسوة فوق المقام تحجب الحجر المكرم بدعة منكرة ما فعلتها الصحابة ولا التابعون ولا من بعدهم ، وإنما حدث ذلك في زمن الدولة العثمانية ، على أنه لو كان تحتها ضريح لقلنا تلك عادة جارية ، ولو كان تحتها سر من الأسرار ، أو كان المقام يتأثر من ضوء الشمس والقمر لقلنا : يجب ستره حتى لا ينكشف السر ولا يتضرر المقام من الضوء .

أما وحيث كان تحتها ذلك الحجر المكرم المحترم الذي قال الله تعالى في حقه : ﴿واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى﴾ ، وقال جل جلاله : ﴿فيه آيات بينات مقام إبراهيم﴾ فإنه يجب رفع الستارة عنه لينظر المسلمون إلى هذا المقام المقدس الذي أمرهم الله تعالى بالصلاة خلفه ، وليعرفوا أنه حجر لا غير ، فتغطية المقام بالكسوة توقع الناس في الجهل بحقيقته ، وتوجب لهم الوسواس وانشغال البال في تصور شكله وهيئته .

فحبذا لو رفعت الستارة عن المقام ورفع التابوت الخشبي الذي فوقه ، ثم يعمل صندوق من الزجاج الشفاف القوي ، ويوضع فوق المقام ويربط ربطاً جيداً ، حتى لا يحركه السيل إذا دخل إليه ، وبذلك يصير المقام ظاهراً للناس ، محفوظاً من وصول الأيدي والأتربة إليه ، ولا شك أن هذا عمل جليل يحمده كافة المسلمين .

ويستحسن أيضاً إحاطة المقصورة من الداخل من جهاتها الأربع بألواح الزجاج وإنارتها ليلاً بالمصابيح الكهربائية ليكون منظرها جميلاً جداً خصوصاً في وقت الحج ، ولتكون المقصورة نظيفة من الغبار ومحفوظة من وصول الخطابات والأوراق التي يرميها العوام والجهلة من الحجاج فيها .

الكسوة العراقية للكعبة

جاء في كتاب مدارس مكة للأستاذ ناجي معروف البغدادي ما نصه :

ذكر أن ابن جبير في رحلته كسوة الكعبة يوم النحر سنة (٥٧٩) هجرية فقال : سبقت كسوة الكعبة المقدسة من محلة الأمير العراقي إلى مكة على أربعة جمال ، تقدمها القاضي الجديد بكسوة الخليفة السوادية والرايات على رأسه ، والطبول تهز وراءه . فوضعت الكسوة على السطح المكرم أعلى الكعبة ، فلما كان يوم الثلاثاء ثالث عشر من الشهر المبارك المذكور ، اشتغل الشيبيون بإسبالها خضراء يانعة ، تقيد الأبصار حسناً ، في أعلاها رسم أحمر واسع مكتوب في الصفح إلى المقام الكريم حيث الباب المكرم وهو وجهها المبارك بعد البسملة ، ﴿إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة . . . الآية﴾ .

وفي سائر الصفحات اسم الخليفة والدعاء له ، وتحف بالرسم المذكور طرتان حمراوان بدوائر صفار بيض ، فيها رسم بخط رقيق يتضمن آيات من القرآن وذكر الخليفة أيضاً ، فكملت كسوتها وشمرت أذيالها الكريمة صوناً لها من أيدي الأعاجم وشدة اجتذابها وقوة تهافتهم وانكبابهم عليها ، فلاح للناظرين منها أجمل منظر ، كأنها عروس جليت في السندس الأخضر . اهـ منه .

وجوب صون المقام

منذ أن أمر الله عز وجل بالصلاة خلف المقام في قوله : ﴿واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى﴾ وجب علينا أن نتعهده بالحفظ والوقاية بكل الوسائل المصونة له كما نحافظ على الحجر الأسود ، ولنا في أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه أسوة حسنة ، فقد اهتم وفزع وهو بالمدينة حينما بلغه أن السيل اقتلع المقام من موضعه ، وركب من ساعته حتى قدم مكة وأصلح من شأن المقام كما تقدمت الإشارة إليه ، وأن عبدالله بن الزبير رضي الله عنهما حين هدم البيت جعل الحجر الأسود في ديباجة وأدخله في تابوت وأقفل عليه ووضعه عنده في دار الندوة ، فلما بلغ البناء موضع الركن أمر بوضعه فيه كما ذكره الأزرقي في تاريخه ، وما ذاك إلا محافظة عليه وحرصاً على صيانته ، فالمقام مثله يجب صونه ، وهؤلاء أهل الجاهلية كانوا وضعوه في جوف الكعبة حرمة له وحرصاً عليه كما تقدم بيان ذلك ، بل حتى بعد الإسلام كان المقام يجعل أحياناً في جوف الكعبة كما ذكره الفاسي في شفاء الغرام عن ابن جبير الأندلسي .

ولئن كان المقام في صدر الإسلام موضوعاً على الأرض ظاهراً للناس فقد كان ذلك العصر المبارك عصر دين وعلم وأمانة وشرف وأخوة وائتلاف فلا خوف على المقام ولا على غير المقام ، أما في عصورنا المظلمة التي فسد فيها الزمن وظهرت الفتن وقلت الأمانات وكثرت الخيانات وانتشر الدجالون والمحتالون فكيف لا يخاف على المقام وغير المقام ؟ فكم من مرة تعدى أهل الخبال والإجرام على الحجر الأسود فضربوه بالحديد حتى خرج منه بعض القطع فليس ببعيد إذاً أن يتعدى على المقام بعض أهل الجرأة والإفساد ممن أغواهم الشيطان بسرقته أو تكسيره إذا لم يكن في حرز مكين .

وضع المقام في مقصورة

كان المقام في أرض المطاف من أيام إبراهيم عليه السلام إلى ما بعد الإسلام معروضاً في أرض المطاف تأتي عليه السيول والأمطار ومعرضاً للمس واللمس فلا بد بمرور هذه الأحقاب الطويلة والعصور البعيدة أن يتغير نوعاً ما وأن تتسع فتحتا القدمين وأن تمّحا آثار أصابع الخليل إبراهيم عليه السلام خصوصاً وقد أظهر

الإسلام فضله وازدحم الناس على استلامه وإن لم يؤمروا بذلك ما لم يحفظ في مكان لا تصل إليه الأيدي ، لذلك عملت له مقصورة عليها قبة ووضعت فوق المقام فبذلك صار في حرز مكين مأمون العاقبة ، ولقد كان حجر المقام موضوعاً على كرسي ملبس بصفائح الرصاص ، ثم في سنة إحدى وأربعين ومائتين أمر أمير المؤمنين محمد المستنصر با لله بإبدال صفائح الرصاص بصفائح فضة ، كما ذكر ذلك الإمام الأزرقي في تاريخه أخبار مكة .

و لم يعرف بالضبط أول من وضع له تابوتاً ، غير أنه قيل : إن أقرب وقت صنع فيه ذلك سنة عشر وثمانمائة ، بمعنى أنه صنعت للمقام مقصورة ثابتة لا تنتقل ولا تتحرك ، وإلا فقد كانت للمقام قبة قبل هذا التاريخ ، فقد ذكر ابن جبير الأندلسي في رحلته -وقد حج سنة خمسمائة وثمانية وسبعين للهجرة- صفة المقام ، ثم قال : لموضع المقام قبة مصنوعة من حديد موضوعة إلى جانب زمزم ، فإذا جاءت أشهر الحج وكثرت الناس رفعت القبة الخشب ووضعت القبة الحديد . اهـ .

ثم إننا رأينا على أحد أعمدة المقام كتابة تدل علىَ تجديد عمارته سنة ثمان وخمسين وثمانمائة ، وذكر ابن فهد في تاريخه : أنه في سنة ثمان وعشرين وسبعمائة عمّر ابن هلال الدولة الشبابيك الحديد المطيفة بالمقام . اهـ ، ثم تجدد سقف المقام وقبته سنة تسعمائة ثم تجدد تعمير المقام سنة تسعمائة وخمسة عشر ، وقام بتعميره محمد بن عبدا لله الرومي بأمر الملك الأشرف قانصوه الغوري ، ثم تجدد تعمير المقام بأمر الملك سليمان خان ابن السلطان سليم خان كما هو مكتوب في أعلى المقام المواجه لباب الكعبة والملك سليمان هذا هو الذي أهدى للمسجد الحرام المنبر الرخام الموجود به الآن ، ثم تجدد تعميره سنة إحدى وألف ، ثم تجدد تعميره بأمر السلطان مراد بن أحمد خان سنة ألف وتسع وأربعين ، ثم إن الآغا محمد كزلار السلطان محمد بن إبراهيم خان أنفق على نقش قبته بالذهب والألوان ، وذلك سنة ألف واثنتين وسبعين ، ولما حصل خلل في رفرف المقام جدده محمد بيك سنة ألف وتسع وتسعين ثم إبراهيم بيك قام بتعمير جميع المقام وبنى أرضه بالرخام ، وغير القبة ونقشها بالذهب ، وشد حجر المقام وأحكمه بالفضة ، وجدد موضع قدم إبراهيم عليه السلام بالفضة المطلية بالذهب ، وذلك سنة ألف ومائة واثنتي عشرة ، ثم إن محمد أفندي المعمار غير صندوق حجر المقام وأبدله بخشب وحلى صفائحه

الأولى ثم أعاده، وذلك سنة ألف ومائة وثلاث وثلاثين، ثم إن السلطان عبدالعزيز العثماني زاد في ارتفاع قبة المقام نحو ذراع ونصف، وأمر بترميم المسجد الحرام، وذلك سنة ألف ومائتين وتسع وسبعين، ولا ندري هل عمل فيه أحد بعده شيئاً أم لا ؟.

جاء في هامش تاريخ الأزرقي المطبوع بالمطبعة الماجدية بمكة المشرفة سنة ١٣٧٥ هـ سبع وخمسين وثلاثمائة وألف من الجزء الثاني عند ذكر ذرع المقام ما نصه : وفي عام ألف ومائتين وخمس وعشرين للهجرة حج سعود عبد العزيز الحجة السابعة، قال ابن بشر : وفي تلك الحجة كشف سعود القبة التي فوق صخرة مقام إبراهيم، وصارت الصخرة والقدمان الشريفتان بارزتين، ورآها الناس من أهل مكة وغيرهم، ورأيتها وهي صخرة بيضاء مربعة، طولها نحو الذراع وعليها سبيكة صفراء لا أدري أذهب أم صفر مستديرة بالصخرة مكتوب في السبيكة : ﴿إن إبراهيم كان أمة قانتاً لله حنيفاً و لم يك من المشركين ۞ شاكراً لأنعمه اجتباه وهداه إلى صراط مستقيم ۞ وآتيناه في الدنيا حسنة وإنه في الآخرة لمن الصالحين ۞ ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين﴾ وعلى القدمين الشريفين تراب، ولا رأيت ما حواليهما، وبين السبيكة ورأس الصخرة التي فيها القدمان نحو أربع أصابع . اهـ. باللفظ من هامش تاريخ الأزرقي .

وفي زماننا هذا، ونحن في القرن الرابع عشر للهجرة، المقام موجود في داخل تابوت خشبي عليه ستارة من الحرير مكتوب فيها آيات قرآنية ويحيط بالتابوت شبابيك نحاسية مثبتة على أربعة أعمدة بغاية الضبط والإحكام، وعلى السقف قبة صغيرة ظريفة .

ولا ندري من بنى هذه المقصورة بشكلها الحاضر هل هي من تعميرات إبراهيم بك التي أجراها سنة ألف ومائة واثنتي عشرة، أم من إصلاحات السلطان عبد العزيز من سلاطين آل عثمان في زيادة ارتفاع قبة المقام كما ذكرناه ؟ أم بنيت فيما بعد ذلك ؟ والظاهر أن سعود عبدالعزيز المتقدم ذكره حينما كشف قبة المقام سنة (١٢٢٥) خمس وعشرين ومائتين وألف لم يهدم مقصورة المقام كلها و لم يتعرض للشبابيك الحديدية، وإنما أزال القبة وسقف المقام ورفع الستارة والتابوت

الخشبي الذي فوق حجر المقام فقط كما يعلم ذلك لدى التأمل . وا لله تعالى أعلم .

فوائد وضع المقام في مقصورة

لوضع المقام في مقصورة أو نحوها لا تصل إليه أيدي الناس ثلاث فوائد :

الأولى : وقايته من التلف والتغيير بسبب احتكاك الناس به ومسحهم له ، وبسبب الأمطار والأتربة والأهوية وغيرها ، ولو كان محفوظاً أيام الجاهلية داخل شيء لما تكسر ولما احتاج إلى إصلاح وشد كما تقدم بيان ذلك عند تطويق المقام بالذهب أو الفضة .

الثانية : حفظه من سرقته أو تكسيره ممن لا ديانة له ولا عقل كما حدث للحجر الأسود مراراً . وأشهر الحوادث في ذلك حادثة القرامطة الذين استولوا على مكة سنة ثلاثمائة وسبعة عشر هجرية وقتلوا فيها يوم التروية ثامن ذي الحجة الحجاج قتلاً وطرحوهم في بئر زمزم ثم أرادوا أخذ المقام فلم يظفروا به ، لأن سدنة الكعبة أخفوه في شعاب مكة فاغتاظوا من ذلك وقلعوا الحجر الأسود وأخذوه معهم إلى بلدتهم (هجر) بالبحرين ثم في سنة (٣٣٩) تسع وثلاثين وثلاثمائة ردوا الحجر الأسود إلى مكة ، وذلك في خلافة المطيع لله الفضل بن المقتدر . وقال العلامة ابن ظهيرة القرشي رحمه ا لله في كتابه (الجامع اللطيف) ما نصه : ويروى أن رجلاً يهودياً أو نصرانياً كان بمكة يقال له جريج فأسلم ففقد المقام في ذات ليلة فوجد عنده وكان أراد أن يرسله إلى ملك الروم فأخذ منه وقتل .

الثالثة : حفظ الناس من الوقوع في البدعة إذا استلموه أو مسحوه بأيديهم فإن مَسْحَ المقام أو تقبيله وكذلك الأعتاب والأبواب والشبابيك وإدخال الأيدي في حلقاتها بدعة لم يأت به الدين الحنيف و لم يفعلها أحد من الصحابة والتابعين ولا من العلماء والصالحين ، وإنما السنة الصلاة خلف المقام فقط من غير مسحه أو تقبيله ، اللهم إلا الركن الأسود والركن اليماني فإنه يسن مسحهما واستلامهما . فقد روى الأزرقي في تاريخه أن عبيد بن عمير قال لابن عمر : إني أراك تزاحم على هذين الركنين ، فقال : إني سمعت رسول ا لله ﷺ يقول : (إن استلامهما يحط الخطايا حطاً) وروي فيه أيضاً عن ابن عمر عن النبي ﷺ (أنه كان لا يدع

الركن الأسود والركن اليماني أن يستلمهما في كل طواف أتى عليهما ، قال : وكان لا يستلم الآخرين) وروي فيه أيضاً عن عكرمة قال : (كان عمر بن الخطاب إذا بلغ موضع الركن قال : أشهد أنك حجر لا تضر ولا تنفع وأن ربي ا لله الذي لا إله إلا هو ، ولولا أني رأيت رسول ا لله ﷺ يمسحك ويقبلك ما قبلتك ولا مسحتك) .

على أنه يشترط في مسحهما وتقبيلهما عدم حصول الأذية والضرر ، فقد روى الأزرقي في تاريخه أن رسول ا لله ﷺ قال لعمر بن الخطاب : (يا عمر إنك رجل قوي وإنك تؤذي الضعيف فإذا رأيت خلوة فاستلمه ، وإلا فكبر وامضي) وروي فيه أيضاً عن عطاء أنه سمع ابن عباس يقول : إذا وجدت على الركن زحام فلا تؤذ ولا تؤذ .

فينبغي للمسلم أن يكون على بصيرة من أمر دينه القويم ، وأن يتبع منهج السلف الصالح الذين مشوا على الصراط المستقيم ، حتى لا يقع فيما يقع فيه العوام والجهلة ، وإذا أمكنه إرشاد أحد بالتي هي أحسن لم يحرم من الأجر والثواب ، فالدال على الخير كفاعله .

فإن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إذا كان باللطف واللين كان أسرع إلى القبول والامتثال ، وإذا كان بالعنف والغلظة كان أدعى إلى النفور والعناد ، قال ا لله تعالى : ﴿أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن﴾ .

الرد على من يقول : أن المقام كان مدفوناً

يقول الأستاذ محمد لبيب البتنوني في كتابه "الرحلة الحجازية" بصحيفة ١٢٥ من الطبعة الثانية عن حجر مقام إبراهيم عليه الصلاة والسلام ما نصه :

"وكان هذا الحجر قبل الإسلام موضوعاً بالمعجن إلى جوار الكعبة ثم أبعد عنها بعد الفتح حتى لا يكون هناك أثر للوثنية بالمرة ، ودفن بمكانه الحالي ، وبني عليه فيما بعد القبة الحالية . ويقولون إن تحته آلة البناء التي كان يعمل بها إبراهيم في الكعبة" . اهـ .

نقول : المعجن هو الحفرة الواقعة في أرض المطاف على يمين باب الكعبة المشرفة وكان حجر المقام في هذه الحفرة ، لكن قوله : "ثم أبعد عنها بعد الفتح حتى لا يكون هناك أثر للوثنية بالمرة" غير صحيح مطلقاً ، فالمقام لم يبعد عن الحفرة لمحو آثار الوثنية ، والبعد بين الحفرة التي كان فيه المقام ومكانه الحالي الذي هو فيه إلى اليوم لا يتجاوز أحد عشر متراً ، فالذي يعبده في الحفرة يعبده هنا أيضاً فهذه المسافة القصيرة لا تطرد العابد عن وثنه ، لكن لم يسمع في التاريخ قط أن العرب في جاهليتها عبدوا حجر المقام أو الحجر الأسود أو الكعبة مع أنهم كانوا يعبدون الأحجار ، وهذا سر من الأسرار الإلهية وكرامة واضحة للحجرين الشريفين والكعبة المقدسة ، على أنهم كانوا يحترمون كل ذلك ويقدسونه بدون عبادة لأحد منها .

وأما قوله : "ودفن بمكانه الحالي" غير صحيح أيضاً ، فإن حجر المقام لم يدفن تحت الأرض مطلقاً لا في الجاهلية ولا في الإسلام ، بل كان موضوعاً في أرض المطاف أحياناً وفي جوف الكعبة أحياناً أخرى ، ثم في مكانه الحالي .

وأما قوله : "ويقولون أن تحته آلة البناء التي كان يعمل بها إبراهيم في الكعبة" هذا القول أيضاً لا صحة له أبداً ، لأن إبراهيم عليه الصلاة والسلام لم يبن الكعبة بالطين ولا بالنورة والجص ، وإنما بناه بالرضم أي بحجارة بعضها فوق بعض كما أوضحنا ذلك في محله ، فمثل هذا البناء لا يحتاج إلى آلات وأدوات كما لا يخفى . فما هذا القول إلا وهم وخيال لا حقيقة لهما ، وانظر كيف جعل الله عز شأنه هذه الأحجار وهذا البناء البسيط محرمة مقدسة لدى جميع العالم ، وجعل لها في قلوب المؤمنين مكانة سامية ، فسبحانه من إله عظيم الشأن واسع الفضل والإحسان لا إله إلا هو العزيز الغفار .

اقتراح المؤلف في مقام إبراهيم عليه الصلاة والسلام

لقد كان مقام إبراهيم عليه الصلاة والسلام في الجاهلية وصدر الإسلام مكشوفاً بدون غطاء يراه الخاص والعام ، ومنذ نحو خمسة قرون عندما كان الحجاز وجميع الممالك الإسلامية تحت حكم الدولة التركية العثمانية ، ومن هذا التاريخ جعلت الحكومة التركية صندوقاً خشبياً على نفس مقام إبراهيم عليه الصلاة والسلام وجعلت على هذا الصندوق ستارة من الحرير الجيد منقوشة

بالذهب والفضة عليها بعض الآيات القرآنية فأصبح هذا الشكل كأنه تابوت وضع على مقبرة .

فنقترح رفع هذا الصندوق الخشبي وما عليه من الستارة ليكون المقام الكريم مكشوفاً يراه جميع الناس من أهل البلاد والحجاج وأن يجعل في داخل مقصورة المقام زجاج سميك يحيط بالمقصورة من جميع الجهات بحيث لا يكون له منفذ لدخول الغبار ورمي الأوراق فيه ليحفظ هذا المقام الكريم من كل شيء ، وأن تجعل في داخل المقصورة لمبات كهربائية قوية تنير هذا المقام الكريم ليلاً ، وبذلك يكون المقام تحت أنظار المسلمين كافة ، فإنه لا معنى لحجبه وستره عن أعين الناس .

الأحجار الثلاثة التي صارت معجزة لرسل الله الثلاثة

بمناسبة الكلام على حجر المقام الذي صار معجزة خالدة لإبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام ، نذكر هنا على سبيل الاستطراد الحجر الذي فر بثوب موسى كليم الله وصار معجزة له أيضاً ﷺ ، وكذلك نذكر الحجر الذي كان يسلم على نبينا محمد صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وصحبه وسلم فنقول :

جعل الله عز وجل معجزات أنبيائه دلالة وبرهاناً على صدق دعواهم حتى يستسلم قومهم للإيمان بهم ، وسَخّر لهم ما شاء من أنواع الجمادات حتى يفهم العقلاء وخواص البشر ما لهم من المكانة السامية والمنزلة العليا عند الله عز وجل .

فإن الإنسان إذا كان في شك من أمر ثم رأى آية من الآيات اطمئن إليها وصدق من جاء بها .

ولقد خص الله تعالى نبينا محمداً ﷺ بكثير من المعجزات وأنواع شتى من خوارق العادات مما لا يعد ولا يحصى ، فلقد وقع من الأمور شيء كثير وسيقع جميع ما أخبرنا به واحدة فواحدة حتى تقوم الساعة .

فكم من المغيبات ذكرا فبعضها مضى وبعض سيرى
ومعجزات المصطفى ليست تعد وفي الشفا منها كثير قد ورد

ونحن هنا لا نريد بيان معجزات الأنبياء ، ولكن نريد ذكر الأحجار الثلاثة التي كانت معجزة للأنبياء الثلاثة الذين ذكرناهم عليهم الصلاة والسلام .

فأما حجر مقام إبراهيم خليل الله فقد ذكره الله تعالى بقوله: ﴿واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى﴾ وهو واقع أمام الكعبة المشرفة بقرب بئر زمزم، وهو حجر مربع الشكل طوله نحو ذراع وسيأتي وصفه بالتفصيل قريباً إن شاء الله تعالى.

وأما حجر موسى كليم الله فقد ذكره الله تعالى بقوله: ﴿وإذ استسقى موسى لقومه فقلنا اضرب بعصاك الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً قد علم كل أناس مشربهم﴾.

وهذا الحجر طوله نحو ذراع ومربع الشكل أيضاً، ومعنى مربع أي مكعب له أربعة أوجه وهو الحجر الذي فر بثوب موسى عليه الصلاة والسلام حينما وضعه عليه وأراد الغسل، فقد روى البخاري في كتاب بدء الخلق عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: إن موسى كان رجلاً حيياً ستيراً لا يرى من جلده شيء استحياء منه فآذا من آذاه من بني إسرائيل فقالوا: ما يستتر هذا التستر إلا من عيب بجلده إما برص وإما أدرة وإما آفة وإن الله أراد أن يبرأه مما قالوا لموسى فخلا يوماً وحده فوضع ثيابه على الحجر ثم اغتسل فلما فرغ أقبل إلى ثيابه ليأخذها وأن الحجر عدا بثوبه فأخذ موسى عصاه وطلب الحجر فجعل يقول: ثوبي حجر ثوبي حجر حتى انتهى إلى ملأ من بني إسرائيل فرأوه عرياناً أحسن ما خلق الله وأبرأه مما يقولون وقام الحجر فأخذ ثوبه فلبسه وطفق بالحجر ضرباً بعصاه فوالله إن بالحجر لندباً من أثر ضربه ثلاثاً أو أربعاً أو خمساً فذلك قوله: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيهاً﴾ انتهى.

فتأمل أن النبي ﷺ ليحلف بأن الحجر لندباً من أثر ضربه وهذه معجزة أخرى فإن المعروف أن الحجر يكسر العصا لأنها لينة ولكن هنا عصا موسى أثر في الحجر وتركت فيه علامات الضرب كما أن ارتفاع حجر المقام بإبراهيم لبناء البيت معجزة وأثر قدميه فيه معجزة ثانية، ولا نتكلم عن معجزة عصا موسى لأننا نحن في صدد معجزة الحجارات فقط.

وأما سلام الحجر على نبينا محمد ﷺ فهو ثابت كما في قوله: "إني لأعرف حجراً بمكة كان يسلم علي قبل أن أبعث" رواه مسلم وأحمد والترمذي.

قال العلماء: سلام هذا الحجر على رسول الله ﷺ كان خاصاً بقبل البعثة كما هو صريح الحديث، وأما بعد البعثة فإن كثيراً من الأحجار كانت تسلم عليه.

ولم يحفظ من هذه الأحجار الثلاثة شيء سوى حجر المقام ليكون آية خاصة لإبراهيم عليه السلام وذلك مصداقاً لقوله تعالى: ﴿فيه آيات بينات مقام إبراهيم﴾.

وإذا تأملنا أيضاً قوله: ﴿وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء وإن منها لما يهبط من خشية الله﴾ نجد أن كل ذلك منقبة لجنس الأحجار فإنها لما تشرفت بخدمة أنبياء الله تعالى حصل لها شرف القبول والتكريم، فكيف إذاً بالمؤمنين الذين آمنوا بهم وآزروهم ونصروهم لا شك أن لهم شرفاً كبيراً وقدراً رفيعاً.

(واعلم) أن سلام الأحجار على النبي ﷺ سلام حقيقي وقدرة الله تعالى صالحة على ذلك. ومثله ارتفاع المقام ونزوله ومشيه بإبراهيم في الهواء حول الكعبة. ومثله هروب حجر موسى بثوبه ثم وقوفه أمام الملأ من بني إسرائيل ثم نداء موسى للحجر وطلبه ثوبه منه بقوله: ثوبي حجر ثوبي حجر ثم تأديبه للحجر بأن ضربه بعصاه حتى ظهر فيه أثر العصا، كل ذلك وقع من هذه الحجارة على الحقيقة معجزة وكرامة للأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

وما حنين الجذع إلى رسول الله ﷺ ببعيد حينما جعلوا له منبراً فقد كان الجذع يصيح صياح الصبي ويئن أنينه بل يقول جابر بن عبدالله رضي الله عنهما: سمعنا لذلك الجذع صوتاً كصوت العشار حتى جاء النبي ﷺ فوضع يده عليها فسكنت. وانظر حديثه في حنين الجذع من صحيح البخاري في كتاب بدء الخلق في باب علامات النبوة في الإسلام.

ومما يلحق بما تقدم ما رواه البخاري في كتاب بدء الخلق في الباب المذكور أن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: تقاتلكم اليهود فتسلطون عليهم ثم يقول الحجر: يا مسلم هذا يهودي ورائي فاقتله، وجاء في صحيح مسلم حديث بهذا المعنى أيضاً فالحديث الثابت يدل صراحة أن الحجر يتكلم بكلام يسمعه الناس ويفهمونه.

وفي صحيح البخاري في كتاب بدء الخلق في الباب المذكور أيضاً عن علقمة عن عبدا لله قال : كنا نعد الآيات بركة وأنتم تعدونها تخويفاً . . . إلى أن قال : فلقد رأيت الماء ينبع من بين أصابع رسول ا لله ﷺ ولقد كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل .

فمعجزات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لا تنحصر ، وفي ما تقدم كفاية للمؤمن العاقل ، فلا تسمعن إلى قول من يؤول ذلك نسأل ا لله السلامة من الفتن ما ظهر منها وما بطن ، فثبت اللهم قلوبنا على دينك واشرح صدورنا لطاعتك وعبادتك آمين يا رب العالمين .

أول تفكير في تاريخ الإسلام لنقل مقام إبراهيم عليه الصلاة والسلام عن موضعه الأصلي

لقد فكرت حكومتنا السعودية في نقل مقام إبراهيم عليه الصلاة والتسليم عن موضعه الأصلي الذي يبعد عن باب الكعبة المعظمة بمقدار اثني عشر متراً ، وتأخيره عن موضعه الأول إلى ما يقابله بمقدار الأمتار المذكورة تقريباً لتوسعة المطاف ، وذلك في سنة (١٣٧٧) سبع وسبعين وثلاثمائة وألف هجرية بعد الانتهاء من تجديد سقف الكعبة المعظمة .

لقد عزمت الحكومة في نقل هذا المقام الكريم عزماً أكيداً حتى أنها بنت مقصورة جديدة عند باب بني شيبة بمقدار المقصورة الأولى التي في داخلها حجر المقام ، ثم رجعت وأبطلت هذه الفكرة وهدمت هذه المقصورة الجديدة في أسرع وقت بعد أيام من بنائها وذلك في يوم الأحد الموافق ٢٥ شوال سنة (١٣٧٧) هجرية تنازلاً على الرأي العام ، فإن جميع الناس في داخل المملكة وفي خارجها لم يرتضوا ذلك ، قائلين : إن هذا المقام الكريم وضعه نبينا "محمد" ﷺ في هذا المحل المعروف أو وضعه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي ا لله تعالى عنه فيه ، لا يجوز نقله من محله الأصلي ووضعه في مكان آخر ، ولا ينبغي لنا ذلك ونحن في آخر الزمان مغمورين في بحر الفتن والشرور والفساد .

ثم إن بعض العلماء في المملكة السعودية رأى أنه لا بأس بنقل مقام إبراهيم عليه الصلاة والسلام من محله الأصلي وتأخيره إلى محل آخر توسعة للناس في حال

الطواف ، ورأى بعضهم عدم جواز نقله من محله الأصلي مطلقاً ، فألف بعضهم في جواز نقله مؤلفاً ، كما ألف بعضهم في عدم جواز نقله مؤلفاً أيضاً ، فظهر في محرم سنة (١٣٧٨) هجرية رسالة صغيرة مطبوعة اسمها "مقام إبراهيم" عليه الصلاة والسلام وهل يجوز تأخيره عن موضعه عند الحاجة لتوسيع المطاف . ألفها الشيخ عبدالرحمن بن يحيى المعلمي اليماني مدير مكتبة الحرم المكي ، حكم في رسالته هذه بجواز نقل المقام عن موضعه .

ثم إن فضيلة الشيخ سليمان بن عبدالرحمن بن حمدان ، قام فألف كتاباً في الرد على رسالة المعلمي اليماني المذكور ، وسماه (نقض المباني من فتوى اليماني وتحقيق المرام فيما يتعلق بالمقام) وقد طبع هذا الكتاب في محرم سنة (١٣٨٣) هجرية بالقاهرة .

ثم إن سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ مفتي المملكة العربية السعودية ألف كتاباً في الرد على كتاب الشيخ سليمان بن عبدالرحمن المذكور ، سماه (نصيحة الإخوان ببيان بعض ما في نقض المباني لابن حمدان من الخبط والخلط والجهل والبهتان) وفي آخر هذا الكتاب تلي رسالة أخرى اسمها (الجواب المستقيم في جواز نقل مقام إبراهيم) لسماحة المفتي المذكور أيضاً .

ثم ظهر كتاب رابع اسمه (سبيل السلام في إبقاء المقام) لفضيلة الشيخ إبراهيم نياس الكاولخي شيخ الإسلام بجمهورية السنغال ، برهن فيه على وجوب إبقاء المقام الكريم في محله الأصلي كما هو ظاهر من عنوان كتابه .

هذه هي الكتب التي ظهرت عن شأن نقل مقام إبراهيم عليه الصلاة والسلام في زماننا هذا عند توسعة المطاف لأول مرة في هذا التاريخ ، ولم يكن في العصور الماضية من يخوضون في هذه المسألة مطلقاً منذ ظهور الإسلام إلى اليوم ، ومما يجدر بالذكر أن حكومتنا السعودية إلى وقت طبع هذا التاريخ القويم ، لم تبد رأياً حاسماً في مسألة نقل مقام إبراهيم عليه الصلاة والتسليم من محله ، والظاهر أنها صرفت النظر عنه وخيراً ما فعلت ، فإنه وإن رأى بعضهم جواز نقل المقام الكريم من محله إلى محل آخر توسعة للناس ، فبقاؤه في محله الأصلي أولى وأفضل ، لمرور أربعة عشر قرناً عليه ، ولئلا نثير تبلبل أفكار المسلمين في جميع الأقطار ، ونحن في زمان الفتن والشرور .

نسأل الله تعالى أن يحفظنا من الفتن ما ظهر منها وما بطن، وأن يؤلف بين المسلمين وينصرهم على أعدائهم، وأن يختم حياتنا على الإيمان التام واليقين الكامل والعمل الصالح، ونحن على طهارة ونظافة، براحة تامة، في أبرك الأوقات وأشرق الساعات، وفي بلده الطاهر الأمين، بفضله ورحمته آمين.

وضع زجاج على مقام إبراهيم عليه الصلاة والسلام ورفع المقصورة الحديدية التي كانت عليه

لقد قررت رابطة العالم الإسلامي التي تعقد في موسم الحج من كل عام زفع المقصورة الحديدية التي كانت موضوعة فوق مقام إبراهيم عليه الصلاة والسلام منذ مئات السنين، وبوضع بدلاً عنها زجاج قوي جميل على نفس المقام الكريم مع بقائه في محله الأصلي من غير تحريكه ولا زحزحته عن موضعه أبداً، ونرى أن هذا القرار هو نعم القرار، فيه راحة المسلمين بتوسعة المطاف، مع بقاء المقام الكريم في محله الأصلي القديم.

ولقد نشر هذا القرار في الصحف المحلية، فقد ذكرت جريدة المدينة المنورة الصادرة بتاريخ ٨ صفر سنة ١٣٨٥ هجرية عن قرار المجلس ما يأتي:

أعلنت الأمانة العامة لرابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة أن المجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي قد اتخذ في جلسته الحادية عشرة المنعقدة بتاريخ ٢٥ ذي الحجة ١٣٨٤ قراراً خاصاً بمقام إبراهيم عليه السلام، وفيما يلي نصه:

تفادياً لخطر الزحام أيام موسم الحج وحرصاً على الأرواح البريئة التي تذهب في كل سنة تحت أقدام الطائفين الأمر الذي ينافي سماحة الشريعة الإسلامية ويسرها وعدم تكليفها النفس البشرية أكثر مما في وسعها يقرر المجلس الموافقة على المشروع الآتي ورفعه إلى الجهات السعودية المختصة . . .

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده. أما بعد: فبناء على ما منَّ الله تعالى به على حكومة هذه المملكة العربية السعودية من التوفيق لتوسعة الحرمين الشريفين توسعة لم يسبق لها مثيل في التاريخ الإسلامي وبناء على ما أفاء الله على هذه البلاد المقدسة في عهد هذه الحكومة الرشيدة من الخير العظيم والفضل العميم وما يسره من توطيد الأمن في ربوع هذه الديار الإسلامية وتيسير

السبل لأداء فريضة الله على عباده في الحج إلى بيته الحرام الذي جعله مثابة للناس وأمناً فقد أصبح عدد من يؤم البيت الحرام لأداء هذه الفريضة أضعافاً مضاعفة عن ما كان عليه في الماضي حتى صار المسجد الحرام رغم هذه التوسعة العظيمة يضيق بالوافدين إليه ومن المأمول إن شاء الله أن يزداد عدد الحجيج في المستقبل عاماً بعد عام ، وإن أشد ما يقع الزحام والضيق الآن بعد توسعة المطاف هذه التوسعة الكبيرة التي شكرها المسلمون جميعاً لحكومة هذه البلاد في الجزء من المطاف الذي يقع بين الركن الذي فيه الحجر الأسود ، وبين مقام إبراهيم ويحصل بسبب ذلك الزحام للطائفين على اختلاف أنواعهم ، من الحرج والمشقة ما الله تعالى به عليم . كما يقع الخلل في هذه العبادة الشريفة وهي الطواف الذي هو أحد أركان الحج التي لا يتم الحج إلا بها ، لفقدان ما يطلب به في هذه العبادة من الخشوع والخضوع والتذلل لله تعالى وصدق التوجه إليه حتى أن المرء لينسى من شدة الزحام والمضايقة ، أن في عبادة الله عز وجل لا يهتم إلا بتخليص نفسه وتخليص من معه إن كان معه من يحتاج إلى التخليص من الضعفة والخصام والمشاتمة والعراك والمضاربة بالأيدي ، بل لقد زاد الأمر على ذلك وأدى إلى الموت الزؤام وإزهاق بعض الأرواح من الضعفة والشيوخ والنساء دهساً بالأرجل كما حصل ذلك في السنوات الأخيرة وفي هذه السنة بالذات حيث قد مات في المطاف بسبب الزحام عدد من الأنفس ، وقد ارتفعت هذه الشكوى إلى الله تعالى ثم إلى ولاة الأمور في هذه المملكة من كل من شاهد بعيني رأسه هذه الأخطار العظيمة والمضار الجسيمة التي تلحق الطائفين في هذا الجزء من المطاف مطالبين وملحين بوجوب إيجاد حل سريع لهذه المشكلة التي هي على جانب كبير من الأهمية والخطورة وعلى ضوء هذه الحوادث البالغة الخطورة والتي لا يجوز لأهل العلم وحماة الشريعة الإسلامية السكوت عليها ، والتغاضي عنها لأن من لا يهتم بأمر المسلمين فليس منهم فقد طلب سماحة رئيس المجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ طرح هذه القضية على بساط البحث في جلسة المجلس المنعقدة في مساء يوم الاثنين الموافق (٢٤-١٢-١٣٨٤) هجرية أن يبدي حضرات أصحاب الفضيلة أعضاء المجلس التأسيسي آراءهم فيه على هدى نصوص كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ وأحكام الشريعة السمحة التي جاءت بالخير والرحمة ورفع الضيق والحرج عن هذه الأمة الإسلامية . وبعد البحث والمذاكرة وتداول الرأي بين الجميع تقررت الموافقة بإجماع الآراء على ما يأتي :

١- بالنظر لما تدعو إليه الضرورة في أيام مواسم الحج من توسعة المطاف في الجزء الذي بين الحجر الأسود ومقام إبراهيم فإنه يجب على الفور حلاً لهذه المشكلة العظيمة إزالة جميع الزوائد الموجودة حالياً في هذا الجزء من المطاف كالهيكل القائم على مقام إبراهيم عليه السلام وكالعقد المسمى بباب بني شيبة لأن جميع هذه الزوائد لا تمت إلى مقام إبراهيم بأي صلة ، كما أن الهيكل الموجود حالياً فوق مقام إبراهيم لم يكن موجوداً في صدر الإسلام إنما هو من المحدثات التي أحدثت في القرون الوسطى كما هو مدون في كتب التاريخ ومعظم الزحام إنما ينشأ من وجود هذه الزوائد التي لا ضرورة لبقائها بل بإزالتها يزول عن الطائفين والقائمين والركع السجود الكثير من الضيق والحرج والمشقة وذلك عملاً بمقتضى قوله تعالى : ﴿وما جعل عليكم في الدين من حرج﴾ وقوله تعالى : ﴿يريد الله بكم اليسر﴾ وقوله تعالى : ﴿يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفاً﴾ وحديث : (يسروا ولا تعسروا) وغيره من الأحاديث الشريفة الواردة في هذا المعنى .

٢- وأن يجعل مقام إبراهيم عليه السلام بدلاً من الهيكل الحالي بعد إزالته صندوق من البلور السميك القوي على قدر الحاجة فقط ، ويكون مدوراً وبارتفاع مناسب لئلا يتعثر به الطائفون ، وبذلك تحصل التوسعة لهذا الجزء من المطاف ويزول كثير من الحرج والمشقة والضيق كما يتسنى للكثير من العامة رؤية مقام إبراهيم من غير أن تصل أيديهم إليه ومعرفة المقام على حقيقته وأن الحجر الذي كان يقوم عليه إبراهيم عند رفع القواعد من البيت لأن كثير من العوام يظنون أن بداخل الهيكل الموجود حالياً قبراً لإبراهيم عليه السلام .

٣- أن يتقدم بالتماس باسم رابطة العالم الإسلامي إلى حكومة جلالة الملك فيصل المعظم رجاء تنفيذ جميع ما ذكر على الفور وقبل حلول موسم الحج القادم ، وبالله التوفيق .

انتهى من الجريدة المذكورة .

هذا ما قررته رابطة العالم الإسلامي بشأن مقام إبراهيم عليه الصلاة والسلام الذي هو أمام باب الكعبة المعظمة ، وإننا نأمل أن نضع صورة القاعدة الزجاجية البلورية في آخر هذا الكتاب إذا تمكنا من أخذ صورتها ، إن شاء الله تعالى .

تجديد مقصورة مقام إبراهيم عليه الصلاة والسلام

كنا اقترحنا في كتابنا "مقام إبراهيم عليه الصلاة والسلام" المطبوع بمطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر في سنة (١٣٦٨) هجرية لأول مرة ، وذلك بصحيفة ١٣١ بأن ترفع الحكومة السعودية الستارة والتابوت الخشبي من فوق المقام الكريم ، وتغطيه بغطاء زجاجي قوي سميك ، وتقدمنا أيضاً بهذا الاقتراح إلى الجهات المختصة .

ثم قام مشروع توسعة المسجد الحرام بعد ذلك أي في سنة (١٣٧٥) هجرية إلى وقتنا هذا وقد أوشك على الانتهاء ، والآن وما زال المشروع قائماً عزمت حكومتنا السعودية على كشف مقام سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام ورفع الستارة والتابوت الخشبي أي الصندوق من فوق ، وإزالة المقصورة الحديدية عنه توسعة للمطاف لراحة الطائفين ، ووضع غطاء زجاجي عليه ، ليظهر هذا المقام الشريف الكريم لكافة الناس مدى الأيام والأعوام .

وبالفعل فقد نجح اقتراحنا و لله الحمد ، وذلك بعد تسعة عشر عاماً من طبع كتابنا المذكور ، فلكل أجل كتاب ، ولكل شيء وقت معلوم ، لقد بقي هذا المقام الكريم بجوار الكعبة المعظمة منذ آلاف السنين معجزة ظاهرة خالدة ، وكرامة وذكرى لخليل الله تعالى سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، وزيادة في تكريمه وتشريفه أمرنا الله تبارك وتعالى أن نصلي عند مقامه الشريف ، كما جاء ذلك صريحاً في سورة البقرة في قوله تعالى : ﴿واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى﴾ وهو واقع أمام باب الكعبة المعظمة ، فالناس يصلون عنده منذ نزول هذه الآية الكريمة إلى قيام الساعة فما أعظم هذه المنقبة وما أعظم هذه الذكرى لخليل الله تعالى ﷺ ، وإذا تأملت في قوله تعالى في سورة آل عمران : ﴿إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً وهدى للعالمين ۝ فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمناً﴾ ظهر لك فضل البيت الحرام ومقام إبراهيم عليه السلام ، فما أكرم خليل الله تعالى على ربه عز وجل .

إذا تأملت في هاتين الآيتين الكريمتين تسبح في آفاق بعيدة من ملكوت الله تعالى ، ويظهر لك كثير من دقائق الأمور الخافية على غيرك .

فلقد أحسنت حكومتنا السعودية في كشف هذا المقام الكريم ، ووضع غطاء زجاجي عليه ، مع المحافظة على محله الأصلي وعدم زحزحته عنه ، ليظهر للعالم الإسلامي حقيقة هذا المقام الكريم ، فإن العوام يظنون هذا المقام عبارة عن موضع قبر خليل الله إبراهيم عليه أفضل الصلاة والسلام والتسليم ، وبعضهم يظن أن موضع صلاته وعبادته ، وليس الأمر كذلك بل إنه عبارة عن حجر من جنس الرخام ، طلع فوقه سيدنا إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه ، ليبني عليه بيت الله الكريم بعد أن ارتفع جدرانه ، فإنه ما كان يستطيع البناء وهو واقف على الأرض فكان هذا المقام بمثابة السلم والسقالة الخشبية التي يعملها البناؤون للوقوف عليه عند البناء ، و لم يكن في وقته ﷺ بمكة من يعرف صنع السلالم والسقالات ، لقلة الناس وقرب عهدهم بالإقامة والسكنى بها ، والمعيشة البدائية وعدم معرفتهم لأمور الحضارة والمدنية . فكان هذا المقام الكريم إذا صعد عليه سيدنا إبراهيم الخليل عليه الصلاة والتسليم للبناء ، ينتقل به بأمر الله تعالى يميناً وشمالاً ، ويرتفع به إلى الأعلى وينزل به إلى الأرض حسب طلبه ورغبته . فلما أكمل ﷺ بناء الكعبة المعظمة ، أمر الله تعالى أن يؤذن في الناس بالحج ، فقام ﷺ مرة أخرى على هذا المقام الكريم فأذن في الناس بالحج ، أي نادي في الناس بالحج إلى هذا البيت الحرام ، كما جاء ذلك صريحاً في قوله تعالى في أوائل سورة الحج : ﴿وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق﴾ لما أمره الله تعالى بالأذان قال عليه الصلاة والسلام : يا رب كيف أبلغ الناس وصوتي لا ينفذهم ، فقال له جل جلاله : ناد وعلينا البلاغ ، فقام على حجر المقام فقال : يا أيها الناس إن ربكم قد اتخذ بيتاً فحجوه ، فبلغ صوته أرجاء الأرض وأسمع من في الأرحام والأصلاب ، وأجابه كل من كتب الله تعالى له أن يحج إلى يوم القيامة : لبيك اللهم لبيك . "والله على كل شيء قدير" فمعجزات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام كثيرة لا تعد ولا تحصى ، وإلى بناء البيت الحرام والأذان على المقام ، أشار صاحب عمود النسب رحمه الله تعالى بقوله :

وكلما طال البناء ارتفعا ... به المقام في الهوا ورفعا
به القواعد وفيه القدم ... تشبهها للهاشمي قدم
وحين بالحج الخليل أذّنا ... وفي كلا أذنيه إصبعاً ثنى
أيضاً كأطوال الجبال ارتفعا ... به وكل من يحج أسمعا

فلما قام سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام على حجر مقامه غاصت قدماه الشريفتان فيه غوصاً عميقاً بمقدار نصف ارتفاع الحجر تقريباً ، ليبقى هذا الأثر المبارك الشريف إلى قيام الساعة ، ولقد حافظ سيدنا إبراهيم الخليل صلوات الله وسلامه عليه على حجر المقام بعد انتهائه من بيت الله الحرام وأذانه في الناس بالحج ، فوضعه في أشرف مكان وأكثره أمناً ، وضعه عند بيت الله الحرام الذي لا تمتد إليه يد بسوءٍ ، فكان في داخل الكعبة المعظمة ، وأحياناً كانت قريش تضعه بجوارها ملاصقاً لها ، آلاف السنين حتى جاء الإسلام فلما أمر الله تعالى عباده المؤمنين بالصلاة عنده ، أخروه إلى منتهى المطاف من جهة باب الكعبة ، حتى يتمكن المصلون عنده من الصلاة بدون تشويش ويتمكن الطائفون أيضاً من الطواف بدون التعثر بالمصلين ، فرضي الله تعالى عمن كان السبب في تأخيره إلى محله اليوم ، فلو بقي المقام بجوار الكعبة إلى اليوم فكيف كانت حالة الطائفين والمصلين عنده ، ونحن نرى هذا الازدحام العظيم في المطاف في مواسم الحج في زماننا هذا .

واعلم أن قدمي خليل الله إبراهيم تشبهان تماما قدمي نبينا "محمد" صلوات الله تعالى وسلامه عليهما وعلى جميع الأنبياء والمرسلين وآل كل واحد منهم وصحابتهم أجمعين ، كما أثبته العلماء الأعلام ، وكما تقدم هنا من قول القائل :

به القواعد وفيه القدم تشبهها للهاشمي قدم

أما ما يرى من توسع فتحتي القدمين في حجر المقام الكريم ، فقد حصل ذلك من كثرة مسح الناس له بأيديهم للتبرك منذ آلاف السنين . وقد كانت آثار أصابع قدمي الخليل عليه الصلاة والسلام ظاهرة واضحة على المقام الكريم حتى بعد ظهور الإسلام ، فقد جاء في موطأ ابن وهب عن يونس عن ابن شهاب عن أنس رضي الله تعالى عنه قال : رأيت المقام فيه أصابع إبراهيم وأخمص قدميه غير أنه أذهبه مسح الناس بأيديهم . اهـ . ولقد أشار أبو طالب عم نبينا "محمد" ﷺ إلى هذا المقام والحجر الأسود الشريفين ، في قصيدته اللامية المشهورة التي أولها :

ولما رأيت القوم لا ودّ عندهم وقد قطعوا كل العرى والوصائل

قال هذه القصيدة حين تحالفت قريش على بني هاشم في أمر النبي ﷺ ، وأشار أبو طالب إلى الحجر الأسود والمقام في قصيدته المذكورة بقوله :

وبالحجر المسود إذ يمسحونه إذا اكتنفوه بالضحى والأصائل

وموطئ إبراهيم في الصخـر رطبة ... على قدميــه حافيـاً غـير نــاعل

واعلم أن سيدنا إبراهيم خليل الله تعالى باني البيت الحرام، لم يكن عنـد بنائه الكعبة المعظمة وقيامه على هذا المقام، يلبس في رجليه نعـلاً، لأنـه في أقـدس بقعه مباركة وأطهر مكان، إذ كانت أرض مكة وما حولها من حدود الحرم وما بعدهـا أيضاً، طاهرة نظيفة تغسلها الأمطار من الغبار وأوراق الأشجار البريـة، فلـم يكـن بمكة في أيامه ﷺ تلك الأيام الغابرة أناس، إلا نحو ثلاثـين بيتـاً متبـاعدة في الجبـال والمغارات حول الكعبة المشرفة، و لم تكن لديهم من الحيوانات إلا القليل من الغنــم لا تتجاوز الخمسين رأساً، وكلها كانت لقبيلـة جرهـم، فكيـف تتنجـس الأرض فلا روث ولا نجاسة. ثم بعـد سنوات مـن إقامـة سيدنا إسمـاعيل بـن خليـل الله إبراهيم عليهما الصلاة والسـلام ازداد سـكان مكـة بلـد الله الأمـين، شيئاً فشـيئاً بالتدريج، من بلاد اليمن أولاً لقربها من مكة، ثـم مـن غيرهـا مـن جميـع أطـراف الأرض بمرور الأيام والأعوام خصوصاً بعد انتشـار الإسـلام، حتـى امتـلأت مكـة المكرمة شرفها الله تعالى في عصرنا هذا من جميع الأجناس، ونحن بيننا وبين زمـان سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام أكثر من أربعة آلاف سنة.

والذي يدلنا أن سيدنا إبراهيم عليه أفضل الصـلاة والتسليم، كـان عنـد بنائـه للبيت الحرام حافياً لا يلبس نعلاً، هو وجود آثـار أصابعـه ﷺ وأخمـص قدميـه في حجر مقامه الكريم، وقد كانت ظاهرة واضحة فيه إلى مـا بعـد ظهـور الإسـلام، كما يدل عليه الرواية المتقدمة عن أنس رضي الله تعالى عنه، وكما يدل عليه أيضاً قول أبي طالب في قصيدته اللامية وقد تقدم ذكره وهو:

وموطئ إبراهيم في الصخرة رطبة ... على قدميه حافياً غير ناعل

فقوله: "حافياً غير ناعل" صريح بذلك من غير شـك، وأبـو طـالب هـو عـم نبينا "محمد" ﷺ وهو من سادات العرب ووجهاء مكة، بيننا وبينه اليوم ألفان مـن الأعوام، وبينه وبين سيدنا إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام مثل ذلك بل أكثر.

واعلم أيضاً أن الحجر الأسود والمقام هما ياقوتتان من يواقيـت الجنـة، أنزلهمـا الله تعالى إلى الأرض تكرمة لبيته الحرام، ولخليلـه عليـه السـلام، ولعبـاده المؤمنـين الكرام، بعد أن أخفى سرهما ونورهما عن النـاس، ولـولا ذلـك لملأ الدنيـا نـوراً وبهاء، ولما تمكن الناس من النظر إليهمـا تمامـاً لشـدة صفـاء نورهمـا ولقـوة وهـج إشعاعهما، فسبحان الذي جعل لبعض الأشياء فضلاً وكرامة. ويفهـم هـذا جليـاً

من معنى قوله ﷺ : "لو أن امرأة من نساء أهل الجنة أشرفت إلى الأرض لملأت الأرض من ريح المسك ولأذهبت ضوء الشمس والقمر" رواه الطبراني ، هذا ما نعتقده والله سبحانه وتعالى أعلم ، فقد قال رسول الله ﷺ : "إن الركن والمقام ياقوتتان من ياقوت الجنة طمس الله تعالى نورهما ولو لم يطمس نورهما لأضاءتا ما بين المشرق والمغرب" رواه الترمذي وأحمد والحاكم وابن حبان رحمهم الله تعالى .

وإليك البيان بالتفصيل عن إزالة المقصورة الحديدية القديمة لمقام إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، ورفع الستارة والصندوق الخشبي من فوقه ، ووضع الزجاج القوي عليه ، مع شباك حديدي جديد ، أي مقصورة حديدية جديدة بدلاً عن الأولى :

ولقد أنيط هذا العمل بمكتب مشروع توسعة المسجد الحرام بمكة المكرمة برئاسة سعادة الشيخ محمد صالح القزاز ، فابتدؤوا في العمل من صباح يوم السبت الموافق الحادي عشر من شهر رجب سنة (١٣٨٧) ألف وثلاثمائة وسبع وثمانين هجرية ، فأحاطوا مقصورة المقام الكريم بالأخشاب من جميع الجهات الأربعة وجعلوا فيها باباً للدخول والخروج ، وهذه الإحاطة بالأخشاب تمكن العمال من الاشتغال في المقام بدون تشويش من الناس الذين يجتمعون عنده ، فلا يدخل عليهم من باب الأخشاب إلا العمال والخدم ، وبعض الأشخاص من الموظفين الكبار ، والفضلاء من العلماء والوجهاء ، ولقد دخلناه مع الداخلين ولله الحمد ، لنكتب عنه هذا المبحث الفريد في كتابنا هذا الذي يطبع الآن في بيروت ، وفي كتابنا الآخر أيضاً المطبوع بمصر وهو كتاب "مقام إبراهيم عليه الصلاة والسلام" عند إعادة طبعه قريباً للمرة الثانية إن شاء الله تعالى ، وهذه هي المرة الثانية في حياتنا ندخل هذا المقام الكريم ، وأما المرة الأولى فقد دخلناه منذ عشرين عاماً أي في سنة (١٣٦٧) ألف وثلاثمائة وسبع وستين هجرية ، وذلك بأمر ملكي عندما بدأنا في تأليف كتابنا "مقام إبراهيم عليه الصلاة والسلام" فالحمد لله رب العالمين ، وصلى الله وسلم على جميع الأنبياء والمرسلين .

وبمناسبة إحاطة المقام الكريم بالأخشاب نقول : إن سيدنا عبدالله بن الزبير رضي الله تعالى عنهما هو أول من أحاط الكعبة المعظمة بالأخشاب عند بنائه لها ، وذلك سنة (٦٤) أربع وستين من الهجرة ، حرمة للكعبة المعظمة أولاً ، وليتمكن

العمال من الاشتغال في البناء براحة تامة بدون تشويش عليهم من الناس المجتمعين ، فصار الناس يتبعون سنته في البنايات المحترمة المهمة إلى يومنا هـذا ، فنعمت البدعة هذه البدعة الحسنة ، ورضي الله تعالى عن صحابة رسول الله صلى الله عليهم أجمعين .

ثم إنه في اليوم المذكور وهو يوم السبت ١١ رجب من السنة المذكورة أزالوا باب بني شيبة وهو العقد القائم خلف مقام إبراهيم عليه أفضل الصلاة والتسليم ، وبجوار بئر زمزم والمنبر ، وهو الذي كان يسمى قديماً منذ صدر الإسلام بباب السلام ، والذي يسن الدخول منه إلى المسجد الحرام ، فقد كان رسول الله ﷺ يدخل منه إلى المسجد الحرام ويخرج منه أيضاً ، وقد كان باب بني شيبة حد المسجد الحرام من الجهات الثلاثة ، في زمن رسول الله ﷺ وزمن أبي بكر رضي الله عنه ، وما وراء ذلك هو من زيادات الخلفاء أمراء المؤمنين ، رضي الله تعالى عنهم ، وسمي هذا الباب بباب بني شيبة لوقوع دورهم في مواجهته ، وكذلك دخول وخروج رسول الله ﷺ منه إلى المسجد الحرام لوقوع داره في جهته أيضاً ، فمحل باب بني شيبة الذي أزيل اليوم هو حد المسجد الحرام وحد المطاف القديم أيضاً ، ومرادنا بالقديم هو الذي حصل فيه الزيادة اليوم في زماننا لأن المسجد الحرام كان هو المطاف القديم سواء بسواء ، فلما زاد الخلفاء في المسجد الحرام عملوا حداً للمطاف القديم ، وفي زماننا هذا زادوا في المطاف القديم ووسعوه لكثرة الناس . بينا ذلك بالتفصيل التام في هذا الكتاب ، ولقد تكلمنا عن باب بني شيبة في غير هذا المحل من هذا الكتاب (وبعد إزالة باب بني شيبة وضع مكانه رخام أسود إشارة إلى محله) .

ثم إنه في يوم الأحد ١٢ رجب سنة ١٣٨٧ هجرية قاموا بإزالة المقصورة الحديدية المحيطة بالمقام الكريم على صاحبها أفضل الصلاة والتسليم ، وهذه المقصورة القديمة أي نفس الشباك الحديدي طولها ثلاثة أمتار وعرضها مثل ذلك ، وارتفاعها مثل ذلك ، ومساحة المصلّى الذي يلي المقصورة مثل ذلك أيضاً أي ثلاثة أمتار .

ثم في يوم الاثنين ١٣ رجب من السنة المذكورة قاموا برفع ما بقي من الأنقاض والأحجار والأتربة حتى بلغوا الأساس القديم ، ولقد وجدوا أن المقام الشريف مركب على قاعدة من الحجر المربع طوله خمسون سنتيمتراً وعرضه مثل

ذلك ، قد جس هذا الحجر بأربعة أسافين من الحجارة الضخمة ، تثبيتاً له حتى لا يتزحزح عن مكانه ، فلم يمس العمال هذا الحجر بسوء بل لم يزل في مكانه وهذا الحجر ينزل عن سطح أرض المطاف بنصف متر ، ويظن الذي رأى هذا الحجر أنه من وضع أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه والله تعالى أعلم .

فقولنا : "حتى بلغوا الأساس القديم" أي : بلغوا جوانب الأساس من غير أن يمسوا نفس الأساس ، ومن غير أن يحركوا نفس حجر المقام الكريم ، فكل شيء قديم بقي على ما هو عليه .

ولقد وجدوا في هذا المحل قطعة من خشب الساج القوي طولها ٢٧ سنتيمتراً وعرضها ١٦ سنتيمتراً وسمكها ، أي غلظها اثنين من السنتيمترات مكتوب فيها حفراً بالحديد ما يأتي :

"سلطان عبد العزيز خان حضرتلري زمان سلطنلري إمارة مكة مكرمة الشريف عبدالله باشا حضرتلري ، حقي باشا زاده أحمد عزت باشا حضرتلري . جدد . . . مهندس عبدالعزيز نظارت معماري محمد صديق كابلي معرفتلر خليل إبراهيم . . . معلمي رصاص مصري محمد بن إبراهيم سنة ١٢٨١هـ صفر" .

انتهى ما كان مكتوباً على القطعة الخشبية ، وهذا النوع من الخشب يقال له "الساج" وهو نوع لا يوجد أقوى منه من الأخشاب ، فلا يدخل فيه السوس ولا يأكله التراب ، فإذا نظرنا إلى تاريخ وضع هذه القطعة الخشبية في المقام الكريم وهو سنة (١٢٨١هـ) وإلى هذه السنة التي وقع فيها إصلاح المقام الكريم ، وهي سنة (١٣٨٧هـ) رأينا أنه قد مر على هذه القطعة الخشبية أكثر من مائة عام ، وهي سليمة سالمة من السوس والتآكل كما رأيناها بأنفسنا .

والكلمات التي لم نتمكن من قراءتها في هذه القطعة الخشبية وضعنا بدلاً عنها بعض النقط كما تراها هنا ، لأن هذه الكتابة مكتوبة باللغة التركية وبحروف عربية ، بخلاف اللغة التركية في عصرنا اليوم فإنهم يكتبونها بالحروف اللاتينية ، فلقد استبدلت الأتراك الحروف العربية بالحروف اللاتينية بعد الحرب الأولى ، أي : من سنة (١٣٤١) ألف وثلاثمائة وإحدى وأربعين هجرية تقريباً ، أي بعد سقوط الخلافة الإسلامية من أيديهم .

(واعلم) أن القطعة الخشبية من الساج التي وجدت في داخل المقام الكريم ، لم توضع هناك منذ يوم وضع المقصورة الحديدية القديمة فوق المقام الشريف ، وإنما

وضعت فيه في زمن حكم السلطان عبدالعزيز خان من آل عثمان الأتراك سنة (١٢٨١) هجرية كما هو مذكور صريحاً في القطعة الخشبية ، فالسلطان عبدالعزيز خان رحمه الله تعالى وأحسن إليه ، أمر في هذه السنة المذكورة بتطويق الحجر الأسود بالفضة ، كما أمر بترميم المسجد الحرام ، وأمر أيضاً بزيادة رفع قبة مقصورة المقام الكريم ، فرفعوها نحو ذراع ونصف ، حتى لا تمس الرفارف التي حول المقصورة من الأعلى رؤوس الناس فأراد القائم على هذه الأعمال في المسجد الحرام تسجيل هذا العمل للسلطان المذكور ، فوضع القطعة الخشبية المذكورة بعد أن كتب عليها التاريخ مع الجملة المذكورة ، في أشرف مكان وآمنه وهو داخل مقام سيدنا إبراهيم الخليل عليه أفضل الصلاة والسلام . والله تعالى أعلم ، فرحم الله تعالى المتقدمين منا ورحمنا إذا عدنا إليهم بفضله وكرمه آمين .

ثم في يوم الثلاثاء ١٤ رجب من السنة المذكورة رفعوا الغطاء الداخلي الذي كان موضوعاً فوق المقام الشريف ، وهو صندوق خشبي عليه ستارة من الحرير المكتوب ، ثم عملوا حول المقام الكريم من الأرض إلى أعلاه ، قاعدة من الرخام تحيط به ، وهي على شكل سداسي تقريباً ، طوله مائة وستون سنتيمتراً ، وعرضه مائه وعشرة سنتيمتراً ، وارتفاعه خمسة وسبعون سنتيمتراً ، والصندوق المذكور كله ملبس بالفضة ، وقد كتب عليها بعض آيات قرآنية ، ونحن ذكرناها بالتفصيل في كتابنا المطبوع بمصر وهو كتاب "مقام إبراهيم عليه الصلاة والسلام" وفيه بيانات كثيرة عن هذا المقام الكريم فليرجع إليه من شاء .

ثم في يوم الأربعاء ١٥ رجب من السنة المذكورة ، صار يشتغل العمال بتكميل تركيب القاعدة الرخامية الجديدة المذكورة ، والرخام لونه أسود مأخوذ من جبال تبعد عن مكة المشرفة بنحو مائة كيلومتر .

ثم في يوم الخميس ١٦ رجب من السنة المذكورة وضعوا قاعدة نحاسية مدورة مثقوبة من وسطها زنتها ستمائة كيلو ، والثقب على قدر ما يظهر المقام الكريم فقط ، وقطر الثقب أربعون سنتيمتراً ، وفوق القاعدة النحاسية وضعوا الغطاء الزجاجي على نفس المقام الكريم ، ثم ركبوا عليه المقصورة الحديدية الجديدة وهي الشبابيك ، وهي أصغر حجماً من المقصورة القديمة الأولى ، فطولها متر واحد وستون سنتيمتراً ، وعرضها متر واحد وعشرة سنتيمترات ، وارتفاعها إلى هلالها ثلاثة أمتار ، أي أن حجم المقصورة الجديدة أصغر من المقصورة القديمة

لتوسعة المطاف ، وقد اشتغلوا يوم الخميس إلى منتصف ليلة الجمعة في العمل في الإصلاح وتثبيت المقصورة في الأرض .

ثم في يوم الجمعة ١٧ رجب من السنة المذكورة ، عملوا في تنظيف ما حول المقام الكريم مما بقي من آثار العمل والشغل ، حتى صار المكان في نظافة تامة ليس فيه أثر للأتربة والغبار ، والحمد لله رب العالمين .

ثم في يوم السبت ١٨ رجب من السنة المذكورة ، رفعوا الأخشاب التي أحاطوا بها مقصورة المقام الكريم في ابتداء العمل ، ثم بعد عصر هذا اليوم المذكور صار الاحتفال برفع الستارة عن مقام إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، وذلك بحضور جلالة الملك المعظم فيصل بن عبد العزيز آل سعود ملك المملكة العربية السعودية ، وبحضور السادة الأمراء والعلماء والوزراء ، وأعضاء المجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي ، وأعيان البلاد وفضلائها وجمع غفير من الناس . ثم قبل غروب الشمس من اليوم المذكور بنحو ساعة ، حضر إلى المسجد الحرام جلالة الملك فيصل بن عبد العزيز آل سعود سعود فطاف بالبيت الحرام ثم قصد المقام فصلى عنده ركعتي الطواف ، ثم قام يكشف الستارة عن غطاء هذا المقام الكريم إيذاناً بانتهاء العمل فيه ، وترك الناس يوالون الصلاة عند هذا المقام الكريم كما كانوا ، عملاً بقوله تعالى : ﴿واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى﴾ ثم أعطى جلالته مفتاح المقصورة الجديدة لآل الشيبي سدنة الكعبة المعظمة وقد عملوا للمقصورة الجديدة قفلاً جديداً ، فالحمد لله الذي أرانا هذه التجديدات والتوسيعات العظيمة في المسجد الحرام وفي البلد الحرام ، ووفقنا لتأليف أعظم تاريخ لمكة المكرمة وأصح تاريخ لمقام سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، والكتابان مطبوعان بفضله ورحمته وإحسانه ومنته .

انظر: صورة رقم ٩٢ ، الكعبة المعظمة
انظر: صورة رقم ٩٣ ، المقصورة الجديدة لمقام إبراهيم عليه السلام
انظر: صورة رقم ٩٤ ، المقصورة الحديدية الجديدة لمقام إبراهيم عليه السلام

وإليك بعض البيانات أيضاً عن تجديد مقصورة المقام الكريم والغطاء الزجاجي بالتفصيل :

لقد قام مشروع توسعة المسجد الحرام بمكة المكرمة ، بعمل الغطاء الزجاجي لمقام سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، في فرنسا في مصنع خاص هناك لعمل

الكريستال "أي لصنع البللور" فصنعوا هذا الغطاء بصفة خاصة تناسب لهذا المقام الشريف ، وقد استغرق صنع هذا الغطاء ستة آلاف ساعة ، وإليك وصف هذا الغطاء :

(١) شكله كالقبة نصف كرة ، في أعلاها في الوسط حلية جميلة كالسدادة من نفس البللور .
(٢) وزنه ألف وسبعمائة وخمسون كيلو جراماً .
(٣) وارتفاعه متر واحد وثلاثون سنتيمتراً .
(٤) وسمكه وغلظه عشرون سنتيمتراً من كل الجهات .
(٥) وقطره من أسفله من الداخل أربعون سنتيمتراً .
(٦) وقطره من أسفله من الخارج ثمانون سنتيمتراً .
(٧) محيط دائرته من أسفله متران وواحد وخمسون سنتيمتراً .
(٨) والقاعدة النحاسية التي فوقها الغطاء البللوري زنتها ستمائة كيلو جراماً .
(٩) ولهذا الغطاء الزجاجي البللوري قاعدة نحاسية خاصة مخروقة من الوسط ، موضوعة على القاعدة الرخامية السوداء للمقام الكريم ، ثم وضع هذا الغطاء البللوري فوق القاعدة النحاسية زيادة في تثبيته وتقويته ، فصار المقام الكريم له منظر جميل وهو يرى بوضوح من الغطاء البللوري .

إننا أخذنا جميع هذه المعلومات مع الشكر من سعادة الشيخ صالح باخطمة مساعد المدير العام لمكتب مشروع توسعة المسجد الحرام ، كلل الله تعالى أعمالنا وأعمالهم بالنجاح والتوفيق التام بفضله وإحسانه آمين ، والحمد لله رب العالمين ، وصلى الله وسلم على سيدنا "محمد" وعلى آله وأصحابه أجمعين .

(ولنختم) هذا المبحث الفريد بما يأتي :

إن أهل مكة الكرام يحق لهم أن يحتفلوا اليوم بتجديد مقصورة مقام سيدنا خليل الله إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، يحق لهم أن يحترموا ويعظموا هذا المقام الكريم ، وأن يفتخروا ببقاء هذا الأثر العظيم الخالد في بلدهم المقدس منذ آلاف السنين .

إن إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه ، هو الذي بنى في بلدهم الأمين بيت الله الحرام ، وهو الذي اكتشف بلدهم "مكة" وأسكن فيها من ذريته ابنه إسماعيل وأمه هاجر عليهما الصلاة والسلام ، ولأجلهما نبع ماء زمزم في بلدتهم وما يزال

موجوداً عندهم إلى قيام الساعة ، فكأن سيدنا إسماعيل عليه الصلاة والسلام أب العرب قاطبة .

فلما بنى سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام الكعبة المعظمة ، قام فوقف على مقامه المذكور فارتفع به في الهواء ، فصار يؤذن في الناس بالحج ، فصار الناس من تلك العصور البعيدة يقصدون من كل فج عميق بلدتهم الطاهرة "مكة" للحج والعمرة ، في أيام معلومات في مواسم الحج من كل عام ، وأن إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام حرم مكة في حدودها المعروف إلى اليوم ، وصيرها بلداً آمناً ، وهو الذي دعا بالخير والرزق والبركة كما جاء ذلك صريحاً في الكتاب والسنة . فقد قال الله تعالى في محكم كتابه الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، في سورة البقرة : ﴿وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا بلداً آمناً وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر قال ومن كفر فأمتعه قليلاً ثم أضطره إلى عذاب النار وبئس المصير ۝ وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم ۝ ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم ۝ ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلوا عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم﴾ .

وقال عز وجل في سورة إبراهيم : ﴿وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا البلد آمناً واجنبني وبنيّ أن نعبد الأصنام ۝ رب إنهن أضللن كثيراً من الناس فمن تبعني فإنه مني ومن عصاني فإنك غفور رحيم ۝ ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون﴾ .

إلى غير ذلك مما لو ذكرناه لطال بنا المقام ، فأنت إذا تأملت هذه الآيات المباركة علمت أن الله تعالى لم يعامل كفار أهل مكة كمعاملته لكفار غيرهم في دار الدنيا ، بل إنه عز وجل بمحض فضله ورحمته يمتعهم في الدنيا ثم يعذبهم بما يستحقون في الآخرة ، كما هو مبرع قوله تعالى هنا في هذه الآيات : ﴿قال ومن كفر فأمتعه قليلاً ثم أضطره إلى عذاب النار وبئس المصير﴾ .

هكذا ميَّز الله تبارك وتعالى أهل بيته الحرام وأهل بلده الأمين "مكة المكرمة" عن جميع الأجناس ، أفلا يحق لهم أن يحتفلوا بآثار الأنبياء عليهم الصلاة والسلام

التي لديهم في بلدتهم المقدسة ، وأن يفتخروا بتواضع بهذه الأمور التي شرفهم الله تعالى بها ، وأن يكونوا سادة الناس وأفضل الأجناس؟ بلى والله إنه ليحق لهم كل ذلك رغم أنف الحسدة ، الذين ينكرون الحق ولا يقرون بالفضل لغيرهم . نسأل الله تبارك وتعالى لهم ولكافة المسلمين القبول والتوفيق والرحمة والإحسان ، إنه تعالى واسع الفضل وعميم الإحسان ، وأن يجعل مكة والمدينة وسائر بلاد المسلمين ، في أمن وأمان وخير ورخاء ، وأن يعاملنا بما هو أهله لا بما نحن أهله ، إنه سبحانه وتعالى مجيب الدعاء آمين .

ثم بعد كتابة ما تقدم شرح الله تعالى صدرنا لعمل منظومة مختصرة في تجديد مقصورة المقام الكريم ، وإليك هذه الأرجوزة :

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله كثير الحمد	والشكر لله بغير عدّ
ثم الصلاة والسلام السرمدي	على نبينا الحبيب "أحمد"
خير البرية نبي الرحمه	وخير شافع لهذي الأمَّه
وآله وصحبه الكرام	قادتنا في حالك الظلام
(وبعد) هذه نبذة منظومه	لطيفة رائعة مفهومه
تبحث عن تجديد شباك المقام	أعني مقام من له خير مقام
وهو خليل الله إبراهيم	صلى عليه ربنا الكريم
مقامه هذا أمام الكعبة	إذ كان حقاً بانياً للكعبة
هذا المقام في الكتاب ذكرَا	ومنذ أعصر تراه سُترا
قد وضعوه داخل الصندوق	وفوقه الشباك بالتحقيق
فلا يُرى المقام في المقصوره	لأنه كالطُّرفة المحصوره
مرت عليه حُقَب من الزمن	وهو بداخل الستور قد سكن
لا يعرف الناس عن المقام	غير قليل من ذوي الأفهام
ثم بدا للملك السعودي	"الفيصل" المحنّك المجدود
أن يكشف المقام للأنام	ليعرفوا حقيقة المقام
فأصدر الأمر وبذل العَطا	ليعملوا من الزجاج كالغَطا

يوضع فوق حجر المقام ... وفوق الشباك بانتظام
يظهر للناس ويبقى سالما ... لا تصل الأيدي إليه دائما
وحضر المليك يوم السبت ... وإنه شهم كبير البخت
للمسجد الحرام في الأصيل ... ثامن عشر رجب الجزيل
من عام سبع وثمانين يلي ... ألف وثلثمائة مكمل
وشاهد المقصورة الجديده ... موضوعة محكمة سديده
فوق المقام للمقام منظرُ ... له جمال الشكل وهو بهر
فحمد الناس له هذا العمل ... وا لله لا يضيع للعبد العمل
قد حَفَلَ الناس بهذا اليوم ... فيا له من مشهد ويوم
فالحمد لله على التمام ... والشكر للتوفيق والإنعام
هذي خلاصة عن المقام ... وقد ذكرنا وافر الكلام
نثراً قبيل هذه المنظومه ... بكلمات دائماً مفهومه
ثم الصلاة والسلام العاطر ... على النبي وهو حقاً طاهر
وآله وصحبه الأبرار ... والتابعين منهج الأخيار
وكل من مشى على آثارهم ... وإنني أمشي على أقدامهم
يا رب واختم لي بخير العمل ... عند الممات وبخير الأمل
وآخر الدعا لنا يا ربنا ... الحمد لله فقد زال العَنا

المصلّى الجديد بالمسجد الحرام

لقد ذكرنا في هذا الكتاب إزالة المقامات الأربعة التي كانت للشافعية والحنفية والمالكية والحنابلة ، وكل مقام عبارة عن مصلى ، أزيلت وانتهى الأمر . ثم إنه في سنة (١٣٨٦) ألف وثلاثمائة وست وثمانين هجرية ، بنت الحكومة السعودية مصلى واحدة فقط في المسجد الحرام ، بجوار بئر زمزم والمنبر وبقرب المقام ، ليصلي تحتها بعض الناس في وقت الظهيرة ، فطول هذه المصلى ستة أمتار ونصف متر ، وعرضها ثلاثة أمتار و٦٥ سنتيمتراً ، وارتفاعها ثلاثة أمتار وعشرة سنتيمترات ، وهي تحتوي على اثني عشر من الأعمدة .

فحبذا لو بني في كل جهة من جهات المسجد الحرام مصلى مثل هذه المصلى ، ليصلي الناس تحتها اتقاء لحرارة الشمس .

قدم أبينا آدم عليه السلام

وبمناسبة الكلام على حجر مقام إبراهيم عليه الصلاة والسلام الذي غاصت فيه قدماه ، نقول : ذكر ابن بطوطة في رحلته التي كانت سنة (٧٢٥) خمس وعشرين وسبعمائة من الهجرة أنه يوجد في أعلى جبل سرنديب بالهند قدم أبينا آدم عليه الصلاة والسلام فقد قال فيها ما نصه : وبمغارة الخضر يترك الزوار ما عندهم ويصعدون منها ميلين إلى أعلا الجبل حيث القدم ، وأثر القدم الكريمة قدم أبينا آدم ﷺ في صخرة سوداء مرتفعة بموضع فسيح وقد غاصت القدم الكريمة في الصخرة حتى عاد موضعها منخفضاً وطولها أحد عشر شبراً ، وأتى إليها أهل الصين قديماً فقطعوا من الصخرة موضع الإبهام وما يليه وجعلوه في كنيسة بمدينة الزيتون ويقصدونها من أقصى البلاد ، وفي الصخرة حيث القدم تسع حفر منحوتة يجعل الزوار من الكفار فيها الذهب واليواقيت والجواهر فترى الفقراء إذا وصلوا مغارة الخضر يتسابقون منها لأخذ ما بالحفر و لم نجد نحن بها إلا يسير حجيرات وذهب أعطيناها الدليل ، والعادة أن يقيم الزوار بمغارة الخضر ثلاثة أيام يأتون فيها إلى القدم غدوة وعشياً وكذلك فعلنا . انتهى كلام ابن بطوطة .

نقول : إن ما ذكره ابن بطوطة في رحلته من أن طول قدم أبينا آدم عليه الصلاة والسلام أحد عشر شبراً هو معقول ليست فيه مبالغة ، فقد روى الشيخان والإمام أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : "خلق الله آدم على صورته وطوله ستون ذراعاً ثم قال : اذهب فسلم على أولئك النفر وهم نفر من الملائكة جلوس فاستمع ما يحيونك فإنها تحيتك وتحية ذريتك فذهب فقال : السلام عليكم فقالوا : السلام عليك ورحمة الله فزادوه ورحمة الله فكل من يدخل الجنة على صورة آدم في طول ستين ذراعاً فلم تزل الخلق تنقص بعده حتى الآن" .

فإذا قارنا طول قامة آدم عليه الصلاة والسلام وهو ستون ذراعاً كما في هذا الحديث الصحيح مع طول قدمه وهو أحد عشر شبراً نجد بينهما نسبة معقولة وتناسباً مقبولاً . والله تعالى أعلم بالغيب .

ونقول أيضاً : إننا لا نجزم بصحة غوص قدم أبينا آدم عليه الصلاة والسلام في الصخرة إلا إذا كان هناك نص صريح به ولا ننفيه أيضاً فإن ذلك من الجائز . وأما ما يشاع من أن نبينا محمداً ﷺ إذا مشى غاصت قدماه في الصخرة فليس له أصل ، فقد قال العزيزي في شرحه على الجامع الصغير في الجزء الثالث عند حديث : "كان ﷺ أحسن الناس صفة وأجملها . . . الخ" ما نصه : قال العلقمي : تنبيه ، قال صاحبنا العلامة محمد بن يوسف الدمشقي : ذكر كثير من المدّاح أن النبي ﷺ كان إذا مشى على الصخر غاصت قدماه فيه ، ولا وجود لذلك في كتب الحديث البتة . انتهى منه ، جاء في كتاب "تاريخ المساجد الأثرية" للأستاذ حسن عبدالوهاب بصحيفة "٢٥٦" من الجزء الأول عند الكلام على مدرسة قايتباي بالقرافة الشرقية ما نصه : ويجاور قبر قايتباي قبة صغيرة نحاسية منهبة تحتها حجر أسود به أثر قدمين يقال أنهما للنبي ﷺ ، كما يوجد بجوار القبر الآخر قبة أخرى خشبية على شكل مسلة بها حجر عليه أثر قدم يقال أنه قدم الخليل إبراهيم عليه السلام . وكلاهما غير صحيح ، لأنه يوجد بمصر أقدام أخرى متفاوتة المقاس ، كما توجد أقدام منها في القدس والطائف والقسطنطينية . وكذلك في الأقطار الإسلامية أقدام منسوبة إلى آدم بالهند ، والخليل بالحرم المكي ، وموسى بظاهر دمشق ، وعيسى ببيت المقدس .

وقد نص جماعة من حفاظ المحدثين على ما استفاض واشتهرخصوصاً على ألسنة الشعراء والمداح من أن قدم النبي ﷺ غاصت في الحجر لا أصل له ، كما أن للإمام السيوطي إجابة على سؤال رفع إليه عن هذه الأقدام بأنه لم يقف في ذلك على أصل ولا سند ولا رأى من خرجه في شيء من كتب الحديث ، كما أنكره كثير من العلماء وأثبته بعضهم ، وقيل عن هذه الأحجار : إن السلطان قايتباي اشتراها وأوصى بجعلها عند قبره . انتهى من الكتاب المذكور .

وحيث لم يثبت غوص قدم النبي ﷺ لم يثبت أيضاً ما يقال إنه بلحف مسجد الخيف بمنى في غار المرسلات حجر به أثر رأس النبي ﷺ ، كما في صحيفة ٣٦٦ من تاريخ القطبي و لم يثبت أيضاً ما يقال أنه بقرب دار أبي بكر أو دكانه بمكة حجر مبني في الجدار في وسطه حفرة مثل محل المرفق يزعمون أن النبي ﷺ اتكأ عليه فغاص مرفقه الشريف في ذلك الحجر كما في صحيفة (٣٦١) من التاريخ المذكور على أن غوص أقدام الأنبياء عليهم الصلاة والسلام من أهون معجزاتهم

وأسهلها ولكن لا يمكن إثباته إلا بدليل واضح ، و لم يثبت ذلك إلا لأبي الأنبياء إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام ، حيث غاصت قدماه عند الكعبة المعظمة إلى اليوم والذي أمرنا الله تعالى بالصلاة عنده كما في صريح آية : ﴿واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى﴾ .

وإن شاء الله تعالى سيأتي الكلام عن أبينا آدم وأمنا حواء عليهما الصلاة والسلام ربما عند الكلام على مدينة جدة فراجعه إن شئت .

أقدام إدريس وعيسى عليهما الصلاة والسلام

يقول مؤلف "الرحلة الحجازية" فيها عند الكلام على المسجد الأقصى بصحيفة (١٦٥) ما يأتي :

وعلى ظهر الصخرة من جهة الشرق آثار اثني عشر قدماً كان النصارى في القرون الوسطى ينسبونها إلى عيسى عليه السلام ، فلما تغلب المسلمون على بيت المقدس قالوا إنها آثار قدمي رسول الله ﷺ حين سار عليها ليلة الإسراء ، ومع ما هي عليه من عدم النظام وأنها على خط مستقيم تقريباً وهو ما لا يمكن السير عليه لفتحة ما بين الرجلين ، فإنها تكاد يكون شكلها واحداً وهو ما لا ينطبق على شكل القدمين ، خصوصاً وأنها أصغر بكثير من الأقدام المنسوبة له ﷺ مما ذكرناه في صحيفة (١٢٥) من هذا الكتاب . ومن هذا وذاك ترى أنها كلها موضوعة لا أثر لها من الصحة ، يؤيد ذلك أنه لم يرد في ديننا الحنيف ما يشير إلى شيء من ذلك بالمرة ، وبجوار هذه الأقدام أثر قدم آخر ينسبونه إلى إدريس عليه السلام ، ويوجد بجانب الصخرة من الجهة الغربية بجوار الدرابزين خزانة من الفضة فيها قطعة من الحجر عليها أثر قدم ينسبونه أيضاً إلى نبينا صلوات الله وسلامه عليه وفيها أيضاً بعض شعرات من لحيته الشريفة . انتهى من الكتاب المذكور .

وإليك ما ذكره مؤلف الكتاب المذكور بصحيفة (١٢٥) التي أشار إليها فإنه قال فيها : ويزعم النصارى أنه "أي القدم الذي بقبة الصعود بجبل الزيتون بالقدس الشريف" لعيسى عليه السلام وهم يقدسونه ويحترمونه ، ومن ذاك أتى احترام المسلمين لآثار تلك الأقدام التي ينسبونها إلى النبي ﷺ ، كما نراه في قبة السيد البدوي بطنطا ، وفي جامع المؤيد ومسجد قايتباي بالقاهرة ، وفي قبة الآثار النبوية في الآستانة ، وفي خزانة الآثار النبوية بقبة الصخرة ببيت المقدس ، وفي مسجد

إبراهيم بحبرون ، وعلى صخرة بيت المقدس آثار أقدام غير منتظمة يدعون أنها آثار أقدام الرسول ﷺ عندما أسري ، وإلى جوارها أثر قدم ينسبونه إلى سيدنا إدريس عليه السلام ، والمسلمون هناك يقدسونها جميعاً كما يقدسون أثر قدم عيسى عليه السلام التي تراها في محراب على يمين منبر المسجد الأقصى ، ويقول النصارى : إن المسلمين فصلوها عن أختها التي في قبة الصعود ووضعوها بمكانها هذا ، ويقال أن في (محطة قدم) التي في جنوب دمشق أثر أقدام غائصة في الصخرة ينسبونها إلى موسى عليه السلام وذكرها ابن جبير في رحلته ، وقد رأيت في الفصل الرابع والثلاثين من كتاب محاضرة الأوائل للسكتواري أن أول موضع أهبط الله فيه آدم جبل سرنديب وفيه أثر قدم آدم عليه السلام غائص في الصخرة طوله سبعون شبراً الخ . . . انتهى من الرحلة الحجازية .

تغيير سقف الكعبة وترميمها في العهد السعودي

في وقتنا الحاضر

في أول محرم الحرام سنة (١٣٧٧) ألف وثلاثمائة وسبعة وسبعين هجرية ، حصل للسقف الأعلى لبيت الله الحرام خراب يحتاج إلى تغييره كله ، وأن سقفه الأدنى الذي هو من الخشب فقط قد تلف من فعل الأرضة والسوس ، وأن جدرانه تحتاج إلى ترميم ، وكل ذلك يحتاج إلى المبادرة لإصلاحه .

فأمر الملك السابق سعود بن عبدالعزيز بتشكيل هيئة علمية وهيئة فنية من المهندسين المعماريين ، للنظر فيما وقع بالكعبة المطهرة ، وهم : الشيخ عبدالملك بن إبراهيم رئيس هيئات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والشيخ عبدالله بن جابر ، والسيد علوي بن عباس المالكي المدرس بالمسجد الحرام ، والشيخ محمد بن علي الحركان ، والشيخ محمد بن لادن مدير الإنشاءات العمومية ، والشيخ محمد صالح القزاز ، والمعلم الشيخ حسين عجاج ، والمهندسين الفنيين طارق الشواف وطه القرملي . فقاموا بالكشف الدقيق ودخلوا الكعبة المعظمة في صباح يوم السبت السابع من شهر المحرم من السنة المذكورة ، ووجدوا الأمر كما ذكر ، ورفعوا قرارهم بذلك وعلى الإثر صدر الأمر إلى مدير الإنشاءات العمومية صاحب المعالي الشيخ محمد بن عوض بن لادن الحضرمي ، بالقيام بعمارة سقفي الكعبة المشرفة وتغييرهما وتجديدهما ، وبترميم ما يحتاج إلى ترميمه من الداخل

والخارج ، بحيث تكون الكعبة كأنها عادت جديدة من قوة العمارة ومتانة الشغل والعمل .

خلاصة الأمر الملكي للإصلاح

وخلاصة الأمر الملكي الصادر في أواخر شهر المحرم سنة (١٣٧٧) ألف وثلاثمائة وسبعة وسبعين هجرية ، القاضي بعمارة سقفي الكعبة المطهرة وترميمها وإصلاحها هي فيما يأتي :

١) رفع السقف الأعلى للكعبة المشرفة بتاتاً وتجديد عمارته .
٢) تجديد السقف الأدنى لقدم أخشابه وتآكلها .
٣) عمل "ميدة" ، بكسر الميم ، بين السقفين تحيط بجميع جدرانها .
٤) ترميم الجدران الأصلية ترميماً جيداً .
٥) إصلاح الرخام المحيط بجدران الكعبة من باطنها .
٦) ترميم وإصلاح الدرج التي في باطن الكعبة المؤدية إلى سطحها .
٧) يجب مراعاة عدم بروز شيء من التعمير والإصلاح عن الكعبة المشرفة وجدرانها وأطرافها .
٨) عدم تذهيب أو تفضيض أو تمويه سقف الكعبة المطهرة .
٩) جميع الترميم والتعمير يكون بالمواد البلدية .
١٠) جميع ما يصرف على الكعبة المعظمة يكون من الكسب الحلال الطيب .

هذه هي خلاصة الأمر الملكي ، وبموجبه جرى العمل في الكعبة المشرفة كما يأتي تفصيله .

الأخذ في الأسباب لإصلاح الكعبة

وقد بدؤوا في ليلة السبت الحادي والعشرين من جمادى الثانية سنة (١٣٧٧) سبع وسبعين وثلاثمائة وألف هجرية ، من بعد صلاة العشاء بساعة واحدة ، أقاموا أخشاباً حول الكعبة المشرفة لستر العمارة فيها عن أعين الناس ، فما زالوا يشتغلون بإقامة الأخشاب حولها من هذه الليلة المذكورة إلى يوم الاثنين الثالث والعشرين من الشهر المذكور ، حتى سترت الكعبة عن أعين الناس تماماً من أرض المطاف إلى سطح الكعبة ، بل إلى ما فوق السطح بنحو متر واحد ونصف المتر ، ما عدا موضع

الحجر الأسود وموضع الركن اليماني فلم يطوقوهما بالأخشاب بل جعلوهما مكشوفين ليتمكن الناس من استلامهما ، وأما جدار حجر إسماعيل عليه السلام فلم يحيطوه بالأخشاب ، وإنما أحاطوا الكعبة من هذه الجهة من داخل الحجر أي من فتحتيه الشرقية والغربية وجعلوا الممر الموصل إلى الكعبة وإلى السقايل التي عملوها من جهة الحجر للصعود منها إلى سطحها جسراً من الخشب عرضه نحو مترين ، ممتداً من جانب منبر المسجد الحرام من يمينه على استقامة واحدة إلى جهة الجدار الشرقي للكعبة ، وجعلوا باب الجسر بجانب باب المنبر ، وأوقفوا على بابه طائفة من الجنود للمحافظة على نظاف الصعود إلى الكعبة ، فلا يصعدها كل واحد حرصاً على مصلحة العمل والشغل ، وجعلوا هذا الجسر الخشبي مرتفعاً على أرض المطاف بنحو قامتين ، فكان الطائفون يطوفون حول الستارة الخشبية المحيطة بالكعبة فإذا وصلوا عند المنبر ، مروا تحت هذا الجسر ليتموا طوافهم .

مع العلم بأنهم قد أنزلوا ثوب الكعبة من فوقها وطووه وجعلوه أسفل المطاف ، أي تحت الشاذروان حتى لا يتلف ولا يتسخ ، فلما انتهت عمارة الكعبة جعلوه عليها . ولقد تكلمنا عن ستر الكعبة بالأخشاب حين عمارتها مفصلاً تفصيلاً تاماً في مبحث آخر فراجعه إن شئت .

فتح الكعبة لأخذ القياسات

ثم إنه في صباح يوم السبت المذكور فتح سدنة الكعبة المشرفة بابها لأخذ قياس باطنها من جميع الجهات على الوجه المطلوب بواسطة المهندسين المصريين المنتدبين للعمل في الكعبة ، فتشرف بالدخول فيها الشيخ محمد بن لادن مدير الإنشاءات العامة ، والشيخ محمد صالح باخطمة المدير المساعد لمكتب مشروع توسعة المسجد الحرام ، والشيخ عبدالله بن سعيد مدير العمل والعمال بالمكتب المذكور ، والشيخ عبدالقادر نائب الحرم وكيل مدير إدارة الحرم ، ومؤلف هذا الكتاب محمد طاهر بن عبدالقادر الكردي عضو اللجنة التنفيذية لتوسعة المسجد الحرام واثنان من المهندسين المصريين فقط .

فبعد صلاة ركعتين فيها والتضرع إلى الله سبحانه وتعالى ، قاموا بالنظر إلى المواضع التي تحتاج إلى الإصلاح والترميم ، وأخذ قياس باطنها من جميع جهاتها الداخلية ، وقياس بابها وما بين الأعمدة الثلاثة التي وضعها عبدالله بن الزبير رضي

الله تعالى عنهما وغير ذلك، فلما أتموا عملهم بأدب واحترام لائقين ببيت الله الحرام، خرجوا منه لأخذ الاستعداد للإصلاح والتعمير، ولقد انتظروا إلى ما بعد النصف من رجب بعد أن أحضروا الأخشاب والأعواد والبطحاء والنورة وجميع الأدوات والآلات اللازمة للبناء والتعمير فوضعوها في المسجد الحرام، ثم بدؤوا في العمل والتعمير كما سيأتي بيانه.

ورب سائل يقول: ما سبب تأخير العمل في الكعبة المشرفة إلى هذا الوقت وقد صدر الأمر الملكي بالتعمير من شهر محرم من السنة المذكورة فنقول: سبب التأخير كان انتظاراً لبرودة الجو واعتدال الهواء ودخول فصل الشتاء، أما في الأشهر الأولى للعام الهجري المذكور فالحر عندنا شديد لا يمكن معه عمارة سقفي الكعبة وليس هناك ساتر يقي العمال من الشمس. وإليك وصف العمارة المذكورة مع العلم بأن العمل كان في الكعبة المشرفة من المغرب إلى بعد نصف الليل، ولقد مدوا فوق الأخشاب التي تستر سطح الكعبة المشرفة عن أعين الناس أسلاك الكهرباء، ثم علقوا فوقها المصابيح الكهربائية للإضاءة ليلاً وقت الشغل.

انظر: صورة رقم ٩٥، الكعبة محاطة بالخشب لتجديد سقفها

البدء في تجديد السقف الأعلى للكعبة

فلما كان ضحى يوم الجمعة الثامن عشر من شهر رجب من السنة المذكورة سنة (١٣٧٧) هجرية، ألف وثلاثمائة وسبع وسبعين الموافق للثامن عشر أيضاً من شهر الدلو سنة (١٣٣٦) ألف وثلاثمائة وست وثلاثين شمسية، والموافق للسابع من شهر فبراير سنة (١٩٥٨) ألف وتسعمائة وثمان وخمسين ميلادية، حضر إلى المسجد الحرام ولي عهد المملكة العربية السعودية صاحب السمو الملكي الأمير فيصل بن عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل سعود -جلالة الملك حالياً-، نيابة عن أخيه الملك السابق سعود بن عبدالعزيز بن عبدالرحمن وقد كان غائباً في مدينة الرياض ولم يستطع الحضور بنفسه لمرض ألم به وكان برفقة سمو الأمير فيصل وسمو الأمير الحسن بن محمد الخامس ولي عهد المملكة المغربية، يحف بهما الأمراء والعلماء والوزراء، وبعد أن تشرف الجميع بدخول بيت الله الحرام والصلاة والدعاء في جوفه، صعدوا من السقالة الخشبية إلى سطح البيت الحرام، وذلك في الساعة الرابعة العربية من صباح يوم الجمعة المذكورة أي قبل الصلاة بنحو ساعتين.

وكان في استقبال سموه على سطح الكعبة المشرفة الشيخ محمد بن لادن (بكسر الدال) المعجمة وسكون النون مدير الإنشاءات العمومية ، والشيخ محمد صالح القزاز مدير مكتب مشروع التوسعة ، والشيخ محمد صالح بن عبدا لله باخطمة "بضم فسكون" المدير المساعد للمكتب المذكور ، والشيخ عبدا لله بن سعيد مدير العمل والعمال بالمكتب المذكور أيضاً ، والشيخ محمد طاهر بن عبدالقادر الكردي المكي "الخطاط" مؤلف هذا التاريخ وهو عضو في اللجنة التنفيذية لتوسعة المسجد الحرام ، وكثير من الفضلاء الذين حضروا مبكرين .

ثم إن سمو الأمير "فيصل" حفظه ا لله تعالى وأدام توفيقه أخذ بيده مطرقة فسمى ا لله تعالى وأثنى عليه وبدأ بهدم جزء قليل من إفريز سطح الكعبة المشرفة إيذاناً ببدء الهدم والإصلاح ، فتبعه كافة الحاضرين بالهدم وقلع رخام السطح ، وهم يسبحون ا لله تعالى ويكبرونه ويحمدونه ، وكان مؤلف هذا التاريخ يقرأ جهراً بعض الآيات القرآنية ويردد كثيراً هذه الجملة : "اللهم إنا لا نريد إلا الإصلاح وأنت تحب المصلحين" .

ثم إن سمو الأمير "فيصل" نزل من سطح الكعبة المعظمة مع حاشيته ومن حضر معه ، وبقي الناس يرفعون أنقاض الهدم من حجارة ورخام ونورة وخلافها إلى أن قرب وقت صلاة الجمعة فنزل الجميع استعداداً للصلاة ثم عاودوا العمل من بعد صلاة العصر إلى قبيل المغرب وهم في حالة التسبيح والتكبير والتهليل ، وقد تشرف مؤلف هذا الكتاب بالعمل مع الناس في رفع أنقاض السطح نسأل ا لله القبول والعفو والعافية والستر في الدارين بفضله ورحمته .

هذا ولقد حضر إلى سطح الكعبة المعظمة مندوب دائرة الإذاعة العربية السعودية تلميذنا الفاضل النجيب الأستاذ عباس فائق الغزاوي ، لتسجيل تسبيح الناس وتهليلهم حين العمل ، وتسجيل مشاعرهم وفرحهم بعمارة بيت ا لله الحرام التي لا تقع إلا نادراً بعد مئات السنين ، فسجل مندوب الإذاعة شيئاً من كلمات بعض الفضلاء من فوق سطح الكعبة المشرفة ، وقد سجل المذكور لمؤلف هذا الكتاب محمد طاهر بن عبدالقادر الكردي كلمته التي ارتجلها على السطح إجابة على سؤاله هذا "ما هو تاريخ الإصلاحات التي أدخلت على الكعبة الشريفة ؟"

فأجبناه إجابة مختصرة لأن الوقت لا يتسع للتطويل وصلاة الجمعة في انتظارنا ، فأذاع عنا هذه الجملة الآتية :

لقد حصلت إصلاحات كثيرة في بناية الكعبة المشرفة منذ بنائها الأول في عهد خليل الله "إبراهيم" عليه الصلاة والسلام ، لأنها من بناء البشر وعمل الإنسان ، وهذا معرض للخراب وقابل للإصلاح ، فلو أراد الله عز شأنه ألا تمتد إليها أيدي البشر لخلقها قطعة واحدة من الجوهر فلهذا فإنه كلما حصل في الكعبة شيء من الخراب كما هو العادة في البنايات بادر الخلفاء والسلاطين والملوك وذووا الشأن في إصلاحه قبل أن يتفاقم ، فإذا احتاج الأمر إلى تجديد بنائها كلها بادروا إلى ذلك ، وأجروا الإصلاحات والعمارات بأنفسهم بكل أدب واحترام .

ولقد بنيت الكعبة المشرفة إحدى عشرة مرة ، فأول من بناها على الأشهر خليل الله "إبراهيم" عليه الصلاة والسلام منذ أربعة آلاف سنة تقريباً ، وآخر من بناها السلطان مراد خان الرابع رحمه الله تعالى ، بعد أن هدمها السيل العظيم الذي دخل المسجد الحرام ، وكان ذلك سنة ألف وأربعين من الهجرة ، وهي هذه البناية الموجودة الآن ، ثم حصلت بعده إصلاحات وترميمات متعددة .

وأما إصلاحها في هذا اليوم المبارك وفي هذه اللحظة اللطيفة ، فإنه لتغيير سقفها الأعلى وبعض ما يحتاج إلى الإصلاح من الداخل والخارج ، وذلك بحضور سمو الأمير فيصل ولي العهد المعظم ورئيس مجلس الوزراء ، وبصحبته ضيفه الكريم سمو الأمير الحسن بن محمد نجل جلالة ملك المغرب ، وبوجود بعض الشخصيات البارزة والجمهور الكريم ووجود المشرف العام على مشروع توسعة المسجد الحرام وعمارة الكعبة المشرفة ، ووجود مدير مكتب التوسعة .

وإن شاء الله تعالى عما قريب سنطبع الكتاب الذي شرعنا في تأليفه عن تاريخ بلد الله الأمين وبيته المطهر وتوسعة المسجد الحرام ، وسينشر هذا الكتاب بحول الله تعالى في أنحاء العالم الإسلامي ، ليقفوا على الحقيقة التامة والمعلومات الصحيحة الوافية ، نسأل الله تعالى القبول والرضا والفوز بالجنة والنجاة من النار بفضله ورحمته .

ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم ، وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم ، وصلى الله على سيدنا "محمد" وعلى آله وصحبه وسلم .

انتهت إجابتنا على سؤال مندوب الإذاعة السعودية .

ولقد كان الشغل ليلاً ونهاراً في الكعبة المشرفة منذ ابتداء العمارة فيها إلى انتهائها من داخلها وخارجها ، وذلك حتى انتهوا من العمل سريعاً ، ولهذا فقد مدوا أسلاك الكهرباء على سطح الكعبة وعلقوا عليها المصابيح الكهربائية للإنارة على العمال في الليل ، وبعد الانتهاء من العمارة من خارج الكعبة المشرفة وعند إرادة العمل في جوفها أدخلوا المصابيح الكهربائية أيضاً في داخلها للإنارة على العمال ليلاً ونهاراً ، لأنه ليس في الكعبة المعظمة منافذ لدخول الضوء غير بابها ، والنور الذي يدخل من الباب لا يكفي لإنارة جميع الجهات في باطنها ، لذلك كان العمال الذين يشتغلون في داخلها في حاجة شديدة لإيقاد المصابيح الكهربائية ليلاً ونهاراً . وهذه هي أول مرة توضع المصابيح الكهربائية في الكعبة المشرفة في التاريخ . وبعد انتهاء العمارة رفعت جميع المصابيح من الكعبة بتاتاً لعدم الحاجة إليها ، فإن الكعبة المعظمة لا تفتح ليلاً مطلقاً إلا للضرورة القصوى جداً وهي نادرة الوقوع ، أما إذا فتحت في طرفي النهار فإن الضوء الذي يدخل من بابها يكفي الناس الذين يدخلونها للصلاة والدعاء والتضرع .

وفي ليلة السبت التاسع عشر من شهر رجب من السنة المذكورة اشتغل الناس أيضاً إلى نصف الليل في رفع أنقاض السقف الأعلى ، حتى لم يبق شيء وكشف السقف كشفاً تاماً ، وكانت الحجارة والنورة والأخشاب القديمة التي تخرج من السقف ترمى في داخل حجر إسماعيل تحت الميزاب وهذه الجهة كما قلنا محاطة أيضاً بالأخشاب لستر العمل عن أعين الناس .

وقد جرى رفع الأنقاض وكشف السقف في وقت قصير وبغاية السرعة لأن العمل كان من كافة الناس من أهل مكة وفضلائها وغيرهم ممن كان موجوداً بها من جميع الأجناس ، فكانوا جميعاً يشتغلون في بيت الله الحرام بغاية الفرح والسرور وهم يسبحون الله تعالى ويذكرونه ، ويحمدونه على ما أنعم عليهم من خدمة بيته المطهر ، فلو كان الشغل من جانب العمال فقط الذين يأخذون أجراً يومياً على عملهم لما انتهى العمل بهذه السرعة .

ثم في صباح يوم السبت المذكور ابتدؤوا في تركيب الميدات على الحيطان الأربعة في كل جانب ميدة واحدة ، وعملوا في تنظيف الأمكنة والجدران ، وباشر المهندسون في عمل وزن السقف بآلة هندسية خاصة لتكون جهة ميزاب الكعبة المشرفة مائلة ومنخفضة قليلاً عن الجهات الأخرى لنزول مياه الأمطار وسيلانها

من الميزاب إلى حجر إسماعيل عليه الصلاة والسلام ، وقد عملوا الترتيبات اللازمة لتركيب أعواد السقف ، وقد اشتغلوا في هذا العمل لغاية منتصف ليلة الأحد ، وقد أحضروا جميع هذه الأعواد الطوال الغلاظ من مدينة جدة .

ثم في صباح يوم الأحد عشرين رجب من السنة المذكورة ابتدؤوا في تركيب أعواد السقف ، وقرب المغرب انتهوا من تركيبها ، ثم ابتدؤوا في ربط الأعواد بجدران الكعبة بالحجر والنورة البلدية .

وعدد أعواد هذا السقف أحد وعشرون عوداً غليظة قوية ، رؤوسها في الجدار الشرقي وفي الجدار الغربي ، وعودان آخران وضع عود تحت رؤوس هذه الأعواد في الجدار الشرقي ، وعود وضع تحت رؤوسها الأخرى في الجدار الغربي ، وبهذين العودين يكون جميع أعواد هذا السقف ثلاثة وعشرون عوداً ، طول كل واحدة من هذه الأعواد عشرة أمتار وأربعين سنتيمتراً وبعضها عشرة أمتار وعشرة سنتيمتراً ، بما في ذلك الركوز على الجدران ، وتحت هذه الأعواد في الوسط كمرتان منفصلتان رأساهما في الجدار الشمالي وفي الجدار الجنوبي ، الكمرة الأولى لحمل السقف الأعلى والكمرة الثانية لحمل السقف الأسفل ، طول كل واحدة من الكمرتين اثنا عشر متراً وعشرين سنتيمتراً ، بما في ذلك مقدار الركوز والركوب على الجدار .

أو بعبارة أخرى يفهمها المعلمون في البناء نقول : إن حامل السقف من الوسط هو حمال رئيسي من الخشب المسمى "دوجلس" ، بضم الدال الممدودة وسكون الجيم عرض (٢٦×٢٦) ومحمل بالدكم على العمدان الأصلية الوسطى ، وتحته فرش مثله على العمدان الراسية .

هذه العبارة كتبناها عن لسان المعلمين المصريين الذين اشتغلوا في بناء الكعبة المشرفة .

وفي ليلة الاثنين الحادي والعشرين من رجب من السنة المذكورة فرشوا فوق أعواد السقف ألواح الخشب الطويلة التي سمك الواحدة منها بوصتان ، وقد تم في هذه الليلة تطبيق جميع هذه الألواح الخشبية فوق الأعواد على أحسن ما يرام .

ثم بدأوا في صباح هذا اليوم ببناء الحائط القصير المحيط بالسطح ، ويسمى "بالإفريز" كما يسمى أيضاً " بالطنف " وهو يرتفع عن رخام السطح بنحو ثمانين سنتيمتراً ، وقد أحكموا بناءه إحكاماً جيداً بالإسمنت والنورة البلدية والحجارات ،

وقد تشرف أيضاً بالبناء في هذا المحل محمد طاهر بن عبدالقادر الكردي مؤلف هـذا التاريخ مـع ولـده "عبدالرحمـن الكـردي" أنبتـه الله نباتـاً حسـناً وأسـعده في الدنيـا والآخرة بفضله ورحمته ، كما بدأوا أيضاً في صباح هذا اليوم بتنقيل جدران الكعبة المشرفة بعمال آخرين كما سنفصل ذلك إن شاء الله تعالى قريباً .

وفي ليلة الثلاثاء الثاني والعشرين من شهر رجـب مـن السـنة المذكـورة ، أتمـوا بناء الحائط القصير المحيط بالسطح المسمى "بالإفريز" وأحكموا بناءه تماماً .

ثم بدأوا في صباح هذا اليوم بـأخذ الاسـتعداد الـلازم لتجديـد السـقف الثـاني للكعبة المقابل لأرضها كما سيأتي تفصيلـه . لذلـك فـإنهم لم يشتغلوا في السـقف الأعلى "أي السطح" في هـذا اليـوم الـذي هـو يـوم الثلاثـاء الثـاني والعشـرين مـن رجب ، ولا في يوم الأربعاء ولا في يوم الخميس أيضاً .

وكان بناء الحـائط الدائر بالسـطح المسـمى "بـالطنف" و"بـالإفريز" بـالطوب الأحمر "الآجر" الذي أتوا به من مصنع العاقول بالمدينة المنورة ، وهـو مصنـع عظيـم مجهز بالآلات الميكانيكية والأدوات الحديثة ، يخرج القوالب الطوب الممتازة الجيـدة القوية ، فبنوا هذا الإفريز من هذا الطوب والآجر الممتاز بالنورة البلدية والإسمنـت ، وقد وضعوا هذا الطوب مرصوصة بجانب بعض ، لكن بين كل طوبة وطوبة فجوة صغيرة حشوها بالنورة .

وطول الواحدة من هذا الآجر ٢٢ سنتيمتراً ، وعرضها ١١ سنتيمتراً ، وسمكها ٦ سنتيمترات .

ولا ندري بالضبط كم وضعوا من هـذا الطـوب "الآجـر" في إفريـز السـطح ، ونعتقد أنه لا يزيد عن خمسمائة طوبة ، وفي غرة شعبان وضعوا أسفل هـذا الإفريـز الرخامات كما سيأتي بيانه .

استبدال المرابيع الخشبية التي بسطح الكعبة بالحديد

كانت كسوة الكعبة المشرفة الخارجية تربط بأعلى سطحها في مرابيع خشبية عددها أربعة ، في كل جهة من السطح خشبة واحدة مثبتة في طنف السـطح ، أي في الإفريز ، والمرابيع هي أربعة أعواد مربعة الشكل طول كل منهـا بطـول السـطح

فالكسوة تربط على هذه الأعواد ثم تسدل على الكعبة . هذه هي العادة في ربط الكسوة من قديم الزمان .

فلما كانت عمارة سقفي الكعبة في العهد السعودي استبدلت هذه المرابيع الخشبية القديمة التي بسطح الكعبة بأسياخ حديدية قوية ، وكيفية ذلك كما يأتي :

أنهم لما بدأوا في صباح يوم الاثنين الحادي والعشرين من شهر رجب سنة (١٣٧٧) ألف وثلاثمائة وسبع وسبعين هجرية ، في بناء الحائط القصير المحيط بسطح الكعبة المشرفة المسمى "بالطنف" كما يسمى أيضاً "بالإفريز" وضعوا في الليلة التالية وهي ليلة "الثلاثاء" الثاني والعشرين من رجب ، الأسياخ الحديدية لتعليق أستار الكعبة عليها بدلاً عن المرابيع الخشبية التي كانت تستعمل لهذا الغرض ، وعدد هذه الأسياخ ثماني قطع ، في كل جهة من الجهات الأربعة للسطح قطعتان من الأسياخ ، قد غرز طرفا كل واحدة منهما في باطن الإفريز حتى خرجا من الجهة الأخرى وعكفا عليها ، ومحيط كل قطعة من هذه الأسياخ الثمانية ١٠ سنتيمترات ، وزيادة في تقوية هذه الأسياخ ربطوها بقطع من الأسياخ الصغيرة تسمى "كانات" ، أي حاملات ، قياس (١٤ملي) وعدد هذه الكانات ثمانية وأربعون قطعة ، كل قطعة مغروزة في جدار الإفريز تحمل الأسياخ الثخينة وممسكة لها حتى لا تنثني من ثقل الكسوة ثم في يوم الجمعة الخامس والعشرين من شهر رجب من السنة المذكورة وهي سنة (١٣٧٧) هجرية ، دهنوا أولاً ، ألواح خشب السطح بالبوية الحمراء الممزوجة بالسلقون الذي يمنع وصول الأرضة والسوس للخشب ، ثم فرشوا فوق البوية الحمراء قماش القلع "بكسر القاف وسكون اللام" المسمى "بالمشمع" ولونه أخضر وهو قماش يعمل منه الخيام لمتانته وقوته ، فرشوا هذا القماش على جميع السطح من فوق ألواح الخشب ، ثم فرشوا فوق هذا القماش القلع طبقة من الجبس الأبيض ، ثم وضعوا فوق الجبس الأبيض طبقة واحدة من قوالب الطوب الأحمر القوي وهو "الآجر" وقد أحضروه من مصنع العاقول الذي يبعد عن المدينة المنورة بنحو نصف ساعة أو أقل بالسيارة ، وقد أنشئ هذا المصنع من بضعة أعوام .

ثم في يوم السبت السادس والعشرين من شهر رجب من السنة المذكورة ، وضعوا فوق قوالب الطوب أي الآجر الخلطة وهي الطين المخلوط بالنورة البلدية الممتازة بصفة محكمة وقاعدة هندسية .

ثم في يوم الأحد السابع والعشرين من شهر رجب من السنة المذكورة فرشوا فوق هذه الخلطة حجارة الرخام أي المرمر الأبيض الممتاز، وقد انتهوا من فرش الرخام على السطح ليلة الثلاثاء التاسع والعشرين من رجب من السنة المذكورة.

وضع الرخام على سطح الكعبة

قلنا أنهم وضعوا في يوم الأحد السابع والعشرين من شهر رجب من السنة المذكورة سنة (١٣٧٧) هجرية حجارات الرخام أي المرمر الأبيض فوق سطح الكعبة المشرفة، ونذكر هنا الآن صنعة هذه الرخامات وعددها وهي كما يلي:

فرش سطح الكعبة المعظمة بنفس الرخام الأبيض الذي كان عليه سابقاً، وذلك بعد تنظيفه وإصلاح أطرافه لكن بعضهم أخذ من هذه الرخامات القديمة شيئاً للتبرك فنقص بذلك رخام السطح، لهذا فإنهم بعد وضعهم الرخام القديم فوق السطح ثانياً وضعوا رخاماً جديداً بدلاً عما نقص منه.

وعدد رخامات السطح القديمة والجديدة هو (٢٢٤) مائتان وأربعة وعشرون رخامة، وهذا غير رخامات إفريز السطح التي سيأتي بيانها، وجميع رخامات السطح مربعة الشكل، ما عدا أربعة وأربعين رخامة فمستطيلة وهي التي تحيط بالمربعات في أواخر السطح، والرخامات المربعة طول بعضها (٦٦) سنتيمتراً في عرض (٥٦) سنتيمتراً، وطول بعضها (٧١) سنتيمتراً في عرض ٦٠ سنتيمتراً.

فيكون عدد جميع رخامات السطح ما بين صغير وكبير، مع جميع رخامات إفريز السطح التي سيأتي بيانها هو (٢٨٢) مائتان واثنتان وثمانون رخامة.

صب الرصاص بين رخام سطح الكعبة

ثم في يوم الاثنين الثامن والعشرين من رجب من السنة المذكورة، ابتدؤوا يشتغلون في صب الرصاص بين فجوات رخام السطح لشدة الاستمساك والثبوت، مع اشتغالهم أيضاً في جهات أخرى من السطح فأحضروا جميع الأدوات اللازمة لصب الرصاص فوق سطح الكعبة المشرفة، وأوقدوا "دافور الكاز" فلما اشتغل وضعوا فوقه الإناء الذي بداخله قطع الرصاص النظيف، فلما ذاب الرصاص صاروا يأخذون منه في وعاء خاص شيئاً فشيئاً ويصبونه بحذر وعناية في

أطراف الرخامات ، أي في الفجوات التي تركوها بينها لصب الرصاص ، ولا بد أن تكون هذه الفجوات بين الرخام ناشفة يابسة ليس بها رطوبة الماء ، لأن الرصاص المذاب إذا وصل إليه شيء من الماء يتطاير فيحدث لمن حوله أضراراً بليغة من الحروق .

وقد أحكموا صب الرصاص بين رخامات سطح الكعبة إحكاماً تاماً لئلا تتسرب مياه الأمطار إلى باطنها ، وكان صب الرصاص بواسطة المعلمين من أهل مكة .

وضع الرخام في طنف السطح

ثم في ليلة الأربعاء الأول من شهر شعبان من السنة المذكورة سنة (١٣٧٧) هجرية ، ابتدؤوا في وضع الرخام في أسفل الإفريز المحيط بالسطح ، أي أنهم وضعوا هذا الرخام ملصقاً برخام السطح مرتفعاً عنه على جدار الإفريز "الطنف" بمقدار خمسة وعشرين سنتيمتراً في الجهات الأربعة ، ثم من فوق هذه الرخامات إلى أعلى الطنف "الإفريز" عملوه بالنورة .

وقد قلنا فيما تقدم أن هذا الإفريز قد بني بالطوب الأحمر "الآجر" قبل وضع هذه الرخامات عليه ، فالذي عملوه في غرة شعبان هو وضع هذا الرخام في أسفله فقط ، لجمال منظر رخام السطح من جميع جهاته .

وعدد الرخامات الموضوعة على إفريز السطح "الطنف" فقط من الجهات الأربعة هو (٥٨) ثمانية وخمسون رخامة وهذه الرخامات كلها مستطيلة الشكل ، وطول بعضها (٥٦) سنتيمتراً ، وبعضها (٦٠) سنتيمتراً ، وبعضها (٧٠) سنتيمتراً .

أما عرضها فلا يختلف مطلقاً فكلها متساوية العرض ومقداره (٢٥) سنتيمتراً .

فإذا جمعنا عدد رخامات هذا الإفريز مع عدد رخامات نفس السطح التي تقدم الكلام عنها ، كان مجموع الرخامات فوق سطح الكعبة هو (٢٨٢) مائتان واثنتان وثمانون رخامة .

إصلاح فتحة باب الدرج الذي بالسطح

ثم عندما فرشوا ألواح الخشب فوق أعواد السطح الأعلى في يوم الاثنين الحادي والعشرين من رجب من السنة المذكورة سنة (١٣٧٧) هجرية ، أصلحوا فتحة باب الدرج الذي بأعلى السطح ، أصلحوها من نفس خشب الكعبة القديم الصالح الذي لم يطرأ عليه السوس والأرضة ، وفتحة الباب واقعه في الركن الشامي من السطح أي فوق الدرج الذي بباطن الكعبة تماماً ، تبعد عن الجدار الشرقي بمتر واحد ، وعن الجدار الشامي الذي فيه الميزاب بعشرين سنتيمتراً .

وأبدلوا غطاء هذه الفتحة القديم بغطاء من الخشب السميك ، وجعلوا عليه تلبيسة جديدة من المعدن ، وطول هذا الغطاء (١٨٥) مائة وخمسة وثمانون سنتيمتراً وعرضه (١١٠) مائة وعشرة سنتيمترات ، أما طول نفس فتحة الدرجة فهو (١٢٧) مائة وسبعة وعشرون سنتيمتراً ، وعرضها (١٠٤) مائة وأربعة سنتيمترات ، أي أن قياس الغطاء أكبر من نفس الفتحة وهذا هو المعقول ، حتى لا تجد المياه منفذاً لتسربها إلى باطن الكعبة .

فإذا أقفلت فتحة الدرج بهذا الغطاء فلا تنزل من مياه الأمطار إلى جوف الكعبة قطرة واحدة .

تجديد السقف الثاني للكعبة مما يلي الأرض

وفي صبح يوم الثلاثاء الثاني والعشرين من شهر رجب سنة (١٣٧٧) ألف وثلاثمائة وسبع وسبعين هجرية ، فتح سدنة الكعبة بابها ، فأدخل العمال في جوفها الأعواد الطوال لتركيبها بعضها ببعض ، أي لعمل السقايل حتى تصل من أرض الكعبة إلى السقف الخشبي ، أي السقف الثاني المقابل لأرض الكعبة ، وذلك لإصلاح ما عطب وتآكل من أخشابه ، بعد أن رفعوا قناديل الكعبة المعلقة ، وبعد أن رفعوا ستارتها الداخلية الحمراء .

ثم في يوم الأربعاء الثالث والعشرين من شهر رجب من السنة المذكورة نظروا إلى أخشاب هذا السقف فوجدوها كلها تالفة تحتاج إلى تغييرها واستبدالها بأخشاب جديدة قوية ، أما أعواد هذا السقف التي تحمل هذه الأخشاب وعددها ثلاثة أعواد ، فقد وجدوها صالحة جيدة ما عدا العود الثاني الذي بالوسط فقد

كان مكسوراً ، فأخرجوا هذا العود المكسور بعد أن نشروه بالمنشار إلى ثلاث قطع ، ثم استبدلوا هذا العود بعود مثله ، قوي غليظ فوضعوا مكانه ، والعودان الآخران القديمان بقيا على حالهما لم يغيرا مطلقاً لقوتهما وصلابتهما .

وهذه الأعواد الثلاثة كلها قوية صلبة وغليظة جداً ، طول كل واحدة منها عشرة أمتار وخمسة عشر سنتيمتراً ، وقطر كل منها أربعين سنتيمتراً ، وتمتد رؤوس هذه الأعواد الثلاثة من الجدار الشرقي للكعبة إلى الجدار الغربي ، أي كامتداد رؤوس أعواد السقف الأول . وفي صباح يوم الخميس الرابع والعشرين من شهر رجب من السنة المذكورة قاموا بكنس داخل الكعبة المشرفة وتنظيفها وإخراج ما تساقط فيها من الأخشاب القديمة والمسامير والأحجار والأتربة ، ورموا كل ذلك في داخل حجر إسماعيل عليه السلام في جهة الميزاب .

ثم بعد تركيب العود الجديد الذي وضع في مكان العود المكسور ، قاموا بتطبيق ألواح الخشب الجديدة المتينة فوق هذه الأعواد الثلاثة وسمروها عليها بعد مسحها وتنظيفها حتى صارت ناعمة ، وسمك كل لوحة من هذه الأخشاب الجديدة بوصة واحدة أو بوصتان (نحن نشك في ذلك) ولم يوضع فوق هذه الأخشاب شيء من الطين أو الرخام غير أنهم ضربوه بالبوية الزيتية كما سيأتي تفصيله إن شاء الله تعالى . وبهذا ينتهي تجديد هذا السقف الثاني ، وانتهاء العمل فيه كان في ليلة الجمعة الخامس والعشرين من شهر رجب من السنة المذكورة ، ولهذا السقف بابان صغيران ، أحدهما من الجهة الشرقية وثانيهما من الجهة الجنوبية ، يتوصل إليهما من باطن درج الكعبة الداخلية .

والسبب في عدم وضع طين أو حجر أو رخام فوق خشب هذا السقف ، هو عدم الاحتياج إلى ذلك لأنه ليس سطحها للبيت الحرام ، فسطحه هو السقف الأول الذي يلي السماء ، فلا تدخل مياه الأمطار إلى هذا السقف الثاني ، فالسطح هو الذي يتلقى المياه ، وإنما عملوا هذا السقف محافظة على الوضع القديم منذ صدر الإسلام من وجود سقفين للكعبة مع العلم بأنه لا يوضع في هذا السقف شيء أبداً . والله تعالى وحده الذي يعلم حكمة حدوث هذا السقف الثاني ، فهو علام الغيوب لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء .

دهن ما بين السقف بالبوية

ثم ابتدؤوا في يوم الاثنين الثامن والعشرين من شهر رجب من السنة المذكورة في دهن ما بين السقفين أي على الأعواد والأخشاب بالقطران الأسود لحفظها من السوس والأرضة، وبعد الانتهاء من ذلك تركوه حتى يجمد القطران وينشف.

ثم في اليوم السادس من شهر شعبان من السنة المذكورة، دهنوا من بين السقفين خشب السقف العلوي بالبوية البيضاء.

تنقيل جدران الكعبة من الخارج

لم يحصل و لله الحمد تصدع وتشقق في جدران الكعبة المشرفة مطلقاً لا من الخارج ولا من الداخل، وإنما الذي حصل هو وهن في النورة التي بين حجاراتها من خارجها، فظهر بينها مفاجأة بعرض الإصبع، وهذا هو الذي يحتاج إلى التنقيل وهو إصلاح ما بينها وملئها بالنورة والجص، وأما ما حصل من داخل الكعبة فهو وهن أيضاً في بعض الرخامات المكسوة بها الجدران، وهذا أيضاً يحتاج إلى إصلاح وترميم، خصوصاً ما حدث الآن عند تعمير السقفين من الخدوشات.

وأما السقفان "الأعلى والأدنى" فقد تصدعا وظهر فيهما التلف والتآكل والحمد لله الذي هدانا لتجديدهما تجديداً تاماً كاملاً. أما نفس جدران الكعبة المعظمة فقوية ومتينة وضخمة البناء و لله الحمد، ونعتقد أنها تمكث سليمة صحيحة كما هي عليه الآن نحو ألف عام، وكيف لا تكون كذلك وعرض بنائها، أي "سمك جدرانها" متر واحد، وحجاراتها من الصخور الصماء القوية، يبلغ طول بعضها مترين ومتراً وما بين ذلك، وقد بنيت بإخلاص وحسن نية ومن المال الحلال مع التكبير والتهليل والتسبيح والتقديس.

ففي صباح يوم الاثنين الحادي والعشرين من رجب من السنة المذكورة، باشر المعلمون والعمال في تنقيل جدران الكعبة من الخارج من جهاتها الأربعة من أعلى السطح إلى الشاذروان بأرض المطاف مع استمرار الشغل والتعمير في السطح بواسطة عمال آخرين، والتنقيل كلمة عربية. قال في مختار الصحاح في مادة "نقل": وقد نقل ثوبه من باب نصر أي رقعه، وأنقل خفه أي أصلحه، ونقله أيضاً تنقيلاً. اهـ.

وجميع هؤلاء المعلمين والعمال من أهل مكة ليس فيهم غريب مطلقاً ، لأنهم أعرف من غيرهم بصنعة التنقيل يتقنونه إتقاناً تاماً من سابق العصور ، وعددهم تسعة وعشرين شخصاً أسماؤهم كما يأتي :

(١) عبدالقادر مجلد ، (٢) سعيد درويش ، (٣) سليمان لبان ، (٤) عبدالكريم مجلد ، (٥) عبدالشكور خيمي ، (٦) إبراهيم مجلد ، (٧) محمد حنفي ، (٨) عبدالسلام خيمي ، (٩) معتوق خياط ، (١٠) محمود صابر ، (١١) جمال فارسي ، (١٢) عبد الرحمن علي ، (١٣) أحمد حريري ، (١٤) سراج بنون ، (١٥) عبدا لله حريري ، (١٦) محمد عبدالرحمن ، (١٧) عبدالجبار منشي ، (١٨) محمد رفيع ، (١٩) عبدا لله أبو عصيدة ، (٢٠) سعيد نتو ، (٢١) عبدالمطلب عبدا لله ، (٢٢) عبدالجليل عصلوب ، (٢٣) سليم هبو ، (٢٤) عبدالوهاب خيمي ، (٢٥) محمد صابور ، (٢٦) سليمان حمزة جلال ، (٢٧) أحمد مده ، (٢٨) يحيى عبدالشكور ، (٢٩) حسن إسماعيل .

هؤلاء هم المنقلون المكيون الذين اشتغلوا في تنقيل جدران الكعبة المطهرة زادها ا لله تعالى شرفاً وتعظيماً .

والتنقيل عبارة عن تملية ما بين حجارات الكعبة المشرفة من الفراغ والفجوات بمعجون "اللاقونة" أولاً ثم يحشونه من الظاهر بالجص والنورة البلدية والإسمنت . واللاقونة هي معجون يصنع من النورة والقطن مخلوطاً بزيت السمسم ، يدقون الجميع دقاً ناعماً عدة ساعات حتى يختلط الجميع بعضه ببعض خلطاً جيداً ، ويمتزج مزجاً تاماً حتى يصير كالمعجون ، فعندئذ يأخذون منه بأصابعهم ويحشون الفراغ والفجوات التي بين الحجارات ، ويضعون أيضاً مع اللاقونة غلاظ المسامير لشدة التماسك ، وبعد تملية الفراغات والفجوات باللاقونة ، يضعون عليها معجون الجص والنورة والإسمنت ، ثم يملسونه تمليساً جيداً ناعماً حتى يتساوى التنقيل بمستوى الحجارات ، بهذه الصفة كانت التنقيل في جدران الكعبة المشرفة .

وقد وجدنا في الجدار الشرقي للكعبة الذي فيه الباب ثلاث فتحات دائرية ومثلها في الجدار المقابل له ، قطر دائرة كل فتحة نحو أربعين سنتيمتراً ، وكل واحدة منها متباعدة عن أختها بنحو مترين ، وكلها تبعد عن السطح بمقدار مترين تقريباً ، يعني أن هذه الفتحات موضع رؤوس أعواد السقف الثاني ، وكانت هذه

الفتحات مسدودة بصفائح الرصاص، فعند التنقيل أخرجت هذه الصفائح من الفتحات وسدت بالحجارة والنورة .

هذا ولقد انتهوا من عمل تنقيل جدران الكعبة المشرفة في يوم الأحد خامس شعبان سنة (١٣٧٧) ألف وثلاثمائة وسبع وسبعين هجرية ، وكان ابتداء عملهم فيه كما قلنا يوم الاثنين الحادي والعشرين من شهر رجب من السنة المذكورة ، والحمد لله رب العالمين .

العمل في داخل الكعبة وترميمها

ثم بدؤوا في العمل داخل الكعبة المشرفة من الترميم والإصلاح بعد صلاة الجمعة في اليوم الثالث من شهر شعبان سنة (١٣٧٧) ألف وثلاثمائة وسبع وسبعين هجرية .

وكان قبل ذلك أي عند عمارة السقف الثاني للكعبة قد رفعوا ستارتها الحريرية الحمراء التي بداخلها ، كما رفعوا جميع القناديل والطاسات المعلقة في جوفها محافظة عليها ، وكان ذلك في يوم الاثنين الحادي والعشرين من شهر رجب من السنة المذكورة ، بعد أن عملوا في هذا اليوم أيضاً السقايل الخشبية في جوف الكعبة للصعود عليها وقت الشغل ، وهذه السقايل تبدأ من أرض الكعبة إلى أن تصل إلى السقف .

وكان قد عملوا صندوقين كبيرين طول كل منهما متراً واحداً ونصف متر ، وعرضه ثمانون سنتيمتراً ، وارتفاعه كذلك ، عملوا هذين الصندوقين لحفظ قناديل الكعبة وستارتها الداخلية فيهما ، وكان عدد هذه القناديل والطاسات المعلقة في جوفها ما بين صغير وكبير نحو ثمانون قنديلاً كما عددناها بأنفسنا ، على أن هذه القناديل الثمينة لا تسرج ولا تستعمل ، وإنما هي هدايا للكعبة تجب المحافظة عليها .

والشغل في جوف الكعبة المعظمة يكون فيما يأتي :

(١) إخراج الجبس والنورة القديمة من أعلى جدران الكعبة إلى أسفل ثم إصلاحها .

(٢) إخراج الرخامات المحيطة بجدرانها إلى ارتفاع ثلاثة أمتار ونصف متر ثم وضعها في أماكنها بعد تنظيفها وإصلاحها .

(٣) إصلاح المدرج التي بداخل الكعبة الموصلة إلى سطحها من أن تخرج درجة واحدة عن موضعها .

(٤) إصلاح عتبة الكعبة من داخلها مع الباب .

هذه هي الأعمال التي تحتاج إلى الإصلاح والترميم في داخل الكعبة المشرفة ، مع أنه لم يمس حجارات بناء الكعبة المشرفة بشيء من الترميم والإصلاح مطلقاً ، لا من الجدران الخارجية ولا من الجدران الداخلية ، لقوة ذات البناء ومتانته ، فلم يخرج حجر واحد من محله للإصلاح والترميم .

فبدؤوا بالعمل في جوف الكعبة المطهرة أولاً بإخراج الرخامات التي كسيت بها جدران الكعبة من الجهات الأربعة إلى ارتفاع ثلاثة أمتار ونصف متر وجميع هذه الرخامات منقوشة نقشاً خفيفاً لا يلهي الناظرين إليها ، وغالبها منقوش بشيء من أنواع الثمار ، كالعنب والموز والتين ، وبين هذه الرخامات ثمانية رخامات عليها كتابات بيناها في مبحث خاص فراجعه إن شئت .

فأخرجوا جميع هذه الرخامات ووضعوها بجهة الركن اليماني لا في أرض المطاف ، وإنما وضعوها فوق الممر الخشبي الدائر بالكعبة من الجهات الأربعة والمرتفع عن أرض المطاف إلى باب الكعبة في جميع الجهات ليسهل الدخول والخروج إليها ، بل يوجد مثله ثلاث ممرات أو أربعة ، كل واحد فوق الآخر إلى علو السطح ، عملوا ذلك حينما عملوا السقايل الخشبية من خارج الكعبة جهة حجر إسماعيل عليه الصلاة والسلام الموصلة إلى سطحها ، وذلك في أوائل شهر رجب سنة (١٣٧٧) ألف وثلاثمائة وسبع وسبعين هجرية كما تقدم بيانه .

ثم بدؤوا بعد إخراج الرخامات التي بجوف الكعبة ، في إخراج الجبس والنورة القديمة ، من أعلا جدرانها إلى أسفلها من الجهات الأربع ، ثم أدخلوا جميع أدوات العمارة وآلات الشغل في جوف الكعبة ، فقاموا بوضع الرخامات القديمة التي أخرجوها من جدرانها في نفس أماكنها ومحلاتها ، وكذلك الرخامات المكتوبة فقد وضعوا كل رخامة منها في موضعها تماماً بدون تغيير ، فثبتوا كل ذلك في الجدران تثبيتاً تاماً ، وقد زادوا رخامة واحدة كبيرة كتبوا عليها تاريخ هذه العمارة ووضعوها في الجدار الجنوبي الذي هو بين الركنين ، وسيأتي إن شاء الله تعالى نص ما كتب على هذه الرخامة عند مبحث الرخامات المكتوبة التي بداخل الكعبة .

كما قاموا بترميم الحيطان ، أي الجدران ، وتنقيلها بالمونة البلدية النظيفة الممتازة بالجبس والنورة ، فكانوا يشتغلون بأدب واحترام وإخلاص وصدق نية ، تقرباً إلى رب هذا البيت الكريم ورب العرش العظيم ، وكانوا في حالة ذكر وتسبيح وتهليل طول الوقت ، لا يتكلمون بكلام الدنيا إلا ما هو ضروري بقدر اللزوم وما هو في مصلحة العمل ، وكان كثير من الفضلاء والكبراء يحملون أواني الطين والنورة والحجارة والماء بأنفسهم إلى البنائين ، ولقد تشرف وسعد إن شاء الله تعالى بخدمة الكعبة المعظمة مؤلف هذا التاريخ ، محمد طاهر بن عبدالقادر الكردي المكي الخطاط كاتب مصحف مكة المكرمة مع ولده "عبدالرحمن" فاشتغلنا بحمل الحجارة والنورة وبنينا شيئاً قليلاً فيها على سبيل التبرك بالخدمة ، مع التشرف بحضورنا يومياً في الكعبة المشرفة للوقوف على العمل ، فالحمد لله الذي وفقنا لهذا وهو تعالى أكرم من أن يردنا خائبين ، ولقد انتهى المهم من الأعمال في داخل الكعبة في يوم السبت الحادي عشر من شعبان من السنة المذكورة وفي أثناء هذه المدة ، أي في السادس من شعبان من السنة المذكورة ، دهنوا خشب السقف الثاني من داخل الكعبة بالبوية السلقون البرتغالي وهم على السقايل الخشبية ، والسلقون هو بوية بين الأحمر والأصفر والزرنيخي . أما الأشغال الكثيرة فقد دام فيها إلى نهاية شعبان من السنة المذكورة كما سنبين ذلك فيما يأتي .

حضور جلالة الملك السابق سعود إلى الكعبة المشرفة

قلنا أن الأعمال المهمة الكبيرة كوضع الرخامات كلها في أماكنها وإصلاح جدران الكعبة من داخلها ، قد انتهت في يوم السبت الحادي عشر من شهر شعبان من السنة المذكورة وهي سنة ألف وثلاثمائة وسبع وسبعين هجرية ، ولم يبق إلا الأشياء الصغيرة وهي ستنتهي شيئاً فشيئاً كما سيأتي بيان كل ذلك .

لهذا فقد اعتبروا هذا اليوم هو يوم الانتهاء من عمارة سقفي الكعبة المشرفة ومن إصلاح وترميم باطنها ، لذلك فقد حضر جلالة الملك السابق "سعود بن عبدالعزيز آل سعود" من الرياض إلى مكة المكرمة ودخل الكعبة المطهرة في آخر اليوم المذكور قبل المغرب بنصف ساعة للإشراف على وضع آخر حجر من الرخام في جدار الكعبة المشرفة وهو الحجر الذي نقش فيه اسمه وتاريخ هذه العمارة ، وحتى ينظر بنفسه إلى هذه العمارة التي كان هو الآمر بها ، وكان مؤلف هذا

الكتاب "محمد طاهر بن عبدالقادر الكردي المكي" في مدة مكث جلالته في الكعبة يهلل ويكبر ويسبح الله تعالى في ميكرفون الإذاعة السعودية الذي وضعوه في داخل الكعبة عند بابها، فكانت هذه التهليلات والتسبيحات تذاع على العالم الإسلامي في كافة الأرجاء.

ثم إنه بعد صلاة المغرب من ليلة الأحد الثاني عشر من شهر شعبان من السنة المذكورة سنة (١٣٧٧) هجرية قاموا يزيلون الأخشاب والسقايل التي حول الكعبة من الخارج والتي ركبوها عند ابتداء العمل في تجديد سقفي الكعبة، فاشتغلوا في إزالتها من بعد صلاة المغرب حتى الفجر فأزالوها كلها من حول الكعبة المشرفة، ما عدا الممر الخشبي الذي يبتدئ من عند المنبر وينتهي إلى باب الكعبة، مع الطريق الخشبي الممتد أمام باب الكعبة إلى ركن الحجر الأسود، فبقيت الستارة الخشبية في هذه الجهة فقط، لكن لا إلى سطح الكعبة وإنما إلى علو قامة واحدة، وذلك لحجب أعين الناس عن إتمام الشغل الباقي داخل الكعبة، فبقيت الكعبة المشرفة مكشوفة بدون ستارة ظاهرة بحجارتها أمام الناس من فجر يوم الأحد إلى وقت الضحى العالي من هذا اليوم، ثم إنه قبل الظهر بساعتين من هذا اليوم ألبسوا الكعبة ثوبها من الخارج حسب العادة، وبهذا يعد العمل في الكعبة الشريفة منتهياً تقريباً.

ثم في صباح يوم الأحد المذكور الثاني عشر من شعبان من السنة المذكورة سنة (١٣٧٧) هجرية، الذي يعد فيه انتهاء العمل من الكعبة، حضر جلالة الملك "سعود بن عبدالعزيز" إلى المسجد الحرام وطاف بالكعبة ثم دخل فيها وصلى ركعتين بعد أن فرش مؤلف هذا الكتاب سجادته لجلالته ليصلي عليها، وكان معه الأمراء والوزراء والعلماء والسفراء والأعيان، وبعد أن صلوا في الكعبة ودعوا وتضرعوا إلى الله تعالى قام جلالة الملك ومن بمعيته بتعطير جدران الكعبة المشرفة وقد بدى في وجوههم الفرح والسرور، ثم إن جلالته ألقى كلمة من جوف الكعبة عند بابها بواسطة الإذاعة السعودية، موجهة لشعبه الكريم والعالم الإسلامي يبشرهم فيها بتعمير بيت الله الحرام والانتهاء منه وهذا نصها:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، والصلاة والسلام على سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وعلى آله ومن والاه.

(أما بعد) فإنا نحمد الله سبحانه وتعالى على ما أنعم به علينا من عمارة بيته الحرام هذا البيت الذي جعله الله مثابة للناس وأمناً، ونسأله القبول والمزيد من فضله والتوفيق، وندعوه بدعوة الخليل إبراهيم عليه السلام (ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم) ونزف هذه البشرى من موقفنا هذا من جوف الكعبة المطهرة إلى عموم المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها، ونسأله تعالى أن يهدينا ويلهمنا رشدنا ويتقبل منا، وأن يجمع كلمة المسلمين والعرب على ما يصلح دينهم ودنياهم إنه سميع مجيب.

ثم بعد أن انتهى جلالته من خطابه الكريم من ميكروفون الإذاعة وهو واقف عند باب الكعبة المشرفة من الداخل استأذن من جلالته أحد سدنة الكعبة الفضلاء وهو الشيخ طلحة الشيبي في إلقاء كلمة نيابة عن جميع سدنة الكعبة بمناسبة الانتهاء من عمارتها، فأذن له جلالته فألقى خطبة قصيرة لطيفة تناسب هذا المقام الكريم.

وبعد ذلك خرج جلالته ومن حضر بمعيته من الكعبة المشرفة إلى القصر الملكي العامر بمكة المكرمة، فأمر أن تقام حفلة كبرى بعد ظهر هذا اليوم، وهو يوم الأحد، الثاني عشر من شهر شعبان من السنة المذكورة سنة (١٣٧٧) هجرية، فحضر هذه المأدبة الكبرى جمع كبير من الأمراء والوزراء والعلماء والسفراء ومن وجهاء البلاد وأعيانها، بمناسبة الانتهاء من تعمير الكعبة المشرفة.

ثم أمر جلالته بإقامة مأدبة أخرى في اليوم التالي، وهو يوم الاثنين الثالث عشر من شعبان، خاصة للمعلمين والعمال والبنائين والمباشرين وكل من ساهم في عمارة الكعبة المشرفة والمسجد الحرام، ابتهاجاً بتعمير بيت الله الحرام فأقيمت هذه المأدبة بالطابق الثاني من عمارة المسعى، وقد نحروا لهذه المأدبة عشرة من الإبل وذبحوا خمسين شاة، مع بضعة أكياس من الرز.

ثم أمر جلالته بطبع نشرة صغيرة عن ذكرى عمارة الكعبة المشرفه وانتهائها في اليوم الثاني عشر من شعبان سنة ألف وثلاثمائة وسبعة وسبعين هجرية، فطبعت هذه النشرة بمطابع دار الأصفهاني وشركاه بجدة، بإشراف مؤلف هذا التاريخ محمد طاهر بن عبدالقادر الكردي المكي الخطاط غفر الله تعالى له ولوالديه ولعموم المسلمين آمين.

ولقد حضر جلالة الملك السابق في الكعبة المشرفة قبل وضع كسوتها الداخلية عليها ليرى الشغل في ترميمها وإصلاحها ، ولم توضع الكسوة الداخلية الحمراء في سقف الكعبة وجدرانها الداخلية إلا في مساء يوم الثلاثاء الرابع عشر من شعبان من السنة المذكورة وهي سنة "١٣٧٧" هجرية ، وانتهوا من وضعها في يوم الأربعاء الخامس عشر من شعبان ، بعد أن خاطوا منها ما يحتاج إلى الخياط .

إصلاح ميزاب الكعبة

وفي يوم الخميس التاسع من شعبان سنة "١٣٧٧" ألف وثلاثمائة وسبع وسبعين للهجرة ، قاموا بإصلاح ميزاب الكعبة المشرفة الذي عمله السلطان عبدالمجيد خان بن السلطان محمود خان أحد سلاطين آل عثمان رحمه الله تعالى ، عمله في سنة (١٢٧٣) ألف ومائتين وثلاث وسبعين هجرية ، وهو الميزاب الموجود على الكعبة في عصرنا الحاضر ، ومن قدمه يرى كأنه جديد وهو متين وقوي للغاية ، وهذا الميزاب هو من الذهب الخالص النظيف ، مبطن من الداخل بالفضة الخالصة السميكة ، يعني أن الذهب محيط بالفضة من بطنه وجانبيه ، أما علو الميزاب فهو مفتوح لا غطاء عليه ، وبين الذهب والفضة خشب سميك من جانبيه وبطنه الأسفل ، وكل ذلك مسمر بمسامير من الذهب الخالص .

وهذا الميزاب على شكل المستطيل ، على وجهه قطعة من الذهب الخالص مدلاة متحركة إلى الأمام والخلف وتسمى هذه القطعة "باللسان" وتسمى أيضاً "بالبرقع" وقياس هذا الميزاب كما يأتي :

طول الميزاب ٢٥٨ سنتيمتراً – مائتان وثمانية وخمسين سنتيمتراً – بما هو داخل في جدار الكعبة وعرض بطنه ٢٦ سنتيمتراً – ست وعشرون سنتيمتراً – وارتفاع كل من جانبيه ٢٣ سنتيمتراً – ثلاثة وعشرون سنتيمتراً – ودخوله في جدار السطح ٥٨ سنتيمتراً – ثمانية وخمسون سنتيمتراً – والمقدار الذي دخل في جدار الكعبة عليه حجر كبير غليظ طوله خمسة أشبار وعرضه شبران – أي طوله متر واحد وعشرون سنتيمتراً تقريباً ، وعرضه نصف متر تقريباً – ومثبت في الجدار ثبوتاً جيداً قوياً لا يتزحزح شعرة واحدة مطلقاً كأنه جبل راسخ كما جربناه ذلك بأنفسنا ، فرحم الله من عمله ومن وضعه ومن أصلحه .

ولقد كتب على جوانب الميزاب ولسانه على الذهب تاريخ عمله وتجديده بخط الثلث الجميل البديع ما يأتي :

كتب على لسان الميزاب المعلق بوجهه ما يأتي : "بسم الله الرحمن الرحيم" وتحت البسملة كلمة "يا الله" . وكتب على يمين الميزاب ما يأتي : "جدد هذا الميزاب المنير لوجه الله الكريم الخبير ، سلطان البرين والبحرين ، المفتخر بخدمة الحرمين الشريفين ، السلطان الغازي عبدالمجيد خان بن السلطان الغازي . . ." .

وكتب على شمال الميزاب ما يأتي "محمود خان بن السلطان عبد الحميد خان ، بعدما وهن الميزاب الذي جدده جده السلطان الأعلى أحمد خان عليه رحمة المنان سنة (١٠٢١) هـ اللهم رب هذا . . ." .

وكتب تحت الميزاب ما يأتي : "البيت الحرام ، أيد ببقاء دولته الإسلام ، ما طاف ببيتك الأنام ، واحفظه من جميع الآلام ، بجاه نبينا "محمد" عليه الصلاة والسلام ، وهذا التجديد سنة ثلاث وسبعين ومائتين وألف هجرية" .

هذا ما كتب على الميزاب نقلناه بأنفسنا من الميزاب ، في صبح يوم السبت التاسع عشر من رجب سنة (١٣٧٧) ألف وثلاثمائة وسبعة وسبعين هجرية ، وذلك عند تجديد سقفي الكعبة ، وكنا نقف عند الميزاب على الممر الخشبي الذي عمل مع السقايل الخشبية التي حول الكعبة عند ابتداء هذه العمارة ، ولو ذلك لما تمكنا من الوقوف على ما كتب على هذا الميزاب ، وبهذه الكيفية أيضاً أمكن إصلاح هذا الميزاب كما سنبين موضع إصلاحه فيما يأتي :

وهذا الميزاب كما قلنا إنه قوي متين للغاية ليس في ذاته أي خراب ، ولكن ما يحتاج فيه للإصلاح هو المسامير التي هي من الفضة الخالصة الواقفة على أطراف الميزاب من الأعلى لمنع جلوس الحمام عليها ، فقد اعوجت من طول الزمان فأخرجوها وعملوا مسامير مثلها من الفضة أيضاً ووضعوها في محلها الأصلي من الميزاب وأخرجوا أيضاً الخشب الذي على قاعدة الميزاب وبطنه ، لأنه تلف من طول الزمان واستبدلوه بخشب قوي جديد ، ولم يعملوا في الميزاب من الإصلاح شيئاً غير ما ذكرناه من استبدال الخشب والمسامير وذلك في اليوم التاسع من شهر شعبان من السنة المذكورة سنة "١٣٧٧" هجرية والذي قام بإصلاح الميزاب صائغ محترم من أهل مكة اسمه الشيخ محمد نشار ، أحسن الله إليه وإلينا بوابل نعمه وخيراته ، وفضله وإحسانه إنه بعباده لطيف خبير آمين .

إصلاح جانبي جدار باب الكعبة وعتبتها

ثم في ليلة الجمعة السابع عشر من شعبان سنة (١٣٧٧) ألف وثلاثمائة وسبع وسبعين هجرية، أخرجوا باب الكعبة أي المصراعين الذين يسميان في عرفنا "بالدرفتين" فأصلحوا الجدار الذي وراءهما، وبعبارة أخرى يفهمها المعلمون أصلحوا أكتاف الباب من الجانبين، وجددوا تجليد العتبة العليا التي فوق الباب من داخل الكعبة بخشب من النوع الجيد السميك.

كما أخرجوا الأبيات المكتوبة على ألواح من الذهب الخالص والمثبتة على الخشب الذي فوق عتبة الباب العليا من خارج الكعبة، فأصلحوا هذه الألواح الذهبية وسمروها ثانياً في مكانها الأول، ولقد أخذنا لهذه الأبيات صورة فوتوغرافية بعد أن أخرجنا الألواح الذهبية ووضعناها عند منبر المسجد الحرام وبعد أن أخذنا لها الصورة أرجعناها في محلها.

ثم في يوم الأحد التاسع عشر من شعبان من السنة المذكورة، عملوا عتبة باب الكعبة السفلية، أي البسطه التي عند مدخل الباب وفرشوها بالرخام الأبيض الذي أخرج من جدار داخل الكعبة، ووضعوا فوق هذا الرخام قضيبين من الحديد على شكل نصف دائرة، لتمشي عليهما عجلتا مصراعي الباب ليسهل فتحهما وقفلهما.

إصلاح درج الكعبة التي في داخلها

وفي يوم الأحد التاسع عشر من شعبان من السنة المذكورة سنة (١٣٧٧) هجرية أصلحوا الدرج إلى داخل الكعبة الموصل إلى سطحها، وهذا الدرج نصفه الأسفل من الرخام أي إلى علو ثلاثة أمتار ونصف متر، ثم ما كان من الدرج بعد هذا فهو من ألواح الخشب السميك الثخين إلى أن تصل إلى السطح.

فرموا الدرجات الرخامية بالنورة والإسمنت، وأصلحوا من الدرجات الخشبية والساتر الخشبي الذي وراءها ما يحتاج إلى إصلاح، مع العلم بأنهم لم يغيروا درجة واحدة ولم يرفعوا شيئاً عن مكانه، لا من الدرجات الرخامية ولا من الدرجات الخشبية، وإنما أصلحوا ما يحتاج إلى إصلاحه فقط لا غير.

ونحن قد تكلمنا في مبحث آخر عن هذا الدرج فلا نكرر الكلام هنا.

دهن أعمدة ابن الزبير التي بجوف الكعبة ووصفها

لقد تكلمنا في مبحث آخر عن الأعمدة الثلاثة التي هي من خشب الساج القوي المتين ، والتي وضعها عبدا لله بن الزبير رضي ا لله عنهما في جوف الكعبة حين عمارته لها ليحمل سقفها ، والباقية في داخلها إلى يومنا هذا . وهنا نتكلم عنها من جهة شكلها وصفتها بالتحقيق التام ، حيث رأيناها من أسفلها إلى أعلاها ، بواسطة السقايل التي عملت في وقتنا الحاضر لعمارة سقفي الكعبة المشرفة وترميم باطنها ، فوصفنا لها يكون عن مشاهدة بأعيننا والتحقيقات التامة التي عملناها عنها بأنفسنا . فالحمد لله على هذه التوفيقات العظيمة المتتالية علينا من فضله الواسع ، كما أننا نتكلم عنها فيما جرى فيها من ترميمها ودهانها وهو كما يأتي :

إنه في يوم السبت الخامس والعشرين من شعبان سنة (١٣٧٧) ألف وثلاثمائة وسبع وسبعين هجرية ، بدؤوا في تنظيف هذه الأعمدة الثلاثة التي وضعها عبدا لله بن الزبير رضي ا لله تعالى عنهما في داخل الكعبة لحمل السقف ، فنظفوها من أعلاها إلى أسفلها ، ثم في المواضع المتآكلة والأخراق الظاهرة فيها ، بسبب مرور أكثر من ألف وثلاثمائة عام عليها ، معجون الجبس المختلط بالزيت أو السبيداج يعجن بالزيت المغلي وهو زيت الكتان ويوضع عليه قليل من السلقون لينشف سريعاً ، ثم يسد به الأخراق والأشطاب والفجوات التي على الأخشاب ، ثم يسوى بسطح الخشب ويصنفر حتى يكون ناعماً في الشكل ثم يدهن بعد ذلك بأي لون كان . ثم إنهم في يوم الأحد السادس والعشرين من شهر شعبان من السنة المذكورة ، دهنوا هذه الأعمدة الثلاثة بالبوية الزيتية البنية .

هذا ما حصل في هذه الأعمدة الثلاثة المباركة الأثرية القيمة ، من دهنها بالبوية بعد معجون السبيداج و لم يكن فيها غير ذلك ، وإليك فيما يأتي وصف هذه الأعمدة :

طول هذه الأعمدة الثلاثة التي وضعها عبدا لله بن الزبير رضي ا لله عنهما في الكعبة هو كما يأتي :

س	متر	
٣	٧	طول العمود الأول الذي هو مما يلي حجر إسماعيل عليه الصلاة

		والسلام .
٠	٧	طول العمود الثاني بالوسط .
١٢	٧	طول العمود الثالث المقابل لباب الكعبة مما يلي الحجر الأسود .
٤٤	٠	قطر كل عامود من هذه الأعمدة الثلاثة المذكورة .

مع العلم بأن هذا القياس هو من رخام أرض الكعبة إلى رأس كل عمود ، أما مقدار ما هو مغروز على أرض الكعبة فلم نطلع عليه ، ربما كانت هذه الأعمدة مغروزة نحو نصف متر أو أقل أو أكثر والله تعالى أعلم به ، وتحت أسفل كل عمود من هذه الأعمدة الثلاثة قاعدة مربعة منقوشة ضلعها (٧٥) سنتيمتراً ، ويوجد على رأس كل عمود من هذه الأعمدة الثلاثة جلبة "بضم الجيم" : من الحديد الثخين ، سمك بوصة واحدة في عرض أربع بوصات . ومعنى الجلبة في عرفنا الطوق من الحديد ، رأينا كل ذلك بأعيننا وقسنا كل ذلك بأنفسنا .

واعلم بأن فوق كل عمود من هذه الأعمدة الثلاثة تاج من الخشب الجيد ، وفوق كل تاج كابولي طوله متران و ٤٠×٢٥ سنتي ، والكابولي عبارة عن ألواح من الساج الهندي . ومركب على هذا الكابولي العود الذي تحت الأعواد الثلاثة للسقف الثاني ، الذي أحد طرفيه في الجدار الشمالي جهة حجر إسماعيل ، وطرفه الثاني في الجدار الذي بين الركنين ، وهذا العود موضوع فوق الكابولي على صورة الارتكاز لا على صورة الحمل ، وقياس التيجان الثلاثة التي على الأعمدة الثلاثة هو كما يأتي :

س	متر	
٥٠	٠	ارتفاع كل تاج من التيجان الثلاثة .
٥٥	٠	عرض أعلى كل تاج .
٤٠	٠	عرض أسفل كل تاج .

وهذه التيجان الثلاثة مزخرفة وهي تشبه التيجان الرخامية التي توضع على رؤوس الأعمدة الرخامية التي في المساجد وغيرها . ولقد استنتجنا من شكل هذه التيجان الخشبية أنها عملت بالهند ، أو صنعها العمال الهنود بمكة المكرمة ، في عمارة السلطان مراد الرابع رحمه الله تعالى للكعبة المشرفة سنة (١٠٤٠) ألف وأربعين هجرية . والله تعالى أعلم .

ثم إنه في يوم السبت الخامس والعشرين من شهر شوال من السنة المذكورة (١٣٧٧) هجرية، وضعوا على كل عمود من هذه الأعمدة الثلاثة، ثلاثة أطواق من الفضة على قدر القامة فقط، ففي أسفل كل عمود طوق واحد، وفوق ذلك بقليل طوق ثاني، وفوق ذلك بقليل على قدر القامة طوق ثالث، وعرض كل طوق من هذه الأطواق التسعة سبعة سنتيمترات تقريباً، ما عدا الثلاثة الأطواق العليا فعرض كل منهما ضعف ذلك.

فرش أرض الكعبة بالرخام

ثم في يوم الأحد السادس والعشرين من شهر شعبان المعظم من السنة المذكورة (١٣٧٧) هجرية، فرشوا أرض الكعبة الغراء بالرخام من غير أن يقلعوا من الرخام القديم شيئاً، أي فرشوا في أرضها رخاماً جديداً فوق الرخام القديم، فكان ارتفاع الرخام الجديد عن القديم بمقدار خمسة سنتيمترات تقريباً.

ويا ليت أنهم لم يفرشوا رخاماً جديداً فوق الرخام القديم لثلاثة أمور:

(الأول): أن الرخام القديم هو من أجود الرخام وبعضها نادر الوجود.

(الثاني): عدم حصول أي خراب في الرخام القديم، بل إنه قوي وسليم وجميل للغاية.

(الثالث): أن أرض الكعبة من داخلها علت بمقدار خمسة سنتيمترات أو أكثر بسبب فرش الرخام الجديد فوق الرخام القديم، ولكن قد كان ذلك ولا حيلة لنا، ونحن ذكرنا هذا الأمر لتسجيل ما حصل في تاريخنا هذا.

الانتهاء التام من عمارة الكعبة

في ليلة الاثنين السابع والعشرين من شهر شعبان سنة (١٣٧٧) ألف وثلاثمائة وسبع وسبعين هجرية، رفعوا الجزء الصغير الباقي من الستارة الخشبية التي تقابل وجه الكعبة من خارجها، فرفعوا في هذه الليلة هذا الجزء من الستارة الخشبية، بحيث ما جاء الصباح إلا ولم يبق منها شيء مطلقاً، لانتهاء العمل من الكعبة المشرفة فلم تبق هناك حاجة للستارة.

ثم في صباح يوم الاثنين المذكور ، علقوا قناديل الكعبة في مكانها الأول بين الأعمدة بجوف الكعبة المطهرة ، ثم كنسوها ونظفوها من أثر الشغل والعمل وكان مؤلف هذا الكتاب يتشرف بالكنس والتنظيف أيضاً . وبذلك انتهى العمل في الكعبة المشرفة داخلها وخارجها تمام الانتهاء ، فلم يبق فيها شيء يحتاج إلى الإصلاح مطلقاً ، فالحمد لله رب العالمين .

ثم إنه في يوم الثلاثاء الثامن والعشرين من شعبان من السنة المذكورة ، قام سدنة الكعبة المشرفة بغسلها غسلاً جيداً بماء زمزم المعطر حسب العادة المتبعة في كل عام في مثل هذا اليوم من هذا الشهر وقد تشرف أيضاً مؤلف هذا التاريخ محمد طاهر الكردي الخطاط بغسل الكعبة مع الحاضرين ، نسأل الله رضاءه وعفوه وعافيته . وبهذا انتهينا من كل شيء في الكعبة المطهرة زادها الله تعالى شرفاً وتعظيماً ومهابة وتكريماً . وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين .

نقل ما في حجر إسماعيل من الأحجار والأتربة والأخشاب

قلنا فيما تقدم أنهم كانوا يجمعون التراب والأحجار والأخشاب القديمة وغيرها ، مما يخرج من سقفي الكعبة المشرفة وما حولها وما في داخلها ، في حجر إسماعيل من جهة الميزاب ، بعدما كانوا يضعونها في الزنابيل وهي القفاف المعمولة من الخوص ، يوضع فيها التراب والأحجار ونحوها ثم يحمل ويرمى في مكان ما ، واحتراماً للشغل في الكعبة المطهرة غلفوا كل قفة من ظاهرها بقماش أبيض .

وبعد أن تجمع الشيء الكثير في حجر إسماعيل مما خرج من الكعبة وقد انتهت عمارتها ، نقلوا كل ذلك إلى جهة الصفا موضع السعي أمام درج الصفا وعلى جانبها الأيمن ، في أربعة مواضع أو ستة ، كل موضع بني على شكل مستطيل أجوف قائم من الأرض إلى السماء في علو بضعة أمتار ، نقلوه بواسطة أكياس من الخيش توضع فيها الأتربة والأحجار والأخشاب والنورة والمسامير القديمة التي خرجت من الكعبة في عمارتها ، ثم يصلون بها إلى جهة درج الصفا فيطرحونها في المواضع المبنية المذكورة ، وهذه المواضع ليس لها منافذ إلا من رؤوسها فكانوا يرمونها فيها من رؤوسها .

كل ذلك حرمة لما خرج من الكعبة ولئلا يفتتن بها العوام ، كما كان يفعل الأقدمون ذلك عند عمارة الكعبة المشرفة ، كعبد الله بن الزبير حينما وضع ما

خرج من الكعبة عند عمارته لها في باطنها وكبسه فيه ، وكذلك السلطان مراد الرابع حينما عمّر الكعبة الغراء وضع ما خرج منها في نفس المسجد الحرام في الدكتين اللتين في باب الزيادة .

أسماء المشرفين على العمل وحضورهم يومياً في الكعبة

ومما يجب التنويه عنه ذكر الرجال المشرفين على هذه العمارة وحضورهم يومياً في الكعبة المشرفة ما عدا سدنة الكعبة المشرفة الفضلاء فهؤلاء كانوا يفتحون الكعبة المشرفة يومياً ويجلسون أمام بابها وأسماؤهم كما يأتي :

(١) المعلم الكبير وزير الدولة الشيخ محمد عوض بن لادن ، بكسر الدال المهملة ، مدير الإنشاءات العمومية .

(٢) سعادة الشيخ عبدالله بن خثلان ، أمين العاصمة ونائب رئيس اللجنة التنفيذية لتوسعة المسجد الحرام .

(٣) سعادة الشيخ محمد صالح القزاز ، مدير مكتب مشروع توسعة المسجد الحرام .

(٤) سعادة الشيخ عبدالله بن سعيد ، عضو اللجنة التنفيذية لتوسعة المسجد الحرام ، ومدير العمل والعمال بمكتب مشروع التوسعة .

(٥) مؤلف هذا التاريخ ، محمد طاهر بن عبد القادر الكردي المكي الخطاط عضو اللجنة التنفيذية لتوسعة المسجد الحرام ، ومدير قسم التأليف والآثار التاريخية بمكتب مشروع التوسعة .

هؤلاء كانوا يحضرون يومياً للإشراف على العمارة ، ويجلسون أحياناً فوق سطحها إذا كان العمل في السطح ، وأحيانا يجلسون في داخل الكعبة أو أمام بابها مع سدنتها الفضلاء إذا كان العمل في داخلها أو حولها .

أما سعادة الشيخ محمد صالح باخطمة المدير المساعد لمكتب مشروع التوسعة ، فقد كان يحضر إلى الكعبة المشرفة بعض الأحيان ، حيث لا يتمكن من الحضور يومياً لكثرة أشغاله بالمكتب المذكور .

وأما الذين يحضرون من أهل مكة وغيرهم من مختلف أجناس العالم الإسلامي ، بل ومن جميع أطراف المملكة العربية السعودية إلى الكعبة المشرفة في مختلف الأيام والأوقات ، للنظر إلى كيفية العمل فيها ، وللتشرف بالخدمة في حمل

شيء من الأحجار والطين والأخشاب ونحوها ولو زمناً قصيراً ، فهؤلاء كثيرون مدفوعون بالعوامل الدينية والتشرف بالخدمة الذاتية ، لهذا البيت الكريم الذي جعله الله مثابة للناس وأمناً ، وأطعم أهله من الجوع وآمنهم من الخوف ، كما هو في صريح القرآن العظيم وكيف لا يتشوق الناس إلى رؤية عمارة هذا البيت الحرام ، الذي يطوفون حولها آناء الليل وأطراف النهار ، ويتضرعون عنده إلى رب هذا البيت الكريم ورب العرش العظيم ورب السموات والأرض ، عسى أن يتداركهم بلطفه ورحمته وعفوه وغفرانه وفضله وهو سبحانه وتعالى بعباده لطيف خبير .

فعمارة البيت الحرام لا تقع كل سنة مرة ، ولا تقع في العمر مرة ، وإنما تقع بعد مئات السنين مرة واحدة ، ففوات مشاهدة عمارتها لمن وقعت في زمانه ، وهو حاضر بمكة المشرفة ، حسرة وأي حسرة .

نسأل الله العلي العظيم الكبير المتعال أن يوفقنا ويقبلنا ، وأن يعفو ويغفر لكل من شاهد عمارة بيته وقام بخدمته ولمن حصل له عذر فلم يتمكن من المشاهدة والخدمة ، فإنه تعالى قادر على أن يغفر لجميع المؤمنين والمؤمنات وأن يبدل سيئاتهم حسنات ، وأن يعطي كل سائل مسألته من غير أن ينقص من ملكه مثقال ذرة ، وكيف يتصور نقصان شيء من ملك من يقول للشيء "كن فيكون فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون" .

سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ، لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، يحيي ويميت ، وهو على كل شيء قدير . اللهم صل على محمد وعلى آل محمد وسلم تسليماً كثيراً .

العمال الذين اشتغلوا في عمارة الكعبة

لقد اشتغل في عمارة الكعبة المشرفة بداخلها وسقفها وجانبها ، معلمون ومهندسون وعمال عاديون من كافة الطبقات ، وأغلب المهندسين والعمال الفنيين هم من أهل مصر ، ثم من أهل مكة خصوصاً المنقلون الذين اشتغلوا بتنقيل جدران الكعبة هؤلاء كلهم من أهل مكة ، أما العمال العاديون فمن كافة أجناس المسلمين المقيمين بمكة المشرفة منهم من اشتغل بالأجرة اليومية وهم الفقراء ومنهم من اشتغل احتساباً لله تعالى ، كما اشتغل وخدم ولو زمناً يسيراً بعض فضلاء أهل البلاد ابتغاء وجه الله تعالى .

والجميع كانوا يشتغلون بأدب واحترام لائقين ببيت ا لله الحرام، وغالبهم لا يشتغل إلا وهو على وضوء كامل وكانوا لا يتكلمون بأمور الدنيا إلا بقدر الحاجة، وأكثرهم يشتغل وهو يسبح ا لله تعالى ويذكره ويدعوه ويستغفره وكانوا في نشوة عظيمة من الفرح والنشاط، والسرور والإخلاص، وكيف لا وهم في أشرف بقعه وأقدس مكان على وجه الأرض.

"ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم، وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم، واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين".

كلمة ختام

ومما يجب علينا ذكره في هذا المقام التحدث بألطاف ا لله سبحانه وتعالى، وتوفيقه التام في عمارة بيته الحرام، وذلك بأنه لم يحدث و لله الحمد أية حادثة لأحد ممن يشتغل في هذه العمارة الشريفة منذ ابتداء العمل إلى يوم انتهائه، بل إنه لم ينزل في أيام العمل مطر مطلقاً على مكة المكرمة، فلو نزل المطر والعمل جار في سقف الكعبة وهو مكشوف لحصل ضرر في الطين والنورة والشغل الطري، لكن ا لله جل جلالة تداركنا بتوفيقه الكبير، وتدارك العمال الذين يشتغلون في الكعبة باللطف والمعونة التامة، حتى انتهى كل شيء على ما يرام و لله الحمد. فالحمد لله على نعمائه العظمى وألطافه الخفية.

وإن شاء ا لله تعالى سنذكر هذه البناية مع جميع بنايات الكعبة في منظومة خاصة.

الإذاعة تؤدي واجبها من فوق سطح الكعبة المشرفة

قامت مديرية الإذاعة السعودية بأداء واجبها في نشر أخبار تغيير سقف الكعبة المشرفة أولاً فأولاً وخطوة خطوة، فأرسلت مندوباً من طرفها إلى المسجد الحرام لإذاعة الأخبار عن مباشرة العمل في تغيير سقف الكعبة، فوصل مندوبها الأستاذ "عباس فائق الغزاوي" فرقى إلى سطح الكعبة ووقف على السقايل الخشبية المحيطة بجوانب الكعبة المشرفة في انتظار حضرة صاحب السمو الملكي ولي العهد المعظم الأمير "فيصل بن عبد العزيز" آنذاك للبدء في تعمير بيت ا لله الحرام، وقد اجتمع على سطحه الأعلى المهندسون والعمال وبعض الناس من كافة الطبقات من

المكيين وغيرهم ومن ضمنهم مؤلف هذا الكتاب "محمد طاهر بن عبد القادر الكردي" عفا الله تعالى عنهما .

فلما كانت الساعة الرابعة العربية بحسب توقيت مكة المكرمة ، الموافقة للساعة التاسعة والنصف الإفرنجية ، أي قبل صلاة الجمعة بساعتين ونصف ساعة ، من اليوم الثامن عشر من شهر رجب سنة (١٣٧٧) سبع وسبعين وثلاثمائة وألف هجرية قمرية ، و ١٨ من شهر الدلو سنة (١٣٣٦) هجرية شمسية ، و ٨ من شهر فبراير سنة (١٩٥٨) ميلادية ، حضر صاحب السمو الملكي الأمير "فيصل" المذكور إلى المسجد الحرام ، فتشرف بدخول الكعبة المعظمة أولاً وصلى فيها ركعتين ، ثم صعد إلى سطح الكعبة المطهرة من الخشب المدرج المعمول كالسلالم لصعود الناس والعمال من خارج الكعبة من فوق حجر إسماعيل إلى أعلى الكعبة ، فبدأ سموه الكريم بهدم جزء صغير من إفريز سطح الكعبة الشريفة من جهة الركن الغربي بمطرقة في يده وبعد ذلك تتابع الناس بالهدم وقلع رخام السطح .

وكانت الإذاعة السعودية تواصل أخبار العمل ، وتسأل كبار الموجودين فوق السطح عن شعورهم فيما يجري ببيت الله الحرام من التعمير والإصلاح ، فيجيبون وقد أخذتهم نشوة الفرح والعزيمة الصادقة في خدمة البيت الحرام "كلنا نحب الإصلاح وتعمير الخراب الواقع في الكعبة المطهرة قبلة عموم المسلمين كافة" .

ولقد أظهر التسجيل الذي حصلت عليه الإذاعة أصوات الجمهور من علية طبقات البلاد ، الذين أخذوا يشاركون في الإصلاح بحماس منقطع النظير ، وإخلاص عظيم وأدب تام لائق ببيت الله الحرام ، وكانوا وهم يشتغلون يرددون كلمتي الشهادة "لا إله إلا الله محمد رسول الله" ويقرؤون آية : ﴿ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم﴾ وكانوا يقولون : "اللهم إنا لا نريد إلا الإصلاح وإنك تحب المصلحين" .

فكان ذلك تسجيلاً تاريخياً استغرقت إذاعته ساعة ونصف ساعة من فوق سطح الكعبة المشرفة .

الإذاعة السعودية تسأل مؤلف هذا الكتاب

ثم توجه مندوب الإذاعة الأستاذ عباس فائق الغزاوي إلى مؤلف هذا الكتاب "محمد طاهر الكردي" وهما فوق سطح الكعبة المشرفة فسأله ما يأتي :

س : ما هو تاريخ الإصلاحات التي أدخلت على الكعبة المشرفة ؟

ج : فأجبنا على سؤاله إجابة مختصرة ، لأن الوقت لا يتسع للتطويل وصلاة الجمعة في انتظارنا ، فأذاع عنا هذه الجملة الآتية وهي :

لقد حصلت إصلاحات كثيرة في بناية الكعبة المشرفة منذ بنائها الأول في عهد خليل الله "إبراهيم" عليه الصلاة والسلام ، لأنها من بناء البشر وعمل الإنسان ، وهذا معرض للخراب وقابل للإصلاح ، فلو أراد الله عز شأنه أن لا تمتد إليها أيدي البشر لخلقها قطعة واحدة من الجوهر .

فعلى ذلك فإنه كلما حصل في الكعبة شيء من الخراب كما هو العادة في البنايات ، بادر الخلفاء والسلاطين والملوك وذووا الشأن في إصلاحه قبل أن يتفاقم ، فإذا احتاج الأمر إلى تجديد بنائها كلها بادروا إلى ذلك ، وأجروا الإصلاحات والعمارات بأنفسهم بكل أدب واحترام .

ولقد بنيت الكعبة المشرفة إحدى عشرة مرة ، فأول من بناها على الأشهر خليل الله "إبراهيم" عليه الصلاة والسلام منذ أربعة آلاف سنة تقريباً ، وآخر من بناها السلطان مراد خان الرابع رحمه الله تعالى بعد أن هدمها السيل العظيم الذي دخل المسجد الحرام وكان ذلك سنة ألف وأربعين من الهجرة ، وهي هذه البناية الموجودة الآن ، ثم حصلت بعده إصلاحات وترميمات متعددة .

وأما إصلاحها في هذا اليوم المبارك وفي هذه اللحظة اللطيفة فإنه لتغيير سقفها الأعلى وبعض ما يحتاج إلى الإصلاح من الداخل ، وذلك بحضور سمو الأمير (فيصل) ولي العهد المعظم ورئيس مجلس الوزراء ، وبصحبته ضيفه الكريم سمو الأمير "الحسن بن محمد" نجل جلالة ملك المغرب ، وبوجود بعض الشخصيات البارزة والجمهور الكريم ووجود المشرف العام على مشروع توسعة المسجد الحرام وعمارة الكعبة المشرفة ، ووجود مدير مكتب التوسعة .

وإن شاء الله تعالى عما قريب سنطبع الكتاب الذي شرعنا في تأليفه عن تاريخ بلد الله الأمين وبيته المطهر وتوسعة المسجد الحرام ، وسينشر هذا الكتاب بحول الله تعالى في أنحاء العالم الإسلامي ليقفوا على الحقيقة التامة والمعلومات الصحيحة الوافية ، نسأل الله تعالى القبول والرضى والفوز بالجنة والنجاة من النار بفضله ورحمته .

ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم ، وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم ، وصلى الله على سيدنا "محمد" وعلى آله وصحبه وسلم .

انتهت إجابتنا على سؤال مندوب الإذاعة السعودية .

وبهذا تكون الإذاعة السعودية قامت بواجبها لأول مرة في نشر أخبار عمارة الكعبة المقدسة من فوق سطحها ، وبهذا يحق لها أن تفتخر على جميع إذاعات العالم ولقد وقعت الإذاعة من سطحها ثلاث مرات :

(١) في صباح يوم الجمعة الثامن عشر من شهر رجب سنة ألف وثلاثمائة وسبعة وسبعين هجرية ، لمناسبة الابتداء في هدم سقف الكعبة .

(٢) في صباح يوم السبت التاسع عشر من شهر رجب من السنة المذكورة ، لمناسبة الابتداء في عمارة السقف .

(٣) في مساء يوم الاثنين الحادي والعشرين من شهر رجب من السنة المذكورة وذلك قبيل المغرب ، لمناسبة إذاعة دعاء عام شامل لجميع المسلمين في أقطار المعمورة ، تلاه مؤلف هذا الكتاب "محمد طاهر الكردي" غفر الله له ولوالديه وللمسلمين آمين وطبعاً بعد انتهاء هذه العمارة الشريفة لن تتكرر إذاعتها لشيء من الأخبار من فوق سطح الكعبة المعظمة .

اللهم كما قدرت في سابق الأزل بعمارة بيتك المحرم وتوسيع المسجد المكرم ، فعمر قلوبنا بطاعتك ونور بصائرنا بنور معرفتك ، ووسع على أهل بلدك الأمين وسائر بلاد المسلمين ، من الرزق الحلال الواسع والخير العميم ، فإنك واسع الفضل والإحسان يا عزيز يا كريم ، وصلى الله على نبينا "محمد" وعلى آله وصحبه .

دعاء مؤلف هذا الكتاب المذاع من فوق سطح الكعبة

وفي يوم الاثنين الحادي والعشرين من شهر رجب سنة (١٣٧٧) سبع وسبعين وثلاثمائة وألف من الهجرة رأينا أن ننتهز وجودنا فوق سطح الكعبة المعظمة ووجود العمال وفضلاء أهل البلاد وكلنا نشتغل في العمل لتجديد سطحها ، أن نتضرع إلى الله الحميد المجيد ، وأن ندعوه بدعاء شامل عام لجميع المسلمين ، أن يصلح أحوالنا وأن يعم بلاد المسلمين كافة بالخير والرخاء والأمن والأمان ، فإن الدعاء إذا صدر من قلب سليم خاشع وفي يوم ميمون ووقت مبارك

كان ذلك أدعى للاستجابة ، وهل نجد أفضل بقعة من نفس بيت الله الحرام وفوق سطحه المرفوع .

وفي يوم الاثنين المبارك وقبيل المغرب ، ونحن نشتغل في تجديد سقفه الأعلى المعمور ، رفعنا أكف الضراعة والابتهال إلى الله الملك العزيز الكبير المتعال بقلب خاشع ، نحن ندعوا وجميع الحاضرين يرددون معنا الدعاء ويؤمنون على ما نقول ، ولقد بدأنا بالحديثين القدسيين الشهيرين ، حيث يكون لهما وقع كبير في نفوس السامعين ، وختمناهما بالدعاء الشامل لعموم المسلمين حسبما يأتي :

ولقد أذيع الحديثان مع الدعاء من الإذاعة السعودية في صباح يوم الأحد الثاني عشر من شهر شعبان سنة ألف وثلاثمائة وسبعة وسبعين من الهجرة وإليك كل ذلك :

بسم الله الرحمن الرحيم

روى مسلم في صحيحه عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه عن النبي ﷺ فيما يروى عن الله تبارك وتعالى أنه قال : "يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا ، يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهدكم ، يا عبادي كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعموني أطعمكم ، يا عبادي كلكم عار إلا من كسوته فاستكسوني أكسكم ، يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعاً فاستغفروني أغفر لكم ، يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني ، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئاً ، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئاً ، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل واحد مسألته ، ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر ، يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها فمن وجد خيراً فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه" .

وروى الترمذي عن أنس رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : "قال الله تعالى : يا ابن آدم إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان منك ولا أبالي ، يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت

لك ، يا ابن آدم إنك لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً لأتيتك بقرابها مغفرة" .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿قل هو الله أحد ۝ الله الصمد ۝ لم يلد ولم يولد ۝ ولم يكن له كفواً أحد﴾ .

﴿وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا بلداً آمناً وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر قال ومن كفر فأمتعه قليلاً ثم أضطره إلى عذاب النار وبئس المصير ۝ وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ، ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم﴾ .

﴿استغفروا ربكم إنه كان غفاراً ۝ يرسل السماء عليكم مدراراً ۝ ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهاراً﴾

نستغفر الله العظيم الذي لا إله إلا هو الحي القيوم ونتوب إليه . شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائماً بالقسط ، لا إله إلا هو العزيز الحكيم .

لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير .

اللهم لك الحمد كالذي نقول وخيراً مما نقول ، اللهم لك الحمد حمداً يوافي نعمك ويكافئ مزيدك وكرمك . الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله .

اللهم إنا ندعوك ونحن نخدم بيتك الحرام ، ونشتغل بتجديد سقفه المرفوع ، في هذا اليوم الأغر .

اللهم إنك أمرتنا بدعائك ، ووعدتنا بإجابتك ، وقد دعوناك كما أمرتنا فأجبنا كما وعدتنا .

اللهم إنا ندعوك في هذه اللحظة المباركة ، ونحن على سطح بيتك الحرام ، ونتضرع إليك وأنت الملك القدوس السلام ونطمع في برك وإحسانك ورحمتك ، وأنت البر الرحيم الكبير المتعال .

اللهم إنا نسألك إيمانا كاملاً ، ويقيناً صادقاً ، وقلباً خاشعاً ، ولساناً ذاكراً ، ورزقاً حلالاً واسعاً ، وعلماً غزيراً نافعاً ، وتوبة قبل الموت ، وراحة عند الموت ، ومغفرة ورحمة وعفواً عند الحساب .

اللهم إنا نعوذ بك من زوال نعمتك ، وتحول عافيتك ، وفجاءة نقمتك ، وجميع سخطك .

اللهم إنا نسألك رضاك والجنة ، ونعوذ بك من سخطك والنار .

اللهم يا من لا تنفعه الطاعة ولا تضره المعصية ، هب لنا مالا ينفعك ، واغفر لنا ما لا يضرك يا واسع المغفرة .

اللهم نور قلوبنا وقبورنا ، وبصائرنا وأبصارنا ، أغننا بحلالك عن حرامك ، وبطاعتك عن معصيتك ، وبفضلك عمن سواك .

اللهم حبب إلينا الإيمان وزينه في قلوبنا ، وكره إلينا الكفر والفسوق والعصيان ، واجعلنا من الراشدين .

اللهم استرنا في الدنيا والآخرة بسترك الذي لا ينكشف ، واجعلنا من التوابين المتطهرين .

اللهم اختم لنا بخاتمة أهل الخير والسعادة ، وهون علينا سكرات الموت ، حتى لا نجد له تعباً ولا نصباً ، واجعل موتنا على شهادة وطهارة ونظافة ، بفضلك ورحمتك يا أرحم الراحمين .

اللهم يسر أمورنا ، واشرح صدورنا ، ونور قلوبنا ، وافتح لنا أبواب رحمتك وفضلك ، يا مجيب الدعوات يا الله .

لا إله إلا الله العظيم الحليم ، لا إله إلا الله رب العرش العظيم ، لا إله إلا الله رب السموات ورب الأرض رب العرش الكريم .

اللهم لا تدع لنا في مقامنا هذا ذنباً إلا غفرته ، ولا هماً إلا فرجته ، ولا كرباً إلا كشفته ، ولا فساداً إلا أصلحته ولا مريضاً إلا شفيته ، ولا شاكياً إلا عافيته ، ولا حاجة من حوائج الدنيا والآخرة إلا قضيتها بفضلك ورحمتك يا أرحم الراحمين .

اللهم أعز الإسلام والمسلمين ، ووفقهم للتمسك بالدين ، وارفع عنهم التنازع والشقاق والنفاق ، واهدهم إلى الخير ومحاسن الأخلاق ، وأكثر فيهم من العلماء العاملين ، والأتقياء المخلصين ، والأبرار المقربين .

اللهم أهلك الكفرة والمشركين ، واجعل بأسهم بينهم إلى يوم الدين ، وفرق كلمتهم ، وشتت شملهم ، ودمر ديارهم يا رب العالمين .

اللهم وفق ملوك المسلمين ورؤساءهم وأمراءهم ووزراءهم إلى الخير والطريق المستقيم ، ووفقهم لخدمة رعاياهم وبلادهم واقذف في قلوبهم الخوف منك ، حتى يبتعدوا عن الظلم والاستبداد ، ونور بصائرهم حتى يروا طريق الرشاد ووجههم إلى كل ما ينفع العباد والبلاد ، وألن قلوبهم للضعفاء والفقراء ، وأرشدهم إلى المصالح العامة والخاصة ، واجعل المحبة متبادلة بينهم وبين شعوبهم ورعاياهم ، وتوجهم بتاج العز والكرامة ، وانصرهم على أعدائهم يا رب العالمين .

اللهم تقبل هذا العمل المبرور ، عمارة بيتك المطهر ، وعمارة المسجدين الحرامين بمكة والمدينة ، من عبدك الخاضع لجلالك وأمرك ، الذي وليته على عبادك ، خادم الحرمين الشريفين "سعود بن عبدالعزيز" ووفقه لنصرة دينك القويم وخدمة العباد والبلاد ، وتوجه بتاج العز والكرامة ، ووفق أخاه ولي عهده "فيصل بن عبدالعزيز" إلى طرق الخير والرشاد ، وارحم اللهم عبدك مؤسس المملكة السعودية الأول "عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل سعود" الذي فكر قبل كل أحد في توسعة المسجدين الحرامين ووضع لهما خطتهما .

اللهم اغفر له وارحمه وتجاوز عنه واجزه عن الإسلام خير الجزاء ، ووفق اللهم جميع أمرائنا ووزرائنا والمسؤولين في دوائرنا وأمورنا لخدمة العامة والخاصة في جميع مرافق الحياة .

اللهم اجعل هذا البلد الأمين ، وبلد خاتم المرسلين ، وجميع بلاد المسلمين ، آمنة رخية عامرة بالتقوى والخيرات ، واسقهم غيثاً مغيثاً هنيئاً مريئاً ولا تجعلهم من القانطين .

اللهم أنبت لنا الزرع ، وأدر لنا الضرع ، وأنزل علينا من بركات السماء ، وأنبت لنا من بركات الأرض . واكشف عنا من الغلاء والبلاء ، والأمراض والوباء ، ما لا يكشفه غيرك ، ولا تسلط علينا بذنوبنا من لا يخافك ولا يرحمنا .

ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ، ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا ، ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به ، واعف عنا واغفر لنا وارحمنا ، أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين .

اللهم صل وسلم وبارك على عبدك ونبيك الذي أرسلته رحمة للعالمين ، سيدنا "محمد" خاتم الأنبياء والمرسلين كما صليت وسلمت وباركت على خليلك "إبراهيم" الذي رفع قواعد هذا البيت الحرام ، وعلى جميع الأنبياء والمرسلين ، وآلهم وصحبهم أجمعين . سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين .

بعض الآيات والتكبيرات التي أذاعها مؤلف هذا الكتاب

وفي ضحى يوم الأحد حادي عشر من شهر شعبان سنة ألف وثلاثمائة وسبع وسبعين هجرية ، رأينا أن نتشرف بإذاعة بعض الآيات القرآنية الواردة في حق بيت الله الحرام ، مصحوبة بالتكبير والتهليل ، كل ذلك لمناسبة انتهاء عمارة الكعبة المشرفة وتلبيسها ثوبها بحضور جلالة الملك المعظم .

فقبل حضور جلالته بدقائق معدودة صعدنا إلى منبر المسجد الحرام وتلونا هذه الآيات الآتية أمام ميكروفون الإذاعة الذي وضع فوق المنبر الرخامي وإليك نص الآيات مع التهليل والتكبير .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمناً واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود ۞ وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا بلداً آمناً وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر قال ومن كفر فأمتعه قليلاً ثم أضطره إلى عذاب النار وبئس المصير ۞ وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم ۞ ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم ۞ ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلوا عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم﴾ .

﴿إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً وهدى للعالمين ۞ فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمناً و لله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً ومن كفر فإن الله غني عن العالمين﴾.

﴿وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا البلد آمناً واجنبني وبنيّ أن نعبد الأصنام ۞ رب إنهن أضللن كثيراً من الناس فمن تبعني فإنه مني ومن عصاني فإنك غفور رحيم ۞ ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون ۞ ربنا إنك تعلم ما نخفي وما نعلن وما يخفى على الله من شيء في الأرض ولا في السماء ۞ الحمد لله الذي وهب لي على الكبر إسماعيل وإسحاق إن ربي لسميع الدعاء ۞ رب اجعلني مقيم الصلاة ومن ذريتي ربنا وتقبل دعاء ۞ ربنا اغفر لي ولوالدي وللمؤمنين يوم يقوم الحساب﴾.

﴿إن الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام الذي جعلناه للناس سواء العاكف فيه والباد، ومن يرد فيه بإلحادٍ بظلم نذقه من عذاب أليم ۞ وإذ بوّأنا لإبراهيم مكان البيت أن لا تشرك بي شيئاً وطهّر بيتيَ للطائفين والقائمين والركع السجود ۞ وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق ۞ ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله في أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير ۞ ثم ليقضوا تفثهم وليوفوا نذورهم وليطوفوا بالبيت العتيق ۞ ذلك ومن يعظم حرمات الله فهو خير له عند ربه، وأحلت لكم الأنعام إلا ما يتلى عليكم فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور ۞ حنفاء لله غير مشركين به ومن يشرك بالله فكأنما خرّ من السماء، فتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق ۞ ذلك ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب ۞ لكم فيها منافع إلى أجل مسمى ثم محلها إلى البيت العتيق﴾.

الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر و لله الحمد.

سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم * وإنا على ذلك من الشاهدين يا رب.

لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير . لا إله إلا الله العظيم الحليم لا إله إلا الله رب العرش العظيم ، لا إله إلا الله رب السموات ورب الأرض رب العرش الكريم .

الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله . الحمد لله حمداً كثيراً طيباً مباركاً كما يحب ربنا ويرضى ، ما شاء الله لا قوة إلا بالله .

سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم . حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم . لا إله إلا الله ولا نعبد إلا إياه مخلصين له الدين ولو كره الكافرون ، لا إله إلا الله صدق وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده . اللهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم في العالمين إنك حميد مجيد .

﴿آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير ۞ لا يكلف الله نفساً إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين﴾ .

بسم الله الرحمن الرحيم ﴿قل هو الله أحد ۞ الله الصمد ۞ لم يلد ولم يولد ۞ ولم يكن له كفواً أحد﴾ ، بسم الله الرحمن الرحيم ﴿قل هو الله أحد ۞ الله الصمد ۞ لم يلد ولم يولد ۞ ولم يكن له كفواً أحد﴾ ، بسم الله الرحمن الرحيم ﴿قل هو الله أحد ۞ الله الصمد ۞ لم يلد ولم يولد ۞ ولم يكن له كفواً أحد﴾ . انتهى .

قراءة القرآن والحديث في جوف الكعبة

(بعد الانتهاء من عمارتها)

مما لا شك فيه أن الإنسان إذا عمل عملاً عظيماً فريداً من الناحية الشرعية أو من الناحية الاجتماعية ، فإنه يكاد يطير من الفرح والسرور ، كما وأن أية أمة إذا انتصرت على أخرى في الحرب تقيم لذلك الزينات والحفلات والولائم .

ومن هنا استحب شرعاً سجود الشكر عند تجدد نعمة أو اندفاع نقمة ، كما هو عند الشافعية والحنابلة والحنفية ، أما المالكية فقالوا سجدة الشكر مكروهة وإنما المستحب عند حدوث نعمة أو اندفاع نقمة صلاة ركعتين .

هذا وإن عمارة الكعبة والمسجدين الحرامين ، أحق بإظهار الفرح والسرور وعمل الخيرات والصدقات ، لذلك لما انتهى وفرغ عبدالله بن الزبير رضي الله تعالى عنه وعن أبيه أحد المبشرين بالجنة من بناء الكعبة زادها الله شرفاً وتعظيماً ومهابة ، في سابع عشر من رجب سنة (٦٥) خمس وستين قال : "من كانت لي عليه طاعة فليخرج فليعتمر من التنعيم فمن قدر أن ينحر بدنة فليفعل ومن لم يقدر على بدنة فليذبح شاة ومن لم يقدر فليتصدق بقدر طوله" ثم خرج ابن الزبير ماشياً حافياً وخرج الناس معه مشاة حفاة حتى اعتمروا من التنعيم شكراً لله سبحانه وتعالى ، ولم ير يوماً كان أكثر عتيقاً ولا أكثر بدنة منحورة ولا شاة مذبوحة ولا صدقة من ذلك اليوم ، ونحر ابن الزبير رضي الله عنهما مائة بدنة كما هو مذكور في تاريخ الأزرقي .

ولما أرسل أمير المؤمنين المتوكل على الله شيخ الصناع إسحاق بن سلمة الصايغ وأرسل معه أكثر من ثلاثين رجلاً إلى مكة المكرمة ومعهم كثير من الذهب والفضة والرخام والآلات ، لوضع الذهب على الزوايا الداخلية للكعبة ، وعمل منطقة من فضة توضع فوق إزار الكعبة في تربيعها كلها منقوشة مؤلفة جليلة نائتة ، وعمل طوق من ذهب منقوش تتصل بمنطقة الفضة ، وتلبيس الرخام المنقوش الذي كان في أعلى هذه المنطقة الفضية بالذهب الرقيق الذي يتخذ للسقوف وتغيير خشبة عتبة الكعبة بقطعة من خشب الساج وتلبيسها صفائح الفضة .

إلى غير ذلك من الإصلاحات في مكة وفي الكعبة المشرفة وفي المسجد الحرام وفي منى ، فلما فرغ إسحاق بن سلمة المذكور من جميع الأعمال في النصف من شعبان سنة (٢٤٢) اثنتين وأربعين ومائتين ، دخلوا الكعبة المعظمة فطيبوا جدرانها وأرضها ، وأحضر لهم الحجبة في ذلك اليوم أجزاء القرآن الكريم فتفرقوها بينهم وقرأوا فيها حتى ختموا القرآن وأجافوا باب الكعبة عليهم -أي ردوه عليهم- عند فراغهم من ختم القرآن ، فدعوا ودعا من حضر الطواف وضجوا بالتضرع والبكاء إلى الله عز وجل ، ودعوا لأمير المؤمنين ولولاة عهود المسلمين ولأنفسهم ولجميع المسلمين ، فكان يومهم مشهوراً شريفاً حسناً كما حكاه الإمام الأزرقي .

ولا يخفى أن الثلاثة القرون الأولى في الإسلام هم خير القرون بنص الحديث الصحيح .

ولما انتهوا من بناء الكعبة المشرفة حسب أمر السلطان مراد الرابع في سنة (١٠٤٠) أربعين وألف ، ختم العلامة خاتمة المحققين الشيخ محمد بن علان الصديقي المكي صحيح البخاري في جوف الكعبة مما يلي بابها الشرقي في جمع من العلماء والفضلاء في صبيحة النهار وكان أمير مكة يومئذ معهم ، كما ذكره الشيخ عبد الله الغازي في تاريخه .

قال العلامة ابن علان : فدخلنا الكعبة الشريفة وصلينا ركعتين ، فحضر الشيخ تاج الدين النقشبندي ، والشيخ حسين ونائبه مفتي الحنفية ، وشيخ الحرم عتاقي زاده ، وجمع كثير من الصلحاء ومن الأتقياء ، وجلسنا فيما يلي الباب عند حذاء بجتمع درفتيه من وراء العمد ، ودخل كثير من الناس الكعبة ، وشرعت من صحيح البخاري من باب ما يجوز من تفسير التوراة وكتب الله بالعربية وغيرها إلى آخر الكتاب ، ودعونا أجمعين بالنصر لسلطان الإسلام والمسلمين وبعد تمام القراءة والدعاء خرجنا إلى خارج البيت مما أطاف به الأخشاب من الجانب الغربي فقسمنا فيه الطيب والبخور والريحان وكان يوماً مشهوداً ، وألفت مؤلفاً سميته : "القول الحق والنقل الصريح بجواز أن يقرأ في جوف الكعبة الحديث الصحيح" . انتهى من تاريخ الغازي عند الكلام على بناء السلطان مراد الكعبة .

وقال الغازي أيضاً في تاريخه : ذكر الشيخ أحمد الشماع في ترجمة الشيخ عبدالله البصري أنه قرأ في جوف الكعبة صحيح البخاري سنة (١١٠٩) تسع ومائة وألف وكان في داخلها عمارة ، وكذلك قرأه في داخلها مرة أخرى سنة (١١١٩) تسع عشرة ومائة وألف وكان أمر بتجديد بابها مولانا السلطان أحمد والقائم بذلك صاحب جدة وشيخ الحرم . انتهى منه .

نقول : لقد اعترض بعض العلماء المعاصرين لبناء الكعبة في عهد السلطان مراد العلامة المحقق الشيخ محمد علي بن علان لقراءته صحيح البخاري في جوف الكعبة بعد انتهاء بنائها حيث لم يعمل مثله فيما سبق وأجاز بعضهم قراءته حيث ما هنالك دليل للمنع ، فترك فعل الشيء فيما سلف لا يقتضي المنع منه إذا لم يقم للمنع وجه ، وقد كان أمير مكة يومئذ مع القائلين بالجواز وأغلظ القول على من منع القراءة ونسبهم إلى الحسد والتعصب .

ومما لا شك فيه أن قراءة القرآن أو الأحاديث الصحيحة أو الدعاء للمسلمين وولاتهم في جوف الكعبة على سبيل النادر ليس فيه شيء مطلقاً ، وذلك في بعض المناسبات القوية ، أما تدريس القرآن أو الحديث بدون مناسبة قوية في جوف الكعبة فلا شك في عدم جوازه ووجوب منعه ، حيث يشبه ذلك الكتاتيب والمدارس ، فتقل هيبة الكعبة وهي لم تتخذ لذلك ، بل هي للقبلة والطواف والالتجاء إلى الله تعالى بأستارها والدعاء فيها وفي جوانبها وملتزمها والله تعالى أعلم بالصواب ، وإليه المرجع والمآب ، والصلاة والسلام على النبي الأمي الأواب ، وعلى الآل والذرية والأصحاب .

هذا ولقد اقترحنا على بعض كبار المسؤولين عند الشروع في تجديد سقف الكعبة المعظمة وترميمها ، وذلك في سنة (١٣٧٧) ألف وثلاثمائة وسبع وسبعين هجرية أن يجتمعوا مع عامة الناس في المسجد الحرام عند الكعبة المعظمة بعد الانتهاء من العمل فيها ، للدعاء والاستغفار والتضرع إلى الله تعالى والالتجاء إليه ، وطلب العفو والغفران وإصلاح الحال والأحوال ورفع ما نزل من الشدة والبلاء ، ونصر المسلمين على أعداء الدين . ولكن مع الأسف الشديد لم يلتفتوا لاقتراحنا هذا ، ففرق بين زماننا والأزمان الماضية ، فسبحان مغير الأحوال ومدبر الأمور لا إله إلا هو العزيز الحكيم .

مقاييس الكعبة المشرفة

وحدود المطاف قبل التوسعة السعودية وما يتعلق بهما

"مع بيان ارتفاعات بعض جبال مكة"

لقد قمنا في شهر رجب سنة (١٣٦٧) سبع وستين وثلاثمائة وألف هجرية ، عند تأليف كتابنا "مقام إبراهيم عليه السلام" بأخذ قياسات الكعبة المعظمة وما حولها من المطاف فأخذناها ووضعنا بيانها في الكتاب المذكور المطبوع بمصر .

واطلعنا أيضاً على ما ذكره إبراهيم رفعت باشا مؤلف كتاب "مرآة الحرمين" رحمه الله تعالى عن بعض القياسات المتعلقة بالكعبة والمطاف فقط ، و لم نعلم درجة

صحة ما ذكره ، فقد شككنا فيما ذكره وشككنا أيضاً في القياسات التي أخذناها بأنفسنا ، لأن كلينا لسنا من المهندسين المختصين .

وحيث أنه في زماننا هذا قد أحضرت الحكومة العربية السعودية طائفة من كبار المهندسين المصريين ، لعمارة وتجديد سقفي الكعبة المشرفة ولتوسعة المسجد الحرام وتوسعة شوارع مكة المكرمة ، وحيث أننا أيضاً أحد أعضاء اللجنة التنفيذية لتوسعة المسجد الحرام ، ونحن نشتغل بهذا التاريخ القويم فقد رأينا من الواجب أن نأخذ جميع قياسات الكعبة والمطاف وكل ما يتعلق بهما بل وغير ذلك من مساحة المسجد الحرام وجبال مكة والمسعى وكل ما له اتصال "بمكة" بلد الله الأمين ، من قسم المهندسين بمكتب مشروع التوسعة ، وبذلك ينقطع الشك باليقين ، ونعطي القوس باريها .

فطلبنا من صديقنا المهندس الأستاذ "فؤاد سعيد المصري" أن يعطينا جميع البيانات الخاصة بقياسات الكعبة المشرفة .

وهذه البيانات لا توجد في غير هذا الكتاب ، وسنذكرها بعد قياسات الكعبة المعظمة في بناء إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام ، وبعد قياساتها في بناء قريش ، وبعد قياساتها في بناء عبدالله بن الزبير رضي الله تعالى عنهما ، وبعد قياساتها في بناء الحجاج بن يوسف الثقفي رحمه الله تعالى . فإن هذه القياسات للبنايات الأربع المذكورة قد أخذناها من تاريخ مكة للإمام الأزرقي رحمه الله تعالى ورضي عنه الذي هو من أهل القرن الثاني .

وإليك قياسات البنايات الأربع للكعبة المشرفة مأخوذة من تاريخ الأزرقي :

قياسات الكعبة المعظمة

في البنايات الأربع المذكورة نقلاً عن تاريخ الأزرقي

عدد الأذرع	قياس الكعبة في بناء إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام
٩	ارتفاع الكعبة من الأرض للسماء .
٣٢	عرض الجدار الشرقي الذي فيه الباب .
٣١	عرض الجدار الغربي .
٢٢	عرض الجدار الذي في حجر إسماعيل .
٢٠	عرض الجدار الذي بين الركن الأسود والركن اليماني .

عدد الأذرع	قياس الكعبة في بناء قريش قبل البعثة بخمس سنين
١٨	ارتفاع الكعبة من الأرض للسماء .
٢٦	عرض الجدار الشرقي الذي فيه الباب .
٢٦	عرض الجدار الغربي .
٢٢	عرض الجدار الذي في حجر إسماعيل .
٢٠	عرض الجدار الذي بين الركن الأسود والركن اليماني .
عدد الأذرع	**قياس الكعبة في بناء عبدا الله بن الزبير رضي ا الله عنهما**
٢٧	ارتفاع الكعبة من الأرض للسماء .
٣٢	عرض الجدار الشرقي الذي فيه الباب .
٣١	عرض الجدار الغربي .
٢٢	عرض الجدار الذي في حجر إسماعيل .
٢٠	عرض الجدار الذي بين الركن الأسود والركن اليماني .
عدد الأذرع	**قياس الكعبة في بناء الحجاج بن يوسف الثقفي**
٢٧	ارتفاع الكعبة من الأرض للسماء .
٢٦	عرض الجدار الشرقي الذي فيه الباب .
عدد الأذرع	**قياس الكعبة في بناء الحجاج بن يوسف الثقفي**
٢٦	عرض الجدار الغربي .
٢٢	عرض الجدار الذي في حجر إسماعيل .
٢٠	عرض الجدار الذي بين الركن الأسود والركن اليماني .

لقد انتهينا من ذكر قياسات الكعبة المشرفة في البنايات الأربع المذكورة نقلاً عن تاريخ الإمام الأزرقي الذي هو من أهل القرن الثاني للهجرة . والآن نذكر قياسات الكعبة المشرفة وأبعادها وكل ما يتعلق بها بالأمتار المعروفة المستعملة في زماننا ، نقلاً عن المهندسين المصريين الذين حضروا إلى مكة المشرفة في عصرنا الحاضر لتجديد سقفي الكعبة المشرفة بأمر الحكومة العربية السعودية . وإليك بيانات جميع ذلك بالتفصيل التام :

سنتيمتر	متر	بيان المواضع التي أخذت قياساتها
٨٤	١	ارتفاع باب الكعبة المعظمة من أرض المطاف .
٣٤	٠	طول القفل الذي على باب الكعبة .

سنتيمتر	متر	بيان المواضع التي أخذت قياساتها
٨٦	٩	مقدار ما بين أول الحفرة التي كانت عند باب الكعبة إلى أول شباك مقام إبراهيم .
٦٠	٥	مقدار ما بين أول الحفرة المذكورة إلى أول فتحة حجر إسماعيل يعني إلى انتهاء ضلع الكعبة .
٨٠	٤	مقدار ما بين أول الحفرة المذكورة إلى ركن الحجر الأسود .
٦٠	٠	مقدار ما بين أول الحفرة إلى أول عتبة باب الكعبة ، وقد سدت الحفرة سنة (١٣٧٧) .
٠٠	١	طول الشاذروان من عند الحجر الأسود إلى جهة الملتزم. وسيأتي الكلام على الشاذروان .
٩٥	١٢	ارتفاع جدار الكعبة من جهة وجهها الذي فيه الباب ، من أرض المطاف إلى أعلا السطح .
٩٥	١٢	ارتفاع جدارها الذي بظهرها المقابل للسوق الصغير ، من أرض المطاف إلى أعلا السطح .
٩٥	١٢	ارتفاع جدارها الذي فيه الميزاب جهة حجر إسماعيل ، من أرض المطاف إلى أعلا السطح .
٩٥	١٢	ارتفاع جدارها الذي هو بين الركن الأسود والركن اليماني ، من المطاف إلى أعلا السطح .
		قد يجوز زيادة هذا الارتفاع بضع سنتيمترات وكذلك نقصانه ، وذلك بسبب تغيير رخام أرض المطاف ، ومقدار ما يوضع فيه من الطين والنورة قليلاً كان أو كثيراً ، فتنبه لهذه المسألة .
		المسافة بين الركن الأسود واليماني مثلاً :
٧١	١١	عرض جدار الكعبة من الخارج من جهة وجهها من الشرق ، أي من الركن العراقي إلى الركن الأسود بدون الشاذروان .
٩	١٢	عرض جدارها من الخارج من جهة ظهرها أي من الغرب ، أي من الركن الشامي إلى الركن اليماني بدون الشاذروان .
٠	١٠	عرض جدارها من الخارج الذي فيه الميزاب ، أي من الركن العراقي إلى الركن الشامي بدون الشاذروان .
١٧	١٠	عرض جدارها من الخارج الذي بين الركنين ، أي من الركن

سنتيمتر	متر	بيان المواضع التي أخذت قياساتها
		اليماني إلى الركن الأسود بدون الشاذروان .
		والمسافة بين الركن العراقي والركن الشامي بالشاذروان ١١متر و٢٠سم .
		والمسافة بين الركن الأسود والركن اليماني بالشاذروان ١١متر و٣٥سم .
		والمسافة بين الركن الأسود والعراقي بالشاذروان ١٢متر و٨٠سم .
		والمسافة بين الركن اليماني والشامي بالشاذروان ١٣متر و٣٠سم .
		طول المسافة بالسلم بالدرج
٧٩	٩	عرض جدار الكعبة من الداخل من جهة وجهها ، أي من الركن العراقي إلى الركن الأسود .
١١	١٠	عرض جدارها من الداخل من جهة ظهرها من الغرب ، أي من الركن الشامي إلى الركن اليماني .
٩٨	٧	عرض جدارها بالسلم من الداخل الذي فيه الميزاب ، أي من الركن العراقي إلى الركن الشامي .
١٧	٨	عرض جدارها من الداخل الذي بين الركنين ، أي من الركن اليماني إلى الركن الأسود .
٧٣	٨	مقدار ما بين طرفي الجدار الدائر بحجر إسماعيل .
٤٧	٨	مقدار ما بين وسط جدار حجر إسماعيل وبين جدار الكعبة .
١٢	١	مقدار ارتفاع جدار حجر إسماعيل من أرض المطاف .
٥٦	١	مقدار عرض جدار حجر إسماعيل "أي سمكه" .
٣٢	٢	طول السلم .
٥١	١	عرض السلم .
٣٢	٢	طول جدار درجة الكعبة الداخلية التي في الركن العراقي .
٥١	١	عرض جدار درجة الكعبة الداخلية التي في الركن العراقي .
٥٠	٨	ارتفاع جدار درجة الكعبة الداخلية التي في الركن العراقي من أرض الكعبة إلى السقف الأول .

سنتيمتر	متر	بيان المواضع التي أخذت قياساتها
١٣	١	طول باب درجة الكعبة الداخلية التي في الركن العراقي (الباب مصراع واحد أي درفة واحدة) .
٨٦	١	ارتفاع باب درجة الكعبة الداخلية التي في الركن العراقي .
٢٧	١	طول فتحة الدرجة الواقعة بسطح الكعبة .
٤	١	عرض فتحة الدرجة الواقعة بسطح الكعبة .
٨٥	١	طول غطاء فتحة الدرجة الواقعة بسطح الكعبة .
١٠	١	عرض غطاء فتح الدرجة الواقعة بسطح الكعبة .
٠٠	٢	طول فتحة باب الكعبة الشرقي .
٢٠	٣	ارتفاع فتحة باب الكعبة الشرقي .
٢٧	١	مقدار ما بين سقفي الكعبة .
٨٥	٠	ارتفاع الإفريز المحيط بسطح الكعبة ويسمى "بالطنف" .
٩٣	٠	عرض جدار الكعبة من جميع الجهات "أي مقدار سمك الجدار" .
٥٠	٨	مقدار ما بين أرض الكعبة إلى السقف الأول .
٠٣	٧	طول العمود الأول الذي وضعه ابن الزبير بداخل الكعبة مما يلي حجر إسماعيل .
٠٠	٧	طول العمود الثاني الذي وضعه ابن الزبير بداخل الكعبة والذي هو بالوسط .
١٢	٧	طول العمود الثالث الذي وضعه ابن الزبير بداخل الكعبة مما يلي الحجر الأسود والمقابل للباب .
٤٤	٠	قطر كل عمود من هذه الأعمدة الثلاثة المذكورة .
٢٠	٧	مقدار ما بين أرض الكعبة إلى رأس كل عمود من الأعمدة الثلاثة المذكورة .
٥٠	٠	ارتفاع كل تاج الذي على رأس كل عمود من الأعمدة الثلاثة المذكورة .
٥٥	٠	عرض أعلا التاج الذي على رأس كل عمود من الأعمدة الثلاثة .
٤٠	٠	عرض أسفل التاج الذي على رأس كل عمود من الأعمدة الثلاثة .
٣٥	١	مقدار ما بين رأس كل عمود من الأعمدة الثلاثة المذكورة إلى

سنتيمتر	متر	بيان المواضع التي أخذت قياساتها
		السقف الأول .
٥٣	٢	طول ميزاب الكعبة الذي يصب على حجر إسماعيل بما هو داخل في جدار الكعبة .
٢٦	٠	عرض الميزاب المذكور .
٢٣	٠	ارتفاع الميزاب المذكور .
٥٨	٠	دخول الميزاب في جدار الكعبة .
٥٠	٣	ارتفاع ما هو مكسو من جدار الكعبة بالرخام الأبيض من باطنها هو ٣٥٠ سنتيمتراً ، أي ثلاثة أمتار ونصف متر ، وما بعد ذلك إلى السقف فمعمول بالنورة .

* * *

سنتيمتر	متر	حدود المطاف القديم وهو على شكل بيضوي
٥٠	١١	من جدار الكعبة من جهة وجهها الذي فيه الباب إلى آخر حدود المطاف القديم ، أي إلى مقام إبراهيم .
٦٥	١٦	من جدار الكعبة من جهة ظهرها المقابل للسوق الصغير إلى آخر حدود المطاف القديم .
٢٠	١٥	من جدار الكعبة الذي هو بين الركنين الأسود والركن اليماني إلى آخر حدود المطاف القديم .
٠٠	١٢	من وسط جدار حجر إسماعيل عليه السلام إلى آخر حدود المطاف القديم .

* * *

سنتيمتر	متر	(حدود المطاف الجديد وهو على شكل دائرة)
٨٠	٢٦	من جدار الكعبة من جهة وجهها الذي فيه الباب إلى آخر حدود المطاف الجديد ، أي إلى مقام إبراهيم عليه السلام .
٤٠	٢٧	من جدار الكعبة من جهة ظهرها المقابل للسوق الصغير إلى آخر حدود المطاف الجديد .
٧٠	٢٦	من جدار الكعبة الذي هو بين الركن الأسود والركن اليماني إلى آخر حدود المطاف الجديد .

سنتيمتر	متر	(حدود المطاف الجديد وهو على شكل دائرة)
٦٥	١٦	من وسط جدار حجر إسماعيل عليه السلام إلى آخر حدود المطاف الجديد .
٢	٢	طول الحفرة التي كانت عند باب الكعبة ثم ردمت في ٢ شعبان سنة ١٣٧٧هـ .
١٠	١	عمق الحفرة التي كانت عند باب الكعبة ثم ردمت في ٢ شعبان سنة ١٣٧٧هـ .
٢٨	٠	عمق الحفرة التي كانت عند باب الكعبة ثم ردمت في شعبان سنة ١٣٧٧هـ .
٥٠	١	مقدار ارتفاع الحجر الأسود والركن اليماني عن أرض المطاف .
٠٠	٢	مقدار عرض الملتزم من أول الركن الأسود إلى أول باب الكعبة .
٩٢	١	مقدار ارتفاع باب الكعبة عن أرض المطاف .
٩٠	١	مقدار طول الحجر المخروق من الوسط لخروج ماء الغسيل داخل الكعبة الذي هو على عتبة بابها .
٣	٠	مقدار قطر دائرة الخرق الذي بوسط الحجر المذكور .
١٣	٢	مقدار فتحة حجر إسماعيل من الجهة الشرقية التي بها باب الكعبة .
٧٠	٢	مقدار فتحة حجر إسماعيل من الجهة الغربية .

* * *

سنتيمتر	متر	البيانات
٩٠	١٢	عرض الكعبة المشرفة من الركن الشامي إلى الركن اليماني مأخوذ مع ستارة الكعبة المشرفة .
٢٠	١١	عرض الكعبة المشرفة من الركن اليماني إلى ركن الحجر الأسود مأخوذ مع ستارة الكعبة المشرفة .
٩٠	١٢	عرض الكعبة المشرفة من ركن الحجر الأسود إلى الحجر الأسود مأخوذ مع ستارة الكعبة المشرفة .
١٠	١١	عرض الكعبة المشرفة من الركن العراقي إلى الركن الشامي مأخوذ مع ستارة الكعبة المشرفة .

سنتيمتر	متر	البيانات
٠	٦٨	طول مسافة طوفة واحدة أي شوط واحد فقط حول الكعبة المشرفة بالقرب منها .
٥٧	٢١	طول محيط جدار حجر إسماعيل عليه الصلاة والسلام .
٥٢	١	عرض جدار حجر إسماعيل .
٢٣	١	ارتفاع جدار حجر إسماعيل من الداخل (فعرض جدار الحجر أكثر من ارتفاعه) .
٦٥	٢	مقدار الفتحة الشمالية لحجر إسماعيل .
٦٥	٢	مقدار الفتحة الغربية لحجر إسماعيل .
٥٥	٨	طول أرض حجر إسماعيل من وسط جداره إلى الكعبة مقابل ميزابها .
٩٠	٤	مقدار عرض فتحة باب بني شيبة .
٨٠	١	عرض جدار باب بني شيبة أي عرض الجدار القائم الواحد ٩٠ سنتيمتر .
٧٠	٦	عرض باب بني شيبة بما في ذلك الجدار والفتحة .
٩٠	٣٠	مقدار ما بين جدار الحجر إلى أول ظهر المنبر الذي نقل من محله الحالي في أواخر سنة (١٣٨٢) ألف وثلاثمائة واثنين وثمانين هجرية لتوسعة المطاف .

بعض القياسات لمشاعر الحج التي ذكرها إبراهيم رفعت باشا المصري رحمه الله تعالى في كتابه "مرآة الحرمين"

متر	الأماكن والمواقع
٤٠٥	من الصفا إلى المروة ، نقول وهذا غلط والصحيح ما ذكرناه عن قياسه .
١٠٤٢	من باب بني شيبة إلى باب مقبرة المعلاة .
٢٣٨٧	من باب مقبرة المعلاة إلى سبيل الست ، نقول وهذا السبيل لا وجود له اليوم .
٣١٢٠	من سبيل الست إلى حجرة العقبة .
١١٦	من حجرة العقبة إلى الحجرة الوسطى .

متر	الأماكن والمواقع
١٥٦	من الحجرة الوسطى إلى الحجرة الصغرى .
٣٥٢٨	من حجرة العقبة إلى نهاية وادي محسر .
٣٨١٢	من نهاية وادي محسر إلى أول المأزمين .
٤٣٧٢	من أول المأزمين إلى علمي الحرم من جهة عرفة .
١٥٥٣	من علمي الحرم إلى علمي عرفة .
١٥٥٣	من علمي عرفة إلى سفح جبل الرحمة .

انتهى ما ذكره إبراهيم رفعت باشا في كتابه المذكور عن بعض القياسات ، وهي قياسات غير محررة تماماً فقد يزيد بعضها بضعة أمتار وقد ينقص عنها بضعة أمتار فقط ، والمذكور رحمه الله تعالى معذور في ذلك لأنه أخذ هذه القياسات في موسم الحج وقت ازدحام الحجاج وكثرتهم ، فلا يتمكن الإنسان في هذا الازدحام العظيم من أخذ القياسات على الوجه المطلوب .

خط طول مكة شرفها الله تعالى هو (٣٩ درجة و٤٩ دقيقة و٣٠ ثانية) .

خط عرض مكة شرفها الله تعالى هو (٢١ درجة و٢٥ دقيقة) .

ارتفاع محلة المعابدة بأعلا مكة عن سطح البحر الأحمر هو (٣١١ متراً) .

ارتفاع موضع الخروج إلى جدة بجهة جرول بعد القشلة عن سطح البحر الأحمر هو (٢٧٨ متراً) .

متر	ارتفاع بعض الجبال
٤٢٠	ارتفاع جبل أبي قبيس عن سطح البحر الأحمر .
٦٣٤	ارتفاع جبل حراء "أي جبل النور" عن سطح البحر الأحمر .
٧٥٩	ارتفاع جبل ثور عن سطح البحر الأحمر .
٨٨٣	ارتفاع جبل ثقبة بالمعابدة "أي جبل الرخم" عن سطح البحر الأحمر .
٣٤٠	ارتفاع جبل الرحمة بعرفات ، عن سطح البحر الأحمر .
٨٣٦	ارتفاع جبل سعد بشرق شمال عرفات عن سطح البحر الأحمر .
١٧٥٠	المسافة بين مسجد نمرة وجبل الرحمة بعرفات .
٣٥٠٠	المسافة بين مكة إلى أول حجرة العقبة بمنى عن طريق الشبيكة .
٩٣٥	طول السد القديم جهة جبل حراء "أي جبل النور" .
١٠٣٠	طول السد الجديد جهة جبل حراء .

متر	ارتفاع بعض الجبال
٣٩٤	المسافة بين الصفا والمروة ، أي إلى منتهى حدودهما .
٣٧	المسافة بين الصفا ودار الأرقم "أي إلى بابها" .

* * *

كيلو متر	بيان المسافات بين مكة وبعض البلدان الحجازية والمواقع
	نذكر هنا المسافات بين مكة وبعض المواقع عن طريق البر بالكيلومتر وهي كما يأتي :
٤٥٠	المسافة من مكة إلى المدينة المنورة .
٧٢	المسافة من مكة إلى جدة .
١٣٥	المسافة من مكة إلى الطائف .
٩٥٧	المسافة من مكة إلى الرياض .
٨	المسافة من مكة إلى منى .
٥	المسافة من مكة إلى مزدلفة .
٧	المسافة من مزدلفة إلى مسجد نمرة .
٢	المسافة من مسجد نمرة إلى عرفات هي (١٧٥٠ متراً) يعني من مسجد نمرة إلى جبل الرحمة .
٢١٢	المسافة من مكة إلى رابغ .
٤٠	المسافة من رابغ إلى مستورة .
١٩٨	المسافة من مستورة إلى المدينة المنورة .

انتهينا من ذكر القياسات المضبوطة المحررة السليمة إن شاء الله تعالى من الغلط والخطأ لأن ذلك مأخوذ من بيانات المهندسين المصريين الذين أحضرتهم الحكومة العربية السعودية لعمارة وتجديد سقفي الكعبة وترميمها ولبناء المسجد الحرام وتوسعته .

لكن لا بأس أن نذكر هنا ما قاله العلامة الفاسي في كتابه "شفاء الغرام" عن قياس المطاف بالذراع الحديدي في زمانه ، لتظهر المقارنة بين قياسه بالأذرع وقياسنا بالأمتار . فقد قال رحمه الله تعالى في كتابه المذكور ما يأتي :

وقد اعتبر بعض أصحابنا بحضوري مقدار ما بين منتهى ذلك وبين الكعبة المعظمة من جميع جوانبها فكان مقدار ما بين الحجر الأسود وعرف البلاط المحاذي له على الاستواء في الجهة اليمنية خمسة وعشرين ذراعاً إلا ثلث ذراع .

وما بين الحجر الأسود وطرف البلاط المحاذي لوسط مقام الحنابلة اثنين وعشرين ذراعاً وثلث ذراع ، وما بين الحجر وجدار زمزم ثلاثون ذراعاً وثلثا ذراع .

وما بين الركن الشامي الذي يقال له العراقي وآخر تدوير المطاف المسامت له إلى الجهة الشرقية أربعة وعشرون ذراعاً ونصف .

ومن الركن الشامي إلى آخر البلاط المحاذي له في الجهة الشامية سبعة وثلاثون ذراعاً وربع ذراع .

ومن وسط جدار الحجر إلى آخر البلاط الذي أمام مقام الحنفية اثنان وعشرون ذراعاً .

وما بين الركن الغربي وآخر البلاط المحاذي له من الجهة الشامية والغربية ثلاثون ذراعاً .

وما بين نصف الجهة الغربية من الكعبة وآخر البلاط المقابل لذلك على الاستواء مثل ذلك .

وما بين الركن اليماني وآخر البلاط المقابل له من الجهة الغربية تسعة وعشرون ذراعاً إلا ثلث ذراع .

وما بين الركن اليماني وآخر البلاط المقابل له من جهته اليمنى سبعة وعشرون ذراعاً وثلث ذراع ، وكذلك ما بين وسط الجهة اليمانية من الكعبة وآخر البلاط المحاذي له .

والذراع المحرر به هو الذراع الحديد المتقدم ذكره .

انتهى من شفاء الغرام .

مقدار الذراع والميل والفرسخ ونحوها

جاء في أول كتاب قاموس الأمكنة والبقاع المسمى "معجم البلدان" للأستاذ علي بهجت عن مقدار البريد والفرسخ والميل ما نصه :

(مقدمة) في تفسير الألفاظ التي يتكرر ذكرها في هذا القاموس وفي كتاب الفتوح نقلاً عن ياقوت وهي البريد والفرسخ والميل والكورة والإقليم والمخلاف والأستان والرشاقة والطسوج والعرض والأباذ والسكة والمصر والقهندز والربض .

قال ياقوت : فأما البريد ففيه خلاف ، ذهب قوم إلى أنه بالبادية اثنا عشر ميلاً وبالشام أو خراسان ستة أميال ، وقيل : السفر الذي يجوز فيه قصر الصلاة أربعة برد ثمانية وأربعون ميلاً بالأميال الهاشمية التي في طريق مكة .

وخبرني بعض من لا يوثق به لكنه صحيح النظر والقياس ، أنه إنما سميت خيل البريد بهذا الاسم أن بعض ملوك الفرس أعتاق عنه رسل بعض جهات مملكته ، فلما جاءته الرسل سألها عن سبب بطئها فشكوا من مروا به من الولاة ، وأنهم لم يحسنوا معونتهم ، فأحضرهم الملك وأراد عقوبتهم ، فاحتجوا بأنهم لم يعلموا أنهم رسل الملك ، فأمر أن تكون أذناب خيل الرسل وأعرافها مقطوعة لتكون علامة لمن يمرون به ليزيحوا عللهم في سيرهم ، فقيل بريد أي قطع ، فعرب فقيل خيل البريد .

وأما الفرسخ فقد اختلف فيه أيضاً ، فقال قوم : هو فارسي معرب ، وأصله فرسنك . وقال اللغويون : الفرسخ عربي محض ، يقال : انتظرتك فرسخاً من النهار أي طويلاً ، وقد روي في حديث حذيفة : ما بينكم وبين أن يصب عليكم الشر فراسخ إلا موت رجل (يعني عمر بن الخطاب) ، فلو قيل قد مات صب عليكم الشر فراسخ ، قال ابن شميل في تفسيره : وكل شيء دائم كثير فرسخ .

قال ياقوت : وأنا أرى أن الفرسخ من هذا أخذ لأن الماشي يستطيله ويستديمه ، وأما حده ومعناه فلا بد من بسط يتحقق به معناه ومعنى الميل معاً .

قالت الحكماء : استدارة الأرض في موضع خط الاستواء ثلاثمائة وستون درجة ، والدرجة خمسة وعشرون فرسخاً ، والفرسخ ثلاثة أميال ، والميل أربعة آلاف ذراع ، فالفرسخ اثنا عشر ألف ذراع ، والذراع أربعة وعشرون إصبعاً والإصبع ست حبات شعير مصفوفة بطون بعضها إلى ظهور بعض .

وقيل : الفرسخ اثنا عشر ذراع بالذراع المرسلة بذراع المساحة ، وهي الـذراع الهاشمية وهي ذراع وربع بالمرسل تسعة آلاف ذراع وستمائة ذراع .

وقال قوم : الفرسخ سبعة آلاف خطـوة ، ولم أر لهـم خلافـاً ، في أن الفرسـخ ثلاثة أميالٍ أقول : وقد نظـم ابن الحـاجب المتوفى في سنة ٦٤٦ هجرية في هـذا المعنى أبياتاً هي :

إن الـبريد مـن الفراسـخ أربـع ولفرسـخ فثلاث أميـال ضعـوا
والميل ألف أي مـن الباعـات قـل والبـاع أربـع أذرع تسـتبع
ثـم الـذراع مـن الأصـابع أربـع من بعدها العشـرون ثـم الإصبع
سـت شـعيرات فظهـر شـعيرة منهـا إلى بطـن لأخـرى توضـع
ثم الشعيرة ست شعرات غـدت من شعر بغل ليس عـن ذا مدفع

وأما الميل فجزء من ثلاثة أجزاء من الفراسخ ، وقيل : الميل ألفا خطوة وثلاثمائة وثلاثون خطوة وأما أهل اللغة فالميل عندهم مدى البصر ومنتهاه .

قال ابن السكيت : وقيل للأعلام المبنية في طريق مكة أميال ، لأنها بنيت علـى تقدير مدى البصر من الميل إلى الميل ، ولا نعني بمـدى البصـر كـل مرئـي فإنـا نـرى الجبل من مسيرة أيام ، إنما نعني أن ينظر الصحيح البصر ما مقداره ميل ، وهـي بنيـة ارتفاعها عشرة أذرع ، أو قريباً من ذلك وغلظها مناسـب لطولهـا ، قـال يـاقوت : وهذا عندي أحسن ما قيل فيه .

انتهى من الكتاب المذكور .

سبب تسمية الميل بالميل

وفي باب المفعول فيه من حاشية ابن غازي على الألفية "لطيفة" ذكر أبو حيان عن السهيلي عن قاسم بن ثابت قال : سمي الميل ميـلاً لأنهـم كـانوا ينصبـون علـى الطرق أميالاً كانوا يعرفون بها الخطى التي مشوها ، فيجعلون على رأس كل ثلاثـة آلاف ذراع بناء كهيئة الميل يكتبون فيه العدد الذي مشوه .

وقال هشام لأعرابي كان يسير معه : انظر في الميل كم مشينا وكـان الأعرابـي أمياً لا يقرأ فنظر ثم جاء فقال : فيه مخطـف وحلقـة وثلاثـة كأطيـاء الكلبـة وهامـة كهامة القطا ، فضحك هشام وعلم أن في الميل خمسة . اهـ .

وهذا يدل على عبرهم للطرق وضبطهم المسافات للذاهب والجائي ، ومعقول أنهم ما عرفوا وعبروا بالفرسخ والميل حتى كتبوا الأعداد ورسموها خشية الغلط . وانظر المصباح المنير للغيومي ، وفي الخطط للمقريزي ص٣٣٩ ج١ أن عبدالعزيز بن مروان كانت له وهو على مصر ألف جفنة كل يوم تنصب حول داره وكانت له مائة جفنة يطاف بها على القبائل على العجل . اهـ . وهذا يدل على نحر الطرف وترصيفها لتجري فيها العجل .

ابتكارات الرسوم الأربع للكعبة

لقد وفقنا الله تعالى إلى وضع صور ورسوم للبنايات الأربعة الشهيرة للكعبة المعظمة ، وضعنا كل صورة منها بالصفة التي وردت في كتب التاريخ المعتمدة المهمة ، فنحن أول من ابتكر هذه الصور للكعبة المشرفة ، ولم يسبق لغيرنا أن وضع مثل هذه الصور فلله الحمد والشكر على توفيقاته المتوالية ونعمائه المتتالية علينا ، أما بناية السلطان مراد الرابع للكعبة التي كانت في سنة (١٠٤٠) فإننا لم نتعرض لرسمها ، لأنها لم تكن بناية مستقلة بصفة خاصة ، بل إن بناية السلطان المذكور كانت على صفة ما قبله من البناية وهي بناية الحجاج الثقفي لم تخالفها في شيء مطلقاً .

ثم بعد أن وفقنا الله تعالى لابتكار تلك الصور للبنايات الشهيرة الأربعة ، وفقنا أيضاً عز شأنه وجل جلاله لوضع منظومة لطيفة من بحر الرجز في بيان تاريخ هذه البنايات بصورة مختصرة تكون سهلة الحفظ لطلبة العلم ، وكان كل ذلك في أوائل عام (١٣٦٧) من الهجرة .

ولقد طبعنا هذه الصور ، والمنظومة المذكورة في بلاد الهند في أواخر السنة المذكورة ، ثم كررنا طبعهما في كتابنا "مقام إبراهيم عليه السلام" في السنة التي تلي العام المذكور بمصر القاهرة ، ثم كررنا أيضاً طبعهما بعد أن نقحناهما وزدنا عليهما من الفوائد مع كتاب تاريخ القطبي المسمى"الإعلام بأعلام بيت الله الحرام" وذلك في عام (١٣٧٠) من الهجرة .

ثم إننا وضعناهما أيضاً في كتابنا هذا بعد إدخال التحسينات والزيادات وتدقيق النظر فيهما بالتصحيح والعناية حتى اطمئن القلب إلى إكمالهما على الوجه المطلوب الصحيح .

فسبحان الملهم للصواب وإليه المرجع والمآب .

شكل الكعبة من الخارج والداخل

لقد أجاد الأستاذ محمد لبيب البتنوني صاحب الرحلة الحجازية رحمه الله تعالى ، وصف شكل الكعبة من الداخل والخارج . لذلك رأينا نقل كلامه من رحلته المذكورة هنا وهذا نصه :

الكعبة الآن من الخارج على التعديل الذي رجع إليه الحجاج ، وهو ما كانت عليه مدة النبي ﷺ ، ذات شكل مربع تقريباً ، مبني بالحجارة الزرقاء الصلبة . ويبلغ ارتفاعها خمسة عشر متراً ، وطول ضلعها الذي فيه الميزاب والذي قبالته عشرة أمتار وعشرة سنتيمترات ، وطول الضلع الذي فيه الباب والذي يقابله اثنا عشر متراً . وبابها على ارتفاع مترين من الأرض ، ويصعد إليه بواسطة مدرج يشبه مدرج المنبر . والمدرج الحالي من الخشب المصفح بالفضة أهداه إلى الكعبة أحد أمراء الهند ، ولا يوضع في مكانه منها إلا إذا فتح بابها للزائرين في الاحتفالات الكبرى . وهي غالباً لا تزيد عن خمس عشرة مرة في السنة . وفيما عدا ذلك ترى هذا المدرج بجوار قبة زمزم من جهة باب بني شيبة ، ويصعدون إليها بسلم صغير من الخشب . وفي الركن الذي على يسار باب الكعبة الحجر الأسود على ارتفاع متر وخمسين سنتيمتراً من أرضية المطاف .

ويحيط بالكعبة من خارجها قصة من البناء في أسفلها ، متوسط ارتفاعها خمسة وعشرون سنتيمتراً ، ومتوسط عرضها ثلاثون سنتيمتراً ، وتسمى بالشاذروان وهي من أصل البيت تركت خارجة عنه في بناء قريش لها قبل الإسلام لاختصارهم في بنائها .

والشاذروان معناه ما يحيط بالسلسبيل ، وكانوا يطلقونه في العمارات المصرية القديمة على محيط النافورات التي كانت وسط القاعات الكبرى .

وعلى ظني أنه هنا من أثر عمارة الحجاج ، أقامه ليقي جدار البيت المعظم من تأثير الأمطار والسيول التي كانت ولا تزال تنزل بكثرة إلى المطاف ، ودليلنا على ذلك إنما هو لفظه الفارسي الذي لا بد أن يكون من وضع عملة من الفرس استحضرهم الحجاج بن يوسف لعمارتها . ولا يبعد أن يكون ذلك من عهد ابن الزبير ، يؤيده ما ورد في الأغاني من أن ابن سريج سئل عمن تعلم الغناء على

القاعدة التي كان يغني عليها مع أنها ما كانت معروفة عند العرب؟ فقال: إنه تعلمها من عملة من الفرس كان ابن الزبير استحضرهم لبناء الكعبة، وكانوا يتغنون بأغنية لطيفة فأخذها عنهم وأضاف نغماتها على النغمات العربية وغنى بها. وعلى كل حال فالشاذروان والميزاب لفظان أعجميان ولم يرد ذكرها على مدته ﷺ. ويسمون زوايا البيت الخارجية بالأركان: فالشمال منها يسمونه بالركن العراقي لأنه إلى جهة العراق، والغربي يسمونه الشامي لأنه متجه إلى جهة الشام، والقبلي يسمونه اليماني لاتجاهه إلى اليمن وفيه حجر يسمونه الحجر الأسعد، والشرقي يسمونه بالركن الأسود لأن فيه الحجر الأسود، وهو حجر صقيل بيضاوي غير منتظم ولونه أسود يميل إلى الاحمرار وفيه نقط حمراء وتعاريج صفراء، وهي أثر لحام القطع التي كانت تكسرت منه، وقطره نحو ثلاثين سنتيمتراً، ويحيط به إطار من الفضة عرضه عشرة سنتيمترات والمسافة التي بين ركن الحجر وباب الكعبة يسمونها الملتزم، وهو ما يلتزمه الطائف في دعائه.

ويخرج من منتصف الحائط الشمالي الغربي من أعلاه الميزاب "المزراب" ويقال له ميزاب الرحمة، وهو من عمل الحجاج وضعه على سطحها حتى لا تقف عليه مياه الأمطار، وكان من نحاس فغيره السلطان سليمان القانوني سنة ٩٥٩هـ بآخر من الفضة، وتجدد في سنة ١٠٢١هـ مدة السلطان أحمد بغيره من الفضة المنقوشة بالميناء الزرقاء تتخللها النقوش الذهبية. وقد رأيته محفوظاً في دار الآثار السلطانية الخصوصية بالآستانة. وفي سنة ١٢٧٣ أرسل إليها السلطان عبد المجيد ميزاباً من الذهب وهو الموجود بها الآن.

وقبالة الميزاب من الخارج يوجد الحطيم: وهو قوس من البناء طرفاه إلى زاويتي البيت الشمالية والغربية، ويبعدان عنهما بمسافة مترين وثلاثة سنتيمترات. ويبلغ ارتفاعه متراً وسمكه متراً ونصف وهو مغلف بالرخام المنقوش وفي محيطه من أعلاه كتابة محفورة بالخط المعلق فيها آيات قرآنية وتاريخ من قام بعمارته. ومسافة ما بين منتصف هذا القوس من داخله إلى منتصف ضلع الكعبة ثمانية أمتار وأربع وأربعون سنتيماً، والفضاء الواقع بين الحطيم وحائط البيت هو ما يسمونه بحجر إسماعيل (بكسر الحاء وسكون الجيم) وقد كان يدخل منه ثلاثة أمتار تقريباً في الكعبة في بناء إبراهيم، والباقي كان زريبة لغنم هاجر وولدها، ويقال إن هاجر وإسماعيل مدفونان به.

أما الكعبة من الداخل : فشكلها مربع مشطور الزاوية الشمالية ، وهي التي على يمين الداخل ، وبهذه الشطرة باب حقير اسمه باب التوبة يوصل إلى سلم صغير يصعد به إلى سطحها .

وبوسطها من الداخل ثلاثة أعمدة من العود القاقلي ، عليها مقاصير ترتكز على حائط الميزاب من جهة وحائط الحجر الأسود من جهة أخرى وقطر كل عمود نحو ثلاثين سنتيمتراً . وهذه الأعمدة من زمن عبدا لله بن الزبير وقيمتها أكبر من أن يقدر لها ثمن ويقال إن عليها كتابة محفورة فيها ولكني لم أرها . وقد ذكر أنه كان بالكعبة قبل الإسلام ستة أعمدة ولا أدري إن كانت من البناء أو من الخشب . ويغطي سقف الكعبة وحوائطها من الداخل كسوة من الحرير الوردي عليها مربعات مكتوب فيها (ا لله جل جلاله) قد أهداها إليها السلطان عبدالعزيز رحمه ا لله . وفي قبالة الداخل من الباب محراب كان يصلي فيه النبي عليه الصلاة والسلام . ويحيط ببناء البيت من الداخل إزار من الرخام المجزع على ارتفاع نحو مترين ، وقد وضع في الحائط الغربي ألواح محفور في الأول منها (بسم ا لله الرحمن الرحيم أمر بتجديد هذا البيت المعظم العبد الفقير إلى رحمة ربه يوسف بن عمر بن علي رسول ، اللهم أيده يا كريم بعزيز نصرك واغفر له ذنوبه برحمتك يا كريم يا غفار يا رحيم) . ومكتوب حول هذه اللوحة (رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليّ وعلى والديّ وأن أعمل صالحاً ترضاه لي بتاريخ سنة ثمانين وستمائة وصلى ا لله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم) وإلى جواره لوحة مكتوب فيها (أمر بتجديد سقف البيت الشريف وجميع داخل الحرم وخارجه مولانا السلطان ابن السلطان محمد خان سنة سبعين وألف) . ثم لوحة أخرى فيها (ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم ، تقرب إلى ا لله تعالى بتجديد رخام هذا البيت المعظم المشرف العبد الفقير إلى ا لله تعالى السلطان الملك الأشرف أبو النصر برسباي خادم الحرمين الشريفين بلغه ا لله آماله وزين بالصالحات أعماله بتاريخ سنة ست وعشرين وثمانمائة) . وفي لوحة أخرى (بسم ا لله الرحمن الرحيم أمر بعمارة البيت المعظم الإمام الأعظم أبو جعفر المنصور المستنصر بـا لله أمير المؤمنين بلغه ا لله أقصى آماله وتقبل منه صالح أعماله في شهور سنة تسع وعشرين وستمائة وصلى ا لله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم) .ثـم لوحة أخرى منقوش فيها (بسم ا لله الرحمن الرحيم أمر بتجديد هذا البيت العتيق المعظم الفقير إلى ا لله سبحانه وتعالى خادم الحرمين الشريفين مؤمن الحجاج في البرين والبحرين السلطان

بن السلطان مراد خان ابن السلطان أحمد خان ابن السلطان محمد خان خلد الله تعالى ملكه وأيد سلطته في آخر شهر رمضان المبارك المسطر في سلك شهور سنة أربعين بعد الألف من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والتحية) وفي الجدار الشرقي لوح مكتوب فيه (أمر بتجديد داخل البيت السلطان الملك أبو النصر قايتباي خلد الله ملكه يا رب العالمين ، عام أربع وثمانمائة من الهجرة) وفي الجدار الشمالي مكتوب على باب التوبة هذه الأبيات :

قد بدا التعمير في بيت الإله	قبلة الإسلام والبيت الحرام
أم خاقان الورى مصطفى خان	خان دام بالنصر العزيز المستدام
بادرت صدقاً إلى التعمير ذا	إنما كان بإلهام السلام
وارتجت من فضله سبحانه	أن يجازيها به يوم القيام
قال تاريخاً له قاضي البلد	عمرته أم سلطان الأنام

بمباشرة أحمد بك في سنة تسع ومائة وألف ، وبلغني أن في البيت حجراً مكتوباً بالكوفي ويقال إنه قديم جداً وأنه من القرن الأول للهجرة ، وإن صح ذلك كان من عمل الحجاج بن يوسف وبجانب الباب على يسار الداخل طاولة من الخشب مغطاة بستارة من الحرير الأخضر موضوع عليها كيس مفاتيح الكعبة ، وهو من الأطلس الأخضر المزركش بالقصب ، يأتي إليها سنوياً من مصر مع الكسوة الشريفة . معلق بسقف البيت كثير مما بقي من الذخائر التي أهديت إليه ، ومن ذلك عدة مصابيح ذهبية وفضية لا تقل عن مائة ومنها مصباحان ذهبيان مرصعان بالجوهر أهداهما للكعبة السلطان سليمان القانوني سنة (٩٨٤) انتهى من الرحلة الحجازية للبتنوني .

وهو يقول بهامش الرحلة عند هذه الأبيات ما نصه : "من هذا الشعر يمكنك أن تحكم على مقدار تأخر اللغة العربية ببلاد العرب وخصوصاً في القريض منها حوالي القرن الحادي عشر للهجرة" . اهـ . ونحن نقول كلامه هذا غير صحيح فاللغة العربية لم تتأخر ببلاد العرب مطلقاً لا في النثر ولا في القريض ، وهذه الأبيات لم يقلها أحد من العرب لا من الحجازيين ولا من غيرهم ، وإنما هي من قول بعض علماء الأتراك كما لا يخفى ذلك على أهل الذوق ، بل يعلم ذلك من صريح عبارة البيت الخامس وهو "قال تاريخاً له قاضي البلد" أي قاضي بلدة مكة وقد جرت العادة في زمن الدولة العثمانية التركية أن يرد قاضيها من دار السلطنة .

فغالب علماء غير العرب لا تكون لهم القدرة التامة لقول الشعر البليغ ، وليس هـذا مما يقدح فيهم ولا ينقص من مقدارهم ، بل إن كثيراً من علماء العرب ليست لهـم ملكة كافية لقول الشعر .

وصف الكعبة والمسجد الحرام

قال أمير الشعراء أحمد شوقي بك المصري المتوفى سـنة إحـدى وخمسين بعد الثلاثمائة والألف في كتابه "أسواق الذهب" في وصف الكعبـة والمسجد الحـرام مـا نصه :

الساحة الكبرى ، والدار اللموم ، والموسم الحاشـر ، المنتـدى والمؤتمـر ، ومتابـة الزمر ، إبرة المجر ، ونجم المصحر ، قبلة البدوي في قفره ، ووجهة القروي في كفره ، حرم الله المطهر وبيته العتيق المستر ، الذي وجه إليه الوجوه ، وفرض على عباده أن يحجوه ، نظرت إليه المساجد في كل خمس ، وقامت إليه قيام الحرباء إلى الشـمس ، بناه الله بمكة على فضاء زكي لم يتنفس فيه الناس ، وخلا إلا من حجر أدكنـاس ، فلا لدينا سحبت عليه غرورها ، ولا النفوس نقلت فيه شرورها ، ولا الحياة أزأرتـه باطلها وزورها .

لو شاء الله لبنى بيته بمصر على نهر فياض ، ووادٍ كله قطع الرياض ، ولو شاء الله لاتخذ بيته بالشام ، بين الجداول المظللـة ، والربـى المكللة ، والغصـون المهدلـة ، والقطوف المذللة ، ولو شاء الله جلت قدرته لرفع بيته على أنوف الجبـابرة ، ملـوك الأعصر الغابرة ، وفوق هام آلهتهم وهي ممهدة منضدة ، في الغرف المشيدة والقباب الممردة .

ولكنه تعالى نظر إلى أم القرى ، فرأى بهـا ذلاً لعز سـلطانه وافتقـاراً إلى غنـاه وإحسانه ، ورأى خشوعاً يستأنس به الإيمان ، وتجرداً تسـكن إليـه العبـادة ، ورأى انفراداً يجري في معنى التوحيد ، فأمر إبراهيم حواريـه ونبيـه ، وخليلـه وصفيـه ، أن يرفع بذلك الوادي ركن بنيته ، وينصب بين شعابه منار وحدانيته .

بنيان قـام بـالضعف والقـوة ، ونهـض علـى كـاهل الكهولـة وسـاعد الفتـوة ، واشتركتِ فيه الأبوة والبنـوة ، فكنـت تـرى إبراهيـم يـزاول ، وإسمـاعيل بـين يديـه يناول ، حتى بنيا بيتاً أعيا المعاول وعجز عنه الذي دمر تدمر وأبلى بابل ، فانظر إلى

صفائح الباطل كيف باد ، وإلى آجر الحق كيف أفنى الآباد ، وتأمل عجائب صنع البنيه ، وكيف ظفرت لبنة التوحيد بصخرة الوثنية .

بنى البيت وإذا الجلال حجبه وأستاره ، والحق حائطه وجداره ، والتوحيد مظهره ومناره ، والبنيون بناته وعماره ، والله عز وجل ربه وجاره ، اطلعت به مكة اطلاع المشكاة بالمصباح ، فزهر فضاء البراح ، وانتظم الهضاب والبطاح ، أضوأ من الشمس ذبالة ، وأبهر من القمر هالة ، في منازل الشرف والجلالة ، قد حاز الله له من نباهة الذكر وفخامة الشأن ، ما لم يحز لقديم من معالم الحق ولا حديث ، بر العبادة ، وفضيلة الحج ، وشرف الباني وروعة العتق وجلالة التاريخ .

يقول الغواة : لو كانت الكعبة من فضة أو ذهب ، ويقولون : لو كانت كبيع النصارى في عواصم الغرب رفعة بناء ، وديباجة فن ووشي زخرف . وأقول للغواة : لو تركت الكعبة على فطرتها الأولى فلم يطول بناؤها ، ولم تزين بالذهب أجزاؤها ، ولم تتعدد في الزخرف أشياؤها ، لكان بعبقريتها أليق ، وبروحانيتها أشبه وأخلق ، في تقدير قدسها غاية ونهاية . انتهى من كتاب أسواق الذهب .

وللأديب المكي الشهير الأستاذ سراج الخراز في الكعبة المشرفة :

رمز الخلود وكعبة الإسلام ... كم في الورى لك من جلال سام

يهوى البناء إذا تقادم عهده ... وأراك خالدة على الأيام

في كل عام حول بابك وقفة ... للناس من عرب ومن أعجام

فإذا الحجيج توافدت أفواجه ... وتزاحمت في البيت أي زحام

أبصرت ثم عرى الإخاء وطيدة ... وشهدت حقاً قوة الإسلام

وإذا الصلاة دنت رأيت صفوفهم ... بحراً يموج بركع وقيام

متهللين يحوطهم من ربهم ... نور الهدى الخاص لكل ظلام

في الركن والحجر المقدس في الورى ... سران قد دقا على الإفهام

كم لأمسى ومقبل لكليهما ... عن طاعة منه وعن إعظام

وهو الذي تعنو لصرح جلاله ... صيد الملوك وعلية الحكام

قصيدة أمير الشعراء في البيت الحرام

قال أمير الشعراء أحمد شوقي بك رحمه الله تعالى في كتابه دول العرب وعظماء الإسلام في البيت الحرام ما يأتي :

دار عليها ميسم من القدم ... حجت على أول خف وقدم

مهد الهدى في الأولين ركنها ... وحصنه في الآخرين صحنها

تلك جباه الرسل في ترابها ... وخد إبراهيم في محرابها

غنية عما كساها أسعد ... في الدهر وهو بالثناء أسعد

وكم جلاها في اليماني المسبل ... من قبلت منه ومن لم تقبل

لا تلمس وشيها ضريرا ... رب عروس تلعن الحريرا

تواضعت بين شعاب الوادي ... لم تتخذ تبذخ الأطواد

لم تبن بالصفاح والصوان ... ولا علت تعالي الإيوان

لا يد خوفو أرهقت فيها البشر ... ولا سليمان لها الجن حشر

بل صنع شيخ مقبل مزاول ... أعين بابن يافع مناول

قد رفعاها حجراً فوق حجر ... ووضعا فيها على اليمن الحجر

الله يوحي والأمين يشهد ... وتخشع الأرض ويعلو المعهد

حتى تجلت قبة الإيمان ... ممدودة الظل على الزمان

وركنها كامن في أم القرى ... تطوى القباب والقصور والقرى

دعائم من خشية وتقوى ... على تطاول الزمان تقوى

وما بنى الحق له الثبوت ... وما بنى الباطل عنكبوت

تقبل الله من الحواري ... واختص بالبيت وبالجوار

واختار من عباده قبيلا ... للبيت يهدونهم السبيلا

أولو الإله الكرماء عهدا ... النازلوا البيت العتيق مهدا

الراضعو زمزم في الهواجر ... وهي تدر من بنان هاجر

غرة آبائهم الذبيح ... والأمهات جرهم الصبيح

أبناء إسماعيل حول بكه ... تضوعت منهم شعاب مكه

بيتهمـــو محبوكـــة مفـــاخره　　أولـــه نبـــوة وآخـــره

موضع الحطيم

قال الأزرقي عن ابن جريج ملخصاً : الحطيم ما بين الركن والمقام وزمزم والحجر ، فسمي هذا الموضع الحطيم ، لأن الناس كانوا يحطمون هنالك بالأيمان ويستجاب فيه الدعاء على الظالم للمظلوم ، فقل من دعا هنالك على ظالم إلا هلك ، وقل من حلف هنالك إثماً إلا عجلت له العقوبة ، فكان ذلك يحجز بين الناس عن الظلم ويتهيب الناس الأيمان ، فلم يزل ذلك كذلك حتى جاء الله بالإسلام فأخذ الله ذلك لما أراد إلى يوم القيامة . انتهى منه .

نقول : يعلم مما ذكر أن الحطيم هو ما كان في وجه البيت ، فيما بين الركن الأسود وحجر إسماعيل طولاً ، وأما عرضاً فإلى زمزم والمقام ، وهو جزء من حد المسجد الحرام قديماً من الجهة الشرقية .

وهذا معقول : لأن العائذ ببيت الله الحرام لا بد وأن يأتيه من قبل وجهه حتى يقف أمامه ، ووجه البيت هو ما فيه الباب ، والله تعالى يقول : ﴿وأتوا البيوت من أبوابها﴾ .

وقال بعضهم : الحطيم هو الحجر ، بكسر الحاء المهملة ، لأنه حطم من البيت أي كسر منه ، لكن هذا القول ضعيف فإن ما حطم من البيت إنما كان في بناء قريش الكعبة حيث نقصوا من طولها من جهة حجر إسماعيل ، وكان هذا البناء وللنبي ﷺ من العمر نحو خمس وثلاثين سنة فكان يحمل معهم الحجارة لبناء الكعبة .

فالقول الصحيح المعتمد هو كلام الإمام الأزرقي المذكور ، من أن الحطيم هو ما بين ركن الحجر الأسود وحجر إسماعيل والمقام وزمزم . فهذا الموضع هو الذي كانوا يطلقون عليه الحطيم من زمن الجاهلية قبل بناء قريش الكعبة وقبل أن يحطم من البيت الحرام شيء كما هو صريح كلام الإمام الأزرقي وكفى به حجة .

موضع خزانة الكعبة

ننقل هنا ما ذكرناه في كتابنا "مقام إبراهيم عليه الصلاة والسلام" المطبوع بمصر عن خزانة الكعبة المشرفة فقد قلنا هناك أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام لما بنى الكعبة المشرفة حفر في باطنها على يمين من دخلها حفرة عميقة كالبئر وجعل عمقها ثلاثة أذرع يلقى فيها ما يهدى إليها من المتاع والحلي والذهب والفضة والطيب وغير ذلك، فهذه الحفرة تسمى بخزانة الكعبة وبالجب، وبالغبغب، وبالأخسف، وكان يسمى مال الكعبة بالإبرق.

فلما أن بنتها قريش قبل البعثة بخمس سنوات أبقوا جب الكعبة في مكانه ونصبوا عليه هبل، وهو أعظم أصنام قريش، كان عمرو بن لحي قدم به من هيت من أرض الجزيرة، ونصبه على الجب في بطن الكعبة وأمر الناس بعبادته، وذلك قبل بناء قريش، فلما بنتها وضعت هبل على الجب كما كان سابقاً.

ولم نر أحداً من المؤرخين ذكر شيئاً عن جب الكعبة في بناء ابن الزبير وفي بناء الحجاج هل أبقوه فيها كما كان أم طمروه وردموه؟

والذي نراه والله تعالى أعلم بالغيب أن جب الكعبة ردم بالحجارة في بناء ابن الزبير أو كان كذلك في بناء الحجاج إلى يومنا هذا، لأن أرض الكعبة من الداخل مرتفعة الآن عن أرض المطاف ارتفاعاً موازياً لعتبة بابها، فقد كبست بالحجارة التي فضلت من أحجار الكعبة حين بناء الحجاج، وكان أول من فرشها بالرخام الوليد بن عبدالملك.

فلما ردموا جب الكعبة في باطنها، جعلوا خزانتها في دار شيبة بن عثمان بن أبي طلحة، فصارت هدايا الكعبة توضع في هذه الدار التي كانت إلى جنب دار الندوة عند المسجد الحرام.

يقول الأزرقي: دار شيبة بن عثمان هي إلى جنب دار الندوة وفيها خزانة الكعبة وهي دار أبي طلحة عبدالله بن عبد العزى ابن عثمان بن عبد الدار ولها باب في المسجد الحرام. انتهى.

نقول: وموضع دار الندوة هي باب الزيادة مع الرحبة، وأما باب بني شيبة قديماً فهو باب السلام ومكانه الآن موضع العقد القائم عند مقام إبراهيم عليه الصلاة والسلام. ولقد استنتجنا ذلك من الحوادث الواردة في كتب التاريخ

المعتمدة فمنها : أن ابن الزبير لما هدم البيت ، عمد إلى ما كان فيه من حلية ، فوضعها في خزانة الكعبة في دار شيبة بن عثمان .

ومنها : أن أحد ملوك التبت حين أسلم بعث بصنمه الذي كان يعبده هدية إلى الكعبة . وكان من الذهب الخالص ، وكان مكللاً بالجواهر واليواقيت ، وكان على سرير من فضة ، فوصل كل ذلك إلى مكة ، ونصب فيها ثلاثة أيام ليراه الناس ، ثم استلمته الحجبة فجعلوه في خزانة الكعبة في دار شيبة بن عثمان ، وسنذكر هذه القصة في أواخر الكتاب إن شاء الله تعالى .

ومنها : أن محمد بن جعفر بن محمد أرسل إلى الحجبة فتسلف منهم من مال الكعبة خمسة آلاف دينار ، ليستعين بها على فتنة أصحاب المقنع الذين ظهروا بمكة ثم قضاها عنه أمير المؤمنين المأمون ، فقبضتها الحجبة ، وردوها في خزانة الكعبة .

ومنها : أن بني عبد الدارين قصي بن كلاب كانت لهم دار الندوة ، ودار شيبة بن عثمان ، وهي إلى جنب دار الندوة ، وفيها خزانة الكعبة .

فيعلم مما ذكرناه أن خزانة الكعبة كانت في بئر داخلها من أيام إبراهيم عليه السلام إلى أن بناها ابن الزبير رضي الله عنهما ، فردمَ الخزانة في بطن الكعبة ، ونقلها إلى دار شيبة بن عثمان ، فصارت هداياها تحفظ في داره . أما الآن فليس للكعبة مال يحتفظ به ، وليس فيها من الهدايا إلا ما هو معلق بسقفها من داخلها ، ولم نسمع منذ مدة طويلة أن أحداً أهدى إلى الكعبة شيئاً ، ونظن أن آخر هداياها كان في سنة أربع وتسعين بعد الألف وهي خمسة قناديل أرسلتها ملكة بندر آشي في إمارة الشريف سعيد بن بركات فعلقت بها ، والله تعالى أعلم .

انتهى من كتابنا مقام إبراهيم عليه السلام .

نقول : يعلم مما تقدم عن خزانة الكعبة وعن بنائها الذي كان في عهد قريش وفي أيام ابن الزبير رضي الله تعالى عنه ، بأنه عند إرادة تجديد بنائها هدموها حتى بلغوا أساس إبراهيم عليه الصلاة والسلام وقواعده ، وهي صخر أمثال الخلف من الإبل فبنوا عليه .

يعلم من كل ما تقدم أنه لم يبق لخزانة الكعبة من أثر وليس فيها شيء مدفون ، وأن كل ما في الكعبة من ذهب وأشياء ثمينة إنما هو في داخلها ظاهر أمام أعيننا .

لكن هنا إشكال لم نفهمه وهو : ورد في الحديث الذى رواه أبو داود الطيالسي بسند صحيح "يبايع للرجل بين الركن والمقام وأول من يستحل هذا البيت أهله فإذا استحلوه فلا تسأل عن هلكة العرب ثم تجيء الحبشة فيخربونه خراباً لا يعمر بعده وهم الذين يستخرجون كنزه" .

وورد في الحديث أيضاً الذي رواه أبو داود من حديث عبدا لله بن عمر عن النبي ﷺ "اتركوا الحبشة ما تركوكم فإنه لا يستخرج كنز الكعبة إلا ذو السويقتين من الحبشة" .

فنحن لم نفهم المراد من كنز الكعبة في الحديث والحال أنه لا كنز لها مدفون تحتها اليوم .

اللهم إلا إن فسرنا الكنز بما هو معلق في سقفها من الأشياء الثمينة وما فيها من الذهب والفضة المضروبين على مصراعي بابها على ميزابها وعلى بعض أعمدتها الداخلية ، وهذا التفسير هو صريح الحديث الذي رواه أحمد من حديث ابن عمر رضي ا لله تعالى عنهما قال رسول ا لله ﷺ : "يخرب الكعبة ذو السويقتين من الحبشة ويسلب حليها ويجردها من كسوتها . . . الحديث" وا لله تعالى أعلم .

وعلى كل حال فقد آمنّا بما جاء عن رسول ا لله ﷺ ، نسأل ا لله الثبات والتوفيق والهداية إلى أقوم طريق ، فإنا لا نملك لأنفسنا نفعاً ولا ضراً ، وا لله لطيف بعباده يرزق من يشاء وهو القوي العزيز .

أركان الكعبة المعظمة

تقدم الكلام على أن خليل ا لله ونبيه إبراهيم عليه الصلاة والسلام لما بنى الكعبة جعل لها ركنين فقط "ركن الحجر الأسود والركن اليماني" وجعل جدار الكعبة من جهة حجر إسماعيل مدوراً ليس فيه ركنان . فلما بناها عبدا لله بن الزبير رضي ا لله تعالى عنهما جعل لها أربعة أركان ، ركنين من جهة حجر إسماعيل وركنين من الجهة المقابلة كما كانا في السابق .

وكثير من الناس يشكل عليه اسم الركنين اللذين جعلهما ابن الزبير، لذلك رأينا أن نتكلم عن أركان الكعبة المشرفة بتفصيل تام وأن نبين محلاتها في رسم صورتها.

فنقول وبالله التوفيق وعليه الاتكال وهو حسبنا ونعم الوكيل ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. ولنبدأ بالأركان بالترتيب على حسب مشروعية الطواف، أي بجعل الكعبة على يسار الطائف بها:

"فالأول": الركن الأسود، سمي به لأن فيه الحجر الأسود، ويسمى أيضاً بالركن الشرقي، ومنه يبتدأ الطواف.

"والثاني": الركن العراقي، سمي بذلك لأنه إلى جهة العراق ويسمى هذا الركن أيضاً بالركن الشمالي نسبة إلى جهة الشمال، وبين هذا الركن والركن الأسود يقع باب الكعبة.

"والثالث": الركن الشامي، سمي بذلك لأنه إلى جهة الشام والمغرب، ويسمى هذا الركن أيضاً بالركن البحري وبالركن الغربي. وبين هذا الركن والركن العراقي يقع حجر إسماعيل الذي يصب فيه ميزاب الكعبة.

"والرابع": الركن اليماني، سمي باليماني لاتجاهه إلى اليمن، وفي صبح الأعشى قال ابن قتيبة: سمي بذلك لأنه بناه رجل من اليمن يقال له ابن أبي سالم والله تعالى أعلم.

وفي شفاء الغرام سمي الركن اليماني فيما ذكره العيني لأن رجلاً من اليمن بناه اسمه أبي بن سالم وأنشد:

لنا الركن في البيت الحرام وراثة   بقية ما أبقى أبي بن سالم

ونحن نقول كلام ابن قتيبة بعيد الاحتمال لم نر أحداً ذكره، والأقرب إلى الصحة التسمية الأولى لاتجاهه إلى اليمن، كما أن كل ركن ينسب إلى بقية الجهات. فالركن الأسود يطلق عليه الركن الشرقي لوقوعه جهة الشرق، والعراقي يطلق عليه الركن الشمالي لوقوعه جهة الشمال، والشامي يطلق عليه الركن الغربي لوقوعه جهة الغرب، واليماني لوقوعه جهة اليمن. وكل ذلك مطابق لواقع الحال لا يخفى على أهل مكة.

وقد يطلق على الركن اليماني والركن الأسود اليمانيان ، وعلى الركن الشامي والركن العراقي الشاميان وربما قيل الغربيان على جهة التغليب . وإذا أطلق الركن فالمراد به الركن الأسود فقط .

ولا يخفى أن هذا مبحث نفيس مهم ، وقد يقع كثير في الغلط بين اسمي الركنين الواقعين في طرفي جدار حجر إسماعيل "العراقي والشامي" حتى أن القلقشندي غلط فيهما في كتابه صبح الأعشى بصحيفة ٢٥١ وكلنا يجوز عليه السهو والغلط .

لكن بفضل الله تعالى وتوفيقه قد أوضحناهما هنا إيضاحاً ليس للشك فيه مجال .

ولم نر لأحد بياناً أوضح من بياننا وعززناه برسم جميع الأركان في الصورة المذكورة فالحمد لله رب العالمين .

أركان الكعبة الأربعة

للكعبة اليوم أربعة أركان وقد كان في العصر الغابر في عهد إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام حينما بناها جعل لها ركنين فقط الركن الأسود والركن اليماني وجعل مؤخر الكعبة من جهة حجر إسماعيل عليه السلام مدوراً على هيئة نصف دائرة . فبقيت الكعبة المعظمة على هذه الهيئة في بناء العمالقة لها وفي بناء جرهم وفي بناء قصي وفي بناء قريش الذي كان قبل بعثته ﷺ بخمس سنين .

فلما بنى عبدالله بن الزبير الكعبة المشرفة رضي الله تعالى عنهما سنة أربع وستين من الهجرة جعل لها أربعة أركان الركنين الأولين المذكورين والركنين العراقي والشامي اللذين من جهة الحجر ، فكانت هذه الأركان الأربعة تستلم في زمانه إلى أن قتل رضي الله تعالى عنه فرجع الناس إلى استلام الركنين الأولين الأساسيين الركن الأسود والركن اليماني .

فما زالت الكعبة المشرفة من عصره إلى يومنا هذا بأربعة أركان ، وترتيب هذه الأركان بالنسبة لمن طاف حول الكعبة وجعلها على يساره كما يأتي :

(١) ركن الحجر الأسود وهو قبل باب الكعبة وهو معروف .

(٢) فالركن العراقي وهو بعد باب الكعبة .

(٣) فالركن الشامي وهو بعد ميزاب الكعبة .
(٤) فالركن اليماني وهو قبل الحجر الأسود وهو معروف أيضاً .

الحفرة التي عند باب الكعبة المشرفة

تكلم كثير من العلماء عن الحفرة التي هي على يمين باب الكعبة المشرفة التي يبلغ طولها مترين ، وعرضها (١١٢) سنتيمتر ، وعمقها ٢٨ سنتيمتراً ، والتي تقع تقريباً في وسط الجدار الشرقي للكعبة .

ونأتي هنا بتفصيل تام نسأل الله تعالى الهداية إلى الصواب .

فقد قيل : إنها المعجن ، عجن فيها إسماعيل عليه السلام الطين لبناء البيت الحرام ، فهذا القول غير صحيح وبعيد الاحتمال لأمرين :

الأول : أن إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ما بنيا الكعبة المشرفة بالطين ولا بالجص وإنما رضماها رضماً ولم يسقفاها ، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : "أما والله ما بنياه بقصة ولا مدر ولا كان معهما من الأعوان والأموال ما يسقفانه ، ولكنهما أعلماه فطافا به" رواه الأزرقي في تاريخه . والقصة بالفتح : الجص ، والمدر بفتحتين : الطين أو التراب المتلبد . قاله في المصباح المنير .

الثاني : لو فرض أن إسماعيل كان يعجن الطين للبناء للزم أن يعجنه عند كل جهة من الجهات الأربع للبيت ، حتى لا يحمله ويدور حول البيت فيتعب ، على أن هذا الموضع صغير لا يكفي لعجن الطين الكثير اللازم لبناء البيت الحرام .

فعلم مما ذكرناه بأن ما قيل : أن الحفرة هي معجن إسماعيل عليه السلام غير صحيح .

وقيل : إن هذه الحفرة هي مصب لغسيل الكعبة . قاله ابن جبير في رحلته ، فهذا القول لا يطابق الحقيقة والواقع كما هو مشاهد عندنا ، ولربما سأل ابن جبير عنها بعض من لا خبرة له فأفهمه ذلك أو رأى بالمصادفة غسل الكعبة وامتلاء الحفرة من الماء فظنها كذلك ، ولو كانت الحفرة لأجل تجمع ماء غسيل الكعبة لكان المعقول أن تجعل عند بابها تحت العتبة .

وقيل : إن شطر الحفرة الملاصق للكعبة هو موضع مقام إبراهيم عليه السلام قبل أن ينقله عمر رضي الله عنه ، وهو أيضاً موضع المقام حينما أخذه سيل أم نهشل إلى أسفل مكة فلما جاء عمر من المدينة نقله منه إلى موضعه الآن فهذا القول غير بعيد ، بل هو الصواب ، كما علم ذلك مما سبق في تحقيق موضع المقام .

وقيل : إن الحفرة هي مصلى جبريل بالنبي ﷺ حين فرضت الصلوات الخمس ، قد ذكر ذلك كثير من العلماء منهم الأزرقي فروى بسنده عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال : (أمني جبريل عند باب الكعبة مرتين) . فهذا القول أقرب إلى الصحة ، بل هو الصواب أيضاً ، ويطابق القول المتقدم ، بأن مقام إبراهيم كان في شطر الحفرة الملاصق للكعبة كما ذكر ، فوافقت صلاتهما عنده قبل نزول : ﴿واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى﴾ فكان صلاة جبريل بالنبي ﷺ هناك إشارة إلى أنه سيؤمر هو وأمته بالصلاة عند المقام ، ولا مانع أن نقول : إن الحفرة هي محل مصلى جبريل بالنبي ﷺ ، وهي أيضاً محل مقام إبراهيم عليه السلام قبل أن ينقله عمر رضي الله عنه في محله المعلوم . والله سبحانه وتعالى أعلم .

جاء في صحيح البخاري في أول باب مواقيت الصلاة وفضلها : عن عبد الله بن مسلمة قال : قرأت على مالك عن أبي شهاب أن عمر بن عبدالعزيز أخر الصلاة يوماً فدخل عليه عروة بن الزبير فأخبره أن المغيرة بن شعبة أخر الصلاة يوماً وهو بالعراق ، فدخل عليه أبو مسعود الأنصاري فقال : ما هذا يا مغيرة أليس قد علمت أن جبريل ﷺ نزل فصلى ، فصلى رسول الله ﷺ ، ثم صلى فصلى رسول الله ﷺ ، ثم صلى فصلى رسول الله ﷺ ، ثم صلى فصلى رسول الله ﷺ ، ثم صلى فصلى رسول الله ﷺ ، ثم قال : بهذا أمرت فقال عمر لعروة : اعلم ما تحدث أوَ إنّ جبريل هو أقام لرسول الله ﷺ وقت الصلاة ، قال عروة : كذلك كان بشير بن أبي مسعود يحدث عن أبيه قال عروة : ولقد حدثتني عائشة أن رسول الله ﷺ كان يصلي العصر والشمس في حجرتها قبل أن تظهر . انتهى .

جاء في صحيح البخاري في كتاب بدء الخلق في باب ذكر الملائكة :

حدثنا قتيبة حدثنا ليث عن ابن شهاب أن عمر بن عبدالعزيز أخّر العصر شيئاً ، فقال له عروة : أما إن جبريل قد نزل فصلى أمام رسول الله ﷺ ، فقال عمر : أعلم ما تقول يا عروة ، قال : سمعت بشير بن أبي مسعود يقول : سمعت أبا

مسعود يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول : نزل جبريل فأمني فصليت معه ، ثم صليت معه ، ثم صليت معه ، ثم صليت معه ، ثم صليت معه ، يحسب بأصابعه خمس صلوات . انتهى .

هذا الكلام كنا كتبناه في مؤلفنا "مقام إبراهيم عليه السلام" المطبوع عام (١٣٦٨هـ) لأول مرة بمطبعة مصطفى البابي الحلبي وشركاه بمصر .

ولزيادة التحقق عن هذا المبحث ، فقد ذهبنا إلى المسجد الحرام صباح يوم الثلاثاء الرابع من شهر جمادى الأولى سنة (١٣٧٧) سبع وسبعين وثلاثمائة وألف ، فوقفنا عند باب الكعبة المعظمة وتأملنا نفس الحفرة المذكورة وما حولها وأخذنا القياس لها ولبعض الأماكن بالمتر كما سنبينه ، فظهرت لنا الحقيقة عن الحفرة تمام الظهور ووضح ما كان خافياً تمام الإيضاح ، وهذا المبحث لا يوجد في كتاب مطلقاً إلا في تاريخنا هذا ، فالحمد لله على توفيقاته ونعمه العظمى المتوالية . وإليك بيان ذلك كما يأتي :

إن هذه الحفرة التي عند باب الكعبة المعظمة لم تكن حفرة حقيقة ، وإنما كانت في صدر الإسلام من نفس أرض المطاف الترابية ، غير أنه كان في موضعها علامة لتدل عليها ، كفرشها برملة بيضاء مثلاً فلما فرشوا أرض المطاف بالحجارة الصخرية ، وبالحجارة الرخامية المرمرية ، جعلوا هذا الموضع حفرة كالحوض عمقها نحو ثلاثين سنتيمتراً حتى لا يندرس هذا المحل .

وقياس هذه الحفرة الرخامية المستطيلة الشكل ، والتي تشبه الحوض الصغير هي كما يأتي بالأمتار :

طولها : متران ، وعمقها : ثمانية وعشرون سنتيمتراً ، وبين آخر هذه الحفرة إلى ركن الكعبة من جهة حجر إسماعيل هو خمسة أمتار وستين سنتيمتراً ، وما بين أول الحفرة إلى ركن الحجر الأسود هو أربعة أمتار وثمانون سنتيمتراً . ومن أول هذه الحفرة إلى أول شباك مقام إبراهيم عليه الصلاة والسلام عشرة أمتار إلا أربعة عشر سنتيمتراً وفي هذه الحفرة يمكن أن يصلي أربعة رجال براحة تامة بدون تزاحم .

فإن قال قائل : هل كانت مساحة أرض هذه الحفرة في عهد الصحابة رضي الله عنهم كمساحتها اليوم أم لا ؟

نقول : المعقول أن تكون مساحة هذه الحفرة في صدر الإسلام كمساحتها اليوم ، وذلك أن هذه الحفرة على مساحتها اليوم يمكن أن يصلي فيها أربعة أشخاص كما تقدم ، وهذه الحفرة هي موضع مصلى جبريل بالنبي ﷺ ، وهي أيضاً موضع حجر مقام إبراهيم عليه السلام الذي يبلغ طوله ذراع واحد .

فإذا حسبنا أن هذا المقام الذي يبلغ ذراعاً واحداً بشخص واحد ، والنبي ﷺ هو الثاني وجبريل عليه السلام هو الثالث ، كان الباقي هو مكان الرجل الرابع ، وإذا فرضنا أن رسول الله ﷺ كان إذا صلى في هذه الحفرة يتقدم أحياناً بخطوة أو خطوتين ، أو يتأخر أحياناً كذلك بخطوة أو خطوتين فهذا القدر من التقدم أو التأخر إذا حسبناه بمكان الرجل الرابع ، ظهر لنا بوضوح تام أن مساحة هذه الحفرة اليوم هي نفس مساحتها في صدر الإسلام .

فالمتران اللذان هما طول الحفرة يكفيان لصلاة أربعة رجال ، والمتر والعشرة السنتيمترات التي هي عرض الحفرة هي مقدار ما يتمكن المصلي من الركوع والسجود .

فعليه تكون مساحة الحفرة في زماننا هي مساحتها في عهد النبي ﷺ بدون شك ولا ريب ، والله تعالى أعلم بغيبه .

وإن سأل سائل : هل محل هذه الحفرة كان معروفاً من عهد إبراهيم وإسماعيل عليهما الصلاة والسلام وفي عهد الجاهلية قبل الإسلام أم لا ؟

فنقول : إن محل هذه الحفرة لم يكن له ذكر قبل الإسلام مطلقاً ، لا في عهد إبراهيم وإسماعيل عليهما الصلاة والسلام ولا في عهد الجاهلية ، لأنه لم يكن هناك أمر يوجب إسناد الحفرة ونسبتها إليه ، غير أنه كان يعرف في الجاهلية أن حجر مقام إبراهيم كان يوضع أحياناً في شطر من الحفرة كما كان كذلك في عهد النبيين الكريمين إبراهيم الخليل وإسماعيل الذبيح عليهما الصلاة والسلام ، وأحياناً كان يوضع داخل الكعبة المعظمة . فلما جاء الإسلام ، وفرضت الصلوات الخمس ، وصلى جبريل إماماً بالنبي عليه الصلاة والسلام في محل الحفرة ليعرفه كيفيتها ، وكان النبي عليه الصلاة والسلام أيضاً إذا دخل الكعبة وأراد أن يركع خارجها صلى عند باب الكعبة أي في هذا الموضع كما سيأتي بيانه .

حافظ المسلمون على هذا المحل من ذلك الوقت إلى اليوم وصار لها شأن يذكر .

وإن قيل : لماذا كان يصلي رسول الله ﷺ في محل الحفرة ؟ ولماذا كانوا يجعلون حجر مقام إبراهيم عليه الصلاة والسلام في هذا المحل أيضاً ؟

نقول : مما لا ريب فيه أن النبي ﷺ كان يصلي في جميع نواحي الكعبة ، ليقتدي المسلمون بفعله ﷺ ، فالكعبة في ذاتها قبلة المسلمين كافة أينما كانوا في مشارق الأرض ومغاربها . لكنه عليه الصلاة والسلام كان إذا خرج من الكعبة صلى ركعتين عند باب الكعبة كما جاء ذلك في مسند الإمام أحمد عن ابن عباس أن الفضل بن عباس أخبر أنه دخل مع النبي ﷺ ، وأن النبي ﷺ لم يصل في الكعبة ولكنه لما خرج ، نزل فصلى ركعتين عند باب الكعبة . اهـ .

وجاء في شفاء الغرام : وقال القاضي عز الدين بن جماعة في هذا المعنى فيما أخبرني به خالي عنه قال : -يعني أحمد بن حنبل- حدثنا هشيم قال : أخبرنا عبدالملك عن عطاء قال : قال أسامة بن زيد : دخلت مع رسول الله ﷺ البيت فجلس فحمد الله وأثنى عليه وهلل وخرج ولم يصل .

ثم دخلت معه في اليوم الثاني فقام ودعا ثم صلى ركعتين ثم خرج فصلى ركعتين خارجاً من البيت مستقبل وجه الكعبة ثم انصرف وقال : هذه القبلة . اهـ .

نقول : كان هذا في ثاني يوم الفتح .

وجاء فيه أيضاً : وروى البخاري ومسلم عن أسامة بن زيد أيضاً : أن رسول الله ﷺ لما دخل البيت دعا في نواحيه كلها ولم يصل حتى خرج فلما خرج ركع قبل البيت ركعتين وقال : هذه القبلة .

قوله : قبل البيت : هو بضم القاف والباء ، ويجوز إسكان الباء ، ومعناه على ما قيل ما استقبلك فيها وقيل مقابلها .

فصلاته عليه الصلاة والسلام عند الكعبة كما ورد كانت في محل هذه الحفرة بدون شك ، لأنه كان في محلها مقام إبراهيم ، ولأنه في هذا المحل أيضاً صلى به جبريل الصلوات الخمس حين فرضت ، ولأن هذا المحل وما بعده إلى جهة حجر إسماعيل هو أصلح محل للصلاة من جهة وجه الكعبة إلى يومنا هذا وبيان ذلك :

(١) هو أن الإنسان إذا صلى في مواجهة باب الكعبة تحت عتبتها ، فإنه لا يتمكن من الخشوع والخضوع في الصلاة لمرور الناس أمام المصلى ليقفوا على الباب يدعون ربهم تحت عتبة بابه ، وهو مكان استجابة الدعاء .

(٢) وإذا صلى عند الملتزم وهو على شمال مستقبل باب الكعبة ، وهو المكان الذي بين الباب والركن الأسود ، ومقداره متران فقط ، فإنه لا يتمكن المصلي أيضاً من الخشوع والخضوع لمرور الناس أمامه ووقوفهم في الملتزم للدعاء والتضرع ، وهو مكان الإجابة أيضاً .

فعليه يكون أحسن وأصلح مكان للصلاة في وجه الكعبة يتمكن المصلي فيه من الخشوع والخضوع والراحة ، هو المكان الواقع على يمين مستقبل باب الكعبة إلى جهة حجر إسماعيل ، ففي هذا المكان يقع محل الحفرة وهو قريب من الباب ، فما بين أول هذه الحفرة وبين أول الباب إلا ستون سنتيمتراً .

ولما كان أيضاً هذا المحل يوضع في شطره حجر مقام إبراهيم عليه السلام ، وكان أيضاً هذا المحل هو موضع صلاة جبريل بالنبي عليه الصلاة والسلام ، كان هذا المكان أفضل مكان لصلاة رسول الله ﷺ حين خروجه من الكعبة .

أما لماذا كانوا يجعلون حجر المقام في شطر هذه الحفرة من قبل الإسلام ؟ فعلة ذلك نفس السبب الذي ذكرناه عن صلاة النبي ﷺ في هذه الحفرة ، فإن هذا مقام كريم وهو من الآيات البينات كما قال الله تعالى : ﴿فيه آيات بينات مقام إبراهيم﴾ وهو الحجر الذي كان يقوم عليه خليل الله إبراهيم لبناء الكعبة ، فينبغي أن يكون محله عند الكعبة . وليس من المعقول أن يوضع عند عتبة باب الكعبة ، ولا أن يوضع على يسار الباب عند الملتزم ، لأن عتبة الباب وموضع الملتزم هما محل وقوف الناس للدعاء والتضرع ليلاً ونهاراً على الدوام .

فلو وضع حجر المقام في هذين المحلين لحصل التضييق على الناس ، ولكان المقام معرضاً للإهانة والتلف تحت أرجل الناس ، فوضعه على يمين باب الكعبة في محل الحفرة هو عين الصواب والحكمة . هذا ما كان قبل الإسلام في عهد الجاهلية أما بعد ظهور الإسلام وبعد أن أمر الله سبحانه وتعالى المسلمين أن يصلوا خلف المقام كما في صريح الآية الكريمة ﴿واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى﴾ كان من الحكمة والصواب أن ينقله من الحفرة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله

تعالى عنه فيضعه في محله الآن بقرب زمزم في مقابل الحفرة أيضاً ، حتى لا يحصل تشويش على المصلين الذين يصلون خلفه من الطائفين الذين يطوفون حول البيت .

فخلاصة القول : أن هذه الحفرة التي هي عند الكعبة المشرفة ، إنما هي موضع مصلى جبريل بالنبي ﷺ حين فرضت الصلوات الخمس .

وهي أيضاً موضع مصلى النبي عليه الصلاة والسلام إذا خرج من الكعبة ، وأيضاً هي موضع حجر مقام إبراهيم عليه السلام من قبل الإسلام كما قدمنا تفصيل كل ذلك .

فعليه يكون على يمين باب الكعبة محل المقام الذي هو من الآيات البينات ، ومصلى نبينا الكريم عليه الصلاة والسلام ويكون على يسار بابها الملتزم وهو محل استجابة الدعاء بلا ريب ، وأما باب الكعبة فهو باب بيت الله الكبير المتعال ، فمن وصل إليه بقلب سليم ونية خالصة ، فقد دخل في رحمة الله تعالى فليبشر بالقبول والسعادة إن شاء الله .

فافهم هذا المبحث النفيس الذي لا تجده في كتاب غير هذا الكتاب .

فالحمد لله الذي وفقنا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله . وصلى الله على النبي الأمي وعلى آله وصحبه وسلم .

سد الحفرة وردمها

لقد تقدم الكلام عن الحفرة التي عند باب الكعبة المعظمة بتفصيل تام مع ذكر قياسها طولاً وعرضاً وعمقاً بما لا يوجد في غير هذا الكتاب ، والآن نتكلم عن ردم هذه الحفرة وسدها وطمرها حتى تساوت بأرض المطاف ، وسبب ذلك وقوع بعض الحجاج فيها وقت الطواف عند اشتداد الزحام في موسم الحج ، فرأت حكومتنا السعودية سد هذه الحفرة وطمرها للسبب المذكور ، وذلك عند الانتهاء من تجديد سقف الكعبة المشرفة .

ففي ضحى يوم الخميس الثاني من شهر شعبان سنة (١٣٧٧) سبع وسبعين وثلاثمائة وألف هجرية الموافق عشرين من شهر فبراير سنة (١٩٥٨) ميلادية ، قام بعض العمال المصريين بسدها ، فردموها أولاً بالنورة القديمة التي أخرجت من سطح الكعبة عند هدمه ، ثم وضعوا فوقها الرمل النظيف المغسول بماء زمزم ، ثم

وضعوا فوق الرمل الطين المخلوط بالنورة على صفة العجين اللين، ثم فرشوا فوقه حجارة الرخام البيضاء حتى تساوت هذه الحفرة بأرض المطاف، فالرخامات البيضاء في نفس موضع الحفرة، وقد أحيطت بخط أسود من الرخام ليكون حداً للحفرة، وقد انتهوا من ردمها وسدها قبل صلاة الظهر من اليوم المذكور.

وكان ردم هذه الحفرة بحضور فضيلة العلامة الشيخ عبدا لله بن دهيش رئيس المحكمة الشرعية الكبرى بمكة وبحضور سعادة الشيخ عبدا لله بن خشلان وكيل رئيس اللجنة التنفيذية لتوسعة المسجد الحرام، وبحضور سعادة الشيخ عبدا لله بن سعيد عضو اللجنة التنفيذية المذكورة ومدير العمل في مشروع التوسعة، وبحضور محمد طاهر بن عبدالقادر الكردي الخطاط مؤلف هذا الكتاب وعضو اللجنة المذكورة.

غفر ا لله تعالى لهم وعاملهم بفضله ورحمته، وسترهم في الدنيا والآخرة بستره الجميل الذي لا ينكشف آمين، وصلى ا لله على أبي القاسم الأمين سيدنا "محمد" وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

الحجر المكتوب الذي في داخل الحفرة

ويوجد في جدار الشاذروان في داخل الحفرة، حجر مكتوب طوله سبعون سنتيمتراً، وعرضه أربعة وثلاثون سنتيمتراً، وهذا نص ما هو مكتوب فيه:

"بسم ا لله الرحمن الرحيم، أمر بعمارة المطاف الشريف، سيدنا ومولانا الإمام الأعظم، المعرض للطاعة على سائر الأمم، أبو جعفر المنصور المستنصر با لله أمير المؤمنين، بلغه ا لله آماله وزين بالصالحات أعماله، وذلك في شهور سنة إحدى وثلاثين وستمائة، وصلى ا لله على سيدنا "محمد".

هذا ما كتب على الحجر الموجود بداخل الحفرة التي عند باب الكعبة المشرفة، وقد أبقينا هذا الحجر في محله بالحفرة عند سدها فلا يزال بها إلى الآن، وأبو جعفر المنصور المذكور في هذا الحجر، ليس هو أبو جعفر المنصور والد أمير المؤمنين محمد المهدي الذي زاد في المسجد الحرام سنة سبع وثلاثين ومائة من الهجرة، ثم زاد فيه بعده ولده المهدي أيضاً، وإنما هو شخص آخر اتفقا في الاسم، فالمذكور في الحجر كان في القرن السابع، وأما والد المهدي فقد كان في القرن الثاني.

وليس أبو جعفر المذكور في الحجر هو أول من أمر بعمارة المطاف ولا هو آخر من بناه ، فلقد عمّر المطاف مراراً قبله وبعده ، وإنما أهل الزمن الماضي وجدوا هذا الحجر فاحتفظوا به ، كما نحن احتفظنا به اليوم فلم نرفعه عن محله عند سد الحفرة . وا لله تعالى أعلم بالغيب .

لماذا لم تكن الكعبة قطعة من الجوهر

الكعبة المشرفة بنيت بالحجارة منذ بنائها الأول إلى اليوم كما تبنى سائر بيوت الناس ، غير أن بيوتهم مجردة عن كل أمر معنوي ، وبيت ا لله عليه المهابة والإجلال بحيث تطأطئ له رؤوس الجبابرة والأكاسرة ، وتخشع له قلوب القساة والطغاة وتدمع لديه أعين المخبتين والعصاة ، كيف لا ؟ وقد بنيت بأمر ا لله ، ورفع قواعدها إبراهيم خليل ا لله فبناية قامت بأمره تعالى ورضائه كيف لا تتوجه إليها قلوب العباد في جميع البلاد ، ومن الأسرار الدقيقة والحكم البليغة أن الكعبة المشرفة ما بنيت مرة من المرات إلا وتسابقت على بنايتها والاشتغال برفع حجارتها وترابها الأنبياء والملوك والأمراء والعلماء والصالحون والعظماء بمحبة وإخلاص لا بالقهر والإجبار تقرباً إلى ا لله عز شأنه وجلت قدرته .

إذاً فالكعبة الغراء ليست في حاجة إلى أن تبنى بالفضة والذهب ولو شاء ا لله لجعلها قطعة واحدة من الجوهر ولكنه لم يفعل ذلك ، بل وضع فيها من الأسرار المعنوية والمهابة والجلال ما تنجذب إليها أفئدة الناس منذ وضعها ا لله تعالى إلى أن تقوم الساعة ولقد أراد السلطان أحمد بن السلطان محمد بن مراد بن سليم الثاني من سلاطين آل عثمان أن يهدم الكعبة حينما تصدع جدارها الشرقي وجدارها الغربي ويبنيها ويجعل حجارتها ملبسة واحدة بالذهب وواحدة بالفضة فمنعه العلماء وقالوا له : هذا يزيل حرمة الكعبة ولو أراد ا لله لجعلها قطعة من الياقوت فكف عن ذلك . فالمسلمون في مشارق الأرض ومغاربها إنما يعبدون رب هذا البيت فقط لا البيت نفسه ، فإذا عظموه ووفدوا إليه وتوجهوا إليه في صلواتهم فإنما ذاك امتثالاً لأمره سبحانه وتعالى . ولم يسمع قط عن العرب قبل الإسلام أنهم عبدوا نفس الكعبة أو الحجر الأسود أو حجر المقام ، مع ما كانوا عليه من عبادة الأصنام والأحجار ، ولا شك أن ذلك من الحكمة الدقيقة والعصمة القوية من ا لله سبحانه وتعالى ، حتى يسلم كل ذلك من الشائبات ، فلو عبد المشركون ذلك ،

ثم جاء الإسلام باحترامها وتعظيمها لقالوا إن الإسلام جاء بتأييد ما نحن عليه . وانظر إلى قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه حينما قبّل الحجر الأسود : "إني أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ولولا أني رأيت رسول الله ﷺ يقبّلك ما قبّلتك" .

تسمية البيت الحرام بالكعبة

ذكر الغازي في تاريخه عن ذلك ما نصه : وفي تسمية البيت بالكعبة أقوال ، فقيل : لتكعبه أي تربعه يقال : برد مكعب إذا طوي مربعاً ، وقيل : لعلوه ، ومنه سمي الكعب كعباً لنتوئه وخروجه من جانب القدم يقال : تكعبت الجارية إذا خرج نهداها ، وقيل : لانفرادها عن البيوت وارتفاعها .

وذكر الأزرقي في تاريخه أن الناس كانوا يبنون بيوتهم مدورة تعظيماً للكعبة ، فأول من بنى بيتاً مربعاً حميد بن زهير فقالت قريش : ربع حميد بيتاً إما حياة وإما موتاً . انتهى من الغازي .

نقول : إن كل ما قيل عن تسمية البيت الحرام بالكعبة إنما هو تعليلات وهمية ، والذي نراه أن نمشي على القاعدة المعروفة (الأسماء لا تعلل) فالكعبة هي بيت الله الحرام بنص القرآن الكريم ﴿جعل الله الكعبة البيت الحرام قياما للناس . . . الآية﴾ .

فلقد أطلق الله عز شأنه الكعبة على بيته المعظم قبل وجود القائلين بهذه التعليلات في الدنيا .

وكذلك تسمى الكعبة بالبيت العتيق كما في الآية : ﴿وليطوّفوا بالبيت العتيق﴾ اللهم أعتق رقابنا من النار ، وأدخلنا الجنة مع الأبرار ، يا عزيز يا غفار ، بفضلك وإحسانك ورحمتك يا أرحم الراحمين آمين .

الشمسيات التي كانت توضع على الكعبة

المراد بالشمسية هو شبه مظلة كانت تصنع بشكل مخصوص وتزين بالجواهر النفيسة بما لا يقدر بثمن ، وتوضع في وجه الكعبة أي : في أعلا بابها تعظيماً وتجميلاً لمنظرها كما سنوضح ذلك فيما يأتي . وهل المراد بالشمسية التي كانت

توضع في وجه الكعبة ما نسميه اليوم ببرقع باب الكعبة أي الستارة المخصوصة الجميلة التي توضع على بابها أم لا ؟ الله أعلم بذلك . وإليك ما جاء عن الشمسية :

جاء في كتاب "المحمل والحج" ما نصه : وجاء في كتاب "إتعاظ الحنفاء" للمقريزي بعد أن تكلم على الشمسية التي نصبها المعز في يوم عرفة سنة (٣٦٢) اثنتين وستين وثلاثمائة ما نصه : أول من عمل الشمسية للكعبة أمير المؤمنين "جعفر المتوكل على الله" فبعث بسلسلة من ذهب كانت تعلق مع الياقوتة التي بعثها المأمون وصارت تعلق كل سنة في وجه الكعبة ، وكان يؤتى بالسلسلة في كل موسم وفيها شمسية مكللة بالدر والياقوت والجوهر قيمتها شيء كثير ، فيتقدم بها قائد يبعث به من العراق فتدفع إلى حجبة الكعبة ويشهد عليهم بقيدها فيعلقونها يوم سادس الثمان فتكون على الكعبة ثم تنزع يوم التروية . اهـ . ص٩٣ . انتهى من كتاب المحمل .

وقد ذكر مؤلف هذا الكتاب جميع الشمسيات التي أهديت إلى الكعبة المعظمة عند الكلام على هدايا الكعبة نلخص من كلامه ما يفي بالغرض التام في هذا الباب ، وإننا نعتمد كثيراً على مؤلف الكتاب المذكور أستاذنا يوسف أحمد رحمه الله تعالى لأنه من كبار الأساتذة المصريين وكان مفتشاً للآثار العربية وهو الذي أحيا الخط الكوفي في مصر ، فقد كان يدرسه بكلية الآداب بالجامعة المصرية ويدرسه بمدرسة تحسين الخطوط العربية الملكية بالقاهرة فهو لذلك أكثر الناس تحقيقاً لمثل هذه الأمور .

وها نحن نلخص من كتابه المذكور ما يملأ هذا الباب وهو :

بعث عبدالملك بن مروان للكعبة المشرفة بشمسيتين وقد حين من زجاج .

وبعث جعفر المتوكل على الله بشمسية من ذهب مكللة بالدر الفاخر والياقوت الرفيع والزبرجد تعلق بسلسلة من الذهب في وجه البيت كل موسم .

ومما أهدي إلى الكعبة طوق من ذهب مكلل بالزمرد والياقوت مع ياقوتة كبيرة خضراء زنتها ٢٤ مثقالاً ، أرسله بعض ملوك السند لما أسلم في سنة ٢٥٩ هجرية فعرض أمره على "المعتمد على الله" فأمر بتعليقه في البيت الشريف .

وفي سنة ٢٩٤ أرسل الخليفة "المعتمد" إلى الكعبة بهدايا وفي جملتها شمسية جعل فيها جواهر نفيسة فما أن وصلت القافلة التي تحمل الخزائن والأموال وشمسية الخليفة إلى "فيد" بليدة في منتصف طريق مكة من الكوفة حتى لاقاهم "زكروية القرمطي" فقاتلهم وانتصر عليهم ، ولم ينج منهم إلا اليسير ، وأخذ حريمهم وأموالهم فندب "المكتفي" لقتاله القائد "وصيفا" وانتهى الأمر بالانتصار عليه وأسره .

وقال ابن زولاق ما ملخصه : وصل المعز لدين الله إلى قصره بمصر في رمضان من سنة ٣٦٢ ، وبعدما استقر وقابل الأعيان ، وقبل هداياهم ، نصب في يوم عرفة الشمسية التي عملها للكعبة على إيوان قصره وسعتها ١٢ شبراً في ١٢ شبراً ، وأرضها ديباج أحمر ، ودورها ١٢ هلال ذهب ، في كل هلال أترجة ذهب مسبك جوف كل أترجة ٥٠ درة كبار كبيض الحمام ، وفيها الياقوت الأحمر والأصفر والأزرق ، وفي دورها كتابة آيات الحج بزمرد أخضر قد فسر ، وحشو الكتابة در كبير لم ير مثله ، وحشو الشمسية المسك المسحوق يراها الناس في القصر ومن خارج القصر لعلو موضعها .

وقال في كتاب "الذخائر والتحف" : وقد أدخل من الذهب في هذه الشمسية الكبيرة ٣٠ ألف مثقال ذهباً ، و٢٠ ألف درهم مخرقة و٣٦٠٠ قطعة جوهر من سائر ألوانه وأنواعه . اهـ ٣٨٥ مقريزي .

وجاء في كتاب "الفاطميون في مصر" تحت عنوان "الكسوة التي عملها المعز للكعبة" ما نصه :

ويتبين لنا مدى ثروة مصر في ذلك الوقت من وصف الكسوة التي أمر "المعز" بعملها للكعبة ، كما يبين لنا هذا أيضاً كيف نافست مصر بغداد ، بل كيف تفوقت عليها وعلى غيرها من المراكز الإسلامية . ففي يوم عرفة أمر المعز بنصب الكسوة التي اتخذها للكعبة على الإيوان الذي جعله لعقد الجلسات الرسمية .

وكانت هذه الكسوة مربعة الشكل من ديباج أحمر ، وسعتها ١٤٤ شبراً ، وكانت في حافاتها ١٢ هلالاً ذهبياً في كل هلال أترجة ذهبية ، وفي داخل كل منها ٥٠ درة تشبه بيض الحمام في الكبر ، كما كان فيها الياقوت الأحمر والأصفر والأزرق .

وقد نقش في حافاتها الآيات التي وردت في الحج بحروف الزمرد الأخضر وزينت هذه الكتابة بالجواهر الثمينة . وكانت هذه الكسوة معطرة بمسحوق المسك ، وكانت موضوعة في القصر بحيث يراها جميع الناس من داخل القصر أو خارجه .

وقد قال حضرة الأستاذ المؤلف ما ملخصه : إن هذه الشمسية هي كسوة الكعبة ، وأنها مربعة الشكل وسعتها ١٤٤ شبراً ، وأن لفظة "شمسية" التي استعملها المقريزي يريد بها طبعاً الستور التي كانت تكسى الكعبة بها .

وقال نقلاً عن "كترمير" أن لفظة "شمسية" تطلق على نافذة مربعة في أعلى الحوائط ، كما قال "ابن بطوطة" في رحلته عن جامع دمشق ، وكما جاء في نفح الطيب عن جامع قرطبة ، وعن جامع مراكش .

فإذا علم الإنسان أن مقاس أضلاع الكعبة التي تكسى بالديباج هي ٩/٩٢م عن الضلع الشمالي ، و٢٥ و١٠م عن الضلع الجنوبي ، و١١/٨٨م عن الضلع الشرقي الذي فيه الباب ، و١٥ و١٢م عن الضلع الغربي ، كما هو وارد في صفحة ٧٩ من كتابنا هذا ، ومجموع أطوالها هو ٢٠ و ٤٤ متراً .

وإذا راجع ما كتبه المقريزي من أن سعة الشمسية ١٢ شبراً في ١٢ شبراً ومقاس الشبر هو ٢٣ ر.س.م تقريباً فتكون ١٢ شبراً تساوي ٢/٧٦م مع أن الكسوة لا بد وأن يكون مجموع طولها ٤٤/٢٠م .

وإذا أنعمنا النظر فيما قاله المقريزي أيضاً من أن بدورها ١٢ هلالاً ذهباً وفي دورها كتابة آيات قرآنية ، نجد أن هذه الشمسية مستديرة ، أي نصف كرة كما هي الحال في الشمسيات الموجودة الآن بين ظهرانينا ، وهي المظلة .

أما كون الشمسية هي ما يوضع في نافذة ، كما ورد عن جامعي قرطبة ومراكش ، فغير معقول أن يكون الشباك مكلل بالذهب والجواهر ، ويكون منسوجاً من الحرير!

على أن ما ورد في نفح الطيب يفهم منه أن الشمسية مكورة كرمانة وهذا نصه : " . . . وذكر أن صومعة قرطبة . . . وفي أعلى ذروتها "أي الصومعة" ثلاث شمسيات ، ويسمونها "رمانة" ملصقة في السفود البارز في أعلاها من النحاس الثنتان منها ذهب إبريز ، والثالثة وسطى بينهما من فضة إكسير ، وفوقها سوسنة

من ذهب مسدسة فوقها رمانة ذهب صغيرة في طرف الزج البارز بأعلى الجو . . ." وفيه (أي في جامع مراكش) من شمسيات الزجاج ودرجات المنبر والمقصورة ما لو عمل في السنين العديدة لاستغرب تمامه .

وقد سبق أن قلنا أن (المتوكل على الله) أرسل بشمسية من ذهب مكللة بالدر والياقوت والزبرجد ، تعلق بسلسلة من الذهب في وجه البيت في كل موسم .

وكذلك أرسل الخليفة (المعتضد) في سنة ٢٩٤ إلى الكعبة شمسية تحوي جوهراً نفيساً .

ثم ذكر صاحب كتاب "المحمل والحج" ما جاء في كتاب "إتعاظ الحنفاء للمقريزي" ما نصه :

وقال أيضاً : وغدا المعز لصلاة عيد النحر في عساكره وانصرف في زيه فلما وصل إلى القصر أذن للناس عليه فدخلوا والشمسية منصوبة على حالها فلم يبق أحد حتى دخل من أهل مصر والشام والعراق ، فذكر أهل العراق وأهل خراسان ومن يواصل الحج أنهم لم يروا قط مثل هذه الشمسية . وذكر أصحاب الجوهر ووجوه التجار أنه لا يثمن ما فيها ، وأن شمسية بني العباس كان أكثرها مصنوعاً وشبها وأن مساحتها مثل ربع هذه .

وكذلك كانت شمسية "كافور" التي عملها لمولاه "أونوجور" ابن الإخشيد وكان يسير بها إلى الحرم .

هذا ولقد علق أستاذنا الكبير يوسف أحمد مؤلف كتاب "المحمل والحج" رحمه الله تعالى على ما جاء في كتاب "الفاطميون في مصر" تحت عنوان الكسوة التي عملها المعز للكعبة ، هامش كتابه المحمل والحج بما نصه :

اللفظ الذي استعمله المقريزي هنا هو "شمسية" ويريد به طبعاً الستور التي كانت تكسى بها الكعبة . وقد تناول "كترمير" الكلام على اشتقاق هذا اللفظ في المجلد الثاني من تاريخ "المماليك في مصر" الذي عربه ، كذا عن المقريزي ويعرف باسم كتاب "السلوك في معرفة دول الملوك" وتبعاً لما ذكره "كترمير" نجد هذا اللفظ "شمسية" مستعملاً فيما يأتي :

(١) نافذة مربعة في أعلا الحوائط ، تترك مفتوحة عادة ، أو تزين بزجاج حسبما يشاء المرء من مرور الهواء أو الضوء فقط "رحلة ابن بطوطة طبع وترجمة

ديفريمري وسانجيتني" باريس سنة ١٩١٤ ج١ ص١٩٩ وفي هذه الرحلة يقول ابن بطوطة في وصفه لجامع دمشق أن به ٧٤ من شمسيات الزجاج . وجاء ذكر شمسيات الزجاج في عبارة "المقري" عن جامع قرطبة في كتابه "نفح الطيب" ج١ ص٢٩٣ وعند كلامه على المسجد الجامع بمراكش ورد في نفس هذا الجزء ص٢٦٧ ما يأتي :

وفي أعلاه ثلاثة شمسيات تسمى رمانات وفي كتاب هست المسمى مراكش وفاس صحيفة ٢٦٥ جاء لفظ شمسية ويراد بها النافذة .

(٢) مظلة : فقد جاء في تاريخ ابن خلدون أن الخليفة خرج من خيمته وعليه الشمسية ، وهنا أقول أن "كترمير" استعمل في هذا الموضوع لفظ PARASOL ومعنى هذا المظلة الخاصة بالسيدات ، وكان أفضل استعمال لفظ AMBRELLA الدال على المظلات التي يستعملها الرجال لأنها أكبر وأصلح لاستعمال الخليفة .

(٣) الكسوة أو الستور ، فقد جاء ذلك في المقريزي في خططه "نقلاً عن ابن ميسر في تاريخ مصر ص٤٤" وعن الأول أخذ "كترمير" فإننا نجد في المقريزي أن المعز أمر بنصب الشمسية ، يراد بها هنا كما قدمنا الكسوة التي معناها الستر التي عملها للكعبة على إيوان القصر . انظر ترجمة "كترمير" لكتاب السلوك للمقريزي المجلد الثاني الجزء الأول ص٢٨٠ و٢٨١ . اهـ من التعليقات .

انتهى ما نقلناه من كتاب "المحمل والحج" .

هدايا الكعبة ومعاليقها وأموالها

تكلمنا عن بناء سيدنا إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام للكعبة وأنه حفر في باطنها حفرة عمقها ثلاثة أذرع على يمين من دخلها ، وهذه الحفرة هي بمثابة الخزانة لها ليلقى فيها ما يهدى إليها من حلي أو ذهب أو فضة أو طيب أو غير ذلك ، وتسمى هذه الحفرة "بالجب" وكانت تسميه جرهم "البئر الأخسف" وقد تكلمنا على سبب هذه التسمية عند الكلام على جب الكعبة ، وتسمى أيضاً "بالغبغب" .

ولم نر في التاريخ عن أول رجل أهدى للكعبة ووضع هديته في هذا الجب بعد بناء إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام، ولكنهم ذكروا أنه كان فيه مال على عهد جرهم.

جاء في تاريخ الكعبة نقلاً عن مروج الذهب في أخبار الفرس ما يأتي: "وكانت الفرس تهدي إلى الكعبة أموالاً في صدر الزمان وجواهر، وقد كان ساسان بن بابك أهدى غزالين من ذهب وجواهر وسيوفاً وذهباً كثيراً فدفن في زمزم". اهـ.

نقول: يجوز أن يكون هذان الغزالان والسيوف هي التي أخرجها من بئر زمزم عبدالمطلب بن هاشم لما أمر بحفرها، ويجوز أن يكون الغزالان والسيوف هي التي دفنتها جرهم حين خرجت من مكة والله تعالى أعلم، فإن عبد المطلب لما حفر بئر زمزم وجد فيها غزالين من ذهب، كما وجد فيها أسيافا قلعية ودروعاً وسلاحاً، فضرب عبدالمطلب الأسياف على باب الكعبة وضرب فوقه أحد الغزالين من الذهب.

ذكر صاحب تاريخ الخميس: أن الغزالين اللذين هما من الذهب، واللذين وجدهما عبدالمطلب في بئر زمزم حين حفرها فعلقهما بالكعبة قد سرقتهما من الكعبة جماعة من قريش، وذلك أنهم كانوا في ليلة من الليالي يشربون الخمر وفيهم أبو لهب ومعهم القيان ولما فنيت أسباب طربهم عمدوا إلى باب الكعبة وسرقوا الغزالين وباعوهما من تجار قدموا مكة بالخمر وغيرها واشتروا بثمنهما جميع ما في العير من الخمر بالمرة واشتغلوا بالطرب واللهو شهراً ولم يدر من سرق حتى مر العباس بن عبدالمطلب في ليلة من الليالي بباب الدار التي تلك الجماعة فيها فسمع القيان يغنين بقصة سرقة الغزالين من باب الكعبة وبيعهما من أهل القافلة وأخبر بها العباس قريشاً فأخذوهم وضربوهم وقطعوا أيدي بعضهم ثم إن عبدالمطلب أقام سقاية زمزم للحاج. انتهى من تاريخ الخميس.

وجاء في تاريخ الكعبة أيضاً نقلاً عن الفاسي: أن كلاب بن مرة بن كعب ابن لؤي القرشي أول من جعل في الكعبة السيوف المحلاة بالذهب والفضة ذخيرة للكعبة. اهـ.

وجاء في تاريخ الأزرقي "أن النبي ﷺ وجد في الجب الذي كان في الكعبة سبعين ألف أوقية من ذهب مما كان يهدى إلى البيت وأن علي بن أبي طالب كرم

الله وجهه قال: يا رسول الله لو استعنت بهذا المال على حربك فلم يحركه ثم ذكر لأبي بكر فلم يحركه".

وجاء في تاريخ الأزرقي عن الحسن أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: لقد هممت أن لا أدع في الكعبة صفراء ولا بيضاء إلا قسمتها فقال له أمير من كعب: والله ما ذلك لك فقال عمر: لم؟ فقال: إن الله عز وجل قد بين موضع كل شيء وأقره رسول الله ﷺ فقال عمر: صدقت. وجاء فيه أيضاً عن شقيق بن سلمة قال: جلست إلى شيبة بن عثمان في المسجد الحرام فقال: جلس إليَّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه بمجلسك هذا فقال: لقد هممت أن لا أترك فيها صفراء ولا بيضاء إلا قسمتها يعني الكعبة قال شيبة فقلت له: إنه قد كان لك صاحبان لم يفعلاه رسول الله ﷺ وأبو بكر رضي الله عنه فقال عمر: هما المرءان أقتدي بهما.

وجاء في تاريخ الأزرقي أيضاً عن بعض الحجبة أنه قال في سنة ثمان وثمانين ومائة أن ذلك المال بعينه كان في خزانة الكعبة ثم لا أدري ما حاله بعد، وجاء فيه أيضاً عن مشيخة أهل مكة وبعض الحجبة أن الحسين بن الحسن العلوي عمد إلى خزانة الكعبة في سنة مائتين في الفتنة حين أخذ الطالبيون مكة فأخذ مما فيها مالاً عظيماً وانتقله إليه وقال: ما تصنع الكعبة بهذا المال موضوعاً لا ينتفع به نحن أحق به نستعين به على حربنا.

وجاء فيه أيضاً عن مسافع بن عبدالرحمن الحجبي قال: لما بويع بمكة لمحمد بن جعفر بن محمد بن علي بن حسين بن علي ابن أبي طالب رضي الله عنهم في الفتنة في سنة مائتين حين ظهرت المبيضة بمكة "وهم أصحاب المقنع سموا بذلك لتبييضهم ثيابهم" أرسل إلى الحجبة فتسلف منهم من مال الكعبة خمسة آلاف دينار وقال: نستعين بها على أمرنا فإذا أفاء الله علينا رددناها في مال الكعبة فدفعوا إليه وكتبوا عليه بذلك كتاباً وأشهدوا فيه شهوداً فلما خلع نفسه ورفع إلى أمير المؤمنين المأمون تقدم الحجبة واستعدوا عليه عند أمير المؤمنين فقضاهم أمير المؤمنين عن محمد بن جعفر خمسة آلاف دينار وكتب لهم بها إلى إسحاق بن عباس بن عباد ابن محمد وهو وال على اليمن فقبضتها الحجبة وردوها في خزانة الكعبة. اهـ.

أما ما علق في الكعبة وما أهدي إليها من غير النقدين فكما يأتي:

(١) قرنا الكبش الذي فدى به إسماعيل والذي ذبحه أبوه إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام . فقد جاء في تاريخ الأزرقي عن صفية بنت شيبة أن امرأة من بني سليم ولدت عامتهم قالت لعثمان بن طلحة : لم دعاك النبي ﷺ بعد خروجه من البيت ؟ قال : قال لي : إني رأيت قرني الكبش في البيت فنسيت أن آمرك أن تخمرهما فإنه لا ينبغي أن يكون في البيت شيء يشغل مصلياً . قال عثمان : وهو الكبش الذي فدى به إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام . وجاء فيه أيضاً عن عمرو بن قيس أنه كان يقول : كان قرنا الكبش في الكعبة فلما هدمها ابن الزبير وكشفها وجدوهما في جدار الكعبة مطليين بمشق قال : فتناولهما فلما مسهما همدتا من الأيدي .

(٢) صحيفة قريش التي علقوها في الكعبة في محرم عام سبع من النبوة ، وهي الصحيفة التي كتبوا فيها يتعاقدون على بني هاشم وبني المطلب أن لا ينكحوا إليهم ولا ينكحوهم ولا يبيعوا منهم شيئاً ولا يتبايعوا منهم . . .الخ حينما جمع أبو طالب بني هاشم وبني المطلب فأدخلوا رسول الله ﷺ شعبهم ومنعوا قريشاً من قتله ، كما هو مذكور في كتب السير .

(٣) هلالان بعثهما عمر بن الخطاب رضي الله عنه بعث بهما إليه من مدائن كسرى حينما فتحها . كما في تاريخ الأزرقي .

(٤) الصحيفة الخضراء التي بعثها السفاح فعلقت في الكعبة كما في تاريخ الغازي .

(٥) الياقوتة التي بعثها المأمون التي كانت تعلق في كل موسم بسلسلة من الذهب في وجه الكعبة ، كما في تاريخ الغازي .

(٦) طوق من ذهب مكلل بالزمرد والياقوت مع ياقوتة خضراء أرسلها ملك السند لما أسلم وذلك سنة تسع وخمسين ومائتين وعرض ذلك على المعتمد على الله فأمر بتعليقهما في البيت الشريف فعلقتا ، كما ذكره الغازي نقلاً عن الفاكهي .

(٧) القصبة الفضية التي فيها بيعة جعفر أمير المؤمنين المعتمد على الله ، وبيعة أبي أحمد الموفق بالله ابن أخي المعتمد على الله ، قدم لها الفضل بن عباس في موسم سنة إحدى وستين ومائتين وكان وزن الفضة ثلاثمائة وستين درهما وعليها

خارجاً من ذلك ثلاثة أزارير بثلاث سلاسل من فضة فعلقت القصبة مع معاليق الكعبة ، ذكره الغازي نقلاً عن الإعلام .

(٨) الشمستين والقدحين من قوارير بعثها عبدالملك بن مروان وضرب على الأسطوانة الوسطى الذهب من أسفلها إلى أعلاها صفائح ، ذكره الغازي عن الأزرقي .

(٩) السرير الزينبي وهلالين بعث ذلك الوليد بن يزيد وكتب عليها اسمه . ذكره الغازي عن الأزرقي .

(١٠) القارورة الفرعونية التي بعثها أبو جعفر . ذكره الغازي عن الأزرقي .

(١١) الصنم الذي من الذهب الذي بعثه ملك من ملوك التبت ، وصفة هذا الصنم أنه من ذهب في صورة إنسان على رأسه تاج من الذهب مكلل بخرز الجوهر والياقوت الأحمر والأخضر والزبرجد وكان على سرير من فضة فرشه الديباج وعلى أطرافه أزرار من ذهب وفضة مرخاة في وجه السرير . فلما أسلم ذلك الملك أهدى السرير والصنم إلى الكعبة فبعث به إلى أمير المؤمنين عبدالله المأمون هدية للكعبة والمأمون يومئذ بمرو من خراسان فبعث به المأمون إلى الحسن بن سهل بواسط وأمره أن يبعث به إلى الكعبة فبعث به إلى نصير بن إبراهيم الأعجمي رجل من أهل بلخ من القواد فقدم به مكة في سنة إحدى ومائتين فلما حج الناس وصدروا من منى نصب نصير السرير وما عليه من الفرشة والصنم في وسط رحبة عمر بن الخطاب بين الصفا والمروة فمكث ثلاثة أيام منصوباً ومعهم لوح من فضة مكتوب فيه : "بسم الله الرحمن الرحيم هذا سرير فلان بن فلان ملك التبت أسلم وبعث بهذا السرير هدية إلى الكعبة فاحمدوا الله الذي هداه للإسلام" ثم دفعه إلى الحجبة وأشهد عليهم بقبضته فجعلوه في خزانة الكعبة في دار شيبة بن عثمان فلما حارب يزيد بن محمد بن حنظلة المخزومي والي مكة إبراهيم بن موسى أرسل إلى الحجبة فأخذ السرير وما عليه منهم فاستعان به على حربه وضربه دنانير ودراهم وقال : أمير المؤمنين يخلفه لها وذلك سنة اثنتين ومائتين وبقي التاج واللوح في الكعبة إلى اليوم أي في عصر الأزرقي . انتهى بالاختصار من تاريخ الغازي المنقول من الأزرقي .

(١٢) القصبتان اللتان علقهما في الكعبة هارون الرشيد في سنة (١٨٦) ست وثمانين ومائة وفيهما بيعة ابنيه محمد وعبدالله وما عقد لهما وما أخذ لهما وعليهما من العهود ، مما هو مذكور بالتفصيل في كتب التاريخ .

(١٣) الشمسة التي بعثها أمير المؤمنين جعفر وهي عملت من الذهب المكلل بالدر الفاخر والياقوت الرفيع والزبرجد بسلسلة من ذهب تعلق في وجه الكعبة في كل موسم . كما ذكر في تاريخ الكعبة .

(١٤) القناديل التي بعثها المطيع العباسي كلها فضة خلا قنديلاً منها فإنه كان ذهباً زنته ستمائة مثقال وذلك سنة (٣٥٩) تسع وخمسين وثلاثمائة . ذكره الغازي نقلاً عن الفاسي .

(١٥) القناديل الذهبية والفضية التي بعثها المنصور صاحب اليمن وذلك سنة (٣٦٢) اثنين وستين وثلاثمائة . ذكره مؤلف كتاب المحمل والحج .

(١٦) القناديل والمحاريب التي أهداها إلى الكعبة صاحب عمان زنة كل محراب أكثر من قنطار وقناديل في نهاية الأحكام ، وسمرت المحاريب في الكعبة مما يلي بابها . ذكره المرحوم الشيخ باسلامة في كتابه تاريخ الكعبة ، وذلك سنة (٤٢٠) .

(١٧) القناديل الأربعة من الذهب وزنها عشرة أرطال بثمانية عشر ألف دينار أهداها إلى الكعبة وكساها رجل من التجار يقال له : ابن إمشت الفارسي وذلك سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة كما ذكره صاحب تاريخ الخميس ، ونظن ابن أمشت هو الذي يقال له رامشت فربما سقطت حرف الراء من المطبعة في تاريخ الخميس عند الطبع .

(١٨) القناديل الذهب والفضة التي أهداها الملك المنصور عمر بن علي بن رسول صاحب اليمن في سنة (٦٣٢) اثنين وثلاثين وستمائة . كما هو مذكور في تاريخ الكعبة .

(١٩) الحلقتان اللتان أهداهما الوزير علي شاه وزير السلطان أبي سعيد بن خدابنده ملك التتر وذلك سنة (٧١٨) ثمان عشرة وسبعمائة ، والحلقتان المذكورتان من الذهب مرصعتان باللؤلؤ والبلخش كل حلقة زنتها ألف مثقال في كل حلقة ست لؤلؤات فاخرات بينهما ست قطع بلخش فاخر فعلقتا على باب

الكعبة زمناً قليلاً ثـم رفعتا وأخذهمـا رميثة بـن أبـي نمـي ، كمـا ذكـر في تـاريخ الكعبة .

قال في كتاب المحمل والحج : البلخش من توابع الياقوت في القيمة وهـو دونـه في الشرف وأنواعه ثلاثة أحمر ويسمى المعقرب وأخضر زبرجـدي وأصفـر ورسـي والأحمر هو أجودها ، ويوجد البلخش في جزيرة سيلان . راجع نخبة الدهـر لشيـخ الربوة ، وفي فريدة العجائب أنه حجر صلـب شـفاف كاليـاقوت في جميـع أحوالـه ومنافعه . انتهى من الكتاب المذكور .

(٢٠) القناديل الكبار التي أرسلها السلطان شيخ أويس بغـداد وذلـك في سـنة (٧٧٠) سبعين وسبعمائة فعلقت في الكعبة زمناً يسيراً ثم أخذها أمير مكة عجلان بن رميثة ، وعدد هذه القناديل أربعة ، اثنان منها من الذهب واثنان من الفضة . مـا جاء في تاريخ الكعبة .

(٢١) المصباحـان الذهبيـان اللـذان أهداهمـا السـلطان سـليمان القـانوني سـنة (٩٨٤) أربع وثمانين وتسعمائة ، وهما مصباحان ذهبيان مرصعان بالجوهر معلقـان بسقف الكعبة . ذكره محمد لبيب البتنوني في الرحلـة الحجازيـة وقـال : إنـه معلـق بسقف البيت كثير ممـا بقـي مـن الذخـائر الـتي أهديـت إليـه . انتهـى مـن الكتـاب المذكور .

نقول : ذكر صاحب الرحلة الحجازية المذكور أن السلطان سليمان القـانوني أهدى المصباحين المذكورين في سنة ٩٨٤ وهذا التاريخ غلط لأن السلطان سليمان المذكور توفي سنة (٩٧٣) ثلاث وسبعين وتسعمائة فالمعقول أن يكون الإهداء قبل وفاته من هذه السنة مع العلم أن مدة سلطنته ثمانية وأربعون سنة .

ونقول أن الأستاذ محمد لبيب المذكور هو مؤلف الرحلة الحجازيـة وقـد حـج بمعية سلطان مصـر الخديوي عبـاس باشـا حلمـي سـنة (١٣٢٧) سـبعة وعشـرين وثلاثمائة وألف ، وحيث إنه كان بصحبة سلطان مصر المذكور وكان عازمـاً علـى تأليف كتاب في هذه الرحلة فقد تيسر له الوقوف علـى كثـير مـن الأمـور فلذلـك رأى بنفسه المصبـاحين المذكوريـن ونعتقـد أنهمـا لا يـزالان معلقـين في الكعبـة إلى اليوم ، حيث لم يمض عليهما زمن بعيد .

(٢٢) القناديل التي أرسلها السلطان مراد سنة (٩٨٤) أربع وثمانين وتسـعمائة وعددها ثلاثة قناديل من ذهب مرصعة بالجواهر لتعلق اثنان منها في سـقف الكعبـة

والثالث في الحجرة النبوية تجاه الوجه الشريف ، والسلطان مراد هو أول من علق قناديل الذهب في الحرمين الشريفين من آل عثمان . ذكره الغازي نقلاً عن القطبي في كتاب الإعلام .

نقول : السلطان مراد المذكور هو مراد الثالث بن السلطان سليم خان جلس على تخت الملك سنة (٩٨٢) وتوفي سنة (١٠٠٣) رحمه الله تعالى .

(٢٣) القناديل التي أرسلتها ملكة بندر آشي سنة (١٠٩٤) أربع وتسعين وألف ، وعددها خمسة قناديل من الذهب علقت في الكعبة وذلك في إمارة الشريف سعيد بن بركات . ذكره الغازي نقلاً عن الطبري في الإتحاف .

ومن الهدايا القيمة الغريبة ، ما جاء في كتاب "المحمل والحج" ما نصه :

(٢٤) وقال ابن زولاق ما ملخصه : وصل المعز لدين الله تعالى إلى قصره بمصر في رمضان من سنة (٣٦٢) اثنين وستين وثلاثمائة هجرية ، وبعدما استقر وقابل الأعيان وقبل هداياهم نصب في يوم عرفة الشمسية التي عملها للكعبة على أبواب قصره ، وسعتها ١٢ شبراً في ١٢ شبراً ، وأرضها ديباج أحمر ، ودورها ١٢ هلال ذهب ، في كل هلال أترجة ذهب مسبك ، جوف كل أترجة ٥٠ درة كباراً كبيض الحمام ، وفيها الياقوت الأحمر والأصفر والأزرق وفي دورها كتابة آيات الحج بزمرد أخضر قد فسر ، وحشو الكتابة در كبير لم ير مثله وحشو الشمسية المسك المسحوق يراها الناس في القصر ومن خارج القصر لعلو موضعها. اهـ . وقد ذكر صاحب الكتاب المذكور نقلاً عن كتاب الذخائر والتحف : أنه أدخل في هذه الشمسية ثلاثون ألف مثقال ذهباً وعشرون ألف درهم مخرقة ، وثلاثة آلاف وستمائة قطعة جوهر من سائر ألوانه وأنواعه . اهـ . وذكر أيضاً نقلاً عن كتاب إتعاظ الحنفاء للمقريزي : أن المعز غدا لصلاة عيد النحر في عساكره وانصرف في زيه ، فلما وصل إلى القصر أذن للناس عامة ، فدخلوا والشمسية منصوبة على حالها ، فلم يبق أحد حتى دخل من أهل مصر والشام والعراق ، فذكر أهل العراق وأهل خراسان ومن يواصل الحج أنهم لم يروا قط مثل هذه الشمسية وذكر أصحاب الجواهر ، ووجوه التجار : أنه لا يثمن ما فيها . انتهى .

(٢٥) وقد قال المقريزي في كتابه "إتعاظ الحنفاء" ما يأتي :

إن أول من عمل الشمسية للكعبة أمير المؤمنين جعفر المتوكل على الله ، فبعث بسلسلة من ذهب كانت تعلق مع الياقوتة التي بعثها المأمون وصارت تعلق

كل سنة في وجه الكعبة ، وكان يؤتى بالسلسلة في كل موسم وفيها شمسية مكللة بالدر والياقوت والجوهر قيمتها شيء كثير ، فيتقدم بها قائد يبعث به من العراق ، فتوضع إلى حجبة الكعبة ويشهد عليهم بقيدها فيعلقونها يوم سادس الثمان فتكون على الكعبة ثم تنزع يوم التروية . اهـ من كتاب "المحمل والحج" .

والمراد بالشمسية المذكورة ستارة من الديباج الأحمر مربعة الشكل مساحتها ١٤٤ شبراً حسب الوصف المذكور ، تعلق على باب الكعبة . وقد ذكر صاحب كتاب المحمل والحج للشمسية ثلاث معان :

(١) تطلق على النافذة المربعة في أعلى الحائط .

(٢) تطلق على المظلة التي نستعملها في عصرنا للوقاية من الشمس والمطر .

(٣) تطلق على الكسوة أو الستور ، وقد استشهد بما يدل على كل ذلك في كتابه .

وذكر فيه أيضاً : أن جعفراً المتوكل على الله بعث بشمسية من ذهب مكللة بالدر الفاخر ، والياقوت الرفيع والزبرجد ، تعلق بسلسلة من الذهب في وجه البيت كل موسم . انتهى من كتاب المحمل والحج .

يقول الشيخ حسين باسلامة رحمه الله تعالى في كتابه تاريخ الكعبة : ويوجد الآن معاليق كثيرة في سقف الكعبة غير أني لا أعلم عن حقيقتها هل هي معمولة من ذهب أو فضة أو نحاس ، كما أن آل الشيبي سدنة الكعبة المعظمة لا يعلمون بالضبط عن حقيقتها لقدم عهد تعليقها ولعدم تعهدهم لها بالتمسيح والتنظيف أجيالاً وربما أنها من عهد بناء الكعبة الأخير إلى الآن لم تنقل من موضعها "ويقصد بالبناء الأخير الذي كان في سنة (١٠٤٠) قال : ولذلك تعذر علي أن أصفها وصفاً صحيحاً والله أعلم بحقيقتها" . اهـ .

ونحن نقول أيضاً أننا دخلنا البيت الحرام مراراً ولكن لم نتحقق فيما هو معلق بسقفه حيث دخلناه للصلاة فيه وما كان يخطر ببالنا إذ ذاك أننا نؤلف عنه هذا الكتاب .

انظر: صورة رقم ٩٦، معاليق الكعبة

ما علق من الصحائف في الكعبة

كان معلقاً في جوف الكعبة المعظمة سبعة أنواع من الصحائف وهي :

(١) المعلقات السبع .

(٢) صحيفة قريش .

(٣) عهد الأمين وعهد المأمون .

(٤) عهد المعتمد لولديه .

(٥) شكوى الخليفة العباسي أبي جعفر عبدا لله ابن الإمام القادر با لله يشكو إلى ا لله تعالى أرسلان الفساسيري . وإليك تفصيل كل ذلك :

ذكر أستاذنا المرحوم يوسف أحمد مؤلف كتاب "المحمل والحج" ومفتش الآثار العربية ومحيي الخط الكوفي بجميع أنواعه بمصر ، في كتابه المذكور عن الصحائف التي علقت في الكعبة المشرفة ما نصه :

المعلقات قصائد اختارها العرب من شعر فحولهم وذهبوها على الحرير ، وناطوها بأستار الكعبة تشريفاً لها ، وتعظيماً لمقامها ، واعترافاً بمتانة ألفاظها وحسن سبك معانيها ، حتى أصبحت العرب تترنم بها في نواديها ، وتفخر بها في حاضرها وباديها .

وقد اختلف المؤرخون في وجه تسميتها بالمعلقات ، فقال "ابن عبد ربه" صاحب العقد "الوابن رشيق" صاحب العمدة و "ابن خلدون" صاحب التاريخ ، وكثير سواهم ، ممن نقل عن الصدر الأول من نقله الأخبار : أن العرب قد بلغ من تعظيمهم إياها أن علقوها بأستار الكعبة فسميت بالمعلقات . وقيل : إن وجه التسمية بذلك لعلوقها بأذهان صغارهم قبل كبارهم ومرؤوسيهم قبل رؤسائهم عناية بحفظها والاحتفاظ بها . وقد أنكر الأول "أبو جعفر النحاس" وأكبر أمر تعليقها بأستار الكعبة وكما اختلفوا في وجه التسمية اختلفوا في عدد أصحابها ، فمنهم من يجعلها سبعاً ، ومنهم من يجعلها ثماني ، ومن يزيدها إلى عشر . وأصحابها جميعاً هم :

١) امرؤ القيس بن حجر بن الحارث بن عمرو بن حجر ، مات سنة ٨٠ قبل الهجرة و ٥٦٥ للمسيح .

٢) طرفة بن العبد بن سفيان بن سعد بن مالك ، مات سنة (٧٠) قبل الهجرة و٥٥٠ أو ٥٥٢ للمسيح .
٣) زهير بن أبي سلمى ربيعة بن رباح المزني ، مات سنة ١٤ قبل الهجرة و ٦٠٨ للمسيح .
٤) عمرو بن كلثوم بن مالك بن عتاب ، مات سنة ٥٢ قبل الهجرة و ٥٧٠ للمسيح .
٥) لبيد بن ربيعة بن عامر بن مالك ، مات سنة ٤٠ قبل الهجرة و ٦٦٠ للمسيح .
٦) عنترة بن شداد وقيل أنه عمرو بن شداد ، وقيل عنترة بن شداد بن عمرو ، مات سنة ٢٢ قبل الهجرة و ٦٠٠ للمسيح .
٧) الحارث بن حلزة بن مكروه بن يزيد بن عبدا لله ، مات سنة ٥٢ قبل الهجرة و٥٧٠ للمسيح .
٨) الأعشى ميمون بن قيس بن جندل ، مات سنة ٧ للهجرة و ٦٢٩ للمسيح .
٩) النابغة الذبياني زياد بن معاوية بن ضباب بن جناب بن يربوع ، مات سنة ١٨ قبل الهجرة و ٦٠٤ للمسيح .
١٠) عبيد بن الأبرص بن عوف بن جشم . مات سنة ٥٦٥ وقيل سنة ٦٠٥ للمسيح .

ومن يجعلها ثماني ، يضيف إلى أصحابها ، بعد السبعة الأولين النابغة ومن يقول أنها عشر ، يضيف إليهم "الأعشى وعبيد" وعلى ذلك مشى أبو زكريا التبريزي في كتابه "القصائد العشر الطوال" . انتهى من كتاب المحمل والحج .

ومما علق في الكعبة صحيفة قريش التي كتبوها لمقاطعة بني هاشم وبني المطلب ، فقد جاء في تاريخ الخميس في الجزء الأول ما يأتي :

وفي المواهب اللدنية : ولما رأت قريش عز النبي ﷺ بمن معه وعز أصحابه بالحبشة وإسلام عمر وفشو الإسلام في القبائل أجمعوا على أن يقتلوا النبي ﷺ فبلغ ذلك أبا طالب فجمع بني هاشم وبني المطلب وأدخلوا رسول ا لله ﷺ شعبهم ومنعوه ممن أراد قتله فأجابوه لذلك حتى كفارهم فعلوا ذلك حمية على عادة الجاهلية فلما رأت قريش ذلك اجتمعوا وائتمروا أن يكتبوا كتاباً يتعاقدون فيه على بني هاشم وبني المطلب : أن لا يناكحوهم ولا يبايعوهم ولا يخالطوهم ولا يقبلوا

منهم صلحاً أبداً حتى يسلموا رسول الله ﷺ للقتل، وكتبوا في صحيفة بخط منصور بن عكرمة بن هشام وقيل بغيض بن عامر فشلت يده وعلقوا الصحيفة في جوف الكعبة هلال المحرم سنة سبع من النبوة وانحاز بنو هاشم وبنو المطلب إلى أبي طالب ودخلوا معه شعبه إلا أبا لهب فكان مع قريش وأقاموا على ذلك سنتين أو ثلاثاً.

وقال أبو سعد: سنتين حتى جهدوا وكانت قريش قد قطعت عنهم الميرة والمادة وكان لا يصل إليهم شيء إلا سراً وكانوا لا يخرجون إلا من موسم إلى موسم.

وفي المواهب اللدنية: ثم قال رجال في نقض الصحيفة فأطلع الله نبيه على أمر الصحيفة على أن الأرضة أكلت جميع ما فيها من القطيعة والظلم فلم تدع إلا اسم الله فقط فأخبرهم أبو طالب بذلك فلما أنزلت لتمزق وجدت كما قال عليه السلام فأخرجوهم من الشعب وذلك في السنة العاشرة.

وأورد في المنتقى تقاسم قريش على معاداة بني هاشم وبني المطلب في السنة الثامنة من النبوة. وفي سيرة اليعمري حاصره أهل مكة في الشعب فأقام محصوراً دون ثلاث سنين هو وأهل بيته وخرج من الشعب وله تسع وأربعون سنة.

وفي الاستيعاب حصرتهم قريش في الشعب بعد المبعث بست سنين ومكثوا في ذلك الحصار ثلاث سنين وخرجوا منه في أول سنة خمسين من عام الفيل وتوفي أبو طالب بعد ذلك بستة أشهر وتوفيت خديجة بعده بثلاثة أيام وقد قيل غير ذلك وولد عبدالله بن عباس في الشعب قبل خروج بني هاشم منه، وقيل: إنه ولد قبل الهجرة بثلاث سنين وكان ابن ثلاث عشرة سنة يوم مات رسول الله ﷺ. انتهى من تاريخ الخميس.

وقال في كتاب المحمل والحج: ومما علق في الكعبة نقلاً عن ذيل تاريخ دمشق ما يأتي:

كان "أرسلان الفساسيري" قد اعتقل الخليفة العباسي القائم بأمر الله أبا جعفر عبدالله بن الإمام القادر بالله في الحديثة، فكتب هذا رقعة وأنفذها إلى مكة مستعدياً إلى الله تعالى على الفساسيري، وعلقت هذه الرقعة على الكعبة ولم ترفع عنها إلا بعد أن ورد الخبر بخروجه من الاعتقال وعوده إلى داره وهلاك عدوه "الفساسيري" وقد عنونها: "إلى الله العظيم، من المسكين عبده" وهذه صورة ما

كان مكتوباً بها بعد البسملة "اللهم إنك العالم بالسرائر ، والمطلع على مكنون الضمائر . اللهم إنك غني بعلمك واطلاعك على خلقك عن إعلامي ، هذا عبد من عبيدك قد كفر نعمتك وما شكرها ، وألفى العواقب وما ذكرها أطغاه حلمك ، وتجبر بأناتك حتى تعدى علينا بغياً ، وأساء إلينا عتواً وعدواً . اللهم قل الناصر ، واعتز الظالم ، فأنت المطلع العالم ، والمنصف الحاكم . بك نعتز عليه ، وإليك نهرب من يديه ، فقد تعزز علينا بالمخلوقين ، ونحن نعتز بك يا رب العالمين . اللهم إنا حاكمناه إليك ، وتوكلنا في إنصافنا منه عليك ، ورفعنا ظلامتنا هذه إلى حرمك ، ووثقنا في كشفها بكرمك فاحكم بيننا بالحق ، وأنت خير الحاكمين . وأظهر اللهم قدرتك فيه ، وأرنا ما نرتجيه ، فقد أخذته العزة بالإثم اللهم فاسلبه عزه وملّكنا بقدرتك ناصيته ، يا أرحم الراحمين . وصل يا رب على محمد وسلم وكرم" . اهـ . ذيل تاريخ دمشق ص١٠٧ . انتهى .

ومما علق في الكعبة أيضاً عهد المعتمد لولديه : فقد ذكر صاحب كتاب "المحمل والحج" بصحيفة ١٩٦ نقلاً عن الطبري في الجزء العاشر ما نصه :

وفي شوال من سنة (٢٦١) إحدى وستين ومائتين بايع المعتمد بولاية العهد لابنه جعفر ولقبه "المفوض إلى الله" وولاه المغرب والشام والجزيرة والموصل وأرمينية وطريق خراسان ومهرجا نقذق وحلوان وضم إليه موسى بن بغا وولى أخاه "أبا أحمد الموفق" العهد بعد جعفر وولاه المشرق وبغداد والسواد والكوفة وطريق مكة والمدينة واليمن وكسكر وكور دجلة والأهواز وفارس وأصبهان وقم والكرج والدينور والري وزنجان وقزويني وخراسان وطبرستان وجرجان وكرمان وسجستان والسند وضم إليه "مسروراً البلخي" .

وعقد لكل واحد منهما لواء من أسود وأبيض ، وشرطه إن حدث به حدث الموت ، وجعفر لم يكمل للأمر أن يكون الأمر لأبي أحمد ، ثم لجعفر وأخذت البيعة على الناس بذلك ، وفرقت نسخ الكتاب وبعث بنسخة مع "الحسن بن محمد" ليعلقها في الكعبة . انتهى من المحمل والحج .

ومما علق في الكعبة عهد محمد الأمين وعهد عبدالله المأمون ولدي هارون الرشيد . فقد جاء في كتاب "المحمل والحج" ما نصه :

كان هارون الرشيد قد عقد لابنه "محمد" ولاية العهد في شعبان سنة (١٣٧) ثلاث وسبعين ومائة وسماه "الأمين" وضم إليه في سنة (١٧٥) الشام والعراق ، ثم

بايع لعبدا لله "المأمون" بالرقة في سنة (١٨٣) مائة وثلاث وثمانين وولاه من حد همذان إلى آخر المشرق .

وحج هارون الرشيد في سنة (١٨٦) مائة وست وثمانين ومعه محمد وعبدا لله ولداه ، وأشخص ولده القاسم إلى "منبج" فأنزله إياها ، فلما قضى مناسكه كتب لعبدا لله المأمون كتابين أجهد الفقهاء والقضاة آراءهم فيهما . أحدهما على "محمد" بما اشترط عليه من الوفاء بما فيه من تسليم ما ولي عبدا لله من الأعمال ، وصير إليه من الضياع والغلات والجواهر والأموال والآخر نسخة البيعة التي أخذها على الخاصة والعامة ، والشروط لعبدا لله على "محمد" وعليهم .

وجعل الكتابين في البيت الحرام بعد أخذه البيعة على "محمد" وإشهاده بها الله وملائكته عليه ومن كان في الكعبة معه من سائر ولده وأهل بيته ومواليه وقواده ووزرائه وكتابه وغيرهم وجعل الشهادة بالبيعة والكتاب في البيت الحرام ، وطلب إلى الحجبة في حفظهما ، ومنع من أراد إخراجهما والذهاب بهما فلما رفع الكتاب ليعلق وقع فقيل إن هذا الأمر سريع انتقاضه قبل إتمامه . ثم ذكر صاحب كتاب المحمل والحج ، نص كتابي الأمين والمأمون ، لكنا لم ننقل منه ذلك ، وإنما نقلناه من تاريخ الإمام الأزرقي . وإليك ما جاء فيه وهو : وشخص أمير المؤمنين هارون الرشيد من الرقة يريد الحج يوم الاثنين لسبع ليال بقين من شهر رمضان سنة ست وثمانين ومائة فلم يدخل مدينة السلام ونزل منزلاً منها على سبعة فراسخ على شاطئ الفرات يقال له : الدارب وقد بنى له بها منزل ثم شخص خارجاً ومعه الأمين ولي العهد محمد بن أمير المؤمنين والمأمون ولي العهد من بعده عبدا لله بن أمير المؤمنين ومعه جميع وزرائه وقرابته فعدل إلى المدينة من الربذة وقدمها فأقام بها يومين لم يصنع في الأول منهما شيئاً إلا الصلاة في المسجد والتسليم على النبي ﷺ وجلس في اليوم الثاني في المقصورة حيال المنبر فأمر بالمقصورة فغلقت كلها ودعا بدفاتر العطاء فأخرج يومه ذلك لأهل العطاء ثلاثة أعطية وبدأ بالعطا بنفسه فبودئ باسمه ووزن له عطاؤه فجعله في كمه ثم فعل ذلك بالأمين والمأمون ، ثم ببني هاشم المبدئين في الدعوة على غيرهم فأعطوا كذلك عشيتهم .

ثم قام إلى منزله فأصبح غادياً من المدينة الشريفة إلى مكة المعظمة فلما قدمها عزل العثماني صهره محمد بن عبدا لله عن صلاة مكة وولى مكانه سليمان بن جعفر بن سليمان فلما كان قبل التروية بيوم واحد بعد الصبح صعد المنبر فخطب

خطبة الحج ثم فتح له باب فدخله وحده ليس معه غيره وقام مسرور على باب البيت وأجيف أحد المصراعين فمكث فيه طويلاً في جوف الكعبة ثم دعا بالمأمون عبدالله ففعل به مثل ذلك ثم دعا بسليمان بن أبي جعفر ثم دعا بالفضل بن الربيع ثم بعيسى ابن جعفر وجعفر بن جعفر وجعفر بن موسى أمير المؤمنين فدخلوا عليه جميعاً ثم دخل بعدهم الحارث وأبان ومحمد بن خالد وعبيد بن يقطين ونظراؤهم ودعا بيحيى بن خالد ولم يكن حاضراً فأتي به معجلاً حتى دخل ودعا بجعفر بن يحيى ثم كتب وليا العهد كل واحد منهما على نفسه كتاباً لأمير المؤمنين فيما أخذ على كل واحد منهما لصاحبه وتوكد فيه عليهما بخط يده .

وحضرت الصلاة صلاة الظهر من قبل فراغهم فنزل أمير المؤمنين فصلى بهم الظهر ثم عاد إلى الكعبة فكان فيها إلى أن فرغوا من الكتابين وأحضروا الناس سوى من سمينا قاضي مكة محمد بن عبدالرحمن المخزومي وأسد بن عمرو قاضي مدينة الشرقية وبعض من حجبة البيت ثم حضرت صلاة العصر عند فراغهم فنزل أمير المؤمنين فصلى بهم ثم طافوا سبعاً ثم دخلوا منزله من دار العجلة وأمر بحشر من حضر من الهاشميين وغيرهم ليشهدوا على الكتابين وأرسل إلى سليمان بن أبي جعفر وعيسى بن جعفر وجعفر بن موسى وقد كانوا انصرفوا فردوا من منازلهم فجاؤوا متضجرين وأخرج إليهم الكتابين وقد وضع عليهما الطين وليس من الخواتيم إلا خاتما ولي العهد فقرئا على جميع من حضر ليشهدوا عليه ولم يثبت في الكتابين إلا أسماء من كان في الكعبة حيث كتب الكتابان ولم يختم غيرهم ولم يكن الكتابان طيناً ولا طوباً ولا ختماً في جوف الكعبة ثم أمر أمير المؤمنين بعد أن شهدوا على الكتابين أن يعلقا في داخل الكعبة قبالة بابها مع المعاليق التي فيها حيث يراهما الناس وضمنهما الحجبة واستحلفهم على حفظهما والقيام بهما وأن يصونوهما ويعلقوهما في وقت الحج منشورين وصنع لهما قصبتان من ذهب فكللوهما بفصوص الياقوت ، والزبرجد واللؤلؤ ثم انصرف أمير المؤمنين بعد قضاء نسكه فسار مقتصداً لم يعد المراحل حتى وافى الكوفة . انتهى من الأزرقي .

نص الكتاب الذي كتبه محمد بن أمير المؤمنين هارون الرشيد المعلق في جوف الكعبة

ذكر الأزرقي نص الكتاب المذكور في تاريخه وهو هذا :

بسم ا الله الرحمن الرحيم هذا كتاب لعبدا لله هارون أمير المؤمنين كتبه له محمد بن هارون أمير المؤمنين في صحة من بدنه وعقله وجواز من أمره طائعاً غير مكره إن أمير المؤمنين هارون ولاّني العهد من بعده وجعل لي البيعة في رقاب المسلمين جميعاً وولى أخي عبدا لله بن أمير المؤمنين هارون العهد والخلافة وجميع أمور المسلمين بعدي برضاء مني وتسليم طائعاً غير مكره . وولاه خراسان بثغورها وكورها وجنودها وخراجها وطرزها وبريدها وبيوت أموالها وصدقاتها وعشرها وعشورها وجميع أعمالها في حياته وبعد وفاته فشرطت لعبد ا الله هارون أمير المؤمنين على الوفاء بما جعل له أمير المؤمنين هارون من البيعة والعهد وولاية الخلافة وأمور المسلمين بعدي وتسليم ذلك له وما جعل له من ولاية خراسان وأعمالها وما أقطعه أمير المؤمنين هارون الرشيد من قطيعة وجعل له من عقده أو ضيعة من ضياعه وعقده أو ابتاع له من الضياع والعقد بما أعطاه في حياته وصحته من مال أو حلي أو جواهر أو متاع أو كسوة أو رقيق أو منزل أو دواب أو قليل أو كثير فهو لعبدا لله بن أمير المؤمنين موفراً عليه مسلماً له وقد عرفت ذلك كله شيئاً شيئاً باسمه وأصنافه ومواصفه أنا وعبدا لله هارون أمير المؤمنين فإن اختلفنا في شيء منه فالقول فيه قول عبدا لله بن هارون أمير المؤمنين لا أتبعه بشيء من ذلك ولا آخذه منه ولا أنتقضه صغيراً ولا كبيراً ولا من ولاية خراسان ولا غيرها مما ولاه أمير المؤمنين من الأعمال ولا أعزله عن شيء منه ولا أخلفه ولا أستبدل به غيره ولا أقدم قبله في العهد والخلافة أحداً من الناس جميعاً ولا أدخل عليه مكروهاً في نفسه ودمه ولا شعره ولا بشره ولا خاص ولا عام من أموره وولايته ولا أمواله ولا قطائعه ولا عقده ولا أغير عليه شيئاً بسبب من الأسباب ولا آخذه ولا أحداً من عماله وكتابه وولاة أمره ممن صحبه وأقام معه بمحاسبة ولا أتتبع شيئاً مما جرى على يديه وأيديهم في ولايته خراسان وأعمالها وغيرها مما ولاه أمير المؤمنين في حياته وصحته ومن الجباية والأموال والطرز والبريد والصدقات والعشر والعشور وغير ذلك ولا آمر بذلك أحداً من الناس ولا أرخص فيه لغيري ولا أحدث فيه

نفسي بشيء أمضيه عليه ولا ألتمس فيه قطيعته ولا أنقص شيئاً مما جعل له هارون أمير المؤمنين وأعطاه في حياته وخلافته وسلطانه من جميع ما سميت في كتابي هذا وآخذ له عليّ وعلى جميع الناس البيعة ولا أرخص لأحد من الناس كلهم في جميع ما ولاه ولا في خلعه ولا في مخالفته ولا أسمع من أحد من البرية في ذلك قولاً ولا أرضى بذلك في سر ولا علانية ولا أغمض عليه ولا أتغافل عليه ولا أقبل من بر من العباد ولا فاجر ولا صادق ولا كاذب ولا ناصح ولا غاش ولا قريب ولا بعيد ولا أحد من ولد آدم عليه السلام من ذكر ولا أنثى مشورة ولا مكيدة ولا حيلة في شيء من الأمور سرها وعلانيتها وحقها وباطلها وباطنها وظاهرها ولا سبب من الأسباب أراد بذلك إفساد شيء مما أعطيت عبدا الله بن هارون أمير المؤمنين من نفسي وأوجبت له علي وشرطت وسميت في كتابي هذا وأراد به أحد من الناس أجمعين سوءاً أو مكروهاً أو أراد خلعه أو محاربته أو الوصول إلى نفسه ودمه أو حرمه أو سلطانه أو ماله أو ولايته جميعاً أو فرادى مسرين أو مظهرين له أن أنصره وأحوطه وأدفع عنه كما أدفع عن نفسي ومهجتي ودمي وشعري وبشري وحرمي وسلطاني وأجهز الجنود إليه وأعينه على كل من غشه وخالفه ولا أسلمه ولا أتخلى منه ويكون أمري أمره في ذلك واحداً أبداً ما كنت حياً وإن حدث بأمير المؤمنين حدث الموت وأنا وعبدا الله بن أمير المؤمنين بحضرة أمير المؤمنين أو أحدنا أو كنا غائبين عنه جميعاً مجتمعين كنا أو متفرقين وليس عبدا الله بن هارون أمير المؤمنين في ولايته بخراسان فعلي لعبدا الله بن هارون أمير المؤمنين في ولايته بخراسان فعلي لعبد ا الله بن هارون أمير المؤمنين أن أمضيه إلى خراسان وأسلم له ولايتها وأعمالها كلها وجنودها ولا أعوقه عنها ولا أحبسه قبلي ولا في شيء من البلدان دون خراسان وأعجل أشخاصه إلى خراسان والياً عليها وعلى جميع أعمالها منفرداً بها مفوضاً إليه جميع أعمالها كلها وأشخص معه جميع من ضم إليه أمير المؤمنين من قواده وجنوده وأصحابه وكتابه، وعماله، ومواليه، وخدمه، ومن تبعه من صنوف الناس بأهليهم وأموالهم ولا أحبس عنه أحداً منهم ولا أشركه معه في شيء منها أحداً ولا أرسل عليه أميناً، ولا كاتباً ولا بنداراً ولا أضرب على يديه في قليل ولا كثير وأعطيت هارون أمير المؤمنين وعبدا الله بن هارون على ما شرطت لهما على نفسي من جميع ما سميت وكتبت في كتابي هذا عهد ا الله وميثاقه وذمة أمير المؤمنين وذمتي وذمم آبائي، وذمم المؤمنين، وأشد ما أخذ ا الله عز وجل على النبيين والمرسلين وخلقه أجمعين من عهوده ومواثيقه

والأيمان المؤكدة التي أمر ا لله عز وجل بالوفاء بها ونهى من نقضها وتبديلها فإن أنا نقضت شيئاً مما شرطت لهارون أمير المؤمنين ولعبدا لله بن هارون أمير المؤمنين وسميت في كتابي هذا أو حدثت نفسي أن أنقض شيئاً مما أنا عليه أو غيرت أو بدلت أو حدثت أو غدرت أو قبلت من أحد من الناس صغيراً أو كبيراً براً أو فاجراً ذكراً أو انثى جماعة أو فرادى فبرئت من ا لله سبحانه ومن ولايته ومن دينه ومن محمد رسول ا لله ﷺ ولقيت ا لله عز وجل يوم القيامة كافراً به مشركاً وكل امرأة هي اليوم لي أو أتزوجها إلى ثلاثين سنة طالق ثلاثاً البتة طلاق الحرج وعليّ المشي إلى بيت ا لله الحرام ثلاثين حجة نذراً واجباً لله تعالى في عنقي حافياً راجلا لا يقبل ا لله مني إلا الوفاء بذلك وكل مال هو لي اليوم أو أملكه إلى ثلاثين سنة هدياً بالغ الكعبة الحرام وكل مملوك هو لي اليوم أو أملكه إلى ثلاثين سنة أحراراً لوجه ا لله تعالى وكل ما جعلت لأمير المؤمنين ولعبدا لله بن هارون أمير المؤمنين وكتبته وشرطته لهما وحلفت عليه وسميت في كتابي هذا لازماً لي الوفاء به لا أضمر غيره ولا أنوي إلا إياه فإن أضمرت أو نويت غيره فهذه العهود والمواثيق والأيمان كلها لازمة لي واجبة عليّ وقواد أمير المؤمنين وجنوده وأهل الآفاق والأمصار وعوام المسلمين براء من بيعتي وخلافتي وعهدي وولايتي وهم في حل من خلعي وإخراجي ومن ولايتي عليهم حتى أكون سوقة من السوق وكرجل من عرض المسلمين لا حق لي عليهم ولا ولاية ولا تبعة لي قبلهم، ولا بيعة لي في أعناقهم وهم في حل من الأيمان التي أعطوني براء من تبعتها ووزرها في الدنيا والآخرة.

شهد سليمان بن أمير المؤمنين المنصور، وعيسى بن جعفر، وجعفر بن جعفر، وعبدا لله بن المهدي وجعفر بن موسى أمير المؤمنين، وإسحاق بن موسى أمير المؤمنين، وإسحاق بن عيسى بن علي وأحمد بن إسماعيل بن علي، وسليم بن جعفر بن سليمان، وعيسى بن صالح بن علي، وداود بن عيسى بن موسى ويحيى بن عيسى بن موسى وداود بن سليمان بن جعفر، وخزيمة بن حازم، وهرثمة بن أعين، ويحيى بن خالد والفضل بن يحيى وجعفر بن يحيى والفضل بن الربيع مولى أمير المؤمنين والعباس بن الفضل ابن الربيع مولى أمير المؤمنين، وعبدا لله بن الربيع مولى أمير المؤمنين، والقاسم بن ربيع مولى أمير المؤمنين، ودقاقة بن عبدالعزيز العبسي، وسليمان بن عبد ا لله بن الأصم، والربيع بن عبدا لله الحارثي وعبدالرحمن ابن أبي السمراء الغساني ومحمد بن عبدالرحمن قاضي مكة، وعبدالكريم بن

شعيب الحجبي وإبراهيم بن عبدا لله الحجبي ، وعبد ا لله بن شعيب الحجبي ومحمد بن عبدا لله بن عثمان الحجبي وإبراهيم بن عبدالرحمن بن نبيه الحجبي ، وعبدالواحد بن عبدا لله الحجبي ، وإسماعيل بن عبدالرحمن بن نبيه الحجبي ، وأبان مولى أمير المؤمنين ، ومحمد بن منصور ، وإسماعيل بن ضبيح ، والحارث مولى أمير المؤمنين ، وخالد مولى أمير المؤمنين وكتب في ذي الحجة سنة ست وثمانين ومائة . انتهى من الأزرقي .

نص الكتاب الذي كتبه عبدالله بن أمير المؤمنين هارون الرشيد

وذكر الأزرقي نص الكتاب المذكور في تاريخه وهو هذا :

بسم ا لله الرحمن الرحيم هذا كتاب لعبد ا لله هارون أمير المؤمنين كتبه له عبدا لله بن هارون أمير المؤمنين في صحة من عقله وجواز من أمره وصدق نية فيما كتب في كتابه ومعرفة ما فيه من الفضل والصلاح له ولأهل بيته ولجماعة المسلمين إن أمير المؤمنين هارون ولاّني العهد والخلافة وجميع أمور المسلمين في سلطانه بعد أخي محمد بن هارون أمير المؤمنين وولاني في حياته وبعده ثغور خراسان وكورها وجميع عمالها من الصدقات والعشر والعشور والبريد والطرز وغير ذلك واشترط لي على محمد بن أمير المؤمنين الوفاء بما عقد به من الخلافة والولاية للعباد والبلاد بعده وولاني خراسان وجميع أعمالها ولا يعرض لي في شيء مما أقطعني أمير المؤمنين أو ابتاع لي من الضياع والعقد والدور والرباع أو ابتعت منه من ذلك وما أعطاني أمير المؤمنين هارون من الأموال والجوهر والكساء والمتاع والدواب في سبب محاسبة ولا تبيع لي في ذلك ولا لأحد منهم أبداً ولا يدخل علي ولا على أحد ممن كان معي ومني ولا عمالي ولا كتابي ومن استعنت به من جميع الناس مكروها في دم ولا نفس ولا شعرٍ ولا بشر ولا مال ولا صغير ولا كبير فأجابه إلى ذلك وأقرّ به وكتب له به كتاباً وكتبه على نفسه ورضي به أمير المؤمنين هارون وقبله وعرف صدق نيته فشرطت لعبدا لله هارون أمير المؤمنين وجعلت له على نفسي أن أسمع لمحمد بن أمير المؤمنين وأطيعه ولا أعصيه ، وأنصحه ولا أغشه ، وأوفي ببيعته وولايته ، ولا أغدره ولا أنكث ، وأنفذ كتبه ، وأموره وأحسن مؤازرته ومكانفته ، وأجاهد عدوه في ناحيتي بأحسن جهاد ما وفى لي بما شرط لي ولعبد ا لله هارون أمير المؤمنين وسماه في الكتاب الذي كتبه

لأمير المؤمنين، ورضي به أمير المؤمنين وقبله ولم يتقصى شيئاً من ذلك ولا ينقص أمراً من الأمور التي اشترطها لي عليه هارون أمير المؤمنين وإن احتاج محمد بن هارون أمير المؤمنين إلى جند وكتب إلي يأمرني بأشخاصهم إليه أو إلى ناحية من النواحي أو إلى عدو من أعدائه خالفه أو أراد نقص شيء من سلطانه وسلطاني الذي أسنده هارون أمير المؤمنين إلينا وولانا أن أنفذ أمره ولا أخالفه ولا أقصر في شيء إن كتب به إلي وإن أراد محمد بن أمير المؤمنين أن يولي رجلاً من ولده العهد والخلافة من بعدي فذلك له ما وفى لي بما جعل لي أمير المؤمنين هارون فاشترط لي عليه وشرطه على نفسه في أمري وعلى إنفاذ ذلك والوفاء له بذلك ولا أنقض ذلك ولا أغيره ولا أبدله ولا أقدم فيه أحداً من ولدي ولا قريباً ولا بعيداً من الناس أجمعين إلا أن يولي هارون أمير المؤمنين أحداً من ولده العهد من بعدي فيلزمني ومحمداً الوفاء بذلك وجعلت لأمير المؤمنين ومحمد بن أمير المؤمنين على الوفاء بما اشترطت وسميت في كتابي هذا ما وفى له محمد بن أمير المؤمنين ولمحمد بن أمير المؤمنين هارون بجميع ما اشترط لي هارون أمير المؤمنين عليه في نفسي وما أعطاني أمير المؤمنين هارون من جميع الأشياء المسماة في الكتاب الذي كتبه له عبدا لله وميثاقه وذمة أمير المؤمنين وذمتي وذمم آبائي وذمم المؤمنين وأشد ما أخذ ا لله عز وجل على النبيين والمرسلين وخلقه أجمعين من عهوده ومواثيقه والأيمان المؤكدة التي أمر ا لله عز وجل بالوفاء بها فإن نقضت شيئاً مما شرطت وسميت في كتابي هذا له أو غيرت أو بدلت أو نكثت أو غدرت فبرئت من ا لله تعالى ومن ولايته ومن دينه ومن محمد رسوله ﷺ ولقيت ا لله سبحانه يوم القيامة كافراً مشركاً به وكل امرأة هي اليوم لي أو أتزوجها إلى ثلاثين سنة طالق ثلاثاً البتة طلاق الحرج وكل مملوك لي اليوم أو أملكه إلى ثلاثين سنة أحرار لوجه ا لله تعالى وعليَّ المشي إلى بيت ا لله الحرام الذي بمكة ثلاثين حجة نذراً واجباً عليَّ وفي عنقي حافياً راجلا لا يقبل ا لله مني الوفاء به وكل مال هو لي اليوم أو أملكه إلى ثلاثين سنة هدياً بالغ الكعبة وكل ما جعلت لعبد ا لله هارون أمير المؤمنين وشرطت في كتابي هذا لازم لي لا أضمر غيره ولا أنوي سواه شهد تسمية الشهود في ذلك الذين شهدوا على محمد بن أمير المؤمنين.

فلم يزل الشرطان معلقان في جوف الكعبة حتى مات هارون الرشيد أمير المؤمنين وبعدما مات بسنتين في خلافة محمد بن الرشيد ثم كلم الفضل ابن الربيع

محمد بن عبدا لله الحجبي أن يأتيه بهما فنزعهما من الكعبة وذهب بهما إلى بغداد فأخذهما الفضل فخرقهما وأحرقهما بالنار . انتهى كل ذلك من الأزرقي .

قال صاحب كتاب المحمل والحج : إن هذا مذكور في كتاب صبح الأعشى في الجزء الرابع عشر .

عقاب المعتدي على مال الكعبة

لو لم يرض ا لله عز وجل الغني عن العالمين الإهداء إلى الكعبة لما حفر خليله عليه الصلاة والسلام في داخلها حين بناء الجب العميق ليجعل فيه ما يهدى للكعبة من المال والحلي والطيب وغير ذلك ، فإذا كان التعدي على مال الغير حرام غير لائق ، فإن التعدي على مال الكعبة المعظمة أشد حرمة وأقبح فعلاً . روى الإمام الأزرقي في تاريخه عن عبدا لله بن زرارة : أن مال الكعبة يدعى "الأبرق" و لم يخالط مالاً قط إلا محقه و لم يرزأ منه أحد قط من أصحابنا إلا بان النقص في ماله ، وأدنى ما يصيب صاحبه أن يشدد عليه الموت ، قال : و لم يزل من مضى من مشيخة الحجبة يحذرون أبناءهم ويخوفونهم إياه ويوصونهم بالتنزه عنه ويقولون : لن تزالوا بخير ما دمتم أعفة عنه ، وإن كان الرجل ليصيب منه الشيء فيضعه ذلك عند الناس . اهـ .

وجاء في تاريخ الأزرقي أيضاً : أن النبي ﷺ وجد في الجب الذي كان في الكعبة سبعين ألف أوقية من ذهب مما كان يهدي إلى البيت وأن علي بن أبي طالب كرم ا لله وجهه قال : يا رسول ا لله لو استعنت بهذا المال على حربك فلم يحركه ثم ذكر لأبي بكر فلم يحركه .اهـ .

وجاء فيه أيضاً : عن أبي وائل شقيق بن سلمة قال : جلست إلى شيبة بن عثمان في المسجد الحرام فقال : جلس إلي عمر بن الخطاب رضي ا لله عنه مجلسك هذا فقال : لقد هممت أن لا أترك فيها صفراء ولا بيضاء إلا قسمتها قال شيبة : فقلت له : إنه قد كان لك صاحبان لم يفعلاه رسول ا لله ﷺ وأبو بكر رضي ا لله عنه فقال عمر : هما المرءان أقتدي بهما .اهـ .

فإذا كان رسول ا لله ﷺ وصاحباه أبو بكر وعمر رضي ا لله عنهما لم يتصرفوا في مال الكعبة فيما ينفع المسلمين ، فكيف يطيب لغيرهم أن تمتد أيديهم فيه بدون حق ، وإذا كان مشيخة الحجبة في القرون الأولى يحذرون أبناءهم من

التقرب في مال الكعبة وهم القائمون بخدمتها فإن التحذير يكون آكد في الأزمنة الأخيرة ، وما تجرأ أحد في التصرف بمالها إلا رأى وبال ذلك عليه . فقد روى الأزرقي في تاريخه أن جرهماً جعلت على جب الكعبة رجلاً منهم يحرسه فبينا رجل ممن ارتضوه عندها إذ سولت له نفسه فانتظر حتى إذا انتصف النهار وقلصت الظلال وقامت المجالس وانقطعت الطرق ومكة إذ ذاك شديد الحر بسط رداءه ثم نزل البئر فأخرج ما فيها فجعله في ثوبه فأرسل ا لله عز وجل حجراً من البئر فحبسه حتى راح الناس فوجدوه فأخرجوه وأعادوا ما وجدوه في ثوبه في البئر فسميت تلك البئر الأخسف ، فلما أن خسف بالجرهمي وحبسه ا لله عز وجل بعث ا لله عند ذلك ثعباناً وأسكنه في ذلك الجب في بطن الكعبة أكثر من خمسمائة سنة . . . الخ . اهـ من الأزرقي . وجاء فيه أيضاً عند نصيحة مضاض بن عمرو الجرهمي لقومه حينما استخفوا بأمر البيت والحرم : إنه كان للبيت خزانة بئر في بطنه يلقى فيها الحلي والمتاع الذي يهدى له وهو يومئذ لا سقف له فتواعد له خمسة نفر من جرهم أن يسرقوا ما فيه فقام على كل زاوية من البيت رجل منهم واقتحم الخامس فجعل ا لله عز وجل أعلاه أسفله وسقط منكساً فهلك وفر الأربعة الآخرون فعند ذلك مسحت الأركان الأربعة ، وقد بلغنا في الحديث أن إبراهيم خليل ا لله مسح الأركان الأربعة كلها أيضاً ، وبلغنا في الحديث أن آدم مسح قبل ذلك الأركان الأربعة ، فلما كان من أمر هؤلاء الذين حاولوا سرقة ما في خزانة الكعبة ما كان بعث ا لله حية سوداء الظهر بيضاء البطن رأسها مثل رأس الجدي فحرست البيت خمسمائة سنة لا يقربه أحد بشيء من معاصي ا لله إلا أهلكه ا لله تعالى ولا يقدر أحد أن يروم سرقة ما في الكعبة . . . الخ . انتهى .

هذا ما كان في عهد جرهم وأما ما حدث في عهد قريش فقد روى الأزرقي أيضاً عن شيبة بن عثمان الذي أسلم يوم الفتح على أصح الروايات أنه قال : حضرت الوفاة فتى منا من أصحابنا من الحجبة بالبوباة من قرن "في طريق الطائف ونجد" فاشتد عليه الموت جداً فمكث أياماً ينزع نزعاً شديداً حتى رأوا منه ما غمهم وأحزنهم من شدة كربه فقال له أبوه : يا بني لعلك أصبت من هذا الأبرق يعني مال الكعبة قال : نعم يا أبت أربعمائة دينار فقال أبوه : اللهم إن هذه الأربعمائة دينار علي في أنضر مالي أؤديها إليها قال : فسري عنه ثم لم يلبث الفتى أن مات . انتهى من الأزرقي .

ورب قائل يقول : إذا كان الله عز وجل عاقب المعتدين على مال الكعبة فيما مضى ، فلم لا يعاقبهم عليه فيما بعد الإسلام ؟

فنقول : لقد كانت العقوبة تعجل على من كان قبلنا ، وكان ينزل عليهم أنواع البلايا كالجراد والقمل والضفادع والصيحة والخسف والمسخ وغير ذلك ، وكانوا يقرضون موضع النجاسة في الثوب أو في البدن ، وكانوا يؤاخذون على الخطأ والنسيان ، فرفع الله كل ذلك عن أمة محمد ﷺ وعاملهم بكثير من الفضل والرحمة والعفو واللطف في الدنيا والآخرة فهي أمة مرحومة وخير الأمم ونبيهم محمد خير الأنبياء وخاتمهم صلوات الله وسلامه عليه وعلى إخوانه الأنبياء والمرسلين وصحابتهم أجمعين . ولنختم هذا الفصل بهذه الآيات البينات ﴿ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين﴾ .

حكم التصرف في مال الكعبة

روى الأزرقي في تاريخه : أن رسول الله ﷺ وجد في الجب الذي كان في الكعبة سبعين ألف أوقية من ذهب مما كان يهدى إلى البيت وأن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه قال : يا رسول الله لو استعنت بهذا المال على حربك فلم يحركه ثم ذكر لأبي بكر فلم يحركه . وروى الأزرقي أيضاً عن شقيق بن سلمة قال : جلست إلى شيبة بن عثمان في المسجد الحرام فقال : جلس إلي عمر بن الخطاب رضي الله عنه مجلسك هذا فقال : لقد هممت أن لا أترك فيها صفراء ولا بيضاء إلا قسمتها - يعني الكعبة - قال شيبة فقلت له : إنه قد كان لك صاحبان لم يفعلاه رسول الله ﷺ وأبو بكر رضي الله عنه فقال عمر : هما المرءان أقتدي بهما . انتهى .

قال العلامة ابن ظهيرة القرشي في كتابه "الجامع اللطيف في فضل مكة وأهلها وبناء البيت الشريف" عند ذكر كنز الكعبة والحكم فيه ما نصه : أقول : قال المحب الطبري لما أخبر شيبة أن النبي ﷺ وأبا بكر لم يتعرضا للمال رأى عمر أن ذلك هو الصواب وكأنه رأى حينئذ أن ما جعل في الكعبة يجري مجرى الوقف عليها فلا يجوز تغييره ، أو رأى ترك ذلك تورعاً حين أخبر أنه تركه صاحباه مع رؤيته جواز

إنفاقه في سبيل الله لأن صاحبيه إنما تركاه للعذر الذي تضمنه حديث عائشة رضي الله عنها . انتهى .

وقال الحافظ شيخ الإسلام ابن حجر رحمه الله تعالى : يحتمل أن يكون تركه ﷺ لذلك رعاية لقلوب قريش كما ترك بناء الكعبة على قواعد بناء إبراهيم ، ويؤيده ما وقع عند مسلم في بعض طرق الحديث "ولا نفقت كنز الكعبة في سبيل الله ولجعلت بابها بالأرض" وهذا التعليل هو المتفق عليه فإنفاقه جائز كما جاز لابن الزبير بناؤها على قواعد إبراهيم لزوال سبب الامتناع . انتهى من الجامع اللطيف .

وقال ابن ظهيرة أيضاً في كتابه المذكور ، فروع:

(الأول) : تختص الكعبة الشريفة بما يهدى إليها وما ينذر لها من الأموال وامتناع صرف شيء منها إلى الفقراء والمصالح إلا أن يعرض لها نفسها عمارة فيصرف فيه وإلا فلا يغير شيء عن وجهه نبّه عليه الزركشي من الشافعية .

(الثاني) : إذا نذر شمعاً يشعله فيها أو زيتاً ونحوه وضعه في مصابيحها وإن كان لا يستعمل فيها بيع وصرف الثمن في مصالحها . صرح به الماوردي . انتهى من الجامع اللطيف و لم نذكر بقية الفروع لعدم تعلقها بهذا المبحث .

وجاء في تاريخ الكعبة ما نصه : قال التقي الفاسي تعليقاً على أخذ مال الكعبة : أنه لا يجوز أخذ شيء من حلية الكعبة لا للحاجة ولا للتبرك لأن ما جعل للكعبة وسبل لها يجري مجرى الأوقاف ولا يجوز تغييرها من وجوهها أشار إلى ذلك المحب الطبري في القرى . انتهى .

ولقد ذكرنا في مبحث تطييب الكعبة أن الإمام النووي رحمه الله تعالى قال : لا يجوز أخذ شيء من طيب الكعبة لا للتبرك ولا لغيره ومن أخذ شيئاً لزمه رده فإن أراد التبرك أتى بطيب من عنده فمسحها به ثم أخذه . انتهى . نقول : فإذا كان لا يجوز أخذ شيء من طيب الكعبة فإنه لا يجوز أخذ شيء من حلي الكعبة أو مالها أو هداياها من باب أولى ، لكن لنا نحن في هذا الأمر رأي نحب أن نذكره بالتفصيل فنقول وبالله التوفيق والمعونة والحول والقوة :

التصرف فيما يهدى إلى الكعبة من مال وحلي وغيرهما للمصلحة جائز بلا خلاف كما ذكر الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى ، وكما يفهم ضمناً من تركه

ﷺ ما وجده من الذهب في جب الكعبة وأنه لم يحركه حينما قال له علي بن أبي طالب : "لو استعنت بهذا المال على حربك" فلو لم يكن جائزاً لبين له رسول الله ﷺ صراحة حرمة التصرف فيه ، وحكمة سكوته عليه الصلاة والسلام حينما قال له علي بن أبي طالب ذلك إما رعاية لقلوب قريش كما ترك بناء الكعبة على قواعد إبراهيم مثلما ذكره ابن حجر ، وإما أخذاً بالعزيمة وزيادة في التعفف لقوته المعنوية الروحية فإن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لا يتتبعون الرخص إلا لإرشاد أممهم ، فإذا كانت الأيدي قد امتدت إلى مال الكعبة وهداياها بينما رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر رضي الله عنهما لم يتصرفوا بشيء من ذلك ، فكيف لو تصرفوا فيها بشيء . نظن أنه ما كان يبقى اليوم في الكعبة شيء حتى الكسوة كانوا يمزقونها وهي عليها .

ثم إن التصرف في مال الكعبة وهداياها وحليها على أربعة أنواع :

الأول : التصرف فيها بدون حق إما للسرقة أو للاغتصاب أو نحوهما فهذا حرام وغير جائز بلا خلاف .

الثاني : التصرف فيها للاضطرار كأخذ سدنتها شيئاً للحاجة الشديدة فرأينا جواز ذلك لهم بشرطين أن ينسد جميع أسباب الرزق عليهم ، وأن يكون أخذهم منه بالمعروف أي بقدر الضرورة وعلى سبيل الاقتراض والأمانة فإذا تيسرت أحوالهم ردوا ما أخذوه في محله .

الثالث : التصرف فيها لمصالح الكعبة نفسها أو لمصالح المطاف والمسجد الحرام فقط من عمارة وترميم ، فرأينا جواز ذلك عند خلو بيت مال المسلمين أو عند عدم وجود المال الحلال .

الرابع : التصرف فيها في سبيل المصلحة العامة للمسلمين كعند نشوب حرب أو وجود قحط في البلدة (لا قدر الله ذلك) والناس في فقر واحتياج ، فرأينا جواز ذلك ، فإذا كان أكل الميتة جائز عند الاضطرار فالتصرف في مال الكعبة جائز للاضطرار بجميع أنواعه هذا رأينا الخاص في جميع ما ذكرناه وما رأينا لأحد كلاماً فيه ، والله تعالى أعلم .

ونستأنس لكلامنا المذكور بما يفهم مما رواه الإمام الأزرقي في تاريخه عن سعيد بن يسار الخزاعي عن ابن عمر أنه كان في دار خالد بن أسيد بمكة فجاءه رجل فقال : أرسل معي بحلي إلى الكعبة فقال له : ممن أنت ؟ قال : من أهل العراق

قال : ما أحمقكم يا أهل العراق أما فيكم مسكين أما فيكم يتيم أما فيكم فقير إن كعبة الله لغنية عن الذهب والفضة ولو شاء الله لجعلها ذهباً وفضة ، قال ابن يسار فكان معي حلي بعثت بها إلى الكعبة فقلت له وأنا مستحي فقال : وأنت أيضاً ثم قال لي كما قال للآخر . انتهى من الأزرقي .

وخالد بن أسيد ، بفتح الهمزة هو أخ أمير مكة عتّاب بن أسيد بن أبي العيص بن أمية ابن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي بن كلاب القرشي الأموي ولاه رسول الله ﷺ مكة وهو ابن إحدى وعشرين سنة وذلك عند مخرجه إلى غزوة حنين في العشر الأول من شوال سنة ثمان من الهجرة فهو أول أمير ولي مكة ولم يزل عتّاب بن أسيد أميراً على مكة إلى أن مات وكانت وفاته يوم مات أبو بكر رضي الله عنهما وقيل بل يوم جاء نعي الصديق إلى مكة .

التعدي على أموال الكعبة وهداياها

لو لم يتصرف الناس في أموال الكعبة بعذر أو بغير عذر على سبيل التعدي من قبل الإسلام وبعده ، لكان اليوم فيها من الأموال الطائلة ما لا يحسب ومن الهدايا الثمنية ما لا يقدر ، ويظن صاحب كتاب تاريخ الكعبة أن كل ذلك ذهبت في العمارة التي وقعت سنة (١٠٤٠) أي التي كانت زمن السلطان مراد خان الرابع كما ذكره بصحيفة ٢٠٧ من الكتاب المذكور .

ونحن نرى في هذه المسألة غير ما رآه ونذهب إلى غير ما ذهب إليه فإنه لا يخفى على من اطلع في التاريخ أن سلاطين آل عثمان كانوا يعظمون الكعبة المشرفة وجميع المشاعر غاية التعظيم وكانوا يهدون إليها مختلف الهدايا الثمينة ، فلا يعقل أن ينهب ما في الكعبة من الأموال والهدايا في عمارة السلطان مراد خان الرابع التي كانت سنة (١٠٤٠) . فقد ذكر نفس صاحب تاريخ الكعبة في كتابه هذا عند الكلام على بناء السلطان مراد خان الرابع أنه لما سقط الجدار الشامي من الكعبة المشرفة وبعض الجدارين الشرقي والغربي وسقطت درجة السطح وذلك بعد صلاة العصر من يوم الخميس عشرين شعبان سنة (١٠٩٣) وقع الضجيج العام والانزعاج في قلوب الناس فخرج أمير مكة الشريف مسعود بن إدريس من داره فزعاً إلى المسجد الحرام وحضر معه السادة الأشراف وفاتح البيت والعلماء والفقهاء والصلحاء فأمر الأمير بإخراج ما في الكعبة خشية عليها من الضياع

فأخرجوا القناديل وكانت عشرين قنديلاً من الذهب أحدها مرصع باللؤلؤ وغيرها من المعادن والميزاب فوضعت في دار فاتح البيت الحرام بالصفا بحضور أمير مكة في مخزن وختم عليه بختم الأمير والقاضي ونائب الحرم وأجلس عليه حرساً . . . الخ وفي تاريخ الغازي بعد ذكر القناديل الذهب قال : وثلاثة وثلاثون قنديلاً من الفضة والظاهر أن هذه القناديل الفضة سقطت سهواً من قلم صاحب تاريخ الكعبة قال : ثم وضعت كل هذه الأشياء في الكعبة بعد تمام بنائها . فكيف إذاً تضيع ما في الكعبة في هذه العمارة . ولكنا نرى أن الأحداث التي كانت تتوالى على مكة المشرفة من قديم الزمان ورحى الحرب التي دارت فيها مراراً عديدة هي السبب التي جعلت الأيدي تعبث بأموال الكعبة وهداياها وها نحن نذكر هنا باختصار بعض تلك الحوادث مما وقفنا عليها فنقول :

(١) جاء في تاريخ الأزرقي عن مجاهد أنه قال : كان في الكعبة على يمين من دخلها جب عميق حفره إبراهيم خليل الرحمن وإسماعيل صلوات الله وسلامه عليهما حين رفع القواعد وكان يكون فيه ما يهدى للكعبة من حلي أو ذهب أو فضة أو طيب أو غير ذلك وكانت الكعبة ليس لها سقف فسرق منها على عهد جرهم مال مرة بعد مرة وكانت جرهم ترتضي لذلك رجلاً يكون عليه يحرسه فبينا رجل ممن ارتضوه عندها إذ سولت نفسه فانتظر حتى إذا انتصف النهار وقلصت الظلال وقامت المجالس وانقطعت الطرق ومكة إذ ذاك شديدة الحر بسط رداءه ثم نزل في البئر فأخرج ما فيها فجعله في ثوبه فأرسل الله عز وجل حجراً من البئر فحبسه حتى راح الناس فوجدوه فأخرجوه وأعادوا ما وجدوا في ثوبه في البئر فسميت تلك البئر بالأخسف فلما أن خسف بالجرهمي وحبسه الله عز وجل بعث الله عند ذلك ثعباناً وأسكنه في ذلك الجب في بطن الكعبة أكثر من خمسمائة سنة يحرس ما فيه فلا يدخله أحد إلا رفع رأسه وفتح فاه فلا يراه أحد إلا ذعر منه وكان ربما يشرف على جدار الكعبة فأقام كذلك في زمن جرهم وزمن خزاعة وصدراً من عصر قريش حتى اجتمعت قريش في الجاهلية على هدم البيت وعمارته فحال بينهم وبين هدمه حتى دعت قريش عند المقام عليه والنبي ﷺ معهم وهو يومئذ غلام لم ينزل عليه الوحي بعد فجاء عقاب فاختطفه ثم طار به نحو أجياد الصغير . انتهى من الأزرقي .

(٢) وجاء في تاريخ الأزرقي أيضاً : أن الحسين بن الحسن العلوي عمد إلى خزانة الكعبة في سنة مائتين في الفتنة حين أخذ الطالبيون مكة فأخذ مما فيها مالاً عظيماً وانتقله إليه وقال : ما تصنع الكعبة بهذا المال موضوعاً لا ينتفع به نحن أحق به نستعين به على حربنا . اهـ منه .

(٣) وجاء فيه أيضاً : عن مسافع بن عبدالرحمن الحجبي قال : لما بويع بمكة لمحمد بن جعفر بن محمد بن علي بن حسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم في الفتنة في سنة مائتين حين ظهرت المبيضة بمكة "وهم أصحاب المقنع" أرسل إلى الحجبة فتسلف منهم من مال الكعبة خمسة آلاف دينار وقال : نستعين بها على أمرنا أفاء الله علينا رددناها في مال الكعبة فدفعوا إليه وكتبوا عليه بذلك كتاباً وأشهدوا فيه شهوداً فلما خلع نفسه ورفع إلى أمير المؤمنين المأمون تقدم الحجبة واستعدوا عليه عند أمير المؤمنين فقضاهم أمير المؤمنين عن محمد بن جعفر خمسة آلاف دينار وكتب لهم بها إلى إسحاق بن عباس بن عباد بن محمد وهو وال على اليمن فقبضتها الحجبة وردوها في خزانة الكعبة . اهـ منه .

(٤) وجاء في شفاء الغرام للتقي الفاسي أنه كتب حجبة البيت إلى أمير المؤمنين المعتضد العباسي أن أحد الولاة بمكة قلع أيام الفتنة سنة (٢٥١) ما على عضادتي باب الكعبة من الذهب فضربه دنانير وصرفها على الفتنة وأن عامل مكة سنة (٢٦٨) قلع أيضاً أيام الفتنة مقدار الربع من الذهب من أسفل باب الكعبة وما على أنف الباب من الذهب واستعان به على دفع تلك الفتنة ، فأمر المعتضد بإعادة جميع ذلك . اهـ منه .

(٥) وجاء في تاريخ الأزرقي : لما حارب يزيد بن محمد بن حنظلة المخزومي والي مكة إبراهيم بن موسى أرسل إلى الحجبة فأخذ السرير الفضة وما عليه من الفرشة وأزارير الذهب والفضة المرخاة على وجه السرير والصنم الذهب الذي فوقه والذي أرسل كل ذلك أحد ملوك التبت هدية إلى الكعبة المشرفة فاستعان به على حربه وضربه دنانير ودراهم وقال : أمير المؤمنين يخلفه لها وذلك سنة (٢٠٢) أثنتين ومائتين . اهـ منه .

(٦) وجاء في تاريخ الكعبة : أنه في سنة (٣١٧) سبع عشرة وثلاثمائة دخل أبو طاهر القرمطي مكة المشرفة يوم التروية من ذي الحجة وهو اليوم الثامن فدخلوا المسجد الحرام وأسرفوا في قتل الحجاج وأسرهم ونهبهم . قيل : قتلوا فيه ألفاً

وسبعمائة . وقيل : ثلاثة عشر ألفاً من الرجال والنساء وهم متعلقون بالكعبة وردموا بهم زمزم حتى ملأوها وفرش بهم المسجد الحرام وما يليه وصعد أبو طاهر بنفسه على باب الكعبة وأخذ حليها وهتك أستارها وقسم كسوتها بين أصحابه وأمر بقلع ميزابها وكان من الذهب الإبريز وأخذ أموال الناس وأقام هو وأصحابه بمكة أحد عشر يوماً ثم انصرف إلى بلده هجر وحمل معه الحجر الأسود وبقي موضع الحجر من الكعبة خالياً يضع الناس فيه أيديهم للتبرك وبقي الحجر عندهم نحو اثنين وعشرين سنة ثم ردوه إلى الكعبة رده سنبر بن الحسن القرمطي . انتهى منه باختصار ومن أراد الوقوف على حادثة القرمطي فعليه بمراجعة كتب التاريخ ونحن إنما ذكرنا هذه النبذة لأخذه أموال الكعبة .

(٧) وجاء فيه أيضاً : أنه في سنة (٤٦٢) أخذ أمير مكة أبو هاشم محمد بن جعفر المعروف بابن أبي هاشم الحسن قناديل الكعبة وستورها وصفائح الباب لما لم يصله شيء من جهة المستنصر العبيدي . اهـ .

(٨) وجاء فيه أيضاً : أن الوزير علي شاه بعث سنة (٧١٨) حلقتين من ذهب مرصعتين باللؤلؤ والبلخش كل حلقة زنتها ألف مثقال وفي كل حلقة ست لؤلؤات فاخرات وبينهما ست قطع بلخش فاخر هدية للكعبة فعلقتا عليها ثم أخذهما أمير مكة الشريف رميثة ابن أبي نمي . اهـ منه .

(٩) وجاء فيه أيضاً : أن السلطان شيخ أويس بغداد أرسل أربعة قناديل كبار اثنان منها ذهب واثنان فضة وذلك سنة (٧٧٠) هدية للكعبة فعلقت بها ثم أخذها أمير مكة الشريف عجلان بن رميثة . اهـ .

(١٠) وجاء فيه أيضا : أن أمير مكة داود بن عيسى بن فليته أخذ ما في الكعبة من أموال وطوقاً كان يمسك الحجر الأسود وذلك سنة (٥٨٦) .

(١١) وجاء فيه أيضاً : أن أبا الفتوح الحسن بن جعفر العلوي حين خرج عن طاعة الحاكم بأمر الله ودعا لنفسه بالإمامة وتلقب بالراشد أخذ من حلية الكعبة وضربها دنانير ودراهم وهي التي تسمى الفتحية وأخذ بعد ذلك المحاريب التي أهداها للكعبة صاحب عمان . اهـ .

أي تلك المحاريب التي زنة كل محراب أكثر من قنطار أهداها صاحب عمان بعد سنة (٤٢٠) من الهجرة كما ذكره أبو عبيد الله البكري في كتابه المسالك والممالك . اهـ .

(١٢) وجاء في كتاب المحمل والحج: أن شيوخ سدنة البيت الشريف كانوا إذا احتاجوا اختلسوا من أموال الكعبة وهداياها ما يسدون به خللهم ويدفع به فقرهم واحتياجهم (قال في هامش الكتاب المذكور) قال القطب الحنفي: أدركنا في أيام الصبا وقد خفت القناديل من شيوخ الكعبة من كان يتهم بذلك لفقره واحتياجه (ثم ساق حكاية لا نحب ذكرها) قال: وافتقد مرة أمير من أمراء جدة قنديلاً علقه في البيت قريباً فسأل الشيخ عن ذلك وأراد إهانته فلم يقدر وتكلم عنه الناس وكان الشيخ يقول: المحافظة على بنية الإنسان أوجب من المحافظة على قناديل معلقة في الكعبة لا ينفعها تعليقها ولا يضرها فقدها وقد وصلنا إلى حد المخمصة فنعذر في ذلك إن وقع فعله منا. انتهى منه.

هذه الحوادث ذكرناها هنا لمعرفة ما كان يقع من السلب والنهب وتمتد أيدي من قل دينه إلى مال الكعبة وهداياها، أو من يتصرف فيها بالأكل منها بالمعروف من سدنتها الفقراء، أو من يضطر إلى أخذها من أمراء مكة لأسباب قهرية. وقد جاء ذكر غالب هذه الأشياء عند الكلام على هدايا الكعبة ومعاليقها وأموالها.

فضل النظر إلى الكعبة

قال الطبري رحمه الله تعالى في كتابه "القرى لقاصد أم القرى" ما نصه:

وعن جعفر بن محمد عن أبيه عن جده عن النبي ﷺ: النظر إلى البيت الحرام عبادة، أخرجه صاحب مثير الغرام. وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: النظر إلى الكعبة محض الإيمان. وعن مجاهد أنه قال: النظر إلى الكعبة عبادة.

وعن سعيد بن المسيب قال: من نظر إلى الكعبة إيماناً وتصديقاً خرج من الخطايا كيوم ولدته أمه.

وعن عطاء قال: النظر إلى البيت يعادل عبادة سنة، قيامها وركوعها وسجودها. وعن ابن السائب المدني قال: من نظر إلى الكعبة إيماناً وتصديقاً تَحَاتَّتْ عنه الذنوب كما يتحات الورق من الشجر. أخرجهما صاحب مثير الغرام.

وعنه قال : النظر إلى البيت عبادة . والناظر إليه بمنزلة الصائم القائم الدائم المخبت المجاهد في سبيل الله . أخرج الأربعة الأزرقي ، والمخبت : الخاضع الخاشع المتواضع .

انتهى من كتاب الطبري المذكور .

فضل الطواف بالبيت الحرام

روى الإمام الأزرقي في تاريخه عن عطاء عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : (ينزل الله عز وجل على هذا البيت كل يوم وليلة عشرين ومائة رحمة : ستون منها للطائفين وأربعون للمصلين وعشرون للناظرين) .

قال حسان بن عطية : فنظرنا فإذا هي كلها للطائفين فإن الطائف هو يطوف ويصلي وينظر . اهـ .

نقول : وهذا مأخوذ من قوله ﷺ : "الطواف حول البيت مثل الصلاة إلا أنكم تتكلمون فيه فمن تكلم فيه فلا يتكلم إلا بخير" رواه الترمذي وغيره .

فالأصناف الثلاثة المذكورون هم الذين ينطبق عليهم قوله تعالى : ﴿وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود﴾ .

ولقد نظمنا ما ورد في الحديث المتقدم من تقسيم الرحمة النازلة على البيت الحرام بقولنا :

وجاء في الحديث ما معناه	ينزل الله تعالى الله
لبيته المحفوف بالكرامة	في كل يوم بل وكل ليلة
عشرين رحمة مضافاً لمائة	ينالها قوم همو خير فئة
منقسم للطائفين نصفها	وللمصلين يخص ثلثها
والناظرون البيت يأخذونا	عشرين وهو سدسها يقينا

وروى الأزرقي في تاريخه أن أنس بن مالك قدم المدينة فركب إليه عمر بن عبدالعزيز فسأله عن الطواف للغرباء أفضل أم العمرة ؟ قال : بل الطواف .

روى الإمام الأزرقي في تاريخه عن عطاء قال : سمعت ابن عباس يقول : النظر إلى الكعبة محض إيمان ، وروى فيه أيضاً أن حماد بن أبي سلمة قال : الناظر إلى

الكعبة كالمجتهد في العبادة في غيرها من البلاد ، وروى فيه أيضاً عن ابن عمر أنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : "من طاف بالبيت كتب الله عز وجل له بكل خطوة حسنة ومحا عنه سيئة" وروى فيه أيضاً عن مجاهد أنه قال : ما بين الركن والباب يدعى الملتزم ولا يقوم عبد ثم فيدعو الله عز وجل بشيء إلا استجاب له . وروى فيه أيضاً عن ابن عباس قال : من التزم الكعبة ثم دعا استجيب له فقيل له : وإن كانت استلامة واحدة قال : وإن كانت أوشك من برق الخلب . وروى فيه أيضاً عن عمرو بن شعيب عن أبيه قال : طفت مع عبدا لله بن عمرو فلما جئنا دبر الكعبة قلت : ألا تتعوذ ؟ قال : أعوذ با لله من النار ثم مضى حتى استلم الحجر فقام بين الركن والباب ثم وضع صدره ووجهه وذراعيه وكفيه بسطاً وقال : هكذا رأيت رسول الله ﷺ يفعل . وقال مجاهد : الصق خديك بالكعبة ولا تضع جبهتك .

فبيت ربنا عظيم القدر	ونوره سار كضوء البدر
قد وضع الله من الأسرار	فيه فلا تخفى على الأبرار
أحاطه بالبر والإجلال	وكيف وهو بيت ذي الجلال
سبحانه من خالق عظيم	جل تعالى الله من حليم
من سلم الأمر إليه سلما	ومن دعاه مخلصاً ما ندما

هيبة الكعبة وما يقال عند النظر إليها

مما لا شك فيه أن الله تعالى قد وضع في بيته الحرام من الأسرار ما لا يعلمها إلا هو ، وقد حفها بالأنوار والبركات الظاهرة والباطنة ، وبذلك صار لها في قلوب المؤمنين من الهيبة والإجلال ما لا يوصف بالقلم ، وأكثر ما يكون ذلك لدى القادم الزائر ، فإنه يقف لأول رؤيته لها خاشعاً مندهشاً ، ويختلف الخوف والخشوع والهيبة والإجلال باختلاف أحوال الإنسان كل بحسب معرفته بربه ، فموقف العالم العامل غير موقف العالم المهمل ، وموقف الجاهل المستقيم غير موقف الجاهل الفاسد ، وهكذا موقف كل واحد منهم في جميع العبادات .

قال البتنوني في رحلته الحجازية : ومن الغريب أن كل من يقع بصره لأول وهلة على الكعبة تراه في دهشة كبيرة ، لا لكون بصره وقع على شيء لم يتعود النظر إليه ، ولكن ما يعتريه من الخشية والرهبة . فترى هؤلاء المشاهدين تأخذهم

هزة كبيرة من هذا المنظر المهيب ، ومنهم من يقف لحظة في مكان المتأدب المستكين المتصاغر أمام هذه العظمة الكبرى ، ومنهم من يصرخ بصوت الخوف ولسانه يلهث بكلمات منفصلة عن بعضها ، ومنهم من يجهش بالبكاء فلا تسمع له غير نحيب يختنق معه صوته وتتقطع منه أنفاسه ، وعلى كل حال فنسبة خوف الإنسان من ربه على نسبة من قوة دينه ومتانة يقينه . انتهى منه .

وكيف لا تكون الكعبة كذلك ورسول الله ﷺ دعا لها بالتشريف والتعظيم والمهابة والتكريم كما سيأتي ، ثم هي موضع الرحمة ومستنزل البركات ، ومهبط الملائكة ومكان موقفهم ، وعندها الملتزم والمتعوذ والمستجار ، وهي مقصد الأنبياء والأتقياء ، وملجأ الصالحين والأبرار .

وأما ما يقال عند النظر إلى البيت الشريف لأول مرة ، فقد ورد في ذلك بعض الأدعية المأثورة ذكرها الإمام الأزرقي في تاريخه ونحن نذكرها بحذف أسانيدها فنقول :

كان النبي ﷺ إذا رأى البيت رفع يديه فقال : "اللهم زد هذا البيت تشريفاً وتعظيماً وتكريماً ومهابة ، وزد من شرفه وكرمه ممن حجه واعتمره تشريفاً وتعظيماً وبراً" .

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه إذا رأى البيت يقول : "اللهم أنت السلام ومنك السلام فحينا ربنا بالسلام" وكان بعض الصحابة رضي الله عنه يقول ذلك أيضاً .

حدث ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال : "ترفع الأيدي في سبع مواطن : في بدء الصلاة ، وإذا رأيت البيت ، وعلى الصفا والمروة ، وعشية عرفة ، وبتجمع وهو مزدلفة ، وعند الجمرتين ، وعلى الميت" انتهى منه .

تعظيم الكعبة في الجاهلية

الكعبة المشرفة معظمة بين الأنام من حين بنائها الأول وهي كذلك إلى قيام الساعة ، وكان الفرس يحترمونها من قديم الزمان ويهدون إليها أموالاً وجواهر ، وقد كان ساسان بن بابك أهدى إليها غزالين من ذهب وجواهر وسيوفاً وذهباً

كثيراً فلدفن في زمزم ، دفنها فيما بعد ملك جرهم مضاض بن عمرو في ليلة مظلمة خوفاً عليها من جرهم حيث تهاونوا بحرمة مكة والحرم حتى أكلوا أموال الكعبة .

والفرس كانوا يحجون إلى الكعبة ، وفي ذلك يقول أحد شعرائهم بعد الإسلام :

وما زلنا نحج البيت قدما ... ونلقي بالأباطح آمنينا
وساسان بن بابك سار حتى ... أتى البيت العتيق يطوف دينا
فطاف به وزمزم عند بئر ... لإسماعيل تروي الشاربينا

وقال غيره :

زمزم الفرس على زمزم ... وذاك من سالفها الأقدم

ولقد تعبد اليهود في الكعبة على دين إبراهيم والنصارى على دين المسيح عليهما الصلاة والسلام ، وقد وضعوا في الكعبة صوراً وتماثيل منها صورة إبراهيم وإسماعيل وعيسى وأمه وصور بعض الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، فلما كان يوم فتح مكة دخل رسول الله ﷺ البيت فأرسل الفضل بن العباس بن عبدالمطلب فجاء بماء زمزم ثم أمر بثوب فبل بالماء وأمر بطمس تلك الصور فطمست وأمر بإزالة الأصنام التي على الكعبة .

فلولا إجماعهم على قدسية الكعبة وتعظيمهم لها ما وضعوا صور الأنبياء في داخلها فإن الأشياء المقدسة الغالية ما توضع إلا في أشرف موضع وأطهر مكان .

وكان أهل الجاهلية لا يستحلون حرمتها ولا يستخفون بحقها خوفاً من أن يهلكهم الله تعالى فكانوا يتواصون بذلك . جاء في تاريخ الأزرقي ما نلخصه : كانت العماليق هم ولاة الحكم بمكة فضيعوا حرمة البيت الحرام ، واستحلوا فيه أموراً عظاماً ونالوا ما لم يكونوا ينالون ، فقام رجل منهم يقال له عموق فقال : يا قوم ابقوا على أنفسكم فقد رأيتم وسمعتم من هلك من صدر الأمم قبلكم قوم هود وصالح وشعيب فلا تفعلوا ، وتواصلوا فلا تستخفوا بحرم الله وموضع بيته ، وإياكم والظلم والإلحاد فيه ، فإنه ما سكنه أحد قط فظلم فيه وألحد إلا قطع الله دابرهم واستأصل شافتهم ، وبدل أرضها غيرهم ، حتى لا يبقى لهم باقية ، فلم يقبلوا ذلك منه .

ثم إن جرهماً قدموا مكة فكان مضاض بن عمرو ملكهم والمطاع فيهم، وكان السميدع ملك قطورا فأقاموا بها مع العماليق وبنوا بمكة البيوت واتسعوا في المنازل وكثروا على العماليق فنازلوهم فمنعتهم جرهم وأخرجوهم من الحرم كله فكانوا في أطرافه لا يدخلونه، فقال لهم صاحبهم عموق: ألم أقل لكم لا تستخفوا بحرمة الحرم فغلبتموني؟

ثم إن جرهماً استخفوا بأمر البيت والحرم وارتكبوا أموراً عظاماً، وأحدثوا فيه أحداثاً لم تكن، فقام مضاض بن عمرو بن الحارث فيهم فقال: يا قوم احذروا البغي فإنه لا بقاء لأهله قد رأيتم من كان قبلكم من العماليق استخفوا بالحرم فلم يعظموه وتنازعوا بينهم واختلفوا حتى سلطكم الله عليهم فأخرجتموهم فتفرقوا في البلاد، فلا تستخفوا بحق الحرم وحرمة بيت الله، ولا تظلموا من دخله وجاءه معظماً لحرمته، أو آخر جاء بايعاً لسلعته وراغباً في جواركم، فإنكم إن فعلتم ذلك تخوفت أن تخرجوا منه خروج ذل وصغار، حتى لا يقدر أحد منكم أن يصل إلى الحرم ولا إلى زيارة البيت الذي هو لكم حرز وأمن والطير يأمن فيه. قال قائل منهم يقال له مجذع: من الذي يخرجنا منه، ألسنا أعز العرب وأكثرهم رجالاً وسلاحاً؟ فقال مضاض بن عمرو: إذا جاء الأمر بطل ما تقولون.

فلما طالت ولاية جرهم استحلوا من الحرم أموراً عظاماً ونالوا ما لم يكونوا ينالون وأكلوا مال الكعبة الذى يهدى إليها سراً وعلانية، نضب ماء زمزم وذهب، وقام مضاض بن عمرو وبعض ولده في ليلة مظلمة فحفر في موضع بئر زمزم وأعمق ثم دفن فيه الأسياف والغزالين الذهب اللذين كانا في الكعبة، ثم سلط الله على جرهم عمرو بن عامر بن حارثة ابن ثعلبة الذي يقال له مزيقياء بن ماء السماء حيث خرج هو وقومه من مأرب إلى أن وصل مكة يريد الإقامة بها مدة يسيرة، فأبت جرهم عليهم ذلك وقالوا لهم: ما نحب أن تنزلوا فتضيقوا علينا مراتعنا ومواردنا فارحلوا عنا حيث أحببتم، فاقتتل الفريقان ثم انهزمت جرهم فلم ينفلت منهم إلا الشريد، وكان مضاض بن عمرو قد اعتزل جرهماً ولم يعن جرهماً في ذلك وقال: كنت أحذركم هذا.

ثم أقام بعد ذلك ابن ثعلبة بمكة وما حولها في قومه وعساكره حولاً فأصابتهم الحمى وكانوا في بلد لا يدرون فيه ما الحمى، فأشارت إليهم طريفة الكاهنة أن يتفرقوا في الممالك والبلدان فتفرقوا فمنهم من لحق بعمان ومنهم من لحق بحوران

وبالشام ومنهم من لحق بالعراق ، ومنهم من لحق بيثرب بالمدينة وهم الأوس والخزرج وهم الأنصار . أما خزاعة فلم ترحل فكانت بالأراك من بطن مر "أي بقرب مكة" فأقام بها ربيعة بن حارثة بن عمرو بن عامر وهو لحي فولي أمر مكة وحجابة الكعبة ، فحازت خزاعة بالحجابة وولاية أمر مكة وفيهم بنوا إسماعيل بن إبراهيم عليهما الصلاة والسلام ، فأقامت خزاعة على ما كانت عليه من ولاية البيت والحكم بمكة ثلاثمائة سنة ، وهي التي قاتلت بعض التبابعة الذين جاءوا لهدم البيت حتى أرجعوهم إلى حيث أتوا ، ثم كان من أمر قصي بن كلاب الجد الرابع للنبي ﷺ مع خزاعة من الحرب ما كان بسبب حيازته حجابة البيت وولاية أمر مكة من طرف حليل دون خزاعة حتى تداخلت قبائل العرب بالصلح بينهم بأن تكون الحجابة والولاية لقصي وألا تخرج خزاعة عن مساكنها من مكة .

وجاء في تاريخ الأزرقي عن ابن جريج قال : الحطيم ما بين الركن والمقام وزمزم والحجر ، وكان إساف ونائلة رجل وامرأة دخلا الكعبة فقبلها فيها فمسخا حجرين فأخرجا من الكعبة فنصب أحدهما في مكان زمزم والآخر في وجه الكعبة ليعتبرا بهما الناس ويزدجروا عن مثل ما ارتكبا ، قال : فسمي هذا الموضع الحطيم لأن الناس كانوا يحطمون هنالك بالأيمان ويستجاب فيه الدعاء على الظالم للمظلوم ، فقل من دعا هنالك على ظالم إلا هلك وقل من حلف هنالك ، إلا عجلت له العقوبة فكان ذلك يحجز بين الناس عن الظلم ويتهيب الناس الأيمان ، فلم يزل ذلك كذلك حتى جاء الله بالإسلام فأخرّ الله ذلك - لما أراد - إلى يوم القيامة .

حدثني جدي قال : حدثنا مسلم بن خالد الزنجي عن ابن نجيح عن أبيه أن ناساً كانوا في الجاهلية حلفوا عند البيت على قسامة وكانوا حلفوا على باطل ثم خرجوا حتى إذا كانوا ببعض الطريق نزلوا تحت صخرة فبينما هم قايلون إذ أقبلت الصخرة عليهم فخرجوا من تحتها يشتدون فانفلقت بخمسين فلقة فأدركت كل رجل منهما فلقة فقتلته وكانوا من بني عامر بن لؤي قال الزنجي : فكان ذلك الذي أقل عددهم فورث حويطب بن عبدالعزى عامة رباعهم .

روى معمر عن قتادة أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال لقريش : إنه كان ولاة هذا البيت قبلكم طسم فاستخفوا بحقه واستحلوا حرمته فأهلكهم الله ، ثم وليته بعدهم جرهم فاستخفوا بحقه واستحلوا بحرمته فأهلكهم الله ، فلا تهاونوا

به وعظموا حرمته ، وعن صفوان الوهطي قال : بلغني أن رسول الله ﷺ قال : سكن مكة حي من العرب كانوا يكرون الظلال ويبيعون الماء فأبدلها الله تعالى بهم قريشاً فكانوا يظلون في الظلال ويسقون الماء .

قال الأزرقي : وكانت مكة لا يقر فيها ظالم ولا باغ ولا فاجر إلا نفي منها ، وكان نزلها بعهد العماليق وجرهم جبابرة فكل من أراد البيت بسوء أهلكه الله فكانت تسمى بذلك الباسة "أي المهلكة" وما حادثة الفيل بخافية على أحد . انتهى باختصار وتصرف من تاريخ الأزرقي رحمه الله تعالى .

وهذا قريش لما أرادوا أن يبنوا الكعبة بعد أن احترقت هابوا هدمها فقال لهم الوليد بن المغيرة : أتريدون بهدمها الإصلاح أم الإساءة ؟ قالوا : بل نريد الإصلاح قال : فإن الله لا يهلك المصلحين ، قالوا : من الذي يعلوها فيهدمها . قال الوليد بن المغيرة : أنا أعلوها فأهدمها ، فارتقى الوليد على جدار البيت ومعه الفأس فقال : اللهم إنا لا نريد إلا الإصلاح ثم هدم ، فلما رأت قريش ما هدم منها و لم يأتهم ما يخافون من العذاب هدموا معه ، و لم يبنوها إلا من المال الحلال ومن أطيب كسبهم .

ومن تعظيمهم للكعبة المشرفة كما ذكره الإمام الأزرقي أن الناس كانوا يبنون بيوتهم مدورة تعظيماً للكعبة ، فأول من بنى بيتاً مربعاً حميد بن زهير فقالت قريش : ربع حميد بيتاً إما حياة وإما موتاً . وذكر أيضاً : أن شيبة بن عثمان كان يشرف فلا يرى بيتاً مشرفاً على الكعبة إلا أمر بهدمه . وذكر أيضاً : أن عمر بن الخطاب لما قدم مكة رأى حول الكعبة بناء قد أشرف عليها فأمر بهدمه وقال لهم : ليس لكم أن تبنوا حولها ما يشرف عليها .

وذكر أيضاً : أن العباس بن محمد بن علي بن عبدالله ابن عباس لما بنى داره التي بمكة على الصيارفة حيال المسجد الحرام أمر القوم ألا يرفعوا بناءها فيشرفوا به على الكعبة إعظاماً لها ، وأن الدور التي كانت تشرف على الكعبة هدمت وخربت إلا دار العباس هذه فإنها على حالها إلى اليوم . وذكر أيضاً عن يوسف بن ماهك قال : كنت جالساً مع عبدالله بن عمرو بن العاص في ناحية المسجد الحرام إذ نظر إلى بيت مشرف على أبي قبيس فقال : أبيت ذلك قلت : نعم . فقال : إذا رأيت بيوتها "يعني بذلك مكة" قد علت أخشباها وفجرت بطونها أنهاراً فقد أزف الأمر . انتهى كل ذلك من تاريخ الأزرقي .

اللهم اغفر لنا تهاوننا وقلة أدبنا في بلدك الأمين وبيتك الحرام المعظم ، فأنت الرب العزيز الأكرم الغني عن العالمين .

وبمناسبة عدم تعلية الدور والبيوت في العصور السابقة على الكعبة المشرفة تعظيماً واحتراماً لها نذكر هنا بعض ما يشبه ذلك ، فقد جاء في أواخر الجزء الثاني من كتاب "حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة" للإمام السيوطي رحمه الله تعالى ، أنه في سنة تسع عشرة وثمانمائة أمر الملك المؤيد الخطباء إذا وصلوا إلى الدعاء له في الخطبة ، أن يهبط من المنبر درجة ليكون اسم الله وسوله في مكانة أعلى من المكان الذي يذكر فيه السلطان ، فصنع ذلك الحافظ ابن حجر بالجامع الأزهر وابن النقاش بجامع ابن طولون ، قال ابن حجر : وكان مقصد السلطان في ذلك جميلا . انتهى منه .

نقول : إن ما ذكر يشبه فعل الخلفاء الراشدين رضي الله تعالى عنهم في صعود منبر النبي ﷺ للخطبة ، فقد كان لهذا المنبر ثلاث درجات كما في صحيح مسلم ، فالثالثة العليا تسمى المجلس ، وأن النبي ﷺ كان يجلس على المجلس ويضع رجليه على الدرجة الثانية ، فلما ولي أبو بكر رضي الله عنه قام على الدرجة الثانية ووضع رجليه على الدرجة السفلى ، فلما ولي عمر رضي الله عنه قام على الدرجة السفلى ووضع رجليه على الأرض ، فلما ولي عثمان رضي الله عنه فعل ذلك ست سنين من خلافته ثم علا إلى موضع النبي ﷺ .

فانظر رحمك الله تعالى إلى هذا الأدب الرفيع من الصحابة مع رسول الله ﷺ بعد مماته ومع بعضهم أيضاً ، فكل واحد منهم يعرف فضل الآخر ويعترف بمكانته ومقداره ، رضي الله تعالى عنهم أجمعين ، وانظر أدب الملك المؤيد رحمه الله تعالى كيف أمر الخطباء أن يهبطوا من المنبر درجة حين الدعاء له ليكون اسم الله تعالى ورسوله في درجة أعلى من درجة الدعاء له ، ولقد قرأنا في التاريخ أن أحد سلاطين آل عثمان "لا نذكر اسمه الآن" دخل ليلاً في حجرة نومه فرأى مصحفاً معلقاً على الجدار المقابل لنومه فلم ينم وما زال واقفاً على رجليه تأدباً واحتراماً للقرآن العظيم حتى أدركه الصبح "وإنما الأعمال بالنيات" .

فبهذه الأمور الدقيقة وبهذه الآداب العالية ، رفع الله قدرهم ومكانتهم وقوى ملكهم وسلطتهم وأدخل الرعب في قلوب أعدائهم ، أما نحن في هذه الأزمنة المتأخرة القريبة من قيام الساعة ، فقد أهملنا آداب الدين والشريعة ، بل إننا أهملنا

الفروض وتهاونا بالواجبات ، فلم يعبأ الله بنا وسلط علينا الأعداء حتى تكدر عيشنا ، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، اللهم تداركنا برحمتك وحول حالنا إلى أحسن الأحوال بفضلك ورحمتك يا أرحم الراحمين آمين .

ومن تعظيمهم للكعبة أنه لما فرغت قريش من بناء الكعبة كان أول من خلع الخف والنعل فلم يدخلها بهما الوليد بن المغيرة إعظاماً لها فجرى ذلك سنة فكانوا لا يدخلون الكعبة بحذاء وإنما يضعونها تحت الدرجة ، قال عطاء بن السائب : رأيت سعيد بن جبير رضي الله عنه يطوف فإذا دخل الحجر وضع نعليه على جدر الحجر ، وقال عبدالله بن الزبير رضي الله عنهما : إن كانت الأمة من بني إسرائيل لتقدم مكة فإذا بلغت ذا طوى خلعت نعالها تعظيماً للحرم .

ولقد كانت القبائل من عمالقة وجرهم وخزاعة وقريش وغيرهم يسكنون في شعاب مكة ويتركون حول الكعبة احتراماً لها وتعظيماً لشأنها فلا يجترئ أحد أن يبني بجوارها داراً ولا جداراً ، فلما آل الأمر إلى قصي بن كلاب جمع قومه بطون قريش وأمرهم أن يبنوا حول الكعبة بيوتاً من جهاتها الأربعة وقال لهم : إن سكنتم حول الكعبة هابتكم الناس ولم تستحل قتالكم والهجوم عليكم ، فبنوا بيوتهم حولها ، فكان ذلك أول بدء البنيان حول الكعبة . وسنتكلم إن شاء الله تعالى عن تعظيم الحرم بعد هذا ، وهل كان تعظيم الحرم إلا إكراماً للكعبة بيت الله الحرام .

وانظر كيف أرسل الله الصاعقة على أهل الشام الذين كانوا يرمون الكعبة بالمنجنيق الذي نصبوه على أخشبي مكة أبي قبيس والأحمر وهو قعيقعان فاحترقت بسبب ذلك ، قال الإمام الأزرقي في تاريخه : وكان احتراقها بعد الصاعقة التي أصابت أهل الشام بعشرين ليلة .

قال في الجامع اللطيف لابن ظهيرة ما نصه : روي أن الحجاج بن يوسف لما نصب المنجنيق على أبي قبيس بالحجارة والنيران واشتعلت النار في أستار الكعبة ، جاءت سحابة من نحو جدة يسمع فيها الرعد ويرى البرق فمطرت فلم يجاوز مطرها الكعبة والمطاف ، فأطفأت النار وأرسل الله عليهم صاعقة فأحرقت منجنيقهم فتداركوه . قال عكرمة : وأحسب أنها احترقت تحته أربعة رجال ، فقال الحجاج : لا يهولنكم هذا فإنها أرض صواعق فأرسل الله صاعقة أخرى فأحرقت المنجنيق وأحرقت معه أربعين رجلاً وذلك في سنة ثلاث وسبعين في أيام

عبدالملك بن مروان، قال الجد والحجاج: ما قصد التسلط على البيت وإنما تحصن به ابن الزبير ففعل ذلك لإخراجه. انتهى من الكتاب المذكور.

وجاء في تاريخ الخميس بصحيفة (٣٠٥) ما يأتي: وفي زبدة الأعمال وبعض المناسك: روي أن الحجاج بن يوسف نصب المنجنيق على أبي قبيس ورمى الكعبة بالحجارة والنيران حتى تعلقت بأستار الكعبة وأشعلت فجاءت سحابة من نحو جدة مرتفعة يسمع منها الرعد ويرى فيها البرق واستوت فوق الكعبة والمطاف فأطفأت النار وسال الميزاب في الحجر ثم عدلت إلى أبي قبيس فرمت بالصاعقة وأحرقت منجنيقهم وأحرقت تحته أربعة رجال فقال الحجاج: لا يهولنكم هذا فإنها أرض صواعق فأرسل الله صاعقة أخرى فأحرقت المنجنيق وأحرقت معه أربعين رجلاً وذلك في سنة ثلاث وسبعين في أيام عبدالملك بن مروان فأمسك وكتب بذلك إلى عبدالملك ووهى البيت بسبب ما أصابه من حجارة المنجنيق ثم هدم الحجاج بأمر عبدالملك ما زاد ابن الزبير في الكعبة وبناه. انتهى من الكتاب المذكور.

نقول: وهنا نمسك القلم، ففيما تقدم عبرة وعظة كافيتان لذوي الأبصار، فإذا كان المنتقم الجبار قد أهلك الأمم السابقة الذين تهاونوا بحرمة بيته الحرام، فكيف بنا ونحن قد تهاونا بحرمة البيت والحرم، وتهاوناً بأمور ديننا القويم وتركنا سنة نبينا الكريم محمد ﷺ، فظهر فينا الفساد وكثرت الموبقات وفشا فينا الظلم والرشوات، ولئن لم ينتقم الله منا ولم يهلكنا كما أهلك الأمم السابقة، فإنه قد سلط علينا الأعداء، ورفع عنا البركة والرخاء وقضى علينا بأنواع الأمراض والبلاء، وأمات قلوبنا فلا ينفع فيها الوعظ والإرشاد، وجعل على بصائرنا غشاوة فلا نهتدي إلى ما ينفعنا، ونزع منا الرحمة فلا يرحم بعضنا بعضاً، فلا حول ولاقوة إلا بالله العلي العظيم وإنا لله وإنا إليه راجعون، اللهم يا رحمن يا رحيم يا حي يا قيوم إليك نلجأ وبك نستغيث وبك نعوذ، فارفع مقتك وغضبك عنا وعاملنا بما أنت أهله من العفو والكرم لا بما نحن نستحقه، اللهم ارفع عنا الوباء والبلاء والغلاء، وأنزل علينا من بركات السماء وأخرج لنا من بركات الأرض، وافتح لنا أبواب الخير والهداية والصلاح، واكشف عن قلوبنا الغشاوة حتى نبصر الطريق القويم ونمشي على صراطك المستقيم، وأصلح جميع أحوالنا وأعمالنا

بفضلك ورحمتك يا أرحم الراحمين ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ، وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين .

تطييب الكعبة

الطيب وهو العطر استعمله الإنسان منذ العصور القديمة وهو من أحسن كماليات الإنسان تستروح به النفس وينشرح له الصدر ، والتعطر والنظافة من أفضل عادة العرب ومثله البخور بالعود والصندل واللبان وغيرها ، وقد حث الدين الإسلامي على ذلك بأن يستعمله الإنسان في نفسه ولدى حضور الاجتماعات والجمعة والأعياد وعند كل مناسبة لطيفة ، والسر في ذلك التحبب والإقبال وعدم الكراهة والنفور . روى الأزرقي عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها أنها قالت : "طيبوا البيت فإن ذلك من تطهيره" ، وقالت أيضاً : "لأن أطيب الكعبة أحب إلي من أن أهدي لها ذهباً وفضة" وذلك لأن الطيب نفعه أكثر فتطييب رائحة الكعبة على الدوام فتستروح الأنفس إليها ، كما أن طيبها ينتقل إلى الناس كلما قربوا منها ولمسوها ، أما الذهب والفضة فلا ينتفع بهما سوى سدنتها فقط .

ولما كانت الكعبة المشرفة لها من التقديس والتعظيم في النفوس ، وأن الناس يتلمسونها ويطوفون بها آناء الليل والنهار ويجتمعون عندها للصلاة والدعاء والتضرع كانت أدعى إلى تطييبها وتبخيرها ، فكان في الجاهلية يهدى إليها الخلوق والمجمر ، وكان العرب يطيبونها داخلاً وخارجاً بل حتى كانوا يطيبون معها قرني الكبش الذي فدى به إسماعيل وذبحه إبراهيم صلوات الله وسلامه عليهما فقد كانا محفوظين داخل الكعبة معلقين بالجدر تلقاء من دخلها إلى أن هدمها ابن الزبير فلما أراد أن يتناولهما همدا من الأيدي كما ذكره الإمام الأزرقي .

وما احترقت الكعبة في أيام قريش قبل البعثة بخمس سنين على أشهر الأقوال إلا من تبخيرها وتجميرها ، فإن امرأة من قريش ذهبت تجمر الكعبة فطارت من مجمرتها شرارة فاحترقت كسوتها وكانت الكسوة عليها ركاماً بعضها فوق بعض فاحترقت الكعبة وتوهنت جدرانها وتصدعت ، فهدمتها قريش وبنتها بناء قويا كما هو مفصل بيانه في محله ، ومعنى التجمير التبخير .

وهذا عبدالله بن الزبير رضي الله عنهما فإنه لما فرغ من بناء الكعبة المشرفة خلقها من داخلها وخارجها من أعلاها إلى أسفلها وكساها القباطي كما في

تاريخ الأزرقي ، ومعنى خلّقها : طلاها بضرب من الطيب ، فكان ابن الزبير أول من خلّق جوف الكعبة .

وروى الأزرقي أن عبدا لله بن الزبير كان يجمر الكعبة كل يوم برطل من مجمر ويجمر الكعبة كل جمعة برطلين من مجمر . اهـ .

وروى الأزرقي أن معاوية رضي ا لله عنه بعث من الشام إلى شيبة بن عثمان بكسوة من ديباج وقباطي وحبرة وكتب إليه أن يجرد الكعبة ويكسوها ويخلّقها ، قال : فرأيت شيبة جردها حتى لم يترك عليها شيئاً مما كان عليها وخلّق جدرانها كلها وطيبها ثم كساها تلك الكسوة التي بعث بها معاوية إليها وقسم الثياب التي كانت عليها على أهل مكة وكان ابن عباس حاضراً في المسجد الحرام وهم يجردونها قال : فما رأيته أنكر ذلك ولا كرهه . اهـ . قال عطاء بن يسار : وكانت الكعبة قبل هذا لا تجرد إنما يخفف عنها بعض كسوتها وتترك عليها حتى كان شيبة بن عثمان أول من جردها وكشفها . اهـ .

جاء في تاريخ القطبي ما يأتي : وذكر حجبة الكعبة المهدي أنه تراكمت على الكعبة كسوة كثيرة أثقلتها ويخاف على جدرانها من ثقلها ، فأمر بنزعها فنزعت حتى بقيت مجردة ، ووجدوا كسوة هشام من الديباج الثخين وكسوة من قبله من ثياب اليمن ، فجردت الكعبة منها وعلى جدرانها من داخلها وخارجها بالغالية والمسك والعنبر .

وصعد الخدم على سطح الكعبة وصاروا يسكبون قوارير الغالية الممسكة المطيبة على جدارات الكعبة إلى أن استوعبوها ، ثم كسيت ثلاث كساوى من القباطي والخز والديباج ، وقسم المهدي في الحرمين الشريفين أموالاً عظيمة وهي ثلاثون ألف ألف درهم وصل بها معه من العراق ، وثلثمائة ألف دينار وصلت إليه من مصر ، ومائتا ألف دينار وصلت إليه من اليمن وخمسين ألف ثوب فرق جميع ذلك على أهل الحرمين .

جاء في تاريخ عمارة الكعبة : أن السنجاري روى في تاريخه أن السلطان قايتباي أمر في سنة (٨٨٤) أربع وثمانين وثمانمائة بغسل الكعبة وتطييبها ظاهراً وباطناً ، فحضر شريف مكة الشريف محمد بن بركات وقاضي مكة برهان الدين بن ظهيرة ، وجردت الكعبة وغسلت ظاهراً وباطناً وطيبت بماء الورد والمسك ثم أعيد ثوبها . انتهى .

وروى الأزرقي عن أبي نجيح أن معاوية رضي ا الله عنه أجرى للكعبة وظيفة الطيب لكل صلاة وكان يبعث لها بالمجمر والخلوق في الموسم وفي رجب وأخدمها العبيد ثم اتبعت ذلك الولاة . اهـ . وهو أول من أجرى الزيت لقناديل المسجد من بيت المال .

وجاء في تاريخ الغازي : لما حج المهدي العباسي سنة (١٦٠) رفع إليه أنه قد اجتمع على الكعبة ثياب كثيرة حتى أنها أثقلتها ويخشى على الجدران من ذلك فأمر بتجريدها ثم ضمخها من خارجها وداخلها بالغالية والمسك والعنبر ثم كساها بثلاثة أثواب قباطي وخز وديباج وهو جالس في المسجد مما يلي دار الندوة . انتهى .

وفي هذه السنة المذكورة أمر المهدي المذكور بالمسجد الحرام وزاد فيه الزيادة الأولى قال الأزرقي : وأخبرني عبدا لله بن إسحاق الحجبي عن جدته فاطمة بنت عبدا لله قالت : حج المهدي فجرد الكعبة وطلا جدرانها من خارج بالغالية والمسك والعنبر قالت : فأخبرني جدك تعني زوجها محمد بن إسماعيل بن إبراهيم الحجبي قال : صعدنا على ظهر الكعبة بقوارير من الغالية فجعلنا نفرغها على جدران الكعبة من خارج من جوانبها كلها وعبيد الكعبة قد تعلقوا بالبكرات التي تخاط عليها ثياب الكعبة ويطلون بالغالية جدرانها من أسفلها إلى أعلاها . اهـ .

قال المرحوم الشيخ حسين باسلامة في كتابه تاريخ الكعبة المعظمة ما نصه : ثم صار ذلك الطيب يهدى للكعبة من سائر الملوك والسلاطين والأمراء إلى أن صارت ولاية الحرمين الشريفين تابعة لسلاطين آل عثمان فصار الطيب والبخور يأتي سنوياً من القسطنطينية من ضمن المرتبات التي خصصت للحرمين الشريفين واستمر ذلك إلى نهضة الشريف الحسين ثم صار يصرف لرئيس السدنة من صندوق وزارة المالية شيئاً من النقود مع مخصص غسيل الكعبة المعظمة برسم الطيب والعمل جار على ذلك إلى العصر الحاضر . انتهى .

ونحن بدورنا سألنا فضيلة رئيس سدنة الكعبة المشرفة عن عطر الكعبة فأجابنا بمثل ما ذكره المرحوم الشيخ حسين باسلامة ، وقال : إن حكومتنا السعودية تدفع لنا ثمن العطر والبخور مقدار ألفي ريال سعودي سنوياً ، وقال : تطيب كافة جدران الكعبة من جهاتها الأربعة بعطر الورد بعد خلطه بماء الورد ويطلق البخور في أثناء ذلك من المجمرة التي توضع في محل خاص بوسط الكعبة .

هذا ما وقفنا عليه من تطييب الكعبة . وأما حكم أخذ طيب الكعبة فقد ذكر الإمام النووي رحمه الله تعالى بأنه لا يجوز أخذ شيء من طيب الكعبة لا للتبرك ولا لغيره ومن أخذ شيئاً من ذلك لزمه رده فإن أراد التبرك أتى بطيب من عنده فمسحها به ثم أخذه . وروي عن سعيد بن جبير أنه كان يكره أن يؤخذ من طيب الكعبة يستشفى به ، وقال عطاء : كان أحدنا إذا أراد أن يستشفي به جاء بطيب من عنده فمسح به الحجر ثم أخذه .

عدم خلو الكعبة من الطائفين

من الأسرار الإلهية العجيبة الدقيقة في بيته الحرام والكعبة المعظمة المشرفة المكرمة أنها لا تخلو قط من الطواف والطائفين آناء الليل وأطراف النهار حتى في وقت نزول المطر وهجوم السيل إلى المسجد الحرام وفي شدة الحر والبرد وهذا النوع من العبادة فريد في بابه في الحياة الدنيا . قال الحافظ محب الدين الطبري في كتابه "القرى لقاصد أم القرى" ما نصه :

وقد قيل إن الكعبة شرفها الله تعالى منذ خلقها عز وجل شأنه وجل جلاله ما خلت من طائف يطوف بها من إنس أو جن أو ملك ، وقال بعض السلف : خرجت يوماً في هاجرة ذات سموم فقلت : إن خلت الكعبة عن طائف في حين فهذا ذلك الحين ، ورأيت المطاف خالياً فدنوت فرأيت حية عظيمة رافعة رأسها تطوف حول الكعبة . ذكره ابن الصلاح في منسكه . انتهى من الطبري .

وجاء في شفاء الغرام للفاسي : قال السهيلي : لما ذكر بناء ابن الزبير للكعبة وفي الخبر أنه سترها حتى وصل إلى القواعد فطاف الناس بتلك الأستار فلم تخل قط من طائف ، حتى لقد ذكر أن يوم قتل ابن الزبير رضي الله تعالى عنهما اشتدت الحرب واشتغل الناس فلم ير طائف يطوف بالكعبة إلا جمل يطوف بها . انتهى منه .

قال العلامة القطبي في تاريخه المسمى "الإعلام بأعلام بيت الله الحرام" في الباب الأول ما نصه : وكنت أشاهد قبل الآن في زمن الصبا خلو الحرم الشريف وخلو المطاف من الطائفين حتى أني أدركت الطواف وحدي من غير أن يكون معي أحد مراراً كثيرة ، أترصده خلياً لكثرة ثوابه بأن يكون الشخص الواحد يقوم

بتلك العبادة وحده في جميع الدنيا وهذا لا يكون إلا بالنسبة إلى الإنسان فقط ، وأما الملائكة فلا يخلو منهم المطاف الشريف .

ثم قال بعد بضعة أسطر : حكى لي والدي رحمه الله أن أحد الصالحين رصد الطواف أربعين عاماً ليلاً ونهاراً ليفوز بالطواف وحده ، فرأى بعد هذه المدة خلو المطاف الشريف فتقدم ليشرع في الطواف وإذا بحية تشاركه في ذلك الطواف ، فقال لها : من أنت من خلق الله؟ قالت : أنا أرصد ما رصدت قبلك بمائة عام ، فقال لها : حيث أنت من غير البشر فإني فزت بالانفراد بهذه العبادة وأتم طوافه . انتهى من تاريخ القطبي .

أما ما جاء في موطأ الإمام مالك عند الكلام على "الصلاة بعد الصبح والعصر في الطواف" وهو : وحدثني عن مالك عن أبي الزبير المكي أنه قال : لقد رأيت البيت يخلو بعد صلاة الصبح وبعد صلاة العصر ما يطوف به أحد ، فإننا لم نفهم هذا الكلام حق الفهم ، فإن وقع هذا فهل روى مثله أحد من المحدثين والمفسرين والمؤرخين أم لا ، ثم إن وقع ذلك فمن الذي أبطل هذه العادة حتى صار الناس يطوفون بالبيت في كل وقت وحين حتى بعد الصبح وبعد العصر إلى يومنا هذا بل إلى يوم القيامة إن شاء الله تعالى .

جاء في الجامع اللطيف لابن ظهيرة القرشي : وعن مجاهد قال : كان كل شيء لا يطيقه الناس من العبادة يتكلفه ابن الزبير رضي الله تعالى عنه ، فجاء سيل فطبق البيت فامتنع الناس من الطواف فجعل ابن الزبير يطوف سباحة ، وذكر القاضي عز الدين بن جماعة عن جده أنه طاف بالبيت سباحة وكان كلما حاذى الحجر الأسود غطس لتقبيله ، وذكر أن بعض المكيين أخبره أنه اتفق له مثل ذلك . انتهى منه .

نقول : مسألة الطواف سباحة لا يزال بعض الناس بمكة إلى اليوم يطوفون سباحة بالكعبة المعظمة عند دخول السيل العظيم إلى المسجد الحرام وممن طاف سباحة في السيل الكبير الذي دخل المسجد الحرام سنة (١٣٦٠) ستين وثلاثمائة وألف صديقنا الفاضل السيد محمد الهادي بن علوي عقيل من أهالي مكة المشرفة والساكن بباب الزيادة .

ولقد خلا المطاف من الطائفين بعض الأوقات في عصرنا هذا بعد صلاة الظهر فقط وذلك عند ضرب الألغام وإثارتها عند الصفا لتكسير الجبل لتوسعة المسجد

الحرام والشارع ، فإنهم كانوا يخرقون الجبل أولاً بالآلات الثاقبة قد يبلغ مائتي ثقب وقد يبلغ ثلاثمائة ثقب ، ثم يملأون هذه الثقوب بالديناميت وفي كل منها فتيل يكون طرف الفتيلة خارجاً عن الثقب ثم يشعلونها ويبتعدون عنها فإذا وصلت النار من الفتيلة إلى الديناميت ثار وفجر تلك الثقوب فتكسر الصخور وتتطاير الأحجار إلى مسافة بعيدة في كل جهة .

لذلك قبيل إشعال الفتيل بدقائق ينذر الذين يشتغلون بالألغام الناس ليبتعدوا ويختبئوا في البيوت وتحت السقوف وأن لا يجلس أحد في طاقات وشبابيك منازلهم المطلة على مواضع الألغام خوفاً من إصابتهم بالحجارات المتطايرة عند إثارة الألغام ، ويكون هناك الجنود أيضاً في الشارع يصفرون بصفارات الإنذار بقرب إثارتها ، ويمنعون الناس من المرور بقربها ، فإذا ثارت الألغام خلت الشوارع والأماكن القريبة منها من الناس .

ولما كان المسجد الحرام قريباً من جبل الصفا وكانت الكعبة بوسط المسجد المكشوف غير المسقوف ، فإنه عند إثارة الألغام يهرب الناس من الطواف حول الكعبة ويستترون في أروقة المسجد الحرام وجدرانه ، ولا يترك حفظة المسجد الحرام وجنوده أن يطوف أحد بالكعبة ولا أن يقربوا الحجر الأسود ولا أن يمشوا في صحن المسجد خوفاً من إصابة أحد بالأحجار المتطايرة عند إثارة الألغام بعد صلاة الظهر مباشرة .

ففي هذا الوقت فقط يخلو المطاف عياناً من الطائفين مدة لا تتجاوز نصف الساعة . وإليك صورة خلو المطاف وصحن المسجد من الناس .

انظر: صورة رقم ٩٧ ، المطاف خالياً من الناس

وإليك صورة الحجر الأسود وقد وضعت عليه الستارة لوقايته وحفظه والستارة عبارة عن سلم خشبي كما تراه في الصورة وهو لا يعني شيئاً فوقاية الله تعالى أعظم وأكمل .

انظر: صورة رقم ٩٨ ، صحن المسجد خالياً من الناس

وفي هذه الحالة تحافظ حكومتنا السنية على الحجر الأسود فقد أمرت أن يوضع عليه فراش مطوي عدة طيات ثم يوضع فوق الفراش لوح من الحديد ويربط بستارة الكعبة من الجانبين بالحبال ، لحفظه وصيانته وذلك خوفاً من إصابته بحجارة الألغام التي تتطاير ولكن لم يحصل و لله الحمد أن شيئاً منها وصل إلى صحن

المسجد والمطاف . وقد تكلمنا أيضاً على ستر الحجر الأسود خوفاً عليه من الألغام عند الكلام على ستر الكعبة في حرب ابن الزبير .

وقد بدأت إثارة الألغام لتكسير جبل الصفا قرب المسجد الحرام من ابتداء العمل في توسعة المسجد الحرام وذلك من سنة (١٣٧٥) خمس وسبعين وثلاثمائة وألف .

الطواف في الجاهلية

كان أهل الجاهلية يطوفون بالبيت سبعاً ، وكانوا يجعلون الكعبة عن يمينهم حين الطواف ، ويستلمون الحجر الأسود في البدء والختام ، وكانوا يفتحون البيت يوم الاثنين ويوم الخميس ، ولا يدخلونه بحذاء بل يضعون نعالهم تحت الدرجة تعظيماً له ، وكانوا يطوفون بالبيت عراة . فقد روى الأزرقي في تاريخه عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : فكانت قبائل من العرب من بني عامر وغيرهم يطوفون بالبيت عراة : الرجال بالنهار ، والنساء بالليل فإذا بلغ أحدهم باب المسجد قال للحمس : من يعير مصوناً من يعير معوزاً فإن أعاره أحمسي ثوبه طاف به وإلا ألقى ثيابه بباب المسجد ثم دخل للطواف فطاف بالبيت سبعاً عرياناً ، وكانوا يقولون : لا نطوف في الثياب التي قارفنا فيها الذنوب ثم يرجع إلى ثيابه فيجدها لم تحرك فيأخذها ويلبسها ، ولا يعود بعد ذلك إلى الطواف عرياناً ولم يكن يطوف بالبيت عريان إلا الضرورة من غير الحمس : فأما الحمس فكانت تطوف في ثيابها ، إلى آخر ما ذكره الأزرقي من عاداتهم وأحوالهم تفصيلاً في تاريخه فراجعه إن شئت .

ثم لما جاء الإسلام منع من الطواف بالبيت عرياناً ، فإنه لما حج أبو بكر بالناس في الحجة التي أمره النبي ﷺ قبل حجة الوداع أذن يوم النحر في الناس لا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان . ذكره البخاري في صحيحه في أواخر كتاب بدء الخلق .

جاء في تاريخ الأزرقي رحمه الله تعالى : أن امرأة جاءت يوماً لتطوف بالبيت وكان لها جمال وهيئة ، فطلبت ثياباً عادية فلم تجد من يعيرها فلم تجد بداً من أن تطوف عريانة فنزعت ثيابها بباب المسجد ثم دخلت المسجد عريانة فوضعت يدها على فرجها وجعلت تقول :

اليوم يبدو بعضه أو كله ... وما بدا منه فلا أحله

قال : فجعل فتيان مكة ينظرون إليها وكان لها حديث طويل وقد تزوجت في قريش . انتهى من الأزرقي .

تقول : وقائلة هذا البيت هي ضباعة بنت عامر بن قرط القشيرية وقد أسلمت وهاجرت رضي الله تعالى عنها وخلاصة قصة طوافها بالبيت عريانة :

أنها كانت عند عبدا لله بن جدعان ثم رغب فيها هشام بن المغيرة ، فطلبت الطلاق من ابن جدعان لتتزوجه ، فاشترط عليها لطلاقها أن تنحر مائة ناقة سوء الحدق ، وأن تغزل خيطاً يمد بين أخشبي مكة ، وأن تطوف بالبيت عريانة فعرضت هذه الشروط على هشام فتكفل لها بذلك ، وقال لها : أنا أسأل قريشاً أن يخلو لك البيت ساعة لتطوفي عريانة . فلما ذهبت لتطوف جعلت تخلع ثوباً ثوباً وهي تقول :

اليوم يبدو بعضه أو كله ... فما بدا منه فلا أحله

حتى نزعت ثيابها ثم نشرت شعرها فغطى بطنها ، وظهرها حتى صار في خلخالها فما استبان من جسدها شيء وأقبلت تطوف بالبيت وهي تقول هذا الشعر .

وقد جاءت ترجمتها وقصتها في كتاب "الإصابة في تمييز الصحابة" فارجع إليها إن شئت .

جاء في صحيح البخاري في باب مناقب الأنصار في باب أيام الجاهلية : عن قيس بن أبي حازم ، قال : دخل أبو بكر على امرأة من أحمس يقال لها زينب ، فرآها لا تكلم فقال : ما لها لا تكلم ، قالوا : حجت مصمتة ، قال لها : تكلمي فإن هذا لا يحل هذا من عمل الجاهلية ، فتكلمت فقالت : من أنت ، قال : امرؤ من المهاجرين ، قالت : أي المهاجرين؟ قال : من قريش ، قالت : من أي قريش أنت؟ قال : إنك لسؤول ، أنا أبو بكر ، قالت : ما بقاؤنا على هذا الأمر الصالح الذي جاء الله به بعد الجاهلية؟ قال : بقاؤكم عليه ما استقامت بكم أئمتكم قالت : وما الأئمة؟ قال : أما كان لقومك رؤوس وأشراف يأمرونهم فيطيعونهم؟ قالت : بلى ، قال : فهم أولئك على الناس . انتهى .

الجلوس في الحجر والمطاف في الجاهلية

كان المطاف وحجر إسماعيل عليه السلام في زمن الجاهلية مجلساً عاماً يجتمعون فيهما ويجلسون بفناء الكعبة وظلها يتذاكرون في مختلف شؤونهم ، أما المجلس الخاص الذي يعقده كبار القوم وأشرافهم للنظر في الأمور المهمة فقد كان في دار الندوة . روى الإمام الأزرقي في تاريخه عن جده أنه قال : كان المسجد الحرام محاطاً بجدار قصير غير مسقف وكان الناس يجلسون حول الكعبة بالغداة والعشي يتتبعون الأفياء فإذا قلص قامت المجالس . اهـ . وقلص الظل بمعنى نقص .

وروى الإمام الأزرقي أيضاً في تاريخه عن ابن جريج أنه قال : كنا جلوساً مع عطاء بن أبي رباح في المسجد الحرام "وحدوده في ذلك العهد هو نفس المطاف اليوم" فتذاكرنا ابن عباس وفضله وعلي بن عبدا لله ابن عباس في الطواف وخلفه ابنه محمد بن علي فعجبنا من تمام قامتهما وحسن وجوههما فقال عطاء : وأين حسنهما من حسن عبدا لله ابن عباس ما رأيت القمر ليلة أربع عشرة وأنا في المسجد الحرام طالعاً من جبل أبو قبيس إلا ذكرت وجه ابن عباس ولقد رأيتنا جلوساً معه في الحجر إذ أتاه شيخ قديم بدوي من هذيل يهدج على عصاه فسأله عن مسألة فأجابه فقال الشيخ لبعض من في المجلس : من هذا الفتى ؟ فقالوا : هذا عبدا لله ابن العباس بن عبدالمطلب فقال الشيخ : سبحان الذي مسح حسن عبدالمطلب إلى ما أرى ، فقال عطاء : سمعت ابن عباس يقول : سمعت أبي يقول : كان عبدالمطلب أطول الناس قامة وأحسن الناس وجهاً ما رآه قط شيء إلا أحبه وكان له مفرش في الحجر لا يجلس عليه غيره ولا يجلس معه عليه أحد وكان الندى من قريش حرب بن أمية فمن دونه يجلسون حوله دون المفرش فجاء رسول ا لله ﷺ وهو غلام يدرج ليجلس على المفرش فجبذوه فبكى فقال عبدالمطلب : وذلك بعدما حجب بصره ما لابني يبكي ؟ قالوا له : إنه أراد أن يجلس على المفرش فمنعوه فقال عبدالمطلب : دعوا ابني فإنه يحس بشرف أرجو أن يبلغ من الشرف ما لم يبلغ عربي قط ، قال : وتوفي عبدالمطلب والنبي ﷺ ابن ثمان سنين وكان خلف جنازته يبكي حتى دفن بالحجون .

وروى الأزرقي أيضاً عن أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي ا لله تعالى عنهما قالت : لما نزلت ﴿تبت يدا أبي لهب وتب﴾ جاءت أم جميل بنت حرب بن أمية

امرأة أبي لهب ولها ولولة وفي يدها فهر فدخلت المسجد ورسول الله ﷺ جالس في الحجر ومعه أبو بكر رضي الله عنه فأقبلت وهي تلملم الفهر في يدها وتقول: مذمماً أبينا، ودينه قلينا، وأمره عصينا، قالت فقال أبو بكر رضي الله عنه: يا رسول الله هذه أم جميل وأنا أخشى عليك منها وهي امرأة فلو قمت، فقال: إنها لن تراني وقرأ قرآناً اعتصم به، ثم قرأ: ﴿وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجاباً مستوراً﴾ قالت: فجاءت حتى وقفت على أبي بكر رضي الله عنه وهو مع رسول الله ﷺ ولم تره فقالت: يا أبا بكر فأين صاحبك، قال: الساعة كان هاهنا قالت: إنه ذكر لي أنه هجاني وايم الله إني لشاعرة وإن زوجي لشاعر ولقد علمت قريش أني بنت سيدها، قال سفيان قال الوليد في حديثه: فدخلت الطواف فعثرت في مرطها فقالت: نفس مذمم، فقال النبي ﷺ: ألا ترى يا أبا بكر ما يدفع الله تعالى به عني من شتم قريش يسموني مذمماً وأنا محمد فقالت لها أم حكيم ابنة عبدالمطلب: مهلاً يا أم جميل، إني لحصان فما أكلم، وثقاف فما أعلم وكلتانا من بني العم، ثم قريش بعد أعلم.

انتهى من تاريخ الأزرقي.

ومعنى قول أبي بكر: "يا رسول الله هذه أم جميل وأنا أخشى عليك منها وهي امرأة فلو قمت" أي هذه امرأة لو أساءت إليك نقع في حرج عظيم، فإننا لا نقدر على ضربها والانتقام منها لأنها امرأة، والتعدي على المرأة ليس من الشهامة والمروءة، كما أننا لا نصبر على امرأة تتعدى عليك، فلو قمت يا رسول الله وتواريت عنها لاسترحنا من أمرها. فقال رسول الله ﷺ: إنها لن تراني، وبالفعل أنها لما وقفت عليهما ما رأته، فكانت هذه المعجزة ثبتت مكانة رسول الله ﷺ وقوت عزته ونصره.

استحباب الدخول في الكعبة

اعلم أنه يستحب الدخول إلى الكعبة المشرفة بأدب وخشوع وأن يصلي فيها، والأفضل أن يقصد مصلى رسول الله ﷺ، فإذا دخل البيت مصلي حتى يكون بينه وبين الجدار الذي قبل وجهه قريباً من ثلاثة أذرع فيصلي. ثبت ذلك في صحيح البخاري، ويدعو في جوانبه وهذا بحيث لا يؤذي أحداً ولا يتأذى هو، فإن حصل الإيذاء له أو لغيره حرم دخوله، فإذا دخل البيت فليكن شأنه الدعاء

والتضرع ولا يشتغل بالنظر إلى ما يلهيه فإنه في بيت الله تعالى الذي قال فيه: ﴿إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً وهدى للعالمين ۞ فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمناً﴾. ويستحب أيضاً أن يكثر من دخول الحجر ويقال له الحطيم فإنه من البيت ودخوله سهل، والدعاء فيه تحت الميزاب مستجاب، روي عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: "كنت أحب أن أدخل البيت فأصلي فيه فأخذ رسول الله ﷺ بيدي فأدخلني الحجر وقال: "صلي فيه إن أردت دخول البيت فإنما هو قطعة من البيت" ويستحب الشرب من ماء زمزم والتضلع منه، أي الامتلاء منه. فقد روي عن جابر رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: "ماء زمزم لما شرب له" وعن أبي ذر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال في ماء زمزم: "إنها مباركة وأنها طعام طعم وشفاء سقم" رواه مسلم.

ويستحب لمن أراد الشرب منه أن يستقبل القبلة ويقول: اللهم إن بلغني أن نبيك محمداً قال: "ماء زمزم لما شرب له" وإني أشربه لتشفيني أو ترزقني علماً أو مالاً أو ذرية أو غير ذلك من الحاجات ثم يسمي الله تعالى ويشرب، ويستحب نقله تبركاً، فإن النبي ﷺ استهداه من سهيل ابن عمرو، وكفا هذا الماء المبارك شرفاً أنها تخرج من تحت الكعبة المعظمة ومن الصفا والمروة. اهـ.

وجاء في تاريخ الأزرقي: عن ابن جريج عن نافع مولى ابن عمر قال: كان ابن عمر إذا قدم مكة حاجاً أو معتمراً فوجد البيت مفتوحاً لم يبدأ بشيء أول من أن يدخله. اهـ.

وروى الأزرقي عن جده عن مسلم بن خالد الزنجي أحد فقهاء مكة قال: رأيت صدقة بن يسار يدخل البيت كلما فتح فقلت له: ما أكثر دخولك البيت يا أبا عبدالله؟ قال: والله إني لأجد في نفسي أن أراه مفتوحاً ثم لا أصلي فيه. انتهى منه.

نقول: إن كثرة الدخول إلى الكعبة المعظمة أو قلّتها راجع إلى حال الشخص نفسه، فإن آنس من نفسه الرغبة الشديدة في دخولها مع مراعاة كامل الأدب في كل مرة وفي كل وقت تفتح فيه الكعبة، فإنه يطلب له الدخول في كل مرة مهما تكرر دخوله، وهذه الحالة لا تكون إلا للعلماء الصالحين.

وما رواه البخاري في صحيحه بأن ابن عمر رضي الله عنهما كان يحج كثيراً ولا يدخل الكعبة. فهذا أمر يرجع إلى اجتهاد ابن عمر وهو الحريص على تتبع آثار

النبي ﷺ ، فعدم دخوله لا بد أن يكون لحكمة دقيقة ، وربما كانت حتى لا يظن الناس أن دخول الكعبة من مناسك الحج لا يتم إلا بدخولها والله تعالى أعلم .

ولا ينبغي أن يفهم مما تقدم أن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما لم يدخل الكعبة قط ، فقد دخلها رضي الله عنه حال حياة النبي ﷺ كما يعلم ذلك من كتب الأحاديث والسير ، فقد روى البخاري في صحيحه في كتاب المغازي في باب دخول النبي ﷺ من أعلى مكة : عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ أقبل يوم الفتح من أعلى مكة على راحلته مردفاً أسامة بن زيد ومعه بلال ومعه عثمان بن طلحة من الحجبة ، حتى أناخ في المسجد فأمره أن يأتي بمفتاح البيت ، فدخل رسول الله ﷺ ومعه أسامة بن زيد وبلال وعثمان بن طلحة ، فمكث فيه نهاراً طويلاً ثم خرج ، فاستبق الناس فكان عبدالله بن عمر أول من دخل فوجد بلالاً وراء الباب قائماً ، فسأله أين صلى رسول الله ﷺ فأشار له إلى المكان الذي صلى فيه ، قال عبدالله : فنسيت أن أسأله كم صلى من سجدة . اهـ .

أما إذا كان الشخص من العوام ممن لا يأنس من نفسه الرغبة الشديدة في دخوله بل يتساوى لديه الدخول وعدمه ، فهذا الأفضل له عدم كثرة الدخول حتى لا يحصل منه التهاون بحرمتها .

وهذا التفصيل يكون أيضاً في جميع أنواع العبادات كقراءة القرآن وكثرة الصلاة .

ويصلي الداخل في أي نواحيها شاء ، فقد جاء في صحيح البخاري في كتاب الحج عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه كان إذا دخل الكعبة مشى قِبَل الوجه حين يدخل ويجعل الباب قِبَل الظَهْر ، يمشي حتى يكون بينه وبين الجدار الذي قبل وجهه قريباً من ثلاث أذرع ، فيصلي يتوخى المكان الذي أخبره بلال أن رسول الله ﷺ صلى فيه ، وليس على أحد بأس أن يصلي في أي نواحي البيت شاء . والأفضل أن يصلي في الموضع الذي فيه صلى رسول الله ﷺ وقد صلى فيها ركعتين يوم دخلها في فتح مكة ، وموضع مصلاه قبل الجدار الغربي بثلاثة أذرع قرب الركن اليماني وكان باب الكعبة خلف ظهره .

فإذا دخل المرء البيت الحرام ومشى قِبَل وجهه حتى يكون بينه وبين الجدار الغربي الذي أمامه نحو ثلاثة أذرع ويكون ظهره على باب البيت فقد وقف موقف

رسول الله ﷺ في صلاته ولا بد أن تقع أعضاؤه في مكان موقفه عليه الصلاة والسلام .

وصلاة النبي ﷺ في الكعبة كان يوم الفتح لا في حجة الوداع وصلى فيها ركعتين خفيفتين ، وقد ذكر التقي الفاسي أن عليه الصلاة والسلام دخل الكعبة أربع مرات بعد الهجرة ، وهو يوم الفتح وثاني يوم الفتح وفي حجة الوداع وفي عمرة القضاء قبل فتح مكة بسنة . قال : وفي كل من هذه الدخولات خلاف إلا الدخول الذي في يوم الفتح .

ونرى أن الحكمة في صلاة النبي ﷺ في الكعبة حين دخولها أحياناً ، وعدم صلاته حين دخوله إليها أحياناً واكتفائه بالتكبير والتهليل وحمد الله والثناء عليه ، هي أن لا يظن أحد أن الصلاة عند دخولها في كل مرة واجبة ، فإنه ﷺ كل فعله وحركاته عن حكمة جزاه الله عن أمته خير الجزاء . وقد ذكر الإمام البخاري في صحيحه الأحاديث الواردة في دخول النبي ﷺ الكعبة وصلاته فيها وبوّب لذلك أربعة أبواب .

وأما الطواف بالكعبة من داخلها فغير مشروع ، بل لا يصح مطلقاً لأنه يشترط في الطواف أن يكون خارج الكعبة وأن يكون خلف جدار حجر إسماعيل عليه السلام ، وأما آداب دخولها التي ينبغي مراعاتها فقد بيّناها في المبحث الآتي .

فضل دخول الكعبة المعظمة

يستحب دخول بيت الله الحرام اقتداء برسول الله ﷺ وبفعل الصحابة والتابعين ومن بعدهم ، قال الفاسي : وقد اتفق الأئمة الأربعة على استحباب دخول البيت ، واستحسن مالك كثرة دخولها لأن في مناسك ابن الحاج قال ابن حبيب : وأخبرني مطرف عن مالك أنه سئل عن الصلاة في البيت وعن دخوله كلما قدر عليه الداخل ، فقال له : ذلك واسع حسن . انتهى . ولقد ورد في فضل ذلك ما ذكره الفاسي في شفاء الغرام بما ملخصه :

روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : قال رسول الله ﷺ : من دخل البيت فصلى فيه دخل في حسنة وخرج من سيئة مغفوراً له . وفي لفظ : من دخل البيت خرج مغفوراً له . وروى الفاكهي أخباراً في فضائل دخول البيت ، فقد روي عن هند بن أوس أنه قال : حججت فلقيت ابن عمر فقلت : إني أقبلت

من الفج العميق أردت البيت العتيق، وأنه ذكر لي أن من أتى بيت المقدس يصلي فيه خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه، فقال ابن عمر: رأيت البيت من دخله فصلى فيه خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه.

وقال عطاء: لأن أصلي ركعتين في البيت أحب إلي من أن أصلي أربعاً في المسجد الحرام. وقال الحسن البصري في رسالته المشهورة: قال رسول الله ﷺ: من دخل الكعبة دخل في رحمة الله عز وجل وفي حمى الله تعالى وفي أمن الله عز وجل، ومن خرج خرج مغفوراً له. انتهى من شفاء الغرام.

نقول: إننا نعتقد أن من دخل بيت الله عز وجل تبركاً وتعظيماً وطلباً لفضله ومغفرته، فإنه يخرج منه مغفوراً له مقضى الحاجات إن عاجلاً أو آجلاً، فإن الله تعالى أكرم من أن يردّ داخل بيته المطهر عبده الضعيف الفقير المحتاج بدون إكرام وجائزة، فالله عز شأنه لا تضره المعاصي ولا تنفعه الطاعات، ومهما أعطى لعباده وغفر لهم فلا ينقص من ملكه وفضله مثقال ذرة، فلو دخل مخلوق إلى بيت ملك أو أمير لاجئاً أو طامعاً فإنه يخرج قرير العين، فكيف بمن يدخل بيت ملك الملوك الكبير المتعال الذي بيده مقاليد السموات والأرض، وإنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى، فعلى قدر حسن ظن العبد بربه يكون حظه وسعده، وإذا كان الداخل إلى الحرم المكي آمناً بصريح قوله تعالى: ﴿ومن دخله كان آمناً﴾ فالداخل إلى نفس بيت الله الحرام يكون أشد أمناً لأنه واقع في نقطة مركز دائرة الحرم. اللهم إنا لا نستغني من فضلك وبرك وعافيتك ورحمتك وعفوك وغفرانك لا في الدنيا ولا في الآخرة، فعاملنا بما أنت أهله يا أرحم الراحمين ويا أكرم الأكرمين آمين. وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

آداب دخول الكعبة

لا يخفى على كل عاقل ما ينبغي من الآداب لمن يدخل بيوت الملوك والأمراء، فكيف إذاً لداخل بيت ملك الملوك ورب الأرباب الخلاق العظيم مالك الملك ذي الجلال والإكرام.

وقبل كل شيء ينبغي لداخل البيت الحرام أن يحسن ظنه بالله وأنه سبحانه وتعالى أكرم من أن يردّه خائباً صفر اليدين، والدنيا كلها لا تساوي عند الله جناح بعوضة، ثم ينبغي له مراعاة كامل الآداب وحبذا لو اغتسل في بيته وتوضأ

وتطيب ليدخل الكعبة المعظمة طاهراً نظيفاً متطيباً ، فالاغتسال والتطيب لكل مجتمع سنة مطلوبة ، ودخول الكعبة أولى بذلك لأنها محل اجتماع الناس وازدحامهم للدخول ، فإذا دخلها فلا يلتفت إلى يمينه أو يساره ولا إلى ما حوله على سبيل العبث والفضول ، إلا إذا أراد التحقق من بحث علمي أو أمر يهمه أو أي شيء يتعلق بالكعبة نفسها من بناء وإصلاح فلا بأس من ذلك مع مراعاة الأدب والخشوع . روي عن عائشة رضي الله تعالى عنها أنها قالت : عجباً للمرء المسلم دخل الكعبة كيف يرفع بصره قِبل السقف ، ليدع ذلك إجلالاً لله تعالى وإعظاماً ، دخل رسول الله ﷺ الكعبة فما خالف نظره موضع سجوده حتى خرج منها ، أخرجه البيهقي في سننه والحاكم في المستدرك . ولا ينبغي معانقة الأعمدة التي في داخل الكعبة أي أسطواناتها حيث لم يفعلها رسول الله ﷺ ولا أحد من أصحابه بل إذا دخلها يمشي قِبل وجهه حتى إذا كان بينه وبين الجدار ثلاثة أذرع صلى ركعتين خفيفتين ثم يدعو الله ويثني عليه بما هو أهله ويهلل ويكبر ويستغفر الله ويصلي على النبي ﷺ ، كما ينبغي له أن لا يكثر من الصلاة والدعاء إذا كان هناك زحام شديد لأن ذلك يذهب بالخشوع واستحضار القلب لمرور الناس حوله وتدافعهم عليه ، وإذا كان واقفاً في مصلى رسول الله ﷺ فليصل ركعتين خفيفتين ثم لينتقل إلى محل آخر للدعاء والاستغفار لأن غيره ينتظر فراغه ليصلي في نفس مصلى النبي ﷺ .

وينبغي مراعاة الرفق والسهولة في دخول الكعبة حتى لا يحصل منه أذى لغيره ، فإن تحقق الضرر والأذى منه أو له لم يدخل ، لأن دخول الكعبة سنة غير مؤكدة ، وأما الأذى فحرام ، ولا يطلب الإتيان بالسنة بارتكاب المحرم ، وما يحصل من الاندفاع والتزاحم الشديد لدخول الكعبة حين فتحها من جهلة الناس فهذا خطأ فاحش ومن الصعب إفهام العوام ذلك ، على أن لهم نوع عذر وهو التشرف بدخول بيت الله المعظم عسى أن يكونوا من الآمنين يوم القيامة ، فنيتهم حسنة لا يقصدون الأذى لبعضهم وإن وقع ذلك اضطراراً ويتحملونه ويصفحون عن بعضهم ، وإنما الأعمال بالنيات ، فنسأل الله لنا ولهم جميعاً العفو والغفران والفضل والإحسان والموت على الإيمان إنه بعباده لطيف خبير .

أما ما يشاع على ألسنة العوام والجهال من أن من دخل الكعبة لا يجوز له أن يمشي على الأرض حافياً ، ولا أن يحكي ما رآه في الكعبة ، ولا أن ينظر إلى سقفها

ومن نظر إلى سقفها لا بد وأن يحصل له العمى ، ونحو ذلك من الأوهام الخيالية ، فهذا لا أصل له وهو كلام فارغ ووسواس من الشيطان الرجيم فينبغي التحرز من مثل هذه الأوهام والتخيلات والله الهادي إلى سواء السبيل .

ومن اللطائف المناسبة ذكره هنا : أن الأديب المصري الكبير الأستاذ إبراهيم عبدالقادر المازني رحمه الله تعالى ذكر في كتابه "رحلة الحجاز" التي كانت تقريباً سنة (١٣٤٨) ثمان وأربعين وثلاثمائة وألف هجرية ، أنه لما عاد إلى مصر من الحجاز سألته أمه عن دخوله الكعبة المشرفة بما يأتي :

قالت له : هل دخلت الكعبة ؟ قال فقلت لها : "بلى دخلناها بصفة خاصة" .

فقالت لي : "طوبى لك ، لا تخبر أحداً بما رأيت فيها احذر" .

فسألتها عن السبب فقالت لي : إن من يرى الكعبة من الداخل لا يقصّ على غيره ما يرى .

قلت لها : ولكنها خالية ولا شيء فيها ، كان فيها أوثان من الجاهلية فأخلاها منها النبي ﷺ .

فقالت لي : إيوه ، خليك على كده ، كل من سألك عنها تقول له : لم أر شيئاً .

فقلت لها : ولكنها حقيقة خالية .

قالت لي : تمام مضبوط ، بارك الله فيك .

فقلت لها : إني لا أكذب ولا أدعي ، هي حقيقة كما أقول خالية .

فقالت لي : إيوه ، تمام ، أهو كده ، الله يزيدك عقلاً .

فأمسكت ، ولم أر لي حيلة ، وها أنا ذا أقول للقراء إن الكعبة لا شيء فيها ، فليصدقوا أو لا يصدقوا ، وليكونوا كأمي ، وليدعوا لي ، أو فليضنوا علي بالدعاء كما يشاؤون . انتهى محاورة المازني مع أمه .

نقول : ماذا يظن القارئ الكريم أن يكون داخل الكعبة ، هل يكون فيها فراش وثير ، أم كراسي مصفوفة مبطنة بالحرير ، أم يكون فيها من أدوات الزينة والصور والرسوم ، ما يلهي المؤمن المسلم .

إن الكعبة المعظمة بيت ا لله الكبير المتعال ، جعلت للعبادة والدعاء والتفكر ، وإظهار الذلة والمسكنة والانكسار ، والخضوع والبكاء والاعتبار ، فلا ينبغي أن يكون فيها ما يشغل داخلها عما جاء لأجله ، فداخلها سعيد مغفور له ، وا لله تعالى أعز وأجل من أن يردّ له دعاء أو يخيب أمله .

قال الفاسي في شفاء الغرام : وأما ما يطلب في الكعبة من الأمور التي صنعها النبي ﷺ فهو : التكبير والتسبيح والتهليل والتحميد والثناء على ا لله عز وجل والدعاء والاستغفار ، لأحاديث وردت في ذلك .

منها : ما رويناه عن أسامة بن زيد أن رسول ا لله ﷺ لما دخل البيت دعا في نواحيه كلها و لم يصل حتى خرج فلما خرج ركع قُبُل البيت ركعتين وقال : هذه القبلة . أخرجه البخاري ومسلم .

وفي مسلم عن ابن جريج قلت لعطاء ما نواحيه أفي زواياه ، قال : بل في كل قبلة من البيت . وعند النسائي في هذا الحديث "سبح في نواحيه وكبر" . وقوله : قبل البيت وهو بضم القاف والباء الموحدة ويجوز إسكان الباء كما في نظائره ، ومعناه على ما قيل ما استقبلك فيها وقيل مقابلها . اهـ .

ثم قال الفاسي بعد بضعة أسطر مما تقدم : ومن الأحاديث الواردة في المعنى الذي أشرنا إليه ، ما رويناه في سنن النسائي أيضاً من حديث أسامة بن زيد أنه دخل مع النبي ﷺ البيت فمضى يعني النبي ﷺ حتى إذا كان بين الأسطوانتين اللتين تليان باب الكعبة جلس فحمد ا لله وأثنى عليه وسأله واستغفره ثم قام حتى أتى ما استقبل من دبر البيت فوضع وجهه وخده عليه فحمد ا لله وأثنى عليه وسأله واستغفره ثم انصرف إلى كل ركن من أركان الكعبة فاستقبله بالتكبير والتهليل والتسبيح والثناء على ا لله والمسألة والاستغفار ثم خرج . انتهى باختصار .

قال : وروينا من حديثه أيضاً في سنن النسائي قال : دخلت مع رسول ا لله ﷺ البيت فجلس فحمد ا لله وأثنى عليه وكبر وهلل ثم قام إلى ما بين يديه من البيت فوضع صدره عليه وخده ويديه ثم هلل وكبر ودعا ثم فعل ذلك بالأركان كلها ثم خرج . انتهى باختصار .

وأخرجه أحمد أيضاً عن ابن عباس قال : دخل النبي ﷺ الكعبة وفيها ست سواري فقام عند كل سارية فدعا و لم يصل . أخرجه البخاري ومسلم وأحمد بن حنبل . انتهى كل ذلك من شفاء الغرام .

وقال الفاسي في شفاء الغرام أيضاً : وأما آداب دخول الكعبة فكثيرة منها : الاغتسال ، لما رويناه عن عبدالكريم بن أبي المخارق . ومنها : نزع الخف والنعل ، لما رويناه في سنن سعيد بن منصور عن عطاء وطاووس ومجاهد ، وكره مالك دخولها بالخفين والنعلين وهو قول الحنابلة . ومنها : أنه لا يرفع بصره إلى السقف ، لحديث في ذلك رويناه عن عائشة أخرجه الحاكم من المستدرك وقال : صحيح على شرط الشيخين ، وقد تقدم هذا الحديث في الباب التاسع وهو هذا :

"روى الحاكم في المستدرك والبيهقي في سننه عن سالم بن عبدا الله أن عائشة قالت : دخل رسول ا الله ﷺ الكعبة ما خلف بصره موضع سجوده حتى خرج منها" .

وإنما كره رفع البصر في الكعبة لأنه يولد الغفلة واللهو عن القصد ، أشار بذلك المحب الطبري في القرى . ومنها : أنه لا يزاحم زحمة شديدة يتأذى بها أو يؤذي بها أحداً ، أشار إلى ذلك النووي وغيره . ومنها : أن لا يكلم أحداً إلا لضرورة أو أمر بمعروف أو نهي عن منكر . ومنها : أن يلزم قلبه الخشوع والخضوع وعينيه الدموع إن استطاع ذلك وإلا حاول صورتها ، ذكر هذين الأمرين المحب الطبري وهذا لفظه . ومنها : أن لا يسأل مخلوقاً لما رويناه عن سفيان بن عينية قال : دخل هشام بن عبدالملك الكعبة فإذا هو بسالم بن عبدا الله بن عمر بن الخطاب فقال : سلني حاجتك قال : أستحي من ا الله أن أسأل في بيته غيره ، وذكر الفاكهي ما يقتضي أن التارك بسؤال هشام في الكعبة غير سالم ابن عبدا الله لأنه قال : حدثنا محمد بن أبي عمر قال : قال سفيان بن عينية : سمعت بعض من يذكر أن بعض الخلفاء ، هشام بن عبدالملك أو غيره دخل الكعبة عام حج فلم يدع في الكعبة غير منصور الحجي ، فقال له هشام : سل حاجتك ، قال منصور : ما كنت لأسأل غير ا الله في بيته فلم يسأله شيئاً ، انتهى ، وحكم النساء في دخولهن الكعبة حكم الرجال من غير خلاف أعلمه في ذلك . انتهى من شفاء الغرام .

الصلاة في داخل الكعبة

قال العلامة ابن ظهيرة القرشي الحنفي في كتابه "الجامع اللطيف في فضل مكة وأهلها وبناء البيت الشريف" عند آخر الكلام على كنز الكعبة والحكم فيه ما نصه : فروع ، ثم ذكر الفرع الأول والثاني والثالث ونحن لم نذكر هذه الثلاثة

لعدم تعلقها في هذا الفصل لكن نذكر هنا الفرع الرابع وهو المقصود فقد قال رحمه الله تعالى ما نصه :

(الفرع الرابع) تصح صلاة الفرض والنفل عندنا في الكعبة من غير كراهة بجماعة وغيرها وتجوز فوق سطحها من غير ساتر مع الكراهة .

ومذهب الإمام الشافعي رحمه الله كمذهبنا في جواز الفرض والنفل في باطن الكعبة بل هو الأفضل عنده لكن يشترط في الفريضة ألا يرجو المصلي جماعة خارج الكعبة . قال الشافعي رحمه الله : ما تفوتني فريضة في جماعة فأصليها في موضع أحب إلي من بطن البيت لأن البقاع إذا فضلت بقربها منه فبطنها أفضل منها ، وأما صحة الصلاة على سطحها فيشترط أن يكون إمام المصلي شاخص قدر ثلثي ذراع تقريباً من جدار الكعبة وهو الصحيح من مذهبه ، ومذهب الإمام مالك رضي الله عنه عدم جواز الفريضة في جوف البيت وكذلك السنن المؤكدة كالعيدين والوتر وركعتي الفجر وما أشبهها على مشهور منهبه وأما النفل فيجوز وأما الصلاة على سطحها فالمشهور عنده المنع ، ومذهب الإمام أحمد رضي الله عنه أن صلاة الفريضة في الكعبة لا تصح وفي النافلة خلاف بين أصحابه والأصح الصحة وكذا الحكم في السطح عندهم في الفريضة والنافلة . انتهى كلام ابن ظهيرة .

وهنا نذكر باختصار حكم الصلاة في جوف الكعبة فرضاً كانت أو نفلاً عن المذاهب الأربعة ، جاء في الجزء الأول من كتاب "الفقه على المذاهب الأربعة" للعلامة الشيخ عبدالرحمن الجزيري ما نصه :

"الحنابلة قالوا" : إن صلاة الفرض لا تصح في جوف الكعبة ولا على ظهرها إلا إذا وقف في منتهاها ولم يبق وراءه شيء منها ، أو وقف خارجها وسجد فيها ، أما صلاة النافلة والصلاة المنذورة فتصح فيها وعلى سطحها إن لم يسجد على منتهاها ، فإن سجد على منتهاها لم تصح صلاته مطلقاً ، لأنه يصير في هذه الحالة غير مستقبل لها .

" والمالكية قالوا" : تصح صلاة الفرض في جوفها إلا أنها مكروهة كراهة شديدة ، ويندب له أن يعيدها في الوقت أما النفل فإن كان غير مؤكد ندب أن يصليه فيها ، وإن كان مؤكداً كره ولا يعاد ، وأما الصلاة على ظهرها فباطلة إن

كانت فرضاً، وصحيحة إن كانت نفلاً غير مؤكد، وفي النفل المؤكد قولان متساويان.

"والشافعية قالوا": إن الصلاة في جوف الكعبة صحيحة فرضاً كانت أو نفلاً، إلا أنها لا تصح إذا صلي إلى بابها مفتوحاً، وأما الصلاة على ظهرها فإنه يشترط لصحتها أن يكون أمامه شاخص منها يبلغ ثلثي ذراع بذراع الآدمي.

"والحنفية قالوا": إن الصلاة في جوف الكعبة وعلى سطحها صحيحة مطلقاً، إلا أنها تكره على ظهرها لما فيه من ترك التعظيم. انتهى من الكتاب المذكور.

صلاة النبي ﷺ في الكعبة

روى ابن عباس عن أسامة أن النبي ﷺ لم يصل في الكعبة، وروى بلال أنه ﷺ صلى في الكعبة. وهذا البحث تناوله العلماء والأجلاء ورجحوا رواية بلال. وإليك خلاصة ما ذكروه نقلاً عن شفاء الغرام فقد جاء فيه ما يأتي:

قال الحافظ أبو عمر بن عبدالبر: رواية ابن عمر عن بلال أن النبي ﷺ صلى في الكعبة، أولى من رواية ابن عباس عن أسامة، أنه لم يصل، لأنها زيادة مقبولة وليس قول من قال من لم يفعل بشهادة... إلى آخر كلامه.

وقال السهيلي في الروض الأنف: وأما دخوله ﷺ الكعبة وصلاته فيها فحديث بلال أنه صلى فيها، وحديث ابن عباس أنه لم يصل فيها، وأخذ الناس بحديث بلال لأنه أثبت الصلاة وابن عباس نفاها، وإنما يؤخذ بشهادة المثبت لا بشهادة النافي، ومن تأول قول بلال أنه صلى أي دعا فليس بشيء، لأن في حديث ابن عمر أنه صلى فيها ركعتين، ولكن رواية ابن عباس ورواية بلال صحيحتان، لأنه عليه الصلاة والسلام دخلها يوم النحر فلم يصل، ودخلها في الغد فصلى فيها، وذلك في حجة الوداع، وهو حديث مروي عن ابن عمر بإسناد حسن أخرجه الدارقطني وهو من فوائده. انتهى.

وقال الشيخ محيي الدين النووي: أجمع أهل الحديث على الأخذ برواية بلال لأنه مثبت فمعه زيادة علم فوجب ترجيحه قال: وأما نفي أسامة فيشبه أنهم لما دخلوا الكعبة أغلقوا الباب واشتغلوا بالدعاء فرأى أسامة النبي ﷺ يدعو ثم اشتغل أسامة في ناحية من نواحي البيت والنبي ﷺ في ناحية وبلال قريب منه ثم صلى

النبي ﷺ فرآه بلال لقربه منه و لم يره أسامة لبعده واشتغاله بالدعاء وكانت صلاته خفيفة فلم يرها أسامة لإغلاق الباب مع بعده واشتغاله بالدعاء وجاز له نفيها عملاً بظنه ، وأما بلال فتحققها وأخبر بها وا لله أعلم . انتهى من شرح مسلم .

وقال في المجموع وهو شرح المهذب : قال العلماء : الأخذ برواية بلال في إثبات الصلاة أولى لأنه مثبت وقد على النافي فإن بلالاً كان قريباً من النبي ﷺ حين صلى معه وراقبه في ذلك فرآه يصلي وكان أسامة متباعداً مشتغلاً بالدعاء والباب مغلق و لم ير الصلاة فوجب الأخذ برواية بلال لأن معه زيادة علم . انتهى .

وقال المحب الطبري : وقد اختلف بلال وأسامة في صلاة النبي ﷺ في البيت وحكم العلماء ترجيح حديث بلال لأنه أثبت وضبط ما لم يضبطه أسامة والمثبت مقدم على النافي ثم قال : ويحتمل أن يكون أسامة غاب عنه بعد دخوله لحاجة فلم يشهد صلاته وقد روى ابن المنذر عن أسامة أن النبي ﷺ رأى صوراً في الكعبة فكنت آتيه بماء في الدلو يضرب به الصور فأخبر أنه كان يخرج لنقل الماء وكان ذلك في يوم الفتح وصلاته ﷺ في الكعبة إنما كانت يوم الفتح لا في حجة الوداع . قال أبو حاتم بن حبان : والأشبه عندي أن يحمل الخبران على دخولين متغايرين أحدهما يوم الفتح وصلى فيه والآخر في حجة الوداع و لم يصل فيه من غير أن يكون بينهما تضاد . انتهى .

وقال القاضي عز الدين بن جماعة في هذا المعنى فيما أخبرني به خالي عنه :

قال : -يعني أحمد بن حنبل- حدثنا هشيم قال : أخبرنا عبدالملك عن عطاء قال أسامة بن زيد : دخلت مع رسول ا لله ﷺ البيت فجلس فحمد ا لله وأثنى عليه وكبر وهلل وخرج و لم يصل ثم دخلت معه في اليوم الثاني فقام ودعا ثم صلى ركعتين ثم خرج فصلى ركعتين خارجاً من البيت مستقبل وجه الكعبة ثم انصرف وقال : هذه القبلة . وكذلك رواه أحمد بن منيع في مسنده والدارقطني وغيرهم وهو كلام شاف كاف في الجمع بين الأحاديث ، فنحمد ا لله على التوفيق للجمع به فإن ذلك من أجل الفوائد ، فإن بعض كبار العلماء قال : يحتمل أن يكون أسامة غاب عنه ﷺ بعد دخوله لحاجة فلم يشهد صلاته . اهـ .

ثم قال الفاسي بعد بضعة أسطر من الكلام المتقدم ما يأتي : ومما لعله أن يكون مرجحاً لذلك أيضاً "أي لحديث بلال" من حيث المعنى على ما ظهر لي ،

أن الكعبة المعظمة كالمسجد الحرام في استحباب التحية لمن دخلها ، والتحية للمسجد الحرام الطواف لمريده أو الصلاة فيه والطواف بالكعبة من داخلها غير مشروع ، فلم يبق لها تحية إلا الصلاة فيها كتحية سائر المساجد ، فكيف يدخلها النبي ﷺ ولا يصلي فيها مع بعد عهده من دخولها ، فإنه من حين هاجر إلى المدينة لم يدخلها ، وبين هجرته ودخوله هذا ثمان سنين ، ومع طول مكثه ﷺ في الكعبة من دخوله هذا فإن في صحيح مسلم من حديث ابن عمر في قصة دخول النبي ﷺ الكعبة ومن معه ، أنهم لبثوا في البيت ملياً قال النووي : أي طويلاً ، وفي البخاري عن ابن عمر من رواية نافع أن النبي ﷺ مكث نهاراً طويلاً في الكعبة حين دخلها يوم الفتح ، وطول المكث بمكان يستدعي الجلوس فيه غالباً ، ويبعد كل البعد أن النبي ﷺ لم يجلس في الكعبة في دخوله هذا ، أو أن يجلس فيها بغير صلاة وقد نهى ﷺ فيما صح عنه الداخل إلى المسجد عن الجلوس فيه من غير صلاة .

ومما يؤيد كونه ﷺ صلى في الكعبة في دخوله هذا إغلاق الباب عليه فيه كما في الصحيحين وغيرهما من حديث ابن عمر ، للحكمة التي ذكرها العلماء في إغلاق الباب في دخوله هذا ، وهي لئلا يكثر الناس عليه فلا يتمكن من الصلاة في الكعبة على ما يريد ﷺ ، وقيل : الحكمة في ذلك ليصلي ﷺ إلى كل جهة من الكعبة ، فإن الباب إذا كان مفتوحاً وليس أمامه قدر مؤخرة الرحل لم تصح الصلاة إليه ، لعدم استقبال شيء من الكعبة ، ذكر هذين القولين المحب الطبري في القرى ، واستظهر القول الأول وذكر أنه يتأيد بكون النبي ﷺ لم يصل في الكعبة أكثر من ركعتين على ما صح عنه . انتهى باختصار من شفاء الغرام للفاسي . وقد أطال رحمه الله تعالى الكلام على هذا البحث ، ولكنا رأينا الاقتصار على ما قدمناه أحسن ، فخير الكلام ما قل ودل .

عدد دخول النبي ﷺ الكعبة بعد الهجرة

لم نبحث عن عدد دخول النبي ﷺ للكعبة قبل هجرته إلى المدينة ، والمعقول أنه دخلها عدة مرات قبل البعثة وقبل الهجرة أيضاً فقد كان الناس يدخلونها قبل الإسلام .

قال الشيخ حسين باسلامة في كتابه "تاريخ الكعبة المعظمة" : روى ابن سعد في الطبقات عن عثمان بن طلحة قال : كنا نفتح الكعبة في الجاهلية يوم الاثنين

والخميس ، فأقبل النبي ﷺ يوماً يريد أن يدخل الكعبة مع الناس ، فأغلظت له ونلت منه فحلم عني ، ثم قال : "يا عثمان لعلك سترى هذا المفتاح يوماً بيدي أضعه حيث شئت" فقلت : لقد هلكت قريش يومئذ وذلت قال : "بل عمرت وعزت يومئذ" ودخل الكعبة فوقعت كلمته مني موقعاً ظننت يومئذ أن الأمر سيصير إلى ما قال ، فلما كان يوم الفتح قال : "يا عثمان ائتني بالمفتاح" فأتيته به ، فأخذه مني ثم دفعه إلي وقال : "خذوها خالدة تالدة لا ينزعها منكم إلا ظالم ، يا عثمان إن الله استأمنكم على بيته فكلوا مما يصل إليكم من هذا البيت بالمعروف" ، قال : فلما وليت ناداني فرجعت إليه فقال : "ألم يكن الذي قلت لك" قال : فذكرت قوله لي بمكة قبل الهجرة : "لعلك سترى هذا المفتاح يوماً بيدي أضعه حيث شئت" قلت : بلى أشهد أنك رسول الله ، انتهى من الكتاب المذكور .

وأما دخوله ﷺ بعد هجرته إلى المدينة ، فقد جاء في كتاب شفاء الغرام للفاسي عن ذلك ما خلاصته :

أما عدد دخول النبي ﷺ الكعبة بعد هجرته فروينا في ذلك أخباراً يتحصل من مجموعها ، أن النبي ﷺ دخل الكعبة بعد هجرته أربع مرات وهو : (١) يوم فتح مكة (٢) وفي ثاني يوم الفتح (٣) وفي حجة الوداع (٤) وفي عمرة القضية . وفي كل من هذه الدخلات خلاف إلا الدخول الذي في يوم الفتح ، ونشير إلى الأخبار الواردة في هذه الدخلات .

(١) فأما دخوله ﷺ الكعبة في يوم الفتح ، فرويناه في صحيح مسلم وغيره كما سبق في حديث ابن عمر ، ولفظ حديثه عند مسلم : قدم رسول الله ﷺ يوم الفتح فنزل بفِناء الكعبة وأرسل إلى عثمان بن طلحة فجاء بالمفتاح ففتح الباب ، ثم دخل النبي ﷺ وبلال وأسامة بن زيد وعثمان بن طلحة وذكر الحديث ولا تضاد بين حديث ابن عمر هذا وحديثه في صحيح مسلم الذي قال فيه : أقبل رسول الله ﷺ عام الفتح على ناقة لأسامة حتى أناخ بفناء الكعبة ثم دخل عثمان بن طلحة فقال : ائتني بالمفتاح... الحديث في صفة دخول النبي ﷺ الكعبة وصلاته فيها لأن المراد بعام الفتح في هذا الحديث يوم الفتح كما في الحديث السابق لأن الأحاديث تفسر بعضها بعضاً والمجمل منها يرد إلى المبين وقد أشار الإمام النووي إلى اتفاق الخبرين لأنه قال في شرح مسلم قوله : قدم رسول الله ﷺ يوم الفتح فنزل بفناء الكعبة هذا دليل على أن هذا المذكور في أحاديث الباب من دخوله ﷺ الكعبة

وصلاته فيها كان يوم الفتح وهـذا لا خـلاف فيـه و لم يكـن يـوم حجـة الـوداع . انتهى ، وفي هذا الدخول وقع الاختلاف في كون النبي ﷺ صلى فيه .

(٢) وأما دخوله ﷺ في ثاني يوم الفتح ، ففي مسند أحمد بن حنبـل مـا يـدل له ، لأنه قال : حدثنا هشيم قال : أخبرنا عبدالملك عن عطاء قال : قال أسـامة بـن زيد دخلت مع رسول ا لله ﷺ البيت فجلس فحمد ا لله وأثنى عليـه و كـبّر وهلـل وخرج و لم يصل ، ثم دخلت معه في اليوم الثاني فقام ودعا ثـم صلـى ركعتـين ثـم خرج فصلى ركعتين خارجاً من البيت مستقبل وجـه الكعبـة ثـم انصـرف وقـال : هذه القبلة .

(٣) وأما دخوله ﷺ في حجة الوداع ، فرويناه في سنن أبي داود وابـن ماجـة وجامع الترمذي والمستدرك للحاكم من رواية إسماعيل بن عبدالملك بن أبي الصغير عن ابن أبي مليكة عن عائشة ، وسبق ذلك في الترجمة التي قبل هذه الترجمة مع بيان ما في الحديث من الوهن وا لله أعلم بالصواب . اهـ .

نقول : إن لفظ الحديث الذي قال الفاسي عنه أنه سبق في الترجمة عن عائشـة رضي ا لله تعالى عنها هو هذا : قالت : "خرج النبي ﷺ من عندي وهو قرير العين طيب النفس ، فرجع إلي وهو حزين ، فقلت له فقال : إني دخلت الكعبـة ووددت أني لم أدخلها ، إني أخاف أن أكون أتعبت أمتي من بعدي" .

(٤) وأما دخوله ﷺ في عمرة القضية ، فذكـر المحـب الطـبري في القـرى عـن عروة بن الزبير وسعيد بن المسيب ما يقتضي ذلك ، لأنه قال في باب العمـرة وهـو الباب الثامن والثلاثون في ترجمـة ترجـم عليهـا بمـا جـاء في عمـرة الحديبيـة وعمـرة القضية : وعن هشام عن أبيه أن خراش بن أمية حلق رأس النبي ﷺ عند المـروة ثـم دخل البيت ، وعن سعيد بـن المسيب أن رسـول ا لله ﷺ لمـا قضـى نسـكه دخـل البيت فلم يزل فيه حتى أذن بلال بالظهر على ظهر الكعبة ، وأقام رسـول ا لله ﷺ بمكة ثلاثاً فلما كان ظهر اليوم الرابع أتاه سهيل بـن عمـرو بـن حويطـب بـن عبـد العزى ورسول ا لله ﷺ جـالس في مجلـس الأنصـار يتحـدث مـع سـعد بـن عبـادة فقال : يا محمد قد انقضى أجلك فاخرج عنا ، قال : ومـاذا عليكـم لـو تركتمونـي فأعرست عندكم وصنعت لكم طعاماً ؟ وكان قد تزوج بميمونة الهلالية من طريقه وذكر مناشدة سهيل النبي ﷺ في الخروج من مكة وخـروج النبي ﷺ إلى سَـرِف وتعريسه فيه بميمونة .

ولم يذكر المحب الطبري من خرج هذا الخبر ولا الخبر الأول وهما يقتضيان دخول النبي ﷺ الكعبة في عمرة القضية، وخبر سعيد ابن المسيب أصرح لما فيه من القضايا التي وقعت في عمرة القضية على ما جاء في غير هذا الخبر وهي تزويج النبي ﷺ ميمونة وسؤال سهيل بن عمرو النبي ﷺ في الخروج من مكة وجواب النبي ﷺ له على نحو ما في هذا الخبر.

ولست واثقاً بصحة ما فيه من دخول النبي ﷺ الكعبة وأذان بلال الظهر عليها وعلى تقدير صحتها فلأنهما يخالفان ما رويناه في الصحيحين عن إسماعيل بن أبي خالد قال: قلت لعبد الله بن أبي أوفى: أدخل النبي ﷺ في عمرته؟ قال لا، انتهى. والمراد بهذه العمرة عمرة القضية على ما قال العلماء كما قال النووي منهم في شرح مسلم وغيره وسيأتي ذكر السبب الذي لأجله لم يدخل النبي ﷺ في هذه العمرة ولم أر أحداً من أهل العلم قال بدخول النبي ﷺ الكعبة في عمرة القضية كما هو مقتضى هذين الخبرين وإنما ذكرناهما لغرابتهما، انتهى كل ذلك مختصراً من كتاب شفاء الغرام للفاسي.

منع بعض الناس عن دخول الكعبة

نرى أحياناً سدنة الكعبة يمنعون بعض الناس عن دخول الكعبة عند فتحها ويدفعونهم عن بابها دفعاً، وهم معذورون في ذلك، فكل اجتماع وازدحام لا بد أن يقع فيه تدافع واشتداد، والظاهر أن هذه الحالة مأخوذة عن عادة قريش في الجاهلية، وإليك بيان ذلك:

لما بنى إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام الكعبة جعل فتحة بابها لاصقاً بالأرض، فلما بنتها قريش جعلوا بابها مرتفعاً عن الأرض وكبسوها بالحجارة حتى يدخلوا فيها من شاؤوا ويمنعوا من أرادوا، وحتى لا يدخلها السيل.

ففي تاريخ الأزرقي: لما بنت قريش الكعبة قال أبو حذيفة بن المغيرة: يا معشر قريش ارفعوا باب الكعبة حتى لا يُدخل عليكم إلا بسلم فإنه لا يَدخل عليكم إلا من أردتم فإن جاء أحد ممن تكرهون رميتم به فيسقط فكان نكالاً لمن رآه ففعلت قريش ذلك وردموا الردم الأعلى وصرفوا السيل عن الكعبة وكسوها الوصائل.

وفي رواية : فلما وضعوا أيديهم في بنائها قالوا : ارفعوا بابها من الأرض واكبسوها حتى لا تدخلها السيول ولا ترقى إلا بسلم ولا يدخلها إلا من أردتم إن كرهتم أحداً دفعتموه ففعلوا ذلك .

وفيه أيضاً عند باب ما جاء في فتح الكعبة عن سعيد بن عمرو الهذلي عن أبيه قال : رأيت قريشاً يفتحون البيت في الجاهلية يوم الاثنين والخميس وكان حجابه يجلسون عند بابه فيرتقي الرجل إذا كانوا لا يريدون دخوله فيدفع ويطرح وربما عطب -أي هلك- وكانوا لا يدخلون الكعبة بحذاء يعظمون ذلك ويضعون نعالهم تحت الدرجة . انتهى من الأزرقي .

فعلم مما ذكر أن قسوة بني شيبة على بعض الناس عند دخولهم الكعبة عادة وراثية مأخوذة من قريش ، وبنو شيبة يضطرون أحياناً إلى استعمال القسوة والعنف ، وذلك عندما يتوسمون في الشخص أن الأولى عدم دخوله البيت الحرام لما يظهر عليه من الشدة والقوة بحيث يتحقق منه الأذى لغيره من الضعفاء في داخل الكعبة ، أو أنهم يمنعون الناس من الدخول إذا رأوا داخل الكعبة قد امتلأ بهم ، فينتظرون خروجهم حتى يسمحوا بدخول غيرهم .

والازدحام والاحتكاك في دخول الكعبة عند فتحها أمر ضروري لا بد من وقوعه ، خصوصاً في زماننا هذا الذي ازدادت مكة المكرمة بالناس والعمران زيادة لم نكن نتصورها منذ ربع قرن ، كما يقع التصادم على بابها أيضاً بسبب دخول الناس فيها وخروجهم منها في وقت واحد ، فلو كان لها بابان للدخول وباب للخروج كما كان في عهد عبدالله بن الزبير رضي الله عنهما لما حصل التصادم والتدافع .

ولا حيلة في منع التصادم والتزاحم في دخول الكعبة ، اللهم إلا إذا كثر فتحها وانتظمت المواعيد ، كأن تفتح في كل أسبوع مرة أو مرتين يوم الاثنين ويوم الجمعة ، كما كان في العهود السابقة ، وأن يخصص الدخول كل مرة لطائفة من الناس لا يدخلها غيرهم . فعندئذ قد يرتاح الناس في دخولهم الكعبة المشرفة ، ولكن أنى يكون ذلك .

أخذ الأجرة على دخول الكعبة

الكعبة المشرفة هي بيت الله الحرام ، وبيت الله غير مملوك لأحد إلا للواحد الأحد جل وعلا ، فهو إذاً بيت عام لكل من آمن بالله ورسوله ، فالمسلمون يلجأون إليه طلباً في عفو الله ومغفرته ورحمته وإحسانه ، ولكل مسلم الحق في دخول بيت ربه وخالقه ، والوقوف على بابه ، والتعلق بأستاره ، ومن هنا قالوا لا يجوز أخذ الأجرة على دخول البيت الحرام أي على وجه الاشتراط ، أما على وجه البر والصلة والهدية والهبة فلا بأس .

ولقد ذكر الفاسي في كتابه "شفاء الغرام" حكم أخذ الأجرة على ذلك بصحيفة ١٢٩ من الجزء الأول منه وهذا نص كلامه :

ولنختم هذه الترجمة بحكم سدانة الكعبة وحكم ما يأخذه سدنتها ممن يدخلها ، وللمحب الطبري في ذلك كلام شاف فنذكره ونص كلامه : الحجابة منصب بني شيبة ولاهم رسول الله ﷺ إياها كما ولى السقاية للعباس ثم قال : وسدانة البيت خدمته وتولي أمره وفتح بابه وإغلاقه ويقال : سدن يسدن سدانة فهو سادن والجمع سدنة ثم قال العلماء : لا يجوز لأحد أن ينزعها منهم قالوا : وهي ولاية رسول الله ﷺ وأعظم مالك أن يشرك معهم غيرهم قلت : ولا يبعد أن يقال هذا إذا حافظوا على حرمته ولازموا في خدمته الأدب أما إذا لم يحافظوا على حرمته فلا يبعد أن يجعل عليهم مشرف يمنعهم من هتك حرمته وربما تعلق الجاهل الغبي البذي المعكوس الفهم بقوله ﷺ : "وكلوا بالمعروف" فاستباح أخذ الأجرة على دخول البيت ولا خلاف بين الأمة في تحريم ذلك وأنه من أشنع البدع وأقبح الفواحش وهذه اللفظة إن صحت رواية فيستدل بها على إقامة الحرمة لأن أخذ الأجرة ليس من المعروف وإنما الإشارة والله أعلم إلى ما يقصدون به من البر والصلة على وجه التبرر فلهم أخذه وذلك أكل بالمعروف لا محالة أو إلى ما يأخذونه من بيت المال على ما يقومون به من خدمته أو القيام بمصالحه فلا يحل لهم منه إلا قدر ما يستحقونه والله أعلم ثم قال بعد أن ذكر أحاديث تتعلق بالحجر بسكون الجيم : وفيها ما يقتضي أن سبب رفع قريش لباب الكعبة ليمنعوا من شاؤوا وفي قوله ﷺ : فعل ذلك قومك ليدخلوا من شاؤوا ويمنعوا من شاؤوا وقوله : وألصق بابها بالأرض دلالة على أن الناس غير محجوبين عن البيت وأنه لا

يحل منعهم وما يأخذه السدنة على ذلك لا يطيب لهم إلا بطيب نفس من الدافعين وإنما تجب أجرتهم على ما يتولونه من القيام بمصالحة من بيت المال .

قال أبو العالية الرباحي في قوله : ﴿فأن لله خُمُسَه﴾ قال : السهم المضاف إلى الله تعالى إنما هو لبيت الله تعالى وأكثر أهل العلم على أنه أضاف الخمس إلى نفسه لشرفه وسهم الله وسهم رسول الله ﷺ واحد . انتهى من شفاء الغرام .

وقال صاحب كتاب التراتيب الإدارية : قال المحب الطبري في الباب الثامن والعشرين من كتاب القرى : ربما تعلق بعض الجهال به في جواز أخذ الأجر على دخول الكعبة ولا خلاف في تحريمه وأنه من أشنع البدع ، وهذا أي قوله : فكلوا مما يصل إن صح احتمل أن معناه ما يأخذونه من بيت المال على خدمته والقيام بمصالحه ولا يحل لهم إلا قدر ما يستحقونه وما يقصدون به من البر والصلة على وجه التبرر بهم ، فلهم أخذه وفي ذلك أكل بالمعروف . اهـ .

وحكى على هذا الزرقاني في شرح المختصر الإجماع ، ووجهه : أن أخذ الأجرة إنما يجوز على ما يختص الإنسان بمنفعته والانتفاع به ، والبيت لا يختص به أحد دون أحد ، فلا يجوز لهم أخذ الأجرة على فتحه ، وإنما لهم الولاية على فتحه وإغلاقه في الأوقات التي جرت العادة بفتحه فيها ، ولا يجوز لهم إغلاقه ومنع الناس دائماً ، قاله الشيخ أبو عبدا لله الحطاب الرعيني المكي المالكي في شرح المختصر .

ثم قال : والظاهر وإن لم أقف على نص أن حكم فتح المقام وأخذ الأجرة عليه كذلك .

وقال الحطاب في باب النذر من شرح المختصر أيضاً : والمحرم إنما هو نزع المفتاح منهم لا منعهم من انتهاك حرمة البيت وما فيه قلة أدب فهذا واجب لا خلاف فيه ، لا كما يعتقده الجهلة أنه ولاية لأحد عليهم وأنهم يفعلون في البيت ما شاؤوا فهذا لا يقوله أحد من المسلمين . انتهى من التراتيب الإدارية .

المواضع التي صلى فيها رسول الله ﷺ حول الكعبة

جاء في كتاب الجامع اللطيف لابن ظهيرة بعنوان : فصل في ذكر المواضع التي صلى فيها ﷺ حول الكعبة وبيانها ملخصة كما نقله الفاسي عن القِرى للمحب الطبري مع زيادة أدلة ما نصه :

الأول : خلف مقام الخليل عليه السلام لما رواه جابر في صفة حجه ﷺ من قوله : ثم نفر إلى مقام إبراهيم فقرأ : ﴿واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى﴾ ، وجعل المقام بينه وبين البيت ثم صلى الركعتين .

الثاني : تلقاء الحجر الأسود عند حاشية المطاف كما في النسائي من حديث المطلب بن أبي وداعة .

الثالث : قريباً من الركن الشامي مما يلي الحجر ، بسكون الجيم كما في سنن أبي داود من حديث عبدا لله بن السائب .

الرابع : عند باب الكعبة كما في تاريخ الأزرقي من حديث ابن عباس قال ﷺ : أمني جبريل عند باب الكعبة مرتين . قال الفاسي ويحتمل ثلاثة وجوه :

(الأول) : أن يكون صلى وجاه الباب .

(الثاني) : أن يكون في الحفرة المرخمة التي عند باب الكعبة على يمينه .

(الثالث) : أن يكون في الملتزم وهو بعيد ، والوجه الأول أقرب لأنه عند الباب حقيقة ، وإنما نبهنا على ذلك لأن الشيخ عز الدين بن عبد السلام والشيخ أحمد بن موسى بن العجيل ذكر أن مصلى جبريل بالنبي ﷺ في الحفرة المرخمة ، ولم أقف على كلام ابن عجيل . وأما كلام ابن عبد السلام فنقله ابن جماعة . انتهى . قال ابن جماعة بعد ذلك عن ابن عبدالسلام : ولم أر ذلك لغيره وفيه بعد لأنه لو كان صحيحاً لنبهوا عليه بالكتابة في الحفرة ، ولما اقتصروا على من أمر بعمل المطاف وا لله أعلم . انتهى .

الخامس : تلقاء الركن الذي يلي الحجر من جهة المغرب جانحاً إلى جهة الغرب قليلاً بحيث يكون باب المسجد المعروف اليوم بباب العمرة خلف ظهره كما في مسند أحمد وسنن أبي داود وغيرهما من حديث المطلب بن أبي وداعة أنه رأى النبي ﷺ يصلي مما يلي باب بني سهم ، والناس يمرون بين يديه ، وباب بني سهم هو باب العمرة المذكور .

السادس : في وجه الكعبة كما في الصحيحين من حديث أسامة بن زيد رضي ا لله عنهما أن النبي ﷺ لما خرج من البيت صلى قِبل البيت ركعتين ، وقال : هذه القبلة كما تقدم . قال المحب الطبري : وجه الكعبة يطلق على بابها ولهذا قيل للمحاذي له خلفها دُبر الكعبة ، ويطلق على جميع الجانب الذي فيه الباب وهو

المتعارف والظاهر أن هذا الموضع تلقاء المقام في فناء الكعبة بحيث يكون المقام خلف ظهر المصلح فيه . ثم قال : ويحتمل على بعد أن يكون الموضع الرابع يعني المتقدم عند باب الكعبة ، قال ابن جماعة : وقد ورد تفضيل وجه الكعبة على غيره من الجهات ، فعن ابن عمر البيت كله قبلة وقبلته وجهه فإن فاتك ذلك فعليك بقبلة النبي ﷺ تحت الميزاب ومثله عن عمرو بن العاص ، والمراد بقبلة النبي ﷺ قبلة بالمدينة الشريفة . انتهى .

السابع : بين الركنين اليمانيين ذكره ابن إسحاق في سيرته في قصة طويلة . قال الفاسي : ولم يعينه المحب . ويحتمل أن يكون عليه السلام صلى إلى وسط الجدار كما نقله ابن سراقة ويكون عند الرخامة التي في الشاذروان المكتوب فيها اسم الملك لاجين أنه عمل المطاف ويحتمل أن يكون مائلاً عن الوسط إلى جهة الحجر الأسود أو إلى جهة الركن اليماني .

الثامن : في الحجر للحديث الصحيح بينما النبي ﷺ يصلي في حجر الكعبة إذ أقبل عقبة بن أبي معيط فوضع ثوبه في عنقه ﷺ فخنقه خنقاً شديداً فأقبل أبو بكر وأخذ بمنكبه ودفعه عنه عليه السلام وقال : ﴿أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله . . . الآية﴾ قال المحب الطبري : ولا يبعد أن تكون صلاته ﷺ تحت الميزاب ، فقد روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : صلوا في مصلى الأخيار واشربوا من شراب الأبرار ، فقيل له : ما مصلى الأخيار وما شراب الأبرار ؟ فقال : تحت الميزاب وماء زمزم ، وهو ﷺ سيد الأخيار ، ولا يبعد أن تكون الإشارة إليه ﷺ .

انتهى كل ذلك من كتاب الجامع اللطيف لابن ظهيرة رحمه الله تعالى .

نقول : وما جاء في الكتاب المذكور عند الأمر السابع من أن النبي ﷺ صلى بين الركنين اليمانيين "أي بين الركن الأسود والركن اليماني" صلى هنا ليستقبل بيت المقدس قبل أن يؤمر باستقبال الكعبة فكان عليه الصلاة والسلام يصلي بين الركنين جاعلاً الكعبة بينه وبين بيت المقدس ، ولا يخفى أن هذا من كمال عقله وقوة فطنته ﷺ ، ويشبه هذا صلاتنا اليوم عند مقام إبراهيم مستقبلين نفس الكعبة وبيننا وبينها المقام .

قال ابن كثير في تفسيره في الجزء الأول ص١٨٩ ما يأتي : إن رسول الله ﷺ قد أمر باستقبال الصخرة من بيت المقدس فكان بمكة يصلي بين الركنين فتكون بين يديه الكعبة وهو مستقبل صخرة بيت المقدس ، فلما هاجر إلى المدينة

تعذر الجمع بينهما فأمره الله بالتوجه إلى بيت المقدس ، فاستمر الأمر على ذلك بضعة عشر شهراً ، وكان يكثر الدعاء والابتهال أن يوجه إلى الكعبة التي هي قبلة إبراهيم عليه السلام ، فأجيب إلى ذلك وأمر بالتوجه إلى البيت العتيق ، فخطب رسول الله ﷺ الناس فأعلمهم ذلك . انتهى ملخصاً منه .

أول من أدار الصفوف حول الكعبة

الصلاة من أجلّ العبادات فيها التسبيح والتقديس والدعاء والتضرع ، وإليها تسكن قلوب الأنبياء والمرسلين والصالحين المخلصين قال الله تعالى : ﴿واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين﴾ ، وكان عليه الصلاة والسلام "إذا حزّ به أمر صلى" رواه الإمام أحمد وأبو داود ، وقال رسول الله ﷺ : "حُبب إليّ من دنياكم النساء والطيب وجعلت قرة عيني في الصلاة " رواه الإمام أحمد والنسائي وغيرهما .

فالصلاة قرة كل مؤمن تقي وكل مخلص نقي ، وهي عند الكعبة المشرفة أشد قرة لهم وأعظم لذة لديهم ، فلحظة الصلاة وانتظارها عند بيت الله الحرام لا يعادلها شيء مطلقاً ، ولا يعرف ذلك إلا الخاشعين ذوي البصائر المنورة والقلوب المفتحة .

لا يعرف الشوق إلا من يكابده ولا الصبابة إلا من يعانيها

وكان أول من أدار الصفوف حول الكعبة خالد بن عبدالله القسري لما ولاه على مكة أمير المؤمنين عبدالملك بن مروان المتوفى في سنة ست وثمانين من الهجرة ، وذكر ذلك الإمام الأزرقي في تاريخه بالتفصيل وهذا نصه :

حدثنا أبو الوليد قال : حدثني جدي عن سفيان بن عيينة قال : أول من أدار الصفوف حول الكعبة خالد بن عبدالله القسري حدثني جدي قال : حدثني عبدالرحمن بن حسن بن القاسم بن عقبة الأزرقي عن أبيه قال : كان الناس يقومون شهر رمضان في أعلا المسجد الحرام تركز حربة خلف المقام بربوة فيصلي الإمام خلف الحربة والناس وراءه فمن أراد صلى مع الإمام ومن أراد طاف بالبيت وركع خلف المقام ، فلما ولي خالد بن عبدالله القسري مكة لعبد الملك بن مروان وحضر شهر رمضان أمر خالد القراء أن يتقدموا فيصلوا خلف المقام وأدار الصفوف حول الكعبة وذلك أن الناس ضاق عليهم أعلا المسجد فأدارهم حول الكعبة فقيل له : نقطع الطواف لغير المكتوبة قال : فأنا آمرهم يطوفون بين كل ترويحتين سبعاً

فأمدهم فتصلوا بين كل ترويحتين بطوف سبع ، فقيل له : فإنه يكون في مؤخر الكعبة وجوانبها من لا يعلم بانقضاء طواف الطائف من مصل وغيره فيتهيأ للصلاة فأمر عبيد الكعبة أن يكبروا حول الكعبة يقولون : الحمد لله وا لله أكبر فإذا بلغوا الركن الأسود في الطواف السادس سكتوا بين التكبيرتين سكته حتى يتهيأ الناس ممن في الحجر ومن في جوانب المسجد من مصل وغيره فيعرفون ذلك بانقطاع التكبير ويصلي ويخفف المصلي صلاته ثم يعودون إلى التكبير حتى يفرغوا من السبع ويقوم مسمع فينادي : الصلاة رحمكم ا لله ، قال : وكان عطاء بن أبي رباح وعمرو بن دينار ونظراؤهم من العلماء ويرون ذلك ولا ينكرونه .

حدثني جدي عن مسلم بن خالد الزنجي وسعيد بن سالم قالا : حدثنا ابن جريج قال : قلت لعطاء : إذا قل الناس في المسجد الحرام أحب إليك أن يصلوا خلف المقام أو يكونوا صفاً واحداً حول الكعبة قال : بل يكونوا صفاً واحداً حول الكعبة قال : وتلى : ﴿وترى الملائكة حافين من حول العرش﴾ . انتهى من الأزرقي .

وهنا جاء في هامش هذه الصحيفة ما نصه : ذكر السنجاري في بعض أولياته أن الحجاج أول من أطاف الناس حول الكعبة للصلاة وكانوا يصلون صفاً . ونقل عن الزركشي أن أول من فعله عبدا لله بن الزبير ، ويمكن الجمع بين الكلامين بأن ابن الزبير فعله أولاً ثم خالد بعد قتله . انتهى من هامش كتاب الأزرقي .

قال الشيخ حسين بن عبدا لله باسلامة المكي رحمه ا لله تعالى في كتابه "تاريخ عمارة المسجد الحرام" بصحيفة ٢٠ عند هذا الكلام ما نصه : هذا حاصل ما جاء في كون خالد بن عبدا لله القسري هو أول من أمر الناس بالصلاة حول الكعبة المعظمة صفوفاً دائرة ، ولم ينكر عليه أحد من فقهاء التابعين في ذلك العصر المنير بأهل الفضل والعلم مثل عطاء بن أبي رباح ، وعمرو بن دينار ، ونظراؤهما . وكان ذلك في الفريضة والتراويح جماعة بإمام واحد ، ولم ينكر عليه إلا ما كان من أمر التشويش وعدم علم من كان طائفاً أنه قد قامت الصلاة ، فعمل ذلك الترتيب الذي يظهر عليه التكليف ، ولكن كان ذلك مؤقتاً لبينما يألف الناس ذلك الوضع . وعلم من ذلك أيضاً أنهم كانوا قبل إمارة خالد القسري يصلون في جهة واحدة من المسجد الحرام وهي الجهة الشرقية خلف مقام إبراهيم ﷺ وأن الجهات الثلاثة الأخرى كانت خالية من المصلين في الفريضة جماعة ، وظهر من عمل خالد

هذا فوائد حسنة وسنة مستحبة لكونه هو الذي سن هذه السنة وعم عموم المسجد الحرام بالمصلين جماعة واحدة بإمام واحد وقد ارتضى عمله كبار الفقهاء من التابعين وغيرهم من علماء السلف الصالح ولو كان في عمله هذا ما يخالف الشريعة لأنكره العلماء وإذا فرضنا أن الذي منعهم من الإنكار هو خشية بطشه ، فقد كان في وسعهم إنكاره بعد عزله من إمارة مكة . وقد أتيت بهذه الفائدة هنا ليعلم القارئ أول من أدار الصفوف حول الكعبة المعظمة جماعة والسنة التي وضع ذلك فيها وا لله أعلم . انتهى من تاريخ المسجد الحرام .

مدة صلاة النبي ﷺ إلى بيت المقدس

روى البخاري ومسلم في صحيحهما واللفظ للبخاري "كان رسول ا لله ﷺ صلى نحو بيت المقدس ستة عشر شهراً أو سبعة عشر شهراً ، وكان رسول ا لله ﷺ يحب أن يوجه إلى الكعبة فأنزل ا لله عز وجل : ﴿قد نرى تقلب وجهك في السماء﴾ فتوجه نحو الكعبة وقال السفهاء من الناس وهم اليهود : ﴿ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها قل لله المشرق والمغرب يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم﴾ فصلى مع النبي ﷺ رجل ثم خرج بعد ما صلى ، فمرّ على قوم من الأنصار في صلاة العصر نحو بيت المقدس فقال هو : يشهد أنه صلى مع رسول ا لله ﷺ وأنه توجه نحو الكعبة فتحرّف القوم حتى توجهوا نحو الكعبة" .

أخرجه البخاري في أربعة مواضع من صحيحه ، وأخرجه مسلم في كتاب المساجد ، وراوي الحديث هو البراء بن عازب رضي ا لله تعالى عنه .

بيت المقدس هو بوزن المجلس ، أي بفتح الميم وكسر الدال المهملة وهو مصدر كالمرجع أو مكان القدس وهو الطهر أي المكان الذي يطهر العابد من الذنوب أو يطهر العبادة من الأصنام .

ويقال أيضاً بيت المُقَدَّس ، بضم الميم وفتح القاف وتشديد الدال المفتوحة ، ويقال البيت المقدس على الصفة والأشهر بيت المقدس بالإضافة البيانية كمسجد الجامع .

والمراد بالصلاة إلى بيت المقدس نفس الصخرة كما هو صريح في بعض الأحاديث ، وقوله : "فمر على قوم من الأنصار في صلاة العصر نحو بيت المقدس" أي يصلون نحو بيت المقدس .

وكان تحول النبي ﷺ إلى الكعبة في الصلاة بالمدينة المنورة ، ففي طبقات ابن سعد أنه عليه الصلاة والسلام صلى ركعتين من الظهر في مسجده بالمسلمين ثم أمر أن يتوجه إلى المسجد الحرام فاستدار إليه ودار معه المسلمون .

ويقال أنه عليه الصلاة والسلام زار أم بشر بن البراء بن معرور في بني سلمة فصنعت له طعاماً وحانت الظهر فصلى عليه الصلاة والسلام بأصحابه ركعتين ثم أمر فاستدار إلى الكعبة واستقبل الميزاب فسمي مسجد القبلتين . قال ابن سعد قال الواقدي : هذا أثبت عندنا .

ولقد كان رسول الله ﷺ يقع في رَوْعه ويتوقع من ربه أن يحوله إلى الكعبة لأنها قبلة أبيه إبراهيم عليه الصلاة والسلام فكان يدعو إلى السماء طلباً للوحي فحقق الله تعالى مطلبه ومناه .

وفي حديث الطبري من طريق ابن جريج قال : أول ما صلى إلى الكعبة ثم صرف إلى بيت المقدس وهو بمكة فصلى ثلاث حجج ثم هاجر فصلى بعد قدومه المدينة ستة عشر شهراً ثم وجهه الله تعالى إلى الكعبة .

وكان ﷺ إذا استقبل بيت المقدس في صلاته بمكة يجعل الكعبة بينه وبينها ، أي كان يصلي بين الركن الأسود والركن اليماني ، فقد روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن قبلته ﷺ بمكة كانت بيت المقدس لكنه لا يستدبر الكعبة بل يجعلها بينه وبينها . اهـ .

انتهى باختصار من شرح "زاد المسلم فيما اتفق عليه البخاري ومسلم" والشرح والمتن كلاهما لشيخنا العلامة المحدث الشيخ محمد حبيب الله الشنقيطي رحمه الله تعالى وجزاه عنا خير الجزاء .

أمر الكسوة الخارجية للكعبة المعظمة

قلنا أن إبراهيم الخليل عليه وعلى نبينا محمد وعلى جميع الأنبياء والمرسلين الصلاة والسلام ، لما بنى الكعبة مع ابنه إسماعيل ، بناه بالرضم حجارة بعضها فوق

بعض بدون جص ولا نورة ولم يجعل لها سقفاً ولا باباً يفتح ويغلق بل جعل في جهتها الشرقية مكاناً مفتوحاً علامة على الباب وعلى أنه وجه الكعبة وكذلك لم يجعل عليها كسوة . والسبب في ذلك أولاً لم يؤمر بذلك ، ثانياً من أين يأتي بالقماش أو الجلد ، أو الخسف الكثير في ذلك الزمن الذي لم يكن بمكة كلها سوى قبيلة من جرهم . هذا ما نراه والله تعالى أعلم . فالشيء في ابتداء الأمر يقع على الفطرة ثم يأخذ في التحسين تدريجياً شيئاً فشيئاً هذا هو سنة الكون ، والقصد من تغطية الكعبة بالكسوة تكريمها وتجميلها .

وقد اختلفوا في أول من كساها فقيل إسماعيل عليه الصلاة والسلام ، وقيل عدنان بن أدد ، وقيل تبّع الحميري وهذا القول الأخير هو الشائع وهو ما نذهب نحن إليه أيضاً ، لأن ما عللناه لإبراهيم عليه السلام من عدم وضعه الكسوة على البيت نعلله أيضاً لابنه إسماعيل عليهما الصلاة والسلام ، ونعلله أيضاً لعدنان بن أدد ، فإن مكة في تلك العصور الغابرة كانت قليلة السكان لا يرد إليها سوى قليل من المأكولات واللوازم الضرورية من جهة اليمن ، فمن أين لهم القماش أو الحصير الكثير الكافي لستر الكعبة ، إذاً فالقول القائل بأن تبع الحميري هو أول من كسا البيت هو القول الأصح ، ويؤيده ما ذكره الإمام الأزرقي في تاريخه من الروايات الآتية . والكلام قد يطول بنا عن كسوة الكعبة المشرفة ، لذلك جعلنا هذا المبحث في ستة أقسام :

القسم الأول : كسوة الكعبة في العصر الجاهلي

(١) كسوة تبّع الحميري ، وهو أول من كسا بيت الله الحرام على الأصح كما بينا ذلك هنا ، لهذا جعلناه الأول في الترتيب ممن كسوا الكعبة .

روى الأزرقي في تاريخه عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه نهى عن سب أسعد الحميري وهو تبع وكان هو أول من كسا الكعبة .

وروي أيضاً عن محمد بن إسحاق أنه قال : بلغني عن غير واحد من أهل العلم أن أول من كسا الكعبة كسوة كاملة تبع وهو أسعد أري في النوم أنه يكسوها فكساها الأنطاع ثم أري أن يكسوها فكساها الوصايل ثياب حبرة من عصب اليمن وجعل لها باباً يغلق وقال أسعد في ذلك :

وكسونا البيت الذي حرم الله ملاء معضداً وبرودا

وأقمنا به من الشهر عشرا   وجعلنا لبابه إقليدا

وخرجنا منه نؤم سهيلا   قد رفعنا لواءنا معقودا

انتهى من الأزرقي . والإقليد هو المفتاح ، والأنطاع هو الجلود .

وأما العصب فقد قال صاحب كتاب المحمل والحج فبرود يمانية يعصب غزلها أي يجمع ويشد ثم يصبغ بعضه وينسج من غير المصبوغ فيأتي موشى .

وأما الملاء فثياب حبرة من عصب ، والوصائل ثياب موصلة من صنع همدان باليمن ، وقيل أنها ثياب حمر مخططة يمانية . انتهى من الكتاب المذكور .

قالوا : وكساها تبع بالخصف أيضاً وهو حصير من خوص النخل ، وفي مسالك الأمصار أنها ثياب غلاظ . اهـ .

وتبع وهو أسعد الحميري هو أحد ملوك اليمن قبل البعثة بزمن بعيد ، فهو أول من كسا الكعبة ونحر عندها وأول من جعل لها باباً يغلق . قال ابن ظهيرة القرشي في الجامع اللطيف نقلاً عن القطبي في الإعلام : أنه من يوم موت تبع الحميري إلى اليوم الذي بعث فيه نبينا محمد ﷺ ألف سنة لا تزيد ولا تنقص . والله تعالى أعلم .

ترجمة تبع وهو أسعد الحميري

تُبَّع هذا هو أحد ملوك اليمن قبل البعثة بزمن بعيد أي بألف سنة كما سيأتي في آخر هذا الكلام ، وحِمْيَر بكسر الحاء وإسكان الميم وفتح الياء قبيلة شهيرة كائنة في اليمن ورد في حقهم حديث رواه أبو هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : "رحم الله حِمْيراً أفواههم سلام وأيديهم طعام وهم أهل أمن فإيمان" رواه الإمام أحمد والترمذي ، وسببه أن رجلاً قال : يا رسول الله إلعن حِمْيراً فأعرض عنه ثم ذكره . جاء في الجامع اللطيف نقلاً عن القطبي في الإعلام ما نصه :

أما قصة تُبَّع فذكر "القطبي في الإعلام" أنه كان من الخمسة الذين دانت لهم الدنيا بأسرها ، وكان كثير الوزراء فاختار منهم واحداً وأخرجه لينظر في ملكه ، وكان إذا أتى بلدة يختار من حكمائها عشرة رجال ، وكان معه من العلماء والحكماء مائة ألف رجل هم الذين اختارهم من البلدان ولم يكونوا محسوبين من

الجيش، ثم إنه قصد مكة فلما انتهى إليها لم يخضع له أهلها كخضوع غيرهم و لم يعظموه فغضب لذلك ودعا وزيره وشكى إليه فعلهم، فقال: إنهم عرب لا يعرفون شيئاً ولهم بيت يقال له الكعبة وهم معجبون به، فنزل الملك بعسكره ببطحاء مكة وعزم على هدم البيت وقتل الرجال ونهب النساء وسبيهم، فأخذه الصداع وتفجر من عينيه وأذنيه ومنخريه وفمه ماء منتن فلم يصبر عنده أحد طرفة عين من شدة النتن فقال لوزيره: اجمع العلماء والحكماء والأطباء فلم يقدروا على الجلوس عنده، وعجزوا عن مداواته وقالوا: نحن نقدر على مداواة ما يعرض من أمور الأرض، وهذا من السماء لا نستطيع له رداً، ثم اشتد أمره وتفرق الناس عنه فلما أقبل الليل جاء أحد العلماء لوزيره فقال: إن بيني وبينك سراً فإن كان الملك يصدقني في حديثه عالجته، فاستبشر الوزير بذلك وجمع بينه وبين الملك فلما خلا قال له العالم: أيها الملك أنت نويت لهذا البيت سوءاً قال: نعم، فقال له العالم: أيها الملك نيتك أحدثت لك هذا الداء، ورب هذا البيت عالم بالأسرار فبادر وارجع عما نويت، فقال الملك: قد أخرجت ذلك من قلبي ونويت لهذا البيت وأهله كل خير فلم يخرج العالم من عنده إلا وقد عافاه الله تعالى من علته فآمن بالله من ساعته وخلع على الكعبة سبعة أثواب وهو أول من كسا الكعبة كما سأذكره بعد إن شاء الله تعالى ثم خرج إلى يثرب وليس بها يومئذ بيت وإنما فيها عين ماء فنزل عند العين ثم إن العلماء والحكماء أخرجوا من بينهم أربعمائة وهم أعلمهم وتبايعوا أن لا يخرجوا من يثرب وإن قتلهم الملك فلما علم الملك بذلك سألهم عن الحكمة التي اقتضت إقامتهم في هذه البلدة؟ فقالوا: أيها الملك إن ذلك البيت وهذه البقعة يشرفان برجل يبعث في آخر الزمان اسمه محمد ووصفوه ثم قالوا: طوبى لمن أدركه وآمن به، ونحب أن ندركه أو يدركه أولادنا فلما سمع الملك بذلك هم بالمقام معهم فلم يقدر على ذلك فأمر بعمارة أربعمائة دار على عدد العلماء وأعطى كل واحد منهم جارية وأعتقها وزوجه بها وأعطاهم مالاً جزيلاً (ثم كتب) كتاباً وختمه بخاتم من ذهب ودفعه إلى عالمهم الكبير الذي أبرأه من علته وأمره أن يدفعه إلى محمد ﷺ إن أدركه، وأن يوصي بذلك أولاده ثم أولادهم (وكان الكتاب) أما بعد: فإني آمنت بك وبكتابك الذي ينزل عليك، وأنا على دينك وسنتك وآمنت بربك وبكل ما جاء من ربك من شرائع الإيمان والإسلام فإن أدركتك فيها ونعمت، وإلا فاشفع لي ولا تنسني يوم القيامة فإني من أمتك الأولين وقد بايعتك قبل مجيئك وأنا على ملتك وملة إبراهيم أبيك عليه

السلام (ثم نقش عليه): لله الأمر من قبل ومن بعد وكتب عنوانه: إلى محمد بن عبدالمطلب نبي الله ورسوله وخاتم النبيين ورسول رب العالمين ﷺ من تبع الأول حِمْير بن وردع ثم سار من يثرب إلى بلاد الهند فمات بها وكان من يوم موته إلى اليوم الذي بعث فيه النبي ﷺ ألف سنة لا تزيد ولا تنقص. قال ابن ظهيرة: وكان الأنصار من أولاد أولئك العلماء والحكماء (فلما ظهر خبره) ﷺ بمكة أرسلوا إليه كتاب تبع مع رجل منهم يقال له أبو ليلى إلى مكة فوجد النبي ﷺ في قبيلة بني سليم، فعرفه رسول الله ﷺ، فقال له: أنت أبو ليلى، فقال: نعم، قال: معك كتاب تبع الأول، قال: نعم، وبقي أبو ليلى متفكراً ثم دفع الكتاب إلى رسول الله ﷺ فدفعه رسول الله ﷺ إلى علي بن أبي طالب فقرأه عليه فلما سمع رسول الله ﷺ كلام تبع قال: مرحباً بالأخ الصالح ثلاث مرات ثم أمر أبا ليلى بالرجوع إلى المدينة يبشرهم بقدومه عليه السلام.

قال ابن ظهيرة: فلما هاجر النبي ﷺ إلى المدينة سأله أهل القبائل أن ينزل عليهم وصاروا يتعلقون بزمام ناقته وهو يقول: خلوها فإنها مأمورة حتى جاءت إلى دار أبي أيوب الأنصاري وكان من أولاد العالم الذي شفى تبع برأيه. انتهى كل هذا من الجامع اللطيف. فقوله: أن تبّع الحميري أحد الخمسة الذين دانت لهم الدنيا بأسرها، هذا على رأي من يقول: أن من ملك الدنيا كلها خمسة، وقيل هم أربعة: مؤمنان: ذو القرنين وسليمان، وكافران: نمرود وبختنصر. وذو القرنين هو الإسكندر الرومي.

وذكر الإمام الأزرقي في تاريخه قصة تبع الحميري في موضعين "الموضع الأول" في باب ما جاء في ولاية قصي بن كلاب البيت الحرام وأمر مكة بعد خزاعة، قال في هذا الباب ما نصه: حدثنا أبو الوليد قال: حدثني جدي قال: حدثنا سعيد بن سالم عن عثمان بن ساج عن ابن جريج وعن ابن إسحاق يزيد أحدهما على صاحبه قالا: أقامت خزاعة على ما كانت عليه من ولاية البيت والحكم بمكة ثلاثمائة سنة وكان بعض التبابعة قد سار إليه وأراد هدمه وتخريبه فقامت دونه خزاعة فقاتلت عليه أشد القتال حتى رجع ثم آخر فكذلك. وأما تبع الثالث الذي نحر له وكساه وجعل له غلقاً وأقام عنده أياماً ينحر كل يوم مائة بدنة لا يرزأ هو ولا أحد من أهل عسكره شيئاً منها يردها الناس في الفجاج والشعاب فيأخذون منها حاجتهم ثم تقع عليها الطير فتأكل ثم تنتابها السباع إذا أمست لا يرد عنها

إنسان ولا طير ولا سبع ثم رجع إلى اليمن إنما كان في عهد قريش فلبثت خزاعة على ما هي عليه وقريش إذ ذاك في بني كنانة متفرقة . . . الخ .

انتهى ما ذكره الأزرقي عن تبع في هذا الباب .

"وأما الموضع الثاني" فهو في باب مسير تبع إلى مكة شرفها الله تعالى فقد قال فيه ما نصه : حدثنا أبو الوليد قال : حدثني جدي عن سعيد بن سالم عن عثمان بن ساج قال : أخبرني ابن إسحاق قال : سار تبّع الأول إلى الكعبة وأراد هدمها وتخريبها وخزاعة يومئذ تلي البيت وأمر مكة فقامت خزاعة دونه وقاتلت عنه أشد القتال حتى رجع ثم تبع آخر فكذلك ، وأما التبابعة الذين أرادوا هدم الكعبة وتخريبها فثلاثة وقد كان قبل ذلك منهم من يسير في البلاد فإذا دخل مكة عظم الحرم والبيت ، وأما التبع الثالث الذي أراد هدم البيت فإنما كان في أول زمان قريش قال : وكان سبب خروجه ومسيره إليه أن قوماً من هذيل من بني لحيان جاؤوه فقالوا : إن بمكة بيتاً تعظمه العرب جميعاً وتفد إليه وتنحر عنده وتحجه وتعتمره وأن قريشاً تليه فقد حازت شرفه وذكره وأنت أولى أن يكون ذلك البيت وشرفه وذكره لك فلو سرت إليه وخربته وبنيت عندك بيتاً ثم صرفت حاج العرب إليه كنت أحق به منهم قال : فأجمع المسير إليه .

قال الأزرقي : حدثني جدي قال : حدثنا سفيان بن عيينة عن موسى بن عيسى المديني قال : لما كان تبع بالدف من جمدان بين أمج وعسفان دفت بهم دوابهم وأظلمت الأرض عليهم فدعا أحباراً معه من أهل الكتاب فسألهم فقالوا : هل هممت لهذا البيت بشيء قال : أردت أن أهدمه ، قالوا له : خيراً أن تكسوه وتنحر عنده ففعل فانجلت عنهم الظلمة وإنما سمي الدف من أجل ذلك . ثم رجع إلى حديث ابن إسحاق قال : فسار حتى إذا كان بالدف من جمدان بين أمج وعسفان دفت بهم الأرض وغشيتهم ظلمة شديدة وريح فدعا أحباراً كانوا معه من أهل الكتاب فسألهم فقالوا : هل هممت لهذا البيت بسوء ؟ فأخبرهم بما قال له الهذليون وبما أراد أن يفعل فقالت الأحبار : والله ما أرادوا إلا هلاكك وهلاك قومك إن هذا بيت الله الحرام ولم يرده أحد قط بسوء إلا هلك قال : فما الحيلة ؟ قالوا : تنوي له خيراً أن تعظمه وتكسوه وتنحر عنده وتحسن إلى أهله ففعل فانجلت الظلمة وسكنت الريح وانطلقت بهم ركابهم ودوابهم ، فأمر تبع بالهذليين فضربت أعناقهم وصلبهم وإنما فعلوا ذلك حسداً لقريش على ولايتهم البيت ثم

سار تبع حتى قدم مكة فكانت سلاحه بقعيقعان فيقال فبذلك سمي قعيقعان وكانت خيله بأجياد ويقال إنما سميت أجياد أجياداً بجياد خيل تبع ، وكانت مطابخه في الشعب الذي يقال له شعب عبدا لله بن عامر بن كريز فلذلك سمي الشعب المطابخ ، فأقام بمكة أياماً ينحر في كل يوم مائة بدنة لا يرزأ هو ولا أحد ممن في عسكره منها شيئاً يردها الناس فيأخذون منها حاجتهم ثم تقع الطير فتأكل ثم تنتابها السباع إذا أمست لا يصد عنها شيء من الأشياء إنسان ولا طائر ولا سبع يفعل ذلك كل يوم مقامه أجمع ، ثم كسا البيت كسوة كاملة أري في المنام أن يكسوها فكساها الأنطاع ، ثم أري أن يكسوها فكساها الوصايل ثياب حبرة من عصب اليمنٍ ، وجعل لها باباً يغلق و لم يكن يغلق قبل ذلك ، وقال تبع في ذلك وفي مسيره شعراً :

وكسونا البيت الذي حرم الله ... ملاء معصباً وبرودا
وأقمنا به من الشهر عشرا ... وجعلنا لبابه إقليدا
وخرجنا منه نؤم سهيلا ... قد رفعنا لواءنا معقودا

ومما تقدم من قوله : "بين أمجٍ وعسفان" فقد جاء في هامش تاريخ الأزرقي ما نصه : أمج ذكر السمهودي نقلا عن الأسدي أن أمج بعد خليص بجهة مكة بميلين ، قال : وبعده بميل وادي الأزرق ويعرف بعران ، وأمج لخزاعة . اهـ .

قلنا : وخليص قرية في وادي فاطمة أما عسفان فهي المرحلة الثانية للقوافل الصادرة من مكة إلى المدينة ، وتبعد عن مكة ستة وثلاثون ميلاً . اهـ .

انتهى كل ذلك من تاريخ الأزرقي المسمى "أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار" .

وما تقدم من أن سلاح تبعٍ كانت بقعيقعان فلذلك سمي بقعيقعان وأن خيله كانت بأجياد فلذلك سمي أجياداً . فقد جاءت علة أخرى لتسميتها بذلك أيضاً ففي موضع آخر من تاريخ الأزرقي أن عمرو بن الحارث بن مضاض الجرهمي الذي بلغ من العمر عتياً يذكر لأبيٍ سلمة بن عبد الأسد المخزومي حين اجتمع به قبيل الإسلام أنه سمي أجياد أجياداً قال : لأنها جادت بالدماء يوم التقينا نحن وقطورا . وسمي قعيقعان قعيقعان لتقعقع السلاح في ظهورنا لما طلعنا عليهم منه . وعمرو بن الحارث المذكور هو القائل :

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا ... أنيس ولم يسمر بمكة سامر

بلى نحن كنا أهلها فأزالنا   صروف العوادي والجدود العواثر

فانظر رحمك الله كيف وضع الله تعالى هيبة بيته الحرام ومحبته وتعظيمه في قلوب عباده منذ أقامه في الأرض للعبادة، ولو لم يكن كذلك لما حج إليه الناس من كل فج عميق، فسبحان من بيده مقاليد السموات والأرض فهو رب هذا البيت ورب كل شيء.

(٢) لم يذكر المؤرخون من كسا الكعبة بعد تبع الحميري الذي هو أول من سن هذه السنة الحسنة، والذي نعتقده أن الناس بعد أن رأوا كسوة تبع على الكعبة لم يتركوها مجردة قط، وهذا هو المعقول.

روى الأزرقي عن ابن أبي مليكة أنه قال: بلغني أن الكعبة كانت تكسى في الجاهلية كسي شتى: كانت البدنة تجلل الحبرة والبرود والأكسية وغير ذلك من عصب اليمن وكان هذا يهدى للكعبة سوى جلال. البدن هدايا من كسي شتى خز وحبرة وأنماط فيعلق فتكسى منه الكعبة ويجعل ما بقي في خزانة الكعبة فإذا بلي منها شيء أخلف عليها مكانه ثوب آخر ولا ينزع مما عليها شيء وكان يهدى إليها خلوق ومجمر وكانت تطيب بذلك من بطنها ومن خارجها. اهـ.

وروي أيضاً عن النوار بنت مالك بن صرمة أم زيد ابن ثابت قالت: رأيت على الكعبة قبل أن ألد زيد بن ثابت وأنا به نسيء مطارف خز خضراء وصفراء وكراراً وأكسية من أكسية الأعراب وشقاق شعر. والكرار الخيش الرقيق. واحدها كر. اهـ.

وروي أيضاً عن عطاء بن يسار عن عمر بن الحكم السلمي قال: نذرت أمي بدنة تنحرها عند البيت وجللتها شقتين من شعر ووبر فنحرت البدنة وسترت الكعبة بالشقتين والنبي ﷺ يومئذ بمكة لم يهاجر فأنظر إلى البيت يومئذ وعليه كسي شتى من وصائل وأنطاع وكرار وخز ونمارق عراقية أي ميسانية كل هذا قد رأيته عليه. انتهى من الأزرقي.

(٣ و ٤) كسوة قريش وكسوة أبي ربيعة بن المغيرة بن عبدالله بن عمرو بن مخزوم وكان اسمه في الجاهلية (بجيراً) فسماه رسول الله ﷺ عبدالله. كما ذكره صاحب كتاب المحمل والحج نقلاً عن الأغاني.

روى الأزرقي قال : حدثني جدي قال : حدثنا عبدالجبار ابن الورد قال : سمعت ابن أبي مليكة يقول : كانت قريش في الجاهلية ترافد في كسوة الكعبة فيضربون ذلك على القبائل بقدر احتمالها من عهد قصي بن كلاب حتى نشأ أبو ربيعة بن المغيرة بن عبدا لله بن عمرو بن مخزوم وكان يختلف إلى اليمن يتجر بها فأثرى في المال فقال لقريش : أنا أكسو وحدي الكعبة سنة وجميع قريش سنة فكان يفعل ذلك حتى مات يأتي بالحبرة الجيدة من الجند فيكسوها الكعبة فسمته قريش "العدل" لأنه عدل فعله بفعل قريش كلها فسموه إلى اليوم العدل ويقال لولده بنو العدل . اهـ من الأزرقي ، والجَنَد بفتحتين بلد بأرض السكاسك باليمن .

(٥) كسوة خالد بن جعفر بن كلاب ، فقد ذكر الحافظ ابن حجر في فتح الباري روى الفاكهي في كتاب مكة من طريق مسعر عن جده قال : أصاب خالد بن جعفر بن كلاب لطيمة في الجاهلية فيها نمط من ديباج فأرسل به إلى الكعبة فنيط عليها ، قال الحافظ : فعلى هذا هو أول من كسى الكعبة الديباج ثم قال : وروى الدارقطني في المؤتلف أن أول من كسى الكعبة الديباج نتيلة بنت حبان والدة العباس بن عبدالمطلب كانت أضلت العباس صغيراً فنذرت إن وجدته أن تكسو الكعبة الديباج وذكر الزبير بن بكار أنها أضلت ابنها ضرار ابن عبدالمطلب شقيق العباس فنذرت إن وجدته أن تكسو البيت فرده عليها رجل من جذام فكست الكعبة ثياباً بيضاء .

قال الحافظ : وهذا محمول على تعدد القصة . انتهى من تاريخ الكعبة . ومعنى اللطيمة العير التي تحمل الطيب وبز التجار وربما قيل لسوق العطارين لطيمة . اهـ من مختار الصحاح .

(٦) كسوة نتيلة بنت حبان والدة العباس بن عبدالمطلب ، وهي التي ذكرنا قصتها في رقم (٥) قال ابن ظهيرة في كتابه الجامع اللطيف : وهي أول عربية كستها الحرير .

القسم الثاني : كسوة الكعبة في الإسلام

(٧) كسوة النبي ﷺ : فقد كساها الثياب اليمانية وقد كانت كسوتها على عهده الأنطاع والمسوح .

(٨) كسوة أبي بكر رضي الله عنه : كساها القباطي وهي جمع قبطية ثوب رقيق أبيض من ثياب مصر كأنه منسوب إلى القبط والضم خاص بالثياب والكسر خاص بالناس ، وتسميتها بالقباطي ليس لاحتكار أقباط مصر لهذا النوع من النسيج ولكنه اصطلاح اتفق عليه . كما ذكر في كتاب المحمل والحج .

(٩) كسوة عمر بن الخطاب رضي الله عنه : كساها القباطي أيضاً من بيت المال من مصر وكان يكتب إلى مصر لتحاك له فيها ، قال ابن ظهيرة في الجامع اللطيف : كان عمر بن الخطاب ينزع ثياب الكعبة كل سنة فيقسمها على الحجاج .

(١٠) كسوة عثمان رضي الله عنه : كساها القباطي أيضاً وكان يطلبها من مصر كعمر بن الخطاب ، رضي الله عن الجميع . قال صاحب كتاب المحمل والحج : وقد كساها عثمان سنة بروداً يمانية أمر عامله على اليمن بعملها وهو يعلى بن منبه . قال : ووضع عثمان على الكعبة كسوتين إحداهما فوق الأخرى وهو أول من فعل ذلك في الإسلام . اهـ .

أما علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، فقد قال صاحب كتاب المحمل والحج : إن التاريخ لم يذكر عنه شيئاً ولعل حروبه في تمهيد أمر الدولة قد شغلته عن ذلك . اهـ . ونحن نقول ولهذا السبب نفسه لم يحج رضي الله عنه بالناس بعد الخلافة أيضاً .

(١١) كسوة عبدالله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما ، ففي تاريخ الأزرقي : كان ابن عمر يجلل بدنة بالأنماط فإذا نحرها بعث بالأنماط إلى الحجبة فيجعلونها على الكعبة قبل أن تكسى الكعبة . اهـ .

وقال ابن ظهيرة في كتابه الجامع اللطيف : وكساها عبدالله بن عمر ابن الخطاب رضي الله عنهما ما كان يجلل به بدنة من القباطي والحبرات والأنماط . انتهى . الحبرات بكسر الحاء وفتح الباء جمع حبرة كعنبة برد يمان . قال في المصباح : والأنماط جمع نمط بفتحتين وهو ثوب من صوف يطرح على الهودج . قاله في المنجد وله معان أخر .

القسم الثالث : كسوة الكعبة في عصر بني أمية

(١٢) كسوة معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه : فقد كساها كسوتين فكانت تكسى الديباج يوم عاشوراء، وتكسى القباطي في أواخر شهر رمضان لعيد الفطر .

قال صاحب كتاب المحمل والحج : وكانت الكعبة تلبس الديباج الأحمر يوم التروية ولا يخاط، ويترك الإزار عليها حتى ينهب الحاج لئلا يخرقونه، فإذا كان يوم عاشوراء علقوا عليها الإزار وأوصلوه بالقميص الديباج فلا يزال عليها إلى يوم ٢٧ رمضان فتكسى الكسوة الثانية وهي من القباطي . اهـ .

(١٣) كسوة عبدالله بن الزبير رضي الله عنهما : فإنه لما فرغ من بناء الكعبة المشرفة سنة أربع وستين خلّقها من داخلها وخارجها من أعلاها إلى أسفلها وكساها القباطي وقيل الديباج الخسرواني فكان يبعث بالكسوة إلى مصعب بن الزبير كل سنة فكانت تكسى يوم عاشوراء كما ذكره الأزرقي، لكن عبارة صاحب كتاب المحمل والحج فقد كان يبعث إلى أخيه مصعب ليرسل إليه الكسوة كل سنة . وفرق بين العبارتين كما لا يخفى .

ويدل على ذلك ما جاء في كتاب الدرة الثمينة في تاريخ المدينة لابن النجار، المطبوع بآخر الجزء الثاني من كتاب "شفاء الغرام" عند الكلام على ذكر الستارة التي كانت على صحن مسجد المدينة ما نصه :

أنبأنا ذاكر بن كامل عن الحسن بن أحمد بن محمد الحداد عن أبي نعيم الحافظ عن أبي جعفر الخلدي، قال : أخبرنا محمد بن عبدالرحمن المخزومي قال : حدثنا الزبير بن بكار قال : حدثني محمد بن الحسن بن زبالة قال : حدثني حسين بن مصعب قال : أدركت كسوة الكعبة يؤتى بها المدينة قبل أن تصل إلى مكة فتنشر على الرضراض في المسجد ثم يخرج بها إلى مكة، وذلك سنة إحدى وثلاثين أو اثنتين وثلاثين ومائة . انتهى من الكتاب المذكور .

قال في مختار الصحاح : الرضراض "بفتح الراء" ما دق من الحصى، ورضاض الشيء، بضم الراء، فتاته، وكل شيء كسرته فقد رضرضته .

(١٤) كسوة يزيد بن معاوية بن أبي سفيان : كساها الديباج الخسرواني أيضاً ويزيد هو الذي أخدم أيضاً العبيد للكعبة كما أخدمهم لها قبله أبوه معاوية رضي الله تعالى عنه .

(١٥) كسوة الحجاج بن يوسف الثقفي : كساها الديباج الخسرواني أيضاً ، قال صاحب كتاب المحمل والحج : ولعله فعل ذلك تكفيراً عما أتاه من رميها بالمنجنيق في قتاله ابن الزبير .

(١٦) كسوة عبدالملك بن مروان ، كساها الديباج . قال الأزرقي : فكان يبعث به كل سنة من الشام ، فيمر به على المدينة فينشر يوماً في مسجد رسول الله ﷺ على الأساطين هاهنا وهاهنا ثم يطوى ويبعث به إلى مكة وكان يبعث بالطيب إليها وبالمجمر وإلى مسجد رسول الله ﷺ .

(١٧) كسوة هشام بن عبدالملك ، قال صاحب كتاب المحمل والحج : كساها هشام ديباجاً غليظاً وأغلب كسوة من كان قبله من متاع اليمن . قال : وقال الماوردي : وكساها بنو أمية في بعض أيامهم الحلل التي كانت على أهل "نجران" في جزيتهم والديباج من فوقها . اهـ .

القسم الرابع: كسوة الكعبة في عصر العباسيين

(١٨) كسوة أمير المؤمنين محمد المهدي : قال مؤلف كتاب المحمل والحج فيه ما نصه :

وفي سنة (١٥٩) أمر المهدي بصنع كسوة من القباطي للكعبة شاهدها الفاكهي وقال عنها : "ورأيت كسوة من قباطي مصر مكتوباً عليها بسم الله بركة من الله ، مما أمر به عبدالله المهدي محمد أمير المؤمنين أصلحه الله محمد بن سليمان أن يصنع في طراز تنيس كسوة الكعبة على يد الخطاب بن مسلمة عامله سنة تسعة وخمسين ومائة" مقريزي ص١٨١ ورأى الفاكهي أيضاً كسوة أخرى باسم المهدي مصنوعة سنة (١٦٢) قال : وفي سنة (١٦٠) نزع "المهدي" الكسوة التي كانت على الكعبة وكساها كسوة جديدة وذلك لأن حجبة الكعبة أنهوا إليه أنهم يخافون على الكعبة أن تهدم لكثرة ما عليها من الكسوة فأمر أن يكشف عنها ما عليها من الكسوة حتى بقيت مجردة ثم طلي البيت كله بالخلوق بالغالية والمسك والعنبر . . . الخ . اهـ .

(١٩) كسوة هارون الرشيد، قال صاحب كتاب المحمل والحج فيه ما نصه :

وقال الفاكهي : ورأيت أيضاً كسوة لهارون الرشيد من قباطي مصر مكتوب عليها "بسم الله بركة من الله للخليفة الرشيد عبدالله هارون أمير المؤمنين أكرمه الله مما أمر به الفضل بن الربيع أن يعمل في طراز تونة سنة تسعين ومائة" انتهى من الكتاب المذكور.

وهو نقلاً عن المقريزي ص١٨١ ورأى الفاكهي أيضاً كسوة أخرى مصنوعة باسم هارون الرشيد سنة (١٩١).

(٢٠) كسوة الفضل بن سهل ذي الرياستين وطاهر بن الحسين : قال صاحب كتاب المحمل والحج فيه ما نصه : "وقال الفاكهي أيضاً ورأيت كسوة مما يلي الركن الغربي يعني من الكعبة مكتوباً عليها" مما أمر به السري ابن الحكم وعبدالعزيز بن الوزير الجروي بأمر الفضل بن سهل ذي الرياستين وطاهر بن الحسين سنة سبع وتسعين ومائة " انتهى من الكتاب المذكور وهو نقلاً عن المقريزي ص١٨١.

(٢١) كسوة المأمون بن هارون الرشيد، قال صاحب كتاب المحمل والحج فيه ما نصه : ثم إن المأمون بن هارون الرشيد أمر أن تكسى الكعبة ثلاث مرات "أي في السنة" تكسى الديباج الأحمر يوم التروية، والقباطي أول رجب، والديباج الأبيض في ٢٧ رمضان . ابتدأ المأمون سنة (٢٠٦) حين قالوا له : الديباج الأحمر يتخرق قبل الكسوة الثانية فسأل مبارك الطبري مولاه وهو على بريد مكة وصوافيها عن أحسن ما تكون فيه الكعبة فقال له في الديباج الأبيض ففعله قال : وفي مرآة الحرمين أمر أن لا يسدل عليها إلا كسوة واحدة، ثم قال : وقال الفاكهي : "ورأيت شقة من قباطي مصر في وسطها إلا أنهم كتبوا في أركان البيت بخط دقيق أسود مما أمر به أمير المؤمنين المأمون سنة ست ومائتين" . اهـ من كتاب المحمل والحج وهو نقلاً عن المقريزي ص١٨١.

ثم قال أيضاً : "ثم رفع إلى المأمون أيضاً أن إزار الديباج الأبيض يتخرق ويبلى في أيام الحج من مس الحجاج قبل أن يخاط عليها إزار الديباج الأحمر في عاشوراء فزادها إزاراً من ديباج أبيض، تكساه يوم التروية فيستر به ما تخرق من الإزار الذي كسيته إلى أن يخاط عليها إزار الديباج الأحمر في العاشوراء" . انتهى كل ذلك من المحمل والحج . وهذا الكلام وأكثر منه موجود في تاريخ الأزرقي .

(٢٢) كسوة أبي السرايا الأصفر ، قال في كتاب المحمل والحج فيه ما نصه :

وفي سنة (٢٠٠) مائتين قدم مكة حسين بن حسن الأفطس الطالبي وملكها ودخل الكعبة وجردها من جميع الكسي ، وأخذ جميع ما كان عليها وكساها ثوبين رقيقين من قز أحدهما أصفر والآخر أبيض ، كان أبو السرايا بعث بهما إليها مكتوب عليهما "بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على محمد وعلى أهل بيته الطيبين الطاهرين الأخيار ، أمر أبو السرايا الأصفر بن الأصفر داعية آل محمد بعمل هذه الكسوة لبيت الله الحرام ، وأن تطرح عنها كسوة الظلمة من لدى العباس" ثم أخذ أموالاً كثيرة من أهل مكة وصادرهم وأبادهم . انتهى من الكتاب المذكور .

(٢٣) كسوة أمير المؤمنين جعفر المتوكل على الله ، قال صاحب كتاب المحمل والحج فيه ما نصه :

ثم رفع إلى جعفر المتوكل على الله في سنة (٢٤٠) أن إزار الديباج الأحمر يبلى قبل هلال رجب من مس الناس وتمسحهم بالكعبة فزادها إزارين مع الإزار الأول فأذال قميصها الديباج الأحمر وأسبله حتى بلغ الأرض ثم جعل الإزار فوقه في كل من شهرين إزاراً . اهـ .

قال الأزرقي : معنى أذال "بالذال المعجمة" : أسبل . قال صاحب المحمل : ثم نظر الحجبة فإذا الإزار الثاني لا يحتاج إليه فوضع في تابوت الكعبة وكتبوا إلى المتوكل أنه يكفي إزار واحد مع ما أذيل من قميصها ، فصار يبعث بإزار واحد فتكسى به بعد ثلاثة أشهر ويكون الذيل ثلاثة أشهر . ثم في سنة (٢٤٣) أمر المتوكل بإذالة القميص القباطي حتى بلغ الشاذروان الذي تحت الكعبة . قال الماوردي : ثم كسى المتوكل أساطينه الديباج وقد عدت الكساوى التي كسيت بها الكعبة من سنة (٢٠٠) إلى سنة (٢٤٤) فإذا هي مائة وسبعون ثوباً . راجع تاريخ مكة . ثم عاد الخلفاء العباسيون ببغداد إلى شعارهم الأسود فألبسوا الكعبة الديباج الأسود . انتهى كل ذلك من كتاب المحمل والحج .

وفي سواد كسوة الكعبة المعظمة يقول المهلهل الدمياطي :

يروق لي منظر البيت العتيق إذا ... بدا الطرفي في الإصباح والطفل

كأن حلته السوداء قد نسجت ... من حبة القلب أو من أسود المقل

(٢٤) قال صاحب المحمل والحج نقلاً عن صبح الأعشى في الجزء الرابع ص٢٨١ ما نصه : وقد حكى المؤيد صاحب حماة في تاريخه أن الفاطميين خلفاء مصر في إمارة أبي الحسن جعفر من السليمانيين على مكة في سنة (٣٨١) كسوا الكعبة البياض . اهـ .

(٢٥) قال صاحب كتاب المحمل والحج نقلاً عن المقريزي ص١٨١ ما نصه : "وقال المسبحي في حوادث سنة (٣٨٤) : وفي ذي القعدة ورد يحيى بن اليمان من (تنيس) و (دمياط) و (الفرما) بهديته وهي أسفاط وتخوت وصناديق مال وخيل وبغال وحمير وثلاث مظال وكسوتان للكعبة" . اهـ .

(٢٦) قال صاحب كتاب المحمل والحج فيه ما نصه : وفي سنة (٣٩٧) كسى الحاكم بأمر الله الكعبة القباطي البيض وبعث مالاً لأهل الحرمين . اهـ .

(٢٧) وقال في الكتاب المذكور : وفي سنة (٤٢٣) بعث الظاهر لإعزاز دين الله بكسوة الكعبة فكسيت . اهـ .

(٢٨) وقال أيضاً في الكتاب المذكور : وفي الفترة التي بين سني ٤٣٧-٤٤٤ للهجرة عاين الكسوة التي على الكعبة "ناصري خسرو" وكتب عنها في رحلته في سوريا وفلسطين وبلاد العرب التي كتبها باللغة الفارسية وترجمت إلى الفرنسية ما ترجمته ملخصاً : "كانت الكعبة مضاءة بأربع شبابيك موضوعة في الزوايا الأربع ومغشاة بزجاج شفاف ليمنع المطر في تخلله إلى الكعبة ، الظاهر من تخلله إلى الشبابيك" . والميزاب موجود في منتصف الجنب البحري وطوله ثلاثة أذرع مغشى بكتابات ذهبية .

أما الكسوة فكانت بيضاء مجزعة عليها شريطان بعرض ذراع وارتفاع الكسوة بين الشريطين نحو عشرة أذرع ، والأجزاء الموجودة فوق وتحت هذه الأشرطة كان لها نفس المقاس وبهذا الوضع كانت تظهر الكعبة كأنها مقسمة إلى أقسام ثلاثة ، كل قسم حسب تقديري الشخصي عشرة أذرع تقريباً ، وعلى وجوه الكسوة الأربع كانت ترى محاريب منسوجة بالحرير الملون وعليها رسومات بالخيوط الذهبية ، وعلى كل وجهة ثلاث محاريب مزركشة ، والمحراب الأوسط هو الأكبر ، أما الاثنان الآخران المكتنفان له فمقاسهما أقل ، وعليه فقد كان عدد المحاريب المرسومة على الأجناب الأربعة اثني عشر محراباً . اهـ .

انتهى من كتاب المحمل والحج ، ثـم قـال مؤلفـه عنـد هـذا الكلام : وزخرفة الكسوة بالمحاريب قد بقيت مستمرة بعد "ناصري خسرو" المذكور إلى سـنة ٥٦١ حيث عاينها "أبو الحجاج يوسف بن محمد البلوي" مؤلف كتاب "ألف بـاء" وقـد قال عنها ما ذكرناه له في صحيفة ١٨٣ من كتابنا هذا .

نقول : وما أشار إليه أستاذنا المؤلف المذكور رحمه الله تعالى عما ذكره بصحيفة ١٨٣ من كتابه عن مشاهدة أبو الحجاج يوسف الكعبة وكـل مـا رآه في سنة ٥٦١ فإننا ننقل هنا الجزء الخاص عن الكسوة فقط فقد قال ما نصه : والبيت مستور كله بالديباج إلا موضع الباب وموضع الحجر الأسود ولون أستاره أخضر منسوج فيها صور المحاريب في كل محـراب منهـا على صفرهـا مكتـوب طرة قد قطعت من الخلدي الأحمر وخيطت على الأستار ، حروفها تقرأ على البعد لعظمها مكتوب بعد البسملة : ﴿إن أول بيت وضع للناس . . . الآية﴾ هذا مـا أمر بعمله فلان ابن فلان عام كذا يعني صاحب بغداد وهو يرسل كسوتها كل عام مع أشياء سوى هذه من الأسباب يطول بذكرها الكتاب قال :

أراهـا الله رأي العين عبـداً ... شـديد الشوق للبلد الحرام
فيشفى سقمه بطواف بيـت ... كريـم عنـد زمـزم والمقـام

قال : وقد ذكرت بعض وصف البيت في قصيد مطول أقول فيه :

وقـد حلّـوا أعاليــه بتـبر ... وقد بسطوا أسافله رخاما
وقـد جعلـوا لـه بابـاً وقفـلاً ... وحلّوا بابه ورقـاً وسـاما

إلى آخره وهو فوق مائة بيت ، انظره في التكميل .

انتهى ما ذكره صاحب كتاب المحمل والحج بصحيفة ١٨٣ .

(٢٩) كسوة الصليحي صاحب اليمـن ومكـة . قـال ابـن ظهـيرة : وذلـك في زمن الحاكم العبيدي والمستنصر العبيدي ، قال مؤلف كتاب المحمل والحـج فيـه مـا نصه : وفي سنة (٤٥٥) دخل "علي بن محمد بن علي" أبو كـامل الصليحي إلى مكة وملكها واستعمل الجميـل مـع أهلهـا وأمـن الحـاج في أيامـه ، وأظهر العدل والإحسان وطابت قلوب النـاس لـه فـأثنوا عليه خـيراً ورخصـت الأسعار وكـان متواضعاً ، وكسى البيت الحرام بثياب بيض من الحريـر الصيـني ، ورد حلي البيت

إليه وكان بنو أحسن قد أخذوها وحملوها إلى اليمن ، فابتاعها الصليحي منهم وأعادها . راجع ابن الأثير ، والنجوم الزاهرة . انتهى .

(٣٠) كسوة أبي النصر الاستراباذي سنة ٤٤٦ وكانت بيضاء من عمل الهند . ذكره صاحب المحمل والحج .

(٣١) كسوة محمود بن سبكتكين . قال صاحب المحمل والحج نقلاً عن النجوم الزاهرة ما نصه : وفي السنة المذكورة أي سنة (٤٤٦) ورد إلى مكة إنسان أعجمي يعرف بسلار من جهة جلال الدولة ملكشاه ودخل وهو على بغلة بمركب ذهب وعلى رأسه عمامة سوداء وبين يديه الطبول والبوقات ، ومعه للبيت كسوة ديباج أصفر وعليها اسم "محمود بن سبكتكين" وهي من استعماله وكانت مودعة بنيسابور من عهد (محمود) المذكور عند إنسان يعرف بأبي القاسم الدهقان ، فأخذها الوزير نظام الملك منه وأنفذها مع المذكور . انتهى منه .

(٣٢) كسوة رامشيت . قال صاحب كتاب المحمل والحج نقلاً عن مرآة الحرمين ما نصه :

وكساها في سنة (٥٣٢) الحبرات وغيرها الشيخ أبو القاسم رامشيت صاحب الرباط المشهور بالمسجد الحرام وكانت كسوته بثمانية عشر ألف دينار مصرية على ما قال ابن الأثير وقيل بأربعة آلاف دينار .اهـ .

وجاء في تاريخ الخميس : أن رامشيت هو رجل من التجار فارسي كسا الكعبة لأنه لم يأتها كسوة في ذلك العام لأجل اختلاف الملوك ، قال : وجعل في الكعبة أربعة قناديل وزنها عشرة أرطال بثمانية عشرة ألف دينار وصاحب التاريخ لم يذكر اسم الرجل لكنه ذكر له ابن رامشيت الفارسي . انتهى منه .

(٣٣) كسوة أحمد الناصر لدين الله . قال صاحب كتاب المحمل والحج نقلاً عن الإعلام ما نصه :

ثم إن الناصر لدين الله أبا العباس أحمد ، كسى الكعبة في آخر أيامه الديباج الأسود وكانت تكسى الديباج الأبيض من زمن المأمون . اهـ . قال : وكسيت في زمنه أيضاً كسوة خضراء ثم سوداء . انتهى منه .

(٣٤) كسوة منصور بن ربيعة شيخ الحرم . قال صاحب كتاب المحمل والحج ما نصه :

قال الفاسي : وقد استمرت الكسوة السوداء إلى الآن سنة (٨١٢) إلا أنه في سنة (٦٤٣) هبت ريح شديدة قطعت الكسوة فكسيت ثياباً سوداء من القطن، كساها بها منصور بن ربيعة شيخ الحرم . انتهى منه .

لكن قال صاحب تاريخ الكعبة اسم الذي كساها منصور بن منعة البغدادي شيخ الحرم ، فالظاهر أنه حصل غلط في كتاب المحمل والحج بدل أن يقول ابن منعة قال ابن ربيعة . والله تعالى أعلم .

القسم الخامس: كسوة الكعبة في عصر المماليك البحرية والشراكسة

(٣٥) كسوة الظاهر بيبرس . قال صاحب كتاب المحمل والحج ما نصه : وفي سنة (٦٦٦) ست وستين وستمائة كسى الكعبة السلطان الظاهر بيبرس البندقداري وعمل لبابها مفتاحاً وسير قافلة الحج من البر بدلاً عن صحراء عيذاب ولما حج في سنة (٦٦٧) غسل الكعبة بيده بماء الورد وقد رؤي بباب الكعبة محرماً يأخذ بأيدي ضعفاء الرعية ليصعدوا وعمل الستور الديباج للكعبة وللحجرة النبوية . اهـ .

(٣٦) قال صاحب كتاب المحمل والحج : وفي عاشر ذي الحجة من سنة (٧٧٥) كسيت الكعبة الشريفة كسوة قصيرة فوق الكسوة الأولى وهي بيضاء وسوداء فلما كان في سادس عشر الشهر أخرجت الكسوة وكسيت بها الكعبة من داخل . انتهى .

(٣٧) قال صاحب كتاب المحمل والحج ما نصه : وقال السمهودي في كتابه : "وفاء الوفا" نقلاً عن شفاء الغرام : وفي عشر الستين وسبعمائة في دولة السلطان الصالح إسماعيل بن الملك الناصر "محمد بن قلاوون" اشترى قرية من بيت المال بمصر ووقفها على كسوة الكعبة الشريفة في كل سنة ، وعلى كسوة الحجرة الشريفة المقدسة والمنبر الشريف في كل خمس سنين مرة . اهـ .

هذا ما ذكر في الكتاب المذكور و لم يذكر هل السلطان المذكور كسا الكعبة أم لا ، لكن الظاهر أنه كساها ما دام وقف القرية التي اشتراها على كسوة الكعبة . والله تعالى أعلم .

(٣٨ و ٣٩ و ٤٠ و ٤١ و ٤٢) لقد جمعنا هذه الأعـداد الخمسة المتسلسلة في مكان واحد ، لأن الكلام الآتي مرتبط بعضه ببعض ومنقول من كتاب واحـد ، فلا يستحسن قطعه وذكر كل شيء بمفرده وهذا هو ، نذكره برمته ولفظه :

قال صاحب كتاب المحمل والحج نقـلاً عـن صبـح الأعشـى مـن الجـزء الرابـع بصحيفتي ٢٨١ و ٢٨٣ ما نصه :

والذي جرى عليه الحال في زمننا إلى آخر الدولة الظاهريـة "برقـوق" (المتوفـى سنة ٨٠١) وأوائل الدولة الناصرية ولده (فرج) أن الكعبة تكسى الديبـاج الأسـود مسبلة من أعلى الكعبة إلى أسفلها مرقوبـاً بأعاليهـا طـراز رقـم بالبيـاض مـن أصـل النسيج مكتوب فيه ﴿إن أول بيت وضع للنـاس للـذي ببكـة مباركـاً . . . الآيـة﴾ وعلى الباب برقع من نسبة ذلك مرقوم فيه بالبياض .

ثم في سنة . . . وثمانمائة في الدولة الناصرية فرج بن برقوق غير الطراز من لون البياض إلى لون الصفرة فصار الرقم في السواد بحرير أصفر مقصـب بـالذهب ، ولا يخفى أنه أنفس من الأول ، والثاني أبهج منه لشدة مضادة ما بين البياض والسواد ، ثم جعل بعض جوانب الكسوة ديباجاً ، أسود على العـادة وبعضهـا كمخـاً أسـود بجامات مرقوم فيها بالبياض "لا إله إلا الله ومحمد رسول الله" .

ثم جعل بعد ذلك برقع البيت من حرير أسود منشـوراً عليه المخـايش الفضـة الملبسة بالذهب فزاد نفاسته وعلا قيمته . ثم في سنة (٨١٤) جعـل وجهـة البـاب من الكسوة كمخاً أزرق بجامات مكتـوب فيهـا " . . . والله العـالم مـا كـان ومـا يكون" . اهـ .

وفي سنة (٨١٩) جعلـت الجامـات المصنوعـة مـن الحريـر الأبيـض في جميـع الكسوة من تحت وإلى أسفل بعد أن انقطعت أربـع سنين واستمرت الجامـات في كسوة الكعبة خمس سنين متوالية بعد هذه ، ثم أزيلت وعوض عنها جامات سـود في سنة (٨٢٥) .

وعمل في سنة (٨١٩) المذكورة لباب الكعبة ستارة عظيمة الحسن لم يسـبقها مثلها .

والـذي استقر عليه الحـال في زمننـا أنهـا لا تلبـس في كـل سـنة غـير كسـوة واحدة ، وذلك أن الكسـوة تعمـل بمصـر علـى النمـط المتقـدم ، ثـم تحمـل صحبـة

الركب إلى مكة، فيقطع ذيل الكسوة القديمة على قدر قامة من جدار الكعبة ويظهر من الجدار ما كان تحته ويبقى أعلاها معلقاً حتى يوم . . . فتخلع الكسوة العتيقة وتعلق الجديدة مكانها، ويكسى المقام من نسبة كسوة الكعبة، ويأخذ بنو شيبة الحجبة الكسوة العتيقة فيهدونها للحجاج ولأهل الآفاق وقد زاد رفدهم فيها من حين حصلت المغالاة في كسوة الكعبة وبرقعها على ما تقدم .

اللهم زد هذا البيت تشريفاً وتعظيماً وتكريماً ومهابة . انتهى كل ذلك من كتاب المحمل والحج وهو عن صبح الأعشى .

(٤٣) قال صاحب كتاب المحمل والحج نقلاً عن الإعلام ما نصه : وفي سنة (٨٢٦) جدد الأشرف "برسباي" الكسوة الحمراء داخل الكعبة الشريفة، وكساها من داخل، وأزال الكسوة القديمة وكانت للناصر حسن بن محمد بن قلاوون . وجاءت الكسوة على يد الزيني (عبد الباسط ناظر الجيش صاحب الباسطية التي على باب العجلة عن يسار الداخل إلى المسجد الحرام) . اهـ .

قال في هامش كتاب المحمل والحج نقلاً عن الإعلام بصحيفة ٢٤٨ : كان عبد الباسط ناظراً على أوقاف كسوة الكعبة بمصر فعمرها ونماها إلى أن فاضت وكثرت في زمانه . وكانت له سحابة للفقراء تنصب لهم في الطريق ليستظلوا تحتها، وكانوا يحملون على جمال في شقادف أعدها لهم، وكانوا يسقون الماء العذب كلما احتاجوا إليه ويطعمون الخبز الطري والبقسماط وكان يطبخ لهم في المناهل ويذبح الغنم في الذهاب من مصر إلى مكة وفي مدة الإقامة بها والعودة منها إلى مصر مع الإحسان إليهم وإلى غيرهم وأصلح كثير من درب الحجاز . اهـ .

(٤٤) قال في كتاب المحمل والحج نقلاً عن الإعلام ما نصه : وفي سنة (٨٤٨) وصل مع الركب المصري رسول سلطان العجم "شاه رخ مرزا" بكسوة للكعبة وصدقة لأهل مكة، فكسيت الكعبة من داخلها بتلك الكسوة من يوم عيد الأضحى، وفرقت الصدقة على أهل الحرمين . انتهى .

والسلطان شاه رخ هو صاحب شيراز .

(٤٥) قال في كتاب المحمل والحج نقلاً عن الإعلام ما نصه : وفي سنة (٨٥٢) وصلت إلى مكة كسوة لحجر إسماعيل عليه الصلاة والسلام مع كسوة البيت الشريف لأنه لم تجر بذلك عادة قبل هذا فوضعت في البيت الشريف ثم

كسي بها الحجر من داخله في العشر الأخير من ذي الحجة سنة (٨٥٣) بعد أن حفظت في جوف الكعبة سنة كاملة . اهـ .

(٤٦) قال في كتاب المحمل والحج نقلاً عن الإعلام ما نصه : وفي سنة (٨٥٦) وصل إلى مكة أمر من الملك الظاهر "جقمق" يتضمن إخراج ما على الكعبة الشريفة من كسوتها الداخلية المنسوبة إلى الأشرف "برسباي" والكسوة المنسوبة إلى "شاه رخ مرزا" وإبقاء الكسوة المنسوبة إلى (جقمق) وحدها ففعلوا ذلك . اهـ .

(٤٧) قال في كتاب المحمل والحج نقلاً عن الإعلام ما نصه : ثم إن الملك الناصر "أبا سعيد خوش قدم" الذي ولي مصر في شهر رمضان من سنة ٨٦٥ والمتوفى في سنة ٨٧٢ كسى الكعبة في أول ولايته على العادة ولكن كانت كسوة الجانب الشرقي أو الجانب الشامي بيضاء بجامات سود ، وفي الجامات التي بالشرقي بعض من الذهب . اهـ .

(٤٨) قال صاحب كتاب المحمل والحج نقلاً عن كتاب ابن إياس في الجزء الثاني صحيفة ١٤٦ ما نصه : وفي سنة (٨٧٨) وصل الحاج إلى مصر وصحبتهم ابن أمير مكة والقاضي ابن ظهيرة وولده وأخوه ومعهم "رستم" أمير الحاج العراقي والقاضي اللذان بعث بهما "حسن الطويل" وصحبتهما كسوة الكعبة المشرفة وأمر أهل المدينة ومكة أن يخطبوا فيها باسم العادل "حسن الطويل" فسجنهما السلطان في برج بالقلعة . اهـ .

(٤٩) قال صاحب كتاب المحمل والحج نقلاً عن كتاب ابن إياس في الجزء الثالث بصحيفة ٧٧ ما نصه : وفي سنة (٩٢٢) أرسل السلطان قانصوه الغوري الكسوة والصدقات لأهل مكة والمدينة على يد الطواشي "مرهف" ولم يحج أحد من المصريين قاطبة بسبب فتنة ابن عثمان . انتهى .

القسم السادس : كسوة الكعبة في عهد الدولة العثمانية

(٥٠) قال صاحب كتاب المحمل والحج وهو نقلاً عن كتاب الإعلام وكتاب ابن إياس في الجزء الثالث ما نصه : في سنة (٩٢٣) ثلاث وعشرين وتسعمائة أرسل السلطان سليم مع الأمير مصلح الدين بك بالصدقات وكسوة الكعبة الشريفة ، وكسوة ضريح النبي ﷺ ، وكسوة ضريح سيدنا إبراهيم الخليل عليه

الصلاة والسلام ، وصنع للمحمل الشريف كسوة ، وقد تباهى في كسوة الكعبة وزركشة البرقع إلى الغاية وكذلك في كسوة المحمل اهـ .

نقول قوله : "وكسوة ضريح سيدنا إبراهيم الخليل" هذا غلط والصحيح : "وكسوة مقام إبراهيم الخليل" .

فهذا المقام أمام الكعبة المشرفة بجوار زمزم وهو يكسى بكسوة جميلة ، وأما ما ذكره من كسوة ضريح سيدنا إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام فضريحه بالخليل بالقدس . وربما أراد هذا المعنى . قال مؤلف كتاب المحمل والحج هنا عند ذكر السلطان سليم بالهامش نقلاً عن الإعلام ما نصه : لما انتصر السلطان سليم على قانصوه الغوري ودخل حلب وسمع الخطيب يقول في تعريفه : "خادم الحرمين الشريفين" سجد لله شكراً وقال : "الحمد الله الذي يسر لي أن صرت خادم الحرمين الشريفين" وأضمر خيراً كثيراً وإحساناً جميلاً لأهل الحرمين ، وأظهر الفرح والسرور بتلقيبه بخادم الحرمين . انتهى .

ثم قال صاحب كتاب المحمل والحج بعد أن ذكر كسوة السلطان سليم ما نصه : لما استولت الدولة العثمانية على مصر والحجاز اختصت بكسوة البيت الداخلية وكسوة الحجرة النبوية الشريفة علاوة على الشمع الكبار والصغار التي تسرح داخل الكعبة وخارجها ، وفي مقامات المسجد الحرام والمآثر الشريفة ، وكذا طيب الكعبة وبخورها كعطر الورد وماء الورد والعنبر والند ، وكذلك الحبال التي تلزم لربط أستار الكعبة ، كانت كل هذه الأشياء ترسل سنوياً مع المحمل الشامي .

قال : واختصت مصر بكسوة الكعبة الخارجية وبقيت مصر تصنع أقمشة الكسوتين الداخلية والخارجية كلها إلى عام ١١١٨ حيث أمر السلطان أحمد بن السلطان محمد الرابع بحياكة كسوة الكعبة الداخلية التي ترسل من قبل السلطان عام توليه الملك في استنبول ، فصنعت فيها وأرسلت في العام التالي إلى مكة عن طريق مصر ، فاختصت استنبول من ذلك الوقت بحياكة الكسوة الداخلية .

قال : واستمر سلاطين آل عثمان في إرسالها على النحو المذكور إلى عهد السلطان "عبدالعزيز بن السلطان محمود الثاني" حيث انقطعت الدولة العثمانية عن إرسال الكسوة الداخلية وبقيت الكسوة التي أرسلها السلطان المشار إليه عام (١٢٢٧) في الكعبة إلى يومنا هذا . نقل هذا الكلام صاحب كتاب المحمل والحج من هامش تاريخ مكة للأزرقي بصحيفة ١٧٢ . انتهى .

نقول : إن هذه الكسوة الداخلية للكعبة التي أرسلها السلطان عبد العزيز المذكور كانت لا تزال موجودة في داخل الكعبة من ذلك الزمن إلى سنة (١٣٦٣) ألف وثلاثمائة وثلاث وستين للهجرة ، ثم رفعت هذه الكسوة البالية عندما أمر جلالة الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل سعود رحمه الله تعالى بعمل كسوة خاصة لداخل الكعبة المشرفة فوضعت داخلها في السنة المذكورة .

ولا يخفى على المطلع في كتابنا هذا عند كلامنا على كسوة الكعبة أننا تركنا تعداد من كساها من بعد رقم (٥٠) أي من بعد إرسال السلطان سليم الكسوة اكتفاء بما تقدم وبما سنذكره الآن ، ونحب أن ننبه القارئ الكريم أن لا يظن أن عدد كسوة الكعبة المشرفة يكون بعدد من كساها ، كلا بل إن كل ملك وسلطان يكسوها كل عام مدة بقائه في الحكم . فعلى هذا يكون كل منهم يكسوها مراراً عديدة ، هذا والذي سنذكره الآن ، هو كلام مفيد مختصر كتبه حضرة صاحب المعالي الأستاذ رشدي ملحس من كبار رجال الديوان في المملكة العربية السعودية في الهامش الذي كتبه على تاريخ الأزرقي عند طبعه بالمطبعة الماجدية بمكة المكرمة سنة ١٣٥٢ ، فإنه قال حفظه الله تعالى في الجزء الأول بصحيفة ١٧١ في آخر الكلام على كسوة الكعبة في الإسلام ما نصه :

"ويضاف إلى ذلك رواية الفاكهي من طريق مسعر عن جسرة قال : أصاب خالد بن جعفر بن كلاب لطيمة في الجاهلية فيها نمط من ديباج فأرسل به إلى الكعبة فنيط عليها فعلى هذا هو أول من كسا الكعبة الديباج . وروى الدارقطني في المؤتلف أن أول من كسا الكعبة الديباج نتيلة بنت حيان والدة العباس بن عبدالمطلب كانت أضلت العباس - وعلى رواية ضرار شقيق العباس - صغيرا فنذرت إن وجدته أن تكسوا الكعبة الديباج .

قال ابن حجر بعد أن ذكر هذه الروايات جميعها : وحصلنا في أول من كساها الديباج على ستة أقوال : (١) خالد (٢) أو نتيلة (٣) أو معاوية (٤) أو يزيد (٥) أو ابن الزبير (٦) أو الحجاج ، ويجمع بينها بأن كسوة خالد أو نتيلة لم تشملها كلها وإنما كان فيما كساها شيء من الديباج ، وأما معاوية فلعله كساها في آخر خلافته فصادف ذلك خلافة ابنه يزيد ، وأما ابن الزبير فكأنه كساها ذلك بعد تجديد عمارتها فأوليته بذلك الاعتبار لكن لم يداوم على كسوتها الديباج ،

فلما كساها الحجاج بأمر عبدالملك استمر ذلك فكأنه أول من داوم على كسوتها الديباج في كل سنة . اهـ .

قلنا : وقد كسيت في بدء خلافة الناصر العباس كسوة خضراء ثم كسيت في زمنه أيضاً كسوة سوداء فاستمر لونها أسود إلى الآن .

ولما ضعف أمر العباسيين صارت ترسل الكسوة تارة من اليمن وأخرى من مصر إلى أن استقرت في مصر فصارت ترسل الكسوة الخارجية السوداء إليها سنوياً . وكان كلما يتجدد ملك أو سلطان يرسل للكعبة بكسوة داخلية من الحرير الأحمر فلما استولت الدولة العثمانية على مصر والحجاز اختصت الدولة المشار إليها بكسوة البيت الداخلية وكسوة الحجرة النبوية علاوة على الشمع الكبار والصغار التي تسرح داخل الكعبة وخارجها وفي مقامات المسجد الحرام والمآثر الشريفة وكذا طيب الكعبة وبخورها كعطر الورد وماء الورد والعنبر والند ، وكذلك الحبال التي تلزم لربط أستار الكعبة كانت كل هذه الأشياء الأخيرة ترسل سنوياً مع المحمل الشامي .

واختصت مصر بكسوة الكعبة الخارجية ، وبقيت مصر تصنع أقمشة الكسوة الداخلية والخارجية كلها إلى عام ١١١٨ حيث أمر السلطان أحمد بن السلطان محمد الرابع بحياكة كسوة الكعبة الداخلية التي ترسل من قبل السلطان عام توليه الملك في استنبول ، فصنعت فيها وأرسلت في العام التالي إلى مكة عن طريق مصر ، فاختصت استنبول من ذلك الوقت بحياكة الكسوة الداخلية ، واستمر سلاطين آل عثمان في إرسالها على النحو المذكور إلى عهد السلطان عبدالعزيز بن السلطان محمود الثاني حيث انقطعت الدولة العثمانية عن إرسال الكسوة الداخلية وبقيت الكسوة التي كان أرسلها السلطان المشار إليه عام ١٢٧٧ ، في الكعبة إلى يومنا هذا .

ولما دخل الإمام سعود الكبير بن عبدالعزيز آل سعود الحجاز انقطعت مصر عن إرسال الكسوة الخارجية ، فكساها الإمام المشار إليه عام ١٢٢١ من القز الأحمر ثم كساها في الأعوام التالية بالديباج والقيلان الأسود وجعل إزارها وكسوة بابها من الحرير الأحمر المطرز بالذهب والفضة . ولما استردت الدولة العثمانية الحجاز عادت مصر إلى إرسال الكسوة الخارجية كالسابق .

وفي عامي ١٣٣٢ و ١٣٣٣هـ وذلك عقب إعلان الحرب العامة منعت الحكومة الإنكليزية إرسال المحمل المصري إلى الحجاز بسبب انحياز الدولة العثمانية بجانب ألمانيا وحلفائها ، ولكنها ، أي إنكلترا كانت تسمح بإرسال الكسوة والصرة فقط ، فقد كان مأمورو المحمل الملكيون وإمامه يحملون الكسوة والصرة فيأتون بها إلى مرفأ جدة ، حيث يسلمونها إلى وكيل أمير مكة ثم يقفلون راجعين إلى مصر . وقد كانت العادة المتبعة إلى عام ١٣٣٢ أن يكتب اسم السلطان العثماني فقط على الحزام ، وفي عام ١٣٣٣هـ أضيف إلى جانب اسم السلطان العثماني ، هذه العبارة "والآمر بها السلطان الكامل حسين" إشارة إلى السلطان حسين كامل الذي تولى السلطنه المصرية حينذاك وقد كسيت الكعبة بهذه الكسوة بعد أن نزعت عنها الحكومة المحلية في الحجاز العبارة المذكورة . وفي السنة التالية ، أي عام ١٣٣٤ كان الملك حسين بن علي أعلن الثورة ضد الدولة العثمانية فعادت مصر إلى إرسال المحمل مع الكسوة حسب العادة القديمة وبقيت ترسل الكسوة طيلة هذه السنين إلى عام ١٣٤١ حيث نشب خلاف بين مصر والحجاز بشأن البعثة الصحية وكان المحمل المصري وصل إلى جدة في شهر ذي القعدة من السنة المذكورة . ولما رفض الملك حسين قبول البعثة رجع المحمل ومعه الكسوة إلى مصر . وكانت الدولة العثمانية أرسلت عام ١٣٣٤ كسوة خارجية للكعبة مع الشريف علي حيدر باشا لإكساء الكعبة عند استرداد مكة ، فبقيت الكسوة المذكورة في المدينة المنورة إلى هذا العام ، أي ١٣٤١ ، فجلبها الملك حسين من المدينة وكساها الكعبة وفي عام ١٣٤٢ حسم الخلاف بين البلدين وعادت المياه إلى مجاريها فأرسلت مصر الكسوة الخارجية المعتادة .

وفي عام ١٣٤٣ دخل جلالة الملك عبدالعزيز آل فيصل آل سعود إلى مكة المكرمة فتأخر مجيء الكسوة التي تأتي من الديار المصرية بسبب الحرب التي كانت قائمة بين جيوش جلالة الملك عبدالعزيز وبين جيوش الملك علي بن الحسين بين جدة وبحرة فاستعيض عنها بكسوة من صنع الأحساء . وفي عام ١٣٤٤ كانت الحرب انتهت بانسحاب حكومة جدة فوردت الكسوة من مصر ، ولكنها انقطعت عن إرسالها منذ السنة التالية أي عام ١٣٤٥ هـ بسبب توتر العلاقات بين البلدين فأمر جلالة الملك عبد العزيز أيده الله بإعداد كسوة فاخرة في اليوم الخامس من شهر ذي الحجة فصنعت من الجوخ الأسود الفاخر مبطناً بالقلع المتين . وفي السنة التالية أي عام ١٣٤٦ أسس جلالته داراً خاصة للكسوة والصناعة في محلة

أجياد بمكة المكرمة ، فكانت هذه الدار أول مؤسسة شيدت لحياكة الكسوة في الحجاز ، وجلب للدار المذكورة عمال من الهنود لعدم وجود من يحسن صناعة الحياكة في داخل البلاد ، وبقي هؤلاء في الدار المذكورة إلى هذا العام أي عام ١٣٥٢هـ حيث حل مكانهم فريق من أهل البلاد حذقوا وتمرنوا خلال المدة الماضية على الحياكة . وقد شرعوا في العمل في هذا الشهر الذي نكتب فيه هذا التعليق . انتهى كلام الأستاذ رشدي ملحس الذي بهامش تاريخ الإمام الأزرقي .

نقول : قوله في نهاية كلام الأستاذ المذكور وهو "وقد شرعوا في العمل في هذا الشهر الذي نكتب فيه هذا التعليق" يعني به شهر شوال عام ١٣٥٢ من الهجرة ، ونقول أيضاً : وبعد أن زال سوء التفاهم بين المملكة العربية السعودية والمملكة المصرية أعادت الحكومة المصرية كسوة البيت المعظم وذلك في سنة (١٣٥٥) خمس وخمسين وثلاثمائة وألف ، ولا زالت الكسوة الخارجية له تأتي من مصر إلى يومنا هذا .

وهنا يستحسن ذكر كسوة الشريف الحسين الذي توفي رحمه الله تعالى في سنة (١٣٤٨) هجرية التي ذكر الأستاذ رشدي ملحس هنا وإليك بيان ذلك بالتفصيل :

كسوة الشريف الحسين بن علي

تقدم الكلام على كسوة الكعبة المعظمة بيت الله الحرام في عهد الجاهلية والإسلام إلى عصرنا هذا ، ونحب أن نذكر أمر الكسوة التي تنسب إلى الشريف الحسين بن علي أمير مكة المشرفة وملك الحجاز الأسبق رحمه الله تعالى لما في ذلك من الطرافة التاريخية فنقول وبالله التوفيق :

جاء في كتاب "تاريخ الكعبة المعظمة" للمرحوم الشيخ حسين عبدالله باسلامة المتوفى سنة (١٣٥٦) هجرية بصحيفة (٢٨٨) عن ذلك ما نصه :

وأما ما كان من أمر كسوة الكعبة المعظمة أثناء الحرب العامة فإليك تفصيل ذلك :

فلما وقعت الحرب العامة في يوم ٨ رمضان سنة ١٣٣٢هـ اثنين وثلاثين وثلاثمائة وألف من الهجرة الموافق لسنة أربع عشرة وتسعمائة وألف ميلادية ،

جاءت كسوة الكعبة من مصر على حسب العادة في نهاية السنة المذكورة وألبست الكعبة بها، ثم لما دخلت الحكومة العثمانية في الحرب العالمية وانضمت مع حزب ألمانيا والنمسا ضد الإنكليز وحلفائها عملت كسوة للكعبة المعظمة ظناً منها أن الحكومة الإنكليزية ستمنع الحكومة المصرية من إرسال كسوة الكعبة بناء على إعلانها وضع الحماية على مصر وكانت الكسوة التي عملتها في غاية الجمال والمتانة والظرف والإتقان مع عموم لوازمها وتوابعها المزركشة بالأسلاك الفضية المموهة بالذهب وأرسلتها في السكة الحديدية براً من الآستانة إلى المدينة المنورة، غير أن الحكومة المصرية لم تمنع إرسال الكسوة المعتادة بل أنها أرسلتها في عام (١٣٣٣) ثلاث وثلاثين وثلاثمائة وألف هجرية ووضعت على الحزام اسم السلطان حسين كامل سلطان مصر مضافاً إلى اسم السلطان محمد رشاد خان سلطان تركيا العثماني، فاتفق أمير مكة المكرمة في ذلك العصر الشريف الحسين بن علي مع والي الحجاز وقومندانة من قبل الحكومة العثمانية غالب باشا على إخراج تلك القطعة التي عليها اسم سلطان مصر، ووضع القطعة القديمة التي عليها اسم السلطان محمد رشاد خان فقط، فقام آل الشيبي بذلك العمل، وبقيت تلك الكسوة التي أرسلت من الآستانة بالمدينة المنورة إلى سنة (١٣٤١) ألف وثلاثمائة وإحدى وأربعين هجرية.

فلما أعلن أمير مكة الشريف الحسين بن علي بن محمد بن عبد المعين بن عون الثورة على الحكومة التركية، باسم استقلال البلاد العربية وفصلها عن حكم الحكومة التركية في فجر يوم السبت الموافق ٩ من شهر شعبان سنة ١٣٣٤هـ أربع وثلاثين وثلاثمائة وألف، الموافق ٤ يوليه سنة ١٩١٤ سنة أربع عشرة وتسعمائة وألف ميلادية، أرسلت الحكومة المصرية كسوة الكعبة المعظمة حسب المعتاد واستمرت في إرسالها إلى سنة ١٣٤٠هـ أربعين وثلاثمائة وألف، ثم وقع خلاف بين الحكومة المصرية وبين الشريف الحسين ملك الحجاز سنة ١٣٤١هـ إحدى وأربعين وثلاثمائة وألف، وذلك أنه لما وصل المحمل المصري في باخرة خاصة إلى جدة يصحب معه كسوة الكعبة، وحنطة الجراية وحرس المحمل، وبعثة طبية، منع الشريف الحسين دخول البعثة الطبية إلى مكة المكرمة فوقع الخلاف ورجع المحمل من ثغر جدة في مركبه بكل ما معه من حنطة الجراية وكسوة الكعبة وغير ذلك من الصرور والمرتبات والصدقات، وذلك في آخر شهر ذي القعدة من السنة المذكورة، فلما رأى ذلك الشريف الحسين أبرق إلى المدينة المنورة وأمر أميرها بأن

يرسل كسوة الكعبة التي أودعتها الحكومة التركية بها إلى ثغر (رابغ) على الفور ثم أرسل إحدى بواخره التي بجدة المسماة (رشدي) إلى ثغر رابغ لنقل الكسوة من رابغ إلى جدة ، وفعلاً نقلت الكسوة من المدينة إلى رابغ ومنها إلى جدة بغاية السرعة ، ثم نقلت من جدة إلى مكة ووصلت في اليوم الذي تكسى فيه الكعبة المعظمة ، وهو اليوم العاشر من شهر ذي الحجة سنة ١٣٤١هـ إحدى وأربعين وثلاثمائة وألف ، وكسيت بها الكعبة .

وقد حدث من ذلك ضجة عظيمة في مصر خصوصاً في الصحافة المصرية وصاروا في حيرة من جراء إحضار تلك الكسوة بتلك السرعة المدهشة لكونهم لم يعلموا أنها كانت حاضرة بالمدينة المنورة منذ بضع سنين ، حتى أن بعض الجرائد المصرية ذكرت : بأنها بحثت في عموم أساطل البحر الأحمر عن معامل تصنع كسوة الكعبة في ظرف عشرة أيام ، يعني من يوم رجوع المحمل مع الكسوة من ثغر جدة إلى يوم حضور الكسوة من رابغ إلى جدة ، فلم يجد فيما هو أعظم من ثغر رابغ معمل يستطيع صنع ذلك بل ولا معامل أوربا لم يكن في استطاعتها أن تعمل كسوة للكعبة على حسب المعتاد في مدة عشرة أيام ، وإنما هو عمل مدبر ، وسبب ذلك أن مكاتب روتر بجدة أبرق بأنه وردت كسوة الكعبة إلى جدة من ثغر رابغ .

ثم بعد ذلك عمل الشريف الحسين كسوة الكعبة من (القيلان) نسجت في العراق احتياطاً لما عساه إذا أتت سنة ١٣٤٢ هـ اثنتين وأربعين وثلاثمائة وألف ، ولم يحل الخلاف الواقع بينه وبين الحكومة المصرية وامتنعت الحكومة المصرية من إرسال كسوة الكعبة أن يكسوها بها . فلما أتى موعد مجيء الكسوة من مصر في ذلك العام ، جاءت الكسوة كالعادة وكسيت بها الكعبة المعظمة وبقيت الكسوة القيلان محفوظة . فلما كان عام ١٣٤٣ هـ ثلاث وأربعين وثلاثمائة وألف من الهجرة استولى جلالة الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن الفيصل آل سعود على مكة المكرمة ، وبسبب الحرب الذي وقع بينه وبين الشريف الحسين أولاً ، ثم بعد تنازل الشريف الحسين عن الملك لابنه الملك علي وقعت معه ثانياً ، واستمرت إلى منتصف جمادى الآخرة من عام ١٣٤٤ هـ أربع وأربعين وثلاثمائة وألف ، امتنعت الحكومة المصرية في أثناء ذلك عن إرسال كسوة الكعبة العائدة لعام ١٣٤٣ هـ ثلاث وأربعين وثلاثمائة وألف ، فكساها جلالة الملك عبدالعزيز ذلك العام

بالكسوة (القيلان) التي عملها الشريف الحسين بالعراق المتقدم ذكرها . انتهى كل ذلك من تاريخ "تاريخ الكعبة المعظمة" .

ويقول الغازي بصحيفة ٣٧٤ من الجزء الثالث من تاريخه : وفي صباح يوم عيد الأضحى من عام (١٣٤٣) ثلاث وأربعين وثلاثمائة وألف ، كسيت الكعبة الشريفة كسوة جديدة من صنع الأحساء في الديار النجدية . انتهى .

فلما كان عام (١٣٤٤) من الهجرة وانتهت الحرب بانسحاب الملك علي بن الحسين من الحجاز وذلك في يوم الأحد ٤ جمادى الثاني سنة (١٣٤٤) من الهجرة الموافق ٢٠ ديسمبر سنة ١٩٢٥ ميلادية ، واستتب أمر الحجاز لجلالة الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن الفيصل آل السعود ، أرسلت الحكومة المصرية كسوة الكعبة المعظمة مع المحمل وما يتبعه من جند وغير ذلك فكسيت بها الكعبة في ذلك العام ثم في موسم ذلك العام وقعت حادثة المحمل بمنى ولطف الله سبحانه وتعالى بحجاج بيته المعظم من شر تلك الحادثة بفضل ما استعمله جلالة الملك عبدالعزيز آل سعود من الحكمة والمخاطرة بنفسه في تلك الليلة التي هي ليلة الموقف بعرفة ٩ ذي الحجة سنة (١٣٤٤) هجرية ، وكان حجاج بيت الله تعالى مكتظين بين منى وعرفات وكانت مقذوفات حرس المحمل من مدافع ورشاشات وبنادق تمطر نيرانها هنا وهناك ، والحمد لله على لطفه في تلك الليلة .

فلما كان عام (١٣٤٥) من الهجرة وحان وقت مجيء الكسوة من مصر منعت الحكومة المصرية إرسال الكسوة المعتادة للكعبة المعظمة مع عموم العوائد مثل الحنطة والصرور وما شاكل ذلك التي هي من أوقاف أصحاب الخير على أهل الحرمين منذ مئات السنين و لم تملك منها الحكومة المصرية شيئاً سوى النظارة عليها بسبب أنها الحاكمة على البلاد . و لم تشعر الحكومة السعودية بذلك إلا في غرة ذي الحجة من السنة المذكورة ، فصدرت إرادة جلالة الملك عبدالعزيز المعظم بعمل كسوة للكعبة بغاية السرعة ، فقام رجال العمل ممن تخصصوا لهذا الأمر وفي مقدمتهم وزير المالية الشيخ عبدالله السليمان الحمدان وعملوا كسوة من الجوخ الأسود الفاخر مبطنة بالقلع القوي وعمل حزام الكعبة بآلة التطريز وكتبت الآيات عليه بالقصب الفضي المموه بالذهب الوهاج مع ستارة الباب "البرقع" و لم يأت اليوم الموعود لكسوة الكعبة وهو يوم النحر عاشر ذي الحجة من عام ١٣٤٥

خمس وأربعين وثلاثمائة وألف إلا والكعبة المعظمة لابسة تلك الكسوة التي عملت في بضعة أيام . انتهى كل ذلك من تاريخ الكعبة المعظمة .

جدول

بيان الأيام التي كانت تكسى فيها الكعبة المعظمة

العصور	الأيـــام
عصر الملك تبّع الحميري وما بعده	تكسى الكعبة إذا تمزقت الكسوة الأولى سواء كانت من القماش أو الحصير أو الجلود .
عصر النبي ﷺ وما قبله	تكسى يوم عاشوراء .
أيام بني هاشم	تكسى يوم التروية "ثامن ذي الحجة" ويعلق عليها الإزار يوم عاشوراء .
عصر ابن عمر	تكسى يوم النحر "عاشر ذي الحجة" .
عصر معاوية بن أبي سفيان	تكسى يوم عاشوراء وفي آخر رمضان .
عصر المأمون	تكسى أول رجب وفي ٢٧ رمضان ، وفي يوم التروية .
من بعد القرن السادس تقريباً إلى عصرنا الحاضر	تكسى مرة واحدة وذلك في صباح يوم النحر من كل عام إلى وقتنا هذا وهو سنة ألف وثلاثمائة وسبعة وثمانين هجرية والله أعلم بما يكون عليه الحال في المستقبل .

جاء عن بني هاشم المذكورين أعلاه في كتاب "معالم تاريخ الجزيرة العربية" ما يأتي :

وهناك عائلة ثالثة تدعى بالهواشم من الأشراف الحسنيين تداولوا حكم مكة وقتاً طويلاً مليئاً بالفتن والحروب إلى أن أزيلت دولة العبيديين من مصر على يد السلطان صلاح الدين الأيوبي سنة (٥٩٨ هـ ١١٧٤م) فزالت باستيلاء صلاح الدين على الحجاز سيطرة الهواشم عن مكة ووليها أمير حسني من فرع آخر . انتهى منه .

خاتمة مسألة الكسوة

إلى هنا انتهينا من أمر كسوة الكعبة المعظمة ، وهذا المبحث وإن طال ، فإن الإنسان لا يمل من قراءته ولا يسأم من البحث في تفصيلاته ، ولقد رأينا أن نختم مسألة الكسوة ببعض الفوائد التي تزيد في معلومات القارئ الكريم فنقول وبالله تعالى التوفيق :

اعلم أن سبب وضع الكسوة على الكعبة الشريفة مرتين أو ثلاثاً في العام في العصور الماضية هو أن القماش الذي تصنع منه الكسوة لم يكن من القوة والمتانة التامة بحيث يبقى عليها طول العام ثم بعد أن وقف على صنع الكسوة عشر قرى بمصر وبعد أن تقدمت صناعة النسيج والأقمشة أتقنوا صنع الكسوة بحيث صارت من القوة والمتانة والثخن ما يجعلها تمكث على الكعبة عاماً واحداً بدون أن يحصل عليها التلف اللهم إلا ما تصل إليها أيدي الناس من أسفلها فقد يحصل فيه تمزيق لكثرة لمس الأيدي لها . والله تعالى أعلم .

وحاصل أمر الكسوة كما قال القلقشندي في كتابه صبح الأعشى أن الذي كسيته الكعبة الأنطاع ، وحبرات اليمن والبرود والكرار ، والأنماط والنمارق ، ومطارف الخز الأخضر والأصفر والأكسية وشقاق الشعر والوبر ، وغير ذلك . انتهى منه .

انظر: صورة رقم ٩٩ ، الكعبة المعظمة وعليها كسوتها الجديدة

قال الشيخ حسين باسلامة في كتابه "تاريخ الكعبة المعظمة" بصحيفة ٢٦٠ ما نصه :

كسيت الكعبة في مبدء خلافة الناصر العباسي كسوة خضراء ولعلها كانت تكسى ذلك من قبل . والله تعالى أعلم .

وكسيت في زمنه أيضاً كسوة سوداء فاستمرت فيما أحسب تكسى الديباج الأسود إلى الآن . انتهى كلامه . وقوله : إلى الآن أي : إلى عصرنا هذا الذي نحن فيه ، لأن المذكور كان معاصراً لنا فقد توفي رحمه الله تعالى في ١٦ جمادى الثانية سنة (١٣٥٦) من الهجرة .

والذي يجب أن ننبه إليه الأذهان ، إلى أن معرفة عدد المرات التي كسيت الكعبة المعظمة منذ الكسوة الأولى في العصور الغابرة إلى عامنا هذا أمر مستحيل ،

ولا يتعلق عدد كسوتها بعدد السنين التي مضت ، فقد تكسى الكعبة أحياناً في السنة الواحدة مرتين أو ثلاثة كما مر بيانه .

ولقد عدت كساوى الكعبة من سنة (٢٠٠) إلى سنة (٢٤٤) فبلغ عددها (١٧٠) كسوة كما ذكره الإمام الأزرقي في تاريخ مكة ، فإذا بلغت كسوتها مائة وسبعين كسوة في أربع وأربعين سنة فقط ، فكم يبلغ عددها منذ أن كساها تبع الحميري لأول مرة إلى عامنا هذا ؟ الله أعلم بذلك فليتنبه القارئ الكريم إلى هذه النقطة الدقيقة وليتنبه أيضاً إلى أن كل ما تقدم من أمر كسوة الكعبة إنما هو لكسوتها الخارجية ، وأما كسوة الكعبة الداخلية التي تكسى من جوفها ، فسيأتي الكلام عنها في مبحث خاص إن شاء الله تعالى .

إلى هنا انتهينا من تاريخ كسوة الكعبة المعظمة و لله الحمد .

وقد طال هذا المبحث لكن ماذا نعمل فالحال يقتضي ذلك ، وكل مسألة من أمر الكسوة مهمة يلزم معرفتها على الوجه الصحيح .

ولنبدأ الآن فيما يتعلق بأمر الكسوة من ناحية أخرى كالاحتفالات التي كانت تعمل عند وصولها فنقول وبالله التوفيق :

الظاهر بيبرس ملك مصر هو الذي أمر لأول مرة أن يطوفوا بالمحمل وبكسوة الكعبة المشرفة بالقاهرة ، وذلك سنة (٦٧٥) ستمائة وخمس وسبعين هجرية وكان يوماً مشهوداً ثم استمر الحال على ذلك إلى يومنا هذا .

وهو الذي جعل القضاة أربعة من كل مذهب قاض ولم يعهد ذلك قبله ، وهو الذي أمر بإراقة الخمور ، وإبطال المفسدات ، وإسقاط المكوس ، وكانت له صدقات كثيرة ، وكان يرتب في أول رمضان مطابخ لأنواع الأطعمة للفقراء والمساكين ، وقد بنى بالقاهرة بالجمالية بقرب باب النصر مسجده العظيم المبارك المعروف باسمه "جامع بيبرس" وله أعمال جليلة وذكر حسن .

وصف ابن جبير كسوة الكعبة وعدد قطعها

يقول ابن جبير الأندلسي رحمه الله تعالى في رحلته التي كانت سنة (٥٧٨) ثمان وسبعين وخمسمائة هجرية حينما وصل إلى مكة في السنة المذكورة عن الكسوة وعدد قطعها ما يأتي :

وكسوة الكعبة المقدسة من الحرير الأخضر حسبما ذكرناه وهي أربع وثلاثون شقة، في الصفح الذي بين الركن اليماني والشامي منها تسع، وفي الصفح الذي يقابله بين الركن الأسود والعراق تسع أيضاً، وفي الصفح الذي بين العراقي والشامي ثمان، وفي الصفح بين اليماني والأسود ثمان أيضاً، وقد وصلت كلها فجاءت كأنها ستر واحد يعم الأربعة جوانب وقد أحاط بها من أسفلها تكفيف مبنى بالجص في ارتفاعه أزيد من شبر وفي سعته شبران أو أزيد قليلاً في داخله خشب غير ظاهر وقد سمرت فيه أوتاد حديد في رؤوسها حلقات حديد ظاهرة وقد أدخل فيها مرس من القنب غليظ مفتول واستدار بالجوانب الأربعة بعد أن وضع في أذيال مسطور حجر السراويلات وأدخل فيها ذلك المرس وخيط عليه بخيوط من القطن المفتولة الوثيقة ويجتمع السطور في الأركان الأربعة مخيط إلى أزيد من قامة ثم منها إلى أعلاها تتصل بعرى من حديد تدخل بعضها في بعض واستدار أيضاً بأعلاها على جوانب السطح تكفيف ثان وقعت فيه أعالي الستور في حلقات حديد على تلك الصفة المذكورة فجاءت الكسوة المباركة مخيطة الأعلى والأسفل وثيقة الأزرار لا تخلع إلا من عام إلى عام عند تجديدها فسبحان من خلد لها الشرف إلى يوم القيامة لا إله سواه. انتهى من رحلة ابن جبير.

ويقول ابن جبير أيضاً في مكان آخر من رحلته ما يأتي:

وفي يوم النحر المذكور سبقت كسوة الكعبة المقدسة من محلة الأمير العراقي إلى مكة على أربعة جمال تقدمها القاضي الجديد بكسوة الخليفة السوادية والرايات على رأسه والطبول تهر وراءه وابن عم الشيبي محمد بن إسماعيل معها لأنه ذكر أن أمر الخليفة نفذ بعزله عن حجابة البيت لهنات اشتهرت عنه والله يطهر المكرم بمن يرضى من خدامه بمنه وهذا ابن العم المذكور هو أشبه طريقة منه وأمثل حالاً وقد تقدم ذكر ذلك في العزلة الأولى فوضعت الكسوة في السطح المكرم أعلى الكعبة فلما كان يوم الثلاثاء الثالث عشر من الشهر المبارك المذكور اشتغل الشيبيون بإسبالها خضراء يانعة يقيد الأبصار حسناً في أعلاها رسم أحمر واسع مكتوب فيه في الصفح الموجه إلى المقام الكريم حيث الباب المكرم وهو وجهها المبارك بعد البسملة ﴿إن أول بيت وضع للناس... الآية﴾ وفي سائر الصفحات اسم الخليفة والدعاء له وتحف بالرسم المذكور طرتان حمراوان بدوائر صغار بيض فيها رسم بخط رقيق يتضمن آيات من القرآن وذكر الخليفة أيضاً فكملت كسوتها وشمرت

أذيالها الكريمة صوناً لها من أيدي الأعاجم وشدة اجتذابها وقوة تهافتها عليها وانكبابها فلاح للناظرين منها أجمل منظر كأنها عروس جليت في السندس الأخضر أمتع الله بالنظر إليها كل مشتاق إلى لقائها حريص على المثول بفنائها بمنه . انتهى من رحلة ابن جبير .

يقول ابن جبير الأندلسي رحمه الله تعالى في رحلته التي كانت سنة (٥٧٨) ثمان وسبعين وخمسمائة هجرية يصف كسوة الكعبة حينما وصل إلى مكة في السنة المذكورة ما يأتي :

وظاهر الكعبة كلها من الأربعة الجوانب مكسو بستور من الحرير الأخضر وسداها قطن وفي أعلاها رسم بالحرير الأخضر فيها مكتوب : ﴿إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة . . . الآية﴾ واسم الإمام الناصر لدين الله في سعته قدر ثلاثة أذرع يطيف بها كلها قد شكل في هذه السطور من الصنعة الغريبة التي ببصرة أشكال محاريب رائقة ورسوم مقروءة مرسومة بذكر الله تعالى وبالدعاء للناصر العباس المذكور الآمر بإقامتها وكل ذلك لا يخالف لونها وعدد السطور من الجوانب الأربعة أربعة وثلاثون سطراً وفي الصفحين الكبيرين منها ثمانية عشر وفي الصفحين الصغيرين ستة عشر وله خمسة مضافر وعليها زجاج عراقي بديع النقش أحدها في وسط السقف ومع كل ركن مضوي والواحد منها لا يظهر لأنه تحت القبو المذكور بعد وبين الأعمدة أكواس من الفضة عددها ثلاثة عشر وإحداها من ذهب وأول ما يلقى الداخل على الباب عن يساره الركن الذي خارجه الحجر الأسود وفيه صندوقان فيهما مصاحف وقد علاهما في الركن بويبان من فضة كأنهما طاقان ملصقان بزاوية الركن وبينهما وبين الأرض أزيد من قامة وفي الركن الذي يليه ، وهو اليماني كذلك لكنهما انقلعا وبقي العود الذي كانا ملصقين عليه وفي الركن الشامي كذلك وهما باقيان وفي جهة الركن العراقي كذلك وعن يمينه الركن العراقي وفيه باب يسمى بباب الرحمة يصعد منه إلى سطح البيت المكرم وقد قام له قبو فهو متصل بأعلى سطح البيت داخله الأدراج وفي أوله البيت المحتوي على المقام الكريم فنجد للبيت العتيق بسبب هذا القبو خمسة أركان وفي سعة صفحية قامتان وهو محتوي على الركن العراقي بنصفين من كل سطح وثلثا قناة هذا القبو مكسوان بسرق الحرير الملون كأنه قد لف فيه ثم وضع ، وهذا

المقام الكريم الذي داخل هذا القبو هو مقام إبراهيم صلى الله على نبينا وعليه وسلم . انتهى من رحلة ابن جبير .

وصف صاحب كتاب "المحمل والحج" كسوة الكعبة المشرفة

قال صاحب كتاب المحمل والحج المتوفى سنة (١٣٦٢) اثنين وستين وثلاثمائة وألف هجرية في كتابه ما نصه :

هي ثمان ستائر من الحرير الأسود المكتوب بالنسيج في كل مكان منه "لا إله إلا الله محمد رسول الله" دالات بعضها في قلب بعض .

وطول الستارة منها ١٥ متراً ، وكل ستارتين تعلقان على جهة من جهات الكعبة ، فتربطان من أعلاهما في حلقات من الحديد ، ثبتت في سقف الكعبة ثم تربطان إلى بعضهما بواسطة عرى وأزرة ، وتثبتان من أسفل في حلقات وضعت في الشاذروان ، وهكذا كلما وضعت ستارة تثبت في التي بجوارها بواسطة هذه الأزرة حتى إذا انتهت كلها صارت كالقميص المربع الأسود . ثم يوضع على محيط البيت المعظم ، فوق هذه الستائر فيما دون ثلثها الأعلى حزام يسمى "رنكا" مركب من ثماني قطع مصنوعة من المخيش المذهب ، مكتوب فيها بالخط الثلث العربي الجميل آيات قرآنية كتبها مع غيرها من أعمال الكسوة الشريفة المرحوم "عبدالله بك زهدي" في زمن المرحوم "إسماعيل باشا" الخديوي جد حضرة صاحب الجلالة مولانا الملك "فاروق الأول" حفظه الله . انتهى منه .

ثم ذكر صاحب الكتاب المذكور جميع الآيات القرآنية المكتوبة على الكسوة في جميع جهات الكعبة .

الاحتفال بوصول كسوة الكعبة من الآستانة إلى مصر القاهرة

قال صاحب كتاب المحمل والحج نقلاً عن الجبرتي في الجزء الثالث ما نصه : وفي شهر جمادى الثانية من سنة (١٢١٦) ست عشرة ومائتين وألف وصلت كسوة الكعبة من الآستانة إلى مصر فنادوا بمرورها ، فركب الأعيان والمشايخ والأثاير وعثمان كتخدا أمير الحج ، وجميع الجاويشية والعساكر ، والقاضي ونقيب الأشراف ، وأعيان الفقهاء وذهبوا إلى بولاق ، وأحضروها وهم أمامها ، وفردوا

قطع الحزام المصنوعة من المخيش ثلاث قطع والخمسة مطوية، وكذلك البرقع، ومقام الخليل، كل ذلك مصنوع بالمخيش العال، والكتابة غليظة مجوفة متقنة، وباقي الكسوة في سحاحير على الجمال وعليها أغطية جوخ أخضر.

ففرح الناس بها وكان يوماً مشهوداً. وقد استغرقت صناعتها بالقسطنطينية زهاء ٣٠ يوماً وقد وصلت من الآستانة إلى اسكندرية في ١١ يوم فقط. انتهى من الكتاب المذكور.

وصف صاحب كتاب (المحمل والحج) للاحتفال بمرور الكسوة في شوارع القاهرة

قال صاحب كتاب المحمل والحج نقلاً عن الجبرتي ما نصه: وفي ٨ من شوال سنة (١٢١٣) ثلاث عشرة ومائتين وألف نودي في الأسواق بموكب كسوة الكعبة المشرفة من قرا ميدان، والتنبيه باجتماع الوجاقات وأرباب الأثاير وخلافهم على العادة في عمل الموكب، فلما أصبح يوم السبت اجتمع الناس في الأسواق وطريق المرور وجلسوا للفرجة، فمروا بذلك وأمامها الوالي والمحتسب وعليهم القفاطين والبينشات وجميع الأثاير بطبولهم وزمورهم وكاساتهم ثم برطلمين كتخدا، وأمامه نفر لينكجرية من المسلمين نحو ٢٠٠ أو أكثر وعدة كثير من نصارى الأروام بالأسلحة والملازمين بالبراقع وهو لابس فروة عظيمة ثم مواكب القلقان، ثم موكب ناظر الكسوة وهو تابع مصطفى كتخدا الباشا وخلفه النوبة التركية. فكانت هذه الركبة من أغرب المواكب وأعجب العجائب لما اشتملت عليه من اختلاف الأشكال، وتنوع الأمثال واجتماع الملل، وارتفاع السفل، وكثرة الحشرات، وعجائب المخلوقات واجتماع الأضداد، ومخالفة الوضع المعتاد. انتهى من الكتاب المذكور.

وصف صاحب كتاب (مرآة الحرمين) للاحتفال بالكسوة في شوارع القاهرة

جاء في مرآة الحرمين وصف الاحتفال بمصر عند نقل كسوة الكعبة المعظمة من مصنعها بالخُرُنْفُشْ إلى ميدان القلعة فمسجد سيدنا الحسين ، ونحن نأتي به هنا للذكرى التاريخية - فقد جاء فيه ما نصه :

في شهر ذي القعدة من كل سنة كانت تتفق نظارة الداخلية مع نظارة المالية على اليوم الذي يحتفل فيه بنقل الكسوة من ميدان محمد علي بعد أن تنقل إليه من مصنعها بالخرنفش إلى المسجد الحسيني ويصدق الخديوي على ذلك اليوم ويصدر الأمر من رئيس مجلس النظار بتعطيل مصالح الحكومة ودواوينها فيه وينشر ذلك بالجريدة الرسمية وتتناقله الجرائد وتخبر نظارة الداخلية نظارة الحربية ومحافظة العاصمة بذلك ليكون الضباط والجند ورجال الشرطة على استعداد تام للاحتفال بالكسوة في ذلك اليوم ، وترسل المحافظة إلى العلماء والأعيان وكبار التجار تذاكر الدعوة لحضور الاحتفال الذي يكون في الغالب من الساعة التاسعة صباحاً إفرنجي. وفي سنة (١٣٢٢) اثنتين وعشرين وثلاثمائة وألف ، تأخر إلى الساعة العاشرة لرغبة سمو الخديوي في ذلك ، وقبل أن يحين الموعد بساعة يصطف الجنود بميدان القلعة تجاه المصطبة التي هنالك حاملين أسلحتهم ويتوافد المدعوون ويستقبلهم هنالك وكيل المحافظة ومندوبوها ويجلسون كل في مجلسه فالعلماء في الميمنة وخلفهم الأعيان والتجار والمندوب العثماني وحضرات النظار والأمراء "البرنسات" وكبار الموظفين بالديوان الخديوي وقتئذ وفي الميسرة خلفهم كبار العسكريين والملكيين والكل مرتد لباس التشريفة الكبرى "يتركب من بنطلون" أسود ذي شريط مقصب وسترة سوداء موشاة بالقصب وسيف له علاقة وحزام قصبي وقفاز أبيض وفي الصدر الأوسمة "النياشين" المختلفة هذا لباس الملكيين أما العسكريون فيلبسون لباسهم المعروف وفي الساعة المحددة يحضر سمو الخديوي في عربة يجرها أربعة جياد على يساره رئيس النظار وأمامه اثنان من أقدم النظار وخلف عربيته عربات نقل مأمورية الياوران وكبار رجال المعية ويحيط به فرسان الحرس الذين يبلغون (١٤٨) .

معظمهم عسكر وقليل منهم صف ضباط وبينهم أربعة ضباط واحد منهم عن يمين العربة وآخر عن يسارها وثالث أمامها يتقدمه "جاويش" فقسم من الحرس ورابع خلف العربة يقود القسم الأكبر من الحرس وحينما ينزل سمو الخديوي من العربة تحييه القوة العسكرية ويطلق رجال المدفعية - الطوبجية - ٢١ مدفعا وتصدح الموسيقى بالسلام المعتاد والخديوي متجه نحو العسكر يحيط به النظارة ورجال المعية رافعاً يديه بالتحية ثم يجلس وسط مكان الاستقبال ويحيّي الحاضرين وبعد دقائق يأخذ مأمور تشغيل الكسوة بزمام الجمل الذي عليه المحمل ويدور به ثلاث دورات ثم يتجه إلى مكان الاستقبال فيقوم سمو الخديوي من مجلسه وينزل إلى السلم الأول من المصطبة والناس محتشدون حوله وإذ ذاك يتقدم إليه مأمور الكسوة بكيس مفتاح الكعبة وقد بسطه على كفيه فيتناوله سموه ويقبله ويتلوه فضيلة قاضي مصر وإذ ذاك يدعو الشيخ السنباطي دعاء المحمل ومقدم هدايا الكسى إلى أربابها دعوات خيرية وجيزة ثم يسير المأمور بعض خطوات والكيس على يديه ثم يعتلي جواده ويسير من خلفه المحمل على جمله فكسوة الكعبة وكسوة مقام سيدنا إبراهيم الخليل قد بسطت كل قطعة منهما على أنصاف دوائر حديدية ركبت في قائمين من الخشب يحمل كل قائمين جملة من الخفراء ويمرون بين يدي الخديوي ويذهبون بها إلى المسجد الحسين مخترقين شارع محمد علي فوق السلاح فالدرب الأحمر فباب زويلة المعروف ببوابة المتولي فالغورية فالسكة الجديدة ويصاحب الكسوة "أورطة" من الرجال ليحفظوا النظام ويمنعوا الناس من التزاحم عليها مع رجال الشرطة الذين ينتشرون في طول الطريق ولا تبرح (الأورطة) مكانها أمام المسجد الحسين حتى تدخل الكسوة جميعها إليه . وبعد أن تمر الكسوة بين يدي الخديوي بميدان محمد علي يستعرض سعادة "السردار" أو نائبه الجيش ويمر من أمام سموه الفرسان فالمدفعية فالرجالة فالقسم الطبي وبعد المرور يثني على الجيش ونظامه ويؤمر بتبليغ ذلك إلى الضباط والعساكر ثم يصافح "السردار" وقاضي مصر وأكابر الحاضرين ثم يركب عربته إلى قصر عابدين ماراً بالصليبة فالخضيري فميدان السيدة زينب فشارع الدواوين فشارع الشيخ عبدالله وعند تحرك العربة يضرب ٢١ مدفعاً تحية وإيذاناً بانتهاء الحفلة وإذ ذاك ينصرف الحضور .

ويحضر هذا الاحتفال أمير الحج وأمين الصرة مشاهدين فقط ويتوجهان بعد الاحتفال إلى المسجد الحسين ليستقبلا الكسوة هنالك وبعد أن تدخل يزوران قبر الحسين، معهما السدنة ورئيسهم ثم يشربان القهوة في حجرة الرئيس وينصرفان .

الكسوة بالمسجد الحسين : تبقى الكسوة بالمسجد حوالي نصف شهر في خلاله يخاط بعض قطعها ببعضها لأنها تصنع قطعاً كثيرة ويحضر كثير من سكان القاهرة ليتبركوا بها ويرى نفسه سعيداً من يخيط جزءاً منها ويتسابق الناس في تقديم النذور والعطايا إلى المنوطين بخياطتها وقد سمعت أنه لا يسمح لبعض المتبركين بمس الكسوة إلا نظير جعل يدفعونه "كل ذلك كان سيئه عند ربك مكروهاً" .

الإشهاد بتسليم الكسوة : في شهر ذي القعدة يرسل ناظر المالية إلى قاضي مصر كتاباً رسمياً يطلب فيه إليه انتداب قاض وكاتبين لتحرير إشهاد بتسليم الكسوة في وقت يعينه الناظر وكذلك يكتب ناظر المالية إلى الأمير والأمين ليحضرا إلى المسجد الحسين ويشهدا تحرير الإشهاد في الموعد المضروب وساعة اجتماعهم يكتب إشهاد بتسليم الكسوة إلى المحمل الذي يتسلمها بالفعل وتوضع في صناديق أعدت لذلك ومن وقت أن يتسلمها تكون في عهدته إلى أن يسلمها بمكة إلى الشيخ الشيبي أمين مفتاح الكعبة ويأخذ منه صكاً بالتسليم . وقد قدمنا لك في مبتدأ الرحلة الأولى صورة الإشهاد في صحيفة ٦ .

إشهاد تسليم الصرة : وبمثل هذه الطريقة يكتب إشهاد شرعي بتسليم الصرة إلى أمينها يحرر بحجرة ناظر المالية بحضره الأمير والأمين وصراف الصرة وكاتبها الأول واثنان من موظفي الوزارة .

إعداد قطر السكة الحديدة للمحمل وركبه وأمتعته :

قبل السفر بمدة ترسل مصلحة السكة الحديدية إلى أمير الحج بواسطة الداخلية ليحدد ساعة يحضر فيها إلى المصلحة ليبين ما يلزمه من العربات ويحدد المواعيد التي تقوم فيها القطارات حتى يكون كل ذلك مهيأ وقت السفر . والذي يلزم المحمل وركبه قطاران يوضع في إحداهما الأمتعة والحيوانات والخدم ويسافر في الأكثر عند تمام الساعة الثانية عشرة ليلاً ويصل إلى السويس بعد (٩) ساعات . ويقل الثاني المحمل وموظفيه والحجاج ويقوم عادة في مشرق الشمس أو قبل ذلك حسبما يسمح به نظام سير القطارات ويصل السويس في (٦) ساعات و١٥ دقيقة

وهذان القطاران يحضران إلى العباسية قبل السفر بيوم ويقفان بين الخمس السرايات ، وثكنة رجال المدفعية الآن ثكنة الفرسان الإنجليز ورجال مدفعيتهم ، وكانت الأمتعة كلها توضع في القطارين من محطة العباسية ولكن وردت مكاتبة من جيش الاحتلال إلى محافظة مصر بأن الأهالي يحدثون ضوضاء وجلبة عند وضع الأمتعة بالقطارين ويتفوطون هنالك وطلبوا اختيار مكان آخر تشحن فيه القطارات فأجيبوا إلى ما رغبوا وصارت أمتعة الموظفين والخدم السائرين والمحمل يشحن بها القطار في محطة مصر . أما أمتعة العسكر ففي العباسية ثم إن السكة الحديدية عملت بعد ذلك رصيفاً أمام الثكنة - القشلاق - الحمراء ، بالعباسية ينزل منه المحمل وركبه من ملكيين وعسكريين فقطعت شكوى المحتلين وأراحت الناس .

الاحتفال بخروج المحمل وسفره :

يعين أمير الحج يوم الاحتفال بسفر المحمل وتصدق على ذلك المعية السنية وتخبر نظارة الداخلية نظارتي المالية والحربية والمحافظة باليوم المعين ليستعد الشرطة والجند كما سبق وفي هذا اليوم تعطل مصالح الحكومة ودواوينها .

والشوارع التي يمر منها المحمل والكسوة تكون حافلة بالمشاهدين وكذلك الشرفات والرواش وظهور المنازل وتسمع منهم الدعوات إلى الله أن يسهل لهم تأدية الحج وزيارة النبي ﷺ .

وقد جرت العادة أنه بعد تعيين أمير الحج وأمين الصرة تحتفل طوائف الضوئية ، والعكّامية ، والفراشين والسقايين ، وتحضر كل طائفة ومعها رئيسها إلى منزل أمين الصرة بالحال التي سيأتي بيانها . انتهى كل ذلك من كتاب مرآة الحرمين .

نقول : قوله هنا " بالحال سيأتي بيانها " لم نر نقل البيان الذي ذكره صاحب الكتاب المذكور بعد الكلام المتقدم خوفاً من التطويل .

الاحتفال بدخول كسوة الكعبة إلى مكة المشرفة

ذكر الغازي في تاريخه نقلاً عن كتاب "الإتمام على أعلام الأنام بتاريخ بيت الله الحرام" للشيخ حسن الشيبي ما نصه : أما احتفال كسوة الكعبة المعظمة فإنه

يجري بمصر عند تمام شغل الكسوة فتنقل أولاً بالاحتفال من محل شغلها إلى جامع سيدنا الحسين بن علي رضي الله عنه ثم تنقل ثانياً بالاحتفال من الجامع المذكور إلى محل تبريز جيش المحمل المصري حين السفر إلى الحجاز .

وأما في مكة المكرمة : فما كانوا يجرون لها احتفالاً رسمياً إلى سنة إعلان الدستور في الحكومة العثمانية وفي سنة إعلان الدستور أمر خديوي مصر عباس حلمي باشا بأن يجري لها احتفال رسمي عند دخولها في مكة المكرمة فمن سنتها عندما يدخل المحمل مكة المكرمة تدخل الكسوة معه باحتفال المحمل إلى أن تصل للتكية المصرية فيدخلونها هناك ويبقى المحمل في محله بعد أن يخلعوا ثيابه الرسمية والجيش يذهب إلى خيامه خارج البلد في حارة جرول وفي اليوم الثاني من الصباح يأتي أمير الحج المصري وأمير الجيش وأمين الصرة المصرية ومعهم جيوش المحمل خيالة ومشاة معهم الموسيقة العسكرية والبلدية يصدحان إلى التكية المصرية ويأخذون ثوب الكعبة المشرفة ويحملونه بصناديقه المحترمة بالتكبير والتهليل والاحترام ويصطف العساكر المشار إليهم خلفه وأمامه وكذا معهم من طرف الحكومة السنية طائفة من البوليس والجاندرمة والموسيقتان المذكورتان إلى أن يوصلوه إلى بيت صاحب المفتاح الشيبي شيخ السدنة فيتقابلهم الفاتحون مع شيخهم ويتسلمونها منهم ويجلسون أمير الحج المصري وأمين الصرة المصرية وسائر مأموري جيش المحمل المصري بالألبسة الرسمية في بيت مفتاح الكعبة المشرفة عند شيخ السدنة الفاتحين ويقدم لهم الشرابات ثم تتلى الدعوات الشريفة لمقام الخلافة العظمى ثم يقرأون الفاتحة وبه تختم المراسم المعتادة . انتهى من تاريخ الغازي .

(الكسوة الداخلية للكعبة المشرفة)

بحمد الله تعالى قد استوفينا الكلام على الكسوة الخارجية للكعبة ، وهذا مبحث خاص نعقده للكسوة الداخلية لها وهذه لا تكون إلا نادراً لذلك جعلناها في مبحث مستقل ، بخلاف الكسوة الخارجية فإنها تكون في كل عام مرة ، بل كانت في حدود القرن الثاني وما بعده من الإسلام توضع على الكعبة في العام مرتين أو ثلاثة وسبب ذلك : أن الكسوة الخارجية معرضة للتلف السريع لخفة القماش في تلك الأزمان وعدم متانته وثخانته ، كما تؤثر فيه الشمس والمطر

والغبار والهواء، فإن الكعبة المشرفة في وسط المسجد الحرام تحت السماء لا يحجبها شيء ولا يقع ظل شيء عليها .

أما الستارة الداخلية فهي محفوظة داخل الكعبة في حرز مكين لا يصل إليها الغبار ولا التراب ولا المطر ولا الشمس، فهي إن ذابت وهمدت فإنما ذلك من مفعول مرور الزمن عليها . لهذا لا تحتاج الكسوة الداخلية إلى استبدالها في كل عام فتكسى بها الكعبة من الداخل كل عدة أعوام مرة لسبب من الأسباب، وقد كان كل سلطان من سلاطين آل عثمان رحمهم الله تعالى يأمر بالكسوة الداخلية للكعبة المشرفة في عام توليه الملك وجلوسه على تخت السلطنة وكانت تحاك هذه الكسوة الداخلية في استانبول منذ أمر بذلك السلطان أحمد خان بن السلطان محمد الرابع وذلك سنة (١١١٨) ألف ومائة وثمان عشرة إلى زمن السلطان عبدالعزيز خان ابن السلطان محمود الثاني حيث انقطعت الدولة العثمانية عن إرسالها وبقيت داخل الكعبة الكسوة التي أرسلها السلطان عبدالعزيز المذكور في عام توليه الملك وهو عام (١٢٧٧) إلى سنة (١٣٦٣) ثلاث وستين وثلاثمائة وألف هجرية، ثم رفعت هذه الكسوة البالية عند وضع الكسوة الداخلية التي أمر بعملها الملك عبدالعزيز آل السعود رحمه الله تعالى ووضعها في الكعبة في السنة المذكورة . ولم نقف على سبب تأخر الأتراك عن إحضار الكسوة الداخلية للكعبة نحو مائة عام، مع أن بين هذا السلطان وبين خروج الحجاز من أيدي الأتراك سنة (١٣٣٤) نحو أربعة سلاطين أو خمسة وهذه الكسوة الداخلية التي أرسلها السلطان عبدالعزيز المذكور كانت حمراء ولم نعلم عن سبب اختيارهم لهذا اللون، لكن المعقول أن يكون لون الكسوة الداخلية لوناً مفرحاً فاتحاً لا غميقاً قاتماً لأن الكعبة لا نافذة فيها ولا فتحات غير الباب فيلزم أن تكون ستارتها الداخلية بلون يضيء داخلها نوعاً ما كالأحمر الوردي والأصفر الفاقع والبنفسج السماوي .

قال في الرحلة الحجازية : يغطي سقف الكعبة وحوائطها من الداخل كسوة من الحرير الوردي عليها مربعات مكتوب فيها "الله جل جلاله" قد أهداها إليها السلطان عبدالعزيز . اهـ .

قال الغازي في تاريخه نقلاً عن كتاب "الفتوحات الكوازية" : كان وصول هذه الكسوة لمكة سنة ألف ومائتين وتسعين وبعدما كسيت هذه الكسوة أرسلوا الكسوة القديمة الداخلية إلى الآستانة . ثم قال الغازي : قال الشيخ عبدالله أفندي

باشا أعيان زاده في رحلته المسماة "بالفتوحات الكوازية في السياحة إلى الأراضي الحجازية" : بلغنا في منى يوم الأربعاء عاشر ذي الحجة سنة (١٢٩٠) تسعين ومائتين وألف أن الكعبة المعظمة كسيت ظاهراً وباطناً ومن المعلوم أن كسوتها الظاهرة في كل عام تجدد وأما الكسوة الداخلية فهي من عهد المرحوم السلطان الغازي عبدالمجيد خان وقد جددها هذه السنة مولانا السلطان عبدالعزيز خان ، وفي عصر يوم الخميس سلخ محرم ١٢٩١ وصلت في جدة الكسوة القديمة التي كانت داخل الكعبة في عهد المرحوم السلطان عبدالمجيد خان فلما سمع بقدومها قائم مقام جدة الأفخم علي بك لبس ثيابه الرسمية هو وقاضي جدة وكبار الضباط والمحافظين والمأمورين المخصوصين وجملة من العسكر وخطباء جدة وأئمتها ووجوهها وتجارها ومعهم البيارق والأعلام والدفوف وصدحت الموسيقى واصطفت العساكر صفوفاً فأدخلوها بغاية التبجيل والاحترام وهم يتلون الصلاة على خير الأنام والقائم مقام الأفخم ماسك بيده زمام الجمل الحامل كسوة بيت الله الحرام حتى أدخلوها في الزورق وتوجه القائم مقام معها والقاضي وجملة من المأمورين المعتبرين فكانوا أربعة زوارق ومضوا بها إلى المركب الذي هو من مراكب النمسا يتوجهون بها لدار السلطنة السنية . انتهى من الغازي .

ولا يخفى على القارئ أن هذه الرواية فيها اختلاف ظاهر فهي تقول أن الكعبة كسيت ظاهراً وباطناً سنة ١٢٩٠ وذلك بأمر السلطان عبد العزيز خان والتي كانت قبلها هي كسوة السلطان عبدالمجيد خان ، ونحن نقول الأصح ما رويناه من أن السلطان عبدالعزيز خان هو الذي أرسل الكسوة الداخلية للكعبة عام ١٢٧٧ وهو عام جلوسه على سرير الملك وتخت السلطنة وهي الكسوة الموجودة بداخل الكعبة إلى يومنا هذا ، أما السلطان عبدالمجيد خان فعلى حسب عادة السلاطين العثمانيين فقد أرسل الكسوة الداخلية عام توليه الملك سنة ١٢٥٥ فلما توفي تولى بعده السلطان عبدالعزيز في العام المذكور . والظاهر أن مؤلف الفتوحات الكوازية لم يستوثق مما بلغه .

ولإتمام هذا المبحث نقول : إن صاحب كتاب تاريخ الكعبة قال فيه عن الكسوة الداخلية ما خلاصته نقلاً عن التقي الفاسي : أرسل السلطان حسن كسوة داخلية للكعبة في سنة (٧٦١) إحدى وستين وسبعمائة قال : وبلغني أنه كان في جوف الكعبة قبلها كسوة للملك المظفر صاحب اليمن ، والملك المظفر أول من

كسى الكعبة من الملوك بعد انقضاء دولة بني العباس من بغداد سنة (٦٥٩) واستمر يكسوها عدة سنين مع ملوك مصر وانفرد بكسوتها في بعض السنين وكان المتولي لذلك غالباً . انتهى .

وجاء في كتاب "المحمل والحج" ما خلاصته :

وفي سنة ٨٢٦ جدد الأشرف "برسباي" الكسوة الحمراء داخل الكعبة الشريفة ، وأزال الكسوة القديمة وكانت للناصر حسن بن محمد بن قلاوون . وفي سنة ٨٤٨ وصل مع الركب المصري رسول سلطان العجم "شاه رخ مرزاي" بكسوة داخلية للكعبة فكسيت بها يوم عيد الأضحى .

وفي سنة ٨٥٦ كسى الملك الظاهر "جقمق" الكعبة كسوة داخلية وأمر بإخراج ما في داخلها من كسوة الأشرف "برسباي" وكسوة سلطان العجم "شاه رخ مرزاي" . انتهى ملخصاً من الكتاب المذكور .

وفي تاريخ مكة للسباعي بصحيفة ٢٣١ أن السلطان قايتباي كسا الكعبة من الداخل في عام (٨٨٣) من الهجرة .

نقول : وبعد هذا التاريخ صار سلاطين آل عثمان رحمهم الله تعالى يرسل كل منهم كسوة داخلية للكعبة من الآستانة في أول جلوسه على تخت السلطنة والملك كما ذكرنا ذلك في أول هذا الفصل .

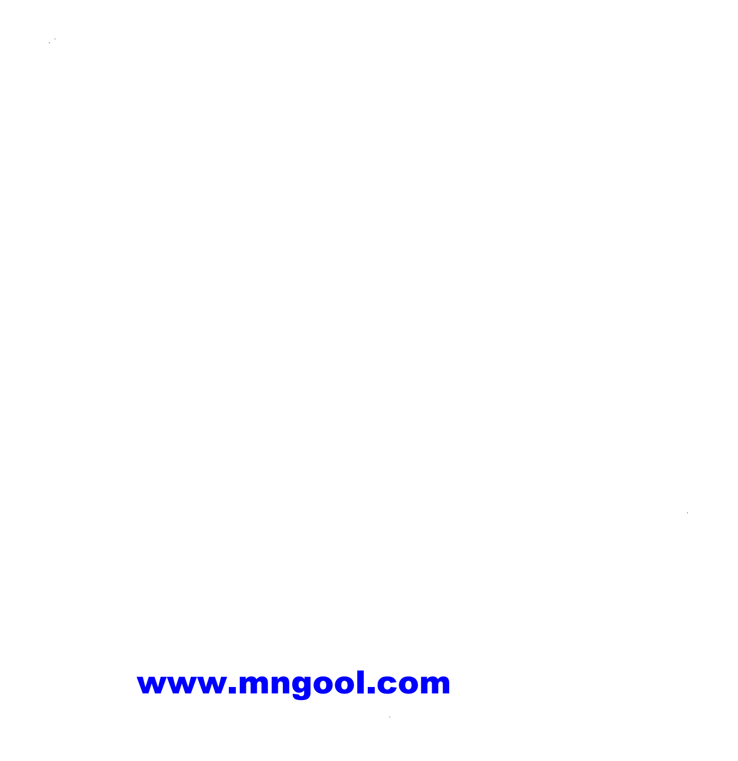
ثم بعد زوال حكم آل عثمان الأتراك عن الحجاز والبلاد العربية سنة (١٣٣٤) هجرية ، لم يرسل أحد من ملوك المسلمين كسوة داخلية للكعبة المشرفة .

انظر: صورة رقم ١٠٠ ، الكعبة من الداخل وعليها كسوتها الحمراء المهداة من السلطان عبدالعزيز خان العثماني

انتهى بعون الله تعالى الجزء الثالث

ويتلوه الجزء الرابع ، وأوله :

الآيات المكتوبة على حزام الكعبة المشرفة



المحتويات

الموضوع	رقم الصفحة
عمارات حجر إسماعيل	٥
الرخامة الخضراء التي بالحجر	٨
نقش أرضية حجر إسماعيل	١١
الكتابة التي في أعلى جدار الحجر	١٣
الحطيم وحجر إسماعيل وما كتب عليه	١٥
بيان جبهة بيت المقدس	١٦
الرخامات الصفر التي على الشاذروان	١٧
البناية الخامسة والسادسة: بناء جرهم والعمالقة الكعبة	١٨
الكعبة في عهد خزاعة	١٩
البناية السابعة: بناء قصي بن كلاب الكعبة	٢٠
ترجمة قصي بن كلاب	٢١
البناية الثامنة : بناء قريش الكعبة	٢٤
وضع رسول الله ﷺ الحجر الأسود بيده في محلة الكعبة	٣٣
الخلاصة في كيفية بناء قريش	٣٨
مميزات بناء قريش	٣٩
ترجمة الوليد بن المغيرة المخزومي	٤١
ترجمة قريش	٤٣
ترجمة باقوم الرومي	٤٤
البناية التاسعة: بناء عبدالله بن الزبير الكعبة	٥٤
حرب ابن الزبير رضي الله عنه	٥٤
حرب ابن الزبير وقتله	٥٥
الحرب بالمنجنيق	٥٧
الحرب بالدبابات	٥٨
بناء ابن الزبير الكعبة	٥٨
بكاء عبدالله بن عمرو بن العاص على احتراق الكعبة	٦٣

الموضوع	رقم الصفحة
سبب بناء ابن الزبير الكعبة على قواعد إبراهيم	٧١
ما جاء في صحيح مسلم عن بناء ابن الزبير والحجاج الكعبة	٧٢
ابتداء هدم الكعبة وانتهاء بنائها في عهد ابن الزبير	٧٤
باب الكعبة الغربي	٧٤
حكم استقبال القبلة عند هدم الكعبة المشرفة	٧٨
الخلاصة في كيفية بناء ابن الزبير	٧٩
مميزات بناء ابن الزبير	٨١
أنين الكعبة من ضرب المنجنيق	٨٢
ترجمة عبدا لله بن الزبير رضي ا لله عنهما	٩٣
اختلاف العلماء في بعض المسائل الدينية	١٠٢
اختلاف الناس في بعض الأمور الحيوية	١٠٥
الاختلاف في استعمال السكة الحديدية	١٠٦
الاختلاف في استعمال البخار في الأسطول	١٠٦
الاختلاف في استعمال التلغفة وأنابيب الماء وتشييد المنازل العالية	١٠٧
الاختلاف في استعمال الشوكة والسكين في الأكل	١٠٧
الاختلاف في لبس البنطلونات	١٠٨
الاختلاف في استعمال النظارات	١٠٨
الاختلاف في استعمال أحواض الاغتسال	١٠٨
الاختلاف في استعمال المطابع	١٠٩
الاختلاف في أكل الملح والموز والبطاطس والطماطم	١٠٩
الاختلاف في قبول البنات في المدارس	١١٠
الاختلاف في استعمال الكهرباء	١١٠
الاختلاف في استعمال السيارات والعربات	١١٠
الاختلاف في استعمال الشمسية	١١١
الاختلاف في استعمال الصابون	١١١
الاختلاف في بناء برج إيفل بباريس	١١٢
الاختلاف في الانتقال من الأحياء القديمة	١١٢

الموضوع	رقم الصفحة
الاختلاف في تعليم البنات	١١٣
البناية العاشرة: بناء الحجاج الثقفي الكعبة	١١٤
سبب بناء الحجاج الكعبة	١١٤
الخلاصة في كيفية بناء الحجاج الثقفي	١١٦
ما كان من العمارة في الجدار الذي بناه الحجاج	١١٧
وجوب الطواف من وراء جدار الحجر	١١٧
مميزات بناء الحجاج	١١٨
ترجمة الحجاج بن يوسف الثقفي	١١٨
حكاية الحجاج مع الأعرابي	١٢١
نقل الحجاج إلى العراق	١٢١
حكاية الحجاج مع الغضبان	١٢٣
البناية الحادية عشرة: بناء السلطان مراد الرابع الكعبة	١٢٦
الخلاصة في كيفية بناء السلطان مراد الرابع	١٢٦
مميزات بناء السلطان مراد	١٢٧
التفصيلات الوافية عن بناء السلطان مراد الرابع للكعبة	١٢٨
حزام الكعبة الذي أرسله السلطان أحمد خان	١٣١
صورة الاستفتاء الذي قدمه رضوان آغا لعلماء مكة الأعلام	١٣٥
جواب الشيخ أحمد بن محمد آق شمس الدين المدرس الحنفي	١٣٥
جواب الشيخ خالد بن أحمد المالكي	١٣٥
جواب السيد زين العابدين بن عبدالقادر الطبري الشافعي	١٣٦
صورة الاستفتاء الذي قدمه رضوان آغا لعلماء مكة	١٣٧
جواب الشيخ خالد بن أحمد المالكي	١٣٨
جواب الشيخ عبدالعزيز بن محمد الزمزمي الشافعي	١٣٨
جواب الشيخ أحمد بن محمد آق المدرس	١٣٩
جواب الشيخ عبدالله بن أبي بكر بن ظهيرة القرشي	١٤٠
عدد حجارات الكعبة الظاهرة في هذا البناء	١٧٦
قوة بناية السلطان مراد الرابع للكعبة	١٧٨
ترجمة السلطان مراد الرابع	١٧٩

الموضوع	رقم الصفحة
بيان بأسماء السلاطين من آل عثمان الذين قاموا بتعمير الحرمين الشريفين	١٨١
رفع الراية على قلاع الحرمين	١٨٢
الزمن الذي بين بنايات الكعبة	١٨٣
الجبال التي أخذت منها الحجارة لبناء الكعبة	١٨٤
بقاء الكعبة إلى قيام الساعة	١٨٧
الحجارات الرخام المكتوبة داخل الكعبة	١٩٠
الكتابة الموجودة على عقد باب الكعبة	١٩٥
تحلية الكعبة	١٩٦
الكراسي التي كانت موجودة في الكعبة	٢٠١
الكعبة المشرفة وهندستها	٢٠٣
اختلاف بنايات الكعبة وتعميرها	٢٠٧
صفة أشهر بنايات الكعبة المعظمة	٢١١
كيفية بناء قريش	٢١٣
كيفية بناء ابن الزبير	٢١٤
كيفية بناء الحجاج الثقفي	٢١٦
سبب بناء الحجاج الكعبة	٢١٧
كيفية عمارة السلطان مراد الرابع	٢١٨
منظومة في صفة أشهر بنايات الكعبة	٢٢٢
الحجر الأسود	٢٣٦
أصل الحجر الأسود من الجنة	٢٣٨
لون الحجر الأسود	٢٤٣
علة تسمية الركن بالحجر الأسود	٢٤٦
تقبيل الأيدي عند استلام الركن	٢٤٦
بقاء الحجر الأسود إلى يوم القيامة	٢٤٨
الرد على من يقول بأن الحجر الأسود من النيازك	٢٤٩
الزحام على تقبيل الحجر الأسود	٢٥٣
الترغيب في استلام الركنين	٢٥٥

الموضوع	رقم الصفحة
ما يقال عند استلام الحجر الأسود	٢٥٧
فضل الملتزم والدعاء فيه	٢٦٠
الحوادث التي مرت على الحجر الأسود	٢٦١
الرد على من يقول أن القرامطة استبدلوا الحجر الأسود	٢٦٦
أصل القرامطة ومذهبهم	٢٧٠
المقالة في أصل هذه الدعوة الملعونة ومبدئها	٢٨١
وضع الأطواق على الحجر الأسود	٢٨٤
تطويق الحجر الأسود بالذهب والفضة	٢٨٦
المحافظة التامة على قطع الحجر الأسود إن كسر منه شيء	٢٨٨
شاذَروان الكعبة	٢٨٨
حكم الشاذروان بالنسبة للطواف	٢٩٣
عدد مرات بناء الشاذروان وإصلاحه	٢٩٥
مقاس الشاذروان وعدد حجارته وعدد الحلقات به	٢٩٦
الرخامات الصفر التي بالشذروان	٢٩٨
منظومة السيوطي في موافقات عمر رضي الله عنه	٣٠٤
ذرع ما بين مقام إبراهيم وبين الكعبة وما حولها	٣٠٥
صفة المقام	٣٠٦
وصفنا لمقام إبراهيم	٣٠٨
موضع المقام	٣١٣
أرجح الأقوال في موضع المقام	٣١٥
ما ورد في كتاب شفاء الغرام عن موضع المقام في الجاهلية والإسلام	٣١٧
وضع المقام في مكانه الحالي	٣٢٢
ترجمة عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه	٣٢٣
فضل عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه	٣٢٦
عمر بن الخطاب وبعض أعماله	٣٢٨
قتل عمر رضي الله عنه وما قاله عند موته	٣٢٩
ترجمة للمطلب بن أبي وداعة السهمي رضي الله تعالى عنه	٣٣٢

الموضوع	رقم الصفحة
اهتمام عمر رضي الله عنه بأمر المقام	٣٣٣
ترجمة عبدالله بن السائب العابدي رضي الله عنه	٣٣٧
ذرع مقام إبراهيم	٣٣٩
الذهب الذي على مقام إبراهيم	٣٤٠
تطويق المقام بالذهب والفضة	٣٤٠
ما ذكره إبراهيم رفعت باشا في كتابه مرآة الحرمين عن مقام إبراهيم	٣٤١
الأحجار الأثرية المفروشة خلف مقام إبراهيم عليه الصلاة والسلام	٣٤٤
التحقيق التام عن موضع المقام	٣٤٥
كسوة المقام	٣٥١
الكسوة العراقية للكعبة	٣٥٢
وجوب صون المقام	٣٥٣
وضع المقام في مقصورة	٣٥٣
فوائد وضع المقام في مقصورة	٣٥٦
الرد على من يقول : أن المقام كان مدفوناً	٣٥٧
اقتراح المؤلف في مقام إبراهيم عليه الصلاة والسلام	٣٥٨
الأحجار الثلاثة التي صارت معجزة لرسل الله الثلاثة	٣٥٩
أول تفكير في تاريخ الإسلام لنقل مقام إبراهيم	٣٦٢
وضع زجاج على مقام إبراهيم عليه الصلاة والسلام	٣٦٤
تجديد مقصورة مقام إبراهيم عليه الصلاة والسلام	٣٦٧
المصلّى الجديد بالمسجد الحرام	٣٧٩
قدم أبينا آدم عليه السلام	٣٨٠
أقدام إدريس وعيسى عليهما الصلاة والسلام	٣٨٢
تغيير سقف الكعبة وترميمها في العهد السعودي	٣٨٣
خلاصة الأمر الملكي للإصلاح	٣٨٤
الأخذ في الأسباب لإصلاح الكعبة	٣٨٤
فتح الكعبة لأخذ القياسات	٣٨٥

الموضوع	رقم الصفحة
البدء في تجديد السقف الأعلى للكعبة	٣٨٦
استبدال المرابيع الخشبية التي بسطح الكعبة بالحديد	٣٩١
وضع الرخام على سطح الكعبة	٣٩٣
صب الرصاص بين رخام سطح الكعبة	٣٩٣
وضع الرخام في طنف السطح	٣٩٤
إصلاح فتحة باب الدرج الذي بالسطح	٣٩٥
تجديد السقف الثاني للكعبة مما يلي الأرض	٣٩٥
دهن ما بين السقف بالبوية	٣٩٧
تنقيل جدران الكعبة من الخارج	٣٩٧
العمل في داخل الكعبة وترميمها	٣٩٩
حضور جلالة الملك السابق سعود إلى الكعبة المشرفة	٤٠١
إصلاح ميزاب الكعبة	٤٠٤
إصلاح جانبي جدار باب الكعبة وعتبتها	٤٠٦
إصلاح درج الكعبة التي في داخلها	٤٠٦
دهن أعمدة ابن الزبير التي بجوف الكعبة ووصفها	٤٠٧
فرش أرض الكعبة بالرخام	٤٠٩
الانتهاء التام من عمارة الكعبة	٤٠٩
نقل ما في حجر إسماعيل من الأحجار والأتربة والأخشاب	٤١٠
أسماء المشرفين على العمل وحضورهم يومياً في الكعبة	٤١١
العمال الذين اشتغلوا في عمارة الكعبة	٤١٢
كلمة ختام	٤١٣
الإذاعة تودي واجبها من فوق سطح الكعبة المشرفة	٤١٣
الإذاعة السعودية تسأل مؤلف هذا الكتاب	٤١٤
دعاء مؤلف هذا الكتاب المذاع من فوق سطح الكعبة	٤١٦
بعض الآيات والتكبيرات التي أذاعها مؤلف هذا الكتاب	٤٢١
قراءة القرآن والحديث في جوف الكعبة	٤٢٣
مقاييس الكعبة المشرفة	٤٢٦
قياسات الكعبة المعظمة	٤٢٧

الموضوع	رقم الصفحة
مقدار الذراع والميل والفرسخ ونحوها	٤٣٨
سبب تسمية الميل بالميل	٤٣٩
ابتكارات الرسوم الأربع للكعبة	٤٤٠
شكل الكعبة من الخارج والداخل	٤٤١
وصف الكعبة والمسجد الحرام	٤٤٥
قصيدة أمير الشعراء في البيت الحرام	٤٤٧
موضع الحطيم	٤٤٨
موضع خزانة الكعبة	٤٤٩
أركان الكعبة المعظمة	٤٥١
أركان الكعبة الأربعة	٤٥٣
الحفرة التي عند باب الكعبة المشرفة	٤٥٤
سد الحفرة وردمها	٤٦٠
الحجر المكتوب الذي في داخل الحفرة	٤٦١
لماذا لم تكن الكعبة قطعة من الجوهر	٤٦٢
تسمية البيت الحرام بالكعبة	٤٦٣
الشمسيات التي كانت توضع على الكعبة	٤٦٣
هدايا الكعبة ومعاليقها وأموالها	٤٦٨
ما علق من الصحائف في الكعبة	٤٧٧
نص الكتاب الذي كتبه محمد بن أمير المؤمنين هارون الرشيد	٤٨٣
نص الكتاب الذي كتبه عبدالله بن أمير المؤمنين هارون الرشيد	٤٨٦
عقاب المعتدي على مال الكعبة	٤٨٨
حكم التصرف في مال الكعبة	٤٩٠
التعدي على أموال الكعبة وهداياها	٤٩٣
فضل النظر إلى الكعبة	٤٩٧
فضل الطواف بالبيت الحرام	٤٩٨
هيبة الكعبة وما يقال عند النظر إليها	٤٩٩

الموضوع	رقم الصفحة
تعظيم الكعبة في الجاهلية	٥٠٠
تطييب الكعبة	٥٠٨
عدم خلو الكعبة من الطائفين	٥١١
الطواف في الجاهلية	٥١٤
الجلوس في الحجر والمطاف في الجاهلية	٥١٦
استحباب الدخول في الكعبة	٥١٧
فضل دخول الكعبة المعظمة	٥٢٠
آداب دخول الكعبة	٥٢١
الصلاة في داخل الكعبة	٥٢٥
صلاة النبي ﷺ في الكعبة	٥٢٧
عدد دخول النبي ﷺ الكعبة بعد الهجرة	٥٢٩
منع بعض الناس عن دخول الكعبة	٥٣٢
أخذ الأجرة على دخول الكعبة	٥٣٤
المواضع التي صلى فيها رسول الله ﷺ حول الكعبة	٥٣٥
أول من أدار الصفوف حول الكعبة	٥٣٨
مدة صلاة النبي ﷺ إلى بيت المقدس	٥٤٠
أمر الكسوة الخارجية للكعبة المعظمة	٥٤١
القسم الأول: كسوة الكعبة في العصر الجاهلي	٥٤٢
ترجمة تبع وهو أسعد الحميري	٥٤٣
القسم الثاني: كسوة الكعبة في الإسلام	٥٤٩
القسم الثالث: كسوة الكعبة في عصر بني أمية	٥٥١
القسم الرابع: كسوة الكعبة في عصر العباسيين	٥٥٢
القسم الخامس: كسوة الكعبة في عصر المماليك البحرية والشراكسة	٥٥٨
القسم السادس: كسوة الكعبة في عهد الدولة العثمانية	٥٦١
كسوة الشريف الحسين بن علي	٥٦٦
بيان الأيام التي كانت تكسى فيها الكعبة المعظمة	٥٧٠
خاتمة مسألة الكسوة	٥٧١

الموضوع	رقم الصفحة
وصف ابن جبير كسوة الكعبة وعدد قطعها	٥٧٢
وصف صاحب كتاب "المحمل والحج" كسوة الكعبة المشرفة	٥٧٥
الاحتفال بوصول كسوة الكعبة من الآستانة إلى مصر القاهرة	٥٧٥
وصف صاحب كتاب (المحمل والحج) للاحتفال بمرور الكسوة في شوارع القاهرة	٥٧٦
وصف صاحب كتاب (مرآة الحرمين) للاحتفال بالكسوة في شوارع القاهرة	٥٧٧
الاحتفال بدخول كسوة الكعبة إلى مكة المشرفة	٥٨٠
الكسوة الداخلية للكعبة المشرفة	٥٨١